

كلية البنات للآداب والعلوم والتربية

قسم اللغة العربية

قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه

رسالة لنيل درجة الدكتوراة

إعداد الطالب

إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة

تحـت إشــــراف

الأستاذة الدكتورة	**الأستــاذة الـدكتورة**
أميرة أحمد يوسف	**حسنة الزهار**
أستاذ النحو والصرف	**أستاذ علم اللُّغَة**

بسم اللّه الرحمن الرحيم

محتويات الرسالة

الصفحة

المقدمة

الحمد لله كثيرا ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت . اللهم إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يُسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبيِّنا ومصطفانا محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأوَّلين والآخرين ، وصلِّ اللهم عليه في كل وقت وحين .

يُعَدُّ علم النحو من أهم العلوم اللُّغَوِيَّة في العربِيَّة ، فهو عَصَبُها ، وركنها الرَّكين ، وله في خدمة العربِيَّة القِدْحُ المُعَلَّى ، والقدمُ الأولى ، وهو من الفضل عليها بأعلى مناط العِقدِ . وقد كان على مرِّ الأزمان أحد خطوط الدفاع الأولى التي حَمَتِ العربِيَّة ، وحافظت عليها على مدار الأعوام والسنين ؛ فَسَلِمَت الأجيالُ للإعراب ، وتَقَوَّمَت الألسن من هُجْنَة اللحن وخطأ القول . إنَّه العلم الذي زاد عن حياضِ العربية الجهلاءَ أعداءَ اللهِ والدِّين ؛ فكانت به عزيزة الجانب ، منيعة الحَوْزَة حصينة الناحية .

وقد أحببنا علم النحو ، وأحببنا دراسته ، وأخذ الشغفُ به بمجامع قلوبنا ، منذ أَنْ قَدَّرَ الله أَنْ نلتقي بأساتذة أجلَّاء غرسوا فينا هذا الحبَّ ، وكشفوا لنا عن علاقته بكتاب الله وسُنَّةِ نبيِّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وزاد هذا الحبُّ وتعمَّق فينا أكثر وأكثر عندما أوقفنا أسلافُ أُمَّتِنا على فضله ، فقالوا :

- قال الخليل : «النحو للسان بمنزلة الطعام للأبدان »[(١)] .
- وقال الزُّهْرِيُّ : «ما أحدث الناسُ مروءةً أحبَّ إليَّ من طلب النحو »[(٢)] .
- وقال حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ : «من يطلب الحديث ولا يعرف النحو ، مثل الحمار عليه مخلاة ليس فيها شعير »[(٣)] .

---

(١) أبو حيان التوحيدي :البصائر والذخائر،ت : وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، (١٩٨٨م)، ١٢٥/٣

(٢) أبو حيان التوحيدي : البصائر والذخائر ، ١٨٩/٦ ، والزُّهْرِيُّ «٥٨ ـ ١٢٤هـ »هو : محمد بن مسلم بن عبد الله ابن شِهَاب الزهري ، من بني زهرة بن كلاب ، من قريش ، أبو بكر . أول من دوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. تابعي، من أهل المدينة. كان يحفظ ألفين ومئتي حديث، نصفها مسند. ينظر :الزركلي : الأعلام ، ٩٧/٧

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ت : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٣م)، ١١٩٩/٣ وحماد بن سلمة بن دينار البصري الرّبعي بالولاء ، أبو سلمة : مفتي البصرة ، وأحد رجال الحديث ، ومن النُّحَاة. كان حافظا ثقة مأمونا... ونقل الذهبي : كان حماد إماما في العَرَبِيَّة ، فقيها ، فصيحا مفوَّهًا ، شديدًا على المبتدعة ، له تآليف . ينظر : الأعلام : ٢٧٢/٢

- وروي عن الأصمعيِّ أنَّه قال : «أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أَنْ يَدخُلَ في جُمْلَةِ قولِ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ـ : «منْ كذب عليّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار » [(١)] ؛ لأَنَّه [صلى الله عليه وسلم] لم يكن يلحن ، فمهما رَوَيْتَ عنه ولحنت فقد كذبت عليه » [(٢)] .
- ومن نفائس أقوال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ عن هذا العلم الجليل قوله : « من تبحّر في النحو اهتدى إلى جميع العلوم » ، وقوله : « لا أُسْأَلُ عن مسألة في الفقه إلّا أجبت عنها من قواعد النحو » [(٣)] .

ويضيق المقام بتتَبُّع هذه الأقوال ، فهي أكثر من تحصى ، أو يأتي عليها العد . وجميعها توضح أهميَّة هذا العلم الجليل .

وإِبَّانُ الدراسة الجامعية وجَّه نظرَنا أستاذُنا الدكتور كمال بشر إلى علم مُهِمّ من العلوم اللُّغَوِيَّة الحديثة التي تدرس اللُّغَة ، ذاك هو علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ونبَّهنا سيادته إلى أهمِيَّة هذا العلم وأهمِيَّة البعد الاجتماعِيّ والسِّياقي في دراسة اللُّغَة ، وأظهر لنا العلاقة الوثيقة بين المجتمع واللُّغَة ، وأنَّه من الخطأ البَيِّنِ إهمال هذا البعد الاجتماعِيّ في دراسة اللُّغَة .

كان من نتيجة هذه الدراسة لعلم اللُّغَة الاجتماعِيّ مع أستاذنا د . كمال بشر أَنْ وَقَر في الذهن أهمِيَّة هذا الربط ؛ ومدى الفوائد القيِّمة التي تعود على اللُّغَة من ذلك ؛ فتولدت الأمنيةُ والرغبةُ الشديدةُ لدي الباحث في متابعة الدراسة في هذا المجال ، مجال ربط السِّياق بدراسة اللُّغَة وبخاصة قواعدها ؛ وقَطَعَ الباحثُ بينه وبين نفسه العزمَ على المضي قُدُما في استكناه هذه العلاقة ، وأمضى النيَّة أَنْ يكون هذا مجال بحثه .

وسعينا راجين من الله التوفيق . ولما كانت الدوريات والمجلات اللُّغَوِيَّة والأدبيَّة مظانَّ لأفكار كثيرة يكتبها المتخصِّصون في مختلف الفروع اللُّغَوِيَّة فقد اتجه الباحث إلى هذه الدوريَّات ، وبالأخص منها مجلة مجمع اللُّغَة العربِيَّة بالقاهرة ، عساه أَنْ يجد فكرة هنا أو هناك في مقال من مقالاتها القيِّمة ترضي الرغبة في دراسة علاقة السِّياق بالقواعد النحوِيَّة .

---

(١) حديث صحيح ، خرجه الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، برقم : «١٣٨٣» . ينظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف للنشر ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٥م ، ٣٧١/٣ ، وفي كتابه «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان » قال الألباني عن هذا الحديث إِنَّهُ : «صحيح متواتر » . ١٦١/١

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ٢٩/١

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ت : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت ط١، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، ٤٠٧/٢

وكان من فضل الله أَنْ عثرنا على مقال بعنوان «الجملة في كتاب سيبويه » للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، ووقفنا فيها على بعض العبارات المُهِمَّة لسيادته عن كتاب سيبويه قال فيها :

« ... الملاحظات كثيرة جدا في الكتاب ، وهي تخص أحوال الخطاب مقترنا بأحوال المخاطب : علم المخاطب وجهله واستحالة الإخبار عن منكور ، اللهم إلا إذا احتاج المخاطب إلى تحديد هذا المنكور بأنْ يعين حلية خاصة به تميزه عن غيره . ويمكن بالدراسة المتعمقة لهذه الملاحظات أَنْ تُسْتَخرج قوانينُ التخاطب الحقيقيَّة »[١] .

ويشير في موضع ثانٍ من مقالته :

« ...ولا بد أَنْ نُنَبِّه القارئ الكريم أَنَّ مثل هذا الكلام عن «علم المخاطب وسائر أحواله» لا يمكن أَنْ نعثر عليه في كتب الآخرين ؛ فالقواعد الجامدة الخاطئة أحيانا قد حلت محل الملاحظات العلميَّة ، (تكلموا مثلا عن شروط الابتداء بالنكرة فقط وبدون أَنْ يفسروا ظواهر الخطاب بالكيفية العلميَّة الوصفيَّة والتعليليِّة معا) »[٢] .

كانت جملة د . عبد الرحمن الحاج صالح في نصه السابق : «الملاحظات كثيرة جدا في الكتاب ، وهي تخص أحوال الخطاب مقترنا بأحوال المخاطب : علم المخاطب وجهله واستحالة الإخبار عن منكور »باعثة على التفكير والتأَمُّل ، ودفعت في ذهن الباحث بالسؤال الآتي : أليست أحوال الخطاب المقترنة بأحوال المخاطب ـ على حد تعبير د . عبد الرحمن ـ تدلُّ على وقوف سيبويه على علاقة ما بين السِّياق والقاعدة النحوِيَّة التي يقعد لها ؟ والإجابة بعد تحليل عبارة د . عبد الرحمن : بلى ، إنَّ كلامه يشير إلى وجود تلك العلاقة ، ويشير كلامه أيضا أَنَّ النُّحَاة من بعد سيبويه لم يلتفتوا إلى تلك العلاقة .

هنا عثر الباحث على طِلْبَته التي كان يبحث عنها ، ووضع يده على ما يحقق رغبته العلميَّة وبعد تفكير ليس بالطويل ظهر موضوع البحث ، وهو : «قرينة السِّياق ودورها في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ في كتاب سيبويه ».

كان هذا هو الموضوع الذي أَمُلت أَنْ أقع على مثله بحثا ودراسة ، و أَنْ أقضي فيه بعضا من وقتِيّ مشبعا لرغبتي في بحث العلاقة بين السِّياق والقواعد النحوِيَّة .

---

(١) مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة : القاهرة ، ع ٧٨ ، (١٩٩٦م) ، ص ٩٨

(٢) السابق ، ١٠٤

وعند الشروع في الدراسة ، ومرور الوقت ، والتعمُّق في هذا الموضوع ازداد التعلُّق به ، وانكشفت للباحث جوانب مُهِمَّة عن أهمِّيَّته دَلَّت على توفيق الله لنا ـ وله الحمد والشكر ـ في اختياره موضوعا للبحث والدراسة .

ومن جوانب الأهمية التي بدَتْ للباحث قبل الشروع في دراسة الموضوع :

١ـ الحقيقة النحوِيَّة ـ كأَيَّة حقيقة أخرى ـ لها أبعاد مختلفة ، وجوانب متعددة ، منها الجانب الاجتماعِيّ ، وليس من الموضوعية في شيء أَنْ يُنْظَر إلى الصورة من زاوية واحدة وتُتْرَك بقية الزوايا .

٢ـ التعمُّق في هذا الموضوع يضع أيدينا على قوانين التخاطب الحقيقيَّة ، ويُوقِفُنَا على بعض القواعد الجامدة الخاطئة التي حلَّت محل الملحوظات العلمية كما أشار د . عبد الرحمن صالح في مقالته السابقة .

٣ـ أن البحث سيكون مع عَلَم من أعلام النحو العربي وإمام من أئمتهم ، وكتابه «أصل الكتب المُصَنَّفَة في النحو واللغة » كما يقول السيوطي في الاقتراح ، وإثبات وجود علاقة بين السِّياق والقاعدة النحوِيَّة عند هذا العَلَم أمرٌ سيثير سؤلا مهمًّا هو : لماذا لم يهتم النحاة بهذا الجانب الاجتماعي بشكل أوضح في مؤلفاتهم ؟ ولماذا كان الاهتمام منصبًّا على نظرية العامل ؟

٤ـ دراسة هذا الموضوع ستضع أيدينا على كيفية استغلال السياق في الجوانب التعليميَّة والأدبيَّة .

وبعد الاستقرار على عنوان هذا البحث بدأ الباحثُ رحلة القراءة في كتاب سيبويه ، وأخذ الباحث على نفسه أَنْ يُدارس الكتاب في وَنَاءٍ وعلى مَهَلٍ مدارسةً متقنةً جادَّةً غير هازلة ، مشحوذةً بالتنبُّه ، مصقولةً بحسن التمييز والتدبُّر ، قدر استطاعته وقدر ما وسعه الجُهْد . ويعلم الله كم كانت هذه الرحلة وهذه القراءة شاقَّة وعسيرة ، وكم من الصعوبات التي لقيها الباحث في أثناء تتَبُّعه لعبارات الكتاب محاولا فك معاقدها ومطاويها ! وما زال الباحث يذكر كيف كان يقضي سحابة نهاره واقفا أمام نصّ واحد من نصوص الكتاب يحاول فهم ما يريده سيبويه .

لقد حاول الباحث على مُكْثٍ تحليل نصوص الكتاب تحليلا متأنِّيًا ، محاولا أَنْ يسوس عبارات الكتاب حتى تُفضي إليه بذات معناها ، وتمنحه بعض إِتَائِها ، وما تحتقِبُه من دلالات ، لقد قرأ الباحث نصوص الكتاب متأمِّلا ومقلبا لها يمنة ويسرة ؛ فيخرجُ وقد نجح حينا ، أو يخرجُ خاوي الوفاض أحيانا أخرى ، وفي أثناء هذه الوقفات فهم الباحث بشكل أعمق وأثبتَ الأمرَ عن معاينة : لماذا كان العلماء يَعُدُّون من مناقبهم قراءتَهم لكتاب سيبويه ، أو شرحهم له ؟

وبعد قراءتي لكتاب سيبويه أعتقد أَنَّه ما زال ثَرِيًّا بالأفكار ، وأنَّ تلك الأفكار تنتظر من يُخرجها .

- **الدراسات السابقة** :

رُزِق كتاب سيبويه القبول من علماء الأمة وأئِمَّتِها ، فكثرت حوله الدراسات والشروح والأبحاث التي لا يعلم عددها إلا الله ، فهي من الكثرة بحيث تندُّ عن الحصر والإحصاء .

ولعلَّ أقرب الدراسات التي وقعت بين يدي وقريبة من بحثنا الأبحاث التالية :

١ـ عناصر النظَرِيَّة النحوِيَّة في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي ، د . سعيد بحيري ، مكتبة الأنجلو ، ط١ ، ١٩٨٩م

٢ـ التراكيب النحوِيَّة في كتاب سيبويه ، محمد عطية محمد ، رسالة دكتوراة ، دار العلوم ، ٢٠٠٢م .

٣ـ ما خرج عن الفصحى في كتاب سيبويه وعلاقته بالأصول النحوِيَّة ، متولي محمد ، ماجستير دار العلوم ، ٢٠٠١م .

٤ـ المسائل النحوِيَّة والصَّرْفِيَّة التي تحتمل وجهين أو أكثر في كتاب سيبويه : دراسة وتحليل ونقد رشيد بن حويل ، دكتوراة ، دار العلوم ، ٢٠٠٣م .

تلك أهم الدراسات التي وقعت بين يديَّ ، وكما تشير عناوين هذه الأبحاث والرسائل فهي بعيدة بشكل ما عن موضوعنا .

- **منهج البحث في أثناء الدراسة** :

كانت الخطة التي انتهجتها لنفسي في عملي هنا هي أنَّني في أثناء جمع المادة العلميَّة أتَّبِعُ منهجا إِحْصَائِيًّا تجميعيًّا تصنيفيًّا تحليليًّا . فعند قراءتي للكتاب كنت أقف عند النصوص التي ألمح فيها علاقة بموضوع بحثي ، وأحاول جُهْدِي التثبُّتَ من صواب فهمي لهذا النَّصِّ أو ذاك ومدى ارتباطه بالبحث من خلال شرح المحقِّق حينا أو من الشروح التي وضعت للكتاب أحيانًا أخرى . وبعد الانتهاء من تحديد النصوص وإحصائها صنَّفْتُ كلَّ مجموعة نصوص مترابطة ومتشابهة مع بعضها بحسب خطة البحث الموضوعة ، ثُمَّ تحليل نصوص كلِّ مجموعة على حدى لاستخلاص أهم النتائج.

- **خطة البحث** :

تبدأ هذه الرسالة بتمهيد تناولت فيه التعريف بسيبويه : نشأته ، وأسفاره العلميَّة ، ووفاته . والتعريف بكتاب سيبويه ووقت تأليفه ، والقيمة العلميَّة له ، ومنهج سيبويه في هذا الكتاب كما لاحظه العلماءُ السابقون الذين درسوا الكتاب . كما تناول التمهيد أيضا تحديدَ أهمِّ المصطلحات المستخدمة

في البحث : «السِّياق »، و« التَّقْعِيد النَّحْوِيّ »، و«التوجيه النَّحْوِيّ »، و«الأصل »، و«الغالب ، الكثير القليل ، الضعيف ، الشاذ ، الردئ ». كما تناول بالمعالجة والبيان أهمِيَّة اعتبار السِّياق عند التَّقْعِيد لِلُّغَة وأهميته كذلك للتوجيه الإعرابِيّ ، والنصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد عند سيبويه ، والقواعد العلميَّة التي يجب مراعاتها عند القيام بالتَّقْعِيد عامة .

وكان من اللازم ابتداء عند إبراز دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه أَنْ نجيب أولا عن السؤال التالي : « هل كان سيبويه يقوم بتقعيده النَّحْوِيّ وتوجيهه الإعرابِيّ من خلال نصوص مكتوبة أم مسموعة ؟ هل كان يقوم بهاتين العمليتين من خلال المطالعة لدواوين الشعراء وقراءة المصحف مثلا ؟ أم كان يقوم بهاتين العمليتن من خلال السماع ومعايشة الحدث الكلامي نطقا وإنشادا ؟ »، بعبارة أخرى : « ما الظروف والملابسات التي أحاطت بسيبويه عند تقعيده وتوجيهه ؟ ».

وإذا كان هذا التَّقْعِيد يتمُّ من خلال اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة ، فهل كان سيبويه يعتبر السِّياق الذي نُطقت فيه هذه النصوص أم لا ؟ هل كان يعتمد على نظَرِيَّة العامل بشكل أساسي في كل قواعده ؟ أم كانت هناك فسحةٌ لتدخُّل السِّياق في هذا التَّقْعِيد ؟ وإذا كان هناك تدخلٌ للسياق في تقعيد سيبويه للقاعدة ، فما الإجراءات التي كان يتبعها عند هذا التَّقْعِيد المرتبط بالسِّياق ؟ وبعبارة أُخرى : ما المنهج الذي اتَّبَعه سيبويه عند تقعيده وتوجيهه ؟

من خلال هذه الأسئلة وهذا التصور جاء عنوان الفصل الأول من موضوع البحث : « السياق والمنهج عند سيبويه »، المبحث الأول فيه بعنوان «سيبويه والسِّياق »، والمبحث الثاني «خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه ».

وبإثبات أَنَّ سيبويه تَأَثَّرَ بالسِّياق عند تقعيده وتوجيهه ؛ كان لا بد من تقديم أدلة علمِيَّة من كتاب سيبويه تثبت هذا التأثُّر على مستوى التوجيه وعلى مستوى التَّقْعِيد ، فجاءت الفصول «الثاني والثالث والرابع »لتقديم هذه الإثباتات . فكان الفصل الثاني بعنوان «دور السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ » وجاء الفصل الثالث بعنوان : «دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه »، وتجمعت بين يدي الباحث مادة معقولة توضح تأثيرًا للسياق على الجانب الصَّرْفِيّ ؛ فظهر الفصل الرابع من هذا البحث بعنوان : «السِّياق والقواعد الصَّرْفِيَّة ».

ومن أهم الفوائد العَمَلِيَّة التي يمكن أَنْ نخرج بها من إبراز علاقة سيبويه بالسِّياق تقعيدا وتوجيها ، وذكر العديد من الأمثلة والنماذج من الكتاب التي تثبت هذه العلاقة ـ أهمِيَّةُ الدعوة إلى إعادة النظر في نظرية العامل وتضافر جهود العلماء لوضع نظَرِيَّة نحوِيَّة للعربية يكون لُحمتُها وسُدَاها السِّياق ؛ لذلك أتى الفصل الخامس متضمنا هذه الدعوة ، وكان عنوانه «السِّياق وسيبويه والنظَرِيَّةالنحوِيَّة ».

كان هذا هو المخطط العام للرسالة ، والتصور الذي بنى عليه الباحثُ خطته ، وعليه جاءت خطة الرسالة كما يلي :

- *التمهيد* : وشمل :
  - ترجمة لسيبويه ومنزلة كتابه .
  - أهم المصطلحات العلميَّة المستخدمة في البحث .
  - أهمِيَّة اعتبار السِّياق عند تحليل اللُّغَة ودراستها .
  - النصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد .
  - القواعد العلميَّة المراعاة عند التَّقْعِيد .
- *الفصل الأول* : «**السياق والمنهج عند سيبويه** » : وشمل مبحثين :
  - الأول : سيبويه والسِّياق .
  - والثاني : خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التوجيه الإعرابِيّ والتَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه.
- *الفصل الثاني* : « **دور السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه** » :ويشمل ثلاثة مباحث :
  - الأول : أهمِيَّة السِّياق في التوجيهات النحوِيَّة عند سيبويه .
  - الثاني : إثراء السِّياق للتوجيهات الإعرابِيّة والدِّلالِيَّة .
  - الثالث : تَحَرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة عدم اللَّبس .
- *الفصل الثالث* : «**دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه**» : ويشمل خمسة مباحث :
  - الأول : السِّياق والجملة الاسمِيَّة .
  - والثاني : السِّياق والجملة الفعلِيَّة .
  - الثالث : السِّياق والتوابع .
  - الرابع : السِّياق والأساليب النحوِيَّة .
  - الخامس : السِّياق والأدوات النحوِيَّة .
  - السادس : سياق الحال والتنوين والتنكير والتعريف :
- *الفصل الرابع* : «**السِّياق والقواعد الصَّرْفِيَّة**» : ويشمل مبحثين :
  - الأول : السِّياق ودلالة الفعل والمصادر والمشتقات .
  - والثاني : السِّياق ومعاني الأوزان الصَّرْفِيَّة .
- *الفصل الخامس* : «**السِّياق وسيبويه والنظَرِيَّة النحوِيَّة**» : ويشمل مبحثين :
  - الأول : تعريف مصطلح النظَرِيَّة .
  - والثاني : النظَرِيَّة النحوِيَّة السِّياقِيَّة .

وقد بذل الباحثُ جُهْدَهُ في أَنْ يكون بنيان الرسالة سَوِيَّ الخَلْق ومترابط الأجزاء قدر استطاعته .

وفي ختام كلامي ، أسأل الله أَنْ أكون قد وفقت في بحثي هذا ، و أَنْ يكون من العلم الذي يُنتفع به ، وينفع الإسلام وأهله .

الطالب / إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة .

تمهيد

- ترجمة سيبويه :
  - الاسم والنشأة والوفاة .
  - أسفاره العلمِيَّة .
  - شيوخه .
  - منزلة سيبويه العلميَّة .
  - كتاب سيبويه :
    - وقت تأليفه .
    - القيمة العلميَّة للكتاب .
    - منهج الكتاب .
- أهم المصطلحات المستخدمة في البحث .
- أهمِيَّة اعتبار سياق الحال عند تحليل اللُّغَة ودراستها .
- النصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد .
- القواعد العلميَّة المراعاة عند تقعيد القاعدة .

تمهيد

- **ترجمة سيبويه**

  - **الاسم والنشأة والوفاة :**

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر ، كنيته أبو بشر (أو أبو الحسن) ، ولقبه سيبويه .
لم تُحَدِّد كتبُ التراجم عامَ مولده ، وتذكر أَنَّهُ ولد في قرية يقال لها «البيضاء من قرى شيراز من عَمَل فارس »[(١)] ، وأنَّه «قدِم البصرة وهو غلام »[(٢)] ، وكان «منشؤه بها »[(٣)] .
واضطربت المصادر في تحديد وقت وفاة سيبويه ، وفي المكان الذي تُوفِّي فيه ، وفي عمره وقت الوفاة :

- ففي العام الذي توفِّي فيه قيل إِنَّهُ توفِّي في «١٧٧هـ »[(٤)] ، وقيل : « ١٨٠هـ »[(٥)] ، وقيل : « ١٦٠هـ ، وقيل : ١٨٨هـ ، وقيل : ١٩٤هـ »[(٦)] . والأصوب أَنَّ تاريخ الوفاة هو ١٨٠هـ ؛ لأَنَّ «سيبويه مات قبل يُونُس ، ويُونُس مات سنة ١٨٣هـ »[(٧)] .
- وفي مكان وفاته ، قيل : توفي في «البيضاء ، وقيل : بالبصرة ، وقيل : بساوة »[(٨)] .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٦٦

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : د. عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ١٣٤/٢

(٣) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، ٣٥٥/٢

(٤) السابق : ٣٤٨/٢

(٥) ابن خلكان:وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ت :إحسان عباس،دار صادر ، بيروت ، (١٩٨٧ م)، ٤٦٤/٣

(٦) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنُّحَاة، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٩ م) ، ٢٣٠/٢

(٧) القفطي : إنباه الرواة ، ٣٥٣/٢ ، ويُونُس هو : يُونُس بن حبيب الضَّبِّيّ الْوَلَاء الْبَصْرِيّ ، قال السيرافي : بارع في النحو ، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء ، وروى عن سيبويه فأكثر ، وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرد بها. سمع منه الكسائي والفراء. وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية. قال غيره: قارب يُونُس تسعين سنة ، مولده سنة تسعين ، ومات سنة ثنتين وثمانين ومائة .السيوطي : بغية الوعاة ، ٣٦٥/٢

(٨) السيوطي : بغية الوعاة ، ٢٣٠/٢ ، والقفطي : إنباه الرواة : ٣٥٣/٢

- وأما عن عمره وقت وفاته فقيل : « توفي عن ٣٢ عاما ، وقيل : توفي وله نَيِّف وأربعون »[(١)] . وقد صحَّح ياقوتُ التحديدَ الأخير[(٢)] .

○ **أسفاره العلميَّة** :

لعلَّه من المفيد لبحثنا تتَبُّع البيئة (أو البيئات) العلميَّة التي نشأ فيها سيبويه ، و تردَّد عليها فلا شك أَنَّ البيئة العلميَّة بما فيها من خلفيَّات ثقافيَّة وفكرية تؤثِّر في مَنْ يحيا بها ، وتؤثر بالضرورة في إنتاجه العلمي ، وكما يقول الفلاسفة : «إِنَّهُ لا سبيل لنا إلى فهم تاريخ الأعمال إِنْ لم نرجع أولا وقبل كل شيء إلى تاريخ الأفكار »[(٣)] .

تشير كتب التراجم إلى ثلاثة أماكن تردَّدَ بينها سيبويه ولم تذكر سواها ، وهي :

١ـ البيضاء من قرى شِيراز من عَمَل فارس . وتلك القرية شهدت مولده وفترة قصيرة من صباه ، وشهدت أيضا ختام حياته ووفاته .

٢ـ البصرة ، وهي المدينة التي «قدِم إليها وهو غلام ، وبها أكمل دراساته وأتمَّ كتابه »[(٤)] ، فالبصرة هي المدينة التي «نشأ بها »[(٥)] ، وقضى بها جلَّ عمره ؛ بل إِنَّ القِفْطِي نقل عن أحد العلماء قوله أَنَّهُ «من أهل البصرة »[(٦)] ؛ وهذا يعني أَنَّ تكوينه العلميّ والثقافيّ اكتمل واختمر بالبصرة .

وقد تميزت البصرة بخصوصية جغرافية أدَّت إلى « تَفَرُّدِها » بطابع ثقافيّ مُعَيَّن ؛ فقد « أفاد نحاة البصرة من موقع مدينتهم أعظم إفادة ؛ فكانوا يرحلون إلى البادية تارة ، ويستقبلون الأعراب القادمين من البادية إلى مدينتهم تارة أخرى ... أَمَّا قدوم الأعراب من البادية إلى البصرة فقد ظهر في صور متعددة ، فمنهم من كان يمكث فترة قصيرة ، ومنهم من كان يمكث فترة طويلة ، ثُمَّ يعود إلى باديته ، ومنهم من كان يطيب له المقام فلا يعود ، وكان طلاب اللُّغَة وآدابها يُقْبلون على هؤلاء الأعراب للاستماع إليهم ، وأخذ اللُّغَة عنهم »[(٧)] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٤٦٤/٣ ، وبغية الوعاة ، ٢٣٠/٢ ، وإنباه الرواة ، ٣٤٨/٢

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، **٢١٢٣/٥**

(٣) د. زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص **١٧٥**

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ١٣٤/٢ ـ ١٣٥

(٥) السيوطي : بغية الوعاة ، ٢٢٩/٢

(٦) إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة : ٣٥٤/٢

(٧) د. مصطفى عبد العزيز السنجرجي : المذاهب النَّحْويَّة في ضوء الدراسات اللُّغَوِيَّة الحديثة، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ط ١ ، (١٩٨٦ م) ، ص١٩

وكانت البصرة « مرفأ تجاريًّا للعراق على الخليج العربي ؛ فنزلتها عناصر أجنبيَّة كثيرة ، ساعدت على اتصالها بالثقافات الأجنبية ، وبفلسفة اليونان ، وما وضعه أرسططاليس من المنطق وحدوده وأقيسته ... ؛ وعلى ذلك كان طبيعِيًّا أَنْ تختلط الدراسات اللُّغَوِيَّة بمباحث الفلسفة ، و أَنْ يهتمَّ النَّحْوِيّون بالجانب الفلسفي المنطقي في وضع قواعدهم »[(١)] .

ولأمر ما « سُمِّيَ نحاةُ البصرة بأهل المنطق ، ولهذه التسمية ما لها من دلالة »[(٢)] . ويقرِّرُ الأستاذ أحمد أمين أَنَّ العراقيين ـ بوجه عام ـ « بزُّوا الحجازيِّين في الرأي وهو ما يسمى القياس »[(٣)] ، وأنَّ القياس قد لعب « دورا كبيرا في العصر العباسيّ ، وشغل حيزا كبير من العلوم ؛ فالقياس في أصول الفقه ، وفي فقه اللُّغَة وفي النحو وفي المنطق » ، كما توسعوا في « التعليل العقلي والتوسع في الاستنباط ، والدِّقَّة في استخراج وجوه الشبه ووجوه الفروق »[(٤)] . وقد ظهر تأثيرٌ واضحٌ وجليٌّ لبيئة البصرة على سيبويه ، تأثيرٌ له أماراته الجليَّة وآياته الظاهرة وشواهده الصادقة لمن تأمَّلَ ودقَّقَ في الكتاب .

٣ـ بغداد ، وكانت زيارته لها زيارة عابرة ؛ إذ وفدها « يطلب الشهرة في دار الخلافة ؛ فناظره الكسائي مؤدِّب الأمين بن الرشيد في مسألة الزنبور وغلبه الكسائي ؛ فعاد إلى وطنه فارس ومات هناك »[(٥)] .

○ **شيوخه** :

لا تضم قائمة أسماء شيوخ سيبويه كثيرا من الأسماء ، وتحدثنا كتب التراجم أَنَّ منهم : « حَمَّادَ بنَ سَلَمَة ، يُونُس بن حبيب ، أبا الخطاب الأخفش الكبير ، عيسى بن عمر الثَّقَفِي »[(٦)] .

---

(١) السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦

(٢) د. إبراهيم بيومي مدكور : منطق أرسطو والنحو العربي ، مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، (١٩٥٣م) ، ص ٣٤١

(٣) ضحى الإسلام نشأة العلوم في العصر العباسي الأول : مكتبة الإسرة ، القاهرة ، (١٩٩٥م)، ص ١٥٢

(٤) السابق ، ١٥٣ ، ١٦١

(٥) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ١٣٤/٢ ـ ١٣٥ ، و إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة: ٣٥٣/٢

(٦) **الأَخْفَش الأَكْبَر** هو : « عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة، أبو الخطاب : من كبار العلماء بالعَرَبِيَّة لقي الأعراب وأخذ عنهم . وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنَّمَا كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها ، توفي ١٧٧ هـ = ٧٩٣ م ». الأعلام ، ٢٨٨/٣

عِيسى بن عُمَر ، توفي ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م ، وهو «عيسى بن عمر الثقفي بالولاء ، أبو سليمان : من أئمة اللُّغَة. وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء ، وأول من هذب النحو ورتبه. وعلى طريقته مشى سيبويه وأشباهه . وهو من

ويمكن أَنْ نفسر اقتصار كتب التراجم على ذكر هؤلاء العلماء كشيوخ لسيبويه بسببين :

- إمَّا لقِلَّة أسفار سيبويه العلميَّة ، ومحدوديَّة تنقلاته كما أسلفنا .
- وإمَّا أَنَّ هؤلاء العلماء والأشياخ هم أكثر من لازمهم سيبويه ، وأكثر من جلس إليهم ، وهذا هو الراجح ؛ إذ المادة العلميَّة التي في الكتاب مادة ضخمة ناضجة ، تحتاج إلى جهد عدد كبير من العلماء ؛ فلا بدَّ من أَنَّه قد جالس غيرهم .

على أَنَّ أعظم شيوخه قاطبةً الخليل بن أحمد الفُرهودي ، فيلسوف دولة الإسلام كما قال ياقوت[(١)] . وتُحدِّثُنا كتب التراجم أَنَّ العلاقة توثَّقَت بين الرجلين ، وكان سيبويه أحبَّ تلاميذه إليه ، يحسن استقباله قائلا : « مرحبًا بزائر لا يُمَلُّ »[(٢)] ، لا يقولها إلا إليه . وسمح هذا الحبُّ أَنْ يلازم سيبويهُ الخليلَ ، وأن « يصنِّف كتابا من ألف ورقة من علم الخليل »[(٣)] ، و أَنْ يكون «أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد »[(٤)] ، بل أَنْ يكون أبرع تلامذة الخليل في النحو[(٥)] .

وكان تأثير الخليل على سيبويه وكتابه عظيما ، ولقد نقل العلماء جانبا من هذا التأثير فقالوا :

١ـ« سيبويه حامل علم الخليل وأوثق الناس في الحكاية عنه »[(٦)] .

٢ـ« عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل»[(٧)] .

٣ـ«كان سيبويه الفارسي أشهر تلاميذ الخليل ، ومصنِّف أول كتاب جمع ما ابتكره الخليل إلى محصول الباحثين السابقين »[(٨)] .

= أهل البصرة... وكان صاحب تقعر في كلامه ، مكثرا من استعمال الغريب. له نحو سبعين مصنفا احترق أكثرها، منها : الجامع و الإكمال في النحو ». الأعلام ، ١٠٦/٥

(١) معجم الأدباء ، ١٢٦١/٣

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ص ٦٧

(٣) السيوطي : بغية الوعاة ، ٢٢٩/٢

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ، معجم الأدباء ، ٢١٢٤/٥ ، إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة : ٣٤٩/٢ ـ ٣٥٠

(٥) أبو سعيد السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ت : د. محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، ص ٦٤

(٦) السيوطي : المزهر في علوم اللُّغَة وأنواعها ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، دار التراث ـ القاهرة ، ط٣ (بدون تاريخ للطبعة) ، ٦٧/١

(٧) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٥٦

(٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ١٣٤/٢

٤ـ« ...زعموا أَنَّ للخليل ثلاثة أياد عند العرب كبار لم يسدِ مثلها إليهم عربيٌّ منهم : أحدها ما نهج لتلميذه سيبويه من التأتي لتأليف كتابه حتى علّمه كيف يفرّق جمهور النحو أبوابا ، وتُجَنَّسُ الأبوابُ أجناسا ، ثُمَّ تنوع الأجناس أنواعا حتى أخرجه معجز التأليف ؛ فَقَيَّدَ به على العرب منطقهم ؛ حتى سلم أعقابهم للإعراب وتقويم اللسان من هُجْنَة اللحن وخطأ القول »[١] .

٥ـ« اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه ، والأصول والمسائل للخليل »[٢] .

ومجموع هذه النقول وخاصة الأخير منها يُعَبِّر عن « حقيقة علمِيَّة حتمية ، وهي أَنَّ كتاب سيبويه إِنَّمَا هو لقاح جهود النُّحَاة الذين سبقوه ؛ إذ لا يعقل أَنْ يبدع سيبويه هذا العلم المتكامل دون أَنْ يفيد من تلك الجهود الأصيلة التي رسمت كثيرا من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله »[٣] .

وقد سجل سيبويه بنفسه بعض الحوارات التي دارت بينه وبين الخليل ، فكان سيبويه يسأل والخليل يجيب ، ولعل أطول هذه الحوارات الحوار الذي دار في الكتاب في باب النداء[٤] .

وإثبات العلماء لهذا التأثير ونصِّهم عليه أمر له تَبِعاته العلميَّة ، فما يُسْتخلَص من نتائج في هذا البحث لن يكون خالصا لسيبويه من دون الخليل ، والمقولة الخطيرة التي أوردها ياقوت في نصه السابق من نهج الخليل الطريق لكتاب سيبويه تؤكد على أحقيته في هذه النتائج ، وأنَّه سبب فيها .

- **منزلة سيبويه العلميَّة :**

كان سيبويه نسيجَ وحدِهِ ، منقطع النظير ، لا تُفْتَحُ العينُ على مثله ، من أعلم الناس باللُّغَة ؛ قال الزجاج : «إذا تأملت الأمثلة في كتاب سيبويه تبيَّنت أَنَّهُ أعلم الناس باللُّغَة»[٥] . وكان «غاية الخلق في النحو »[٦] ؛ قال ابن خلكان : «كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ، ولم يوضع فيه مثل كتابه . وذكره الجاحظ يوما فقال : لم يكتب الناس في النحو مثله ، وجميع كتب الناس عليه

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ١٢٦١/٣

(٢) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٣٤٧/٢، ويشكك د. علي النجدي في هذه الرواية ، ويرى فيها «شكا وغمطا» ويراها «من أمثلة المنافسة والعصبية ». سيبويه إمام النُّحَاة ، عالم الكتب، ط٢ ، (١٩٧٩م) ص ١٣٥

(٣) سيبويه : الكتاب، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي،القاهرة،ط٦،(٢٠١٣ م)، مقدمة المحقق ٢٥/١ـ ٢٦

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٨٣/٢

(٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ص ٧٢ ، القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة، ٣٩٨/٢

(٦) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة، ٣٥٥/٢ ـ ٣٥٦

عيال »[١] . وأصبح اسمه بمرور الأيام «صفة غير محضة » ـ إنْ جاز هذا التعبير ـ على من برع في النحو ؛ فيقال عنه «هو سيبويه عصره »[٢] .

وكان **ثقة صدوقا يتثبَّت من أحكامه قبل أَنْ يلقيها**[٣] ؛ فعندما سُئِل الأخفش سعيد بن مسعدة عن الثقة المأمون المقدم من أصحاب الخليل الذي يوثق بعلمه قال : « النَّضْر بن شُمَيْل ، وسيبويه ، ومُؤَرِّج السَّدُوسي »[٤] .

- **كتاب سيبويه :**

لا يجوز أَنْ يكون هناك حديث عن سيبويه ولا يُتَصَوَّرُ أَنْ يكون هناك حديث يصاحب ذلك عن مُؤَلَّفِهِ « الكتاب » وخاصة أَنَّ عليه المُعْتَمَد في دراستنا هنا . هذا المُؤَلَّفُ الذي استوعب أصول علم النحو ، وأحاط بفروعه أو كاد ، لم يُصَنَّف في بابه أجمع منه ، ولا أرصف تعبيرا ، ولا أمتن سردا .

- **وقت تأليفه :**

من المهم أَنْ نقف على وقت تأليف الكتاب ؛ لأَنَّ لذلك قيمة علمِيَّة ؛ فليس ما يكتبه العلماء في الشَّبِيبَة والحداثة مثل ما يكتبونه في مختتم أعمارهم .

ولا نجد أَيَّةَ إشارة تعيننا على تحديد وقت مُحَدَّد لتأليف الكتاب . ولكن من خلال التأمُّل في نصوص الكتاب نفسه ، وما ضممتُه إليها من بعض المعلومات التاريخِيَّة من كتب التراجم يمكن أَنْ نستنبط أَنَّهُ كتبه في أواخر حياته ، أو على الأَقَلّ في آخر خمس سنوات منها[٥] .

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٤٦٣/٣

(٢) ينظر مثلا ترجمة ابن الدهان في وفيات الأعيان ٣٨٢/٢ ، انباه الرواة ٥١/٢

(٣) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٣٥٢/٢ ، وهذا ما سيظهر إنْ شاء الله عند مناقشة منهج سيبويه في كتابه .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ٣٠٤/٣ ، **والنَّضْر بن شُمَيْل** «١٢٢ ـ ٢٠٣ هـ = ٧٤٠ ـ ٨١٩ م ».وهو : «النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التميمي ، أبو الحسن : أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللُّغَة . ولد بمرو ، من بلاد خراسان ، وانتقل إلى البصرة مع أبيه ... واتصل بالمأمون العباسي فأكرمه وقربه.وتوفي بمرو. من كتبه : الصفات ، كبير، في صفات الإنسان والبيوت والجبال والإبل والغنم والطير والكواكب والزروع».الأعلام ، ٣٣/٨ ، **مُؤَرِّج بن عمرو** : هو «مؤرج بن عمرو السدوسي، كان عالمًا بالعَرَبِيَّة ، إمامًا في النحويين، وتوفي سنة خمس وتسعين ومئة ». الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ص ٧٥

(٥) ودليل ذلك أَنَّ سيبويه : « سافر إلى بغداد بعد أنْ أتم كتابه في أيام الرشيد بعد وفاة الخليل ١٧٥هـ ، والرشيد تولى الخلافة سنة ١٧٠هـ ، وسيبويه توفي عام ١٨٠هـ بعد زيارته تلك ». ومما يدعم هذا الاستنباط قول الأزهري : « كان سيبويه علامةَ حسن التصنيف ... وما علمت أحدًا سمع منه كتابه هذا » [بغية الوعاة : ٢٢٩/٢] ، وأن =

وهذا يعني أَنَّ الكتاب ألفه صاحبه وهو في قمة نضجه العلمي والفكري ، وضمَّنه لما وقف عليه من شتيت الفوائد ، ومنثور المسائل ، وما بدا له من أصول وفروع ، وتمحيص الحقائق واستبطان الدخائل ؛ فأتى الكتاب محكم السبك مستوٍ على سوقه يعجب من يقرؤه .

وكان هذا التأليف بعد موت الخليل ، بدليل إشارة سيبويه في كتابه : « وحدَّثني من لا أتَّهم عن الخليل ... » [١] . ففي هذا القول دليل على أَنَّ تأليف الكتاب كان بعد وفاة الخليل ـ رحمه الله ـ ؛ إذ لو كان حيا وقتها لراجعه في هذه المسألة التي كان يبحثها . ويستنبط د . على النجدي من خلال بعض الإشارات في الكتاب استنباطا غير مؤكد أَنَّ سيبويه بدأ تأليف الكتاب في حياة الخليل وأكمله بعد وفاته[٢] .

■ **القيمة العلميَّة للكتاب :**

نال «الكتاب »من مدائح العلماء وثنائهم الكثير والكثير ، فقد أفرغه صاحبه في قالب الكمال ، ولا تُفْتَحُ العين على أتمَّ منه حسنًا في بابه ، وأصبحت كلمة «الكتاب» ـ كما يقول الزَّمَخْشَرِيّ ـ إذا أفردت بالحديث علمًا على «كتاب سيبويه» [٣] ؛ وقد قال العلماء فيه :

١ـ قال السيرافي : «عمل سيبويه كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد » [٤] .

٢ـ وكان المُبَرد يقول لمن أراد أَنْ يقرأ عليه كتاب سيبويه «أركبت البحر ؟ » [٥] تعظيما واستصعابا

٣ـ وذكر صاعد بن أحمد الجُبَّائِي ـ من أهل الأندلس ـ : «لا أعرف كتابا أُلف في علم من العلوم قديمها وحديثها ؛ فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ... والثالث : كتاب سيبويه » [٦] .

= يُونُس وهو من شيوخه لم يعلم نبأ الكتاب إلا عرضا وبعد وفاته [سيبويه إمام النُّحَاة ، ص ١٢٨] ؛ فلو كانت هناك فسحة من الوقت والعمر عند سيبويه لكان قرأه وقرئ عليه .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٩/١

(٢) سيبويه إمام النُّحَاة : ص ١٩٠

(٣) الزمخشري :الكشاف، ت : يوسف حمادي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ١٣/١ ـ ١٤

(٤) أخبار النحويين البصريين ، ص ٦٤

(٥) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٢٤٨/٢

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ٢١٢٤/٥

٤ـ قال ياقوت : « لأهل البصرة ثلاثة كتب يفتخرون بها على الأرض : كتاب النحو لسيبويه ، وكتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب أبي حاتم في القراءات » [(١)] .

٥ـقال كارل بروكلمان : «كتاب سيبويه أقدم مصنف جمع مسائل النحو العربي كافة ، وقد زاد المتأخرون كثيرا من تحديد مقاصد النحو ، وتبيين حدوده ، ولَكِنَّهم لم يكادوا يضيفون إليه شيئا ذا بال من الملاحظات الهامة والأنظار الجديدة» [(٢)] .

٦ـ ويقول د . على النجدي ناصف : «وأحسب أَنْ لو وزن الكتاب بكتب النحو كافة لرجحها وزنا ، وأربى عليها قيمة ، لا من الناحية التاريخِيَّة وحدها ، ولكن من الناحية العلميَّة قبلها ، ففيه كل ما فيها وزيادة ، من النفائس المصونة والكنوز المذخورة» [(٣)] .

٧ـ وقال د . شوقي ضيف : إنَّ « الكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربي ؛ حتى سمَّاه بعضهم قرآن النحو » [(٤)] و« كتاب سيبويه لا يُعَلِّمُ العربِيَّة وقواعدها فحسب ، بل يُعَلِّم أيضا أساليبها ودقائقها التعبيرية» [(٥)] .

لقد أقام هذا العبقري الفَذّ هذا السِفر العظيم في ساحة الخلد أثرا ، وأرسله مع الأيام ذكرا ، وادخره للعربية كنزا ، وندبه في العالمين شاهدا على براعته في العربِيَّة ، ونفاذه إلى أسرارها ، وإمامته في الاشتراع لها .

- **منهج الكتاب :**

لا شك ولاجدال أَنَّ سيبويه كان يسير على «منهج »في كتابه . ومن الأهمِيَّة بمكان ـ فيما أعتقد ـ الوقوف على هذا المنهج وآلياته التي كان سيبويه ينتهجها ويعمل وفقها ؛ لأَنَّ هذا يمكننا من الفهم الدقيق لأقواله .

---

(١) معجم الأدباء ، ١٤٠٦/٣ ، ويضيق المقام إذا أردنا ذكر من قاموا بشرح الكتاب [ينظر : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٣٧/٢ ،] ، ومَنْ مِنْ العلماء من كان يفتخر بمجرد قراءته أو فهمه ، وكان يُعَدُّ هذا من مناقبه [ينظر على سبيل المثال : معجم الأدباء ، التراجم ٧٥٧/٢ ، ١٣٦٧/٣ ، ٣،١٤٠٦ ، ١٤٤٣/٤ ، ١٤٨٣/٤ ، ١٥٨٠/٤ ، ١٥٤٦/٤] ، أو مَن كان يتخذ أجرا لمجرد أنْ يُقْرَأ عليه الكتاب [ينظر على سبيل المثال : ١٤٤٣/٤ ، ١٤٨٣/٤ ، ١٧٧٥/٤] ولا ننسى أيضا أَنَّ الكتاب ترجم إلى اللُّغَة الألمانية على يد اللغويّ الألماني يان Jahn [مقدمة السيرافي : شرح كتاب سيبويه، ت: د. رمضان عبد التواب وآخرون ، هيئة الكتاب(١٩٨٦ م) ، ٣/١]

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ١٣٥/٢

(٣) سيبويه إمام النُّحَاة ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٤) العصر العباسي الأول، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٦ ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص١٢٣

(٥) د. شوقي ضيف : المدارس النَّحْوِيَّة ، ص ٧٧

وقد قسمت حديثي عن منهج سيبويه إلى قسمين يُكمل بعضهما بعضا :

- قسم أخذته من أقوال العلماء .
- وقسم آخر من واقع دراستي الشخصيَّة لنصوص الكتاب نفسها[١] .

أما القسم الأول فإنَّهُ من خلال النصوص التي جمعتُها من أقوال العلماء وإشاراتهم يمكن تحديد أركان هذا المنهج في النقاط التالية :

أ- توثيق الرواية والتثبت فيما ينقله من كلام العرب وكلام العلماء :

بنى سيبويه كتابه على التوثيق والتثبُّت ، فهو« **يتحرَّى الدِّقَّةَ في العرض ، ويُعنَى بتمييز الصريح من المشوب ، والتنبيه على ما يصادف من المنحول** »[٢] . ويظهر هذا جليًّا في إشارات متفرقة للعلماء في كتب التراجم التي ترجمت له ، من هذه الإشارات :

- قوله : « حدَّثني من أثق بعربِيَّته»[٣] ، ومثل قوله : «أخبرني الثقة »[٤] .
- قول الأخفش عن سيبويه : «كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه على »[٥] .
- وحينما قيل ليُونُس بعد موت سيبويه : « إنَّ سيبويه صنَّف كتابا في ألف ورقة من علم الخليل ؛ فقال : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ ! جيئوني بكتابه . فلما رآه قال : يجب أَنْ يكون قد صدق فيما حكاه عن الخليل ؛ كما صدق فيما حكاه عني »[٦] .
- قال البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) : «ويؤخذ من هذا أنَّ الشاهد المجهول قائله وتتمته إنْ صدر من ثقة يعتمد عليه قُبل ؛ وإلا فلا . ولهذا كانت أبيات سيبويه أصحَّ الشواهد ، اعتمد عليها خلفٌ بعد سلف ، مع أنَّ فيها أبياتا عديدة جُهل قائلوها ، وما عِيب بها ناقلوها ، وقد خرج كتابه إلى الناس والعلماء كثير ، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة»[٧] .

---

(١) وهذا القسم سنخصص له فصلا مستقلا فيما بعد .

(٢) د. على النجدي ناصف : سيبويه إمام النُّحَاة ، ص ١٥٠

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويّين ، ص ٦٧

(٤) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٦٤ ، القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٢/٣٥٠

(٥) القفطي: إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٢/٣٥٠، ابن قتيبة:عوارف المعارف،دار المعارف ، القاهرة ، ص ٥٤٦

(٦) السيوطي : بغية الوعاة ، ٢/٢٢٩

(٧) خزانة الأدب : ١/١٦

ويبدو أَنَّ هذا التثبُّت والتوثيق فيما ينقله أو يعرضه نابع من تَأَثُّره بأهل الحديث ومنهجهم ، فقد كان سيبويه سُنِّيًا على السُّنَّةِ ، و «سيبويه كان في أول أمره يطلب الحديث »[١] ، و «يطلب الآثار والفقه »[٢] ، وكان «يصحب الفقهاء »[٣] . بل إنَّ له رواية للحديث ، قال السيوطي : « أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى ، وتكرر في جمع الجوامع »[٤] .

وله مناظراته ومراجعاته العلميَّة مع أهل هذا الفن[٥] .

إنَّ وقوفنا على هذا الجانب عند سيبويه ومدى تَثَبُّتِهِ فيما ينقل يجعلنا نطمئن أَنَّهُ كان يعتمد على اللُّغَة كما قيلت عن أشخاص محددين في سياقات محددة ، وهو بذلك يفيدنا في الدراسة التي نحن بصددها .

ب- الاعتماد على المشهور :

من المعلومات القيِّمة التي ذكرها الإمام السيوطي معلومة أشار فيها إلى عنصر من عناصر منهج سيبويه ، وتُلَخِّصُ جزءًا كبيرا من طريقته في تأليف كتابه ، يقول : « ... ؛ ولذلك لم يُودِع (سيبويه) في أبواب الكتاب إلا المشهور الذي لا يُشَكُّ في صحته »[٦] .

لقد كان سيبويه يجمع نصوص اللُّغَة ويدرسها ويصنِّفها ، ثُمَّ يصدر فيها أحكاما ، يدرس « أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ؛ ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ ، أو حسنا وقبحا »[٧]

إن اعتماد سيبويه على المشهور في كتابه يتفق مع ما تُقِرُّهُ المدارس اللُّغَوِيَّة الحديثة ؛ فما كثر شيوعه وزادت نسبة وروده يُقاس عليه ، وتؤسس عليه القاعدة ، ويستنبط منها الصحيح المقبول «وتلك هي الطريقة العلميَّة الحديثة في تقعيد القواعد ، واستخراج مسائل اللُّغَة»[٨] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ٣/١١٩٩

(٢) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٢/٣٥٤

(٣) السابق : ٢/٣٥٥

(٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ٢/٢٣٠

(٥) يُنْظَر قصة مراجعته لأحد الأحاديث مع الإمام شعبة بن الحجاج . القفطي : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة، ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠ ، وينظر واقعة تشهد بحفظه وضبطه وتصويبه للخطأعند ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ٥/٢١٢٤

(٦) المزهر في علوم اللُّغَة وأنواعها ، ١/٢٠٢

(٧) د. علي النجدي ناصف : سيبويه إمام النُّحَاة ، ص١٦٣

(٨) د. إبراهيم أنيس : من أسرار اللُّغَة ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، ط ٧ ، (١٩٩٤ م) ، ص ١١

إن الاعتماد على المشهور من التراكيب اللُّغَوِيَّة يعني موافقة الجماعة اللُّغَوِيَّة على هذا التركيب ، وهذه الموافقة تعني أَنَّ هذا التركيب «يُقَرر ويثبت ... ويجد طريقه إلى نظام اللُّغَة»[(١)] .

ت- الاعتماد على سياق الحال في التَّقْعِيد :

هذا العنصر استنبطناه من نصّ أورده الزبيدي والقفطي ، كلٌّ في كتابه عن أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب ، يقول فيه :

«العربُ تُخرجُ الإعرابَ على اللَّفظ دون المعاني ، ولا يفسِد الإعرابُ المعنى ، فإذا كان الإعرابُ يُفسد المعنى فليس من كلام العرب . وإنَّما صحَّ قول الفرَّاء ؛ لأنَّهُ عمل العربِيَّة والنحو على كلام العرب ، فقال : كلُّ مسألة وافق إعرابُها معناها ، ومعناها إعرابَها فهو الصحيح . **وإنَّمَا لَحِق سيبويه الغلطُ لأنَّهُ حمل كلامَ العرب على المعاني ، وخلَّى عن الألفاظ** ، ولم يوجدْ في كلام العرب ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطبّق للإعراب ، والإعراب مطبّقٌ للمعنى . وما نقله هشام عن الكِسائيِّ فلا مطعَن فيه ، وما قاسه فقد لحِقه الغمْز ؛ **لأنَّهُ سلك بعضَ سبيل سيبويه ، فعمل العربِيَّة على المعاني وتركَ الألفاظ** ؛ والفرَّاء حمَل العربِيَّة على الألفاظ والمعاني فبَرع واستحقَّ التَّقْدِمة ، وذلك كقولك : «مات زيدٌ» ؛ فلو عاملت المعنى لوجب أَنْ تقول : «مات زيدًا» ؛ لأَنَّ الله هو الذي أماته ، ولكنك عاملت اللفظ ، فأردتَ : سكنتْ حركاتُ زيد »[(٢)] .

يهمنا في هذا النَّصّ كلمة «المعاني» التي وردت على لسان ثعلب ، ومن خلال السِّياق الذي وردت فيه هذه الكلمة ؛ فَإِنَّ معنى كلمة «المعاني» تشير إلى أَنَّهُ يقصد بها «سياق الحال» بدليل قوله : «**فلو عاملت المعنى لوجب أَنْ** تقول : « مات زيدًا » ؛ لأَنَّ الله هو الذي أماته» . فثعلب يشير أَنَّنا لو أخذنا بالمعنى (وهو إماتة الله للعبد) لوجب أَنْ نقول كذا ؛ فهو يربط المعنى بشيء خارج اللُّغَة وهي الخلفيَّة الثقافيَّة (العَقِيدِيّة) عند المسلمين Background knowledge ، وهذه الخلفيَّة من مكونات سياق الحال . فثعلب ينعَى على سيبويه ـ بغض النظر عن صحة وجهة نظر ثعلب أم لا ـ لجوئه للمعاني (سياق الحال) .

ث- اعتماد القياس :

وهذا العنصر مستخلص من قول الجَرْمِي : «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه ؛ فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : أنا رجل مكثر من الحديث ، وكتاب سيبويه يعلمني القياس ،

---

(١) ستيفن أولمان:دور الكلمة في اللُّغَة ،ترجمة : د.كمال بشر، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٣٠

(٢) طبقات النحويين واللغويّين ، ص ١٣١ ، إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ٨/٤

وأنا أقيس الحديث وأفتي به »[١] . وفي رواية الزجاجي : «وذاك أَنَّ أبا عمر كان صاحب حديث ، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الدين والحديث ، إذ كان ذلك يتعلم منه النظر والتفتيش »[٢] .

والذي يُفهَم من النَّصّ أَنَّ سيبويه اعتمد على القياس في كتابه ، وأَنَّ الجرمي أخذ طريقته في القياس وطبقها على فتاويه في الفقه . وهنا سؤال : ما خطوات هذا القياس التي كان يقوم بها الجرمي التي أخذها من سيبويه ؟ يمكن أَنْ نجتهد في الإجابة عن هذا السؤال ، ونكون بإجابتنا عنه قد أجبنا ضمنا عن : ما المقصود بالقياس وطريقته عند سيبويه ؟ .

إِنَّ القياس لغة «تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به » ، واصطلاحا عند الأصوليين : «حمل فرع على أصل في إثبات حكم لهما ، أو نفيه عنهما بجامع بينهما هو العلة »[٣] ، وعند الفقهاء : «إلحاق أصل بفرع في الحكم لاتحادهما في العلة »[٤] ، وعند النُّحَاة : «حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه »[٥] . فالمعنى اللغويّ والاصطلاحي قريبان من بعضهما ، وعليه يمكن فهم القياس في عبارة الجرمي كما يلي : تجميع الأحاديث التي تدور حول موضوع واحد لتخصيص العام منها ، وتوضيح المجمل ، ثُمَّ استخلاص « علة الحكم » التي تطبق على كل حالة إفتاء مشابهة . وإذا طبقنا هذا على سيبويه يمكننا القول إِنَّهُ : يجمع الجمل ذات التراكيب المتشابهة بتوثيق وتثبت بسياقاتها التي تقال فيها (إذ لا كلام بدون سياق) ، ثُمَّ استخلاص « تركيب ما » مستنبط من مجموع هذه الجمل المتشابهة ، مع ذكر البدائل المختلفة لهذا التركيب . هذا التركيب المستخلص هو «العلة » التي يقاس إليها غيرها من الكلام[٦] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ١٤٤٣/٤

(٢) أبو القاسم الزجاجي : مجالس العلماء ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٨٣ م)، ص ١٩١

(٣) معجم مصطلحات أصول الفقه ، مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، ط ١، (٢٠٠٣ م) ، ص ٨٥

(٤) د.محمد رواس قلعه جي و د. محد صادق قنيبي : معجم لغة الفقهاء،دار النفائس،ط ١،(١٩٨٥ م)، ص ٣٧٢

(٥) د. محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ (٢٠١١ م) ، ص ٢٥٦

(٦) ويمكننا أنْ نفهم عبارة الجرمي في كتاب سيبويه بشكل ثان هو : أَنَّ سيبويه قرَّر في كتابه كثيرا من «القواعد النَّحْوِيَّة الأصولية » التي هي على غرار «القواعد الفقهية » ؛ فنقل الجرمي هذه «القواعد النَّحْوِيَّة الأصولية »إلى مجال الفقه ، وأخذ يطبِّقُها على أنَّها قواعد فقهية . وما جعل الباحث يصل إلى هذا الفهم ويقول به وقوفه على قول الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ الذي نقله عنه ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » ٤٠٧/٢ إذ يقول : «لا أُسأَل عن مسألة في الفقه إلا أجبت عنها من قواعد النحو ؛ فقال له محمد بن الحسن : ما =

ج- الميل للشعر عند التَّقْعيد :

اعتمد سيبويه في كتابه على مادة تتكون من :

١ـ عبارات مروِيَّة ، وأخرى غير مروِيَّة .

٢ـ ومفردات عربيَّة وأخرى أعجميَّة ، خالصة أو معربة .

٣ـ مسائل مفترضة قيست على نظائر لها في اللُّغَة .

٤ـ شواهد من القرآن وأخرى من الشعر والرجز [١] .

ولقد مال سيبويه ـ كما لا حظ د . إبراهيم أنيس ـ للشواهد الشعرِيَّة « اعتقادا منه أَنَّ رواية الشعر أدق من رواية النثر ، و أَنْ تذكر المنظوم أيسر من تذكر المنثور ، وأَنَّ احتمال التغيير والتبديل في الشعر أقل من احتماله في المروي من النثر » [٢] ، ومن يحصِ الشواهد المروية في الكتاب يجد « عدد شواهد الكتاب الشعرية ألفا وخمسين شاهدا (١٠٥٠) ، وعدد الأمثال مع الأساليب والنماذج النحوية (أعني الشواهد النثرية) الواردة في الكتاب ثلاث مئة وخمسين . هذا عن كلام العرب . أمَّا القرآن الكريم فعدد الآيات المستشهد بها في الكتاب أربع مئة وسبع وأربعون آية ، والأحاديث الشريفة فيه ثمانية ... أي أن هناك (١٠٥٠) شاهدا من الشعر مقابل (٨٠٥) شواهد من كل ما عداه . **فإذا اتخذنا «الكتاب» مثلا للمؤلفات اللغوية ـ وإنَّه لكذلك في غير متن اللغة والدلالة ـ فإن هذا البيان لنوعيَّات الشواهد ، وعدد كل منها فيه ، يثبت اعتماد الأحكام اللغوية في جمهورها الأعظم على الشعر** » [٣] .

إن الاحتجاج بالشعر ـ ليس عند سيبويه فقط بل في غالب المؤلفات النحوية ـ « أفشى وأشيع كثيرا من الاحتجاج بكلام العرب النثري ، ولعل هذا سببه شيوع حفظ الشعر » [٤] .

تقول فيمن سها في سجود السهو ، يسجد ؟ فقال : لا ؛ **لأن المصغر لا يصغر** » . فكما فعل الشافعي هنا من استغلال القاعدة النَّحْوِيَّة كقاعدة فقهية ؛ فليس بمستبعد أنْ يكون الجرمي فعل مثله هناك .

(١) د. علي النجدي ناصف : سيبويه إمام النُّحَاة ، ١٤٣

(٢) من أسرار اللُّغَة ، ص ٣٤٢

(٣) د. محمد حسن حسن جبل : الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٤ ، الحاشية ذات الرَّقْم١ ، ومما ورد في خزانة الأدب للبغدادي ١٧/١ : « قال الجرمي نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتا فإما الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتها وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها فاعترف بعجزه ولم يطعن عليه بشيء» .

(٤) السابق ، ص ٥٢

ولا نعتقد أَنَّ سيبويه في اعتماده على الشعر سيكون بعيدا عما هو مرتبط به ، فالشعر كفَنٍّ «صدى للبيئة التي يعيش فيها ، ومرآة تنعكس عليها ظروفها وأحداثها ، ما دام الفن جانبا حيويا من جوانب الحياة ، يتصل بها ، ويؤثِّر فيها ، ويتَأَثَّر بها ، ولا يعيش بمعزل عنها . ولا نكاد نتصور أَنَّ الفن ـ مهما يؤمن أصحابه بأَنَّه للفن ـ يعيش في برج عاجي أو في منطقة معزولة ، بعيدا عن قانون التأثر والتأثير ، أو تعبير عن شخصيات أصحابه فحسب دون أَنْ يكون تعبيرا عن البيئة أيضا ؛ فالفن ـ كما نراه ـ تعبير عن الشخصيَّة والبيئة معا ، أو ـ بتعبير أدق ـ تعبير عن تَأَثُّر الشخصيَّة بالبيئة أو تأثير البيئة في الشخصيَّة »[(١)] .

****

• أهم المصطلحات المستخدمة في البحث :

من الأمور التي يجب أَنْ نشير إليها ، وتحثُّنا عليها طبيعة البحث العلمي ـ تحديدُ أهم المصطلحات المستخدمة في البحث .

والمصطلح Termـ كما تعرفه المعاجم اللُّغَوِيَّة ـ هو : «كلمة أو مجموعة كلمات phrase من خلالها يُعَبِّر عن شيء ثابت ومُحَدَّد »[(٢)] . ويعرفه بعض العلماء ب أَنَّه : «اللفظ أو الرمز اللغويّ الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمِيّ أو عَمَلِيّ أو فنِيّ أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة»[(٣)] .

ويتفق العلماء على أهمِيَّة توحيد معني المصطلح وعلى أهمِيَّة معرفة مصطلح علم من العلوم ؛ لأَنَّ ذلك من شأنه أَنْ «يُوَحِّدَ بساط البحث الذي من الممكن أَنْ يلتقي عليه العلماء ، وتسهم بشكل فعَّال في التنسيق بين مختلف أبحاثهم ودراساتهم . كما أَنَّها تزيد من اتصال القارئ العادي غير المتخصص بهذا العلم أو ذاك نتيجة القضاء على الاضطراب المصطلحي ؛ وبالتالي البلبلة الفكرية»[(٤)] .

من هذا المنطلق سنحدد أهم المصطلحات التي سنتكئ عليها في بحثنا هنا ، وفيما يلي أهمها :

---

(١) د. يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٦٨م) ، ص ١٠

(٢) The Lexicon Webster Dictionary ، vol.2 P.1014

(٣) د. عبد الصبور شاهين : العَرَبِيَّة لغة العلوم والتقنية ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٩م)، ص ١١٨

(٤) د. عامر الزناتي : إشكالية ترجمة المصطلح ، مقال بمجلة البحوث والدراسات القُرْآنِيَّة ، المملكة السعودية ، العدد ٩ ، السنة الخامسة والسادسة ، ص ٣٣٤

- **المصطلح الأول «السِّياق»:**

مصطلح السِّياق من أهم المصطلحات في بحثنا هنا ، وعلى أساسه سيجري كثيرٌ من النقاش والتأسيس لبعض الجوانب العلميَّة ؛ لذلك علينا أَنْ نستوفي كُلَّ الأمور المتعلقة به ، ونُثْبِتُها على مُكْثٍ ، ليس فقط من حيث التعريف والتحديد لمعناه ، بل لا بد أَنْ نتطرق معه إلى :

أ- تأثير سياق الحال على اللُّغَة / الكلام .

ب- اهتمام علمائنا الأقدمين بالسِّياق .

ت- مكونات سياق الحال وما يشتمل عليه .

وتنبع أهمِيَّة هذا «الحديث» من أَنَّهُ سيكون «الخلفيَّة العلميَّة» التي تُعِيننا على حسن التَّهَدِّي لموضوعنا ، ومنطلقا ننطلق منه ونحتكم إليه ونسير في ضوئه عند بحثنا لدور سياق الحال في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه .

- **تعريف السِّياق :**

إذا تتبَّعنا معنى كلمة «السِّياق context»في المعاجم اللُّغَوِيَّة العامَّة نجد أنَّها تشير إلى معنيين :

أ- **معنى عام يشمل اللُّغَة وغيرها :**

تقول بعض هذه المعاجم إنَّ السِّياق هو «البيئة أو الظروف أو الحقائق والوقائع المحيطة التي تساعد على إعطاء صورة شاملة عن شيء ما »[١] ، أو «تؤثر على شيء ما »[٢] . أو إنَّهُ : «الموقف الذي فيه يحدث شيءٌ ما أو الذي يتسبَّبُ في حدوث شيء ما»[٣] .

ب- **ومعنى خاص مرتبط باللُّغَة :**

والمعنى الثاني الذي تعطيه المعاجم اللُّغَوِيَّة العامَّة وبعض المعاجم المتخصِّصَة هو معنى مرتبط باللُّغَة خاصة ، فتقول : إنَّهُ «سياق الكلام »[٤] .

أو «بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه »[٥] ،

---

(١) ينظر: **The Lexicon Webster Dictionary, United States of America,the eighth edition,(1983 printing),vol.1 P.220**

(٢) ينظر : **United ،The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language States of America،(1996 printing)،P.211**

(٣)ينظر : **Oxford University Press, P.160 ،(2006)،3rd edition،Oxford Word Power Dictionary**

(٤) منير البعلبكي : المورد الحديث ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، (٢٠٠٩) ، ص ٢٦٦

(٥) إبراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبيَّة ، المؤسسة العَرَبِيَّة للناشرين المتحدين ، تونس (بدون تاريخ للطبعة) ص ٢٠١

أو هو «الكلمات التي تأتي قبل (أو بعد) كلمة أو عبارة أو جملة ، وتساعد على فهم معناها »[١] .

هذا السِّياق المرتبط باللُّغَة قسمه علماء اللُّغَة المتخصِّصون إلى قسمين :

- سياق لغوي Linguistic context ـ Verbal context .
- سياق غير لغوي Non–linguistic context [٢] .

أما السِّياق اللغويّ فـ «يتمثَّلُ في الأصوات والكلمات والجمل كما تتتابع في حدث كلامِيّ معين أو نصّ لغوي »[٣] . فالوحدات الدِّلاليَّة المكونة لكلام أو نصّ ما « تقع في مجاورة وحدات أخرى وإنَّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها »[٤] .

أما السِّياق غير اللغويّ أو سياق الحال Context of situation فإنَّهُ يعني «الجو الخارجيّ الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات »[٥] . أو هو «البيئة غير اللُّغَوِيَّة لكلام ما »[٦] .

ويُزِيد ديفيد كريستال David Crystal هذا المصطلح إيضاحا في معجمه « A Dictionary Of Linguistics And Phonetics »فيقول : «إنَّ سياق الحال **يشير إلى كُلِّ جوانب هيئة العالم الخارجيّ** التي يجب أَنْ تؤخذ في الاعتبار عند تحليل «كلام ما » إلى مستوياته (الأصوات ، القواعد الدِّلَالَة) لوثاقة هذه الجوانب بهذا التحليل »[٧] . ويقول في موضع ثان : «**وفي أوسع معنى لسياق**

---

(١) ينظر

Oxford Word Power Dictionary،P.160

(٢) وقد قدم د.أحمد مختار عمر تقسيما آخر للسياق (نقلا عن K.Ammer) ذا أربع شعب :

- السِّياق اللغويّ Linguistic Context .
- السِّياق العاطفي Emotional Context .
- سياق الموقف Situation Context .
- السِّياق الثقافي Cultural Context .

ينظر : علم الدِّلَالَة ، ص ٦٩

(٣) د. حلمي خليل : الكلمة دراسة لغَوِيَّة معجميَّة ، دار المعرفة الجامعية ، (١٩٩٣) ، ص ١٦١

(٤) د. سلوى محمد العوا : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١، (١٩٩٨) ، ص ٧٦

(٥) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ مدخل ، دار الثقافة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (١٩٩٤) ، ص ٨٣

(٦)

The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language،P.211

(٧) Blackwell Publishing ، Australia ، (2008) ، P.109 – 110 ، ونص ديفيد كريستال هو :

« Context of situation refers to **the whole set of external–world features** considered to

<u>الحال فإِنَّهُ يشمل الخلفيَّة غير اللُّغَوِيَّة لنص أو كلام ما كاملة وبكل ما فيها ، ويشمل ذلك الموقف الحالي الذي يستخدم فيه النَّصّ أو الكلام ، ووعي المُتَكَلِّم والسامع لما قيل قبلُ ، وأَيَّة معتقدات أو افتراضات سابقة خارِجِيَّة</u> »[1] . إنَّ سياق الحال «يمثِّله العالم الخارج عن اللُّغَة بما له من صلة بالحدث اللغويّ أو النَّصّ ، ويتمثل في الظروف الاجتِماعِيَّة والنفسِيَّة والثقافيَّة للمتكلم والمشتركين في الكلام أيضا »[2] .

والمصطلحات التي تعبر عن السِّياق غير اللغويّ أو سياق الحال كثيرة[3] .

---

be relevant in the analysis of an utterance at these levels (phonetics, grammar, and semantics » والترجمة للباحث .

(١) Ibid P.109 ونص ديفيد كريستال :« In its broadest sense situational context **<u>includes the *total non-linguistic background* to a text or utterance</u>**, including the immediate situation in which it is used, and the awareness by speaker and hearer of what has been said earlier **<u>and of any relevant external beliefs or presuppositions .</u>** » والترجمة للباحث . وتعريف ديفيد كريستال **هنا من أهم تعريفات سياق الحال وأشملها** .

(٢) د. حلمي خليل : الكلمة دراسة لغَوِيَّة معجميَّة ، ص ١٦١

(٣) يمكن أن نقسم هذه المصطلحات إلى قسمين :

- **<u>مصطلحات تراثية</u>** ، ومنها :

١. الحال ، ويقصد به «<u>الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته</u>» . (ينظر : د. محمد التونجي المعجم المُفَصَّل في الأدب ، دار الكتب العلمِيَّة ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٩٩) ، ١٩٢/١)
٢. مقتضى الحال .
٣. واقع الحال (يُنْظَر : د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ مدخل ، ص ١٠٠)
٤. الحال الحاضرة (السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ت: رمضان عبد التواب ـ محمود فهمي حجازي ـ محمد هاشم عبد الدايم ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، ١٥٤/٢)
٥. المقام ، (ويُفْهَم من كلام د. تَمَّام حسان في كتابه « اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها » [عالم الكتب ، القاهرة ، ط٦، ٢٠٠٩م] أنَّ هناك فرقا بين «<u>المقام</u>» وبين «<u>الموقف</u>» وأنَّ المقام أكثر تعقيدا أو أكثر تركيبا من الموقف ، يقول سيادته : « ... أما نوع المقامات الذي اكتمل فيه الطابع الاجتماعِيّ فهو الذي يتحقق وجود عناصر تجعل المقام مركبا لا بسيطا ؛ أي تجعله مقاما لا موقفا » ص٣٤٤ ، وفي كون المقام أكثر تركيبا أو تعقيدا يقول : « ويحتم الأصوليون على من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن أمورا لا ينبغي أن يغفل عنها، هي في الواقع مقام للفهم ، فعليه مثلا : أن يعرف أسباب نزول الآيات ، وأن يعرف النظم الاجتماعِيَّة عند العرب »ص٣٤٨)
٦. البيان (يقول الجاحظ : « **<u>والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير</u>**، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل ،

لأنَّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع ، إنَّمَا هو الفهم والإفهام ، **فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع**» ، ينظر: **البيان والتبيين** ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط ٧ ، (١٩٩٨م) ، ٧٦/١)

٧. القرينة (ينظر على سبيل المثال : ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ص ٧٨٩)
٨. القصة والحديث (وهو من المصطلحات التي ذكرها سيبويه في كتابه في المواضع التالية : ١٣٢/٣ ، ١٣٩/٣ ، ١٧٠/٣ وينظر أيضا : أبو على الفارسي : التعليقة على كتاب سيبويه ، ١/ ١٠٦ ، ١٠٧)
٩. أحوال المخلوقين وعاداتهم وموضوع جبلتهم (هذه مصطلحات إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني ، وقد لفت الانتباه لهذه المصطلحات الأستاذ الدكتور : البدراوي زهران في مقاله « من قضايا اللُّغَة : وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، العدد ٥٠ ، القاهرة ، (المحرم ١٤٠٣هـ ـ نوفمبر ١٩٨٢ م) ، ص ٩٨)

- **مصطلحات حديثة** :

١. مصطلح السياق نفسه (في بعض الأحيان عندما يطلق مصطلح السِّياق **بدون أي قيد معه فَإِنَّه قد يقصد به سياق الحال** ، وهذا ما أشار إليه ديفيد كريستال نفسه عند شرحه لهذا المصطلح في معجمه ، يقول ديفيد كريستال : إنَّ السِّياق في بعض معانيه ـ المعنى الثالث ـ « يشير إلى الهيئات والمظاهر الخاصة بالعالم غير اللغويّ من حيث ارتباطه بوحدات لغَوِيَّة مستخدمة بطريقة منظمة » ، « 3 – A term referring to the features of the non-linguistics world in relation to which linguistic units are systematically used.» والترجمة للباحث . يُنْظَر : **A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, P.109** وينظر أيضا : ستيفن أولمان : **دور الكلمة في اللُّغَة** ، ترجمة : د.كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٥٧) .
٢. السياق غير اللغوي .
٣. سياق الموقف .
٤. السياق الاجتماعي والثقافي (يُنْظَر : د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٤٤)
٥. السياق غير المباشر (يُنْظَر : د. كريم زكي حسام الدين : التحليل الدِّلَالِيّ إجراءاته ومناهجه ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، ٩٨/١ ، ويقول سيادته : « ... وقد قسم بعض اللسانيين السِّياقات التي ترد فيها الكلمة إلى ثلاثة أنواع : السِّياق المباشر ...والسِّياق غير المباشر : تستعمل فيه الكلمة للحديث عن مدلولات غير حاضرة ، السِّياق المحول ... أي الاستعمال المجازي للكلمات »)
٦. مسرح الحدث اللغويّ (Linguistic Theatre) وأول من صك هذا المصطلح أستاذنا د. كمال بشر ، يُنْظَر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٨٧ ، ودراسات في علم اللُّغَة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، (١٩٨٦م) ، ص ٥٧ ، وكان هذا المصطلح ضمن عنوان لمقال د. بدراوي زهران في مجلة مجمع اللُّغَة « من قضايا اللُّغَة : وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، العدد ٥٠ ، القاهرة ، (المحرم ١٤٠٣هـ ـ نوفمبر ١٩٨٢ م) .
٧. ماجريات الحال (يُنْظَر : د. كمال بشر : دراسات في علم اللُّغَة ، ص ١٠٠)

ومن خلال دراسة هذا المصطلح ، ودراسة كتاب سيبويه نفسه يمكن تقسيم سياق الحال من حيث «الوقتيَّة والديمومة » إلى قسمين :

- ✓ سياق حال لحظِيّ وقتِيّ عابر .
- ✓ سياق حال شبه ثابت ، يتمثّل مثلا في العرف الاجتماعِيّ والعادات والتقاليد ، والخلفيَّة العَقِيدِيّة .

- **تأثير سياق الحال على اللُّغَة / الكلام** :

من الأمور التي يجب إبرازها ومناقشتها وتسليط الضوء عليها بعد أَنْ انتهينا من تعريف سياق الحال وذكر أهم مصطلحاته ـ تأثيرُ سياق الحال على اللُّغَة / الكلام . وهي نقطة جوهرِيَّة في موضوع بحثنا ، تستحق وقفة متأنيَّة بعض الشيء .

وقبل إبراز هذا التأثير ينبغي أولا تسليط بعض الضوء على العلاقة بين اللُّغَة والكلام ، تلك الثُّنائِيَّة التي جاءت بها بعض المدارس اللُّغَوِيَّة الحديثة .

فإذا تحَدَّثنا عن تأثير سياق الحال على اللُّغَة ؛ فهل يعني هذا إهمال جانب الكلام ؟ وإذا تحَدَّثنا عن تأثير سياق الحال على الكلام ؛ فهل يعني هذا إهمال جانب اللُّغَة ؟ أم أَنَّ حديثنا عن تأثير سياق الحال يعني ضمنا الحديث عن التأثير في هذه الثُّنائِيَّة معًا ؟

إنَّ مسوِّغ هذه المناقشة أَنَّنا سنتحدث عن السِّياق ودوره في التَّقْعِيد والتوجيه النَّحْوِيّين عند سيبويه ، وسيتمخض عن هذا بعض النتائج والقواعد ، فهل هذه النتائج تتَعَلَّق باللُّغَة أم بالكلام ؟

---

٨. لسان الحال (ينْظَر : د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٨٨)

٩. ومنها أيضا هذا المصطلح الحديث نسبيا هو **التداوُلِيَّة Pragmatics** : وهو مصطلح يتناول بالدراسة منطقة تتنازعها علوم ثلاثة : علم الدِّلَالَة Semantics ، وعلم اللُّغَة الاجتماعِيّ Sociolinguistics ، وعلم سياق الحال Extralinguistic context. (ينظر **A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, P.379،David Crystal**) وهو « دراسة اللُّغَة لا بوصفها نظاما أو بنية بل على نحو ما تستعمل في المواقف الاتصاليَّة المختلفة : واقعيَّة أو متخيلة ». (« المقام في البلاغة العَرَبِيَّة : دراسة تداولية »: د. شكري الطوانسي ، مجلة عالم الفكر ، العدد١ ـ المجلد ٤٢ سبتمبر ٢٠١٣م ، الكويت ، ص ٦١) فهو بمنزلة « علم جديد للتواصل ، يدرس استعمال اللُّغَة في التواصل ، وما يحكم هذا الاستعمال، أو هذا التواصل من عمليات ومعارف لسانية ؛ وكل ما يتصل به : أطرافه وصيغه ، وأشكاله ، ومقاماته ، ومراميه ، وآثاره ، ونجاحه وملاءمته ، أوتشويشه ، وإخفاقه » السابق: ص **٦٤**

▪ **اللُّغَة والكلام :**

لَعلَّ من أهم الأفكار التي أتى بها العالم اللغويّ الفذ فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure[(١)] فكرة التفرقة بين «اللُّغَة المُعَيَّنَة (اللسانLe langue)» و«والكلام Le parole»وحدد دي سوسير اللُّغَة المُعَيَّنَة بأنَّها «نظام من الرموز التي يستدعيها حدوث الكلام الفعلي »[(٢)] . وهي «مجموعة القواعد والضوابط اللُّغَوِيَّة المخزونة في ذهن الجماعة صاحبة اللُّغَة المُعَيَّنَة »[(٣)] ، وهي «وظيفة جماهير المُتَكَلِّمين في البيئة اللُّغَوِيَّة المُعَيَّنَة »[(٤)] .

أما الكلام فهو «الأحداث الفعلِيَّة المنطوقة من الفرد المُعَيَّن في موقف معين »[(٥)] . أو هو «وظيفة الفرد المُتَكَلِّم فعلا ، وهو عبارة عن أحداث لغَوِيَّة يُحدثها المُتَكَلِّم وقت الكلام الفعلي »[(٦)] ، وإذا كانت اللُّغَة نظاما من رموز صوتيَّة مخزونة ؛ فَإِنَّ الكلام «نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة إلى رموز فعلية حقيقيَّة»[(٧)] .

فاللُّغَة إذن بتصوُّر سوسير ومن تبعه من علماء اللُّغَة المحدثين «ثابتة ومُستقِرَّة نسبيا إذا قورنت بالكلام ، وبالرغم من خضوعها للتغيير والتطور فهي تسير في هذا الاتجاه ببطء شديد ، كما أَنَّ بعض التغيرات الرئيسيَّة التي تصيب اللُّغَة قد تستغرق أجيالا بل قرونا طويلة »[(٨)] . أَمَّا الكلام «فهو عابر وزائل ، وهو شيء ثانوي »[(٩)] ، و أَنَّنا « يمكن أَنْ ندرس اللُّغَة دون الكلام »[(١٠)] .

---

(١) عالم سويسري ، ولد في ٢٦ نوفمبر ١٨٥٧م وتوفي في ٢٢ فبراير ١٩١٣م ، أحد رواد البنيوية ، اعتبر اللُّغَة نظاما من العلامات التي تُحَدِّد فيه كل علامة من خلال العلاقة مع الأخرى ، وبعد موته جمع طلابه ملحوظاته في كتاب «Course in General Linguistics» . يُنْظَر : **Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc. ,New York, N.Y.، fourth edition, Vol.17 P.97**

(٢) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٣٠

(٣) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٤٤

(٤) السابق : ص ١٤٦

(٥) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٤٤

(٦) السابق : ص ١٤٦

(٧) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٣١

(٨) السابق ، ص ٣٠

(٩) السابق ، ص ٣٣ ـ ٣٤

(١٠) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ١٤٧

ولقد أخرج دي سوسير الكلام من النظر والبحث في إطار علم اللُّغَة و« انصرفت جهوده كلها إلى اللُّغَة تاركا الكلام لقوم آخرين هم علماء النفس »[(١)] . وباستمرار الدراسة بما وضعه من منهج أصبحت اللُّغَة عنده « هيكلا أو بناء أو جهازا منعزلا عن كل ما يحيط به من ظروف وملابسات خارجِيَّة »[(٢)] ، أي أَنَّنا نستطيع أَنْ نُقَرِّر أَنَّهُ لم يكن لدى سوسير نصيب في الدرس اللغويّ الاجتماعِيّ

وبعد سوسير أتى نعوم تشومسكي Noam Chomsky[(٣)] ، وأظهر لنا ما سمَّاهُ بـ « البنية العميقة Deep Structure »و « البنية السطحيَّة Surface Structure » ، ويقصد بهذا « أَنَّ اللُّغَة عنده جانبان : أحدهما ما سمَّاه الكفاية أو القدرة ، وثانيهما : أطلق عليه الأداء ، وهو في هذا التفريق يقترب مما عناه دي سوسير بالتفريق بين اللُّغَة والكلام ولكن مع فارق دقيق »[(٤)] .

وأهم المعالم أو المبادئ التي تميز اتجاه تشومسكي في نظريته اللُّغَوِيَّة هو قيامها على « إنسان متكلم ـ مستمع مثالي ، تابع لبيئة لغَوِيَّة متجانسة تماما ، ويعرف لغته جَيِّدا »[(٥)] .

---

(١) السابق ، ص ٥٧

(٢) السابق ، ص ٥٧

(٣) ولد في فلاديفيا ، في ٧ ديسمبر ١٩٢٨م ، أحد أبرز اللغويّين الذين طوروا ما يعرف بالنحو التوليدي ، وهو أيضا مراقب سياسي وناقد اجتماعي ، من أهم مؤلفاته اللُّغَوِيَّة : اللُّغَة والعقل (1972) Language and Mind ، البنية المنطقيَّة للنظريَّة اللُّغَوِيَّة (1975) The logical Structure of linguistic Theory . يُنْظَر :
Lexicon Universal Encyclopedia,Vol.4 P.404

(٤) د. كمال بشر :التفكير اللغويّ بين القديم والجديد ، دار غريب ، القاهرة ، (٢٠٠٥م)، ص١٥٧ ـ ١٥٨ومما يسترعي الانتباه والنظر وجدير بالملاحظة أن ثنائية « اللُّغَة/الكلام » أخذت أسماء عدة عند عدد من العلماء مختلفي المشارب وإن كان المضمون واحدا تقريبا ؛ فأخذت اسم «اللُّغَة/الكلام» عند سوسير وجيوم ، و «نظام الكلام/النص» في اصطلاح هيلمسلف ، و «القدرة الكلامِيَّة / الأداء الفعلي» في اصطلاح تشومسكي ، و« مفتاح الكلام code/ والرسالة الفعلِيَّة message » في اصطلاح رومان ياكوبسن . يُنْظَر: مجدي وهبة ـ كامل المهندس : معجم المصطلحات العَرَبِيَّة في الأدب واللُّغَة ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٨٤ م) ، ص ٩٦ـ ٩٧

(٥) السابق : ص ١٥٧ ، ومن اللغويّين أصحاب البصمة الواضحة في مجال علم اللُّغَة العالم بلومفيلد ، وهو يعرف المعنى « بأنَّه عبارة عن الموقف الذي يُنْطَق فيه الحدث اللغويّ المعين ، والاستجابة أو رد الفعل الذي يستدعيه هذا الحدث في نفس السامع »، أي أَنَّ بلومفيلد يربط المعنى اللغويّ بالموقف . ويرد أستاذنا كمال بشر على هذا قائلا : « هذا رأي مقبول ، ولكن ليس من المقبول أن ننظر إلى هذا المعنى كما لو كان مجموعة من المثيرات والاستجابات الآلية ؛ إذ لا يمكن تجريد الكلام من العوامل الإنسانيَّة ، كالدوافع والرغبات التي ينبئ عنها » . [يُنْظَر : ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٦٧] ، وفي مكان ثانٍ ينقد د.كمال بشر بلومفيلد فيقول : « إِنَّهُم على الرغم من كل ذلك اتبعوا المنهج السلوكي في علم النفس في التحليل اللغويّ ، ولم يعطوا التنوعات اللُّغَوِيَّة الحادثة من الأفراد

ثُمَّ ظهرت المدرسة الاجتماعِيَّة في دراسة اللُّغَة ، التي تبحث في اللُّغَة من منظور اجتماعي ، بريادة العالم اللغويّ فيرث Firth[1] الذي رأى أَنَّ موضوع علم اللُّغَة هو «اللُّغَة في موقف كلامي فِعْلِي لأَنَّ استخدام اللُّغَة ما هو إلا شكل من أشكال الحياة الإنسانيَّة»[2] ، و «أَنَّ دراسة الكلام دون الرجوع إلى المجتمع الذي يتحدَّث به هو استبعاد لاحتمالات وجود تفسيرات اجتماعيَّة للأبنية والصيغ المستخدمة في الكلام»[3] .

وأنكرت هذه المدرسة «ثنائية » دي سوسير وتشومسكي ، ورأت «أَنَّ الحديث اللغويّ (كلمة أو عبارة أو جملة) وحدة متكاملة لا انفصام لجانبيها ؛ ومن ثَمَّ وجب تحليلها على هذا الأساس »[4] ، ولم يخطر « ببال الاجتماعِيّين اللغويّين هذه الثُّنائِيَّة بوجهيها نظرا وتطبيقا »و«لم يفرقوا بين اللُّغَة والكلام »[5] . وهذا المبدأ نابع من أَنَّ التفرقة بين اللُّغَة والكلام عندهم «ليس له ما يبرِّره من حيث المنطق والواقع ؛ إذ هما جانبان لشيء واحد ، أو هما مصطلحان يطلقان على مسمّى واحد ، وكل منهما اجتماعي وفردي ، كل منهما عقلي ومادي ، وهما متداخلان إلى درجة يصعب التفريق بينهما فكلام الفرد ليس إلا أسلوبا أو مثلا من كلام الجماعة ، وكلام الجماعة ليس إلا حصيلة كلام الأفراد »[6] .

والباحث **يميل بعض الميل** إلى المدرسة الاجتماعِيَّة في إنكار هذه الثُّنائِيَّة ، **ويأخذ بمنهجها في دراسة اللُّغَة** .

اهتماما يذكر ، ولم يحاولوا بالطبع الكشف عن علاقة هذه التنوعات بالمجتمع مع اختلاف بيئاته وفئات أو طبقات أفراده أو جماعاته» . [يُنْظَر علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٥٢]

(١) John Rupert Firth أحد كبار علماء اللغويّات ، ١٨٩٠م ـ ١٩٦٠م ، مؤسس مدرسة لندن . له تأثيره الواسع على فلاسفة التحليل اللغويّ البريطانيين والأمريكيين المعاصرين ، اعتمد في تطوير نظريته اللُّغَوِيَّة على ما قاله مالينوفسكي عن سياق الموقف . يُنْظَر : سامي خشبة : مفكرون من عصرنا ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، (٢٠٠٨ م) ، ص ٦٢٥

(٢) د. محمد حسن عبد العزيز : مدخل إلى علم اللُّغَة ، دار الثقافة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٣٢٢

(٣) د. هدسون : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ترجمة : د.محمود عياد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٣ ، (٢٠٠٢ م) ، ص ١٦

(٤) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٢٥

(٥) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٤٤ ـ ٤٨

(٦) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، هامش ص ٣٤ ، والكلام للدكتور بشر .

أمّا أَنَّنا نميل بعض الميل للمدرسة الاجتِماعِيَّة في إنكار هذه الثُّنائِيَّة فلأنَّ :

١ـ اللُّغَة «ظاهرة اجتماعيَّة ، وهي ضرب من السلوك الاجتماعِيّ والثقافي » ؛ لذلك «فاللُّغَة لا يمكننا فهمها أو درسها وتحليلها أو تعليمها وتعلمها منعزلة عن سياقها الاجتماعِيّ ؛ فالمجتمع بكل ما فيه ومن فيه لا بد أَنْ يؤثِّر في اللُّغَة بكل مستوياتها أصواتا وصرفا ونحوا ودلالة وألفاظا »[(١)] ، والحق ـ كما يقول د . محمود عياد ـ «إنَّ أَيَّة محاولة لتفسير الظواهر اللُّغَوِيَّة المختلفة دون الرجوع إلى المجتمع ـ وذلك ما قامت به المدرسة التوليدِيَّة التحليلِيَّة بكافة فروعها ـ إِنَّمَا هو محاولة عبثِيَّة تنطوي على مثالِيَّة متطرفة ، ولن تؤدي هذه المحاولة إلا إلى إجداب الدراسات اللُّغَوِيَّة ، فاللُّغَة سلوك اجتماعي يحدده المجتمع في المقام الأول »[(٢)] .

٢ـ وجود علاقة وثيقة بين اللُّغَة والكلام ، فـ «الكلام هو ضرب من السلوك الاجتماعِيّ ، ودراسته دون الرجوع إلى المجتمع الذي يستخدم فيه تُعَدُّ عملا خطيرا لعلم اللُّغَة ذاته ؛ إذ إنَّ حرمانه من النظرة الاجتِماعِيَّة يعني الحرمان من تفسيرات اجتماعيَّة للأبنية والصيغ المستخدمة فيه ، وهي في نهاية الأمر ـ بعد قبولها ـ لا بدَّ أَنْ ترتَدّ إلى اللُّغَة وتصبح جزءا لا يتجزأ من نظامها الذي تدور حوله اهتمامات علم اللُّغَة»[(٣)] . إنَّ من المقرر «أَنَّ الأحداث اللُّغَوِيَّة الفعلِيَّة تقع أولا وبتكرارها ووقوعها مرَّات ومرَّات في سياقاتها الاجتِماعِيَّة تحدث انطباعات لها تستقر في ذهن الجماعة أو الفرد ، وتصبح بمثابة الأنماط العامة التي يمكن أَنْ تستدعى وتخرج حقيقة واقعة في التعامل في ظروفها المناسبة . ومهما يكن الأمر فالجانبان مترابطان ومتلازمان وجودا وعدما واستقرارا وتطورا ، والتجديد في الأول ـ وهو جانب الطاقة أو القواعد والقوانين ـ يأتي نتيجة للتعديل أو التغيير والتطور في الثاني »[(٤)] .

٣ـ إِنَّنَا في البحوث العلميَّة «لا نُفَرِّق بين ما يسمى لغة الفرد ولغة الجماعة ؛ إذ أَنَّنا نعُدّ الفرد جزءا من بيئته ، وهو ممثل صحيح لها ، وهو في كلامه يراعي ـ بطريق شعوري أو لا شعوري ـ النماذج اللُّغَوِيَّة التي تعارف عليها أعضاء المجتمع »[(٥)] .

---

(١) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٥٩

(٢) د. هدسون : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٧ التمهيد .

(٣) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٥١

(٤) السابق ، ص ٢١٩

(٥) السابق ، ص ١٥٠

٤ـ إنَّ إحدى سهام النقد التي صُوبَت إلى رُوّاد المدرسة البنيوية بعد ذيوعها وانتشارها أنَّهم «تعاملوا مع اللُّغَة كما يتعاملون مع المواد الكيمياوية التي يمكن تحليلها في المختبر بطريقة علمِيَّة موضوعية لا علاقة لها بالفكر أو المعنى ، أو كما يتعاملون مع الظواهر الطبيعِيَّة أو النظريات الرياضية ، وأهملوا إهمالا تاما علاقة اللُّغَة بالعقل ، كما أهملوا علاقتها القوية جدا بالمجتمع»[١] .

وأمَّا ميلنا للمنهج الاجتماعِيّ نفسه فلأَنَّ :

أ- الأخذ بالمنهج الاجتماعِيّ السِّياقي واعتناق المبادئ التي يقولها «يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي ، كما أَنَّ الأخذ به يبعد عن فحص الحالات العقلِيَّة الداخليَّة التي تُعَدُّ لغزا»[٢] .

ب- في مناهج هذه المدرسة «ما يكفل لنا الوصول إلى نتائج صحيحة خالية من الاضطراب والخلط»[٣] .

ت- المدرسة التوليدِيَّة التَّحويلِيَّة تنطلق من مبدأ خيالي «هو افتراض وجود متكلم ـ سامع مثالي غير متأثر بالتنوعات أو الفروق الكلامِيَّة في المجتمع» . ومن الجدير بالذكر أَنَّ تعديلات أُدخلت على نظَرِيَّة تشومسكي وثنائيته ، وقد حاولت هذه التعديلات في نهاية المطاف «الربط بين القواعد الجراماتيكية العميقة (التي تمثل الطاقة) والعمليات الاجتِماعِيَّة ، وتحققت فيما سُمِّيَ بعدُ بالطاقة الاتصالِيَّة Commutative Competence»[٤] .

نخلص مما سبق أَنَّ العلاقة بين اللُّغَة والكلام علاقة وثيقة ، فاللُّغَة تؤثِّر في الكلام والكلام يؤثِّر في اللُّغَة ، فعلاقة التأثير والتأثُّر علاقة متبادلة بين الطرفين . وعند الحديث عن تأثير لسياق الحال على اللُّغَة يعني هذا ضمنا وجود تأثير على الكلام والعكس بالعكس .

بعد إبراز هذه العلاقة الوطيدة بين اللُّغَة والكلام ، نتساءل : هل يمكن أَنْ يكون تأثير السِّياق على هذه العلاقة محل نقاش أو جدل ؟ ! نقول إنَّ تأثير سياق الحال على اللُّغَة / الكلام ليس محل نظر ، فهو أمر لاجدال فيه ، وهذا ما تتابعت أقوال العلماء على تأكيده على اختلاف مشاربهم واهتماماتهم وتخصصاتهم ، وتلك طائفة من أقوالهم الصريحة المباشرة التي تبرز هذا التأثير :

(١) د. نايف خرما ، د. علي حجاج : اللغات الأجنبية تعليمها وتَعَلُّمها ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، ص ٣٢

(٢) د. أحمد مختار عمر : علم الدِّلَالَة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٥ ، (١٩٩٨ م) ، ص ٧٣

(٣) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٢٥

(٤) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٥٤ ، وص ٦٠

- يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : «السِّياق يرشد إلى تبيين المُجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ... وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المُتَكَلِّم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته »[1] .
- ويذكر ابن جني : « فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلَّف القائل ولا كلَّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه »[2] .
- ويشير د . إبراهيم أنيس : «أين هذا الكلام المستقل بالفهم الذي لا نستعين فيه بكلام سبقه ولا بتجارب ماضية ولا بإشارات الأيدي وتعابير الوجوه في كثير من الأحيان ؟ »[3] .
- ونجد قول د . كمال بشر : «الكلام منعزلا عن مسرحه أو مقامه ضرب من الضوضاء ... وعزل الكلام عن هذا الموقف الحي يحيله إلى شيء مُشَوَّه ممسوخ»[4] .
- ويؤكد د . بدراوي زهران : «اللُّغَة تتبع من واقع حي تتفاعل معه عناصرها المختلفة ؛ فتحمل من ظلال هذا الواقع وإيحاءاته عناصر كثيرة تمتزج بعناصر بنيتها الأساسيَّة ... إنها تنبثق عن أحوال المخلوقين وعاداتهم وما فُطروا عليه في ظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم »[5] .
- ويقول د . عبد العزيز موافي : «النَّصّ ـ **أي نصّ ـ هو رسالة لا يمكن أَنْ تكونَ موجَّهة إلى لا أحد وإلا تحولت إلى فعل عبثي**»[6] .

---

(١) بدائع الفوائد : دار التقوى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (٢٠٠٦ م) ، ٨/٤ ، وتشير د.نادية رمضان إلى أن ابن القيم يُعد صاحب نظرية سياق الحال . يُنْظَر : د. نادية رمضان النجار : اللُّغَة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٢١٣

(٢) الخصائص ، ت : محمد علي النجار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة سلسلة الذخائر ، ع ١٤٦، ١/ ٢٤٧ ، ويقول أيضا في موضع ثان : « ... وكذلك إنْ ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانًا ! وتزوي وجهك وتقطِّبه ، فيغني ذلك عن قولك : إنسانًا لئيمًا أو لحزًا أو مبخلًا أو نحو ذلك . » ٣٧١/٢

(٣) من أسرار اللُّغَة ، مكتبة الأنجلو المصريَّة ، القاهرة ، ط ٧ ، (١٩٩٤ م) ، ص ٢٧٧

(٤) دراسات في علم اللُّغَة ، ص ٥٧ ـ ٥٨

(٥) « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه »: د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص ٩٨ ـ ١٠٢

(٦) د. عبد العزيز موافي : الرؤية والعبارة : مدخل لفهم الشعر ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٠ م) ، ص ٦٥

اهتمام علمائنا الأقدمين بالسّياق :

تجعلنا طِدَةَ العلاقةِ بين اللُّغَة والكلام ، وتأكيد العلماء على تأثُّر هذه العلاقة بالسِّياق أَنْ نتساءل : ما مدى وعي علمائنا الأقدمين بتأثير السِّياق على اللُّغَة ؟ هل كان وعيهم بهذا التأثير على المستوى النظري فقط أم كان وعيا نظريا وتطبيقا معا ؟

ولأهمِيَّة سياق الحال وسلطانه على الكلام لا نتوقَّع أَنْ يغفل عنه علماء أمتنا ، وألا تبعد خطورة هذا التأثير وهذا السلطان عن فطنتهم وإدراكهم . وتكفي إطلالة يسيرة على تراثنا لنثبت عمق فهم علمائنا لقضية السِّياق ، وإدراكهم لأثره النظري والتطبيقي ، وتحكمه في تكوين الدِّلَالَة المستنبطة من النَّصّ . ولم يكن هذا الإدراك مقصورا على فئة من العلماء دون أخرى بل شمل جُلَّ العلماء على اختلاف مشاربهم وتخصُّصاتهم .

ويأتي على رأسهم البلاغيون واللغويُّون وبعض النحاة ، ومن إشاراتهم :

- نجد شيخ اللغويّين ابن جني يعقد فصلا في كتابه « الخصائص » بعنوان : « باب مراتب الأشياء ، وتنزيلها تقديرا وحكما ، لا زمانا ووقتا » ، يتحدَّث فيه عن دور السِّياق فيقول في آخر هذا العنوان : « **ومن ذلك ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة ، نحو قولك إذا رأيت قادمًا : خير مقدم ؛ أي قدمت خير مقدم . فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب . وكذلك قولك للرجل يُهوي بالسيف ليضرب به : عمرًا ، وللرامي للهدف إذا أرسل النزع فسمعت صوتًا : القرطاس والله ؛ أي اضرب عمرًا ، وأصاب القرطاس** » [(١)] .
- ونجد ابن هشام عند حديثه عن الفعل المتعدي يقول : « كونه مذكورا هو الأصل ... وقد يضمر جوازا **إذا دَلَّ عليه دليل مقالي أو حالي** ؛ فالأول نحو : ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ النحل : ٣٠ ؛ أي أنزل ربنا خيرا بدليل ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ النحل : ٢٤ ، والثاني : **نحو قولك لمن تأهَّب لسفر : «مَكَّةَ ؟ »بإضمار «تريد» ، ولمن سدَّد سهما : «القرطاسَ»؛ بإضمار تصيب»** [(٢)] .
- وها هو ذا الإمام السيوطي يقول في كتابه المختصر «جمع الجوامع »عند حديثه عن أقسام «أل » وأنواعها ما نصه : « فإنْ عُهِد **مصحوبها بحضور حسِّي أو علمي فعهديَّة** ، ويَعْرِض فيها الغَلَبة واللمح ، وإلا فجنسيَّة ؛ فإنْ لم يخلفها كل فلتعريف الماهيَّة ، أو خلفها حقيقة فللشمول »، ثُمَّ يشرح قوله هذا في كتابه «همع الهوامع » فيقول : « أل نوعان : عهديَّة وجنسيَّة

---

(١) الخصائص : ١/٢٦٤

(٢) شذور الذهب في معرفة كلام العرب : ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (بدون أيَّة بيانات أخرى) ، ص ٢١٤

فالأولى ما عهد مدلول مصحوبها بحضور حسي ؛ بأن تقدم ذكره لفظا فأعيد مصحوبا بأل نحو : ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ المزمل : ١٥ - ١٦ ، **أو كان مشاهدا ، كقولك : القرطاس لمن سدَّد سهما أو ، علمي بأن لم يتقدم له ذكر ولم يكن مشاهدا حال الخطاب** نحو ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾التوبة : ٤٠ »[(١)] . فالإمام السيوطي يستعين هنا بالسِّياق لكي يحدد دلالة «أل ».

- وإمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني إمام اللُّغَة في عصره ، والنَّحْوِيّ المفتن في العربِيَّة ونحوها الذي تُشَدُّ إليه الرحال طلبا لِلُّغَة والنحو ، والذي برع في مجال النحو التقليدي ومجال التفسير ـ يرى أَنَّ «التحليل العلمي المنصف للبناء اللغويّ لا يتم إلا من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه »[(٢)] . وأنه يجب مراعاة أحوال المخلوقين ، وأنَّ «التأويلات النحوِيَّة المنبثقة عن التقديرات العقلِيَّة فقط تغفل طبيعة اللُّغَة ، وتسيئ إلى فهمها إساءة شديدة»[(٣)] .

وينبِّه النُّحَاة إلى أَنَّ «بعض التأويلات النحوِيَّة التي تعتمد على الجانب العقلي المحض دون تدخل في اعتبار واقع اللُّغَة وحال المخاطبين قد تقود إلى عظيم وهو الكفر»[(٤)] .

- ومن أئمة اللُّغَة والنحو والبلاغة والتفسير نجد الإمام الزَّمَخْشَرِيّ يعتبر السِّياق ويشير إليه إشارات صريحة في تفسيره ؛ فيقول مثلا : «فإنْ قلت : هل يصحُّ : ربح عبدك وخسرت

---

(١) السيوطي : همع الهوامع ، ت : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ٢٥٨/١

(٢) « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص١٠٤

(٣) دلائل الإعجاز ، ت : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٩٢ م) ، ص ٢٤٠ـ ٢٤١ وص ٤١٦

(٤) «من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص ١٠٨ ، يقول عبد القاهر على سبيل المثال ، ص ٣٧٩ ، عند تحليله لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[النساء: ١٧١]: « ... وذلك أنَّهم قد ذَهبوا في رفْع « ثلاثةٍ » إلى أنها خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، وقالوا : إنَّ التقديرَ : « ولا تقولوا آلهتُنا ثلاثةٌ »؛ وليس ذلك بمستقيمٍ . وذلك أنَّا إذا قلْنا : « ولا تقولوا آلهتُنا ثلاثةٌ »، كان ذلك ــ والعياذُ بالله ــ شبيه الإثباتِ أنَّ ههنا آلهةً ، من حيثُ إنَّكَ إذا نفيْتَ ، فَإِنَّما تَنفي المعنى المستفادَ من الخَبرِ عن المبتدأ ، ولا تنفي معنى المبتدأ ، ... [ونكون] قد نفَيْنا أَنْ تكونَ عِدَّةُ الآلهة ثلاثةً ، ولم تنف أَنْ تكونَ آلهةً».

جاريتك ، على الإسناد المجازى ؟ قلت : نعم ؛ **إذا دَلَّت الحال . وكذلك الشرط في صحَّة : رأيت أسدًا ، وأنت تريد المقدام إنْ لم تقم حال دالة لم يصح** » [(١)] .

- **السِّياق كقرينة** :

ونجد أيضا في تراثنا النَّحْوِيّ حديثا عن السِّياق من خلال الحديث عن « القرائن » ، فمن يتأمَّل تعريف القرينة يلمح ثَمَّة علاقة بينها وبين السِّياق ، فالقرينة هي « الدِّلَالَة اللفظِيَّة أو المعنوِيَّة التي تُمَحِّضُ المدلولَ وتصرفه إلى المراد منه ، مع منع غيره من الدخول فيه » [(٢)] . وفي تعريفات الجرجاني : « القرينة ـ في الاصطلاح ـ أمر يشير إلى المطلوب ، وهي إما حالِيَّة أو معنوِيَّة أو لفظِيَّة » [(٣)] .

وقد اهتَمَّ النُّحَاة وغيرهم من العلماء بالقرائن ؛ وذلك لأَنَّ القرينة تعتبر « تُكَأَةً » يُتَّكَأُ عليها عند تحليل النصوص ، فهي « عنصر مُهِمّ لفهم الجملة ، فبها نعرف الحقيقة من المجاز ، ونعرف المقصود للألفاظ المشتركة ، ونعرف الذكر والحذف ، وخروج الكلام عن ظاهره ، وما إلى ذلك مما يحتمل أكثر من دلالة » [(٤)] ؛ لذلك نجدهم يردِّدون مصطلح القرينة والقرائن في كتبهم، من ذلك مثلا :

- قال ابن مالك : « ويحذف الخبر جوازا لقرينة » [(٥)] . وقال : « ومن القرائن المُحَسِّنَةِ لحذف المبتدأ وجود فاء الجزاء داخلة على ما لا يصلح أَنْ يكون مبتدأ ، كقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾فصلت : ٤٦ ؛ أي : فصلاحه لنفسه ، وإساءته عليها . فحذف المبتدأ لهذه القرائن وأشباهها جائز » [(٦)] .
- وقال ابن يعيش : « اعلم أنّ الحال قد يُحذف عاملُه إذا كان فعلًا وفي الكلام دلالةً عليه ، إمّا قرينةُ حالٍ ، أو مَقالٍ » [(٧)] .

---

(١) الكشاف : ٦٩/١ ، وينظر أيضا تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾البقرة: ٢١، ٨٤/١ ، وينظر هناك كيف استدعى مع تلك الآية مسرحا لغويا مُتَخَيَّلًا لتفسيرها .

(٢) د. محمد سمير اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة، ص ١٨٦

(٣) التعريفات ، ص ٢٢٣

(٤) د. فاضل السامرائي : الجملة العَرَبِيَّة والمعنى ، دار ابن حزم ، لبنان ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) : ص٥٩

(٥) شرح تسهيل الفوائد ، ٢٧٥/١

(٦) شرح تسهيل الفوائد ، ٢٨٧/١

(٧) شرح المُفَصَّل ، ٣٢/٢

- وقال الصَّبَّان في حاشيته : «والصحيح أَنَّ الاستثناء حقيقة في المتصل مجاز في المنقطع لتبادر المتصل منه إلى الفهم عند التجَرُّد عن القرائن»[١] .

وقد قام الأستاذ الدكتور تَمَّام حسان ـ رحمه الله ـ بوضع نظَرِيَّة للقرائن ، وقام بتقسيمها إلى القرائن المَادِيَّة ، والقرائن العقلِيَّة ، وقرائن التعليق ، وقسم هذه الأخيرة إلى : مقالِيَّة (معنوِيَّة / لفظِيَّة) وحالِيَّة[٢] . وفي مقال في مجلة فصول أشار د . تَمَّام إلى أصناف من القرائن ، وهي :

أ- القرائن اللفظِيَّة : البنية ، الإعراب ، الربط ، الرتبة ، المطابقة ، التضام .

ب- القرائن المعنوِيَّة : التي هي أصول الوظائف النحوِيَّة .

ت- القرائن الحالِيَّة : كأنواع الانفعالات ، وتقطيبات الوجه ، وطريقة الأداء الصوتي والإشارات.

ث- القرائن الخارِجِيَّة : وهي ما يسمونه Context of Situation أو الظروف التي صاحبت إنتاج النَّصّ ، ومنها أسباب نزول الآيات القُرْآنِيَّة ، وذكر الظروف التي قيلت من أجلها القصيدة [٣] .

وفي أكثر من موضع أشار د . تَمَّام إلى أَنَّ قرينة السِّياق «هي كبرى القرائن اللفظِيَّة »[٤] ؛ وذلك لأَنَّ « الكلام وهو مجلى السِّياق لا بُدَّ أَنْ يحمل من القرائن المقالِيَّة « اللفظِيَّة » والمقامية « الحالِيَّة » ما يعيِّن معنًى واحدًا لكل كلمة . فالمعنى بدون المقام «سواء أكان وظيفيًّا أم معجميًّا » متعدد ومحتمل ؛ لأَنَّ المقام هو كبرى القرائن ، ولا يتعيّن المعنى إلّا بالقرينة »[٥] .

وإذا نظرنا إلى علاقة القرينة بالسِّياق نجد أَنَّ مصطلح القرينة أعم والسِّياق أخصُّ ، أي أَنَّ السِّياق قرينة من القرائن ؛ وقد جعل د . فاضل السامرائي السِّياق القرينة الخامسة في التقسيم التفصيلي للقرائن الذي ذكره في كتابه «الجملة العربِيَّة والمعنى»[٦] .

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفِيَّة ابن مالك ، ٢/ ٢١٠

(٢) د. تَمَّام حسان : اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ١٩٠

(٣) ينظر مقال : اللُّغَة والنقد الأدبي ، د. تَمَّام حسان ، مجلة فصول ، مجلة النقد الأدبي ، المجلد الرابع ، العدد الأول ١٩٨٣ بعنوان : النقد الأدبي والعلوم الإنسانيَّة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، ص ١٢٧

(٤) اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ١٤٨

(٥) السابق ، ٣٩

(٦) ص ٦٣ ، وأشار سيادته في نفس الموضع إلى أن هناك فرقا بين السِّياق والمقام ولَكِنَّهما قد يتداخلان ، فـ «السِّياق هو مجرى الكلام وتسلسله واتصال بعضه ببعض . وأما المقام فهو الحالة التي يقال فيها الكلام ، وذلك كَأَنَّ يكون المقام مقام حزن وبكاء أو مقام فرح وسرور ...».

تلك كانت اقتباسات من بعض اللغويّين والبلاغيين والنُّحَاة توضح أَنَّ السِّياق كان حاضرًا لديهم مطبَّقًا في إنتاجهم العلمي[١] .

إِنَّ إثبات هذا الحضور يمهِّد الطريق لبحثنا هنا وغيره من الأبحاث التي تحاول فحص العلاقة بين السِّياق واللُّغَة واستشفافها ، ويعطيه مسَوِّغا ومشروعيَّة للمضي فيه .

ونحبُّ أنْ نضيف أن سياق الحال ـ باعتباره ملمحًا اجتماعيًّا ـ يمكن أَنْ « يُعَدُّ أصلا يضاف إلى أصول نظَرِيَّة النُّحَاة العرب ، فإِنَّهُ أصل مستأنس لديهم باطراد ، مستشعَر في تحليلاتهم على نحو يمثل استخراجه إحياء لأصل من أصولهم صدروا عنه ، وإن لم يصرحوا به »[٢] . إنَّ للنحاة واللغويّين العرب «اتجاها اجتماعيًّا في النظر اللغويّ ، وأنَّ المقام (أو سياق الحال) يمثل ركنا مهمًّا من أركان هذا الاتجاه » ، وأنَّهُم في جملة أعمالهم « كانوا يعتمدون على الأخذ من الكلام الحي المنطوق ، والكلام بهذه الصفة لا يتصور وقوعه أو حدوثه إلا في مسرح لغوي متكامل الجوانب من مرسل ومتلق وظروف وملابسات متعلقة بموضوع الحديث »[٣] .

في نهاية هذا المطاف يحقُّ لنا أَنْ نقول ونقرِّر مطمئنين تلك الحقيقة ألا وهي أَنَّ السِّياق كان له من السلطة والسلطان قولا وفعلا ، نظرا وتطبيقا على الكلام ونصوصه عند علمائنا ؛ وهذا ما يجعلنا نقول بحق أَنَّهُ لا نصّ بدون سياق .

- **مكونات سياق الحال وما يشتمل عليه** :

من المنطقيّ أَنْ يتبادر إلى الذهن بعد التأكيد على أهمِيَّة السِّياق وأثره على اللُّغَة أسئلة مُهِمَّة وهي : إذا كان السِّياق بهذه الأهمِيَّة وأنَّه محيط الكلام الذي يتحكم فيه وفي عناصره ـ كما يقول ديفيد كريستال ـ فما مكونات هذا السِّياق ؟ وما العناصر التي يشتمل عليها ؟ وما طبيعتها ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة ستعيننا ولا شك في مناقشة موضوع بحثنا ، وتمكننا بدقَّة من معرفة العناصر التي اعتمد عليها سيبويه في التَّقْعِيد والتوجيه النَّحْوِيّين .

بعد استقصاء مصطلح السِّياق في عدد من المصادر والمراجع يمكن القول إِنَّ أهم العناصر التي يتكون منها السِّياق هي :

١ـ المُتَكَلِّم : ويتعلق به :

---

(١) نوضح هنا أن الاهتمام بالسِّياق لم يكن مقصورا فقط على علماء اللُّغَة والبلاغة والنحو بل شمل طوائف أخرى من العلماء : علماء الكلام ، والأصول ، والمفسرين ، وشراح الحديث والشعر .

(٢) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٦٦

(٣) السابق : ص ٦٧ ، وينظر أيضا للأهمِيَّة الصفحات : ٦٩ ، ٧٩، ٨١ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧

أ- عاطفته ومشاعره وحالته النفسِيَّة : الحَنَق أو العقاب أو التهديد أو الغضب أو الرضا أو التشجيع أو القبول أو الدهشة[١] ، وبما تحدِّثُه نفسه[٢] .

ب- النبر وما تواكبه من تلوينات صوتيَّة .

ت- درجة الصوت من ارتفاع وانخفاض وما يرتبط بهذا أو ذاك من تلوين موسيقى الكلام التنغيم[٣] ، وإيقاعه[٤] ، والتأفُّف والفحفحة والتأَوُّه وأصوات الشفتين المختلفة[٥] ، وضغط المُتَكَلِّم على بعض أجزاء كلامه أو مقاطعه أو حروفه ، ونوع سكتاته ووصلاته وهمساته وسرعته في الكلام أو بطئه[٦] ، والشدة التي يركزها على هذه الكلمة أو تلك[٧] . ونوع الأصوات[٨] .

ث- كونه ذكرًا أو أنثى[٩] .

ج- درجة انتباهه وتركيزه العقلي فيما يقول[١٠] . قدرته على التذكر[١١] .

ح- إلى من يُتَوَجَّه بالحديث إذا كان المخاطَبون كثيرين[١٢] .

---

(١) د. رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللُّغَة ومناهج البحث اللغويّ ، ص ١٤١

(٢) ينظر : سيبويه : الكتاب ، ٢٨٢/١

(٣) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ١٩٤

(٤) ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ٩٢

(٥) د. تَمَّام حسان : اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٣٥٣

(٦) « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه » : د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص ١١٤ ، ويشير الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه : «أخطاء اللغة العربية المعاصرة» ، ص ٤٠ ، في الحاشية ذات الرقْم ٣ ما نصه : « يشير معدل السرعة إلى عدد الأصوات خلال فترة زمنية معينة ، عادة ما تكون الثانية ، ولمعدل السرعة أثر كبير على تحسين الاتصال ، ويتناقص الوضوح والاستيعاب حينما تتجاوز السرعة المعدل المعتاد ».

(٧) د. رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللُّغَة ومناهج البحث اللغويّ ، ص ١٤٢

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٧/١

(٩) د. كمال بشر :علم اللُّغَة الاجتماعِيّ : ص **١٩٧** ، يقول ابن جني في اللمع في العَرَبِيَّة : « اعْلَم أَن الندبة إِنَّمَا وَقعت فِي الْكَلَام تفجعًا على الْمَنْدُوب وإعلامًا من النادب أَنه قد وَقع فِي أَمر عَظِيم وخطب جسيم **وَأَكْثر من يتَكَلَّم بهَا النِّسَاء وعلامتها «يَا» و «وَا» لَا بُد من أَحدهمَا** » ، ص ١٢٠

(١٠) ينظر : سيبويه : الكتاب ، ١٥٢/١

(١١) سيبويه : الكتاب ، ٢١٦/٤

(١٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٤/١

خ- توقُّع ما يرد على ذهن المخاطب [١] .

د- إشارات اليدين والإيماءة وتعبيرات الملامح وغمزات العينين ورفع الحاجب وهز الرأس[٢] .

ذ- ما يوجد في المُتَكَلِّم من عيوب وعاهات [٣] .

ر- العقيدة التي يؤمن بها [٤] .

ز- الفترة الزمنية المتاحة للمتكلم[٥] .

س- العلاقة بين المُتَكَلِّم والمخاطب وسبق المعرفة بينهما[٦] .

٢ـ السامع والمخاطب :

أ- من يشهد الكلام والمشاهدون وأعمالهم[٧] ، وكيفية رد المُتَكَلِّم على الخطاب[٨] .

ب- وما يصحبهم من إشارات اليد أو النظرات ذات الدِّلَالَة بالعين أو هَزّ الكتفين أو التصفيق والغمغمة ومصّ الشفاة [٩] ، أو استجابة ورفض أو اشمئزار أو سخرية أو ضحكة أو غمزة ولمزة .

ت- والمستوى العلمي والثقافي الذي عليه المُتَكَلِّم ، فكلامنا للمتعلِّمين لن يكون بنفس الصورة للعامَّة ، وكلامنا لمن هم في المراحل العمرية الأولى لن يكون بنفس أسلوب كلامنا للمراحل

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٤/٢ في باب المعرفة من النكرة والنكرة من المعرفة .

(٢) من الدلالات التي تحدث عنها البلاغيون «دلالة الإشارة» وهي « **من دلالات المعاني الخمس التي ذكرها الجاحظ ، وقال إنها باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان ، وبالثوب وبالسيف ، وقد يتهدد رافع السيف والسوط ؛ فيكون ذلك زاجرا ومانعا ويكون وعيدا وتحذيرا . والإشارة واللفظ شريكان ، ونِعْم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط** » . ينظر : د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البَلاغِيَّة وتطورها ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط ٢ ، (٢٠٠٧ م) ، ص ٤٨٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٠/١ ، وذلك عند قوله : «ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول : رأيت زيدًا الصالح»

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٤٨/١ عند مناقشته لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾القمر: ٤٩

(٥) ينظر : شرح الرَّضِيّ على الكافية ، القسم الأول ، ص ٥٧٣ عند الحديث عن أسلوب التحذير .

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٦٠/٢

(٧) د. كريم زكي حسام :التحليل الدِّلَالِيّ وإجراءاته ومناهجه ، ٩٧/١ ـ ٩٨

(٨) « من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه »: د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص **١١٩ ـ ١٢٠**

(٩) د. كمال بشر :علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ص ٨٧

المتقدِّمة ، وكلامنا للمُتَخَصِّصين أو المهتمِّين بأمر ما لن يكون عين كلامنا لغير المتخصِّصِين أو غير المهتمِّين بنفس هذا الأمر[١] .

ث- والعقيدة التي يعتنقها المخاطب [٢] .

٣ـ البيئة المحيطة بالكلام ، وتشمل :

أ- الأجناس وما تتعارف عليه من نظم سياسية واجتماعيَّة وثقافيَّة وحضارِيَّة وتربوِيَّة[٣] .

ب- الأوضاع الاجتِماعِيَّة والاقتصادية المتصلة بالحدث اللغويّ[٤] .

ت- السِّياق الثقافيّ ومستواه والخلفيَّة المعرفيَّة Background knowledge ، والمستوى الاجتماعيّ والثقافة الشعبِيَّة ونسيجها[٥] .

ث- الاعتبارات التاريخِيَّة والجُغْرافِيَّة . وأحوال المخلوقين وعاداتهم وظاهر أمرهم وموضوع جِبِلَّتهم .

ج- عدد المشاركين ، ومستوى الشكليات أو الرسميات وطبيعة الأنشطة الجارية والدائرة[٦]

---

(١) ينظر المرجع المهم التالي : Joho E. Warriner, English Compoistion and Grammar , HBJ, Publishers Chicago, ١٩٨٨, **P 10** , ولعَلَّ تأثير السامع والمخاطب في طبيعة الكلام جعل بعض العلماء « مارتن جوس » يقوم بمحاولة تقسيم الكلام إلى مستوياته الرسمية المختلفة مستخدما معيارا أسماه « معيار الرسمية Formality »، فذكر خمسة أقسام نقلها د. نايف خرما في كتابه «اللغات الأجنبية تعليمها وتَعَلُّمها »ص ٤٤ ، فقال : « ١ـ المستوى الخطابي الجامد : وهو الأسلوب الذي يستخدم في مخاطبة جمهور كبير لا تربطه بالمُتَكَلِّم روابط صداقة أو معرفة حميمية ، والذي تنتقى كلماته بعناية كبيرة ، وتستخدم فيه أنواع مُعَيَّنَة من الوسائل التعبيرية كالأشكال البَلاغِيَّة المختلفة ... ٢ـ الأسلوب الرسمي : وهو شبيه بالأسلوب السابق ، إلا أنه أقل جمودا وحيادا ..٣ـ الأسلوب الاستشاري : وهو الأسلوب المستخدم في الحوارات الجدية بين الناس ... ٤ـ الأسلوب العادي : وهو الأسلوب المستخدم بين زملاء المهنة والمعارف وبعض الأصدقاء ...٥ـ الأسلوب الودي الحميم : وهو الأسلوب المستخدم عادة بين أفراد الأسرة الواحدة » .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٤٨/١

(٣) كمال بشر:علم اللُّغَة الاجتماعِيّ: ٥٦، وينظر أيضا : تَمَّام حسان : اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ٣٥٩ ـ ٣٦٠

(٤) د. كريم زكي حسام الدين : التحليل الدِّلَالِيّ إجراءاته ومناهجه ، ٩٧/١ـ٩٨

(٥) د. تَمَّام حسان : اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٣٥٤ ويضيف د.تَمَّام متحدثا عما يشمله سياق الحال وأنَّه يضم : « العلاقات الاجتماعِيَّة والأحداث الواردة في الماضي والحاضر ثم التراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات والخزعبلات ». اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٣٥٢

(٦) ينظر : David Crystal ، A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, P.438 ونص ديفيد كريستال

Number of participants, level of formality, nature of the ongoingactivities.

٤ـ الشيء أو الموضوع المُتَحَدَّثُ عنه ، فإِنَّنا «نَتَكَلَّم في العادة من أجل أَنْ نبلغ هدفا ، هذا الهدف يؤثِّر لا محالة في القول الذي نقول »[(١)] .

٥ـ الظروف والملابسات المحيطة بالكلام (سياق الموقف) ، وهذا يشمل : المكان والزمان وأسباب النزول (مع الآيات القُرْآنِيَّة) ، والإيقاع[(٢)] .

٦ـ طبيعة النَّصّ ، ف «نوع النَّصّ يؤثِّر في دلالته ، فإذا كان اللفظ واردا في نصّ شرعي انصرف المعنى إلى الدِّلَالَة الشَّرْعِيَّة»[(٣)] .

٧ـ مقدار الفترة الزَّمَنِيَّة المُخَصَّصَة للكلام[(٤)] .

٨ـ أثر الحدث اللغويّ في المشتركين في الكلام والحضور من حيث الإقناع ، الفرح ، الألم ، التصديق ، التكذيب[(٥)] .

٩ـ الوظيفة الكلامِيَّة : مدح ، هجاء ، طلب ... [(٦)] . والسِّياق العاطفي والقيمة العاطِفِيَّة[(٧)] .

١٠ـ سياق التخَصُّص والمهنة ، مثل : السِّياق الموسيقيّ ، السِّياق الأدبيّ ... . [(٨)] .

والترجمة للباحث .

(١) د. مصطفى ناصف : اللُّغَة والتفسير والتواصل ، ص ١٢

(٢) د. تَمَّام حسان : اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٣٦٢

(٣) د. نادية رمضان النجار : اللُّغَة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين ، ص ٢١٤

(٤) ينظر السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٦٤/١ عند قوله : «... وهذا كلام إِنَّمَا هو على قدر عناية المُتَكَلِّم وعلى ما يسنح له وقت الكلام».

(٥) د. كريم زكي حسام : التحليل الدِّلَالِيّ إجراءاته ومناهجه ، ٩٧/١ ـ ٩٨

(٦) السابق : ٩٨/١

(٧) السِّياق العاطفي يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال ؛ مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدلا ، فكلمة « يكره » غير كلمة « يبغض » رغم اشتراكهما في أصل المعنى . ينظر : د. أحمد مختار عمر : علم الدِّلَالَة ، ص ٧٠ ـ ٧١ ، والقيمة العاطِفِيَّة لبعض الكلمات الفلسفِيَّة والسياسيَّة والدينية كالوجودِيَّة ، والاشتراكِيَّة والمسيحِيَّة وسارتر وماركس والمسيح ... ، وكذلك الكلمات التي تشير إلى أشياء ماديّة كالكتاب والزجاجة والكرسي بالنسبة لرجل الدين ومدمن الخمر وأستاذ الجامعة . ينظر :د. كريم زكي حسام: التحليل الدِّلَالِيّ إجراءاته ومناهجه،١٠٠/١ ـ ١٠١

(٨) د. سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٨٥ م) ص ١١٨

تلك هي العناصر التي يتكون منها سياق الحال وفقا لما بحثت[١] .

<u>في ختام توضيحنا لمصطلح السِّياق نوجِّه النظر هنا بشِدَّة إلى أَنَّ تركيزنا الأساسي في هذا البحث منصبٌّ على سياق الحال ، ولم نتطرق إلى السِّياق اللُّغَوِيَّ إلا في مواضع قليلة .</u>

- **المصطلح الثاني « التَّقْعِيدالنَّحْوِيّ »:**

ننتقل إلى المصطلح الثاني من المصطلحات المستخدمة في بحثنا هنا ، وهو مصطلح «التَّقْعِيدالنَّحْوِيّ» . والتَّقْعِيد مصدر الفعل «قَعَّد» ، وجاء في «معجم اللُّغَة العربِيَّة المعاصرة» : «قَعَّد اللُّغَة ونحوها : وضع لها قواعد يُعْمَل بموجبها »[٢] . وبناء على هذا فَإِنَّ «التَّقْعِيد» هو : «صناعة القاعدة ووضعها »[٣] . ويقوم التَّقْعِيد بـ «التعميم الذي يخرج بنا من الواقعة أو الواقعات المفردة إلى القانون الذي ينطبق على ما لا يحصى من النماذج والوقائع»[٤] .

---

(١) ونشير هنا أن الأستاذين د. نايف خرما ود. علي حجاج قد سبقا الباحث وذكرا تقسيما قريبا من التقسيم الذي ذكره هنا عن مكونات سياق الحال مع بعض الاختلاف ، نذكره لنكمل به هذه الجزئيَّة ونتم الفائدة ، يقولان : « وقد أصبح من المتفق عليه الآن أن **<u>مكونات أي حدث تواصلي</u>** هي التالية :

<u>نوع الحدث</u> : أهو حوار ، أم محاضرة ، أم قصة ، أم نكتة . **<u>موضوع الحدث</u>** : أهو الطقس ، أم الصناعة ، أم الدين ... **<u>غرض أو وظيفة الحدث</u>** : وهذا يشمل الغرض من الحديث بكليته ، والوظائف المختلفة لأجزائه من الأقوال المختلفة التي تصدر عن المتحدثين . **<u>المناسبة أو الموقف</u>** : وتشمل هذه : المكان والزمان ، من وقت ويوم وشهر وسنة وموسم ، كما تشمل تفاصيل المكان من حجم وأثاث وما إلى ذلك . **<u>المشاركون في الحدث</u>** : بما في ذلك أعمار المشاركين وأجناسهم ذكورا كانوا أم إناثا ، أم خليطا من الاثنين ، وانتماءاتهم العرقية ، أوضاعهم الاجتماعِيَّة ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض . **<u>شكل أو صيغة الرسالة اللُّغَوِيَّة</u>** : ويشمل هذا الكلام المحكي أو المكتوب ، كما يشمل الأشكال اللُّغَوِيَّة وغير اللُّغَوِيَّة ، واللُّغَة أو اللغات التي يتم بها التحدث ، وكذلك اللهجات المختلفة إنْ وجدت . **<u>محتوى الرسالة اللغويّ</u>** : ويشمل هذا المعاني أو الأحاسيس ، أو الأفكار التي تقوم الرسالة بنقلها . **<u>تسلسل الكلام</u>** : أو الأقوال المختلفة ، بما في ذلك كيفِيَّة أخذ المُتَكَلِّمين أدوراهم في الكلام ، ومقاطعة أحدهم الآخر وما إلى ذلك . **<u>قواعد التفاعل اللغويّ</u>** : وتشمل هذه الأصول الاجتماعِيَّة التي ينبغي مراعاتها أثناء الكلام ، التي تختلف باختلاف المُتَكَلِّمين : أعمارهم ، وأجناسهم ، وعلاقاتهم ... **<u>المفاهيم التي على أساسها يتم تفسير الأقوال</u>** : وتشمل هذه المفاهيم والمعتقدات والأمور الحضارِيَّة الأخرى المشتركة بين أفراد مجتمع معين ، التي تعين أحد أولئك الأفراد على تأويل وفهم ما يقوله الفرد أو الأفراد الآخرون بالشكل السليم ». اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، ٤٦، ٤٧

(٢) د. أحمد مختار عمر : معجم اللُّغَة العَرَبِيَّة المعاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٨م)، ١٨٤١/٣

(٣) د. محمد عبد العزيز عبد الدايم : الاستدلال النحوي ، (٢٠٠٨م)، ص ١٨

(٤) السابق ، ١٨

- **المصطلح الثالث « التوجيه الإعرابِيّ »:**

التوجيه يُرَادُ به في النحو : «بيان أَنَّ رواية البيت أو القراءة القُرْآنِيَّة لها وجهٌ في العربِيَّة وموافقة لضوابط النحو ؛ فيقولون مثلا : وتوجيه الرواية أو البيت أو القراءة كذا وكذا »[1] .

والإعراب هو : « الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم ، لتعاقب العوامل في أولها »[2] ، ويتفق النُّحَاة على أَنَّ « الإعراب يُبِينُ عن المعاني ويكشف عنها ، ولولاه لكان الكلام مبهما غير مفهوم ولا معلوم »[3] ، وأنَّ «القول بأن الإعراب إنَّمَا هو للدلالة على المعاني المختلفة حقيقة لغوية ليس فيها شك »[4] .

وتلعب العلامة الإعرابية دورًا في تجلية المعنى وإظهار مراد المتكلم ، مثال ذلك قول الأشموني : «النصب في في نحو : « ذنوب ماءً » و«حُبّ عسلا » أولى من الجر ؛ لأنَّ النصب يدلُّ على أنَّ المتكلم أراد أنَّ عنده ما يملأ الوعاء المذكور من الجنس المذكور ؛ وأما الجر فيحتمل أن يكون مراده ذلك وأن يكون مراده بيان أن عنده الوعاء الصالح لذلك»[5] .

ومصطلح الإعراب يراد به أمران في نصوص تراثنا النَّحْوِيّ : « أولهما : ما يرادف علم النحو Syntax ، فهو إذا أعمُّ من العلامات الإعرابِيّة وحدها ، وهو بهذا الفهم يصلح أَنْ يقال عنه إنَّهُ يميز بين المعاني ، مع مراعاة أَنَّ المقصود بالمعاني هنا المعاني الوظيفية في الجملة من فاعلية ومفعولية وغيرهما ؛ لأَنَّ الإعراب إذا مجموعة القرائن التي تتضافر معا من أجل تماسك الجملة وأدائها لوظيفتها ... ثانيهما : العلامات الإعرابِيّة ، وهو إذا يعد قرينة واحدة من مجموعة القرائن اللفظِيَّة في الجملة»[6] .

وعند إطلاق مصطلح التوجيه الإعرابِيّ في هذا البحث سيقصد به المعنى الأول الأعم الذي يميز بين المعاني الوظيفية في الجملة .

---

(١) د. محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض ، ص ٢٩٥

(٢) ابن يعيش : شرح المُفَصَّل ، ١/١٩٦

(٣) د. فاضل السامرائي : الجملة العَرَبِيَّة والمعنى ، ص ٣٠

(٤) السابق : ص ٤٠

(٥) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط ١ (١٩٥٥م) ، ١/٢٦٣

(٦) د. محمد حماسة عبد اللطيف : العلامة الإعرابِيّة في الجملة بين القديم والحديث ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠١م)، ص ٢١٤ـ ٢١٥

ومن جميل إشارات العلماء إلى أسباب تعَدُّد الرويات إعرابيا قولهم :

«وحين لاحت ضرورة وضع قواعد نحويَّة لِلُّغَة العربيَّة اتجه العلماء إلى ديوان العربيَّة ، وهو الشعر ، فاستخرجوا من أنساقه قواعد التركيب ، كما استخرجوا من مفرداته قواعد الصوغ القياسي ، وبنوا مقاييس اللُّغَة على نسبة الشيوع ، ثُمَّ جعلوا الأَقَلّ استثناء من المقياس العام .

وعلى الرغم مما لابس عَمَلِيَّة التَّقْعِيد من خلط ـ أحيانا ـ بين اللهجات ، أو بينها وبين المستوى الفصيح ـ فقد كان الأساس المشترك دائما هو ما روي عن الشعراء والخطباء من أقوال سارية على الألسن ، فاشية في الناس . ولقد تقَبَّل النُّحَاة ما بدا من تضارب في الشواهد المرويَّة ؛ ليجعلوا في المسألة الواحدة قولين أو أكثر ، دون أَنْ يجدوا في ذلك غضاضة ، أو يحسوا حرجا ، حتى إنَّ النحو قد انتهى إلى الأجيال اللاحقة مطبوعا بطابع الاختلاف وتعَدُّد الأقوال ، بل وربما سلك مسلك التناقض .

وما نحسب أَنْ تعَدُّد الأقوال أو تضاربها يعزى إلى اختلاف القبائل فحسب ؛ أي : إلى اختلاف مصادر الرواية ، بل إِنَّهُ يرجع أساسا ـ وفي **تقديرنا ـ إلى أَنَّ مصدر التَّقْعِيد كان أدبيًّا ، ومن شأن اللُّغَة الأدبيَّة أَنْ تختلف في الجانب التركيبِيّ اختلافا بَيِّنا من فرد إلى فرد ، ومن شاعر إلى شاعر ، بل من شاعر في موقف معين إلى نفس الشاعر في موقف آخر ؛ نتيجة اختلاف المشاعر ، وتباين الأحاسيس ، وتغَيُّر الظروف البيئِيَّة والنفسِيَّة ، هذه حقيقة علمِيَّة مسلمة**»[1] .

والعلاقة بين التوجيه والتَّقْعِيد النَّحْويّين أَنَّ التوجيه مرحلة تالية بعد التَّقْعِيد ، فمن يقوم بالتوجيه لا بد أَنْ تكون تحت يديه القواعد التي يُخَرِّجُ عليها هذا التوجيه ، فالتَّقْعِيد تنظير ، والتوجيه تطبيق لهذا التنظير .

- **المصطلح الرابع «الأصل»:**

هذا المصطلح من المصطلحات التي استخدمها سيبويه في الكتاب ، وسَيَرِدُ هذا المصطلح في حديثنا ، وسنرتب عليه بعض النتائج ؛ لذلك من اللازم الوقوف عنده وإيضاح المقصود منه .

لهذا المصطلح دلالة مُعَيَّنَة على الجانب النَّحْوِيّ ودلالة أخرى على الجانب الصَّرْفِيّ ، وسنبدأ بتحديد المقصود به على الجانب النَّحْوِيّ أولا .

» معنى مصطلح «الأصل» على المستوى النَّحْوِيّ :

---

(١) د. عبد الصبور شاهين : العَرَبِيَّة لغة العلوم والتقنية ، ص ٧٥ ـ ٧٦

قبل تحديد دلالة هذا المصطلح على المستوى النَّحْوِيّ عند سيبويه نُمهِّد لهذا بقولنا : كان سيبويه يقوم بتحديد المسألة النحوِيَّة التي يريد التَّقْعِيد لها ، ويتَتَبَّعها في النصوص التي أمامه وبين يديه تَتَبُّعا «تزامُنِيًّا وتواقُتِيًّا» وتَتَبُّعًا «تاريخِيًّا» ، أو بتعبير آخر تَتَبُّعًا رأسِيًّا وأفقِيًّا .

أما التتبُّع التزامُنِيّ التواقُتِيّ فتشي به عبارات كثيرة في الكتاب ، مثل قوله : «سمعنا ، سألنا ، أُنشِدْنا ...» .

أَمَّا التَتَبُّع التاريخي فيظهر في مواضع قليلة من الكتاب ، منها مثلا الموضع الذي يناقش فيه مسألة في الممنوع من الصرف ، يقرِّرُ فيها أَنَّ الأعلام التي تأتي على وزن «فَعَالِ» إذا سُمِّيَتْ بها امرأة فَإنَّ بني تميم ترفعها وتنصبها ؛ أي لا تُجَرُّ بالكسرة ، على عكس الحجازيّين الذين يجرونها بالكسرة ، ويستثنى من هذه الأعلام المؤنثة الأعلام المنتهية بالراء فَإِنَّها عند التميميين والحجازيين تجر بالكسرة ، يقول سيبويه : «فأَمَّا ما كان آخِرُه راءً فإنَّ أهل الحجاز وبني تميم فيه مُتَّفِقون ، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتَّفقوا في يَرَى ، والحجازيَّةُ هي اللُّغَة الأولى القُدْمَى»[(1)] . ويهمنا في هذا النَّصّ عبارته الأخيرة التي تشير إلى البعد التاريخي الذي نقصده ، وتدُلُّ على التَتَبُّع الرأسي للمسألة النحوِيَّة .

بعد هذا التَتَبُّع كان سيبويه يُخْرِج «تركيبًا أساسيًّا» للمسألة التي يناقشها ويقعد لها ، ويذكر أيضا التراكيب البديلة للتركيب الأساسيّ لنفس المسألة النحوِيَّة التي يعالجها .

والتركيب الأساسي للمسألة النحوِيَّة هو التركيب الذي يحظى بأعلى نسبة تكرار في النصوص اللُّغَوِيَّة ، أَمَّا التراكيب البديلة هي التراكيب الأَقَلّ تكرارا وتَرَدُّدًا من التركيب الأساسي .

بعد هذا التمهيد البسيط نقول إِنَّ مصطلح «الأصل» على المستوي النَّحْوِيّ يُقصد به عند سيبويه : «التركيب الأساسي الي يحظى بأعلى نسبة تكرار في النصوص اللُّغَوِيَّة ، كما أَنَّهُ هو الذي يحظى بثبات تاريخي» .

ولابد أَنْ يكون الأصل هو ما يدلُّ على الأكثر نقلا وعقلا ، فأَمَّا نقلا فهو ما نلمحه في قول سيبويه : «وليس كل شيء يكثر في كلامهم يغيَّر عن الأصل ، لأَنَّه ليس بالقياس عندهم ، فكرهوا ترك الأصل»[(2)] .

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٨/٣

(2) سيبويه : الكتاب ، ٢١٣/٢

أَمَّا عقلا فلا يعقل أَنْ يكون الأَقَلّ هو الأصل والأساس الذي يُحْتَكَمُ إليه ، ويعوَّل عليه ، ويناقش في ضوئه الأكثر ، خاصة إذا علمنا أَنَّ الأصل Origin ـ كما يعرفه علماء الكلام والفلسفة ـ هو «ما يبنى عليه الشيء أو ما يتوقَّف عليه»[(١)] . أو هو بعبارة أخرى «ما يبنى عليه غيره»[(٢)] . ولا يعقل أَنَّ ما يبنى عليه هو الأَقَلّ في وجود الأكثر .

» معنى مصطلح «الأصل» على المستوى الصَّرْفِيّ :

من يتَتَبَّع مصطلح «الأصل» على المستوى الصَّرْفِيّ يجد أَنَّ هذا المصطلح له عدة معاني :

- الأول : ارتباط صيغة مُعَيَّنَة بقسم معين من أقسام الكلام ، مثل قوله : «ألا ترى أَنَّ : تَفْعَلُ ويَفْعَلُ في الأسماء قليل . وكان هذا البناء إِنَّما هو في الأصل للفعل»[(٣)] .
- الثاني : ارتباط صيغة مُعَيَّنَة بحالة عَدَدِيَّة مُعَيَّنَة ، مثل : «واعلم أَنَّ لأدنى العدد أبنيةٌ هي مختصَّة به ، وهي له في الأصل»[(٤)] .
- الثالث : الدِّلَالَة على أصول الكلمة ثلاثِيَّة أو رباعِيَّة أو خماسِيَّة سواء من حيث عددها أو من حيث ترتيبها أو من حيث الضبط ، مثل : «هذا باب الإضافة إلى ما فيه الزوائد من بنات الحرفين ، فإنْ شئت تركته في الإضافة على حاله قبل أَنْ يضيف ، وإن شئت حذفت الزوائد ورددت ما كان له في الأصل . وذلك : ابنٌ واسمٌ ... فإذا تركته على حالة قلت : اسميٌّ ... وابنيٌّ واثنيٌّ في اثنين واثنتين»[(٥)] . ومثل : «ومثل ذلك القيسيُّ إِنَّما هي في الأصل القووس»[(٦)] . ومثل : «هذا باب ما يسكن استخفافًا وهو في الأصل متحرك»[(٧)] .
- الرابع : الطريقة الثابتة في الصياغة والاشتقاق ، مثل : «قلت : فما بال ياء التصغير ثانيةً في ذا حين حقرت ؟ قال : هي في الأصل ثالثة»[(٨)] . ويقصد أَنَّ الأصل في التحقير أَنْ يكون بطريقة مُعَيَّنَة ؛ وإذا أتى على خلاف هذه الطريقة فهو على خلاف الأصل .

---

(١) المعجم الفلسفي : مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، (١٩٨٢م)، ص ١٥

(٢) الجرجاني : التعريفات ، ص ٤٥

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٩٧/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٦١/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٤٦٧/٣

(٧) سيبويه : الكتاب ، ١١٣/٤

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٣/ ٤٨٧

وأعتقد أَنَّ مصطلح الأصل يساوي عند سيبويه ما يسميه «المطرد». نستشف هذا من قوله : «لا ينبغي لك أَنْ تكسر الباب وهو مطرد وأنت تجد له نظائر»[1] .

- **المصطلحات «الغالب، الكثير، القليل، الضعيف، الشاذ، الردئ»:**

هذه المصطلحات من المصطلحات التي تَتَرَدَّد عند سيبويه ، وهي أيضا ستتردَّد في بحثنا تباعا ؛ لذلك فهي تحتاج إلى فضل توضيح وبيان .

وهذه المصطلحات ابتداء تعبِّر عن تراكيب نحوِيَّة لها ـ بدرجة ما ـ نسبةُ تكرار أو تردُّد في النصوص اللُّغَوِيَّة . وإذا ضممنا إلى هذه المصطلحات مصطلح الأصل ؛ فإنَّنا يمكن أَنْ نرتب هذه المصطلحات ترتيبا من الأكثر إلى الأَقَلّ كما يلي :

«الأصل (المطَّرد) ، الغالب ، الكثير (الجَيِّد) ، القليل ، الضعيف ، الشاذ ، الردئ » .

وفي كتاب « الاقتراح » للسيوطي نجد نصا مهما ينقله عن غيره من العلماء يذكر فيه عددا من المصطلحات التي تدل على الترتيب ونسبة التكرار للتراكيب النحوِيَّة ، يقول فيه : «وقال الشيخ جمال الدين بن هشام : اعلم أَنَّهم يستعملون غالبا وكثيرا ونادرا وقليلا ومطردا . فالمطرد لا يتخلَّف ، والغالب أكثر الأشياء ولَكِنَّه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ، والنادر أقل من القليل ؛ فالعشرون بالنسبة بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالب ، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل والواحد نادر فاعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك»[2] .

ويمكن أَنْ نجمع بين مصطلحات سيبويه ومصطلحات السيوطي في الجدول الآتي :

م	مصطلحات سيبويه	ملحوظات	مصطلحات السيوطي	ملحوظات
١	الأصل	قد أثبتنا أَنَّ هذه المصطلح يساوي مصطلحا آخر هو« المطرد » ، وقد يصف سيبويه هذا الأصل أحيانا بـ« الوجه ، الوجه الأكثر والأعرف ، حد الكلام ، المستقيم الحسن»[3] .	المطرد	

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٦/٢

(٢) السيوطي : الاقتراح ، ت : محمود فجال ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، (١٩٨٩م)، ص ٩٩

(٣) من ذلك مثلا قوله : « فهذا ضعيفٌ ، والوجهُ الأكثرُ الأعرفُ النصبُ » ، ٨٦/١ ، « واعلم أنه إذا وقع في هذا البابِ نكرةٌ ومعرفةٌ فالذي تَشْغَلُ به كان المعرفةُ ، لأنه حد الكلام ، لأَنَّهما شيء واحد ». ١/ ٤٧ ، « مررت برجل حسنٍ ظريفٌ أبوه فالرفع فيه الوجه والحدُّ ، والجرُّ فيه قبيح ». ٢٩/٢، « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة ، فمنه مستقيم حسنٌ ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتُك

٢	الغالب	استخدم سيبويه هذا المصطلح في معظم المواضع التي وردت فيه ليصف نوعا من الأسماء أسماه «الاسم الغالب» .	الغالب	
٣	الكثير	في بعض المواضع كان سيبويه يصف الكثير بـ«الجَيِّد والعربي والقوي والحسن» [(١)] .	الكثير	
٤	القليل	وصف سيبويه هذا المصطلح أحيانا بالردئ[(٢)] .	القليل	
٥	الضعيف	وقد وصف سيبويه هذا الضعيف أحيانا بـ «القبح»[(٣)] وأحيانا بـ «الخبث» [(٤)]	النادر	لم يرد استعمال هذا اللفظ عند سيبويه .
٦	الشاذ	وفي بعض الأحيان استُصْحِبَ بلفظ غريب وغلط[(٥)] .		
٧	الردئ			

ومن خلال تأمل هذا الجدول السابق نلاحظ أَنَّ :

أمْسِ وسآتيك غدًا ، وسآتيك أمس. وأمَّا المستقيم الكذب فقولك : حَمَلتُ الجبلَ ، وشربت ماء البحر ، ونحوه. **وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه** ، نحو قولك : قد زيدًارأيت ، وكي زيدًا يأتيك ، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمسٍ » ٢٥/١ ، والمقصود بالكلام المستقيم هنا « **الكلام المستقيم استقامة نحوية** » ينظر : د.حماسة عبد اللطيف : النحو والدِّلَالَة ، ص٦٦

(١) من هذه المواضع مثلا : « ... وكل هذا التضعيف فيه عربيٌّ كثير جَيِّد » . ، ٤٢٤/٤، «سِيرَ عليه سَيْرُ اليوم. والرفعُ فى جميع هذا عربيّ كثير فى جميع لغات العرب » . ، ٢١٦/١، « وقد يَحْسُنُ أن تقول : سير عليه قَريبٌ ؛ لأَنَّكَ تقول : لقيتُه مُذْ قَريبٌ . والنصب عربيّ جَيِّد كثير » ٢٢٨/١، « وزعم يُونُس أنّ أبا عمرو كان يقول : دارى من خَلْفِ دارك فرسخانِ ، فشبَّهه بقولك : دارُك منّى فرسخانِ ؛ لأَنَّ خلفَ ههنا اسمٌ، وجَعَل مِنْ فيها بمزلتها فى الاسم. وهذا مذهبٌ قويٌّ». ٤١٧/١، « وممَّا جاء فى النصب أنّا سمعنا من يُوثَق بعربِيَّته يقول : خَلَقَ الله الزرافة يديها أطول من رِجْلَيْها... فهذا عربيٌّ حسَن، والأوّل أَعرف وأَكثر ». ١٥٥/١

(٢) قال سيبويه : « وقد بلغنا أنَّ قومًا من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيْ وبريئةٌ ، وذلك قليلٌ رديء ». ٥٥٥/٣

(٣) قال سيبويه : « وزعم الخليل رحمه الله أنه يجوز أن يقول الرجلُ : هذا رَجُلٌ أخو زيدٍ ، إذا أردتَ أن تشبَّهه بأخى زيد. وهذا قبيح ضعيف لا يجوز إلاّ فى موضع الاضطرار »، ٣٦١/١، وينظر أيضا : ٤٣٤/١ ، ٢/ ١٢٤

(٤) قال سيبويه : « وتقول : إنَّ أحدا لا يقول ذاك ، وهو ضعيف خبيث ، لأن أحدا لا يستعمل في الواجب » ٣١٨/٢

(٥) قال سيبويه : « وأما الدكر فَإِنَّهم كانوا يقلبونها في مدكرٍ وشبهه ، فقلبوها هنا، وقلبها شاذٌّ شبيهٌ بالغلط »، ٤٧٧/٤ وقال : « وقد جاء في الكلام مفعولٌ وهو غريب شاذٌّ ». ٢٧٣/٤

- المصطلحات الأربعة الأولى متشابهة عند سيبويه والسيوطي .
- المصطلحات الثلاث الأخيرة اختصرت لاحقا عند السيوطي تحت مصطلح «النادر». ولم يرد عند السيوطي مصطلح الأصل ، ويعتقد الباحث أَنَّ مصطلح «الأصل» هو الأولى بالاستعمال من مصطلح «المطرد» ؛ لأَنَّ الأصل هو ما يبنى عليه غيره وهذا ما كان يقوم به سيبويه ؛ حيث يستخدم الأكثر لبناء القاعدة [(١)] .

• أهمِيَّة اعتبار سياق الحال عند تحليل اللُّغَة ودراستها :

من الأسئلة المنطقية التي ثارت في ذهن الباحث ، وكان لا مَعْدَى له عن الإجابة عنها السؤال التالي : ما خطورة غياب السِّياق عن تحليل اللُّغَة والتَّقْعِيد لها ؟ وما تَبِعاته التي قد تنجم عن ذلك ؟

كانت الإجابة عن هذا السؤال مُهِمَّة للغاية ؛ فوجود بعض الخطورة يمكن أَنْ تقع عند غياب السِّياق في تحليل اللُّغَة - يعني أَنَّنا لمسنا وطرا حساسا في دراستها ، ويعطي مسَوِّغا لبحثنا ويمنحه بعض القيمة العلميَّة .

يمكن أَنْ نقول إِنَّ غياب سياق الحال عن تحليل اللُّغَة ودراستها يؤدي إلى :

---

(١) وقد قدم بعض الباحثين المعاصرين تعريفات لبعض المصطلحات السابقة ، فقالوا :

- الغالب : « وصف للحال الأكثر استعمالا وإساغة ، وحيث وجد هذا الوصف يعني أَنَّ وجها آخر يجوز في اللفظ أو التعبير المقصود ».
- الكثرة والندرة : « حالة تلحق الوجوه الإعرابيّة والاستعمالات الكلامِيَّة ، وهي تقابل الكثرة ، وتعني في مفهومها قِلَّة الاستعمال ، وقد تكون استثناء من ممنوع ... والندرة في عمومها لا تصلح لتعميم الحكم واعتماده ، والنادر من الاستعمالات لا حكم له ، وإِنَّمَا الحكم للكثرة والأرجحيَّة ، ولهذا فَإِنَّ حالات الندرة قد تصلح للحجيَّة ولَكِنَّها لا تصلح للتعميم وقياسيَّة الاستعمال ».
- الشذوذ : « هو الخروج عن القياس وعدم الاتساق مع المألوف من القواعد العامة ، أو هو مخالفة القياسي من غير نظر إلى قِلَّة وجوده وكثرته . والشذوذ من الأحكام الشائعة التي كثر ذكرها في مجال تقويم القواعد النحويَّة ، حتى أَنَّه يعتبر ظاهرة بارزة تعلن عنها كل مراجع النحو ومصنفاته ... ولَعلَّ الإكثار من الإحالة إلى الوصف بالشذوذ ظاهرة تحسب لنحو البصرة أكثر من غيرها ، وقد دعاهم إلى ذلك تشددهم في وضع قواعدهم وحرصهم البالغ على تحري سلامتها وصحتها ، حتى إذا ما فوجئوا بما يخرج عن قواعدهم مما قاله العرب الخلص أحالوه إلى الشذوذ حفاظا على اتساق موازينهم ». ينظر : د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١٦٦ ، وص ٢١٩ ، وص ١١٣

○ اضطراب القاعدة النحوِيَّة أحيانا :

غياب سياق الحال وإهماله عن التَّقْعِيد لِلُّغَة أمر خطير ؛ إذ قد يؤدي إلى الاضطراب في وضع القاعدة وتضاربها في بعض الأحيان وعدم دقتها . ومن الأمثلة التي رصدها الباحث وتدل على ذلك الأمثلة التالية :

أ- **جموع القِلَّة والكثرة** :

يقول النحاة إنَّ العربية تفرق بين الجموع ؛ فتجعل من الصيغ ما يفيد القِلَّة ، ومنها ما يفيد الكثرة . قال ابنُ عقيل في شرحه على ألفية ابن مالك بعد أنْ أورد بيت ابن مالك عن جموع القِلَّة :

أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثُم فِعْلَه   ثُمَّتَ أَفْعَالٌ جموع قِلَّة

«جمع التكسير : هو ما دلَّ على أكثر من اثنين ، بتغيير ظاهر ... ، وهو على قسمين : جمع قلة ، وجمع كثرة ، فجمع القِلَّة يدلُّ حقيقة على ثلاثة فما فوقها إلى العشرة ، وجمع الكثرة يدلُّ على ما فوق العشرة إلى غير نهاية ، ويستعمل كل منهما في موضع الآخر مجازا» [(١)] .

ويذهبون إلى أَنَّ الجمع الصحيح مثل «مسلمين ـ مسلمات» يفيد القِلَّة ، ويعبِّر عن عدد في حدود العشرة ، قال السيوطي : «ومن جموع القِلَّة جمع التصحيح قال تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ البقرة : ٢٩ ، ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ يوسف : ٤٣» [(٢)] .

و أَنَّها ـ أي جموع القِلَّة ـ تدل على عدد «مبهم ـ أي لا تحديد ولا تعيين لمدلوله ـ ولَكِنَّه لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد على عشرة ، بشرط ألا توجد قرينة تدلُّ على أَنَّ المراد الكثرة أو القِلَّة ، فعند عدم القرينة تتعيَّن القِلَّة حتمًا» [(٣)] ، ويزعم النُّحَاة والبلاغيون «أَنَّ العرب كثيرا ما تستعمل جمع القِلَّة مكان جمع الكثرة أو العكس لحكمة ما» [(٤)] ، وأنَّ الجموع «يقع بعضها موقع بعض ؛ لاشتراكها في مطلق الجمع» [(٥)] .

ويرى د . إبراهيم أنيس عدم دِقَّة هذا الربط ، ويشير إلى أَنَّ «فكرة اختصاص القِلَّة بصيغ ، والكثرة بصيغ لم تكن من الظواهر الملتزمة في العربِيَّة» [(٦)] وأنَّ قول النُّحَاة «أَنَّ العرب كثيرا ما

---

(١) شرح ابن عقيل : ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث ، القاهرة ، ط ٢٠ ، (١٩٨٠م)، ١١٤/٤

(٢) همع الهوامع : ٣٤٨/٢

(٣) أ/ عباس حسن : النحو الوافي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١١ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ٦٢٨/٤

(٤) د. إبراهيم أنيس : من أسرار اللُّغَة ، ص ١٥٣

(٥) د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البَلاغِيَّة وتطورها ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤

(٦) من أسرار اللُّغَة ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤

تستعمل جمع القِلَّة مكان جمع الكثرة أو العكس » «يحمل في ثناياه دليل ضعف الرأي الذي ذهبوا إليه »[1] . ويرى د . أنيس أَنَّ الأولى بالنُّحَاة «تفسير مثل تلك الكلمات لا على أَنَّها جمع ؛ بل على أَنَّ بعض الكلمات المجموعة قد تفقد فكرة الجمعيَّة على مرِّ الأيام ، وتصبح لكثرة دورانها على الألسن والأسماع كَأَنَّما هي مفردة ؛ فإذا أريد جمعها اتخذت أمثال تلك الصيغ »[2] .

ومما يؤَيِّد د . أنيس فيما ذهب إليه :

✓ وجود النصوص الفصيحة الصحيحة التي تشير إلى خلاف ذلك ، أي التي تشير إلى عدم دقة ربط أوزان مُعَيَّنَة من الأساس بدلالة جمع قِلَّة أو كثرة ، ومن هذه النصوص :

» قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] إنَّ « المجموع بالألف والتاء للقِلَّة ؛ وغرف الجنة لا تحصى »[3] .

» وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥]

» وقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

» وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢]

» ومثل قول حسان بن ثابت :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى   وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما

[بحر الطويل]

✓ ونجد إشارات في كتاب سيبويه تشير إلى تردُّد هذه الجموع بين القِلَّة والكثرة ، منها قوله : « واعلم أَنَّ لأدنى العدد أبنيةٌ هي مختصَّة به ، وهي له في الأصل ، وربَّما شركه فيه الأكثر ، كما أَنَّ الأدنى ربَّما شرك الأكثر »[4] ، وقوله : « وربَّما عنوا ببناء أكثر العدد أدنى العدد ، كما فعلوا ذلك بما ذكرنا من بنات الثلاثة ، وذلك قولهم : ثلاثةُ جدرٍ »[5] .

✓ وها هو الزَّمَخْشَرِيّ يؤكد نفس الفكرة فيقول : «الجموع يتعاور بعضها موقع بعض ، لالتقائهما في الجمعيَّة ، كقوله ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ الدخان : ٢٥ »[6] .

---

(١) السابق : ص ١٥٤

(٢) السابق : ص ١٥٤

(٣) السابق : ص ٦٧٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦٠١/٣

(٦) الكشاف : ٨٩/١

إنَّ سياق الحال حاضر في رأي د . أنيس في نقده لهذه القاعدة ، والباحث يؤَيِّد هذا الرأي ويقول إنَّ الحكم على دلالة جمع ما بقِلَّة أو بكثرة متروك للسياق ، بدون ربط «**حتمي**» لأوزان مُعَيَّنَة بدلالةٍ على القِلَّة أو الكثرة كما نصّ صاحب النحو الوافي ، وفيما أوردنا من أمثلة ما يؤَيِّد ذلك ، ولما يقرِّرُه علمُ الدِّلَالَة من أَنَّ المفردات لا تستقرُّ على حال ؛ وذلك لأَنَّ « الحياة تشجِّع على تغير المفردات ؛ لأَنَّها تضاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات ، فالعلاقات الاجتِماعِيَّة والصناعات ، والعُدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات ، وتقصي الكلمات القديمة ، أوتحور معناها ، وتتطلب خلق كلمات جديدة »[١] .

ومن النُّحَاة المعاصرين الذين تناولوا هذه القضية أيضا د . فاضل السامرائي ، وأشار سيادته إلى أَنَّه «قد يستغنى بجمع عن جمع ؛ فيستعمل جمع القِلَّة للقِلَّة والكثرة »[٢] . وأضاف أَنَّه يعدل عن استعمال القِلَّة موضع الكثرة والعكس « لضرب من البلاغة»[٣] .

ب- نفي النفي :

تتردد في كثير من المراجع النحوِيَّة هذه المقولة :

- « نفي النفي إثبات »[٤] ،
- وأحيانا ترد « نفي النفي إيجاب »[٥] ،
- وفي أحيان ثالثة ترد « نفي النفي إزالة للنفي »[٦] .

وهذه المقولة تُورَدُ مورد الحقيقة المُسَلَّم بها ، بلا نقاش وبلا جدال ؛ لأَنَّها حقيقة « **معروفة ولازمة ومقطوع بها**» عند كثير من العلماء :

- يقول ابن الحاجب : « ... ؛ فيؤدي إلى معنى الإثبات ؛ **إذ نفي النفي إثبات قطعًا**»[٧] .

---

(١) د.رمضان عبد التواب : التطور اللغويّ ، ص ١١ـ ١٢ .

(٢) معاني الأبنية في العَرَبِيَّة : دار عمار ، الأردن ، ط ٢ ، (٢٠٠٧ م) ، ص ١١٨

(٣) السابق : ١٢١

(٤) يُنْظَر على سبيل المثال: عباس حسن : النحو الوافي ، ٥٦٢/١ ، ٦٠٣/١

(٥) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري : الإنصاف في مسائل الخلاف ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ١٧٥/٢

(٦) أبو العرفان محمد بن علي الصبان :حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفِيَّة ابن مالك، دار الكتب العلمِيَّة بيروت ـ لبنان ، ط١ (١٩٩٧ م) ، ٣٦٣/١

(٧) أمالي ابن الحاجب : ت : د. فخر صالح سليمان ، دار عمار ، الأردن ، ط ١ ، (١٩٨٩ م) ، ١٤٦/١

- وجاء في حاشية الصَّبَّان : « **ونفي النفي يستلزم الثبوت** »[(١)] .
- ويقول الأستاذ عباس حسن : « ... ومثل نفي آخر بعده يزيل أثره ، ويجعل الكلام مثبتا ؛ لأَنَّ **نفي النفي إثبات كما هو معروف** »[(٢)] .
- ومن المفسرين من قال : « **ومن المعلوم أَنَّ نفي النفي إثبات** »[(٣)] .

والحق أَنَّ هذه العبارة تتردَّدُ بكثرة في كثير من المصادر والمراجع .

ولَعلَّ أول من تنبَّه لعدم دِقَّة هذه المعلومة وأنَّ فيها نظرًا العلامةُ محمد محيي الدين عبد الحميد[(٤)] ـ طيَّب الله ثراه ـ في كتابه « الانتصاف من الإنصاف » الذي طبع على هامش كتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف » ، فقال ـ رحمه الله ـ في نقد هذه المقولة : « هذه مغالطة ظاهرة ، لا يجوز أَنْ تأخذ بها ، ولا أَنْ تجدها صحيحة ... ، وذلك لأَنَّ النفي إذا دخل على النفي لا يكون الكلام إيجابًا على الإطلاق ، وبيان هذا أَنَّ النفي الداخل على النفي يكون على أحد وجهين : الأول : أَنْ يكون المراد به نفي النفي الأول ، وحينئذ يكون الكلام إثباتا وإيجابا ؛ لأَنَّ نفي النفي إيجاب ، والوجه الثاني : أَنْ يكون المراد بالنفي الثاني تأكيد النفي الأول ، وحينئذ يكون الكلام نفيًا مؤكدًا ، ولا يكون إثباتا أصلا ، وذلك وارد (أي يشبه) في التوكيد اللفظي فإِنَّهُ إعادة اللفظ الأول بنفسه أو بمرادفه »[(٥)] .

وبالتأكيد لا نقول إنَّ نفي النفي يفيد التوكيد وهو الوجه الثاني الذي أشار إليه الشيخ محيي الدين إلا بالاعتماد على سياق الحال . وهذا ما يؤكده د . إبراهيم أنيس عند حديثه عن النفي اللغويّ

---

(١) ٢٢/٢

(٢) النحو الوافي : ٣٥٦/٤

(٣) الإمام البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط١، (بدون تاريخ للطبعة) ، ٣٢٧/٩

(٤) العلامة شيخ العلماء المحققين الدعوبين ، ولد في ٢٣/٩/ ١٩٠٠م ، توفي في ٣٠/١٢/ ١٩٧٢م ، شغل العديد من المناصب العلمِيَّة ، يمثل فلسفة لغَوِيَّة لها منهجها ودقتها وعمقها ، عني بكتب التراث وتحقيقها تحقيقا علميا دقيقا وهو أشهر شارح ومفسر لكتب القدماء في مختلف فنون العلم . يُنْظَر ترجمة وافية عنه : د. محمد رجب الفيومي : النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، مجمع البحوث الإسلامية ـ الأزهر،القاهرة،(١٩٨٤ م) ، ١٦٤/٤

(٥) الانتصاف من الإنصاف ، على هامش الإنصاف في مسائل الخلاف ، طبعة دار الطلائع ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) ، **١٧٥/٢**

فقال إنَّ : « المُتَكَلِّم يريد أَنْ ينفي جملة من الجمل أو معنى من المعاني وقد تدفعه حالته النفسِيَّة أو ظروف الكلام إلى تأكيد هذا النفي ؛ فيكرر أداة النفي مثنى وثلاث ورباع »[(١)] .

بل إِنَّنَا نفهم من كلام د . أنيس أَنَّهُ يكاد ينفي الوجه الأول من نفي النفي حين يقول : « فاللغات حين تكرر الأداة في موضع ما من الجملة إِنَّمَا تهدف إلى توكيد فكرة النفي لا إلى الإثبات »[(٢)] . إنَّ مسألة نفي النفي مثال جَيِّد على خطورة إهمال السِّياق ، وأنَّ إهماله قد يجعل المستمع أو المخاطب يفهم عكس المراد تماما من النَّصّ أو الكلام[(٣)] .

○ عدم استيعاب التوجيه النَّحْوِيّ ، وصيرورة اللُّغَة إلى فوضى ، وإجداب الدراسات اللُّغَوِيَّة :

هذا هو الأمر الثاني من خطورة غياب السِّياق عند التَّقْعِيد . إنَّ كثيرا من التوجيهات النحوِيَّة والبَلاغِيَّة تعتمد على سياق الحال ، ولا يمكن أَنْ يتمَّ هذا التوجيه وفهمه إلا بمعونته . ومثال ذلك :

- كيف يتم استيعاب حذف النعت « صالحة » بعد منعوتها « سفينة » في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] بدون فهم القصة التي قيلت فيها هذه الآية ؟

ومثله قوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ الأنعام : ٦٦ ؛ أي : المعاندون ، وقوله : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ هود : ٤٦ ؛ أي : الناجين ، ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ البقرة : ٧١ ؛ أي : الواضح ، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ

---

(١) من أسرار اللُّغَة : ص ١٧٩

(٢) السابق : ص ١٧٩

(٣) جاء في كتاب « البلاغة العَرَبِيَّة » لعبد الرحمن بن حسن حبنكة ١٩٢/١ ما نصه : « **المؤكد الرابع عشر: تكرير النفي** ، مثل قول الشاعر:

[بحر الكامل]

لاَ. لاَ أَبُوحُ بحُبّ بَثْنَةَ إِنَّهَا ... أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقًا وَعُهُودًا »

فقد اعتبر صاحب كتاب البلاغة العَرَبِيَّة تكرار النفي نوعا من المؤكدات في العَرَبِيَّة . ومن يتأمَّل تكرار النفي في الشعر يجد أنَّه لإفادة التوكيد على وجه العموم ، فمعظم النصوص الشعرِيَّة التي وقعت بين أيدينا وبها تكرار للنفي أفادت التوكيد ، مثل قول الشاعر « مجنون ليلى » :

[بحر الطويل]

خَليلَيَّ لا وَاللَهِ لا أَملِكُ الَّذي قَضى اللَهُ في لَيلى وَلا ما قَضى لِيا

قول الشاعر « زكي مبارك » :

[بحر البسيط]

من أنت لا لن أسمّى من أهيم به يكفى الذي قد مضى من فضح أشجاني

[بحرالبسيط]

وقوله : لا لن أبوح بحبي لن أبوح به إني لأنبت من أركان ثهلان

﴿ شَيْءٍ ﴾ الأحقاف : ٢٥ ؛ أي : سُلِّطَت عليه ، وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » ؛ أي : لا صلاة كاملة .

- قال النُّحَاة : إذا وقع بعد جملة الجواب مضارع مقرون بالواو أو الفاء جاز فيه ثلاثة أوجه إعرابية(١) .

ويعلِّق الأستاذ عباس حسن على هذه المسألة وعلى اختيار الوجه المناسب في « النحو الوافي ٤٧٧/٤ » ، قائلا : « يختار منها المُتَكَلِّم والمعرب ما يناسب السِّيَاق ، ويساير التركيب » . ويضيف في الهامش الأول من نفس هذه الصفحة **كلاما نفيسا ومهمًّا جدا** . يقول فيه :

«كل وجه من هذه الثلاثة يقوم على اعتبار معنوي خاص به ، يخالف الآخر ، وواجب المُتَكَلِّم والمعرب اختيار الوجه الإعرابيّ الذي يقوم على الاعتبار المناسب للسياق ، ولما يقتضيه المعنى . **ومن الخطأ الزعم أَنَّ هذه الأوجه الثلاثة تصلح لكل أسلوب ، وتباح في كل تركيب بغير تقيد بهذا الاعتبار المُعَيَّن الخاص ، وإلا صارت اللُّغَة فوضى بسبب محو القيود ، أو إهمالها ، وإهمال الاعتبارات التي تميز المعاني بعضها من بعض** »(٢) .

ويفهم من كلام أ / عباس حسن أَنَّه لا يجوز تقديم توجيهات نحوِيَّة طالما أَنَّ هناك قرينة سِيَاقِيَّة تُحَدِّد توجيها مُعَيَّنًا ؛ وبمفهوم المخالفة نفهم أَنَّه في غياب القرينة المحدِّدة لمعنى معيَّن يجوز تقديم كل التوجيهات النحوِيَّة والدِّلالِيَّة ؛ لأَنَّ هذا مما يثري المعنى ؛ فالمُعَوَّلُ عليه القرينةُ في التوجيه فإذا كان « تعَدُّد المعنى يكشف عن عدم كفاية القرائن »(٣) ؛ فَإِنَّ كفاية القرائن تدلُّ على تحديد المعنى

- أساليب التوكيد والحذف والنداء ، لا يمكن استيعابها إلا من خلال السِّيَاق ، فأسلوب التوكيد بأشكاله وألفاظه المختلفة وصوره المتنوعة «ذات ارتباط وثيق بالمقام » ، والحذف «في كثير من حالاته يعتمد في تعيينه وفهمه وتحليله على مشاهدة الحال ؛ أي المقام وما يلفُّه من ظروف وملابسات اجتماعِيَّة » ، والنداء يعدُّ «كله وما حواه من أحكام وقوانين يمثل ضربا من

---

(١) الوجه الأول: رفع الفعل المضارع واعتبار الواو والفاء حرفي استئناف ، الوجه الثاني : نصب المضارع باعتبار أَنَّ الفاء للسببية والواو للمعية ، الوجه الثالث : الجزم ، باعتبارهما حرفي عطف ؛ عطفا الفعل على فعل الشرط .

(٢) يُنْظَر أيضا نصب الفعل المضارع بعد حتى ، في مثل قولنا : « سرت حتى أدخل البلد »فإعراب الفعل « أدخل » يتوقَّف على سياق الكلام . ابن عقيل : شرح ابن عقيل على ألفِيَّة ابن مالك ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث – القاهرة، ط ٢٠ ، ١٩٨٠ م ١١/٤

(٣) د. تَمَّام حسان : البيان في روائع القرآن ، ١٦٤/١

الخطاب الكلامي الذي لا يؤدي دوره في التواصل إلا بوصفه عنصرا من عناصر مسرح اجتماعي يضم مرسلا ومستقبلا أو مخاطبا ومتلقيا »[(١)] .

- دلالة الأفعال على زمن معين مرتبطة بالسِّياق ، فدلالة الفعل الماضي مثلا لا تخلص دائما للمضي ، فـ «الماضي له أربع حالات من ناحية الزمن ، تتعين كل واحدة منها عند عدم قرينة تعارضها »[(٢)] .
- وكذلك الفعل المضارع [(٣)] .
- عمل بعض المشتقات عمل الفعل مرتبط بالزمن وبالدِّلاَلَة على الحال أو الاستقبال ، وهذا لا يكون إلا من خلال الوقوف على سياق الحال .
- وهناك كثير من الأمور البَلاغِيَّة التي لا يمكن أَنْ نتذوقها ونتفاعل معها بلاغيا بدون «الخلفيَّة الثقافيَّة» (العَقِيدِيّة ، الاجتِماعِيَّة ، ...) التي نمتلكها . من ذلك مثلا :

» «وضع الخبر موضع الطلب »في قوله تعالى : ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، يقول البلاغيون : «الخبر هنا للأمر »[(٤)] .

» وضع الأمر للخبر ، مثل قوله تعالى : «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا » [التوبة ٨٢] «أي : أنهم : سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا »[(٥)] .

---

(١) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ١٠٤ ، ١٠٢ ، ٧٩

(٢) أ/ عباس حسن : النحو الوافي ، ٥١/١ ـ٥٢ ، وهناك من الباحثين من أوصل دلالة الفعل الماضي إلى تسع عشرة دلالة . يقول د. فاضل السامرائي في كتابه « معاني النحو » تحت عنوان الفعل الماضي أزمنته ص ٣٠٨ وما بعدها : « يستعمل الفعل الماض للدلالة على أزمنة متعددة أشهرها : ١ـ الماضي المطلق ، ٢ـ الماضي المنقطع ، ٣ ـ الماضي القريب ، ٤ ـ الدِّلاَلَة على حدث ماض بالنسبة إلى حدث ماض قبله ، ٥ ـ الدِّلاَلَة على الحال ٦ ـ الدِّلاَلَة على الاستقبال ، ٧ ـ احتمال المضي والاستقبال ، ٨ ـ توقع الحدث في الماضي ، ٩ ـ الدِّلاَلَة على الاستقبال في الماضي ، ١٠ ـ الماضي الحاصل في المستقبل ، ١١ ـ الماضي المستمر ، ١٢ ـ الماضي المستمر المنقطع ، ١٣ ـ استمرار الفعل واتصاله بزمن الإخبار ، ١٤ ـ مقاربة حصول الفعل ١٥ ـ رجاء حصول الفعل ، ١٦ ـ شروع القيام بالفعل ، ١٧ ـ تلبس حصول الفعل بوقت من الأوقات ، ١٨ ـ قد تؤخذ من ألفاظ الأوقات أفعال للدلالة على الدخول في زمن معين ؛ وذلك نحو : أفجر ، بعنى دخل الفجر .... ، ١٩ ـ تقليل حصول الفعل».

(٣) السابق : ٥٧/١

(٤) د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات الأدبيَّة وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط ٢ ، (٢٠٠٧ م) ، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤

(٥) د. أحمد مطلوب : معجم المصطلحات الأدبيَّة وتطورها ، ٣٢١/١ طبعة المجمع العلمي العراقي .

○ **تَفَكُّك أوصال النَّصّ :**

إن وجود السِّياق «يسهل عَمَلِيَّة ربط الكلام وبناء النَّصّ بناء محكما في بدئه وخاتمته والحبكة بينهما »[١] . وبمفهوم المخالفة فَإِنَّ عدم وجود السِّياق يؤدي إلى عكس ما سبق .

ومن الأمور التي اهتَمَّ بها علماء «نحو النَّصّ »قضيَّة «الاتساق النصي ووسائله ».واهتموا بوجه خاص بما أسموه بـ «الإحالة Reference »كإحدى الوسائل المُهِمَّة لتحقيق هذا الاتساق أو السبك Cohesion . وأشاروا إلى عدة أنواع من الإحالة : «إحالة نصية (داخل النَّصّ) ، إحالة مقامية (خارج النَّصّ) ، إحالة بينية »[٢] .

وقالوا عن «الإحالة خارج النَّصّ »: «إِنَّنَا في بعض الأحيان نجد أَنَّ الإحالة لا تصدق على شيء داخل النَّصّ ، بل تمتد إلى شيء خارج النَّصّ ؛ مِمَّا يدلُّ على وجود علاقات متشابكة ومتفاعلة بين اللُّغَة والمواقف الاجتِماعِيَّة والثقافيَّة العامَّة ، بل بينها وبين الخطاب بشكل عام ؛ لأَنَّ الإحالة تقوم على مبدأ التفاعل بين المتلقي والنَّصّ والمواقف العامة الخارجة عن النَّصّ ، وبدون هذا التفاعل يصير الانتفاع بقراءة النَّصّ شيئا غير مؤكد ، أو ربما غير موجود »[٣] .

○ **الوقوع في مأزق عَقِيدِيّ خاصة عند التعامل مع الآيات القُرْآنِيَّة والأحاديث النبَوِيَّة الصحيحة :**

سبق أَنْ أشرنا إلى ما قاله د . بدراوي زهران من أَنَّ عبد القاهر «انتهى إلى أَنَّ التأويلات النحويَّة المنبثقة عن التقديرات العقلِيَّة فقط تغفل طبيعة اللُّغَة وتسيء إلى فهمها إساءة شديدة ، بل الأكثر من ذلك أَنَّها قد توقعهم في ضلالة كبيرة ، وقد تقودهم إلى الكفر والعياذ بالله »[٤] .

إِنَّ هذه النتيجة وحدها كفيلة بأن تلفت بشِدَّة الانتباه إلى سياق الحال ومدى ما يمكن أَنْ يُقَدِّمه للنص قيد التحليل .

****

---

(١) د. محمد التونجي : المعجم المُفَصّل في الأدب ، ص ٥٣٥

(٢) د. أحمد عفيفي : الإحالة في نحو النص دراسة في الدِّلَالَة والوظيفة ، بحث ضمن الكتاب التذكاري : العَرَبِيَّة بين نحو الجملة ونحو النص ، القاهرة ، (٢٠٠٥م)، ٥٤٩/٢

(٣) السابق ، ٥٤٣/٢

(٤)« من قضايا اللُّغَة وجوب تحليل البناء اللغويّ من خلال مسرح الحدث الذي دار عليه »: د. بدراوي زهران ، مجلة مجمع اللُّغَة ع ٥٠ ، ص ١١٠ وينظر مناقشة عبد القاهر لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾التوبة: ٣٠ . الدلائل : ٣٧٥

• النصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد :

من الأمور التي تستحق فضل بيان وإلقاء بعض الضوء عليها في هذا التمهيد الإشارة إلى طبيعة النصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ في العربيَّة ونقول : إنَّ أنماط النصوص التي اعتمد عليها النُّحَاة عند تقعيدهم هي : الآيات القُرْآنيَّة ، كلام العرب : شعره ونثره ، وأحيانا الحديث النبوي للائتناس والاسترشاد . وأول ما نَوَدّ إثباته هنا أَنَّه إذا كان الكلام العادي مرتبط بالسِّياق بطبيعته ، فأنماط هذه النصوص أشد ارتباطا به .

فالقرآن الكريم ـ الذي يأتي على قمة اللسان العربي من حيث «انتظامه خواص العربيَّة ومميزاتها : قواعد وتراكيب وعلم نظم وأسلوب ـ بُلِّغَ إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منطوقا منجَّمًا بحسب الأحوال والظروف ، وموزعة آياته وسوره على الزمان والمكان »[(١)] ، وهو «جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال ... [و] خوطب [به العرب] بما يتعارفونه ، وسلك باللطف معهم المسلك الذي يسلكونه »[(٢)] .

والشعر وارتباطه بالسِّياق الذي يقال فيه لا يحتاج إلى بيان ؛ فكل «شاعر أو ناثر يصدر عن ذات نفسه وفقا لثقافته وحياته الاجتِماعِيَّة ، ووفقا للغرض الذي يتناوله ، والمقام أو المسرح اللغويّ الاجتماعِيّ المُعَيَّن » ، وأَيَّة رسالة أدبيَّة شعرِيَّة أو نثرِيَّة تفرض أَنْ « يطعم المرسِل (الناثر أو الشاعر) أو أَنْ يلون رسالته بألوان لغَوِيَّة جديدة ، بوصفها أوقع في نفس المستقبل وأقرب إلى موقعه الثقافي الاجتماعِيّ ، ويستوي في ذلك أَنْ تكونَ هذه الألوان صوتيَّة أو صرفِيَّة أو نحوِيَّة »[(٣)] .

والحديث النبوي « كان موجَّها إلى الناس أجمعين ، بكل فئاتهم وطبقاتهم وبيئاتهم الثقافيَّة والاجتِماعِيَّة ... فكان من الطبيعي أَنْ تأتي كلماته وأساليبه مطابقة للظروف والحال والغرض الذي يقصد إرساله أو التعبير عنه أو توصيله إلى الناس »[(٤)] .

ومن النصوص المُهِمَّة التي ذكرها العلماء عن سيبويه ما رواه البغدادِيّ في خزانة الأدب عن الأخفش الأصغر على بن سليمان إذ يقول : «وعمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها فجعل فيه بيتا مشروحا وجعل فيه مشتبها ليكون لمن استنبط ونظر فضلٌ »[(٥)] .

---

(١) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٧٢

(٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٢٤٠

(٣) د. كمال بشر : علم اللُّغَة الاجتماعِيّ ، ص ٧٤

(٤) السابق ، ص ٧١

(٥) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ٣٧٢/١

وتستوقف القارئ كلمة البغدادِيّ في هذا النَّصّ «وخطبها وبلاغتها »، وهي عبارة مثيرة تثير التساؤل فما المقصود بأن سيبويه عمل كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها ؟

يمكن تفسير هذه اللفظة في ضوء سياقها الذي وردت فيه بأنَّ سيبويه اعتمد عند تقعيده على لغة العرب وخطبها وعلى النصوص البليغة التي يطابق فيها الكلام مقتضى الحال . وفي هذا ولا شك إشارة للعنصر الاجتماعِيّ سياق الحال الذي اعتمد عليه سيبويه .

****

• القواعد العلميَّة المراعاة عند تقعيد القاعدة :

ومما أَجِدُهُ واجب الإشارة إليه في هذا التمهيد الحديث عن القواعد العلميَّة المراعاة عند تقعيد القاعدة . والإشارة هنا إشارة معيارية ؛ بمعنى أَنَّها ستكون المعيار الذي نحتكم إليه عند مناقشتنا لدور السِّياق في التَّقْعِيد والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه ؛ لإظهار مدى «علمِيَّة» ما نقوله .

من خلال ما سبق ، وما أقرَّهُ العلماء يمكن أَنْ نضع بعض الشروط للوصول إلى قاعدة لغَوِيَّة سليمة ، منها :

١- **ملاحظة مسرح الحدث اللغويّ والعنصر الاجتماعِيّ** :

ينبغي عند التَّقْعِيد ملاحظة الجانب الاجتماعِيّ ومسرح الحدث اللغويّ ؛ فإهماله يؤدي إلى اضطراب القاعدة ، وإشاعة الفوضي كما بيَّنا . كما أَنَّ اعتباره أيضا يقلِّلُ من اختلافات النُّحَاة في التوجيهات الإعرابِيّة والنحوِيَّة .

ويرسِّخ هذا المعنى علمٌ من أعلام العربِيَّة هو أبو حيان في مقابساته عند تفريقه بين النحو والمنطق ، فيؤكد أَنَّ «النحو» :

- «يرتب اللفظ ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية ».
- «والشهادة في النحو مأخوذة من العرف ».
- « ودليل النحو طباعي ».
- «والنحو يتبع ما في طباع العرب ، وقد يعتريه الاختلاف ».
- « والنحو تحقيق المعنى باللفظ ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل ».
- « والنحو يدخل المنطق ، ولكن مرتبًا له ، والمنطق يدخل النحو ، ولكن محققًا له ».
- « والنحو أشد التحامًا بالطبع ».
- « والنحو شكل سمعي ، والمنطق شكل عقلي ».

▪ « وشهادة النحو طباعية ، وشهادة المنطق عقلية »[١] .

كل ما سبق من أقوال أبي حيان مُؤَدّاه أَنَّ القاعدة يجب أَنْ تؤخذ من « العرف وعادة أصحاب اللُّغَة ، فما تعودوه من أساليب التعبير ، وما جرت به ألسنتهم ، وما ألفوه في كلامهم من طرق مُعَيَّنَة في التعبير بالألفاظ ؛ كل هذا هو المصدر الوحيد لنحو كل لغة »[٢] .

ويتأكَّد لدينا أهمية ملاحظة مسرح الحدث اللغوي والجانب الاجتماعي إذا نظرنا إلى كتب القواعد الحديثة في اللُّغَة الإنجليزية ، فسنجد هذه الكتب تهتم برسم مسرح للحدث اللغويّ قبل الشروع في شرح القاعدة من خلال «الرسوم الكاريكاتورية والصور الفوتوغرافية» ، وبين يدي كتابان من أشهر كتب القواعد الإنجليزية المتداولة بين المتخصصين في اللُّغَة الإنجليزية يعتمدان هذه التقنية ، وهما :

- **English Grammar In Use, Raymond Murphy , Cambridge University Press .**
- **Oxford Practice Grammar, John Eastwood , Oxford University Press .**

من يتصفح هذين الكتابين يجد الرسوم والصور الفوتوغرافية مبثوثة فيهما من أول الكتابين إلى آخرهما وليُنظَر الكتاب الأول على سبيل المثال عند شرحه للأزمنة في اللُّغَة الإنجليزية .

إن استغلال الرسوم والصور في شرح القاعدة أمر يتَّجه إليه الشارحون للقواعد في مختلف اللغات ؛ لأَنَّه أمر يسهل الشرح ويثبت القاعدة في الأذهان[٣] . والصورة « لم تعد تساوي ألف كلمة ـ كما جاء في القول الصيني المأثور ـ بل صارت بمليون كلمة ، وربما أكثر . لقد أصبحت الصور مرتبطة الآن على نحو لم يسبق له مثيل ، بكل جوانب حياة الإنسان »[٤] . لقد « ساهمت علوم الصورة وتقنياتها وتجلياتها في عمليات التربية والتعليم من خلال الصور التوضيحية والرسوم

---

(١) يُنْظَر : المقابسات : ت: حسن السندوبي ، الهيئة المصريَّة ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦ م)، المقابسة ٢٢ ، ص ١٧١وما بعدها

(٢) د. إبراهيم أنيس : من أسرار اللُّغَة ، ص ١٣٧

(٣) ولم يقتصر أمر استغلال الرسوم والصور في اللُّغَة الإنجليزية على كتب القواعد فقط بل انتقلت إلى المعاجم اللُّغَوِيَّة ، التي أصبحت مملوءة بالصور الملونة اللامعة التي تشد الانتباه شدا وتغري بالاقتناء لجودة طباعتها ورخص أثمانها ، أذكر من هذه المعاجم التي بين يدي :

- **Collins Cobuild Intermediate Dictionary of English , Thomson ELT, 2008**
- **Oxford Wordpower Dictionary, Oxford University Press, 2006**
- **Longman Active Study Dictionary, Longman, 2002**

(٤) د. شاكر عبد الحميد : عصر الصورة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، يناير ٢٠٠٥م ، ع ٣١١ ، ص ٧

المصاحبة للكلمات ، أو من خلال تقنيات الفيديو والسينما ، وأجهزة عرض البيانات »[(١)] . ونتيجة لذلك « ينصح كثير من خبراء التربية والتعليم بأهمية المزواجة بين الكلمة والصورة في المراحل المختلفة لتعليم الصغار والكبار أيضا »[(٢)] .

ونتمنى أَنْ تطبق تلك التقنية في كتب القواعد للناشئة . وإن شاء الله فيما يلي سنبيِّنُ أَنَّ سيبويه في بعض الأحيان كان يهتمُّ برسم مسرح لغوي بسيط ـ حواري غالبا ـ قبل إقرار القاعدة .

٢. الاعتماد على الأكثر :

فما كثر شيوعه وزادت نسبة وروده يُقاس عليه ، وتؤسس عليه القاعدة ، ويستنبط منها الصحيح المقبول « وتلك هي الطريقة العلميَّة الحديثة في تقعيد القواعد ، واستخراج مسائل اللُّغَة »[(٣)] .

٣. الاعتماد على القياس الاستقرائي :

وهو الذي يكون فيه « الانتقال من الجزئيّات إلى الكليّات ، وهو الأصلح في تقعيد القواعد »[(٤)] . ولذلك لعله من أفضل التعريفات التي نراها معبِّرة عن علم النحو التعريف الذي يقال فيه : « النحو في الاصطلاح هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصِّلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها »[(٥)] .

***

---

(١) السابق : ٨

(٢) السابق : ١٥٤

(٣) السابق : ص ١١

(٤) السابق : ص ٣٠

(٥) أبو العرفان محمد بن علي الصبان : حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفِيَّة ابن مالك ، دار الكتب العلمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٧م)، ٢٣/١

الفصل الأول

السياق والمنهج عند سيبويه

- **المبحث الأول : سيبويه والسِّياق :**
  - سيبويه يقوم بالتَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة .
  - اعتبار سيبويه للسياق .
  - المُتَكَلِّم والمخاطب أبرز عناصر سياق الحال التي اهتَمَّ بها سيبويه .
- **المبحث الثاني : خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التقيعد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه :**
  - تصنيف اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة مُجَرَّدة .
  - الإحصاء العددي للتراكيب النَّمَطِيَّة .
  - تَتَبُّع التركيب اللغويّ المُعَيَّن قيد البحث في السِّياقات المختلفة وربطه بدلالة السِّياق إنْ وجدت .
  - معايشة التراكيب اللُّغَوِيَّة في نصوصها المنطوقة .

الفصل الأول : السياق والمنهج عند سيبويه

مقدمة :

إذا كان موضوع بحثنا يبحث علاقة السِّياق بالتَّقْعِيد والتوجيه عند سيبويه فهذا يُمْلِي علينا في البدء وقبل خوض البحث أسئلةً مُهِمَّة هي : هل توفرت أصلا وفي الأساس لدى سيبويه الظروف السِّياقِيَّة المقاميَّة المناسبة لكي نقول بوجود تأثير للسياق على التَّقْعِيد والتوجيه عنده ؟ ! هل كان سيبويه يقوم بالتَّقْعِيد والتوجيه من خلال النصوص المنطوقة أم المكتوبة ؟

وإذا افترضنا أَنَّ الظروف السِّياقِيَّة والمقامِيَّة وُجِدَتْ وتهيَّأت لسيبويه عند التَّقْعِيد والتوجيه ؛ فهل كان يَعْتبِر هذه الظروف ؟ وهل أَثَّرَ السِّياقُ في تقعيده وتوجيهه ؟ أم أنَّه أغفلها واعتمد نظَرِيَّة العامل بشكل أساسي متأثرا بالبيئة الفلسفِيَّة في البصرة ؟ ! وإذا ثبت تأثيرُ السِّياق في التَّقْعِيد والتوجيه عنده فهل كانت كلُّ مكونات السِّياق التي ذكرناها قبلُ لها تأثير متساوٍ في هذا التَّقْعِيد ؟ أم أَنَّ بعض مكونات السِّياق كان لها دور أكثر بروزا من غيرها ؟

وأثارت مجموعةُ الأسئلة السابقة مجموعةً أخرى غيرها هي : هل كانت هناك خطوات مُعَيَّنَة يقوم بها سيبويه قبل التَّقْعِيد والتوجيه ؟ وبغض النظر عن تَأَثُّره بالسِّياق أم لا ، هل كان هناك منهج مُحَدَّد يسير عليه في تقعيده وتوجيهه ؟ !

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ستجعلنا نفهم بشكل أدقّ وأعمق دور السِّياق في عَمَلِيَّة التَّقْعِيد والتوجيه ؛ لذلك جعلنا عنوان هذا الفصل : السياق والمنهج عند سيبويه ، وقسَّمتُه إلى مبحثين :

أ- سيبويه والسِّياق .

ب- خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التوجيه الإعرابِيّ والتَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه .

****

المبحث الأول : **سيبويه والسِّياق** :

في هذا المبحث سيدور الكلام حول ثلاث نقاط :

أ ـ إثبات أَنَّ سيبويه كان يضع قواعده من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة .

ب ـ توجيه النظر إلى أَنَّ سيبويه كان يعتبر سياق الحال عند تقعيده للقواعد .

ج . إيضاح أَنَّ المخاطب والمُتَكَلِّم كانا أبرز عناصر سياق الحال التي اهتَمَّ بها سيبويه .

ومن خلال الحديث في هذه النقاط الثلاث وإبرازها نُثبت علاقة سيبويه بالسِّياق وخاصة سياق الحال ، ونظهر مكنون هذه العلاقة . وأعتقد أَنَّ إثبات هذه العلاقة أمر مُهِمّ لموضوع البحث ، إذ كيف نتحدث عن دور سياق الحال في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ في كتاب سيبويه دون أَنْ نثبت ابتداء وجود ثَمَّة علاقة بين سيبويه وسياق الحال ؟ وكيف نخطو خطوات في بحثنا دون أَنْ نبيِّنَ مدى تَلبُّس سيبويه بهذه العلاقة ؟

وأول ما يساعدنا على إثبات هذه العلاقة إظهار أَنَّ سيبويه كان يعتمد في تقعيده النَّحْوِيّ على اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة ، وثانيا أَنَّ هذه اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة قادته إلى اعتبار سياق الحال في دراسته وتقعيده لِلُّغَة ؛ لما لاحظه من وجود تأثير له عليها ، وثالثا أَنَّ وعيه بأهمِيَّة سياق الحال في دراسة اللُّغَة تقعيدا وتوجيها وتفاعله معه أوقفه على أَنّهُ ليست كلُّ العناصر المُكوِّنة لسياق الحال على درجة واحدة من الأهمِيَّة ، وأنَّ أبرز هذه العناصر أهمِيَّةً المخاطبُ والمُتَكَلِّم .

- **سيبويه يقوم بالتَّقْعِيدالنَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة :**

من المبادئ اللُّغَوِيَّة التي يُقرُّها اللغويّون أَنَّ اللُّغَة المنطوقة «تتسم بسمات معيَّنة حُرِمَتْ منها اللُّغَة المكتوبة ، ففي النطق والأداء الصوتي لِلُّغَة خواصّ لا يمكن أَنْ تُفصح عنها النصوص المكتوبة فهذه النصوص في صورتها العامَّة جامدة ساكنة ، خالية من الخواص النطقيَّة البالغة الأهمِيَّة في عَمَلِيَّة الإيصال والتوصيل ، كالنبر ، وموسيقى الكلام (التنغيم) ، والفصل والوصل ، وما يَلُفُّ كلَّ ذلك من ظروف ومناسبات في مقامات الكلام وسياقه الاجتماعِيّ»[(١)] .

وما هذا المبدأ مبدأ الاعتماد على اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة عن سيبويه ببعيد ؛ فمن يدرس الكتاب ويسبر غوره ، يجد أَنّهُ يعتمد في تقعيده وتوجيهه النَّحْوِيّين على اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة . والشواهد على ذلك كثيرة ومتنوعة ، منها :

---

(١) د. كمال بشر : التفكير اللغويّ بين القديم والحديث ، دار غريب ، القاهرة ، ، (٢٠٠٥ م)، ص ٥٧

ـ تكرار سيبويه لكلمة «**سمعنا**» وتصريفاتها ، التي تسبق النصوص والاستشهادات التي يوردها للتدليل على القاعدة التي يشرحها ويقرِّرها ، فقد دأب على مدار الكتاب على تأكيده لهذا «**السماع**» ، وبلغ عدد المواضع التي ذكر فيها «سماعه» للنص من أفواه العرب ومن نقل عنهم أكثر من مِئتَين وست وأربعين مَرَّة (٢٤٦ مَرَّة) . ومن أقواله في هذا :

- «وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به ...» [(١)] .
- «وسمعنا عربيًّا موثوقا بعربِيَّته ...» [(٢)] .
- «فكلّ هذه البيوت سمعناها من أهل الثقة هكذا» [(٣)] .
- «سمعنا أكثر العرب يقولون في بيت امرئ القيس ...» [(٤)] .

وفي بعض الأحيان لا ينص فقط على سماعه ، بل ينص على عدالة وفصاحة ومن تُرْضى عربيَّته ويُوثَق بهم ممن أخذ منهم ، يقول :

- «وسمعنا ممن تُرْضى عربِيَّته ...» [(٥)] .
- «وقد قال قومٌ من العرب تُرضىَ عربيَّتُهم ...» [(٦)] . وهذه العبارة وسابقتها توحيان بأَنَّه يقسم القبائل العربِيَّة قسمين : قسم تُرْضَى عربِيَّته ؛ يؤخذ منه ، وقسم لا تُرضى عربِيَّته ؛ يحاول قدر الإمكان تجنُّبه ، وإن ذكره يذكره على سبيل الشذوذ .
- «وسمعنا فصحاء العرب ...» [(٧)] .
- «وحدَّثني من لا أتَّهم عن رجل من أهل المدينة موثوق به أَنّهُ سمع عربيًّا يتكلَّم ...» [(٨)] .

فليس الأمر مجرد سماع ، بل سماع من ثقة عَدْل ، وأعتقد أَنَّ سيبويه تَأَثَّر بمنهج المحدِّثين وطريقتهم في التثبُّت من الأخبار ؛ إذ طلب في بداية حياته الحديث والفقه .

ويُعَبِّر سيبويه عن هذا السماع بطريق غير مباشر بأنْ يقول إنَّ هذا النَّصّ أو ذاك تكلَّمت أو لم تتكلَّم به العرب ، يقول مثلا :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٤ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤ م) ، ٥٣/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٩٨/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٣٧/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٣/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٥٣٣/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ١٨٢/١

(٧) سيبويه : الكتاب ، ١٥٧/٣

(٨) سيبويه : الكتاب ، ١٥٢/٣

- « وكلُّ ذلك تَكَلَّم به عامَّة العرب »[١] .
- « ولا تكاد العرب تَكَلَّم به ... »[٢] .
- « وليس في كل شيء يقال إلا أَنْ تقيس شيئا وتعلم أَنَّ العرب لم تَكَلَّم به »[٣] .

وإذا اضطره التفسير والشرح إلى اللجوء لجملة مصنوعة ليس لها نموذج حيّ وواقعيّ في اللُّغَة نبَّه على ذلك بجملة تكررت كثيرا في كتابه يقول فيها : « وهذا تمثيل لم يتكلَّم به »[٤] .

ويحرص بعد تقديمه لعدة توجيهات نحوِيَّة أَنْ يوضح أَنَّها مستعملة . ففي حديث له عن نصب الاسم المشغول عنه أو رفعه ، وأيُّهما أجود ، يقول : « وكلُّ هذا من كلامهم »[٥] .

وسيبويه في حرصه على السماع يتحرك ميدانيًّا للسماع المباشر من أصحاب اللُّغَة ، لكي يقف على اللُّغَة غضة كما ينطقها أصحابها ، يقول : « وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه (أي : الخليل) »[٦] . وهو في تَحَرُّكه الميداني يسأل من ينتمون إلى القبائل العربِيَّة ؛ فيقف على ما هو مشترك بينها ، وما تَتَمَيَّز به قبيلةٌ معيَّنة من تركيب نحوي معيَّن أو بناء صرفي ما ، يقول :

- « وسألنا العُلْويين والتميميِّين فرأيناهم يقولون ... »[٧] .
- « وإِنَّمَا يقولها من العرب بنو العَنْبَر ... »[٨] .

وينصُّ سيبويه عند ذكره لكثير من أبيات شواهده الشعرِيَّة على أَنَّهُ سمعها <u>وهي في حالة</u> «**<u>إنشاد</u>**» . يقول في بعض هذه المواضع :

- « وزعم أبو الخَطَّاب أَنّهُ سمع بعض العرب الموثوق بهم <u>ينشد هذا البيت</u> ... »[٩] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٥٨/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٥٦١/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٩٤/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٢/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٨٣/١

(٦) سيبويه :الكتاب ، ٢٩٠/٣

(٧) سيبويه :الكتاب ، ٢٩١/٣ والعُلْويين : أهل العالية ، وهي ما فوق أرض نجد إلى أرض تهامة وإلى ما وراء مكة . (الحاشية ذات الرقْم ١) .

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٤٨٠/٤ ، وبنو العنبر ـ ويقال : بَلْعنبر ، بفتح الباء وسكون اللام ـ حي من تميم ، من العدنانية وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، ينظر : القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط٢ ، (١٩٨٠م) ، ص ٦٨

(٩) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٤/١

- « وسمعناهم ينشدون هذا البيت ... »[١] .
- « وأنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس ، وزعم أنّهُ شعر أبيه »[٢] .

وقد عقد سيبويه بابا من أبواب كتابه سماه « باب وجوه القوافي في الإنشاد » قال فيه : « الشعر وضع للغناء والتَّرَنُّم »[٣] .

وقد أشار سيبويه لهذا الإنشاد في أكثر من ٤٥ موضعا .

ولا شك أَنَّ حالة الإنشاد هذه التي يقوم بها الشاعر أو من ينوب عنه يصاحبها رفع الصوت ، وكثير من الإشارات الجسدِيَّة والهيئة والإيقاع والتقطيع والتشدُّق وكل ما يُعين مُلْقِي القصيدة على التعبير عن قصيدته وما بها من معان[٤] .

ومن إشارات البغدادي لهذا الأمر قوله : « العرب كان بعضهم يُنشد شعره للآخر ؛ فيرويه على مقتضى لغته التي فطره الله عليها وبسببه تكثر الروايات في بعض الأبيات »[٥] .

من إشارة البغدادي نعلم أنَّ تناشُد الشعر كان أمرا مألوفا بين العرب ، وأن العرب كانت تُنشد شعرها لبعضها البعض ، وهذا يعني ـ من وجهة نظر الباحث ـ أنَّ الملابسات السياقيَّة للنصِّ الشعريّ المُنشَد ستكون حاضرة مع كل قصيدة . كل الملابسات السياقية بما فيها النواحي الصوتية للمنشِد وتعبيرات الوجه والجسد وغيرها .

ومما قرأه الباحث ـ ويجِدُهُ قريبا مما نتحدّث عنه هنا ـ كلامًا عن « الثقافة الشفاهيَّة » في كتاب « الشفاهيَّة والكتابيَّة **Orality and Literacy** »[٦] لمؤلفه والتر ج . أونج . وهو كتاب يبرز الفرق بين الثقافة الشفاهيَّة ـ أي التي تقوم على المشافهة ـ ، والثقافة الكتابيَّة ـ أي التي يقوم على الكتابة ـ ومن المبادئ التي أرساها والتر ج . أونج في هذا الكتاب :

أ- « ... أمَّا **في الكلام الشفاهيّ ، فلا بدَّ أَنْ تشمل الكلمة هذا التنغيم أو ذاك كأنْ تكون الكلمة حيوية أو مثيرة أو هادئة أو ساخطة أو مذعنة ، أو أيًّا ما كانت ، فمن المحال نطق كلمة ما شفاهة دون أي تنغيم** ... والممثلون ينفقون الساعات لتقرير كيف ينطقون الكلمات في النَّصّ

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٧١/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٠/٣ ، وقد ورد التصريح بالإنشاد في أكثر من ثلاثة وأربعين موضعا .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٤/٤

(٤) د.علي الجندي : الشعراء وإنشاد الشعر ، دار المعارف ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة ولا ترتيبها)، ص ٤٤ وما بعدها

(٥) خزانة الأدب : ١٧/١

(٦) يقول د. حسن البنا عز الدين مترجم هذا الكتاب عنه أن الكتاب منذ صدوره عام ١٩٨٢م أعيد طبعه بالإنجليزية عشر مرَّات حتى عام ١٩٩٢م ، وترجم لأكثر من خمس عشرة لغة منها الكورية والصينية ، ص ١٢

الذي أمامهم . فمن الممكن أَنْ يلقي أحد الممثِّلين فقرة ما بصوت جهير ويلقيها آخر همسا . ولا يكون السِّياق خارج النَّصّ غائبا لدى القراء فحسب ، بل لدى الكاتب كذلك ، وافتقاد السِّياق الذي يمكن التحقق منه هو عادة ما يجعل الكتابة نشاطا متعبا إلى حد يفوق الإلقاء الشفاهي على جمهور حقيقي » [(١)] .

ب- « وتنتج الثقافات الشفاهية ـ في الواقع ـ أداءات لسانية مليئة بالقوة والجمال ، وذات قيمة فنية وإنسانية عالية ، أداءات لا تعود ممكنة في اللحظة التي تستحوذ فيها الكتابة على النفس البشرية » [(٢)] .

ت- « تختلف حالة الكلمات في نصّ ما اختلافا تامًّا عن حالتها في الخطاب المنطوق . وعلى الرغم من أَنَّ الكلمات المكتوبة تشير إلى الأصوات ، و أَنَّها لا يكون لها معنى إلا إذا أمكن وصلها ـ ظاهريا أو في الذهن ـ بالأصوات ، وعلى نحو أدقّ بالفونيمات التي تحولها إلى رموز ؛ فَإِنَّها تظل معزولة عن السِّياق الكامل الذي تبرز من خلاله الكلمات المنطوقة إلى الوجود ؛ فالكلمة في موطنها الشفاهيّ الطبيعي تمثل جزءا من حاضر وجودي حقيقي ، والقول المنطوق إِنَّمَا يصدر عن شخص حقيقي حيّ إلى شخص أو أشخاص آخرين حقيقيِّين أحياء ، في لحظة زمَنِيَّة بعينها في موقف حقيقي يتضمن دائما ما يتجاوز مجرد الكلمات . **فالكلمات المنطوقة هي دائما تعديلات على موقف يضم أمورا غير الكلام أيضا فهي لا تقوم أبدا بذاتها ، في سياق لا يشمل سوي الكلمات** » [(٣)] .

ث- «وتشترك هذه الخصائص في سمة أساسية ، تتمثل في العلاقة الفريدة للصوت بدخيلة الإنسان ، وذلك عندما نقارن الصوت ببقية الحواس ، وهذه العلاقة مُهِمَّة بسبب داخلية كل من الوعي والتواصل الإنسانيين» [(٤)] .

من خلال الاقتباسات السابقة يضع والتر ج . أونج أيدينا على مجموعة الحقائق المُهِمَّة التالية :

» الكلام الشفاهي مرتبط لا محالة بالتنغيم .

» الكلام الشفاهي يرتبط بأداءات لسانية مليئة بالقوة والجمال ذات قيمة إنسانية وفنية عالية ، لا يمكن أَنْ توجد في الكتابة .

» الكلام الشفاهي يرتبط بشخص حي في لحظة زمَنِيَّة بعينها في موقف حقيقي .

---

(١) الشفاهية والكتابية : ترجمة : د. حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ع ١٨٢ ، ط ١ ، (١٩٩٤م)، ص ١٩٣

(٢) السابق ، ص ٦٥

(٣) السابق ، ص ١٩٢

(٤) السابق ، ١٤٧

» الكلام الشفاهي يرتبط بالصوت الذي يرتبط بدوره بدخيلة الإنسان .

وإذا ضممنا إلى مجموعة الحقائق السابقة مجموعة الحقائق التالية التي تقول :

أ- «الإنشاد : رفع الصوت ، ومنه إنشاد الشعر »[(١)] . و«أنشد القصيدة إنشادا : إذا رفع صوته في إلقائها »[(٢)] .

ب- ويتضح من تَتَبُّع مصطلح الإنشاد في المعاجم أَنَّه مرتبط بالشعر .

ت- وأَنَّ حُسْنَ إنشاد الشعر كان مثار تفاضل بين الرواة ، يُعَدُّ حسنُ الإنشاد منقبةً لأحدهم يفتخر بها وقد يُذَمُّ المنشد بسوء الإنشاد أيضا ، ونقرأ أحيانا في كتب التراجم أَنَّ فلانا «من أحسن الناس إنشادا للشعر »[(٣)] .

ث- ويحدِّثُنا المؤرخون أَنَّه قبل انقضاء القرن الثاني الهجري امَّحت أسواق الجاهلية ، «ولكن سوقا واحدة نشأت في الإسلام احتفظت بكثير من خصائص أسواق الجاهلية ، وزادت عليها بميزات واسعة ... تلك هي سوق المِرْبَد في البصرة ، السوق التي استطاعت أَنْ تكون مرآة تعكس حياة العرب في الجاهلية كما تصور حضارتهم في الإسلام »[(٤)] . صارت هذه السوق على عهد الأمويين سوقا «تتَّخذ فيها المجالس ، يخرج إليها الناس كُلَّ يوم ، كُلٌّ إلى فريقه وحلقته وشاعره ، وتتعدد فيه الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز ، ويؤمُّها الأشراف وسائر الناس يتناشدون ويتفاخرون »[(٥)] . فالمربد «معرض لكل قبيلة ، تُعرض فيه شعرها ومفاخرها ، وهو مجتمع العرب ومُتَحدَّثهم ومتنزه البصريين ... وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال حتى اشتد ولوع الناس به وارتيادهم له »[(٦)] ، وبه «كانت مفاخرات الشعراء والخطباء »[(٧)] ، وكان «يعج بأعلام اللُّغَة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابرهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه »، وكان « لكل شاعر حلقة ، ولكل متهاجيين مجلس ، ولكل قبيلة ناد وشاعر يذود عنها ويردّ عدوان قريعه من القبيلة الثانية : فللعجاج ولرؤبة حلقة ، ولأبي النجم العجلي حلقة ، ولجرير حلقة ،

---

(١) الزبيدي : تاج العروس ، ٢٢٢/٩

(٢) الحريري : درة الغواص في أوهام الخواص، مؤسسة الكتب الثقافيَّة ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٨م)، ص ٢٨٥

(٣) ينظر على سبيل المثال ترجمة : أبو النجم الراجر ، الأعلام للزركلي ، ١٥١/٥

(٤) سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، دار الفكر ، القاهرة ـ بيروت ، ط ٣ ، (١٩٧٤م)، ص ٣٩٤

(٥) السابق ، ص ٤٠٨

(٦) السابق ، ص ٤٠٨

(٧) السابق ، ص ٤٠٩

والفرزدق وراعي الإبل وذي الرمة حلقة »[(١)] . ويتفرد المربد بأمر علمي محض « لم يكن له في عكاظ من أَثر ، وهو أَنَّه أرفد اللُّغَة بمادة كثيرة ، عليها أسس النُّحَاة قواعدهم وأصلحوها ، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء العرب يسألونهم فيما فيه يختلفون ... [و] تجد أَنَّ أكثر مادتها فيما يتعلق بالعصر الأول والثاني للهجرة»[(٢)] . ولا يمكن أَنْ يكون سيبويه الذي نشأ وتربى في البصرة أَنْ يكون بمعزل عن هذه السوق وهذه البيئة العلميَّة التي يُنْشَدُ فيها الشعر من رواة متقنين .

ج- قال البغدادِيّ : «وعمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها »[(٣)] .

إذا وضعنا هاتين المجموعتين من الحقائق إزاء بعضهما نخرج بحقيقة علمِيَّة مُؤَدّاها أَنَّ سيبويه ـ لا محالة ـ وضع قواعده من خلال لغة مُنشَدة منطوقة حية تتفاعل مع الواقع تفاعلا ، و أَنَّه قد أسس قواعده على ثقافة شفاهيَّة تتمتع بكل ما نقلناه عن والتر ج . أونج . وقد علمنا في التمهيد من قبل أن سيبويه كان جل اعتماده على الشعر في تقعيده .

ومما يثير الدهشة والعجب لدى المتأمِّل لنصوص الكتاب انتباه سيبويه لتفاصيل دقيقة جدا أثناء عَمَلِيَّة السماع للنصوص الشعريَّة والنثرِيَّة ، تفاصيل لا تحتاج فقط إلى تركيز سمعي بل أيضا إلى تركيز بصري فائق .

- من هذه التفاصيل الدقيقة مثلا انتباهه للاختلافات الصَّوْتِيَّة الدقيقة التي تحتاج إلى سمع مرهف خبير بالأصوات ، فنجده مثلا يلاحظ الاختلافات الصَّوْتِيَّة لحرف « الزاي » وأَنَّ له اختلافات في النطق ، فيقول : «وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة»[(٤)] . ونجده يرصد صوتيًّا ما يحدث لحرف العين من تغير صوتي إذا أتي مع حرف الهاء ؛ فيقول : « ومما قالت العرب تصديقا لهذا في الإدغام قولُ بني تميم : مَحُّمْ ، يريدون : معهم ، ومَحَّاولاءِ ، يريدون : مع هؤلاءِ »[(٥)] .
- وفي الحقيقة إِنَّ باب الإدغام في كتاب سيبويه يدلُّ على براعته الفائقة ودِقَّتِه في ملاحظة الفروق الصَّوْتِيَّة بين الحروف .

---

(١) السابق ، ص ٤١١

(٢)السابق ، ص ٤١٢

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ٣٧٢/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٧٨/٤ وينظرما قاله السيوطي في همع الهوامع في باب مخارج الحروف عن علاقة حرف الصاد بحرف الزاي . ٣/ ٤٩٢ (طبعة مكتبة التوفيقية ، ت : د. عبد الحميد هنداوي)

(٥) سيبويه : **الكتاب** ، ٤٥٠/٤

▪ ومن هذه التفاصيل أيضا ما لاحظه من قيام بعض رواة الشعر من «إشمام» للأبيات التي يروونها ، يقول :

«وقد يُسكِّن بعضُهم في **الشعر ويُشمُّ** ، وذلك قول الشاعر امرئ القيس :

فاليـــومَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَـــــحِقبٍ إثـــمًا مـــــن الله ولا واغــــــل » [1] . **[بحر السريع]**

وقال عند قول الشاعر :

متى أَنَامُ لا يُؤَرِّقْـــــــــــني الكَرَى ليلًا ولا أســـــــــمعُ أجراسَ المَطِي **[بحر الرجز]**

«وقد سمعنا من العرب **مَن يُشِمُّه الرَّفْعَ** ، كَأَنَّه يقول : متى أنام غير مُؤَرَّق» [2] .

والإشمام مصطلح عند النُّحَاة يراد به «تهيئة الشفتين للتلفظ بالضم ولكن لا يتلفظ به ... [و] يراد به أيضا تصوير الفم عند حذف الحركة بالصورة التي تعرض عند التلفظ بتلك الحركة بلا حركة ظاهرة ولا خفية ، وعلامته في الكتابة نقطة بين يدي الحرف» [3] . أو هو بعبارة أخرى : «نوع من أنواع الوقف على المتحرك ، وهو قسيم الإسكان والروم والتضعيف والنقل . والوقف بالإشمام هو ضم الشفتين بعد تسكين الحرف الأخير ، ولا يكون إلا فيما حركته ضمة» [4] ؛ أي أَنَّ الإشمام يُدْرَكُ عن طريق البصر ، وهذا يتطلب أَنْ يكون المستمع والرائي قريبين من المنشِد أو المتحدِّث ليتمكنا من رؤية حركة الشفتين . كما أَنَّ الأذن هنا لعبت دورا دقيقا ؛ إذ أدركت عدم النطق بالضم .

ما سبق يجعلنا نُقَرِّر أَنَّه إذا كان سيبويه ينتبه إلى هذه الفروق الدقيقة جدا التي تتطلب انتباها وتركيزا فائقين من صاحبها فمن باب أولى أَنْ ينتبه لما هو أكثر قابلية للملاحظة من عناصر سياق الحال المختلفة التي سبق أَنْ سردناها في التمهيد السابق ، التي تؤثر لا محالة في اللُّغَة .

إن اهتمام سيبويه بالسماع وقيامه بالتَّقْعِيد لمعظم القواعد التي سطَّرها في كتابه على الشعر الذي سمعه في حالة «إنشاد» يدلان على أَنَّه اعتمد على اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة في وقته ؛ وهذا يضمن أَنَّ قواعده التي استخلصها تمثل اللُّغَة تمثيلا صادقا .

وقد كانت إحدى الميزات التي تميزت بها المدرسة البنيوية في بدايتها اعتمادها على اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة لغة الحديث الفعلِيَّة ، وقد كانت تلك مِيزةٌ احتفى بها اللغويّون أيما احتفاء . يقول

---

(١) سيبويه : **الكتاب** ، ٢٠٤/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٩٥/٣ وينظر أيضا موضع يدل على دقته السمعية ٤٣٨/٤ ـ ٤٣٩

(٣) د. محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١١ م)، ص ١٧٧

(٤) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١١٩

الأستاذان نايف خرما و على حجاج : «أَمَّا الميزة الأخرى [للمدرسة البنيوية] ... التركيز على اللُّغَة الحَيَّة ، لغة الحديث الفعلِيَّة في فترة زمَنِيَّة محددة هي الوقت الحاضر . وبذلك أتت دراساتهم وصفا حقيقيا واقعيا لِلُّغَة ما ، كما هي مستخدمة حاليا ، لا فرضا لاستخدامات عفاها الزمن ، وأصبحت في بطون الكتب ، **وهذه حسنة كبيرة ولا شك**» [(١)] .

وسبق سيبويه بهذا الاهتمام يدلُّ على مدى النضج العقلي والذهني الذي كان عليه هذا الرجل النابغة .

****

اعتبار سيبويه للسياق :

بعد أَنْ أثبتنا أَنَّ سيبويه يتعامل مع نصوص **اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة** ، وأَنَّه كان دقيق الملاحظة لما يُسمَع ويُنشَد أمامه ـ يبرزُ هنا سؤال منطقيّ بسيط مُؤَدّاه : ما مدى اعتبار سيبويه لسياق الحال ؟ وما مدى تفاعله مع هذا السِّياق ؟

إن النصوص المنطوقة التي اعتمد عليها سيبويه تستلزم بالضرورة وجودها في سياق حال ما فهي منطوقة ينطقها صاحبها ، وصاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه ، وكيف يُعَبِّر عن هذه المعاني من خلال إشارات جسدِيَّة أو صوتيَّة . والسؤال الآن : هل كان سيبويه يأخذ سياق الحال بعين الاعتبار في دراسته النحوِيَّة لِلُّغَة ؟ أم كان لا يلقي بالا له ويُغْفل أثره ؟

من يَتَعَمَّق في أطواء الكتاب ، ويُنْعِم النظر في نصوصه وأقواله يجد صاحبه معتبرا لسياق الحال ومعتمدا عليه تقعيدا وتوجيها في كثير من المسائل .

والنصوص التي نجد فيها تأثيرا لسياق الحال يمكن أَنْ نقسِّمَها قسمين :

- ✓ نصوص يظهر فيها تأثير سياق الحال بشكل واضح وصريح ، ويرسم فيها سيبويه السِّياق بنفسه .
- ✓ ونصوص تدلُّ على تَأَثُّرها بسياق الحال ، ولكن لا يذكر فيها أَيَّة إشارة إليه ، بل يُفْطَنُ إليه من خلال التأَمُّل والتحليل البسيط .

ومن أمثلة النصوص الواضحة التي يرسم فيها سيبويه سياق الحال بنفسه ما يلي :

١. «إذا رأيت رجلا مُتَوَجِّهًا وجهة الحاجّ ، قاصدا في هيئة الحاجّ ؛ فقلت : مكَّة ورب الكعبة ؛ حيث زكِنت (تيقَّنت) أَنّهُ يريد مكَّة ، كَأَنَّك قلت : يريد مكَّة والله . ويجوز أَنْ تقول : مكَّة والله ، على قولك : أراد مَكَّة والله» [(٢)] .

---

(١) اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، ص ٢٩

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٧/١

٢. « ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد ؛ فكبَّروا ؛ لقلت : الهلال ورب الكعبة ؛ أي : أبصروا الهلال »[(١)] .

٣. «رأيت رجلا يُسَدِّد سهما قِبل القرطاس ؛ فقلت : القرطاس والله ، أي : يصيب القرطاس . وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس ؛ قلت : القرطاسَ والله ؛ أي : أصاب القرطاس »[(٢)] .

٤. « أو رأيت ضربا ؛ فقلت على وجه التفاؤل : عبدَ الله ؛ أي : يقع بعبد الله ، أو بعبد الله يكون »[(٣)] .

٥. وفي باب من أبواب الكتاب بعنوان « باب ما جرى من الأمر والنهى على إضمار الفِعل المستعمَلِ إظهارُه إذا عَلِمْت أَنَّ الرجل مُسْتَغْن عن لَفْظِكَ بالفِعل » يقول : « وذلك قولك : زيدًا ، وعمرًا ، ورأسَه . وذلك أنَّك رأيت رجلا يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقتل ، فاكتفيتَ بما هو فيه من عمله أَنْ تَلفظَ له بعمله ؛ فقلت : زيدًا ، أى : أَوْقِعْ عملَك بزيدٍ . أو رأيتَ رجلاً يقول : أَضْرِبُ شَّر الناسِ ؛ فقلتَ : زيدًا . أو رأيتَ رجلا يحدَّثُ حديثا فقَطَعَهُ ؛ فقلتَ : حديثَك . أو قَدِمَ رجلٌ من سفرٍ ؛ فقلت : حديثَك . استغنيتَ عن الفعل بعلمه أَنّهُ مستخبرٌ »[(٤)] .

٦. وفي أحد مواضع الكتاب يناقش اتصال اسم الفعل « رويد » بالضمير (كاف الخطاب) ، ويوضح تأثير سياق الحال على هذا الاتصال فيقول : «واعلم أَنَّ رُوَيْدًا تَلحقها الكافُ وهى في موضع افعلْ ، وذلك كقولك : رويدك زيدًا ... وهذه الكاف التي لحقت رويدًا إنّما لحقت لتُبيِّنَ المخاطَبَ المخصوصَ ؛ لأَنَّ رُوَيْدَ تقع للواحد والجميع ، والذَّكر والأُنثى ، فإنَّما أَدخل الكافَ حين خاف الْتباسَ مَنْ يَعنى بمن لا يعنى ، وإنَّما حذفَها في الأوَّل استغناء بعلم المخاطبَ أَنّهُ لا يَعنى غيرَه . فلَحاقُ الكاف كقولك : يا فلانُ ، للرَّجُل حتَّى يُقْبِلَ عليك . وتركُها كقولك للرجل : أنت تَفعلُ ، إذا كان مُقْبِلا عليك بوجهه مُنْصِتًا لك . فتركتَ يا فلانُ حين قلت : أنت تَفعَلُ ؛ استغناءً بإقبالِه عليك . وقد تقول أيضًا : رُوَيْدَكَ ، لمن لا يُخاف أَنْ يَلتبسَ بسِواه توكيدًا ، كما تقول للمقبلِ عليك المُنْصِت لك : أنتَ تَفعلُ ذاك يا فلانُ ، توكيدًا »[(٥)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٧/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١ /٢٥٧

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٧/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٣/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٤/١ ، وينظر أيضا ٢٧٣/١

ومما هو جدير بالنظر ويستحق التسجيل هنا ، أَنَّ هذه الأمثلة وخاصة الأمثلة : ١ ، ٢ ، ٣ ، ردَّدَها النُّحَاة من بعد سيبويه بنصِّها تقريبا ، ومنهم ــ بحسب الترتيب الزمني ــ الأسماء الآتية :

١ـ **المُبَرِّد** (ت : ٢٨٥ هـ) ، في كتابه : «المقتضب » ، ٣١٨/٢ ، ١٢٩/٤

٢ـ **ابن السرّاج** (ت : ٣١٦ هـ) ، في كتابه : «الأصول » ، ٢٤٧/٢

٣ـ **ابن جني** (ت : ٣٩٢ هـ) ، في كتابه : «الخصائص »، ٢٦٥/١ ، ٣٦٢/٢

٤ـ **الزَّمَخْشَرِيّ** (ت : ٥٣٨ هـ) ، في كتابه : «المُفَصَّل في صنعة الإعراب »، ٥٨/١

٥ـ **العُكْبَرِيّ** (ت : ٦١٦ هـ) ، في كتابه : «اللباب في علل البناء والإعراب »، ٤٦٦/١

٦ـ **ابن يعيش** (ت : ٦٤٣ هـ) ، في كتابه : «شرح المُفَصَّل»، ٣١١/١

٧ـ **ابن مالك** (ت : ٦٧٢ هـ) ، في كتابه : « شرح تسهيل الفوائد »، ٢٥٧/١

٨ـ **بدر الدين المُرَادي** (ت : ٧٤٩ هـ) ، في كتابه : «الجنى الداني »، ص ١٩٤

٩ـ **ابن هشام** (ت : ٧٦١ هـ) ، في كتابه : «أوضح المسالك إلى ألفِيَّة ابن مالك »، ١٥٦/٢

١٠ـ**الأشموني** (ت : ٩٠٠ هـ) ، في كتابه : « شرح الأشموني على ألفِيَّة ابن مالك »، ١٧٦/١

١١ـ**خالد الأزهري** (ت : ٩٠٥هـ) ، في كتابه : « التصريح بمضمون التوضيح »، ٤٧٣/١

١٢ـ**السيوطي** (ت : ٩١١ هـ) ، في كتابه : « همع الهوامع »، ٣٠٩/١

١٣ـ**الصَّبَّان** (ت : ١٢٠٦ هـ) ، في كتابه : «حاشية الصَّبَّان »، ٢٦١/١

هذه القائمة التي تضم فحولا من النُّحَاة تدل على أَنَّهم وقفوا على البعد السِّياقي الاجتماعِيّ عند تقعيدهم وتوجيههم النَّحْوِيّين ، وأَنَّهُم كانوا على دراية به . ولكنْ يبدو أَنَّ هذا الجانب لم يتلق مزيد عناية منهم .

ونلاحظ في هذه النصوص أَنَّ سيبويه يرسم ويوضح أركان مسرح الحدث اللغويّ لكي يصل من خلاله للقاعدة التي عقد لها الباب .

ونجد مجموعة أخرى من النصوص يبدو فيها أَثَر لسياق الحال ، ولَكِنَّه أَثَر غير واضح يتطلب فضل تأمل للوقوف عليه ، مثال ذلك :

١ـ إذا كرَّرنا اللفظة «أنت »مرتين وقلنا : «أنت أنت » ، فقد تكون هاتان اللفظتان توكيدًا لَفْظِيًّا في جملة ، وقد يكونان هما بذاتهما جملة ، وهذا ما يفهم من نصّ سيبويه التالي : قال سيبويه نقلا عن الخليل «وتقول : قد جربتُك فوجدتك أنت أنت ، فأنت الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها ؛ كَأَنَّك قلت : فوجدتك وجهك طليق ، والمعنى أَنَّكَ أردت أَنْ تقول : فوجدتك أنت الذي أعرف .

ومثل ذلك : أنت أنت ، وإن فعلت هذا فأنت أنت ؛ أي : فأنت الذي أعرف ، أو أنت الجواد ... كما تقول : الناسُ الناسُ ؛ أي : الناس بكل مكان وعلى كل حال تعرف» [(١)] .

إنَّ التحليل الدِّلَالِيّ لـ «أنت أنت »أو «الناسُ الناسُ »الذي قدَّمه سيبويه ، واعتبر فيهما أَنَّ هذين التركيبين جملتان لا يَتَأَتَّى له بدون الأخذ في الاعتبار سياق الحال ، إذ بدون السِّياق يحتمل أَنْ تكونَ اللفظتان مجرد توكيد لفظي . ولم يصرح سيبويه بشكل جليّ بأَنَّه استعان بسياق الحال للوقوف على هذه الدِّلَالَة ، ولكن هذا ما يفهم ضمنا من الكلام .

٢ـ وفي نصّ ثانٍ ينقل سيبويه عن يُونُس أَنّهُ قال في قول العرب : « هذا أنت تقول كذا وكذا »أَنَّ مقصودهم في هذا القول أَنَّ المُتَكَلِّم «يريد أَنْ يُعْلِمَ [المخاطب] أَنّهُ ليس غيره». ويردُّ سيبويه هذا المعنى على يُونُس قائلا : « هذا محال ، ولَكِنَّه أراد أَنْ يُنَبِّهه ، كَأَنَّه قال : الحاضر أنت ، والحاضر القائل كذا وكذا أنت» [(٢)] .

إنَّ المعنى الذي قدَّمه يُونُس لجملة «هذا أنت تقول كذا وكذا »: أَنَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ يُعلم المخاطب أَنّهُ هو وليس أحد غيره ، وهذا معنى سقيم ، ومعنى الجملة عند سيبويه : أَنَّ المُتَكَلِّم أراد تنبيه المخاطب ، أَنَّه هو قائل الكلام ، ولَعلَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ ينبِّه المخاطب خطورة هذا الكلام ومغبته ، وهو المعنى الأقرب للفهم والسِّياق . فسيبويه لجأ لسياق الحال ـ وإِنْ لم يصرح ـ لفهم الجملة ، في الوقت الذي أخطأ فيه يُونُس في فهم الجملة لعدم إلمامه به واعتباره .

٣ـ وفي نصّ ثالث يقول : « ... وكذلك : ما أنت وعبد الله ، وكيف أنت وعبد الله ، كَأَنَّك قلت : ما أنت وما عبد الله ، وأنت تريد أَنْ تحقر أمره أو ترفع أمره » [(٣)] . إِنَّ ربط التحقير أو الرفعة بجملة « ما أنت وعبد الله » يرتبط بالسِّياق حتى وإِنْ لم ينص على ذلك .

إن سياق الحال عنصر فعَّال في كثير من المواضع في كتاب سيبويه ؛ وإن كان عنصرًا صامتًا ـ إِنْ جاز هذا التعبير ـ أو «مسكوتًا عنه»بتعبيراتنا الحديثة في بعض المواضع التي استخدم فيها . إِنَّ مجموع هذه النصوص وغيرها يثبت أَنَّ سيبويه اعتبر السِّياق في تقعيده وتوجيهه .

***

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٩/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٥/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٠١/١

المخاطب والمُتَكَلِّم أبرز عناصر سياق الحال التي اهتَمَّ بها سيبويه :

دراسة نصوص الكتاب وأقواله يبيِّنان ـ كما أثبتنا ـ اعتماد صاحبه على النصوص الحَيَّة المنطوقة ، و أَنَّه كان على وعي بسياق الحال الذي تقال فيه هذه النصوص والأقوال ، و أَنَّه أخذه بعين الاعتبار في تقعيده وتحليلاته الدِّلالِيَّة لبعض الجمل .

وبعد دراسة الباحث للكتاب لاحظ أَنَّ أبرز عناصر سياق الحال التي اعتنى بها سيبويه وعرض لها وكانت محلَّ اهتمامه : المخاطَبُ[1] أولا والمُتَكَلِّم ثانيا . ويظهر هذا الاهتمام بهما في عدد المسائل التي استعان فيها بالمخاطب وعلمه ومناقشته لقضية أمن اللَّبس من خلاله ، واستعانته بالمُتَكَلِّم وإمكانيِّة سكوته في تفسير كثير من قواعد الكتاب .

ومقصدي هنا أَنْ **أشير فقط** إلى أَنَّ أبرزَ عنصرين من عناصر سياق الحال كانا المخاطب والمُتَكَلِّم ، وسنكتفي بأدلة بسيطة على ذلك ، وسيأتي الكلام بشكل أعمق عنهما في فصل : دور السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ . وقد لزم التنبيه هنا على هذا الإبراز المؤقت لدور هذين العنصرين حتى نؤكد على ترابط عناصر الرسالة ، وننفي عنها ما قد يتوهم فيها من تكرار .

. أولا المخاطب :

استغل سيبويه المخاطَب وكون الكلام موجَّه إليه في كثير من القواعد النحوِيَّة التي حاول أَنْ يقرِّرَها ؛ فكان المخاطب وعلمه ووجودهما الافتراضيان حاضرين عنده ، يلجأ إليهما في تفسير ما يريد توضيحه ، فمن خلاله ومن خلال علمه استطاع أَنْ يقف على الآتي :

١. تفسير حذف الموصوف : ففي قول النابغة :

كَأَنَّكَ مِن جِـمالِ بَني أُقَيشٍ   يُقَعقَعُ خَـلفَ رِجلَيهِ بِشَنِّ

[بحر الوافر]

يقول : «أي كَأَنَّك جملٌ من جمال بني أقيش ؛ فقد حذف الموصوف في هذا البيت تخفيفا ، واستغناء بعلم المخاطب بما يعني»[2] .

٢. ومن خلاله استطاع تقدير جواب الشرط المحذوف : يقول : «وسألت الخليل عن قوله جلَّ ذكره : ﴿ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ ﴾[الزمر : ٧١] و﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[الأنعام : ٢٧] ، فقال : إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر (الجواب) في كلامهم لعلم المخبَر لأي شيء وضع هذا الكلام »[3] .

---

(١) ويسميه سيبويه أحيانا : المُخبَر والمُحدَّث ١٠٣/٣ ، وأحيانا : المُكلَّم ٢٠٨/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٦/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٠٣/٣

٣. ومن خلاله يضمر الفعل في أسلوب الاختصاص : يقول : «قولك : إنَّا معشر العرب نفعل كذا وكذا ؛ كَأَنَّه قال : أعني ، ولكنَّه فعلٌ لا يظهر ولايستعمل ... لأَنَّهم اكتفوا بعلم المخاطب» [١] .

٤. ومن خلال علم المخاطب يُجَوِّزُ حذف المستثنى فيه : في مثل قولنا : «ليس غيرُ » و«ليس إلا » كَأَنَّ القائل قال في مثل هذه التراكيب : «ليس إلا ذاك ، وليس غيرُ ذاك ؛ ولَكِنَّهم حذفوا ذلك تخفيفا واكتفاء بعلم المخاطب ما يعني » [٢] .

٥. ومن خلاله يقدِّرُ اسم كان أحيانا : يقول : «تقول العرب : من كذب كان شرا له ؛ يريد : كان الكذب شرا له ؛ إلا أَنَّهُ استغنى بأن المخاطَب قد علم أَنَّهُ الكذب» [٣] .

٦. وتُحذَف كثيرٌ من العوامل في الجملة لكثرة الاستعمال ولعلم المخاطب : يقول : «تالله رجلا ، وسبحان الله رجلا ، وإِنَّمَا أراد : تاللهِ ما رأيت رجلا ، ولَكِنَّه يترك الإظهار استغناء ؛ لأَنَّ المخاطب يعلم أَنَّ هذا الموضع إِنَّمَا يُضْمَر فيه الفعل لكثرة استعمالهم إياه » [٤] .

٧. ولأهمِيَّة المخاطب في عَمَلِيَّة الكلام اهتمت اللُّغَة بتنبيهه دوما ، وخصصت أدوات لذلك ، مثل «ها »التنبيه ، يقول : «وقد تكون ها في ها أنت ذا غير مقدَّمة ، ولَكِنَّها تكون للتنبيه بمنزلتها في هذا ؛ يدُلُّك على هذا قوله عز وجل : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾» [٥] . أي أَنَّه لولا المخاطب ما كانت هذه الأدوات .

ومن طريف ما أبرزه سيبويه متعلقا بالمخاطب إيضاحُه أَنَّ اللُّغَة تحترم درجة المخاطب من حيث قربه وبعده من المُتَكَلِّم ، فالمخاطب الأقرب له الأولوِيَّة في الحديث عنه عن الأبعد . يبرز هذا سيبويه قائلا : «فقولك : أعطانيهِ وأعطانيك ، فهذا هكذا إذا بدأ المُتَكَلِّم بنفسه ، فإذا بدأ بالمخاطب قبل نفسه فقال : أعطاكني ، أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال : أعطاهوني ، فهو قبيح لا تَكَلَّم به العرب ... ، وإِنَّمَا قبح عند العرب كراهية أَنْ يبدأ المُتَكَلِّم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب ... وإِنَّمَا كان المخاطب أولى بأن يبدأ به من قبل أَنَّ المخاطب أقرب إلى المُتَكَلِّم من الغائب ، فكما كان

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٣/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٥/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٩١/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٩٤/٢ ـ ٢٩٤ويمكن لمن أراد أن يحصر عدد المواضع التي استغل فيها سيبويه المخاطب مباشرة وبمنتهى الوضوح لتفسير قاعدة أو إقرارها من أن يقف على أكثر من خمسة وخمسين موضعا (٥٥ موضعا) وأكثر ، مُنْبَثَّة في أطواء الكتاب ونصوصه .

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٤/٢

المُتَكَلِّم أولى بأَنْ يبدأ بنفسه قبل المخاطب ، كان المخاطب الذي هو أقرب من الغائب أولى بأن يبدأ به من الغائب» [١] .

لقد استغل سيبويه المخاطب مع المُتَكَلِّم والغائب في تفسير استعمال الضمير عند اجتماع المخاطب مع المُتَكَلِّم ، أو المخاطب مع الغائب . فهو ينبِّه على أنَّه عند استعمال ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب يجب أنْ نبتدئ بالأقرب قبل الأبعد ؛ أي نبدأ بالمتكلم قبل المخاطب والمخاطب قبل الغائب ، «والعلَّةُ في ذلك أن الأولى أن يبدأ الإنسان بنفسه ؛ لأنَّها أعرف وأهم عنده . وكما كان المختار أن يبدأ بنفسه ، كان المختار تقديم المخاطب على الغائب ؛ لأنَّه أقرب إلى المتكلم» [٢] .

وهذا نصّ عجيب يوحي بأن سيبويه كان يتَتَبَّع التركيب النَّحْوِيّ الذي يدرسه في نصوص اللُّغَة أقصى درجات التتَبُّع ، متأمِّلا إياه في سياقاته المختلفة ، وليس مجرد تتَبُّع بل هو تتَبُّع يمكن أَنْ نسميه «تتَبُّعا إحْصَائِيّا » ؛ وإلا فكيف يتسنَّى له استخلاص مثل هذه النتيجة ومثل هذه القاعدة !

ويوحي هذا النَّصّ أيضا أَنَّ اللُّغَة لها نوع منطق داخلي ، وثوابت منهجِيَّة ، وأنَّ الأمور مع اللُّغَة لا تسير بعفويَّة مطلقة ، فهناك نوع منطق ونوع نظام بداخلها ، قد نختلف في تحديد درجة هذه المنطقية وهذا النظام ، إلا أَنَّ الثابت أَنَّهما موجودان . ويوحي أيضا أَنَّ اللُّغَة تهتم بما هو حاضر وتقدمه على ما غائب .

ـ المخاطب وحمايته من اللَّبس والالتباس :

من الأمور المُهِمَّة التي تدل على اهتمام سيبويه بالمخاطب وعنايته الفائقة به حديثُهُ المُكَرَّرُ والمعاد عن «تجنب اللَّبس والالتباس» في الكلام ، ففي أكثر من موضع أشار إلى أَنَّ اللُّغَة تتَّخذ كافة الوسائل التي تضمن «وضوح المعنى المنقول للمخاطب» ، وأوضح أَنَّ اللُّغَة تتَّخذ إجراءات وقائِيَّة لمنع اللَّبس في المعنى على كافة المستويات سواء على مستوى البنية الصَّرْفِيَّة أو التركيب النَّحْوِيّ . ونشعر هنا أَنَّ **الخوف من اللَّبس كان نصب عيني سيبويه طوال تقعيداته وتوجيهاته النحوِيَّة التي ذكرها** ، فهو لا يقرِّرُ قاعدة ما إلا إذا تأكَّد من وضوحها وأهليَّتها لنقل المعنى بسلام ، وإذا أحسَّ أَنَّ هناك احتمالا ما لأنْ يقع اللَّبس نبَّه على ذلك .

ولا يبقى هنا سوى أَنْ نسوق من الأدِلَّة ما نؤيِّد به ما قدمنا ، ونثبت اهتمام سيبويه بهذه القضية :

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٦٤/٤

(٢) ابن يعيش : شرح المفصل ، ٣٢١/٢

١ـ لخوف العرب من التباس لام الابتداء مع لام الإضافة حرَّكوا لام الابتداء بالفتح وكسروا لام الإضافة ، يقول : «وذلك أَنَّ اللام لو فتحوها في الإضافة لالتبست بلام الابتداء إذا قال : إِنَّ هذا لَعليٌّ ، ولَهذا أفضلُ منك ، فأرادوا أَنْ يميِّزوا بينها ؛ فلما أضمروا لم يخافوا أَنْ تلتبس بها »[(١)] .

أي أَنَّ التفريق بين اللامين من خلال الضبط ؛ لكي لا تلتبس إحداهما بالأخرى ، فإنْ أتت إحدى اللامين في موقف سِياقِيّ يمكن من خلاله التفريق بينهما أهملوا الضبط ؛ لأَنَّ السِّياق يضمن عدم الالتباس .

٢ـ عند اجتماع همزة الاستفهام مع همزة الوصل المكسورة أو المضمومة تحذف همزة الوصل ، ويكتفى بهمزة الاستفهام ، وذلك لعدم وجود لبس بين الخبر والاستفهام ، أَمَّا همزة الوصل المفتوحة فَإِنَّها تبقى مع همزة الاستفهام وتُمَدّ ، في مثل : آلرجل . . ؟ وذلك : «كراهية أَنْ [يكون] كالخبر ؛ فيلتبس ، فهذا قول الخليل »[(٢)] . أي أَنَّنا أبقينا همزة الاستفهام مع ألف الوصل المفتوحة ومددناها لكي يكون هذا «المد»قرينة على أَنَّ الجملة استفهامية ، وليست خبريِّة مكونة من مبتدأ وخبر .

٣ـ المنادى المضاف لياء المُتَكَلِّم تحذف منه هذه الياء ؛ وذلك «لكثرة النداء في كلامهم ، حيث استغنوا بالكسرة عن الياء ، ولم يكونوا ليثبتوا حذفها إلا في النداء ، ولم يكن لبس في كلامهم لحذفها »[(٣)] .

إن حذف الياء شائع في كلامهم ، ولكن هذا مقيَّد بالمخاطب ، ففَهْم المخاطب للكلام هو المعيار إذا فهم المخاطب الكلام جاز الحذف ، وإذا لم يفهم لم يجز . كما أَنَّ وجود أداة النداء قبل المنادى قرينة لغَوِيَّة على أَنَّ الكلمة بعدها منادى ؛ فلا مجال للبس .

والنص السابق يجعلنا نخرج بقاعدة تقول : ما كثُر استعماله جاز أَنْ يُحذَف جزء منه إذا أُمِن اللَّبس ، وقد يكون ما يكثر استعماله كلمة أو جملة أو مجموعة كلمات تأتي مع بعضها .

٤ـ يُلْزَمُ الفعل المضارع في حالة القسم بـ «النون» ،حتى لا يلتبس معنى الحالِيَّة بالمستقبلية : قال سيبويه للخليل : «فَلِمَ ألزمت النون آخر الكلمة ؟ (أي آخر الفعل المضارع في حال القسم) فقال : لكي لا يشبه قوله إِنَّهُ ليفعل ؛ لأَنَّ الرجل إذا قال هذا فَإِنَّما يخبر بفعل واقع فيه الفاعلُ ، كما ألزموا اللام : إنْ كان ليقولُ ؛ مخافة أَنْ يلتبس بما كان يقول ذاك »[(٤)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٦/٢ ـ ٣٧٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٢٥/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٩/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٠٧/٣

إن قولنا «إِنَّهُ ليفعل» لها دلالتان : الأولى : الحالِيَّة ، والثانية : المستقبلية ، والمخاطب قد تلتبس عليه الدِّلَالَة في هذا التركيب ، أهي للحالِيَّة أم المستقبلية ؟ أَمَّا «ليفعلن» فقد جَعَلَت النونُ الفعلَ يدلُّ على معنى واحد ، هو معنى المستقبلية .

٥ـ في النداء التعجبي والاستغاثة ، لا تستخدم إلا الأداة « يا » التي تأتي للتنبيه ؛ «لئلا تلتبس اللام التي تأتي بعد « يا » بـ « لام التوكيد » ، كقولنا : لعمرو خير منك»[١] .

٦ـ منع سيبويه رفع وجر ما بعد الواو في قولهم : «ما شأنك وعمرا» ، ولم يجز إلا النصب . والسبب الذي أبداه سيبويه لمنع الرفع والجر أَنَّكَ «توهم أَنَّ الشأن (الخطب والأمر والحال) هو الذي يلتبس بزيد ، وإِنَّمَا يلتبس شأن الرجل بشأن زيد ، ومن أراد ذلك فهو ملغز ، تارك لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم»[٢] .

أي أَنَّ من يتَّجه إلى الجر والرفع بعد الواو في الكلام السابق يوهم السامع والقارئ ويلبس عليه . وهذا النَّصّ يدل ضمنا أيضا على أَنَّ من وظيفة العلامة الإعرابِيّة إزالة الإبهام عن معنى الجملة ، وإن التوجيه النَّحْوِيّ ينبغي أَنْ يكون بعد فهمٍ للمعنى ، معنى الكلام والسِّياق[٣] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢١٨/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٨/١، قال السيرافي : «وإِنَّمَا نصبوا عمرا لأنَّ عمرا هو شريك الكاف في المعنى ، ولم يصح العطف عليه ؛ لأنَّ الكاف ضمير مخفوض ، ولا يجوز عطف الظاهر المخفوض على المكني ، ولم يصلح رفعه ؛ لأنك لو رفعته كنت عاطفا على الشأن ، وليس عمرو بشريك للشأن ، ولا أردت أن تجمع بينهما ؛ فحمل الكلام على المعنى». يُنْظَر أبو سعيد السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ت : أحمد حسن مهدلي ، علي سيد علي ، دار الكتب العلمِيَّة ، بيروت ، ط ١ ، (٢٠٠٨م)، ٢٠٢/٢، وبشكل أوضح قال ابن يعيش في شرح المُفَصّل ٤٤٢/١ : « وأما قولهم: ما لك وزيدا ، وما شأنك وعمرا ، فهو نصب أيضا. وإِنَّمَا نصبوا ها هنا ؛ لأنه شريك الكاف في المعنى، ولا يصح عطفه عليها ؛ لأن الكاف ضمير مخفوض ، والعطف على الضمير المخفوض لا يصح إلا بإعادة الخافض . ولم يجز رفعه بالعطف على الشأن ؛ لأنه ليس شريكا للشأن ؛ لأنه لم يرد أن يجمع بينهما. وإِنَّمَا المراد: ما شأنك ، وشأن عمرو؟ » . والشأن ـ كما في تاج العروس ـ : «الخطب والأمر والحال الذي يشين ويصلح . ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور ، قاله الراغب» .٢٥٣/٣٥

(٣) وتحت يدي الكثير من الشواهد في هذه الجزئِيَّة يضيق المقام عن ذكرها كلها بالطبع ، وتجدر الإشارة إلى أن قسم كبير منها يقع في النصف الثاني من المجلد الرابع ، في حديث سيبويه عن الأبنية الصرفِيَّة والإعلال والإبدال والإدغام وغيره . ومن هذه المواضع١١٤/٢ ، ٢٢٣/٢ ، ٢٢٤/٢ ، ٢٥١/٢ ، ١٩٠/٣ ، ٣٠٧/٣ ، ٣٧٦/٣ ، ٤١٤/٣ ، ٥١٨/٣ ، ٥٢٥/٣ ، ٥٩٠/٣ ، ٦٠٣/٣ ، ١٣/٤ ، ١٥٠/٤ ، ١٥٦/٤ ١٦٥/٤ ، ٢٨٢/٤ ، ٣٤٦/٤ ، ٣٤٨/٤ ، ٣٩٨/٤ ، ٤١١/٤ ، ٤٢٣/٤ ، ٤٥٤/٤ ، ٤٥٥/٤ ، ٤٥٦/٤ ، ٤٧٤/٤ ٤٧٦/٤ ، ٥١٩/٤

إن الاهتمام بالمخاطب له ما يبرِّره منطقيا ، فالإنسان لن « يتكلم » إلا إذا أراد أَنْ ينقل كلاما لـ « مخاطب » ، ولكي يحقق هذه « الرغبة » وهذا « الدافع » لا بد أَنْ يحرص على أَنْ يكون كلامه واضحا ، ويتخذ كل السبل والإجراءات لتحقيق هذا الوضوح .

وبعد سرد هذه الشواهد التي دلَّت على اهتمام سيبويه بقضية أمن اللَّبس نقول : إنَّ هذا الاهتمام لَدليل من أقوى الأدِلَّة على اهتمامه بالمخاطب الذي هو أهم عناصر السِّياق ، وأنَّ المخاطب كان نصب عينيه دائما في كل قواعده ، والاهتمام بالمخاطب لاشك هو اهتمام بالسِّياق في حد ذاته .

وأختم كلامي هنا في هذه الجزئيَّة بنقل كلام أحد الباحثين في بحث له بمجلة مجمع اللُّغَة العربِيَّة عن سيبويه وكتابه ، يقول فيه : « ... فمثل هذه الملاحظات كثيرة جدا في الكتاب ، وهي تخص أحوال الخطاب مقترنا بأحوال المخاطب : علم المخاطب وجهله واستحالة الإخبار عن منكور اللهم إلا إذا احتاج المخاطب إلى تحديد هذا المنكور بأن يعين حلية خاصة به تميزه عن غيره ، ويمكن بالدراسة المتعمقة لهذه الملاحظات أَنْ تُستخرَج قوانين التخاطب الحقيقيَّة ، وهذا ما فعله العلماء الأولون . هذا ولا بد أَنْ نُنَبِّه القارئ الكريم أَنَّ مثل هذا الكلام عن « علم المخاطب » وسائر أحواله لا يمكن أَنْ نعثر عليه في كتب المتأخرين . فالقواعد الجامدة ـ الخاطئة أحيانا ـ قد حلت محل الملاحظات العلميَّة ، تكلموا مثلا عن شروط الابتداء بالنكرة فقط ، وبدون أَنْ يفسروا ظواهر الخطاب بالكيفية العلميَّة الوصفيَّة والتعليليِّة معا »[(١)] .

إن إشارة هذا الباحث الجليل تدعونا إلى الدراسة المتعمِّقة لدراسة الملاحظات المتعلِّقة بعلم المخاطب لاستخراج قوانين التخاطب الحقيقيَّة ، وهي لا شك دعوة تستحق الاهتمام والاعتناء بها .

ـ ثانيا المُتَكَلِّم :

المُتَكَلِّم من أهم العناصر المكوِّنة لسياق الحال ، فهو يستدعي من التراكيب النحوِيَّة ما تخدمه وتخدم سياقه ، فإذا كان السِّياق يستدعي التأكيد برز أمامه : التوكيد بكافة أشكاله ، إنَّ وأَنَّ ، الجملة الاسمِيَّة ، الاستثناء ... ، وإن كان السِّياق يستدعي شكًّا برز أمامه : ظنّ وأخواتها : حسب ، وزعم وخال ، إنْ الشرطيِّة ... ، وإذا أراد المُتَكَلِّم أَنْ يتعجَّب أو يستغيث أتى بأسلوب التعجب أو الاستغاثة ، وإذا أراد استفهاما أتي بالاستفهام .

وتكفي نظرة عجلى لتعريف النُّحَاة بأبواب مثل : الاستغاثة ، أو التعجب ، أو التوكيد للتأكُّد من هذا . فالاستغاثة : «طلب المعونة للتخليص من شدة أو الإعانة على دفع مشقة ، وهي أسلوب مستعمل في مجال النداء ، ولهذا الأسلوب مكونات ثلاثة ، هي : المستغيث ، والمستغاث به ،

---

(١) د. عبد الرحمن الحاج صالح : الجملة في كتاب سيبويه ، مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، ع : ٧٨ (١٩٩٦م)، ص ١٠٣ ـ ١٠٤

والمستغاث من أجله ، ولا يتحقق بناء هذا الأسلوب إلا بالنداء ؛ أي : أَنَّ المستغاث اصطلاحا لا يكون إلا منادى ، ومثاله : يا لمحمد لعلي ؛ ومعناه : الاستغاثة بمحمد من أجل إنقاذ على ومعونته» [١] . والتعجب : هو «ـ كما يعرفه النُّحَاة ـ استعظام فعل فاعل ظاهر المزية بسبب زيادة فيه خفي سببها ؛ بحيث لا يتعجب مما لا زيادة فيه ولا مما ظهر سببه . وقد عرَّفه الدماميني : بأَنَّه انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه» [٢] . والتوكيد : «لفظ يتبع الاسم المؤكد لرفع اللَّبس وإزالة الاتساع ، وإِنَّمَا تؤكد المعارف دون النكرات» [٣] .

في التعريفات السابقة يتضح بشِدَّة دور المُتَكَلِّم في هذه الأبواب ، ومدى تَأَثُّره بالسِّياق ، فالمُتَكَلِّم يستغيث إذا وقع في «شدة» ، أو «أراد المعونة على دفع مضرة».ويتعجب عندما «ينفعل نفسِيّا بأمر يجهل سببه» ، ويتَّجه للتوكيد «إذا أراد أَنْ يزيل لبسا» .

والمُتَكَلِّم ـ كأحد مكوِّنات سياق الحال ـ نجد أَنّهُ نال قسطا من اهتمام صاحب الكتاب ؛ فقد وظَّف سيبويه المُتَكَلِّم و«إمكانِيَّة سكوته» و«إرادته» في إقرار قواعد نحوِيَّة متعددة .

استخدم سيبويه إمكانيَّة سكوت المُتَكَلِّم من عدمها كمعيار للوقوف على صحة تركيب ما أو فساده ، أو تحديد دلالة الجملة خبرِيَّة كانت أم إنشائِيَّة ، أو تحديد وجه إعرابي معين ورفض آخر ، أو اختيار أداة معيَّنة ورفض أخرى .

دليل ذلك :

١ـ يقول سيبويه في أحد نصوصه : «ألا ترى أَنَّكَ تقول : سبحان الله ، من هو وما هو! فهذا استفهام فيه معنى التعجب . ولو كان خبرا لم يجز ذلك ؛ لأَنَّهُ لا يجوز في الخبر أَنْ تقول : من هو وتسكت» [٤] .

٢ـ الاسم المحلى بـ «أل» بعد المنادى «أيّ ، أَيَّة» في أسلوب النداء يعرب صفة ويرفع ؛ «وإِنَّمَا صار وصفه لا يكون فيه إلا الرفع ؛ لأَنَّكَ لا تستطيع أَنْ تقول : يا أيُّ ، ولا : يا أيُّها وتسكت ؛ لأَنَّهُ مبهم يلزمه التفسير ؛ فصار هو والرجل بمنزلة اسم واحد ، كَأَنَّك قلت : يارجل» [٥] .

---

(١) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١٦٧

(٢) السابق ، ص ١٤٣

(٣) ابن جني : اللمع في العَرَبِيَّة ، ت: فائز فارس ، دار الكتب الثقافيَّة، الكويت ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٨٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٨١/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ١٨٨/٢

٣ـ يرفع الفعل المضارع المقترن بالفاء في أسلوب الشرط إذا سُكِتَ عليه . يقول : «إنْ تأتني فأكرمُك ؛ أي : فأنا أكرِمُك ، فلا بد من رفع **فأكرمُك إذا سكت عليه** ؛ لأنَّهُ جواب ، وإنَّمَا ارتفع لأنَّهُ مبنيٌّ على مبتدأ »[١] .

٤ـ وفي مثل قولنا : ما أبالي أضربت زيدا أم عمرا ؛ لا يجوز فيه إلا أم وتمتنع «أو »، «لأنَّهُ لا **يجوز لك السكوت على أول الاسمين**»[٢] .

ويرتبط حسن السكوت بشكل ما بسياق الحال ؛ فإنَّ المُتَكَلِّم لا يَقضى لُبانته من الحديث ويسكت عنه حتى يفهم المخاطب المقصود . وهذا ما يفهم من كلام سيبويه الذي ذكره في باب «ما يحسن عليه السكوت في هذه الأحرف الخمسة (إنَّ وأخواتها) » ، حيث يناقش حذف خبر هذه الحروف ، وأنَّ هذا الحذف يُقبَل إذا «حَسُنَ السكوت » ، يقول : «ويقول الرجل للرجل : هل لكم أحدٌ ؛ إنَّ الناس أَلْبٌ عليكم ؛ فيقول : إنَّ زيدًا ، وإنَّ عمرًا ؛ أي : إنَّ لنا »[٣] .

فحسن السكوت هنا في « إنَّ زيدًا وإن عمرا » مرتبط بشكل أساسي بالسِّياق والمقام الذي يضم المُتَكَلِّم والمخاطب .

ونلاحظ هنا أَنَّ سيبويه قبل أَنْ يصل إلى الجملة المرادة رسم مسرحا لغويا حواريا بسيطا بين رجلين ، يبدأ أحدهما بسؤال فيرد عليه الآخر بالجملة المقصودة[٤] .

ولأهمِيَّة سكوت المُتَكَلِّم استغله بعض النُّحَاة في تعريف الجملة المفيدة والكلام التام والكلام المفيد ؛ فقالوا في تحديده بأَنَّه « القول المفيد بالقصد ، والمراد بالمفيد : ما دَلَّ على معنى يحسن السكوت عليه »[٥] . وبتعبير سيبويه المختصر أَنَّ الإفادة هي : «حسن السكوت »[٦] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٦٩/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٨٠/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٤١/٢ ، جاء في شرح المُفَصّل لابن يعيش ٢٥٩/١ في فصل «حذف خبر إنَّ »: «اعلم أنَّ أخبار هذه الحروف إذا كانت ظرفا أو جارا ومجرورا ، فَإِنَّه قد يجوز حذفها ، والسكوت على أسمائها دونها ، وذلك لكثرة استعمالها والاتساع فيها على ما ذكرناه ، ودلالة قرائن الأحوال عليها».

(٤) يمكن أن نطور هذه اللفتة وهذا الأمر أمر رسم مسرح الحدث اللغويّ ، من خلال الرسوم الفعلِيَّة الكاريكاتيرية والفوتوغرافية الحوارية وغيرها في شرح القواعد النَّحْوِيَّة على الأَقَلّ في كتب النحو التي تقدم للناشئة أو للأجانب الذين يتعلمون اللُّغَة العَرَبِيَّة .

(٥) ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت: مازن المبارك ومحمد على حمد الله ، دار الفكر ، دمشق ، ط٦ ، (١٩٨٥ م)، ص٤٩٠

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٨٨/٢

أي أَنَّ الإفادة مرتبطة بحسن السكوت . وأظنُّ أَنَّ حسن السكوت مرتبط بالمُتَكَلِّم والمخاطب معا فالجملة المفيدة تكتمل عند المخاطب والمُتَكَلِّم في اللحظة التي يشعران فيها أَنَّهما يستطيعان السكوت عندها ، فالمُتَكَلِّم يسكت لأَنَّهُ أوصل المعنى الذي يريده ، والمخاطب يسكت لأَنَّهُ فهم المعنى وحصَّلَ الفائدة من الجملة . وما أجمل تعليق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على هذا التعريف حيث قال : «الإفادة مصدر أفاد ، والمراد بها إفهام معنى من اللفظ يحسن السكوت عليه من المُتَكَلِّم أو من السامع أو من كل منهما» (١) .

ويُبرزُ سيبويه جانبًا آخر من جوانب اهتمامه بالمُتَكَلِّم هذا الجانب هو «**إرادة المُتَكَلِّم ومشيئته**» ، فقد حرص سيبويه على إبراز إرادة المُتَكَلِّم ودورها في اختيار التراكيب النحوِيَّة والصيغ الصَّرْفِيَّة الملائمة للموقف الذي يُتكلم فيه ، وكثيرا ما قرأنا عبارتيه المشهورتين هاتين «إِنْ أردتَ»و «إِنْ شئت». وقد أحصى الباحث ما يقرب من خمسمائة وسبعة وأربعين موضعا(٥٤٧) تحدَّث فيها عن هذه الإرادة .

ونضرب هنا أمثلة توضح ما نتحدث عنه :

أ- يقول سيبويه في أحد أبواب الكتاب عنونه بـ «باب تخبر فيه عن النّكرةِ بنكرة»:

«وذلك قولك : ما كان أحدٌ مثلَك ، وما كان أحدٌ خيرًا منك ، وما كان أحدٌ مجترِئا عليك . وإنّما حَسُنَ الإخبارُ ههنا عن النكرة حيث **أردتَ** أَنْ تَنفِيَ أَنْ يكون في مثل حاله شيءٌ أو فوقه ، ولأَنَّ المخاطَبَ قد يحتاج إلى أَنْ تُعْلِمهَ مثلَ هذا» (٢) .

نعلم أَنَّ الجملة الاسمِيَّة تبدأ في الغالب باسم معرفة ، يكون بمثابة نقطة لقاء معرفيَّة مشتركة بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، يبني عليها المُتَكَلِّم فائدة للمخاطب أو السامع ، ولكن قد تتَّجه إرادة المُتَكَلِّم إلى بدأ الجملة الاسمِيَّة بـ «نكرة» ووضع هذه النكرة في سياق نفي لكي يدلَّ على أَنَّ هذا المبتدأ النكرة

---

(١) محمد محيي الدين عبد الحميد : تنقيح الأزهرية ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ط ١١ ، (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م) ، ص ٥ ، وللباحث تعليق على هذا التفسير من الشيخ الجليل ، حيث إِنَّ الشيخ أفرد المُتَكَلِّم مَرَّة والمخاطب مَرَّة عند تحديد الفائدة ، وفي الحاشية ذات الرَّقْم٣ من الصفحة ٥ يرجِّح أن الأصوب أن المُتَكَلِّم هو الذي يعتبر حسن سكوته دليلا على الفائدة ، ويدلل على ذلك بقوله : « ...؛ لأنهم اتفقوا على أن التكلم صفة المُتَكَلِّم ، وعلى أَنَّ السكوت خلاف التكلم ؛ فينبغي أن يكون السكوت صفة من التكلم» . والباحثُ يظنُّ أَنَّ إفراد المُتَكَلِّم بمفرده أو المخاطب بمفرده في تحديد إفادة الجملة غير دقيق ، والأفضل أنْ يقال مباشرة أَنَّ المُتَكَلِّم والمخاطب شريكان في حسن السكوت ، فالمُتَكَلِّم لن يسكت وهو يشك في أَنَّ كلامه ناقص المعنى ، والمخاطب لن يسكت إذا لم يفهم المعنى .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٥٤/١

ليس «في مثل حالة شيء أو فوقه شيء» ـ كما قال سيبويه . ويؤكد هذا المعنى ابن يعيش في قوله : «قولك : ما كان أحد مثلك ، وما كان أحد مجترئا عليك ، وإنَّما جاز الإخبار عن نكرة هنا لأنَّ «أحدًا» في موضع «الناس» ، والمراد أنْ يعرِّفَهُ أنَّه فوق الناس كلهم حتى لا يوجد له مثل ، أو دونهم حتى لا يوجد له في الصفة مثل . وهذا معنى يجوز أن يُجْهلَ مثله ، فيكون في الإخبار فائدة»[(١)] .

إنَّ إرادة المُتَكَلِّم هي التي «**قَصَدَتْ**» ، وهي التي «**اختارت**» التركيبَ الملائم لتعبِّرَ عن مقصدها ولا بدَّ أَنْ يكون هذا القصد من قِبَل هذه الإرادة «**مرتبطًا**» بالسِّياق الذي تقال فيه .

ب- التعبير بالصيغ الصَّرْفِيَّة التي تعبِّر عن جموع القِلَّة والكثرة ترتبط بإرادة المُتَكَلِّم ، تلك الإرادة المرتبطة بدورها بسياق الحال . فهو ـ أي سياق الحال ـ الذي يرشد المُتَكَلِّم إلى تحديد صيغة الجمع المناسبة .

يقول سيبويه : «وأما ما كان فَعَلًا فإنَّهُ يكسَّر على أفعالٍ إذا **أردتَ** بناء أدنى العدد ، وذلك نحو : قاعٍ وأقواع ، وتاج وأتواج ... ، وإذا أردت بناء أكثر العدد كسَّرْته على فِعْلان ، وذلك نحو : جيران وقيعان ... ، وما كان مؤنثا من فَعَل من هذا الباب فإنَّهُ يُكَسَّرُ على أَفْعُل ، إذا أردت بناء أدنى العدد ... ، فإذا أردت بناء أكثر العدد قلت في الدار : دور»[(٢)] .

ت- ويبرز إرادة المُتَكَلِّم أيضا في اختيار صيغة التحذير المناسبة من أسماء الفعل التالية : «مكانك ، وبعدك ، وعندك ، وفرطك ، وأمامك» ؛ فإرادة المُتَكَلِّم هي التي تختار اسم الفعل المناسب للمقام .

يقول : «وأما ما لا يتعدى المأمور ولا المنهي فقولك : مكانك وبعدك ، إذا قلت : تأخَّر أو حذرته شيئا خلفه ، كذلك عندك ؛ إذا كنت تحذره من بين يديه شيئا ، أو تأمره أَنْ يتقدَّم . وكذلك فرطك إذا كنت تحذره من بين يديه شيئا ، أو تأمره أَنْ يتقدَّم . ومثلها أمامك إذا كنت تحذره أو تبصره شيئا»[(٣)] .

هذه النصوص إنَّمَا هي غيض من فيض ، ففي هذه النصوص وغيرها عشرات بل مئات يظهر **تأثير هذه الإرادة في اختيار التركيب أو الأسلوب المناسبين لسياق الحال .**

وإذا تأمَّلنا ما تؤول إليه كلمة «إرادة» التي وردت في هذا العدد الهائل من النصوص في الكتاب نجدها تؤول إلى معني «حُرِّيَّة الاختيار» ؛ إذ لا معنى لوجود إرادة بدون حُرِّيَّة اختيار ، يقول

---

(١) شرح المفصل : ٣٤٣/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٥٩١/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٩/١ ، ويرتبط بمصطلح الإرادة قوله : «أن تجعل» ، الذي تكرر أكثر من ٢٨ مَرَّة

الزَّمَخْشَرِيّ : «**والإرادة نقيض الكراهة** ، وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ، ومال إليه قلبك . وفي حدود المُتَكَلِّمين : **الإرادة معنى يوجب للحي حالا لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه**» [(١)] .

وحُرِّيَّة الاختيار تعني وجود بدائل تسمح بظهور هذه الإرادة ، وتكون مجالا لحُرِّيَّة الاختيار . وبما أَنَّنا في مجال دراسة نحوِيَّة فَإِنَّ البدائل المتاحة لا بدَّ وأنَّ تكون بدائل لغَوِيَّة . واختيار المُتَكَلِّم للبديل المُعَيَّن لابدَّ أَنْ يكون مرتبطا بسياق ما ، لأَنَّ الاختيار العشوائي للبدائل قد يضرُّ المُتَكَلِّمَ ، وقد يسبِّبُ لبسا للمخاطب .

وتلك البدائل التركيبية المرتبطة بإرادة المُتَكَلِّم تقود إلى أَنَّ صاحب الكتاب لا بدَّ و أَنَّه قام بعَمَلِيَّة «تنميط لتراكيب اللُّغَة» ، أي تصنيف اللُّغَة لتراكيب نمطِيَّة تندرج تحتها «الجمل التي يمكن أَنْ يقولها المُتَكَلِّم» ، وحدد البدائل التركيبية لكل نمط . وقد أثبتنا هذا عند حديثنا عن منهج سيبويه في المبحث التالي .

وتثير قضية البدائل التي يمكن أَنْ يختار منها المُتَكَلِّم بإرادته التركيب المناسب للسياق سؤالا مهمًّا هو : هل يُجبرُ السِّياقُ المُتَكَلِّمَ على اختيار تركيب نحويّ ما ؟ أم أَنَّ المُتَكَلِّم حرٌّ في اختيار البديل التركيبيّ كيفما يحلو له وكيفما يشاء ؟ هل ينبغي على المُتَكَلِّم الذي يوجد في سياق ما أَنْ يختار تركيبا ما ويترك آخر ؟

يمكن أَنْ نسهِّل على أنفسنا إجابة هذا السؤال إذا استعنا ببعض المعطيات التي يُقَدِّمها علم مُهِمّ من العلوم الإنسانيَّة هو «علم النفس» . فمن المباحث التي يدرسها هذا العلم مبحث مُهِمّ للغاية هو مبحث «الدافع Motive » و «الدافعيّة Motivation» و«الباعث أو الحافز Incentive» .

والدافع يطلق «اصطلاحا على كل ما يدفع إلى النشاط ، حركيًّا كان أو **ذهنيًّا**» [(٢)] . وقد عرَّفه علماء النفس بأَنَّه : « قوة نفسِيّة تدفع الفرد إلى القيام بسلوك معين وتوجِّهُه وتواصله حتى يتحقَّقَ الهدف من السلوك» [(٣)] . وهو : «عامل انفعالي حركي ، فطري أو مكتسب ، شعوري أو لاشعوري ، يثير نشاط الفرد للأداء والإنجاز ، أو تحقيق غاية ، وينشأ داخل الفرد كنتيجة لخبرته في الحياة . وقد يكون الدافع ذاتيا ... وقد يكون عرضيا» [(٤)] .

---

(١) الكشاف : ١١١/١

(٢) د. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٥٧م)، ص ٤٠

(٣) معجم مصطلحات علم النفس والتربية : مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٨م)،٨٣/٢

(٤) د. أحمد زكي بدوي : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعِيَّة ، مكتبة لبنان ، بيروت ، (بدون تاريخ واضح للطبعة)، ص ٢٧٥

وأهم ما أسفرت عنه أبحاث علماء النفس عن الدافع والدافعية «أَنّهُ من غير الممكن للكائن أَنْ يُصْدِرَ نشاطا أو سلوكا مُعَيَّنًا دون أَنْ يُهَيَّأَ دافعيًّا للإتيان بهذا السلوك أو النشاط . بمعنى آخر أَنَّ مجرد صدور النشاط في ذاته يقضي بتوافر درجة معيَّنة من الدافعِيَّة **دونها يستحيل إصدار هذا النشاط** »[(١)] . وممّا يقرُّهُ علماء النفس أَنَّ سلسلة تفسير السلوك يجب أَنْ تحوي « الحلقات الثلاث الأتية : المنبِّه (شرط خارجي) ـ الطاقة الحيوية والتوتر العضوي (شرط داخلي) ـ الاستجابة »[(٢)] . ويقرُّون أيضا أَنَّ من خصائص الكائن الحي قابليَّته للتهيُّج ، وهي «مقدرة الكائن الحي على الردّ على التنبيهات بألوان مختلفة من الحركات »[(٣)] . وأَنَّ إرادة المُتَكَلِّم لكي تجد طريقها لتنفيذ الفعل يجب أَنْ تكون في بؤرة شعور المُتَكَلِّم[(٤)] .

إذا حاولنا تطويع هذه الحقيقة لخدمة موضوعنا يمكن أَنْ نعتبر السِّياق « دافعا ـ منبِّها ـ مهيِّجًا » ، وأَنَّ الكلام هو « النشاط » أو « الاستجابة » . الناتجة عن هذا الدافع . فالدافع يدفع « إرادة المُتَكَلِّم » إلى أَنْ يصدر عنه «نشاطٌ / كلامٌ» لتحقيق هذا الدافع . ويفهم من الحقائق السابقة أَنَّ العلاقة بين «الدافع / السِّياق » و «النشاط/ الكلام» **علاقة تلازم واجبة ، فلا نشاط أو كلام بدون دافع سِياقِيّ وراءه** . وهذا ما يمكن أَنْ نفسر به كلام د . مصطفى ناصف إذ يقول : « إِنَّ المُتَكَلِّم يقف موقفا خاصا من السامع . ويتضح هذا الموقف في اختيار الكلمات وترتيبها »[(٥)] .

فإذا وُضِعَ المُتَكَلِّم في موضع «شكّ » مثلا و« دُفِعَ » إلى تأكيد كلامه فَإِنَّ هذا «يضطره » إلى اختيار تركيب نحوِيّ ما « مناسب » من البدائل النحوِيَّة التي تفيد التوكيد لكي يُزيل هذا «التوتر أو الاستثارة »التي خلقها السِّياق بالنسبة له .

ولعل كلامنا هنا يتوافق مع ما أثبته شيخنا محمود شاكر في كتابه «المتنبي » ، عند إيضاحه للعلاقة بين المُتَكَلِّم وكلامه إذ يقول : «في نظم كل كلام وفي ألفاظه ولابد أثر ظاهر أو وسم خفي من نفس قائله ، وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير أو شر أو صدق

---

(١) د. محيي الدين أحمد حسين : دراسات في الدافعية والدوافع ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٨م)، ص ١٠

(٢) د. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، ص ٣٩

(٣) السابق، ص ٧٨

(٤) السابق، ص ٤٠ وينبغي الإشارة إلى أَنَّنا لسنا بدعا في استعانتنا بمعطيات علم النفس ، فقد قام العالم اللغويّ بلومفيلد Bloomfield بهذا من قبل عند تحليله للمعنى بأسلوب «سلوكي » ؛ أي أنه «نظر إليه على أنه سلسلة من المثيرات والاستجابات» ، ينظر : ستيفن أولمان ، دور الكلمة اللُّغَة ، ص١٨

(٥) اللُّغَة والتفسير والتواصل ، ص ١١

وكذب ، ومن عقل قائله ، وما يكمن فيه من جنين الفكر من نظر دقيق ومعان جلية أو خفية ، وبراعة صادقة ومهارة مموهة ، ومقاصد مرضية أو مستكرهة »[١] .

ولَعلَّ هذا العدد الهائل من المواضع التي تتحدث عن حُرِّيَّة الإرادة عند سيبويه والذي تجاوز الخمسمائة موضع هو ما جعل الزَّمَخْشَرِيّ المعتزلي متيَّما به ، ومكثرا من ذكر اسمه ، ومدافعا عنه ، بل في بعض الأحيان مرددا أقواله في كثير من مؤلفاته . فالمعتزلة ـ بوجه عام ـ والزَّمَخْشَرِيّ إمام من أئمتهم «يقررون بمبحثهم في العدل أَنَّ للإنسان قدرة وإرادة ومشيئة واستطاعة ، قد خلقها له الله ، و أَنَّها تؤدِّي وظائفها بشكل مستقل وحر »[٢] . فلَعلَّ هذا الاتفاق بينهما في هذه المسألة هو ما شد الزَّمَخْشَرِيّ لسيبويه .

ولَعلَّ هذه القضية قضية حُرِّيَّة الإرادة تفسِّر لنا أيضا قول المستشرقين « هـ . ا . ر . جب » و« ج . هـ . كالمرز » الذي ذكراه في مادة « المعتزلة » في موسوعتهما ، حيث قرَّرا أَنَّ المعتزلة لهم دورهم في شرح القرآن ، «فهم الذين أدخلوا الأسلوب النَّحْوِيّ بالمعنى الدقيق . [وأَنَّ] **<u>هناك علاقة وثيقة جدا بينهم وبين المدرسة النحوِيَّة في البصرة ، التي كان ممثلوها يعلمون بوجه عام المذاهب المعتزلية</u>**»[٣] .

وكَأَنَّ هذين المستشرقين يريدان أَنْ يثبتا علاقة نحاة البصرة ومن بينهم سيبويه بالاعتزال ، وهذا زعم قد يؤَيِّده هذا العدد الهائل من إشارات سيبويه لإرادة المُتَكَلِّم وحريتها .

***

---

(١) ص ١٥

(٢) د. محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩١م)، ص ٤٨

(٣) هـ.ا.ر. جب و ج.هـ.كالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٣م)، ١٠٩٨/٢

• المبحث الثاني : **خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التقيعد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه** :

لمعرفة دور سياق الحال في التوجيه الإعرابِيّ والتَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه يجب معرفة «آليات» عَمَلِيَّة التَّقْعِيد عنده من ألفها إلى يائها ، ومعرفة الخطوات والإجراءات التي سلكها ليُقِرَّ قاعدة أو يذكر توجيها ؛ وذلك بغرض تحقيق الدقَّة والأصالة .

وتأكَّد لدى الباحث أهمِيَّة الحديث عن المنهج عند سيبويه عند الشروع في جمع المادة العلميَّة المتعلِّقة بالتَّقْعِيد والتوجيه النَّحْوِيّين . فلقد وجد أَنَّه لكي يتمكَّنَ من تفسير بعض المسائل التي تتَعَلَّق بالتَّقْعِيد والتوجيه عنده وعلاقتها بقرينة السِّياق كان لا بدَّ أَنْ يرجع لطريقته ومنهجه في تقعيده وتوجيهه وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك كان لزاما علينا أَنْ نخصِّص جزءا من البحث للحديث عن منهج سيبويه في تقعيده النَّحْوِيّ[(١)] .

وهذه الآليات هي :

١ـ **تصنيف اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة مُجَرَّدة :**

في بداية الكتاب يعقد سيبويه بابا بعنوان « هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربِيَّة » يورد فيه النَّصّ الآتي :

« ويُبَيِّنُ لك أَنَّها (يعني الأفعال المضارعة) ليست بأسماء أَنَّكَ **لو وضعتها مواضع الأسماء لم يجز ذلك ؛ ألا ترى أَنَّكَ لو قلت : إنَّ يضرب يأتينا ، وأشباه هذا لم يكن كلاما** »[(٢)] .

واستوقفت الباحث هذه الجملةُ : «أَنَّكَ لو وضعتها مواضع الأسماء لم يجز ذلك» ؛ وأثارت عندي ملحوظتين :

---

(١) وهنا نشير إشارة مُهِمَّة وعامة مؤداها أن اكتشاف مناهج العلماء في مؤلفاتهم العلمِيَّة أمر له قيمته العلمِيَّة الجليلة إذ إنَّ الكشف عن هذه المناهج لدى مفكري الإسلام تعتبر «**أفضل مدخل للتراث الإسلامي في جملته ؛ فهو الذي يوضح الخطوات القياسِيَّة أو الاستقرائية التي اتبعها المفكرون والعلماء المسلمون في مختلف أوجه النشاط التي مارسوها**» . [يُنظر : د. حامد طاهر : الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، (بدون أَيَّة بيانات أخرى) ، ص ٣٧] ، وقد نبَّه على أهمِيَّة اكتشاف مناهج العلماء أستاذنا العلامة الشيخ محمود محمد شاكر ، في كتابه المهم : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص ١٥ وما بعدها . [ينظر طبعة خاصة بالرسالة صادرة عن الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٧م]

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٤/١

أ- إنَّ هذه الجملة تعني أَنَّ للأسماء «**مواضع**» وأنَّ للأفعال «**مواضع**» . ووضع الشيء وموقعه لا يتحدَّدَان إلّا من خلال موضع شيء آخر وموقعه(١) ؛ وهذا يستلزم تركيبا ما ، وفي مقامنا هذا لابدَّ أَنْ يكون هذا التركيب لغويًّا .

ب- وتعني هذه الجملة أيضا أَنَّ قائلها قام بعَمَلِيَّة مسح شامل لِلُّغَة أو معظمها لكي يحدِّد هذه المواضع .

كانت هاتان الملحوظتان بمثابة الحافز الذي قادني إلى الفكرة التالية : «إِنَّهُ لا حديث عن موقع قسم من أقسام الكلم (الاسم أو الفعل أو الحرف) إلا إذا كان صاحب الكتاب يُصنِّف اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة مجرَّدة يستخلصها من النصوص الحَيَّة المنطوقة التي تحَدَّثنا عنها في الفصل السابق» فبعد أَنْ صَنَّفَ الكلم إلى ثلاثة أقسام درس «موضع» كل قسم بالنسبة للآخر ، وكَوَّن في نهاية المطاف تراكيب نمطِيَّة لِلُّغَة بعد مسح شامل لها .

كانت هذه هي الفكرة التي استنبطتُها من النَّصّ السابق ، وكانت بحاجة إلى دعم من نصوص أخرى لكي تقوى وتستوي على سوقها ، وقد استطعتُ ـ بفضل الله ـ أَنْ أعثر على مجموعة من النصوص التي ترسي هذه الفكرة ، منها :

١ـ حديث سيبويه عن الحرفين « قد ـ سوف » يقول : « ولو قلت : سوف زيدًا أضرب لم يحسن ، أو قد زيدًا لقيت لم يحسن ؛ لأَنَّها (أي : قد وسوف) إِنَّمَا وضعت للأفعال (أي أَنَّ قد وسوف لا يليها إلا الأفعال) » (٢) .

أي أَنَّ التركيب النَّمَطِيّ الذي يأتي مع هذين الحرفين هو :

- « قد + فعل مضارع أو ماض + فاعل ... . ».
- « سوف + فعل مضارع + فاعل ... ».

وهذا تركيب ثابت استخلصه من خلال مسح شامل لِلُّغَة ، ولو أخل بهذا التركيب بأن أصبح هكذا : « قد + اسم + فعل» لم يحسن .

٢ـ الأدوات التي تنصب الفعل المضارع يأتي بعدها الفعل ولا يفصل بينهما ، يقول : «ألا ترى أَنَّكَ لا تقول : جئتك كي زيد يقولَ ذاك ، ولا خفتُ أَنَّ زيدٌ يقول ذاك . فلا يجوز أَنْ تفصل بين الفعل والعامل فيه بالاسم ، كما لا يجوز أَنْ تفصل بين الاسم وبين إنَّ وأخواتها بفعل . وممَّا لا تقدم فيه الأسماء الفعل الحروف العوامل في الأفعال الجازمة ، وتلك : لم ، ولما ، ولا التي تجزم الفعل في

---

(١) ونزيد هذه النقطة تفسيرا بأن نقول : إنَّ الشيء في الفراغ غير محدد ، ولكي نبدأ تحديده نحدده بشيء آخر ، فمثلا الشمال يتحدد بالجنوب ، والأعلى يتحدد بالأسفل ، والأمام يتحدد بالخلف وهكذا .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٩٨/١

النهي واللام التي تجزم في الأمر . ألا ترى أَنّهُ لا يجوز أَنْ تقول : لم زيدٌ يأتك ، فلا يجوز أَنْ تفصل بينها وبين الفعل بشيء ، كما لم يجز أَنْ تفصل بين الحروف التي تجرُّ وبين الأسماء بالأفعال ؛ لأَنَّ الجزم نظير الجرّ» [(١)] .

يُفهم من هذا النَّصّ أَنَّ التركيب النَّمَطِيّ المجرَّد للأدوات التي تنصب الفعل المضارع هي :

«أداة نصب الفعل المضارع + فعل مضارع + اسم (فاعل)»

ويُنْقَضُ هذا التركيب ويقبُح إنْ أتى على الصورة : «أداة نصب الفعل المضارع + اسم (فاعل) + فعل مضارع » ، ويقبح أيضا أَنْ يأتي التركيب : «حرف جزم + اسم (فاعل) + فعل مضارع»،و«حرف جر + فعل» ؛ أي تقبح الكلمة إذا لم تأتِ في موقعها في التركيب المُعَيَّن .

٣ـ الحرف «لو» له في اللُّغَة استعمالات متعددة [(٢)] ، منها « لو التي تفيد العرض » .يقول سيبويه عنها : « ولو بمنزلة لولا ، ولا يُبتَدأُ بعدها الأسماء سوى أَنَّ ، نحو : لو أَنَّكَ ذاهبٌ» [(٣)] .

أي أَنَّ التركيب النَّمَطِيّ مع « لو التي تفيد العرض» هو :

«لو + فعل + فاعل ... » أو « لو + أَنَّ + اسم أَنَّ + خبرها»

٤ـ اللام الجارة تكون مكسورة مع الاسم الظاهر إلا مع المستغاث فمفتوحة ؛ وإِنَّمَا كُسِرت مع الاسم الظاهر لكي يفرقوا بينهما وبين لام الابتداء ، ويوضح سيبويه السبب في أَنَّها (أي اللام الجارة) فُتِحت مع المستغاث ؛ « لأَنَّهم قد علموا أَنَّ تلك اللام (لام الابتداء) لاتدخل ها هنا (أي أسلوب الاستغاثة) » [(٤)] .

ويفهم من النَّصّ أَنَّ لام الابتداء لها مواضع تأتي فيها ، ليس من بينها أسلوب الاستغاثة ، وأَنَّ لام الجر لها مواضع منها أسلوب الاستغاثة .

٥ـ وفي موضع آخر يقول : « وزعم ناس أَنَّ الياء في لولاي وعساني في موضع رفع ، جعلوا « لولاي » موافقة للجرِّ ، و«ني » موافقة للنصب ، كما اتفق الجر والنصب في الهاء والكاف .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١١٠/٣وينقل سيبويه عن الخليل كلاما مشابها لهذا الكلام في المواضع التالية : ٣/ ١٣ ، ١٦١/٣ ـ ١٦٢

(٢) يذكر النُّحَاة أن من استعمالاتها أنها تأتي : مصدرية ، شرطية ، حرف جازم ، حرف يدل على العرض ، حرف يدل على التمني ينصب الفعل المضارع في جوابها بأن مضمَرَّة ، حرف يدل على التعليل ، لو الوصلية . يُنْظَر : د. علي توفيق الحمد و يوسف جميل الزغبي : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، دار الأمل ، الأردن ، ط ٣ ، (١٩٩٢م) ، ص ٢٨٨

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٣٩/٣ ـ ١٤٠

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٧/٢

وهذا وجه ردىء لما ذكرت لك ؛ ولأنَّك لا ينبغي لك أَنْ تكسر الباب وهو مطرد وأنت تجد له نظائر » [١] .

يفهم من كلامه هنا أَنَّ هناك قواعد (تراكيب لغَوِيَّة مجرَّدة) مطَّردة في كل باب من أبواب النحو لا ينبغي الخروج عليها لعدم وجود نصوص لغَوِيَّة تدعم هذا الخروج ، ويفهم منه أيضا أَنَّ مصطلح «ردئ»يعني عنده الخروج على التركيب الأصلي .

٦ـ ويقول : «ألا ترى أَنَّ الفعل لابد له من الاسم وإلا لم يكن كلامًا ، والاسم قد يستغني عن الفعل ، تقول : الله إلهنا » [٢] .

أي أَنَّ أي فعل لابد أَنْ يأتي بعده اسم (فاعل) ملازم له وإلا لم يكن كلاما كما قال سيبويه ، والاسم قد يأتي بعده فعل ، وقد يأتي بعده اسم آخر .

تلك بعض الأمثلة التي تؤكد على « تنميط سيبويه لِلُّغَة إلى تراكيب » ، استخلصها من النصوص اللُّغَوِيَّة المختلفة .

وليُعلمْ أَنَّ هذا « التنميط » لِلُّغَة لا يوجد عنده للتراكيب فقط ، بل نجده أيضا على المستوى الصَّرْفِيّ ؛ في مثل أقواله :

١ـ «وأمَّا صادُ (اسم السورة القُرْآنِيَّة) فلا تحتاج إلى أنْ تجعله اسما أعجميًّا ؛ لأَنَّ هذا البناء والوزن من كلامهم» [٣] .

٢ـ «وفاعِل بناء ينصرف في الكلام معرفة ونكرة ، وفَواعِل بناء لا ينصرف» [٤] .

٣ـ «**كلّ أفْعَل يكون وصفا لا تصرفه في معرفة ولا نكرة ، وكل أفعل يكون اسما تصرفه في النكرة** » [٥] .

ومما يؤكد اهتمام سيبويه بتنميط اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة استخدامه لمصطلح تردَّد كثيرا في الكتاب وهذا المصطلح هو مصطلح «الأصل» ، فكثيرًا ما أشار لهذا المصطلح عند مناقشته لتركيبٍ أو بنية صرفِيَّة ما [٦] ، وبلغ عدد المرَّات التي أحصيتُها لهذا المصطلح أكثر من ٢٥٠ مَرَّة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٦/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢١/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٨/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣١١/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٣/٣

(٦) من هذه المواضع مثلا قوله : « كما أنّ حروف الاستفهام بالفعل أولى ، **وكان الأصل فيها أن يبتدأ** بالفعل قبل الاسم، فهكذا الأمرُ والنَّهى ». ١٣٧/١، ومثل قوله : « وإن قلت : أَيُّهم زيدًا ضَرَبَ ؛ قَبُح ، كما يقبح فى متى ونحوها **وصار أَن يَلِيَهَا الفعلَ هو الأصلُ** ؛ لأنّها من حروف الاستفهام ، ولا يُحتاجُ إلى الألف ». ١٢٦/١ ، وقال : « واعلم =

وتردُّد مصطلح الأصل في الكتاب كُلّ هذا التردُّد يوحي ببعد تاريخي يقوم به سيبويه للتركيب الذي يدرسه ويقعِّد له . وقد سبق لنا إعطاء معنى مُحَدَّد لمصطلح الأصل عند سيبويه في التمهيد عند الحديث عن أهم المصطلحات .

ويمكن أَنْ نعتبر أنَّ عناوين أبواب سيبويه تمثل التركيب النَّحْوِيّ الذي يدرسه ، وبداخل هذا الباب الأمثلة التي تؤيد هذا التركيب ؛ فكأنَّ التركيب جنس والأمثلة هي «ما صدق» هذا الجنس .

إن فكرة تقسيم اللُّغَة إلى أنماط تجريدية فكرة واضحة لا مرية فيها يمكن أَنْ ندعمها بعشرات الأمثلة ، وليعلمْ مَن أراد إحصاء النصوص التي يُفهَم منها فكرة الموقعيَّة والنَّمَطِيَّة للتراكيب اللُّغَوِيَّة أَنّهُ يمكنه أَنْ يحصر ما يزيد على أربعمائة (٤٠٠) موضعا .

وفكرة النَّمَطِيَّة هذه تذكرنا بفكرة مماثلة عند العالم اللغويّ المعاصر دي سوسير وتفريقه بين اللُّغَة والكلام ، ولولا الخوف من الزلل ، وألّا تصيب عبارة الباحث مرماها ، وأَنْ يكون قد فاته شيء لم ينتبه إليه لقال : إنَّ سيبويه قد سبق علماء اللُّغَة المحدثين وعلى رأسهم دي سوسير الرائد الأول للمدرسة البنيوية ، سبقهم بالأفكار التي قال فيها بوجود فرق بين اللُّغَة والكلام ، وسبقهم بفكرة «تنميط قواعد اللُّغَة» ، حيث كان البنيويُّون «يجمعون المادة اللُّغَوِيَّة من أفواه الناس ويسجِّلونها ، ثُمَّ يبدؤون بتقسيمها إلى جمل ، فأشباه جمل ، فكلمات ، فأجزاء الكلمات إلى أَنْ يصلوا إلى الأصوات ، أو اللبنات الأولى ، التي تتألَّفُ منها اللُّغَة جميعها . ثُمَّ يستخدمون الأسلوب العلمي الدقيق في **<u>اكتشاف الطرائق التي تتجمع بها الأصوات لتؤلف الكلمات ، والكلمات لتؤلِّف الجمل ؛ أي لتؤلف النماذج أو الأنماط التي تنتج عن كل عَمَلِيَّة من تلك العمليات</u>**» (١) .

على أَنَّ هناك فرقا بين الرجلين في تنميطهما التركيبي لِلُّغَة ، فبينما كان اهتمام دي سوسير منصبًّا على وصف اللُّغَة ، أيَّ لغة ، «من داخلها وبالاعتماد على المعايير اللُّغَوِيَّة دون سواها سعيًا وراء التوصُّل إلى وصف دقيق علمي شامل لتركيب أو بنية اللُّغَة الأساسيَّة ... [و] <u>دون الإشارة إلى المعاني ، أو إلى واقع العالم الذي تعيش فيه</u>» (٢) ـ نجد سيبويه يربط النمط اللغويّ بالسِّياق الذي يقال

= أن الترخيم لا يكون في مضاف إليه ولا في وصف ؛ لأَنَّهما غيرُ منادَيين ، ولا يرخم مضاف ولا اسمٌ منون في النداء من قبل أنه جرى **<u>على الأصل وسلم من الحذف</u>**» ٢/ ٢٤٠ ، ومثل : « واعلم أنه إذا اجتمع بعد حروف الاستفهام نحو هل وكيف ومن اسمٌ وفعلٌ ، كان الفعل بأن يلي حرف الاستفهام أولى ؛ **<u>لأنها عندهم في الأصل من الحروف</u>** التي يذكر بعدها الفعل. » ١١٥/٣ ، ومثل : « ... إنَّمَا هو **<u>في الأصل للفعل لا للأسماء</u>** ، فاستثقل فيه ما يستثقل في الأفعال » ٢٠٩/٣

(١) د. نايف خرما ، علي حجاج : اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، ص ٢٨

(٢) السابق ، ص ٢٨، ٢٩ ، ٣٠

فيه ، ويلازم بين هذا النمط والدِّلَالَة السِّيَاقِيَّة كما سنرى تباعا . والأمثلة التي ذكرناها هنا تدلُّ أيضا على سبق سيبويه لـ «دي سوسير» في اهتمامه بالتتبُّع الرأسي والأفقي للظاهرة اللُّغَوِيَّة .

٢ـ الإحصاء العددي للتراكيب النَّمَطِيَّة :

أصبح الإحصاء «من أهم وسائل وأدوات البحث العلمي في العلوم التجريبيَّة أو التطبيقيَّة ؛ وذلك بهدف تعميم النتائج التي يحصل عليها الباحث» [١] . وأصبح علما مستقلا بذاته ، له مناهجه وأصوله وقواعده . ولقيمته العلميَّة في كافَّة المجالات دعا إلى تطبيقه في مجال الدراسة الأدبيَّة والنقد الأدبي بعض أساتذتنا[٢] .

وأزعم هنا أنَّ سيبويه كان سبَّاقا في استخدام الإحصاء كأداة منهجِيَّة في عمله ، فقد كان يقوم بعَمَلِيَّة إِحْصَائِيَّة للتركيب النَّمَطِيّ المُعَيَّن الذي «**<u>يترسَّب لديه من خلال دراسته النصوص المنطوقة والمنشدة أمامه</u>**» وأنَّه كان يقوم ـ للحصول على نتائجه التي يريدها ـ بما يسميه علماء الإحصاء «الإحصاء الوصفي Descriptive statistics» [٣] ، أو «أسلوب المسح Surveying» [٤] .

<u>ولا أدعي هنا أنَّ سيبويه قد استخدم هذا الأسلوب باحترافيَّة في استخلاص نتائجه ، ولَكِنَّه على الأَقَلّ لجأ إليه بدرجة ما</u> .

ودعوانا هذه التي ادّعيناها على صاحب الكتاب تحتاج إلى دليل وبيِّنة ، وها هي ذي الأدِلَّة على وجود هذا الاتجاه :

١ـ يذكر سيبويه في أحد مواضع الكتاب علاقة «كأين (بمعنى كم)» بـ «مِنْ الجارة» فيقول : «إلا <u>أنَّ أكثر العرب إنَّمَا يتكلمون بها (كأين) مع مِن</u>» [٥] .

---

(١) د.عبد اللطيف عبد الفتاح ود.أحمد محمد عمر : مقدمة الطرق الإِحْصَائِيَّة ، القاهرة ، ط ٤ ، (١٩٨٢م) ، ص ٤

(٢) هو أستاذنا د. سعد مصلوح في كتابيه المهمين : «الأسلوب : دراسة لغَوِيَّة إِحْصَائِيَّة » . و « في النص الأدبي دراسة أسلوبية إِحْصَائِيَّة» . وأشار في الأخير (ص: ٩) إلى أهمِيَّة الأسلوب الإحصائي في حل مشكلات نقدية مُهِمَّة وأن الأسلوب الإِحْصَائِيّ يمثل أداة منهجية ، وليس منهجا .

(٣) د.عبد اللطيف عبد الفتاح ود.أحمد محمد عمر : مقدمة الطرق الإِحْصَائِيَّة ، ص ٧

(٤) أسلوب المسح Surveying : هو أسلوب لجمع البيانات عن طريق حصر أو مسح الوضع القائم للظواهر موضع الدراسة كما هو ، دون التحكم في العوامل المختلفة التي قد تؤثر أو تؤدي إلى الحالة التي توجد عليها هذه الظواهر . ويقترن هذا الأسلوب في الغالب بالدراسات الاجتماعِيَّة والإنسانيَّة ؛ حيث يصعب التحكم في العوامل المحيطة بهذه النوعية من الدراسات.يُنْظَر: د. صلاح مهدي محمد : الإحصاء ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٨م)، ص ٧

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٧٠

٢ـ «وثُمَّ بمنزلة الفاء ، تقول : ثُمَّ صاعدا ، إلا أنَّ الفاء أكثر في كلامهم»[١] .

٣ـ « والرفع أجود وأكثر في ما أنت وزيدٌ »[٢] .

٤ـ « فهذا ضعيف ، والوجه الأكثر النصب»[٣] .

٥ـ « فأما الأصل الأكثر الذي جرى مجرى الفعل من الأسماء ففاعل»[٤] .

٦ـ « وهذا أيضا ليس بالكثير في كلامهم ؛ والأكثر في كلامهم : أعطاه إياه»[٥] .

٧ـ « وقد زعم بعضهم أنَّ «ليس» تجعل « كما » ، وذلك قليل لا يكاد يعرف»[٦] .

٨ـ « وزعموا أنَّ ناسا يقولون : كيف أنت وزيدًا ، وما أنت وزيدًا ، وهذا قليل في كلام العرب»[٧]

٩ـ «... ؛ لأَنَّ حسبتنيه وحسبتكه قليل في كلامهم»[٨] .

١٠ـ «...وقد جاء رفعه على شيء هو قليل في الكلام»[٩] .

١١ـ «وقد بلغنا أَنَّ قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحقِّقون نبيءٌ وبريئةٌ ؛ وذلك قليل ردئ»[١٠] .

١٢ـ «...ولكن كثر النصب في كلامهم»[١١] .

١٣ـ «...وهذا لا يكاد يعرف»[١٢] .

١٤ـ «...وهذا النحو في الكلام كثير»[١٣] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٩١/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٩/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٨٦/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١١٧/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٦٥/٢

(٦) سيبويه : الكتاب ، ١٤٧/١

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٣/١

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٣٦٥/٢

(٩) سيبويه : الكتاب ، ٩٩/٣

(١٠) سيبويه : الكتاب ، ٥٥٥/٣

(١١) سيبويه : الكتاب ، ٢٧١/١

(١٢) سيبويه : الكتاب ، ٦٠/١

(١٣) سيبويه : الكتاب ، ٨٣/١

١٥ـ «...فهذا ضعيف ، والوجه الأكثر الأعرف النصب»[١] .

ومن الواضح من هذه الأمثلة أَنَّ سيبويه استخدم ألفاظا معياريَّة مثل : «كثير» و«كَثُرَ» و«الأكثر» و«قليل»... ولم يستخدم إِحْصَائِيّات صريحة ، وهذا ما سبق وبدأنا به كلامنا قبل ذكر الأمثلة . إِنَّ غاية ما نريد إثباته هنا أَنْ نشير إلى استخدام سيبويه لهذا الاتجاه بدرجة ما .

ولعله ممَّا يدعم كلامنا هنا عن اتخاذ سيبويه لهذا الاتجاه الإحصائي ما قاله البغدادي : «حدثنا على بن سليمان قال : حدثنا محمد بن يزيد : أَنَّ المفتشين من أهل العربية ومن له المعرفة باللغة تتبَّعوا على سيبويه الأمثلة ، فلم يجدوه ترك من كلام العرب إلا ثلاثة أمثلة : منها الهُندلِع وهي بقلة ، والدُّرْداقِس وهو عظم في القفا ، وشَمَنْصير وهو اسم أرض ، وقد فسر الأصمعي حروفا من اللغة التي في كتابه ، وفسر الجرمي الأبنية ، وفسرها أبو حاتم وأحمد بن يحيى . وكلٌّ واحد منهم يقول ما عنده فيما يعلمه ، ويقف عما لا علم له به ، ولا يطعن على ما لا يعرفه ، ويعترف لسيبويه في اللغة بالثقة وأنَّه علم ما لم يعلموا وروى ما لم يرووا»[٢] .

وفي تتَبُّعنا لتلك الأقوال الدالة على المنهج الإِحْصَائِيّ عند سيبويه يمكن أَنْ نقول بعض الملحوظات المُهِمَّة التالية :

» **الملحوظة الأولى** :ـ من خلال وقوفنا على الجانب الإحصائي النسبي عند سيبويه يمكن أَنْ نقول إِنَّ التركيب الأساسي للقاعدة النحوِيَّة التي يُقعِّد لها سيبويه هو الأكثر تَرَدُّدًا في النصوص المستخلص منها القاعدة .

وهنا نوجه النظر إلى أَنَّ سيبويه كان يستخلص هذا التركيب الأساسي بناء على «نوع مُعَيَّن من القياس»كان يقوم به .

ولتحديد هذا النوع من القياس نقول ابتداء إنَّه من الخطأ أَنْ نتصور أَنَّ مصطلح القياس «لا يتغير من عصر إلى عصر ، ولا يتفاوت مضمونه من مدرسة إلى أخرى ، بل [إِنَّهُ من الخطأ أَنْ نتصور] أَنَّه لا يختلف عن القياس المنطقي بما يتطلبه من قضايا ، ويفترضه من مقدمات ، ويستلزمه من شروط»[٣] . وإِنَّنا بعد التحليل العلمي لاصطلاح القياس يمكن أَنْ نميز «بين مدلولين يختلفان تمام الاختلاف ، أَمَّا أولهما فيرتكز على مدى اطراد الظاهرة في النصوص اللُّغَوِيَّة مروية أو مسموعة ، واعتبار ما يطرد من هذه الظواهر قواعد ينبغي الالتزام بها ، وتقويم ما يشذُّ من نصوص

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٨٦/١

(٢) البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط ٤ ، (١٩٩٧م)، ٣٧٠/١

(٣) د. على أبو المكارم : أصول التفكير النحوي ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م)، ص ٣٦

اللُّغَة عنها ، ومن ثمَّ فإِنَّهُ يرفض الأخذ بالظواهر الشاذة ، ويرد هذه الظواهر ، كما يرفض الأخذ بالنصوص التي تحملها مهما كان مصدر هذه النصوص . ، وأما المدلول الثاني للقياس فهو أَنَّه عَمَلِيَّة شكلية يتم فيها إلحاق أمر ما بآخر لما بينهما من شبه أو علة ؛ فيعطي الملحق حكم ما ألحق به . ومن ثَمَّ فَإِنَّ لهذه العَمَلِيَّة أطرافا أربعة : المقيس ، والمقيس عليه ، والجامع بينهما ، والحكم . **والمدلول الأول للقياس هو الشائع في البحث النَّحْوِيّ طوال القرون الثلاثة الأولى منه ؛ أي حتى ابن السراج وتلميذه الفارسي وتلميذه ابن جني**» [١] .

وقد استعمل سيبويه القياس بمدلوله الأول ، ويدلُّ على ذلك من نصوصه قولُه :

- «وقد جاء « فُعْلان » نحو : الشكران والغفران ، وقالوا : الشُّكُور ، كما قالوا : الجُحُود . فإِنَّما هذا الأَقَلّ نوادر ، تحفظ عن العرب ، ولايقاس عليها ، ولكن الأكثر يقاس عليه» [٢] .
- «وإن أضفت إلى عباديد قلت : عباديديٌّ ؛ لأَنَّهُ ليس له واحد ؛ وواحده يكون على فُعْلولٍ أو فِعْليلٍ أو فِعلال ؛ **فإذا لم يكن واحدٌ لم تجاوزه حتَّى تعلم ؛ فهذا أقوى من أَنْ أحدث شيئًا لم تتكلَّم به العرب**» [٣] .

إِنَّنَا بعد أَنْ نقرأ هذه النصوص نشعر أَنَّ سيبويه بعد استخلاصه للتركيب الأساسي للقاعدة يريد أَنْ يقول « هذا هو التركيب الذي وجدته أكثر شيوعا في نصوص اللُّغَة » .ولقد كان هذا التركيب الأساسي المستخلص « مسحا لنصوص اللُّغَة » هو « المعيار » الذي يحتكم إليه لإبراز مدى درجة «التراكيب البديلة بالنسبة للتركيب الأساسي»من حيث الكثرة ، أو القِلَّة أو الشذوذ .

وأود هنا بعد قولي السابق أنْ أتجرأ قليلا وأعبِّر عن رأي قد يخالف كلاما لأستاذنا شوقي ضيف في كتابه «المدارس النحوِيَّة»عن سيبويه ، حيث يقول سيادته :

- ✓ «وعلى هذا النحو كان سيبويه يعرض سماعه على المقاييس النحوِيَّة ، أو بعبارة أدق : كان يتخذ هذه المقاييس مما دار على ألسنة العرب كثيرا ، وما خالفه ينحى عليه بكلمات تدلُّ على مخالفته للذائع المشهور الذي استنبطت منه القواعد ، وينعته بالغلط ، يريد أَنْ يثبت عليهم التوَهُّم فيه » [٤]

فقول سيادته «وينعته بالغلط»أمر مثير للانتباه ، فكلمة « غلط » لم ترد في كتاب سيبويه ـ حسبما وقفت ـ إلا أربع مرَّات :

---

(١) السابق : ص٢٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٨/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٩/٣

(٤) المدارس النَّحْوِيَّة ، ص ٨٢

» منها مَرَّة لم تستخدم في وصف تركيب نحوي بل لشرح استخدام للحرف بل[١]

» ومرتان لتوضيح مسألتين صرفِيَّتَيْن[٢] ،

» والمَرَّة الرابعة يوضح مسألة صوتيَّة[٣] .

فلم تأت كلمة « غلط »لوصف تركيب نحوي ما ، كما قال د . ضيف . وأما ما أثبته سيبويه من توهم في بعض أبوابه فليس على العرب بل على النُّحَاة الذين سبقوه .

✓ ويقول في موضع ثان : « وكان موقفه من العرب دائما أَنْ يسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير معتمدا عليها في تقرير قواعده . ولم يكن يسجلها وحدها ، بل كان يسجل دائما ما جاء شذوذا على ألسنتهم ، وهو ينعته تارة بالضعف وتارة بالشذوذ أو القبح أو الغلط ، يقصد بذلك إلى أَنَّه يخالف القياس الذي ينبغي اتباعه »[٤] .

وهذا النَّصّ قد يشوبه شيءٌ من عدم الدقة ونقص استقصاء من الدكتور ضيف ؛ لأَنَّنا وجدنا سيبويه يصف بعض التراكيب البديلة بـ «الجَيِّدة» ، وبعضها بـ «الكثير» ، وبعضها بـ «الجَيِّد الكثير» أيضا ، فليست كل البدائل بالقبيحة ولا الغلط ولا الشاذة . والتراكيب الشاذة عند سيبويه هي التراكيب الأَقَلّ تَرَدُّدًا من التركيب الأصلي المولودة منه والناشئة عنه .

وإذا عدنا للقياس عند سيبويه مَرَّة أخرى نقول : إنَّ سيبويه كان يقوم بقياسه «**على الأكثر**»المأخوذ بدوره من «الواقع اللغويّ الذي تقوله العرب» ، ولشَدَّ ما أكَّد مرارا وتكرارا في مواضع من كتابه على أهميَّة الرجوع إلى هذا الواقع اللغويّ الذي أخذ منه «قياسه على الأكثر» ، يقول :

- «...إنَّمَا تجري ذا كما أجرت العرب»[٥] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٣٠/١ ، حيث قال : «... ومنه: مررت برجلٍ راكع بل ساجد، إما غلط فاستدرك، وإما نسىَ فذكر » .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٦٢/٣ ، حيث قال : «ومن العرب من يقول في نابٍ: نويبٌ ، فيجيء بالواو ؛ لأنَّ هذه الألف مبدلة من الواو أكثر، وهو غلطٌ منهم » . و ٣٥٦/٤ ، حيث قال : « فأما قولهم مصائب فَإِنَّه غلطٌ منهم » .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٦٠/٤ ، حيث قال : «وزعم أبو الخطاب أن ناسًا من العرب يقولون: ادعه من دعوت ؛ فيكسرون العين ؛ كأَنَّها لما كانت في موضع الجزم توهموا أنها ساكنة إذ كانت آخر شيء في الكلمة في موضع الجزم ؛ فكسروا حيث كانت الدال ساكنةلأنه لا يلتقي ساكنان، كما قالوا: رُدِّ يا فتى. وهذه لغةٌ رديئة ، وإِنَّمَا هو غلطٌ » .

(٤) المدارس النَّحْوِيَّة ، ص ٨١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣١٨/١وقال السيرافي تعليقا على هذه الجملة : «ذكر سيبويه هذه الأشياء على نحو استعمالها ولم يجز سقيك ؛ لأنَّ العرب لم تدع به » ، نقلا عن الحاشية ذات الرَّقْم٢ من كلام المحقق .

- «... فاستعمل من هذا ما استعملت العرب ، وأجز منه ما أجازوا» [(١)] .
- «... فأجره كما كما أجرت العرب واستحسنت» [(٢)] .
- «... ولم يؤخَذْ ذلك إلاّ من العرب » [(٣)] .

وكان الواقع اللغويّ الحيّ والقياس الأكثري ـ إنْ صح التعبير ـ النابع من هذا الواقع الحي «أداتَيْنِ» معياريَّتين «يُعَايِرُ» بهما كلَّ الأقوال التي ترد إليه ، فنراه مثلا يقول : « وزعم الخليل رحمه الله أَنَّ قولهم : رَبِحتُ الدرهمَ درهمًا ، محالٌ ، حتَّى تقول : فى الدرهمِ وللدّرهمِ . **وكذلك وجدنا العربَ تقول**» [(٤)] .

وعبارة سيبويه الأخيرة في النَّصّ السابق مُهِمَّة ؛ فهو لم يأخذ نصّ الخليل مُسلَّمًا به بل قارنه بـ « **الواقع اللغويّ** » وما « **تقوله العرب** » ؛ فوجد أَنَّ ما قاله الخليل موافق لهذا الواقع .

ومن النصوص المُهِمَّة أيضا التي نري أَنَّها تدلُّ على اهتمام سيبويه بالواقع اللغويّ بشكل كبير نصه الذي يقول فيه :

« واعلم أنَّه ليس كلُّ حرف يَظْهَرُ بعده الفعلُ يُحْذفُ فيه الفعلُ ، ولكنّك تُضمِر بعد ما أَضمرتْ فيه العربُ من الحروف والمَواضِعِ ، وتُظهِرُ ما أظهروا ، وتُجْرِى هذه الأشياءَ التى هى على ما يَستخفون بمنزلة ما يَحذفون من نفس الكلام ومما هو في الكلام على ما أَجرَوْا فليس كل حرفٍ يحذف منه شيء ويُثْبَتُ فيه ، نحوُ : يَكُ ويَكُنْ ، ولم أُبَلْ وأُبالِ ، لم يَحملهم ذاك على أَنْ يَفعلوه بِمثله ، ولا يحملهم إذا كانوا يُثْبِتون فيقولون : في مر أومر ، أَنْ يقولوا : فى خُذْ أُوخُذْ ، وفى كُلْ أوكل . **فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثُمَّ فَسِّرْ**» [(٥)] .

إن سيبويه في هذا النَّصّ يكشف عن جانب من جوانب منهجه في كتابه ، وهو أَنَّه يهتم بوصف الواقع اللغويّ كما هو ، وكما وقف عليه ، ثُمَّ تأتي مرحلة تالية يقوم بها **هي مرحلة تفسير هذا الواقع ، فهو «يصفُ» أولا ، ثُمَّ «يفسِّرُ» ثانيا** ، ولا يتدخل بتعليقٍ على أَنَّه ينبغي أَنْ يكون تركيب ما بشكل ما ، بدليل أقواله : «إِنَّمَا تجري ذا كما أجرت العرب ، فأجره كما كما أجرت العرب فاستعمل من هذا ما استعملت العرب ، وأجز منه ما أجازوا»التي أثبتناها آنفا .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١٤/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٢٤/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١/ ٢٣٧

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٩٥/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، 1/ 266 وفي الحاشية ذات الرَّقْم٢ من تحقيق الأستاذ هارون يورد رواية أخرى للجملة الأخيرة في النص وهي « ثم قس بعد». ويفسر سيادته التفسير في الجملة الأولى بـ «**التعليل**» .

ولا بدَّ أَنْ تعقُب هاتين المرحلتين عنده مرحلتان تاليتان هما مرحلة «الفرز والتصنيف» ، فرز وتصنيف ما هو «أكثر ، وما هو كثير ، وما هو قليل وما هو شاذ» ؛ ثُمَّ مرحلة «وضع القاعدة على الأكثر» .

والنص المذهل الذي قاله سيبويه في الاقتباس السابق هو قمة ما وصل إليه علماء اللُّغَة المعاصرون ، فكلامه فيه يكاد يتطابق مع ما يقوله العالم اللغويّ المعاصر ديفيد كريستال David Crystal ، بل أكاد أقول إنَّ نصّ ديفيد كريستال التالي هو ترجمة لمنهج سيبويه ولجملته في النَّصّ السابق «**فقف على هذه الأشياء حيث وقَفوا ثُمَّ فسِّرْ**» ، يقول هذا العالم اللغويّ عند شرحه لمصطلح «علم اللُّغَة الوصفي Description» :

" **The aim of descriptive linguisticsis to describe the facts of linguistic usage as they are, and not how they ought tobe, with reference to some imagined ideal state** . The emphasis on a given timeplaces it in contrast with historical linguistics, **where the aim is to demonstratelinguistic change : descriptive linguistics aims to describe a language synchronically** ،at a particular time (**not necessarily the present – one can describe thelinguistic patterns of any period**) . "

«إنَّ هدف علم اللُّغَة الوصفي أَنْ يصف حقائق الاستخدام اللغويّ كما هي ، لا كيف ينبغي أَنْ تكون مع الإشارة لبعض الحالات المثاليَّة . إنَّ تأكيد [علم اللُّغَة الوصفي أَنَّه يعمل] على فترة زمَنِيَّة محدّدة يضعه في تباين مع علم اللُّغَة التاريخي الذي يهدف إلى أَنْ يشرح (وبتعبير سيبويه : يفسر) التغير اللغويّ . إنَّ علم اللُّغَة الوصفي يهدف إلى أَنْ يصف اللُّغَة بطريقة تزامُنية تواقُتية ، في وقت مُحَدَّد ، ليس بالضرورة في الوقت الحاضر ، ففي مُكْنة عالم اللُّغَة أَنْ يصف نماذج اللُّغَة في أَيَّة فترة زمَنِيَّة» [١] . وفي إشارة ديفيد كريستال David Crystal في نصه السابق : « **with reference to some imagined ideal state** » إشارة تشبه بدرجة كبيرة عبارة لسيبويه كان يكرِّرها كثيرا عندما يتعرض لأقوال النُّحَاة المصنوعة المثالِيَّة ، وهي : «وهذا تمثيل ولم يُتَكَلَّمْ به» [٢] .

---

(١) ينظر : A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, P 139 والترجمة للباحث

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٧٣/١وقد تكررت هذه العبارة بنصها ولفظها في أكثر من ٢٠ موضعا آخر في الكتاب ، منها : ٣١٢/١ ، ٣٢٣/١ ، ٣٥٣/١ ، ٣٧١/١ ، ٣٧٤/١ ، ٣٧٥/١ ٣٧٦/١ ، ٤٢٧/١ ، ٨٣/١ ، ١١٨/٢ ، ١١٩/٢ ، ١٧١/٢ ، ١٩/٢ ، ٩٢/٢

وفي مرحلة التفسير تَأَثَّرَ سيبويه بالبيئة الفلسفِيَّة في البصرة ، تلك البيئة التي تغذَّت علميا بكتب الفلسفة التي ترجمها المترجمون ، وخاصة الكتب التي احتوت منطق أرسطو .

وإذا كان الواقع اللغويّ لا يعطي عددا كبيرا من الأمثلة «يسمح» باستخلاص «قياس أكثري» توقف عن تعميم القياس للتركيب المستخلص من هذه الأمثلة القليلة ، وطالب أَنْ يظل هذا التركيب مقصورا على الأمثلة التي أتى فيها . في ضوء ذلك نفهم قول سيبويه :

- «ولو قالت العرب : «اضرب أيٌّ أفضل» لقلته ، ولم يكن بد من متابعتهم ، ولا ينبغي لك أَنْ تقيس على الشاذ المنكر في القياس»[1] .
- وقوله : «هو مني منزلة الشغاف ، وهو مني منزلة الولد ، هو مني معقد الإزار ، هو مني درج السيل » ، ثُمَّ يفسر معنى هذه الظروف أَنَّ قائليها أرادوا القرب الشديد ، ثُمَّ يقول بعد هذا التوضيح : «**وليس يجوز هذا في كل شيء** ، لو قلت : هو منّى مَجْلِسَكَ أو مُتَّكأً زيدٍ ، أو مَربِطَ الفرسِ ، **لم يجز** . فاستَعملْ من هذا ما استعملتِ العربُ ، وأَجِزْ منه ما أجازوا »[2] .
- «ودُونَك لم يؤْخَذ من فعلٍ ، ولا عندك ، فَإِنَّما يُنتَهَى فيها حيث انتهتِ العربُ »[3] .

» **الملحوظة الثانية** : أَنَّهُ يبدو أنَّ هذا الاتجاه الإِحْصَائِيّ أخذه سيبويه عن أستاذه الخليل لقوله : «وزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أَنَّهُ سمع أعرابيا يقول : ما أنا بالذي قائل لك شيئا . وهذه قليلة ... وقلَّ من يتكلم بذلك»[4] .

» **الملحوظة الثالثة** : تمكن سيبويه من خلال هذا الاتجاه الإِحْصَائِيّ أَنْ يفسر بعض المسائل النحوِيَّة ، مثل قوله : «وإذا كان الاسم على بناء فَعَالِ : حَذَامِ ورَقَاش ، لا تدري ما أصله ، أمعدول أم غير معدول ، أم مؤنث أم مذكر ؛ فالقياس فيه أَنْ تصرفه ؛ لأَنَّ الأكثر من هذا البناء مصروف غير معدول ، مثل : الذهاب ، والصلاح »[5] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠٢/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤١٤/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٢/١

(٤) الكتاب ، ٤٠٤/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٠/٣ ، وينظر أيضا : ٤٦٢/٣

أي أَنَّهُ إذا كان الاسم على وزن «فَعَالِ» ، ولم ندرِ أمعدول[1] هو أم لا ، فسيبويه يصرفه استنادا على الجانب الإِحْصَائِيّ الذي قام به لهذا الوزن ، والذي قال إِنَّ معظم حالات هذا الوزن يكون فيها مصروفا .

» **الملحوظة الرابعة :** أَنَّ الاتجاه الإِحْصَائِيّ ليس مقصورا فقط على التراكيب النحوِيَّة بل يمتد أيضا إلى الأبنية الصَّرْفِيَّة ، مثل :

- «... وفَعِلٌ أقل من فَعِيل بكثير»[2] .
- «ألا ترى أَنَّ تَفْعَلُ ويَفْعَلُ في الأسماء قليل»[3] .
- «ومع ذا أنَّ فَعاعِيل وفَعاعل أكثر وأعرف من فعالل وفعاليل»[4] .
- «ليس في الكلام مثل : سَرْداحٍ ولا فَعْلالٌ إلا مُضعَّفًا»[5] .
- «ألا ترى أنَّه ليس في الكلام سِفْعَال»[6] .

» **الملحوظة الخامسة :** أَنَّ سيبويه في إحصائه الوصفي المسحي يحدد البيئة اللُّغَوِيَّة (المجتمع) التي يستقي منها مادته ، ويعتمد الأسئلة المباشرة ، ولا يخلط ما تَتَمَيَّز به بيئة لغَوِيَّة عن بيئة أخرى ، فهو يحفظ لكل بيئة لغَوِيَّة خصوصيَّتها اللُّغَوِيَّة : النحوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، وكثيرا ما ردَّدَ سيبويه قوله «ومن العرب ...» ، تلك المقولة التي ترددت أكثر من مَرَّة ، وبلغ عدد المرَّات التي أحصيتُها لهذه المقولة مائتين وتسعة (٢٠٩) مَرَّة .

ومن الأمثلة التي تؤيد هذه الملحوظة أقواله :

- «وسألنا العُلْويين والتميميين ...»[7] .
- «وسألنا من يرفع في قوله : سرتُ حتى أدخلها ...»[8] .

---

(١) يقصد بمصطلح «العدول» : إخراج الكلمة عن صيغتها الأصلية لغير قلب أو تخفيف أو إلحاق أو معنى زائد . ينظر : د. محمد سمير اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١٤٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١١٢/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٩٧/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٣٢/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣/ ٢١٨

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٤٣٤/٣

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٢٩١/٣

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٢٢/٣

- «وناس من العرب يقولون : بُشْرَيَّ ... » [١] .
- «...وإنْ شئت قلت : إذا كان غدًا فأتي ، وهي لغة بني تميم» [٢] .
- «ومن العرب من ينصب بالألف واللام ، من ذلك قولك : الحمدَ لله ، فينصبها عامة بني تميم وناس من العرب كثير » [٣] .
- « ... وهذه كلمة تَكَلَّم بها العرب في حال اليمين ، وليس كل العرب تتكلم بها ، تقول : لَهِنَّكَ لَرجلُ صدق » [٤] .
- « والذي ذكرت لك قول الخليل ، ورأينا العرب توافقه بعد ما سمعناه منه» [٥] .
- «كما تخرج هند في التحقير إذا قلت : هنيدة إلى ما لا ينصرف في جميع اللغات» [٦] .
- «واعلم أَنَّ ناسا كثيرا من العرب يقولون : عِلياوان وحِرياوان » [٧] .

وسيبويه لا يُقصر بحثه الميداني على النواحي النحوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، بل إِنَّ بحثه الميداني يشمل الدراسة الصَّوْتِيَّة لما تَتَمَيَّز به كل قبيلة على حدى . يقول مثلا : «واعلم أَنَّ ناسًا من العرب كثيرًا ما يلقون على الساكن الذي قبل الهمزة حركة الهمزة ، **سمعنا ذلك من تميم وأسدٍ** ، يريدون بذلك بيان الهمزة ، وهو أبين لها إذا وليت صوتًا » [٨] .

وعبارات سيبويه في النصوص السابقة «وسألنا ، وسألنا من يرفع ، وناس من العرب ، وهي لغة ، ومن العرب من ، وهذه كلمة تَكَلَّم بها العرب في حال ، ورأينا العرب ، جميع اللغات ، واعلم أَنَّ ناسا كثيرا من العرب ... » تذكرنا بالطريقة التي كان علماء اللُّغَة المعاصرون يتبعونها في دارسة «علم اللهجاتDialectology» تلك الطريقة التي عُرفت باسم «الاستبيانات Questionnaire». التي

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١٤/٣
(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/١
(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٢٩/١
(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٥٠/٣
(٥) سيبويه : الكتاب ، ١١٧/٢
(٦) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٠/٣
(٧) سيبويه : الكتاب ، ٣٩١/٣
(٨) سيبويه : الكتاب ، ١٧٧/٤

كانت تُدرَس من خلالها لهجة مكان ما من خلال أسئلة توجه إليهم . وكانت هذه طريقة متبعة في الماضي واستُعِيض عنها الآن بالتقنيات الحديثة[١] .

- **الملحوظة السادسة** : أَنَّهُ من الفوائد العَمَلِيَّة لهذا العنصر من عناصر المنهج عنده تقوية توجيه نحوي على آخر[٢] .
- **الملحوظة السابعة** : **إنَّهُ** لأهمِيَّة الجانب الإِحْصَائِيّ في دراسة اللُّغَة ـ كما فعل عبقري العربيَّة سيبويه ـ ظهرت في علم اللُّغَة الحديث أفرعٌ مختلفة تدرس هذا الجانب ، منها ما يسمى :
  - علم اللُّغَة الإِحْصَائِيّ Statistical Linguistics .
  - علم الأسلوب الإِحْصَائِيّ Stylostatistics .
  - علم اللُّغَة الكمي Quantitative Linguistics .

والدراسة في علم اللُّغَة الإِحْصَائِيّ تشمل في بعض جوانبها «تحليل تردّد أو توزيع وحدات لغَوِيَّة في تصور ما بهدف التعرف على السمات الحاسمة أو الخاصة لمتحدث أو كاتب ما»[٣] .

***

٣ـ تتَبُّع التركيب اللغويّ المُعَيَّن قيد البحث في السّياقات المختلفة وربطه بدلالة السّياق إنْ وجدت :

عرفنا فيما سبق أنَّ سيبويه يقوم بتجريد التركيب النَّحْوِيّ الذي يدرسه ، وأنَّ فكرة تنميط تراكيب اللُّغَة كانت حاضرة في ذهنه ، وأنَّه يتَتَبَّع هذا التركيب إِحْصَائِيّا لمعرفة درجة تكراره في النصوص اللُّغَوِيَّة . والسؤال الآن : ما الخطوة التالية التي تأتي بعد تنميط التركيب النَّحْوِيّ قيد البحث وتجريده وتتَبُّعه إِحْصَائِيّا ؟ ما الذي يحدث بعد أَنْ يحصل سيبويه على النمط المجرد الممثِّل للتركيب النَّحْوِيّ أو الصَّرْفِيّ ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال وتجليته يجب أَنْ نستصحب الأصل المهمَّ التالي ؛ لأنَّنا سنعتمد عليه كثيرا هنا ، وهذا الأصل هو :

---

(١) ينظر :

David Crystal،A dictionary of linguistics and phonetics, P.143

(٢) وسنذكر في نهاية الفصل إنْ شاء الله جملة الفوائد العَمَلِيَّة التي وقفنا عليها والمتعلقة ببحثنا . وفي فصل التوجيه النحوي أيضا أمثلة على ذلك .

(٣)ينظر تعريف هذا المصطلح والمصطلحين الآخرين :

David Crystal , A Dictionary Of Linguistics And Phonetics, p 450,451

«**أنَّ سيبويه يحترم اللُّغَة ، ولا يمكن أَنْ يفتري عليها قاعدة من عنده ، فهو مقيَّد بما تقوله اللُّغَة ، ويلتزم بما تُمليه عليه من قواعد**» .

وهذا الأصل مستخلَص من نصوص عدة ذكرنا بعضها آنفا ، ونذكر منها أيضا :

أ- «... لا يجوز أَنْ تقول : يضرب شهري ربيع ، وأنت تريد في أحدهما ، كما لا يجوز لك في اليومين وأشباههما . فليس لك في هذه الأشياء إلا أَنْ تجريها على ما أجروها ، **ولا يجوز لك أَنْ تريد بالحرف غير ما أرادوا**» [1] .

ب- «... وذلك قولك : سلامٌ عليك ولَبَّيْك ، وخير بين يديك ، ... فَإِنَّما تجريها كما أجرت العرب ، وتضعها في المواضع التي وضعن فيها ، ولا تُدْخِلَنَّ فيها ما لم يُدخِلوا من الحروف . ألا أترى أنَّك لو قلت : طعاما لك ... ، تريد معنى سَقْيًا ، أو معنى المرفوع الذي فيه معنى الدعاء لم يجز ، لأَنَّهُ لم يستعمل هذا الكلام كما استعمل ما قبله . فهذا يدلُّك ويبصِّرك أَنَّهُ ينبغي لك أَنْ تُجْري هذا الحروف كما أجرت العرب و أَنْ تعنى ما عنوا بها» [2] .

ت- «وهذا مذهب ، إلا أَنَّهُ ليس يقوله أحد من العرب» [3] .

تنبيهه على أنَّ مذهبا ما لا يوافق كلام العرب دليل على اهتمامه بكلام العرب بكل بيئاته المختلفة

بناء على الأصل السابق نجيب على السؤال الذي طرحناه قبلُ فنقول : إنَّ سيبويه بعد تجريده للتركيب النَّحْويّ يتَتَبَّع هذا التركيب في السِّياقات المختلفة التي يأتي فيها ، ويربط هذا التركيب بدلالات هذه السِّياقات . وبالمثال يتضح الكلام .

» المثال الأول : في باب «معنى الواو» أحد أبواب الكتاب يناقش سيبويه بعض الجمل التي تدخلها الواو ومعانيها التي تكون عليها ، فيقول : «وكذلك : ما أنت وعبد الله ، وكيف أنت وعبد الله ، فكأنَّك قلت : ما أنت وما عبد الله ، وأنت تريد أَنْ تحقِّر أمرَه أو ترفع أمرَه» [4] .

في هذا النَّصّ لدينا التركيب الآتي :

«أداة الاستفهام (ما / كيف) + الضمير أنت + حرف العطف الواو + اسم علم»

هذا التركيب يمثِّله في نصّ سيبويه الجملتان المذكورتان «ما أنت وعبد الله ، كيف أنت و عبد الله» . وَرَبَطَ سيبويه هذا التركيب بدلالتين : التحقير مَرَّة ، والرفعة مَرَّة أخرى . ومن خلال معرفتنا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢١٨/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٠/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٩١/٣، وينظر أيضا الموضعين التاليين : ٣٩٠/٢ ، ٤٥٧/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٠١/١

بالأصل السابق ـ وهو أَنَّ سيبويه لن يختلق على اللُّغَة ما ليس فيها ـ نقول : إنَّ هذا الربط الدِّلَالِيّ بين هذا التركيب وهاتين الدلالتين السِّياقيتين : التحقير والرِّفْعة ـ لابد أَنَّهُ نتج عن تتَبُّع لهذا التركيب في السِّياقات المختلفة التي ورد فيها ، وفي كل مَرَّة يجد أنَّ هذا التركيب يرتبط بإحدى هاتين الدلالتين فقرَّر سيبويه في نهاية المطاف أنَّ هذا التركيب يرتبط بهاتين الدلالتين .

» المثال الثاني : يقول سيبويه في نصٍّ ثان :

«واعلم أنَّ «حتى»يُرفَع الفعل بعدها على وجهين : تقول : سرت حتى أدخلُها ، تعني أَنَّهُ كان دخول متصل بالسير كاتصاله به بالفاء إذا قلت : سرت فأدخلُها ، فأدخلها ههنا على قولك : هو يدخل وهو يضرب ، إذا كنت تخبر أَنَّهُ في عمله ، وأَنَّ عمله لم ينقطع فإذا قال حتى أدخلُها ف كأَنَّه يقول : سرت فإذا أنا في حال دخول ، فالدخول متصل بالسير كاتصاله بالفاء ... وأما الوجه الآخر : فإِنَّهُ يكون السير قد كان وما أشبهه ، ويكون الدخول وما أشبهه الآن ، فمن ذلك : لقد سرت حتى أدخلُها ما أمنع ، أي حتى أني الآن أدخلها كيفما شئت . ومثل ذلك قول الرجل : لقد رأى مني عاما أول شيئا حتى لا أستطيع أَنْ أكلمه العام بشيء ، ولقد مرض حتى لا يرجونه»[(١)] .

في النَّصّ السابق يتحدَّث سيبويه عن إعراب الفعل المضارع بعد حتى ، ويذكر في هذا النَّصّ التركيب التالي :

«جملة (سببية)+ حتى (الابتدائية)+ [فعل مضارع مرفوع + فاعل ... (جملة مسبَّبة)]»

الفعل المضارع في هذا التركيب ـ كما ينص سيبويه ويقرر ـ يُرفع في حالتين :

– الأولى : أَنْ يكون المضارع دالا على الحال ، «أي الوقت الذي يقع فيه الكلام ، فزمنه زمن النطق بالكلام»، وهو ما عبَّر عنه بقوله : «دخول متصل بالسير».

– الثانية : أَنْ يكون الفعل المضارع «قد تحقق وانتهى فعلا قبل النطق بالجملة ، وكان المناسب أَنْ يذكر الفعل بصيغة الماضي ، ولَكِنَّه يعاد ذكره بصيغة المضارع بقصد حكاية الحال»، وهو ما يُعَبِّر عنه بقوله : «لقد سرت حتى أدخلُها ما أمنع ، أي حتى أني الآن أدخلها كيفما شئت»

قال ابن السّرَّاج في توضيح دلالة الفعل المضارع في هذا التركيب : «وأما الوجه الثاني من الرفع : فأنْ يكون الفعلُ الذي بعد حتَّى حاضرًا ، ولا يراد به اتصاله بما قبله ، ويجوز أن يكون ما قبله منقطعًا ، ومن ذلك قولك : لقد سرت حتى أدخلها ، ما أمنع حتى إني أدخلُها الآن ، أدخلُها كيفَ شئت ، ومثل قول الرجل : لقد رأى مني عامًا أول شيئًا حتى لا أستطيع أن أكلمه العامَ بشيءٍ . ولقد

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٧ ـ ١٨

مَرِض حتى لا يرجونه ، إنَّما يراد أنَّه الآن لا يرجونه ، وأنَّ هذه حاله وقت كلامه ، فحتى ها هنا كحرفٍ من حروف الابتداء» [١] .

إنَّ سيبويه يربط التركيب السابق بما يحتويه من فعل مضارع مرفوع بهاتين الدلالتين : دلالة الحالِيَّة و دلالة الحكاية عن الماضي . وربط الفعل المضارع المرفوع في التركيب السابق بهاتين الدلالتين ليس بالتأكيد من إبداع سيبويه ؛ لأنَّهُ كما قلنا يلتزم بقواعد اللُّغَة ولا يتأوَّل عليها . ولا بدَّ من أَنْ يكون هذا الربط من خلال تتَبُّع التركيب في السِّياقات المختلفة التي ورد فيها هذا التركيب ، وبعد هذا التتَبُّع خرج سيبويه بهذه النتيجة التي أثبتها في النَّصّ السابق .

» المثال الثالث : في أحد مواضع الكتاب عقد سيبويه بابا سماه : «هذا بابٌ من الفعل يستعمَلُ فى الاسم ثُمَّ يبدل مكان ذلك الاسم اسمٌ آخَرَ فيَعْمَلُ فيه كما عَمِلَ في الأوّل»يقول فيه :

«قولك : رأيتُ قومَك أكثرَهم ، ورأيتُ بني زيد ثُلُثَيْهم ، ورأيتُ بنى عمّك ناسًا منهم ... ، فهذا يجيء على وجهينِ : على أَنَّهُ أراد : رأيتُ أكثرَ قومك ، و رأيت ثُلُثَي قومك ، وصرفتُ وجوهَ أوّلِها ، ولَكِنَّه ثَنَّى الاسمَ توكيدًا ... ، ويكون على الوجه الآخرَ الذى أذكره لك ، وهو أَنْ يَتكلّمَ فيقولَ : رأيتُ قومَك ، ثُمَّ يَبْدوَ له أَنْ يبيَّنَ ما الذى رأى منهم ، فيقولَ : ثُلُثَيْهم أَو ناسًا منهم» [٢] .

في النَّصّ السابق يتحدَّث سيبويه عن البدل في التركيب التالي :

«فعل + فاعل + مفعول به (مبدل منه)+ بدل»

ويُمَثِّل لهذا التركيب : «رأيت قومك أكثرهم» ، «ورأيت بني زيد ثلثيهم» ، «رأيت بني عمك ناسا منهم» ، وفي هذا النَّصّ يربط البدل في التركيب بدلالتين سياقيتين : الأولى : التوكيد ، في قوله : «ولَكِنَّه ثنى توكيدًا» . الثانية : التوضيح والتبيين ، في قوله : «ثُمَّ يبدو له أَنْ يبين» ، يوضح هذا ابن يعيش قائلا : «وأما الثاني : وهو بدل الشيء من الشيء ، وهو بعضه ، كقولك : رأيت زيدا وجهه ، ورأيت قومك أكثرهم ، وثلثيهم ، وناسا منهم ، وصرفت وجوهها أولها . فالثاني من هذه الأشياء بعض الأول ، وأبدلته منه ليعلم ما قصدت له ، وليتنبَّه السامع» [٣] .

وهذا الربط السِّياقي بين هذا التركيب وهاتين الدلالتين السِّياقيتين ليس بالتأكيد من بنات أفكار صاحب الكتاب ؛ لأنَّهُ لا يختلق على اللُّغَة ما ليس فيها ، وليس بالتأكيد وليد اللحظة التي كتب فيها

---

(١) الأصول في النحو ، ١٥٢/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٥٠/١ ـ ١٥١

(٣) شرح المفصل : ٢٥٩/٢

هذا الكلام ؛ إذن فلا بدَّ أَنْ يكون هذا الربط السِّياقي ناتج عن تتبُّع دلالي في السِّياقات المختلفة ؛ أي أَنَّ محصلة هذا التتبُّع تمخض عن ربط البدل في هذا التركيب بهاتين الدلالتين .

» المثال الرابع : في باب« هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل » يقول فيه سيبويه : « وتقول : مُرْهُ يَحفِرْها ، وقُلْ له يَقُلْ ذاك ، وقال الله ـ عز وجل ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ ﴾ [إبراهيم : ٣١] ، ولو قلت : مُرْهُ يَحفرُها على الابتداء كان جَيِّدًا » (١) .

ويقول السيرافي معلقا على توجيه الرفع عند سيبويه : « وإذا قلت مُرْهُ يحفرها ونحو ذلك جاز في « يحفرُها » الرفع من وجهين ـ فيما ذكره سيبويه ـ أحدهما الابتداء والاستئناف ، فكأَنَّه قال : مُرْهُ فإِنَّهُ يحفرُها ولا يخالف ... » (٢) . في هذا النَّصّ لدينا التركيبان التاليان :

أ- « جملة فعلِيَّة طلبية + فعل مضارع مجزوم + فاعل + مفعول » .

ب- « جملة فعلِيَّة + مبتدأ محذوف أو اسم إنَّ محذوف + خبر جملة فعلِيَّة » .

يمثل التركيب الأول : مُرْهُ يحفرْها ، ويُمَثِّل التركيب الثاني : مُرْهُ يحفرُها . تتبع سيبويه التركيب الأول فوجده هو الأكثر تَرَدُّدًا في السِّياقات المختلفة فذكره ، ووجد أيضا أَنَّ للتركيب الأول بديلا آخر له نسبة من التردد والتكرار ، ووصف هذا التركيب بأَنَّه « جَيِّد » . وصفة جَيِّد هذه لا يطلقها إلا على التراكيب التي لها نسبة من الشيوع .

والتركيب الأول ـ حالة الجزم ـ يدل على الطلبِيَّة ، كأَنَّ المتكلم أمر فكان الحفرُ .

والتركيب الثاني يدل على عدة معان ، منها : الابتداء .

يقول المبرِّد في توضيح تلك الدلالات : « وتقول مُرْهُ يحفرُها ومره يحفرْها . فالرفع على ثلاثة أوجه والجزم على وجه واحد وهو أجود من الرفع ؛ لأنَّه على الجواب كأنَّه إنْ أمرته حفرها ، وأما الرفع فأحد وجوهه : أن يكون يحفرها على قولك : فإنَّه ممّن يحفرُها ، كما كان لا تَدْنُ من الأسد يأكلُك ويكون على الحال ، كأنَّه قال : مره في حال حفره . فلو كان اسما لكان مُره حافرا لها . ويكون على شيء هو قليلٌ في الكلام ، وذلك أن تريد : مره أنْ يحفُرَها فتحذف أنْ وترفع الفعل ، لأنَّ عامله لا يضمر » (٣) .

إن سيبويه ومن تبعه من النحاة ربطوا ـ بعد التتبع السياقي ـ التركيب الأول بالطلبية ، والتركيب الثاني بالابتداء ، وأضاف المبرِّد دلالة الحالية .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٩/٣

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٣٠٤/٣[طبعة دار الكتب العلمية]

(٣) المقتضب : ت : محمد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٤م،٨٢/٢

ونلاحظ هنا : أنَّ سيبويه تتبَّع التركيبَ الأوَّل في سياقات مختلفة فذكره ووجد لهذا التركيب بديلا أقل تكرارا ، فذكره ووصفه بالجَيِّد ، وربطه بمعنى الاستئناف والابتداء ، وهذا التركيب البديل ما كان ليكتشف وجوده إلا من خلال الوقوف على التركيب الأول ؛ أي أَنَّ التركيب الأول هو الذي أوقفنا على وجود التركيب الثاني ، أي أَنَّنا يمكن أَنْ نقول إِنَّ تتَبُّع سيبويه للتركيب في السِّياقات المختلفة يُوقفه على التركيب الأساسي الأكثر تَرَدُّدًا ويوقفه أيضا على التراكيب الأَقَلّ تَرَدُّدًا .

ولا شك أَنَّ التركيب الثاني ستكون سياقاته التي يرد فيها مرتبطا بتوكيد المعنى ، إذ إِنَّ الجملة الاسمِيَّة تستصحب معها ثبات المعني وتأكيده . وهنا نؤكد أَنَّهُ إذا كان سيبويه يهتم اهتماما بالغا بملاحظة المسموع «بصريًّا »من خلال ما أسماه بالإشمام ، و «صوتيًّا »من خلال ما أسماه بالإدغام والقلقلة[١] فمن باب أولى ملاحظة الدلالات السِّياقِيَّة التي ترتبط بتركيب مُعَيَّن .

تلك كانت بعض الأمثلة التي توضح تتَبُّع سيبويه للتركيب في السِّياقات المختلفة ، وتحت أيدينا كثير من النصوص التي تدعم هذا العنصر من عناصر المنهج عند سيبويه يضيق المقام عن ذكرها جميعا ، لكن فيما تقدم ما هو كفيل بتوضيح الفكرة[٢] .

وهنا نَوَدّ أَنْ نوجِّه النظر إلى عدة أمور مُهِمَّة من وجهة نظرنا :

- الأمر الأول : أنَّ سيبويه عندما رَبَطَ تركيبا مُعَيَّنا بدلالة سِيَاقِيَّة مُعَيَّنة كان هذا يعني أَنَّ هذا الربط ملازم لهذا التركيب ، بمعنى أَنَّ التركيب المُعَيَّن الذي ربطه سيبويه بدلالة مُعَيَّنَة إِنْ ظهر أمام متكلم اللُّغَة الخبير فيها والماهر بها (في آية قرآنية أو حديث نبوي أو نثر أدبي أو قصيدة شعر أو مقال صحفي) فَإِنَّ هذا التركيب سيستدعي في ذهنه الدلالات المرتبطة بهذا التركيب . وتبقى هذه الدلالات خيارات تفسيرية قائمة في حالة عدم وجود قرينة تُحَدِّد دلالة مُعَيَّنَة .

وتوظيف هذه الدلالات مجتمعة في تفسير النَّصّ في غياب قرينة محددة يثري النَّصّ دِلالِيًّا ، وتكثر المعاني المستنبطة منه .

وهنا نناقش سؤالا قد يُثَار في هذا المقام مُؤَدّاه : هل تعَدُّد الدِّلاَلَة دائما مما يثري النَّصّ ، أم أَنّهُ أحيانا يضر ويؤدي إلى اللَّبس ؟

(١) ومن كلام سيبويه عن القلقلة التي تدل على ملاحظة واعية جدا قوله : «واعلم أن من الحروف حروفًا مُشْربة ضُغِطَتْ من مواضعها فإذا وقفت خرج معها من الفم صويتٌ ونبا اللسان عن موضعه ، وهي حروف القلقلة » . الكتاب ، ١٧٤/٤ ، وهذا الانتباه الصوتي لأدق التفاصيل الصَّوْتِيَّة يجعلنا مطمئنين إلى أن سيبويه كان منتبها لكل كبيرة وصغيرة في مسرح الحدث اللغويّ ، ومنتبها لما يمكن أن يساهم به السِّياق في التأثير على الجملة .

(٢) من المواضع المُهِمَّة التي تُزيد من هذا العنصر وضوحا : ٢٥٨/١ ، ٤٠٢/١ ـ ٤٠٣ ، ١٢٠/١ ، ٩٥/١ ،

ونقول مجيبين : إنَّ النصوص التي يَهُمُّنا إثراؤُها دِلالِيًّا هي النصوص القُرْآنِيَّة ، والأحاديث النبَوِيَّة ، والنصوص الأدبيَّة ـ خاصة الشعر ـ ، فتلك هي النصوص التي يهمُّنا في المقام الأول والأخير إثراؤها دِلالِيًّا ، والبحث عن دلالات متنوعة في هذه النصوص مطلوب ، وقدرة النَّصّ على «العطاء الدِّلَالِيّ» دليل على سمو هذا النَّصّ وعلو مكانته . وإذا قصرنا حديثنا على الآيات القُرْآنِيَّة والأحاديث النبَوِيَّة فإنَّنَا يمكن أَنْ نقول إنَّ هذه النصوص ما زالت في حاجة ماسَّة إلى «مَنْ يُثْرِيها دِلالِيًّا» ويستخرج من كنوزها الدلالات الشَّرْعِيَّة التي تفيدنا في زمننا وعصرنا .

ولحكمة ما جعل اللهُ في قرآنَه «مجموعة من الآيات المتشابهة» التي استفزَّت ـ وما زالت ـ الملكاتِ العقلِيَّة لدى العلماء وتقتدحُها لكي يَخْبُرُوها ويُقَلِّبُوا فيها الطرف ويعيدوا النظر فيها مرارا وتكرارا . ومن روائع ما قيل في هذا الشأن قول الزَّمَخْشَرِيّ **المعتزلي** في تفسير الكشاف :

«فإنْ قلت : فهلّا كان القرآن كله مُحْكَمًا ؟ **قلت : لو كان كلُّه محكما لتعلَّق الناس به لسهولة مأخذه ؛ ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأَمُّل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لَعَطَّلُوا الطريق الذي لا يُتَوصَّل إلى معرفة اللَّه وتوحيده إلا به** ، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، **ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجَمَّة ، ونيل الدرجات عند اللَّه** ، ولأنّ المؤمن المعتقد أَنَّ لا مناقضة في كلام اللَّه ولا اختلاف فيه ، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفِّق بينه ، ويجريه على سنن واحد ، ففكَّر ، وراجع نفسه وغيره ؛ ففتح اللَّه عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوّة في إيقانه» [(١)] .

إن الإمام الزَّمَخْشَرِيّ يوجب النظر في متشابه القرآن ليس فقط لكي يستنبط منه الناس ما يحتاجون إليه في أمور دنياهم بل إنَّهُ يعتبر هذا «النظر» طريقا من الطرق الموصِّلة لله . **فإذا كان «الخوف من اللَّبس» الذي سيترتب على تعَدُّد الدِّلَالَة المستنبطة من الآيات المتشابهة أمرا معتبرا وخطيرا ـ ما جعل الله في قرآنه ما يؤدي إلى ذلك ، ولكان ذلك عبثا حاشا لله أَنْ يفعله** ؛ لذلك نقول : إنَّ الإثراء الدِّلَالِيّ للآيات القُرْآنِيَّة والأحاديث النبَوِيَّة والنصوص الأدبيَّة أمر لا خوف منه ، وأنَّ منعه بحجة أو مظنّة الوقوع في اللَّبس أمر لا محل له ، بل إنَّ هذا الإثراء واجب شرعي . ونزداد اطمئنانا إذا علمنا أن القرينة هي الحارس الأمين على هذا الإثراء .

---

(١) ٢٩٨/١

ومما وقع للباحث أثناء البحث ـ وله علاقة بكلامنا هنا ـ عبارةٌ مُهِمَّة للسيرافي ، كان يتحدَّث فيها عن الكلام «المعمول المحكم»في معرض حديثه عن «بدل الغلط»حيث يقول : «وبدل الغلط لا يجوز أَنْ يقع في شعر ولا قرآن ، ولا كلام معمول محكم ، إنَّمَا يجيء في الكلام الذي يبتدؤه الإنسان على جهة سبق اللسان إلى الشيء الذي يريده فيلغيه ؛ حتى كَأَنَّه لم يذكره بلفظ مما يريده» [١] . إذن فالشعر والقرآن والسنة الصحيحة هي **كلام معمول محكم** مطلوب إثراؤه دِلاليًّا .

أما النصوص غير الأدبيَّة كالنصوص العلميَّة والمقالات الصحفيّة فَإِنَّ وجود لبس فيها بوجه عام يتنافى مع طبيعتها ، وإذا وجد لبس في بعضها فهو عارض نادر يعاب عليه صاحبه .

وفي ضوء التعدد الدِّلَالِيّ للتراكيب النحوِيَّة عند سيبويه قد نقدم تفسيرا آخر لعبارة الجَرْميِّ الشهيرة التي قال فيها : «أنا مُذْ ثلاثون أُفتِي الناس في الفقه من كتاب سيبويه» [٢] . أي أَنَّ الجَرْميَّ استغل الدلالات المختلفة التي ربطها سيبويه بالتراكيب اللُّغَوِيَّة في إثراء المعاني المستنبطة من الأحاديث النبَوِيَّة . وكثرة الدلالات يدل على كثرة الجوانب الفقهية التي يمكن أَنْ تُغَطَّى بهذه الدِّلَالَة . وكمثال على هذا فالتركيب الذي ذكر في المثال الثاني : «سرتُ حتى أدخلها»

«جملة (سببية)+ حتى (الابتدائية)+ [فعل مضارع مرفوع + فاعل ... (جملة مسببة)]»

يربط الفعل المضارع بدلالتين : دلالة الحال ودلالة الحكاية عن الزمن الماضي ، وبمجرد ذكر التركيب تذكر الدلالتان .

- الأمر الثاني : العلامة الإعرابِيّة تلعب دورا مهمًّا في تحديد الدِّلَالَة ليس فقط الدِّلَالَة النحوِيَّة من فاعليَّة ومفعوليَّة بل تلعب أيضا دورا في تحديد الدِّلَالَة السِّياقِيَّة ، فعندما أقول : سرتُ حتي أدخلَ البلد ، بنصب الفعل فَإِنَّ الكلام هنا يدل على المستقبل ، فالفتحة هنا لها دلالة سِيَاقِيَّة زمَنِيَّة إذ تدل على المستقبل . وعندما أقول : سرت حتى أدخلُها ، فالضمة هنا تستدعي دلالتين : الحالِيَّة أو دلالة الحكاية على الزمن الماضي ؛ لذلك قال بعض المحقِّقين : إنَّ السبب الحامل على

---

(١) د. السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢/ ١١

(٢) سيبويه : الكتاب ، المقدمة ١/٥ـ ٦

الإعراب «**هو الدِّلالَة به على المعاني المختلفة**»[(١)] . وأنَّ ما قاله بعض أساتذتنا[(٢)] بتجريد العلامة الإعرابِيّة من دلالتها «السِّياقِيَّة»أمر يحتاج إلى نظر[(٣)]

- الأمر الثالث : من خلال تنميط التراكيب وتتَبُّعها في سياقاتها المختلفة في ظل الإحصاء النسبي الذي كان يقوم به سيبويه نتج عن هذا ما يمكن أَنْ نسميه بـ «التركيب الأصل» و«التركيب البديل».

والتركيب «الأصل» هو التركيب الذي نال أعلى نسبة تردُّد وشيوع في النصوص التي درسها سيبويه ، وهذا التركيب يطلق عليه سيبويه : «الأصل» و «حد الكلام» و«الوجه» و«والأحسن عند العرب»ومثال ذلك : «... وإِنَّمَا اختير النصب ؛ لأَنَّهُ الوجه ههنا وحد الكلام»[(٤)] .

أما التركيب البديل فهو التركيب الأصلي مع وجود تعديل فيه ، فالتركيب الأصل في الجملة الفعلِيَّة التي بها مفعول واحد هو : فعل + فاعل + مفعول به ، والتركيب البديل له قليل التردد : فعل + مفعول به + فاعل ، والبديل الأَقَلّ تَرَدُّدًا : مفعول + فعل + فاعل . أي أَنَّ التراكيب البديلة هي متغيِّرات وتنويعات للتركيب الأصلي .

وبدائل التركيب الأصلي التي يرصدها سيبويه نوعان :

- بدائل في ترتيب أجزاء التركيب مع ثبات الإعراب .
- بدائل في إعراب بعض أجزاء التركيب مع ثبات التركيب ، مثل : مُرْهُ يحفرها ، سِرْتُ حتى أدخلها .

ونقرأ في كتاب سيبويه «أوصافا»يطلقها على هذه التراكيب اللُّغَوِيَّة . فالتركيب الأصلي هو : الأصل ، والوجه ، وحَدُّ الكلام ، والأكثر ، والمستقيم الحسن ، والأحسن كما قلنا . وبديله الذي يقِلُّ

---

(١) العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد : عدة السالك على أوضح المسالك ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة)، ٨٧/١

(٢) هو أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه «من أسرار العَرَبِيَّة»ص ١٩٨ وما بعدها ، والأستاذ إبراهيم مصطفى في «إحياء النحو».

(٣) وهنا يمكن أن نستغل هذه النقطة في الرد على أعداء العَرَبِيَّة الذين طالبوا في القديم ويطالبون في الحديث بتسكين أواخر الكلمات وإلغاء الإعراب ، ونقول لهم : إنَّ الإعراب في العَرَبِيَّة من الأهمِيَّة بمكان ، ويرتبط بمعنى نحوي وآخر سِياقِيّ كما أثبتنا . وللأهمِيَّة ينظر مرجع مهم وخطير في هذا الشأن : د. نفوسة زكريا سعيد : تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٠م ، ص ١٢١ وما بعدها ، وينظر مدح العلّامة الشيخ شاكر لهذا الكتاب في كتابه أباطيل وأسمار ص ١١٩

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣١/٣ ، وباب الاستثناء باب يمثل ما نؤكد عليه من تتبع التركيب وبدائله المتعددة ، ينظر ٣٣٦/٢ ـ ٣٣٧

قليلا عن الأصل : جَيِّد ، وحسن ، وكثير ، وقوي ، وعربي جَيِّد ، والأَقَلّ ضعيف وقليل نادر ، والأشدُّقِلَّةً : قبيح ، ردئ ، خبيث[1] . مثال ذلك : «... وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيدًا رأيت ، وكي زيد يأتيك»[2] .

فالتركيب الأصل الذي ليس بقبيح والذي كل لفظ في موضعه (من خلال جملة سيبويه في النَّصّ السابق) : «قد + فعل مضارع متعدٍ + فاعل + مفعول به». والتركيب القبيح الذي تغيرت مواضع أجزائه : «قد + مفعول به + فعل مضارع متعدي + فاعل».

وقد أتاحت معرفةُ سيبويه للتركيب الأصلي عدة أمور :

- أتاحت له أَنْ يقف على ما يحدث في التركيب من حذف ، يقول : «اعلم أَنَّهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ، ويحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أَنْ يستعمل حتى يصير ساقطا»[3] .
- كما أتاحت له تفسير البدائل الأخرى ، بمعنى أَنَّ المُتَكَلِّم إذا أعرض عن التركيب الأصلي إلى البديل الأَقَلّ تَرَدُّدًا ؛ فلابد أَنْ يكون لذلك سبب ، وقد يكون هذا السبب تأثير سياق الحال ، فلولا وجود التركيب الأصلي ما انتبهنا إلى سبب اللجوء إلى التركيب البديل .

فالتركيب البديل : «فعل متعدٍ + مفعول به + فاعل» يدل على تركيز الاهتمام على المفعول به كما أشار سيبويه نفسه في أكثر من موضع[4] .

- وأتاحت له أَنْ يعرف الخصائص النحوِيَّة لبعض الألفاظ على حدى ، التي قد يستعان بها في التوجيه النَّحْوِيّ للتركيب الذي تدخل فيه هذا الألفاظ .

فمثلا يذكر سيبويه أَنَّ «من الحروف حروفا لا يذكر بعدها إلا الفعل ، ولا يكون الذي يليها غيره ، مظهرا أو مضمرا». وذكر من الحروف التي لا يليها إلا الفعل مظهرا «قد ، سوف ، ولما» ويترتب على ذلك نحويا أَنَّهُ إذا «اضطر شاعر فقدم الاسم وقد أوقع الفعل على شيء من سببه لم

(١) ينظر في وصف سيبويه لبعض التراكيب بالخبث : ٣٨٩/١ ، ١١٤/٢ ، ١٢٤/٢، ٣١٨/٢ ، ٣٧٩/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٦/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٤/١ ـ ٢٥

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٤٣/٢

يكن حد الإعراب إلا النصب ، وذلك نحو : لم زيدًا أضربه » [١] . كما يترتب نحويا أَنَّهُ لا يحسن أَنْ نقول : سوف زيدًا أضرب ، أو قد زيدًا لقيت ؛ « لأَنَّها إِنَّمَا وضعت للأفعال » [٢] .

- وأتاحت له معرفة المواضع التي تأتي فيها «كلمة» وتكون دخيلة على هذا الموضع أو ذاك ، يقول « ومن كلامهم أَنْ يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام » [٣] .
- وأتاحت له معرفة ما استكرهه النُّحَاة قبلُ ، ووضعوه في غير موضعه ، يقول في عنوان أحد أبوابه : « هذا باب منه استكرهه النَّحْوِيّون ، وهو قبيح ؛ فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب » [٤] ، ويقول في هذا الباب : «وذلك قولك : وَيْحٌ له وتَبٌّ ، وتبًّا لك ووَيْحًا . فجعلوا التَّبَّ بمنزلة الوَيْحِ ، وجعلوا ويحٌ بمنزلة التَّبِّ ، فوضعوا كلَّ واحد منهما على غير الموضع الذي وَضَعَتْه العربُ ».

وعنوان هذا الباب يؤَيِّد ما ذهبنا إليه من **تنميط سيبويه للتراكيب اللُّغَوِيَّة ، وتتَبُّعها إِحْصَائِيًا ، وإلا ما تسنى له معرفة أَنَّ ما وضعه النُّحَاة في تركيب ما مستكره وليس في موضعه . كما يدلّ عنده على نزعة المقارنة بين ما يقوله النُّحَاة وما تقوله العرب .**

- الأمر الرابع : إِنَّ لجوء سيبويه إلى التراكيب النَّمَطِيَّة المجردة ودراستها جعلت جُلَّ اهتمامه مقصورا على عنصرين فقط من عناصر الحال : المُتَكَلِّم والمخاطب ، وهي الحقيقة التي ذكرناها في الفصل الأول .

وهذا يبدو منطقيا مع ما يقوم به من عَمَلِيَّة التجريد التركيبي لِلُّغَة ، فهذان هما العنصران من عناصر سياق الحال اللذان يكون تأثيرهما حاضرا في كل السِّياقات تقريبا ، وبالتالي فَإِنَّ تأثيرهما سيكون واضحا على اللُّغَة والكلام معا وليس على الكلام فقط . فهما العنصران من عناصر سياق الحال اللذان يستطيعان النفاذ إلى صلب اللُّغَة .

ويتعلق بالعنصر الثالث من عناصر المنهج بعض الأمور التي ترتبط به ، وهي :

- **التتَبُّع التاريخي للتركيب :**

من الأمور المثيرة للانتباه عند سيبويه ما يقوم به أحيانا من «تتَبُّع تاريخي للتركيب النَّحْوِيّ أو البنية الصَّرْفِيَّة». وقد سبق أَنْ أشرنا لهذا الأمر إشارة عَجْلَى عند توضيحنا لمصطلح الأصل ، ونُزيد

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٨/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٩٨/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٥١/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٤/١

الأمر وضوحا هنا فنقول إِنَّهُ مما يثير الانتباه ويدعو إلى الإعجاب بصاحب الكتاب ، أَنَّه وصل الوعي اللغويّ به ليس فقط في أَنْ يُنَمِّط التراكيب ويتَتَبَّعها إِحْصَائِيّا ويربط بينها وبين دلالة سِيَاقِيَّة مُعَيَّنة ـ بل وصل الأمر إلى تتَبُّعها تاريخيا ، ودليل ذلك :

- في باب له بعنوان : «هذا باب ما جاء معدولا عن حَدِّه من المؤنث» يناقش فيه الأسماء التي على وزن «فَعَالِ» إذا سُمِّيَت به امرأة ، ويوضح أَنَّ بني تميم ترفعه وتنصبه ، وتجريه مجرى اسم لا ينصرف . أَمَّا الحجازيُّون فلم يغيِّروا فيه وأبقوه على بنائه ، ويُستثْنَى من ذلك ما كان آخره راء فَإِنَّ التميميِّين يتفقون مع الحجازيِّين في التعامل مع هذا البناء إذا سُمِّيَت به امرأة . يقول سيبويه : « فأما ما كان آخره راء فَإِنَّ أهل الحجاز وبني تميم متّفِقون ، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يَرى **و<u>الحجازِيَّة هي اللُّغَة الأُولى القُدْمى</u>**» [(١)] .
- يعقد بابا كاملا يجعل عنوانه : « هذا باب ما أجري مُجري ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثُمَّ يصير إلى أصله » [(٢)] .
- ويقول : «<u>وحذفوا الفعلَ من إيَّاك لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ؛ فصار بدلا من الفعل</u> ، <u>وحذفوا</u> **<u>كحذفهم حينئذ الآن</u> ؛ <u>فكَأَنَّه قال : احذرِ الأسد</u>**» [(٣)] .

ولا يقتصر التتَبُّع التاريخي للتركيب النَّحْوِيّ بل يمتد للأبنية الصَّرْفِيَّة ، يقول :

- « ألا ترى أَنَّ «تَفْعَلُ ويَفْعَلُ» في الأسماء قليل ، <u>وكان هذا البناء إِنَّمَا هو في الأصل للفعل</u>» [(٤)] .
- «وأَفْعَلٌ لا يعرف في الكلام فعلا مستعملا» [(٥)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٨/٣ وينقل المحقق أ / عبد السلام هارون في الحاشية ذات الرَّقْم٢ عن السيرافي قوله : « يعني أن بني تميم تركوا لغتهم في قولهم: هذه حضار وسفار ، وتبعوا لغة أهل الحجاز بسبب الراء»

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٥٧/١ ومعنى الكلام هنا أن أهل الحجاز أعملوا ما النافية تشبيهًا لها بـ«ليس».أي لكونها مثلها لنفي الحال عند الإطلاق،وترك بنو تميم إعمالها، وأجروها مجرى هل ، ونحوها مما لا يعمل

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٤/١ ، وقال المحقق أ/ هارون في الحاشية ذات الرَّقْم٣ في تفسير قول سيبويه : « فكَأَنَّه قال : احذرِ الأسد»: «أي في قولهم : إياك والأسد».

وفي الحقيقة استغل سيبويه هذا التتبع التاريخي لمناقشة الحذف في الجملة في أكثر من ثلاثمائة موضع . ينظر أيضا ١٣٠/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٩٧/٣ ، وينظر مثال مهم جدًا في التتبع التاريخي للبنية الصرفِيَّة ٥٨٩/٣ وما بعدها وينظر أيضا : ٤٢٠/١ ، ٢١٢/١ ، ١٨٥/٢ ، ٢٢٣/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٤/٣

والفائدة العَمَلِيَّة التي تعود على سيبويه من هذا التتَبُّع التاريخي تحديدا أَنَّهُ من خلال هذا يتمكَّن من :

- تقديم توجيه إعرابيّ ما على آخر .
- تفسير سبب خروج بنية صرفِيَّة أو تركيب نحوي ما على الأصل .
- أو بالحكم على بعض التراكيب بالاستحسان أو القبح .

مثال ذلك :

» «حروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل ، إلا أَنَّهم قد توسعوا فيها فابتدءوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك» [(١)] .

» وعند حديثه عن الأفعال التي تتعدى بحرف جر يذكر مجموعة منها لا تتعدى به ، ويقول : «فهذه الحروف[(٢)] كان أصلها في الاستعمال أَنْ توصل بحرف الجر» [(٣)] .

» «...وقلت : ما بال أُخَر لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ؟ فقال (أي : الخليل) : لأَنَّ أُخَر خالفت أخواتها وأصلها» [(٤)] .

وفي الحقيقة إِنَّ هذا التتَبُّع التاريخي للتراكيب اللُّغَوِيَّة في النصوص الحَيَّة المنطوقة والمنشدة عند سيبويه يكاد يقترب إلى حد بعيد من «النظرة الوصفيَّة Synchronic والنظرة التاريخِيَّة Diachronic» لِلُّغَة ، هاتان النظرتان اللتان أتى بهما علم اللُّغَة الحديث . النظرة الوصفيَّة التي تدرس «حالة اللُّغَة عند نقطة نظَرِيَّة مُعَيَّنة وفي وقت مُحَدَّد» [(٥)] ، وهي تناظر عند سيبويه « تتَبُّع التركيب في النصوص الحَيَّة المنطوقة» المستعملة عند العرب . والنظرة التاريخِيَّة التي تدرس اللُّغَة من «وجهة نظر تطورها التاريخي» [(٦)] ، التي تناظر عنده التتَبُّع التاريخي لِلُّغَة . ومن خلال تنميط اللُّغَة إلى تراكيب وتتَبُّعها تاريخيًّا خرج سيبويه ببعض القواعد الأصوليَّة النحوِيَّة العامة ، مثل :

» **الشيء إذا كثر في كلامهم كان له نحوٌ ليس لغيره مما هو مثله**[(٧)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٩/١

(٢) يقول الأستاذ هارون في الحاشية ذات الرَّقْم١ عن كلمة «الحروف»: «يعني الكلمات ، وهي الأفعال هنا».

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٩/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/٣

(٥) David Crystal, A dictionary of linguistics and phonetics, P.469

(٦) Ibid, P.142

(٧) سيبويه : الكتاب ، ١٩٦/٢

» **كلُّ شيء كان للنكرة صفة فهو للمعرفة خبر[١] .**

» **لا ينبغي لك أَنْ تكسر الباب وهو مطرد وأنت تجد له نظائر . وقد يوجَّه الشيء على الشيء البعيد إذا لم يوجَد غيره[٢] .**

» **الصفات أقرب إلى الأفعال[٣] .**

» **العرب قد تحذف الأكثر في كلامها[٤] .**

▪ **الارتكان إلى الاستعمال اللغويّ :**

ومما يتصل أيضا بعَمَلِيَّة تتَبُّع التركيب بشكل من الأشكال ما أكثر سيبويه من الاعتماد عليه والارتكان إليه ، ألا وهو «الاستعمال اللغويّ» . فكثيرا ما تتردد في كلامه تعبيرات تدل على اعتماده على هذا الاستعمال ، فنقرأ مثلا :

- «وحذفوا الفعل من إياك لكثرة استعمالهم إياه في الكلام»[٥] .
- «...فهذه الحروف كان أصلها في الاستعمال أَنْ توصل بحرف الإضافة»[٦] .

والفوائد العَمَلِيَّة التي عادت على سيبويه من وعيه بكثرة استعمال تركيب ما أو قلته ما يلي :

أ- خروجه بما يمكن أَنْ نسميه بـ «سنن العربيَّة» ، أو «الخصائص العامة الشاملة»للعربية ، وهذا من قبيل قوله : «وهم يغيرون الأكثر في كلامهم عن حال نظائره»[٧] ، ومثل : «وقد يُشَبَّهُ الشيء بالشيء وإن كان ليس مثله في جميع الأشياء»[٨] .

ب- منحه هذا الاستعمال قدرة على تمييز التراكيب الصحيحة من الفاسدة ، والضعيفة من القوية ، مثل قوله : «...وهذا بعيد لا تَكَلَّم به العرب ، ولا يستعمله منهم ناس كثير»[٩] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٨/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٦/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٩٣/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٥٠٥/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٤/١

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٣٩/١ ويمكن الاستشهاد على وجود هذه الفكرة عنده بأكثر من مائة موضعا .

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٤١٤/٢

(٨) سيبويه : الكتاب ، ٤١٣/٣

(٩) سيبويه : الكتاب ، ٤١١/٢

ت- ومن خلال الاستعمال يقف على التشابه الاستعمالي بين الألفاظ ؛ فيربط بينها ، يقول : «وإِنَّمَا شبَّهوا «كِلَا»في الإضافة بـ «عَلَى»لكثرتها في كلامهم» [(١)] .

ث- تقديم غطاء تفسيري لكثير من الجمل التي يناقشها ، مثل : « أَمَّا قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يُونُس : ١٠] ... ولا تكون أنِ التي تنصب الفعل ؛ لأَنَّ تلك لا يُبتدأ بعدها الأسماءُ . ولا تكون «أيْ» ؛ لأَنَّ «أيْ»إنَّمَا تجيء بعد كلام مستغنٍ ولا تكون في موضع المبنيِّ على المبتدإ» [(٢)] .

في هذا المثل يناقش نوع الحرف «أن»في الآية القُرْآنِيَّة معتمدا على الخصائص الاستعمالية لأنواعها المختلفة . فيستبعد أن تكون «أن»الأداة التي تنصب الفعل ؛ لأَنَّ تلك الأداة من جهة الاستعمال «لا يُبتدأ بعدها الأسماءُ»، ويستبعد أيضا أن تكون بمعنى «أيْ »؛ لأَنَّ تلك الأداة من جهة الاستعمال «لا تكون في موضع المبنيِّ على المبتدإ».

ج- تقوية توجيه نحويّ وإضعاف آخر ، مثل : «واعلم أنَّ النصب بالفاء والواو في قوله : إنَّ تأتني آتِك وأُعْطِيَك ـ ضعيف ، ... فهذا يجوز وليس بحدِّ الكلام ولا وجهِه» [(٣)] .

ح- الوقوف على الخصائص النحوِيَّة لكلمات اللُّغَة ، مثل : « ... كما خلصت حروف الاستفهام للأفعال ، نحو : هلا وألا» [(٤)] .

خ- أمن اللَّبس : فقد استغل سيبويه الاستعمال اللغويّ ـ من حيث أَنَّهُ يمنع اللَّبس في المعنى ـ في بعض الأحيان ، فعند حديثه مثلا عن بناء «فَاعِل»يذكر أَنَّهُ إذا كان اسما فإِنَّهُ يُكَسَّرُ على بناء«فَوَاعِل» ، وأما إنْ كان صفة وأجري مجرى الأسماء فيبنى على «فُعْلان»وعلى «فِعال». ولا يُكَسَّرُ على «فَواعِل» ؛ «لأَنَّ أصله صفة وله مؤنث ، فيفصلون بينهما ؛ إلا في فوارس فإِنَّهُم قالوا : فوارس كما قالوا : حواجر ؛ لأَنَّ هذا اللفظ لا يقع في كلامهم إِلَّا للرجال ، وليس في أصل كلامهم أَنْ يكون إلا لهم . فلما لم يخافوا الالتباس قالوا فواعلُ ، كما قالوا فُعْلانٌ وكما قالوا : حوارثُ ؛ حيث كان اسمًا خاصًا كزيدٍ » [(٥)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١٣/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٦٣/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٩٢/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٦٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦١٥/٣

إن اهتمام سيبويه بالاستعمال اللغويّ والاعتماد عليه والاستفادة منه لَهو دليل على ما أكدَّناه من تنميط القاعدة النحوِيَّة وتتَبُّعها في السِّياقات المختلفة ، كما أَنَّهُ يؤكِّدُ الاتجاه الإِحْصَائِيّ الذي كان يتبناه .

وقد يُطرَح علينا سؤال ونحن في معرض حديثنا عن علاقة تنميط القاعدة عند سيبويه بالسياق يقول : ألا يتعارض ميل سيبويه لتنميط القاعدة النحوية والرجوع لسياق الحال ؟

ونقول مجيبين إنَّه لا تعارض بين تنميط القاعدة عند سيبويه والرجوع لسياق الحال ؛ لأنَّ سيبويه عندما ينمِّطُ القاعدة ينمِّط معها سياق الحال إنْ أمكن ، فهو يُلازم بين القاعدة المنمَّطة وسياق الحال الملازم لها ، وعندما يذكر نمط القاعدة يذكر معها الدلالات السياقية المرتبطة بها ، فمثلا :

- التركيب «أداة الاستفهام (ما / كيف)+ الضمير أنت + حرف العطف الواو + اسم علم ». يمثل نمطا تركيبيًّا مرتبط بدلالة التحقير أو الرِّفْعة .
- ودلالة الفعل المضارع في التركيب «جملة (سببية)+ حتى (الابتدائية)+ [فعل مضارع مرفوع + فاعل ... (جملة مسببة)] »تلازم المستقبلية أو الحالية حسبما يدل عليه السياق .

***

٤- معايشة التراكيب اللُّغَوِيَّة في نصوصها المنطوقة :

العنصر الرابع من عناصر المنهج : معايشة التراكيب اللغوية في نصوصها المنطوقة . ونقول : لم يكن لسيبويه أَنْ يصل إلى ما وصل إليه من قواعد و أَنْ يقف على أدقّ التفاصيل اللُّغَوِيَّة والدِّلاليَّة إلا بمعايشة نصوص اللُّغَة والامتزاج بها امتزاج اللحم بالعظم .

وتشهد بهذا عشرات النصوص في الكتاب منها مثلا قوله عن الشعراء : «وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها » [(١)] . فهذا النَّصّ ورد في « الضرورات الشعرِيَّة وما يجوز في لغة الشعر ». ومقولته هذه تشي بأَنَّه كان يقف متأمِّلا أمام الضرورة في النَّصّ الشعري ، ويخرج بعد هذا التأَمُّل بأَنَّ الضرورة الشعرِيَّة يأتي بها الشاعر لـ «وجه ما ، وهدف يبتغيه ».ولا شك أَنَّ هذا الهدف في خدمة «معنى النَّصّ »الذي يصل إلى المتلقي . ولاشك أيضا أَنَّه لكي يصل إلى مبتغى الشاعر لابد من معرفته لملابسات النصوص وسياقاتها الذي قيلت فيها . وهذا يدل على تمام المعايشة للنص المُسْتقى منه القاعدة .

ومن هذه النصوص أيضا :

---

(١)سيبويه : الكتاب ، ٣٢/١

- «كما يشبهون الشيء بالشيء ، وإن لم يكن مثله ولا قريبا منه»[(١)] .
- «وإن سميت رجلا ببَقَّمَ أو شَلَّم ـ وهو بيت المقدس ـ لم تصرفه البتة ؛ لأنَّهُ ليس في العربيَّة اسمٌ على هذا البناء»[(٢)] .
- «... وليس هذا طريقة الكلام ، ولا سبيله ؛ لأنَّهُ ليس من كلامهم أَنْ ضمروا الجار»[(٣)] .

ـ الفوائد العَمَلِيَّة التي تعود على البحث من خلال الوقوف على منهج سيبويه في كتابه :

نأتي في نهاية فصلنا هذا إلى نقطة مُهِمَّة ومحورية وهي : ما الفوائد العَمَلِيَّة التي تعود على بحثنا هذا من وقوفنا على منهج سيبويه ؟ ولماذا تجشمنا عناء ماسطَّرناه في الصفحات الفائتة ؟

سبق أَنْ قدمنا في بداية هذا الفصل أَنَّ حديثنا عن آليات منهج سيبويه تساعدنا بشكل دقيق في معرفة دور سياق الحال في التوجيه والتَّقْعِيد عنده ، وتجعلنا نفهم بشكل صحيح أقواله ونصوصه . ونضيف هنا أيضا بعضا من هذه الفوائد :

- بعد أَنْ وقفنا على العناصر الأربعة السابقة لمنهج سيبويه : تنميط اللُّغَة إلى تراكيب مجرَّدة ، ثُمَّ تتبُّعها إِحْصَائِيّا في السِّياقات المختلفة ، ثُمَّ ربط التركيب النَّمَطِيّ المُعَيَّن بدلالات مُعَيَّنَة إِنْ وجدت ، ومعايشة هذه التراكيب ، نقول : إنَّ هذه العناصر ستجعل **ما يقوله سيبويه من نتائج سيكون مرتبطا باللُّغَة لا الكلام ، أي أَنَّ كل ما سنثبته إِنْ شاء الله متعلِّقًا بقرينة السِّياق ودورها في التَّقْعِيد والتوجيه النَّحْوِيّين عنده سيكون مرتبطا باللُّغَة ذاتها ، وليس بالأحداث الكلامِيَّة الوقتِيَّة العارضة** .
- ومن الأمور شديدة الأهمِيَّة التي نقف عليها من خلال هذا المنهج أَنَّ الأمثلة التي يضربها سيبويه لتوضيح قواعده ما هي إلا أمثلة تمثل «تراكيب وبنية لغَوِيَّة» موجودة في اللُّغَة . فسيبويه إذا أدار الكلام في قاعدة نحوِيَّة حول «مَثَل» أو مجموعة من «الأمثلة»،فإنَّهُ لا يقصد المثل في حد ذاته ، بل يقصد «التركيب» الذي تمثِّله هذه الجملة أو تلك الجمل .
- إن وقوفنا على هذه العناصر ـ وخاصة عنصر الإحصاء ـ يرفع مصداقيَّة سيبويه في أقواله وتقريراته ؛ إذ أَنَّها ليست وليدة معالجة نصٍّ واحد أو اثنين ، بل لأَنَّ معظم هذه الأقوال والتقريرات ناتجة عن دراسة لمعظم نصوص اللُّغَة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٩/١ ، وينظر مع هذا الموضع أيضا المواضع التالية : ٥٩/١ ، ١٢٣/١ ، ١٨٢/١ ، ٣٥٣/٣ ، ٣٨٢/٣ ، ٦٤٦/٣ ، ٩٣/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٨/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١١٥/٢

- ووقوفنا على منهج سيبويه وخاصة تنميطه للتراكيب اللُّغَوِيَّة يدلُّنا على أَنَّه اتَّبع الطريق الصحيح في تقعيد القواعد ، فهذا التتَبُّع يشبه ما أسماه العلماء بـ «القياس الاستقرائي» الذي سبق أَنْ أشرنا إليه في التمهيد .
- الوقوف على المنهج بشكل عام مكننا من ملاحظة وجود تأثير لسياق الحال على اللُّغَة ، ومكننا من إثبات وجود ترابط بين تراكيب مُعَيَّنَة ودلالات سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة .
- بعد الوقوف على هذا المنهج أصبحنا نفهم بشكل واضح وصريح المصطلحات التي كان يصف بها سيبويه بعض الجمل ، مثل : «ضعيف ، قوي ، جَيِّد ، كثير ، قبيح ، خبيث» ، فهذه مصطلحات قائمة على الجانب الإِحْصَائِيّ الذي قام به سيبويه للتركيب النَّمَطِيّ الذي يدرسه .
- من خلال الوقوف على هذه العناصر سنفهم أسباب تقوية سيبويه لتوجيه نحوي ما أو تضعيف آخر ؛ فالتقوية ستكون نتيجة أَنَّ هذا التركيب هو الأكثر إِحْصَائِيًّا في استخدامات العرب من التركيب الآخر .

***

الفصل الثاني

دور سياق الحال في التوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه

ويشمل المباحث التالية :

- المبحث الأول : أهمِيَّة سياق الحال في التوجيهات النحوِيَّة عند سيبويه .
- المبحث الثاني : إثراء سياق الحال للتوجيهات الإعرابِيّة والدِّلالِيَّة .
- المبحث الثالث : تحرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة عدم اللَّبس .

الفصل الثاني : دور سياق الحال في التوجيه الإعرابيّ عند سيبويه

نبدأ هنا بفضل الله ومَنِّه الحديث عن دور سياق الحال في التوجيه النَّحْوِيّ عند سيبويه ، ونسأله سبحانه التوفيق والسداد . وسيكون حديثنا في هذا الفصل في المباحث التالية :

١ـ المبحث الأول : أهمِيَّة سياق الحال في التوجيهات الإعرابِيّة عند سيبويه :

أوَّل ما نبدأ به حديثنا هنا في هذا الفصل الكلامُ عن أهمِيَّة سياق الحال في التوجيهات الإعرابِيّة عند سيبويه . وقد سبق أَنْ أوضحنا المراد بالتوجيه وقلنا إنَّهُ : بيان أَنَّ رواية البيت أو القراءة القُرْآنِيَّة لها وجه في العربِيَّة وموافقة لضوابط النحو ، فيقولون مثلا : وتوجيه الرواية أو البيت أو القراءة كذا وكذا » [(١)] . ويقصر هذا التعريف التوجيه الإعرابِيّ على توجيه روايات الأبيات الشعرِيَّة والقراءات القُرْآنِيَّة فقط ، وهذا الربط ليس دقيقا ، فقد يكون التوجيه النَّحْوِيّ لمقولة نثرِيَّة ليست شعرا ولا قراءة قرآنية كما سنذكر إنْ شاء الله .

ونعود لبيان أهمِيَّة سياق الحال في التوجيهات الإعرابِيّة فنقول إنَّ أهميته عند سيبويه تتمثل في :

أ- **وجود تراكيب نحوِيَّة لا يصِحُّ تركيبُها ولا تصِحُّ كينونتُها وبالتالي لا يصِحُّ توجيهها نحويا إلا إذا قامت قرينة من سياق الحال تُصَحِّحُها :**

ونقصد بهذا العنوان أنَّهُ توجد بعض التراكيب ترتبط صحتها بوجود سياق حال معين واعتباره ؛ فإنْ وجد السياق واعتُبِر صح التركيب ، وإن لم يوجد لم يصح التركيب .

١ـ ففي أحد نصوص سيبويه يقول : « ... فإنْ قلت : « إذا كان الليل فأتني » ؛ لم يجز ذلك ؛ لأَنَّ الليل لا يكون ظرفا إلا أَنْ تعني الليل كله على ما ذكرت لك من التكثير ، فإن وجَّهتَه على إضمار شيء قد ذكرتَ على ذلك الحدّ جاز » [(٢)] . وتفسير هذا الكلام : «أَنَّ الليل اسم لليالي التي تكون أبدا فلا يجوز أَنْ تعلّق الوقت بها ؛ لأَنَّها غير منقضية ولا موجودة في وقت واحد ، وسبيلها سبيل الدهر ، وأنت لا تقول : إذا كان الدهر فأتني» [(٣)] .

أي أَنَّ هذه الجملة «إذا كان الليل فأتني» لا تجوز لعمومِيَّة الظرف وشدَّة اتساع وقته وتكراره ، ولا سبيل إلى إجازة هذه الجملة وتوجيهها نحويًّا إلا في حالة واحدة أَنْ تقوم قرينة من سياق الحال تُعْلِمُ

---

(١) د. محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض،مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١١م) ، ص ٢٩٥

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/١

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ١١٩/٢

السامع أَنَّ المُتَكَلِّم يريد ليل ليلته . يقول السيرافي في توجيه هذا التركيب : «إذا كان الليل فأتني : يعني إنَّ وجَّهتَه على كلام يعلم السامع أنَّه يريد ليل ليلته جاز ، وذلك نحو : أَنْ تكونَ مع رجل في شيء ، فقال : «إذا كان الليل فأتنا» ، فعلمت أنت بالحال التي أنتما فيها أَنَّه يعني ليل ليلته التي تجئ ؛ فيجوز فيه النصب والرفع »(١) .

٢- وفي موضع ثان يقول سيبويه : « وإذا ذكرتَ شيئًا من هذه الأسماء التي هي علامةٌ للمضمَر فإنَّه مُحالٌ أنْ يَظهر بعدها الاسمُ إذا كنتَ تُخبِر عن عَمَلٍ ، أو صفةٍ غيرِ عمل ، ولا تريد أنْ تعرِّفَه بأنَّه زيدٌ أو عمرو . وكذلك إذا لم تُوعِدْ ولم تفخر أو تصغِّر نفسك ؛ لأنَّكَ في هذه الأحوال تعرِّف ما تُرَى أنَّه قد جُهل ، أو تُنزِلُ المخاطَب منزلة من يجهل فخرًا أو تهدُّدًا أو وعيدًا ، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه ... . وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتِك لو أراد أن يُخبِرك عن نفسه أو عن غيره بأمرٍ فقال : أنا عبدُ الله منطلِقًا ، وهو زيدٌ منطلقا كان مُحالاً ؛ لأنَّه إنَّما أراد أنْ يُخبِرك بالانطلاق ولم يقل هُوَ ولا أنا حتى استَغنيتَ أنت عن التسمية ، لأنَّ هو وأنا علامتان للمضمَر ، وإنَّما يُضمِر إذا عَلم أنَّك عرفتَ من يَعنى . إلّا أن رجلا لو كان خلفَ حائط ، أو فى موضع تجهله فيه فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقا في حاجتك ، كان حسنا »(٢) .

في هذا النص يتحدَّث سيبويه عن أن «الضمير» إذا جاء في موقع «الابتداء» في الجملة الاسمية فإنَّه من «المحال» أن يأتي بعده «اسم (خبر)» يكون هو عين المبتدأ ويعرف المخاطَب ذلك من خلال معرفة سابقة على زمن الكلام .

فإذا كان لدينا متكلم اسمه «عبد الله» يتحدث إلى مخاطَب ، وكلاهما يعرف صاحبه تمام المعرفة ، فإنَّه لا يجوز للمتكلم أن ينشئ جملة للمخاطب ويقول : «أنا عبد الله» ، وذلك لأنّ هذه الجملة لا يحمل خبرها فائدة للمتكلم ؛ لأنَّه يعلم سلفا أنَّ المتكلم هو عبد الله .

نقول إن هذه الجملة هي من المحال ولا تصح إلا إذا توافر سياق له خصوصية معينة ، وذلك مثلا ـ كما أوضح سيبويه ـ :

» أن يكون الموقف الذي يتحدث فيه المتكلم موقف «إيعاد» أو «فخر» أو «تصغير» ويريد المتكلم أن «يُعرِّف» المخاطب ما يراه .

» أو أن يكون المخاطب «وراء حائط أو موقع يجهله المتكلم» ـ أي أنّ المتكلم لا يرى المخاطب ـ فقال المخاطب من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقا في حاجتك .

فلولا السياق هنا ما صح قبول هذا التركيب الذي تمثله جملة : «أنا عبد الله».

---

(١) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ١١٩/٢

(٢) الكتاب : ٢/ ٨٠ ، ٨١

٣ـ ناقش سيبويه قولهم : « عبد الله نِعْمَ الرجل » ؛ وأشار أن هذه الجملة تكون صحيحة إذا كان المقصود بـ «الرجل» هو «عبد الله» ، ومحالة إذا كان المُتَكَلِّم لا يريد بالرجل عبد الله[١] .

ب- **وجود تراكيب نحوِيَّة توجَّه في إطار معرفة قرينة السِّياق** :

هناك كثير من التراكيب النحوِيَّة التي عالجها سيبويه يصعب فهمها وفهم توجيهها الإعرابِيّ إذا لم يُلجأ إلى قرينة السِّياق لفهمها . ويمكن أَنْ نضرب على ذلك مثالين :

ـ المثال الأول : في أحد المواضع يتحدَّث سيبويه عن الظروف ويخص بالحديث الظرف «سحر» ؛ فيقول : «ومما لا يحسن فيه إلاّ النصبُ قولهم : سير عليه سَحَرَ ، لا يكون فيه إلاّ أَنْ يكون ظرفًا ؛ لأنَّهم إِنَّمَا يتكلّمون به فى الرفع والنصب والجرّ ، بالألف واللام ، يقولون : هذا السَّحَرُ ، وبأَعلى السَّحرِ وإِنّ السَّحَرَ خيرٌ لك من أوّل الليل . إلاّ أَنْ تَجعله نكرةً ؛ فتقولَ : سير عليه سَحَرٌ من الأسحار »[٢] .

هكذا يسوق سيبويه النَّصّ ، بلا توضيح ولا تفسير . ولتوضيحه وتفسيره يستلزم ذلك أَنْ نقول : إِنَّ «سحر : ظرف زمان منصوب على الظرفية غير متصرف ، ويتصرف إِنْ حُلِّي بـ «أل»... وهي ممنوعة من الصرف إذا أريد بها سحر يوم بعينه لشبه العلميَّة والعدل ... أَمَّا إذا لم يرد بها سحر يوم بعينه ؛ فهي نكرة ، وغير ممنوعة من الصرف»[٣] ؛ أي أَنَّ تنوين كلمة سحر يتوقَّف علي سياق الحال فعندما نقول : «سير عليه سحرَ » بالنصب وعدم التنوين يكون معناها سحر يوم المُتَكَلِّم ، وعندما نقول « سير عليه سحرٌ » بالتنكير ؛ فهي تعني العموم ؛ أي : أي سحر من الأسحار[٤] .

إذن فنحن لا نستطيع أَنْ نفهم التوجيه النَّحْوِيّ لكلمة «سحر » إلا إذا استحضرنا السِّياق الذي تقال فيه فهل تعني سحر يوم مُحَدَّد فتُنْصَبُ وتمنع من الصرف ؟ أم أَنَّها تفيد العموم فتصرف وتنون ؟

جاء في كتاب «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي (٤٢١هـ) ما نصه : « فأما سحر : فإنّك تقول : سير عليه سحر ، فلا ينصرف ولا يتصرّف إذا أردتَ سحر يومك ، ومعنى لا يتصرّف لا يتمكّن تمكن أسماء الأزمان في أبوابها . ومعنى لا ينصرف : لا يدخله الجر والتنوين . فأنْ أردت سحرًا من

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٧٧/٢ ، وفي هذا النص دليل على أن مصطلح «محال» مرتبط عند سيبويه بالدِّلَالَة

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٥/١

(٣) د. على توفيق الحمد ، يوسف جميل الزعبي: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، ص ١٧٩، وينظر أيضا : ابن السرّاج : الأصول في النحو ، ١٩٢/١

(٤) ومثل كلمة سحر ـ كما يقول سيبويه وابن السرّاج في الأصول ـ « ضحى ـ إذا عنيت ضحى يومك ـ ، صباحا ، عشية ، عشاء ـ إذا أردت عشاء يومك ـ ، ذات مَرَّة ، بكرا ، ذو صباح ، ضحوة ، عتمة ، ذات يوم ، ذات ليلة ، بعيدات بين» .

الأسحار وهو في موضعه نكرة ، فلا مانع له من الصّرف والتمكّن ، ونقول : إنّ سحرًا جزء من آخر اللّيل ، وفي سحر وقع الأمر »[(١)] .

ـ المثال الثاني : يقول سيبويه : «واعلم أَنَّه لا يجوز أَنْ تقول : قومُك نِعمَ صغارُهم وكبارهم ، إلا أَنْ تقول : قومك نعمَ الصغار ونعم الكبار ، وقومُك نعمَ القومُ ؛ وذلك لأَنَّكَ أردت أَنْ تجعلهم من جماعات ومن أمم كلهم صالحٌ ، كما أَنَّك إذا قلت عبدُ الله نعمَ الرجل ، فَإِنَّما تريد أَنْ تجعله من أمةٍ كلهم صالح ، ولم ترد أَنْ تعرف شيئا بعينه بالصلاح بعد نعمَ »[(٢)] .

إن سيبويه يريد أَنْ يقول إنَّ جملة « قومك نعم صغارهم وكبارهم » **لا تجوز** إذا أراد المُتَكَلِّم تعميم الصلاح على الجميع ؛ أي أَنَّ الجملة «قومك نعم صغارهم وكبارهم » لا تفيد التعميم ، والبديل الذي يقال مكانها : «قومك نعم الصغار ، ونعم الكبار » أو «قومك نعم القوم » . والسؤال هنا : لماذا لا تفيد جملة «قومك نعم صغارهم وكبارهم »هذا العموم ؟

يمكن أَنْ نقدم إجابتين على هذا السؤال ، وكلاهما ـ فيما أظن ـ مرتبط بسياق الحال :

- الإجابة الأولى : فكلمة «كبارهم »يمكن أَنْ تعرب في سياق ما مبتدأ خبرها محذوف مثلا ؛ فتخرج الجملة عن المعنى الذي يقصده المُتَكَلِّم ، ويظهر هذا جليًّا في النطق الصوتي للجملة بأن يبدأ المُتَكَلِّم بنَغْمَة مرتفعة ويقول الجملة « قومك نعم صغارهم » .وينهيها بنَغْمَة هابطة ، ثُمَّ يبدأ بنَغْمَة مرتفعة كلمة «وكبارهم » ويصمت مع استصحاب أَيَّة إشارة جسدِيَّة تفيد السخرية والاستهزاء مثلا . أى أَنَّ الجملة بهذا الشكل قد تلتبس على المخاطب ؛ لذلك منع سيبويه هذه الجملة بهذا الشكل إذا كان مراد المُتَكَلِّم تعميم الصلاح . وعلى ذلك أيضا فَإِنَّ السِّياق لو دَلَّ على أَنَّ المُتَكَلِّم يمدح صغار القوم ويُخرج الكبار عن هذا المدح لجازت العبارة وأرى أَنَّ الأصلح لمنع هذا اللَّبس في هذا التركيب إمَّا أَنْ نعيد الفعل «نِعْمَ» ، وإما أَنْ نأتي بلفظ يضم الصغار والكبار «القوم مثلا».
- الإجابة الثانية : نحن نعلم أنَّ فاعل نِعْم « جنس » وإذا أتت فيه « أل » تكون جنسية ، وأَنَّ « المخصوص بالمدح والذم قد يكون فرعًا من هذا الجنس ، وقد يكون فردًا ، نقول : بئس الحيوان الذئب ، فأنت ذممت جنس الذئب من بين جنس الحيوان ، ف « الحيوان » عام ، «والذئب » خاص منه »[(٣)] . واستخدام أسلوب المدح بنعم يُقصَد به : «تخصيص شيء من

---

(١) المرزوقي : كتاب الأزمنة والأمكنة ، ت : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط١٩٩٦١م، ص ١٧٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٧٧/٢

(٣) فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣٠١/٤

الجنس بالمدح »[١] . بناء على ذلك إذا قلنا : « قومك نعم صغارهم وكبارهم » ينصرف الذهن إلى أنَّ المتكلم خصَّ جنس «الصغار» فقط بالمدح ، وهذا يعني أنَّ «الكبار» لا يدخلون معهم في هذه الصفة ؛ لذلك كان صواب الجملة ـ كما قال سيبويه ـ أنْ يُقال : « قومك نعم الصغار ونعم الكبار » حتى يخصّ المدح كلا الجنسين .

في هذا المثال يَصْعُبُ كثيرا « فهم » التوجيه النَّحْوِيّ الذي قاله سيبويه في جملة « قومك نِعْمَ صغارهم وكبارهم » إلا إذا استعنا بالسِّياق الذي سقناه لفهم هذا التوجيه .

ت- **يستعين به أحيانا في شرح توجيهه :**

ومن الخدمات التي يُقَدِّمها السِّياق لسيبويه بالإضافة إلى النقطتين السابقتين أَنَّ سيبويه استغلَّه هو نفسه في شرح بعض التوجيهات النحوِيَّة .

يقول سيبويه : « أَمَّا قولهم : مَن ذا خيرٌ منك ، فهو على قوله : من الذي هو خيرٌ منك ؛ لأَنَّكَ لم ترد أَنْ تشير أو تومِئ إلى إنسان قد استبان لك فضلُه على المسئول فيُعلِمَكه ، ولكنك أردت مَن ذا الذي هو أفضل منك . فإنْ أومأتَ إلى إنسان قد استبان لك فضلُه عليه ، فأردتَ أَنْ يُعلِمَكَه نصبتَ خيرًا منك ... ،كأَنَّك قلت : إنَّمَا أريد أَنْ أسألك عن هذا الذي قد صار في حالٍ قد فَضَلَك بها »[٢] .

في هذا النَّصّ لدينا جملتان : الأولى « مَنْ ذا خيرٌ منك » ، والثانية «من ذا خيرًا منك » . استعان سيبويه في تفسيرهما بسياق « مختزل » يتمثل في ثلاثة أطراف : المُتَكَلِّم ، والمخاطب ، وشخص ثالث ليس حاضرا معهما ، الجملة الأولى « من ذا خيرٌ منك » رفعت كلمة «خير» على تقدير أَنَّها خبر لمبتدإ محذوف ؛ ويعلل سيبويه هذا التوجيه بأَنَّ المُتَكَلِّم لم يرد أَنْ يشير أو يومئ إلى إنسان قد استبان له فضله على المخاطب على سبيل الاستخبار ، بل أراد أمرا آخر ـ قد يكون بلاغيا ـ وهو إرادة النفي عن طريق سؤال ، وذلك على منوال قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب : ١٧] ، وهذا يقتضي بالطبع سياق حال مُعَيَّن ، ونَغْمَة صوتيَّة مُعَيَّنَة ، أَمَّا الجملة الثانية فقد نصبت كلمة «خير» على تقدير : من ذا الذي جعله حالُه خيرا منك ؟ ، فالمُتَكَلِّم هنا في حالة استخبار ، يطلب معلومة من المخاطب ، أو على حد تعبير سيبويه «إنَّمَا أريد أَنْ أسألك عن هذا الذي قد صار في حالٍ قد فَضَلَك بها » ؛ أى أَنَّ المقام هنا مقام استفهام وليس مقام نفي كما في الجملة الأولى .

---

(١) السابق : ٣٠٢/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦١/٢

لقد استعان سيبويه في توجيه الإعرابِيّ هنا بسياق الحال في قوله : « فإنْ أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضله ... »، وهو وإن كان مختصرا بعض الشيء إلا أَنَّ له نوع حضور .

وأحيانا يستعين سيبويه في توجيهه بسياق حال «حواري»، يتخَيَّله لكي يقرِّب توجيهه الإعرابِيّ كما في المثالين التاليين :

- عندما يُوَجِّه سيبويه قوله تعالى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء : ٣] يوجِّهُ « الذين » على البدل ، ويقول : «وكأَنَّه قال : انطلقوا ؛ فقيل له : مَنْ ؟ ؛ فقال : بنو فلان . فقوله جل وعز : ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ على هذا »[(١)] .

في هذا المثل يوجِّهُ سيبويه إعرابيًّا كلمة «الذين» على البدل ، ولكي يوضِّح الإعراب لهذه الكلمة يأتي بجملة من عنده تشبه في تركيبها تركيب الآية ، وجملته : «انطلقوا ، بنو فلان». ويستعين بسياق حواري متخيَّل بين متكلم ومخاطب ، قال المُتَكَلِّم : انطلقوا ، فردَّ المخاطب : «مَنْ ؟ »فقال المُتَكَلِّم : بنو فلان .

وهذا النَّصّ من كلام سيبويه يتضمن إلماحة خفية في قوله «**وكأَنَّه قال : انطلقوا ؛ فقيل له : مَنْ ؟**» تشير إلى أهمِيَّة سكتات المُتَكَلِّم ووقفاته ، وتشير أيضا إلى أهمِيَّة « **النسق النَّغَمِي للجملة**» وأهمِيَّة اعتباره في التحليل الدِّلَالِيّ ، فالمُتَكَلِّم الذي يقول الجملة الإنشائِيِّة الأمرية «انطلقوا» لا بدَّ أَنْ يقولها بـ «النسق النغمي الخاص بالجملة الأمرية».

ومصطلح النسق النغمي هو مصطلح صكَّه أستاذنا تَمَّام حسان ، حيث أشار سيادته إليه وإلى أهميته الدِّلاليَّة في قوله التالي :

> «الجمل العربِيَّة تقع في صيغ وموازين تنغيمية **هي هياكل من الأنساق النَّغَمِيَّة ذات أشكال محددة ، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات ، وهنَّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة . فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية** خاصة فاؤها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاتها نغمات مُعَيَّنَة ، بعضها مرتفع وبعضها منخفض ، وبعضها يتفق مع النبر وبعضها لا يتفق معه ، وبعضها صاعد من مستوى أسفل ، وبعضها هابط من مستوى أعلى ، فالصيغة التنغيمية منحنى نغمي خاصّ بالجملة **يعين على الكشف عن معناها النَّحْوِيّ ... وأنا أتصور أَنَّكَ لو طلبت إلى أحد المُتَكَلِّمين أَنْ يحاول نطق بعض الجمل وهو مقفل الشفتين لاستطعت في هذه الحالة أَنْ تستمع الهيكل**

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١/٢

التنغيمي للجملة المرادة دون أَنْ تسمع ألفاظ الجملة نفسها ، وسيكون في مقدورك في هذه الحالة أَنْ تقول ما إذا كانت الجملة المرادة التي لم تسمع ألفاظها استفهامًا أو إثباتًا أو تأكيدًا . تفعل ذلك دون حاجة إلى تفكير أو استنتاج ؛ لأَنَّ سياق النغمات في كل جملة له من الطابع العرفي المشروط المحدَّد ما للكلمة في دلالتها على معناها ، وما للحركة أو الرتبة في دلالتها على الباب النَّحْوِيّ الخاص . والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة غير أَنَّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدِّلَالَة على المعنى الوظيفي للجملة وربما كان ذلك لأَنَّ ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر مما يستعمله الترقيم من علامات » [١] .

إن السِّياق الحواري الذي أتى به سيبويه للتوجيه الإعرابِيّ لكلمة « الذين » يشي ويدلُّ من طرف خفي على وعي سيبويه بهذا النسق النغمي ، حتى وإنْ لم ينص عليه صراحة .

- ونجد سيبويه في موضع ثان يستغل هذا السِّياق الحواري في توجيهه ، ففي مثال آخر يوضح فيه أجزاء أسلوب المدح يقول : « وإذا قال : عبد الله نعم الرجل ، فهو بمنزلة : عبد الله ذهب أخوه ؛ كَأَنَّه قال : نعم الرجل ؛ فقيل له : من هو ؟ فقال : عبد الله . وإذا قال : عبد الله ، فكأَنَّه قيل له : ما شأنه ؟ فقال : نعم الرجل » [٢] .

وفي بعض الأحيان يرتبط التوجيه الإعرابِيّ بالسِّياق وجودا وعدما ؛ بمعنى إنْ وجد السِّياق وجد الإعراب المرتبط به وإن انتفى السِّياق انتفى الإعراب المرتبط به ، يقول سيبويه : « وتقول : حسبته شتمني فأثبَ عليه ، إذا لم يكن الوثوب واقعًا ، ومعناه : أَنْ لو شتمني لوثبتُ عليه . وإن كان الوثوب قد وقع فليس إلا الرفعُ ؛ لأَنَّ هذا بمنزلة قوله : ألستَ قد فعلتَ فأفعلُ » [٣] .

ما يُفْهَمُ هنا من هذا النَّصّ أَنَّنا يمكن أَنْ نقول :

» « حسبتُهُ شتمني فأثبَ عليه » ـ بنصب الفعل « أثب » ←—— في حالة عدم وقوع الشتم بعد .

» « حسبتُهُ شتمني فأثبُ عليه » ـ برفع الفعل « أثب » ←——— في حالة وقوع الشتم فعلا .

أي أَنَّ حالة النصب أظهرت السببية الموجودة في سياق الحال ، أي أَنَّ الشتم كان سيكون سببا في أَنْ يثب السامع على الشاتم . أَمَّا حالة الرفع فتشير إلى الاستئناف ، بمعنى أَنَّ الكلام قد تمَّ ويراد

---

(١) اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها : ص ٢٢٦

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٧٦ ـ ١٧٧

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣/٣٦

بداية معنى جديد . ولا شك أَنَّ الأداء النطقي للجملة يختلف في الحالتين باختلاف السِّياق الذي تقال فيه .

ث- **يفسِّرُ بالسِّياق مَرْجِعِيَّة الضمير :**

الفاعل جزء أساسي في جملته ، ولا تستغني الجملة عنه لتكملة معناها الأصيل ؛ فلا بد أَنْ يذكر ، ويكون بالاسم الظاهر ، نحو : «قام زيد » ، أو بضمير مستتر راجع إما لمذكور كـ «زيد قام » ، أو لما «دَلَّ عليه الفعل أو لما دَلَّ عليه الكلام أو الحال المشاهد ؛ بأن تكون هنالك قرينة تُعْرَف من السِّياق أو الحال الواقعة»[(١)] .

وإلى هذا أشار سيبويه قائلا «وإن شئت قلت : إذا كان غدًا فأتني - وهي لغة بني تميم - والمعنى : أَنَّه لقي رجلا ؛ فقال له : إذا كان ما نحن عليه من السلامة ، أو كان ما نحن عليه من البلاء في غدٍ فأتني ، ولَكِنَّهم أضمروا استخفافا لكثرة كان في كلامهم ؛ لأَنَّ الأصل لما مضى ، وما سيقع ... وإنَّما أضمرُوا ما كان يقَع مُظهَرًا استخفافًا ، ولأنّ المخاطَب يعلم ما يعنى»[(٢)] .

أورد سيبويه المثال «إذا كان غدًا فأتني »محذوف الضمير ، والتقدير : «إذا كان غدا فأتني ؛ أي : إذا كان هو (أي ما نحن عليه من سلامة) غدا فأتني » .

إن سيبويه يشير إلى أَنَّ مَرْجِعِيَّة الضمير المستتر في الفعل كان تعود على سياق الحال الواقع فيه المُتَكَلِّم والمخاطب . ولتوضيح ذلك يرسم موقفا ومسرحا لغويا فيه المتكلم لقي رجلا ، فقال له كذا وكذا[(٣)] .

ويتفق النحاة مع ما ذهب إليه سيبويه على أنَّ السياق يمثل أحيانا مرجعية الضمير ، جاء في شرح التصريح للشيخ خالد الأزهري عند الحديث عن الحكم الثالث من أحكام الفاعل وأنَّه قد يأتي ضميرًا دالًّا عليه الحال فقال : «... أو راجع (؛ أي ضمير الفاعل) لما دلَّ عليه الكلام أو دلَّ عليه الحال المشاهدة ، فالأول نحو : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ القيامة : ٢٦ ففي « بلغت » ضمير مستتر مرفوع

---

(١) محمد عبد العزيز النجار : ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م)٦/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/١

(٣) ولم يكتف سيبويه مع قوله : « إذا كان غدا فأتني» بالإشارة إلى حذف الضمير لدلالة السياق عليه ، بل تتبع هذه الجملة (التركيب) وربطها ببعض المعاني السياقية التي قد تأتي مع هذه الجملة ، يقول : «وقد تقول : إذا كان غَدًا فأْتِنى، كأنّه ذكر أمراً إمَّا خُصومَة وإمّا صُلحًا، فقال : إذا كان غدًا فأْتِنى» .

على الفاعلية راجع إلى «الروح» الدالّ عليها سياق الكلام ؛ أي : إذا بلغت هي ، أي الروح ... والثاني نحو قولهم ـ أي العرب ـ إذا كان غدًا فأتني»[١] .

وينبغي أَنْ نذكر هنا أَنَّ وجود مَرْجِعِيَّة للضمير ـ أيا كانت هذه المَرْجِعِيَّة ـ أمرٌ لازم للحفاظ على تماسك الكلام من التَفَكُّك[٢] .

ج- **خطورة عدم الاعتداد بقرينة السِّياق وأثره في التوجيه :**

تتجلى أهمِيَّة سياق الحال أيضا من زاوية أخرى وهي زاوية غيابه وعدم اعتباره ، وما يمكن أنْ يسببه هذا من إهدار أوجه إعرابية قيمة ، مثال ذلك :

- قد يتعجل البعض ويُعرب مباشرة كلمة «أنت» الثانية في قولنا : « وجدتك أنت أنت » توكيدًا لفْظِيًّا فقط لا غير . ولكن من يتمهَّل ويتأمل السِّياق الذي وردت فيه الجملة فقد يجد أنَّها من الممكن أَنْ تكونَ خبرا ومبتدؤه «أنت» الأولى .

هذا ما نتعلمه من قول سيبويه الذي يقول فيه : «وتقول : قد جرّبتُك فوجدتُك أنتَ أنتَ ، فأنتَ الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها ، كَأَنَّك قلت فوجدتُك وجهُك طليق . والمعنى : أَنَّكَ أردت أَنْ تقول : فوجدتك أنت الذي أعرف . ومثل ذلك : أنت أنت ، وإن فعلتَ هذا فأنت أنت ؛ أي : فأنت الذي أعرف ، أو أنت الجواد والجَلْد ، كما تقول : الناسُ الناسُ ؛ أي : الناس بكل مكان وعلى كل حال كما تعرف »[٣]

أي أَنَّ «أنت أنت» في موقفٍ ما قد تكون توكيدًا لفْظِيًّا[٤] ، وفي سياق آخر تكون جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، ويكون المعنى أن المتكلم وجد المخاطب كما هو لم يتغير وهو على سابق المعرفة به . قال ابن يعيش : «وأما قولهم : «أنت أنت» فظاهر اللفظ فاسد ؛ لأنه قد أخبر بما هو معلوم ، وأنَّه قد اتَّحد الخبرُ والمخبَرُ عنه لفظًا ومعنى . وحكمُ الخبر أن يكون فيه من الفائدة ما ليس في المبتدأ ، وإنما جاز ههنا ؛ لأنَّ المراد من التكرير بقوله : «أنت أنت» ، أي : أنت على ما عرفتُه من الوتيرة والمنزلة ، لم تتغير معنى . وتكرير الاسم بمنزلة أنت على ما عرفتُه ، وهذا مفيدٌ يتضمَّن ما ليس في الجزء الأول ، وعليه قول أبي النجم :

---

(١) شرح التصريح على التوضيح : ت : محمد باسل ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط ١ ، (٢٠٠٠م)، ٣٩٨/١

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ٤٦٧/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٩/٢

(٤) أشار النحاة إلى أنَّ الضمائر البارزة المنفصلة «تؤكد بضمير بارز منفصل مناسب ، فتقول مثلا مشيرا للمجرم : أنت أنت القاتلُ ، ومن ذلك ما كان يقوله جماعة الرافضة في شوارع الكوفة مشيرين لعَلِيّ : أنت أنت اللهُ ، فأمر بهم فحرقوا بالنار ». ينظر : النحو المصفى ، ص ٥٩٤

[بحر الرجز]

أنا أبو النجم وشِعْري شِعْري

معناه : وشعري شعري المعروف الموصوف كما بلغت ، وعرفت ، وعلى هذا قياس الباب » [(١)] .

وقال الرضي : «والثاني ـ أي الذي لا يغاير المبتدأ لفظا ـ **يُذْكَر للدلالة على الشهرة ، أو عدم التغير** كقوله :

أنا أبو النجم وشِعْري شِعْري

أي : هو المشهور المعروف بنفسه ، لا بشيء آخر ، كما يقال ـ مثلا ـ شعري مليحٌ ، وتقول : أنا أنا أي : ما تغيرت عما كنت » [(٢)] .

إن إهمال السِّياق في تفسير جملة «أنتَ أنتَ » أو «الناس الناس » يُهْدِرُ توجيها نحويا قيِّمًا يمكن استغلاله في إثراء المعنى . ومن حقِّنا هنا ـ بناء على نصّ سيبويه السابق ـ أَنْ «نُعَمِّمَ» هذه الدِّلَالَة السِّياقِيَّة الثانية التي يعطيها السِّياق مع أي تكرار لفظي لـ «معرفة»؛ بمعنى أَنَّنا يمكن أَنْ نقول قياسا على قول سيبويه «أنتَ أنتَ»أو «الناس الناس» :

- الأستاذُ الأستاذُ . (وليكن المعنى السِّياقي الثاني هنا : الأستاذ الأستاذ رأفة وحبًّا ، أو علما وانضباطا أو خبرة وسعة أفق ولم يتغير ...) .
- الإسكندريةُ الإسكندريةُ . (وليكن المعنى السِّياقي الذي يمكن أَنْ يُشحن به التكرار اللفظي هنا الإسكندرية الإسكندرية في طيب هوائها أو كرم أهلها ، أو نصرتها للحق كما هي ولم تتغير ...) .
- السيفُ السيفُ .
- عمرُ عمرُ .
- الشافعيُّ الشافعي [(٣)] .

- ومن التراكيب التي يؤثِّر عليها سياق الحال إعرابا ، ويُمَثِّل إهداره إهمال توجيه إعرابي مهم التركيب التالي : «أ (همزة الاستفهام) + لا (النافية للجنس)+ اسم لا + خبر لا »،ويُمَثِّله : ألا غلام لي .

---

(١) شرح المفصل : ١/ ٢٤٧

(٢) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ، القسم الأول ، ص ٢٩١

(٣) من جميل مدح العلماء للإمام الشافعي قول الشيخ أحمد شاكر في مقدمة تحقيقه للرسالة : « هذا كتاب الرسالة للشافعي ، **وكفى الشافعي مدحا أنَّه الشافعي** ،ـوكفى الرسالة تقريظا أنها تأليف الشافعي » ص٥

مذهب سيبويه في هذا التركيب كما قال السيرافي : « أَنَّ الألف الداخلة على « لا » إذا كانت استفهامًا جاز فيما بعد « لا » الرفع والنصب ... ، وأما إذا كانت بمعنى التمنِّي فمذهبه وجوب النصب »[(١)] .

أي أَنَّ إعراب اسم « لا » في التركيب السابق يتوقَّف على نوع السِّياق الذي ترد فيه الجملة ، هل هو سياق استفهام أم سياق تمنِّي . ونص سيبويه في هذا يقول : « واعلم أَنَّ لا إذا كانت مع ألف الاستفهام ودخل فيها معنى التمني عملت فيما بعدها ؛ فنصبته »[(٢)] .

إن اعتبار الهمزة في بداية التركيب « أ (همزة الاستفهام) + لا (النافية للجنس)+ اسم لا + خبر لا » للاستفهام يضعنا في سياق حال مكوَّن على الأَقَلّ من ثلاثة أطراف : متكلم مستفهِم ، ومخاطَب مستفهَم منه ، وأمر مستفهم عنه . وإذا رفع المُتَكَلِّم ما بعد لا قائلا : « ألا غلامٌ لي » فعلى اعتبار أَنَّ « لا » لنفي « الوحدة » التي ترفع الاسم بعدها عاملة عمل ليس . ولا النافية للوحدة تأتي لـ « النفي القاصر على فرد أو مجموعة واحدة ، دون أَنْ يشمل ذلك النفي أفرادًا أخر أو مجموعات أخر »[(٣)] . وإذا نصب المُتَكَلِّم الجملة « ألا غلامًا لى » فعلى أَنَّ لا لنفي الجنس ، واسم لا شبيه بالمضاف ، والخبر محذوف ، والتقدير : « ألا غلاما لي موجود » .

وإذا اعتبرنا أَنَّ « ألا » للتمني ؛ فلا يجوز إلا النصب ؛ لأَنَّها ستكون « حرف تمنِّي بمعنى أتمنى ، مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية للجنس ، التي بقي عملها في الاسم فقط ، حيث لا خبر لها لفظا أو تقديرا ؛ لأَنَّها بمعنى أتمنى ، والفعل أتمنى لا خبر له ، ولا يجوز مراعاة محلها مع اسمها أو إلغاؤها ولو تكررت ؛ لأَنَّها بمنزلة ليت »[(٤)] . وكَأَنَّ الجملة أصبحت « أتمنى غلاما لي » .

ومن الواضح أَنَّ اعتبار « لا » نافية للوحدة أو نافية للجنس أو للتمني **أمر يتوقَّف على السِّياق** الذي تقال فيه الجملة ، وسيبويه وإن لم يشر لهذا السياق بصورة واضحة إلا أَنَّه يُفْهَمُ ضمنا من كلامه ، إذ لا يمكن التحديد بدون السِّياق . **وإهدار السِّياق هنا يفوّت الوقوف على هذه التوجيهات** ويوقعنا في فوضى إعرابية .

- وعندما تقابلنا الجملة التالية : « لا آمِرَ يوم الجمعة » ، نتساءل : هل يمكن أَنْ يكون لكلمة « آمر » توجيها إعرابيا آخر غير كونها اسم لا مبني على الفتح ؟ الإجابة بالإثبات ؛ وذلك في حالة تفعيل

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٧/٢ حيث نقل المحقق كلامه في الحاشية ذات الرَّقْم٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٧/٢

(٣) د. محمد عيد : النحو المصفى ، ص ١٨٣

(٤) د. علي توفيق الحمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٥٤

السِّياق الذي ترِد فيه هذه الجملة ، ففي حالة تفعيله يمكن أَنْ نقول : «لا آمرًا يوم الجمعة »،فتتحول الكلمة من حال البناء (اسم لا النافية للجنس مفرد) إلى حال الإعراب .

ففي حالة إذا قلنا : «لا آمرًا يوم الجمعة » (بالتنوين) يقول سيبويه في معناها : « نفيت الآمرين يوم الجمعة لا من سواهم من الآمرين »[(١)] ؛ بمعنى أَنَّ « يوم الجمعة منصوب بـ « آمر » ؛ كَأَنَّك قلت : لا رجل يأمر يوم الجمعة ؛ فنفيت من يقع أمره في يوم الجمعة دون سواهم »[(٢)] . أي أنَّني هنا نفيت بعض الآمرين وليس كل الآمرين .

وفي حالة « لا آمرَ يوم الجمعة » يقول سيبويه : « تنفي الآمرين كلهم ، ثُمَّ أعلمت في أي حين »[(٣)] أي إنْ قلت ـ كما يقول السيرافي في شرحه ـ : « لا آمرَ يوم الجمعة ؛ فقد نفيت الآمرين كلهم ؛ لأَنَّكَ لم تعلق الأمر بيوم الجمعة ؛ فصار كَأَنَّك قلت : « لا آمر » ، كما تقول : « لا رجل » . وتضمر الخبر ، وتجعل « يوم الجمعة » ظرفا لذلك الخبر ، كَأَنَّك قلت : لا آمر لنا يوم الجمعة ؛ أي : نملكه يوم الجمعة »[(٤)] . أي أنني هنا نفيت جنس الآمرين جميعهم .

هذا مثال آخر يعلمنا فيه سيبويه أهمِيَّة اعتبار السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ .

وهنا أحب أَنْ أؤكد على نتيجة سبق أَنْ أشرت إليها وهي ارتباط العلامة الإعرابِيّة بالسِّياق ، فالسِّياق يؤدي إلى علامة إعرابية مُعَيَّنَة ، والعلامة الإعرابِيّة تؤدي إلى سياق مُعَيَّن . فالمُتَكَلِّم الأول ـ إنْ جاز هذا التعبير ـ تحت سيطرة السِّياق وضع علامة إعرابية ما ، فارتبطت هذه العلامة بهذا السِّياق المُعَيَّن ، وثبت هذا الأمر بدوره في وعي دارس اللُّغَة ومقعِّد قواعدها ، فإذا حدث واستخدمنا هذه الجملة بهذه العلامة الإعرابِيّة نكون في هذه الحالة مستصحبين للسياق الأول الذي أوجد هذه العلامة . أي أَنَّ هناك علاقة متبادلة بين السِّياق والعلامة الإعرابِيّة ، السِّياق يؤدي إلى علامة إعرابية مُعَيَّنَة ، والعلامة الإعرابِيّة تؤدي إلى دلالة سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة ؛ لذلك « يستثمر الموجهون من أهل المعاني والتفسير هذه الإمكانات الأسلوبية التي تتيحها أوجه الرفع والنصب بناء على تقدير عاملها من الاسمية والفعلية في إبراز بعض الأحكام الفقهية ؛ فيترجح وجه الرفع فيما سبيله الفرض والواجب ويترجح وجه النصب فيما له دلالة على المندوب »[(٥)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٨/٢

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٧/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٨/٢

(٤) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٧/٣

(٥) د. أحمد سعد محمد : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، مكتبة الآداب ، ط٢ (٢٠٠٠م) ، ص ٩٨

٢ـ **المبحث الثاني** : إثراء السِّياق للتوجيهات الإعرابِيّة والدِّلاليَّة :

ناقشنا في العنوان السابق أهمِيَّة قرينة السِّياق ، خاصة قرينة سياق الحال ، في التوجيهات الإعرابِيّة عند سيبويه ، وناقشنا تحته ـ كما تعلمنا من نصوص سيبويه ـ تراكيبَ نحوِيَّة لا يصح تركيبها ولا تصح كينونتها إلا إذا قامت قرينة من سياق الحال تصححها ، وأنَّه توجد تراكيب نحوِيَّة يصعب فهمها ابتداء بدون قرينة السِّياق ، وأنَّ قرينة السِّياق كانت مع سيبويه أداة طيعة استخدمها في شرحه وتوجيهه ، وأظهرنا أَنَّ السِّياق قد يمثل أحيانا مَرْجِعِيَّة للضمير ، وأوضحنا أَنَّ عدم الاعتداد بالسِّياق يمكن أَنْ يهدر توجيهات إعرابية مُهِمَّة .

وهنا وتحت هذا العنوان سنحاول بشكل أعمق وأوضح تجلية دور قرينة السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ ، ونبين بشكل ظاهر دور قرينة السِّياق في الإثراء الدِّلَالِيّ .

يعلمنا سيبويه أَنْ نستغل سياق الحال في إثراء التوجيه الإعرابِيّ ، وأَنْ نستخرج من الجملة مكنوناتها الدِّلاليَّة بمفتاح السِّياق . نشعر بهذا من خلال النصوص المُنْبَثَّة في حنايا الكتاب وصفحاته شعورا مباشرا وغير مباشر .

ـ فعندما نقول : أتيتنا أمسِ نُعطِكَ اليوم ، يجوز في الجملة الثانية جزم فعلها وعدم الجزم ، ويكون الجزم على اعتبار أَنَّ الجملة الثانية «نُعطِكَ اليوم» جزاء لما قبلها ، أي كَأَنَّنا قلنا : إِنَّ كنت أتيتنا أمسِ أعطيناك اليوم . أَمَّا عدم الجزم فعلى اعتبار أَنَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ يُقَرر المخاطب (أي يجعله يعترف ويثبت على نفسه «بأَنَّه قد فعل» [(١)] ، وعلى ذلك لا تكون الجملة الثانية جزاء ؛ «لأَنَّ الجزاء إِنَّمَا يكون في غير الواجب» [(٢)] . ولا شك أَنَّ المُتَكَلِّم أثناء قول الجملة الثانية سيقولها على النسق النغمي لجملة الاستفهام . قال ابن يعيش : «وتقول : « أأتيتنا أمس نعطك اليوم ؟ » معناه : أأتيتنا أمس ؟ إن كنت أتيتنا أمس أعطيناك اليوم . وإن كان قولك : « أأتيتنا أمس » تقريرا ، ولم يكن استفهاما ، لم يجز الجزم ؛ لأَنَّه إذا كان تقريرا ، فقد وقع الإتيان ، وإِنَّما الجزاء في غير الواجب» [(٣)].

إن اعتبار هذا السِّياق عند من يقوم بالتوجيه النَّحْوِيّ لهذا التركيب لا شك يُثري دلالة الجملة .

ـ ويناقش سيبويه الجملة «قمْ يدعوك» ، فيذكر لها توجهين : الأول جزم «يدعوك» ، على الجزم في جواب الطلب ، والتوجيه الثاني الرفع ، وفي تفسيره يقول : «وتقول : قم يدعوك ؛ لأَنَّكَ لم ترد أَنْ

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٥/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٩٥/٣ والواجب عند سيبويه يأتي على معنيين : المثبت ؛ أي : غير المنفي ، ويُرادُ به أيضا الخبري ؛ أي ما يحتمل الصدق والكذب . والمعنى الثاني هو المقصود هنا . ينظر : د. محمد عبادة : معجم مصطلحات النحو ، ص ٢٩٥

(٣)شرح المفصل : ٢٧٤/٤

تجعل دعاءً بعد قيامه ويكون القيام سببًا له ، ولكنك أردت : قم إنَّهُ يدعوك ، وإن أردت ذلك المعنى جزمت » [١] . أي : إذا وجه المُتَكَلِّم إلى المخاطب الأمر بأن يقوم حتى يكون هذا سببا لدعوته جاز الجزم . قال ابن يعيش في أثناء مناقشته للتوجيهات الإعرابية للفعل المضارع الذي يأتي في جواب الطلب : « ... إذا لم تقصد الجواب والجزاء ، **رفعت** . والرفع على أحد ثلاثة أشياء : إمَّا الصفة إن كان قبله ما يصح وصفه به ؛ وإما حالا إن كان قبله معرفة ؛ وإما على القطع والاستئناف ... والثالث : أن يكون مقطوعا عما قبله مستأنفا ، كقولك : « لا تذهب به تغلب عليه » وذلك أن الجزم ها هنا على الجواب لا يصح لفساد المعنى ، إذ يصير التقدير : إنْ لا تذهب به تغلب عليه ؛ فيصير عدم الذهاب به سبب الغلب عليه ، وليس المعني عليه ، فكان مستأنفا ، كأنَّك أخبرت أنَّه ممن يغلب عليه على كل حال . وكذلك «قم يدعوك » . **أي : إنَّه يدعوك ، فأمرته بالقيام ، وأخبرته أنَّه يدعوه ألبتة ، ولم ترد الجواب على أنَّه إن قام دعاه** » [٢] .

إن سيبويه يُفَعِّلُ السِّياق هنا ، ويستغله لإثراء التوجيه النَّحْوِيّ وتقليب المعنى ، ويجد من الإعراب والعلامة الإعرابِيّة عونا على عكس تأثيرات هذا السِّياق . فإذا كانت الجملة في سياق سببيّة جُزِم الفعل ؛ أي أَنَّ المُتَكَلِّم أمر المخاطب أَنْ يقوم حتى يكون هذا سببا في دعوته ، وقد يكون السِّياق بعيدا عن السببية ولا يتعدى كونه مجرد إخبار وعرض من المُتَكَلِّم للمخاطب فيرفع الفعل .

- ونشعر بهذا الإثراء شعورا غير مباشر في مثل قوله :

➢ «وقال جريرٌ :

[بحر الوافر]

أَعَبْدًا حَلَّ فى شُعَبَى غَرِيبًا ... أَلُؤْمًا لا أبا لك واغترابا

يقول : أَتَلؤُم لُؤْمًا وأَتَغترب اغترابا ، وحَذَفَ الفعلين فى هذا الباب ، لأَنَّهم جعلوه بدلاً من اللفظ بالفعل وهو كثيرٌ فى كلام العرب . وأما «عبدًا» فيكون على ضربينِ : إن شئت على النداء ، وإن شئت على قوله : أَتَفتخر عبدًا ، ثم حذف الفعل » [٣] . وقال في موضع آخر عن نفس الشاهد : «وأما قول الشاعر :

أَعَبْدًا حَلَّ فى شُعَبَى غَرِيبًا ...

---

[١] سيبويه : الكتاب ، ٩٨/٣

[٢] شرح المفصل ، ابن يعيش ٢٨٠/٤

[٣] سيبويه : الكتاب ، ٣٣٩/١

فيكون على وجهين : على النداء ، وعلى أنَّه رآه في حال افتخار واجتراءٍ ، فقال : أَعبدًا ، أي أَتَفْخَرُ عبدا ، كما قال : أتميميًّا « مرة»» [١] .

وجَّه سيبويه «عبدًا » في الشاهد السابق توجيهين إعرابيين : النصب على النداء أو النصب على تقدير فعل محذوف بعد أداة استفهام إنكاري توبيخي كما يوضح ذلك البغدادي في خزانته ، قال : «وقد نقل ابن السيد في شرح أبيات الجمل الوجهين : النداء والاستفهام عن سيبويه . وأنشد سيبويه هذا البيت على أنَّ لؤمًا واغترابًا منصوبان بفعل محذوف على طريق الانكار التوبيخي كأنه قال : أتلؤم لؤما وتغترب اغترابا . ويجوز أن يكون التقدير : أتجمع لؤما واغترابا فتنصبهما بفعل واحد مضمر » [٢] .

ولا شك أنَّ توجيه النداء يتطلب سياقا مختلفا عن سياق الاستفهام الإنكاري التوبيخي ، وسيبويه وإنْ لم يشر إلى ذلك صراحة فهو يُفهم ضمنًا .

- ويقول أيضا في موضع ثان : « ... ومثله في أَنَّ الوصف أحسنُ : هذا رجلٌ عاقلٌ لبيبٌ ، لم يجعل الآخرَ حالا وقع فيه الأوَّل ، ولَكِنَّه أثْنى عليه وجعلهما شَرْعًا سواءً ، وسوَّى بينهما في الإجراء على الاسم . والنصبُ فيه جائز على ما ذكرت لك . وإنّما ضَعُفَ لأنَّه لم يرد أنَّ الأوَّل وقع وهو في هذه الحال ، ولكنَّه أراد أنَّهما فيه ثابتان ، لم يكن واحدٌ منهما قبل صاحبه» [٣] .

إنَّ ما نفهمه من هذا النَّصّ أَنَّ الجملة «هذا رجل عاقلٌ لبيبٌ» برفع الوصفين الموجودين بها يكون على سبيل المدح والثناء ، ونفهم منه أيضا أَنَّنا في سياق آخر يمكننا أَنْ ننصب هذين الوصفين على الحال ، وتكون الجملة بهذا بعيدة عن سياق المدح والثناء ، بل على العكس قد تفيد الجملة السخرية والاستهزاء ، فعندما نقول : « هذا رجل عاقلا لبيبا » ، يكون المعنى : هذا رجل حالة كونه عاقلا لبيبا ؛ سخرية واستهزاء . هذا ما يفهم من كلامه هنا .

- وفي جملة مثل « هذا الرجلُ» قد تكون دلالتها في سياق ما «الكمال والرجولة» ، وفي سياق آخر مجرد « تعريف لمن يطلق عليه اسم الرجل»، يقول سيبويه : « إذا قلت : هذا الرجلُ فقد يكون أَنْ تعني كماله ، ويكون أَنْ تقول : هذا الرجل ، و أَنْ تريد كل ذَكَر تَكَلَّم ومشى على

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥

(٢) خزانة الأدب : ٢/ ١٨٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢/٥١

رجلين فـــــهو رجل » [١] . وقطعًا هذا كلام لا يمكن فهمه إلا في ضوء سياق الحال الذي ترد فيه الجملة .

ونجد في نصوص أخرى أَنَّ سيبويه « يتخَيَّل السِّياق » الذي دارت فيه الجملة ، ويتخَيَّل حوارا ومسرحا لغويا دارت فيه الأحداث من خلاله يقوم بالتوجيه النَّحْوِيّ .

ـ مثال ذلك في أحد أبواب الكتاب يناقش سيبويه إعراب النكرة غير المقصودة والشبيه بالمضاف في أسلوب النداء ، فيذكر بيت الشاعر ذي الرُّمَّة :

أَدارًا بِحُزوى هِجتِ لِلعَينِ عَبرَةً فَماءُ الهَوى يَرفَضُّ أَو يَتَرَقرَقُ

[بحر الطويل]

ويستشهد به على نصب « دارا » ولفظها نكرة ، ولَكِنَّها طالت بما بعدها من الصفة وهي الجار والمجرور ؛ فصارت بمنزلة المضاف[٢] .

ولكن في بيت مشابه للبيت السابق للشاعر الطِّرِمَّاح يقول فيه :

يا دارُ أَقوَت بَعدَ أَصرامِها عامًا وَما يَعْنيك مِن عامِها

[بحر السريع]

نجد سيبويه يقول في التوجيه الإعرابِيّ هنا : « فَإِنَّما ترك التنوين فيه ؛ لأَنَّهُ لم يجعل أقوت من صفة الدار ، ولَكِنَّه قال : يا دارُ ، ثُمَّ أقبل بعدُ يحدث عن شأنها ، **فكَأَنَّه لما قال : يا دارُ ، أقبل على إنسان ، فقال : أقوتْ وتغيرتْ ، وكَأَنَّه لما ناداها قال : إنَّها أقوت يا فلان . وإِنَّمَا أردتُ بهذا أَنْ تعلم أَنَّ أقوت ليس بصفة** » [٣] .

نلاحظ هنا كيف وجه إعراب المنادى للبناء على الضم من خلال رسم سياق حال ، تخيَّل فيه الشاعر بعد أَنْ نادى الدار ، يتَّجه إلى إنسان تخيل وجوده ويقول له : إنها تغيرت وأقوت . ويستحضر سيبويه الحالة النفسِيَّة للشاعر والمقام المناسب . ولا شك أَنَّ المقام هنا مقام حزن وألم وأَنَّ الشاعر ظل فترة زمَنِيَّة بعد ندائه للمنادى ؛ ولما لم يجد ردًّا له تحول عنه ، وأَنَّ الشاعر يجد من خلال تخيّل هذا الإنسان ومن خلال الحديث معه متنفسا لمشاعره .

ـ ويقول في موضع آخر مُتَخَيِّلًا حوارًا : « وقد يكون مررت بعبد الله أخوك ، كَأَنَّه قيل له : من هو ؟ أو من عبد الله ، فقال : أخوك » [٤] . ففي الجملة التي وردت هنا يجوز في « أخوك » الجر على البدل ، وإذا تَخَيَّلْنا حوارًا وسياقًا فيجوز الرفع على الخبرِيِّة كما فعل سيبويه .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٤/٢

(٢) ينظر الحاشية ذات الرَّقْم٢ من هوامش المحقق ١٩٩/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٠١/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٦/٢

ـ وفي بعض الأحيان نجد أَنَّنا لا **نستسيغ توجيها إعرابيا** قاله سيبويه بدون تخيل سياق حال ، حتى وإن لم ينص هو عليه ، ففي قول من يقول : « اصنع ما سرَّ أخاك وأحب أبوك الرجلان الصالحان » يذكر أَنَّ الوصفين « الرجلان الصالحان » يجوز فيهما أَنْ نرفع « على الابتداء ، وتنصبه على المدح والتعظيم »[1] . وفي قول من قال « اصنع ما ساء أباك وكره أخوك الفاسقين الخبيثين » ، يذكر نفس الإعراب في الصفتين « الفاسقين الخبيثين » ، الرفع على الابتداء ، والنصب على الذم والشتم[2] .

ولا شك هنا أَنَّ توجيه النصب على المدح والثناء أو الشتم والذم يقتضي لا محالة سياقا يكون واضحا من خلاله ما إذا كان المقام مقام مدح أم ذم ، أو مجرد إخبار .

ونستطرد هنا قليلا ونقول إِنَّهُ من الطبيعي أَنَّ التعظيم والشتم لا يكونان إلا لمن هو معروف عند المُتَكَلِّم ، فإنْ لم يكن من يُمدَح أو يُعَظَّم أو يُشتم معروفا فلا يجوز النصب على التعظيم أو الذم

- يقول سيبويه : « واعلم أَنَّه لا يجوز : مَن عبد الله وهذا زيدٌ الرجلين الصالحين ، رفعتَ أو نصبتَ ؛ لأَنَّكَ لا تُثني إلا على من أثبته وعلمتَه ، ولا يجوز أَنْ تَخلِط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلهما بمنزلة واحدة »[3] .
- ويقول : « تقول : أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ ؛ لم يرد أَنْ يكرره ولا يعرفك شيئا تُنكره ، ولَكِنَّه شتمه بذلك . وبلغنا أَنَّ بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا : ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ لم يجعل الحمَّالة خبرا للمرأة ، ولَكِنَّه كَأَنَّه قال : أذكرُ حمّالةَ الحطب ، شتما لها ، ... وقال عروة الصعاليك العبسي :

[بحر الوافر]

سَقَوني الخمر ثُمَّ تَكَنَّفوني عُداةَ اللَهِ مِن كَذِبٍ وَزورِ

إنَّمَا شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطَبين »[4] .

وهذان مثالان من الأمثلة المُهِمَّة جدا على تأثير سياق الحال على التوجيه الإعرابِيّ ، فتوجيه النصب هنا يتوقَّف على سبق المعرفة بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، وليس سبق المعرفة فقط بل المعرفة العميقة المتكررة التي تتطلب وقتا وفترة من الزمن للوقوف عليها ، وعدم وجود هذه المعرفة المسبقة للمُعَظَّم يمنع التوجيه الإعرابِيّ المرتبط بالتعظيم ، ولاشك أَنَّ هذا أمر غير لغوي لا يتعلق باللُّغَة لا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٥٧/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٥٨/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٦٠/٢ ، ويقال أثبت الشيء : عرفه حق المعرفة . المعجم الوسيط .

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٠/٢

من قريب أو لا من بعيد ، وفي هذا أيضا إشارة من صاحب الكتاب لأهمِيَّة اعتبار الجوانب غير اللُّغَوِيَّة في التوجيه الإعرابِيّ .

وفي النَّصّ الثاني إشارة مُهِمَّة على أَنَّ العلامة الإعرابِيّة لها في حد ذاتها دلالة .

***

ـ حال المُتَكَلِّم ودوره في التوجيه الإعرابِيّ وإثرائه :

يمكن أَنْ ننتقل بالحديث من تأثير السِّياق على التوجيه الإعرابِيّ من دائرة واسعة تشمل السِّياق بكل مكوناته إلى دائرة أكثر تحديدا تختصُّ ببعض عناصر السِّياق ، وبالتحديد عنصرين أثبتنا أهميَّتهما قبل ، وهما : المُتكَلِّم ، والمخاطب . لقد أكَّدنا في موضع سابق من البحث أَنَّ المُتَكَلِّم والمخاطب كانا من أهم العناصر التي اعتمد عليها سيبويه ، وهنا سنُجلي بشكل أوضح دور كل منهما في التوجيه الإعرابي .

من العناصر التي تلعب دورا مهمًّا في إثراء التوجيه الدِّلَالِيّ التي نبَّه عليها سيبويه وأشار إليها مرارا وتكرارا «المُتَكَلِّم» ؛ فهو يلعب دورا مهما في التوجيه الإعرابِيّ ، واستطاع سيبويه في نصوص كثيرة إبراز هذا الدور ، وأبرز أَنَّ المُتَكَلِّم يلعب دورا في التوجيه الإعرابِيّ من خلال :

أ- إمكانيَّة سكوته .

ب- إرادته .

ت- حالته النفسِيَّة ومكنونها .

أ ـ **إمكانيَّة سكوته** :

أما إمكانيَّة سكوت المُتَكَلِّم وأهمِيَّة هذا السكوت في التوجيه الإعرابِيّ فقد أبانها سيبويه في عدة مواضع ، منها مثلا :

ـ عند معالجة سيبويه لكسر همزة إنَّ وفتحها يناقش الخليلَ في بعض الجمل المتعلِّقة بهذه المسألة ، فيسأله عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُم إنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُون﴾[1] [الأنعام : ١٠٩] ، فيقول : « ما

---

(١) الآية بتمامها برواية حفص : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ويقول ابن كثير في تفسيرها : « يقول تعالى إخبارا عن المشركين ، إنَّهُم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي حلفوا أيمانا مؤكدة لئن جاءتهم آية ـ أي معجزة وخارقة ـ ليؤمنن بها ؛ أي ليصدقنها ، قل : إنَّما الآيات عند الله أي قل : يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات ، تعنتا وكفرا وعنادا لا على سبيل الهدى والاسترشاد ، إنَّمَا مرجع هذه الآيات إلى الله ، إنْ شاء جاءكم بها، وإن شاء تركَكم. ... وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، قيل : المخاطب بما يشعركم المشركون وإليه ذهب مجاهد وكَأَنَّه يقول لهم ، وما يدريكم بصدقكم ، في هذه الأيمان التي تقسمون بها». تفسير القرآن ، ٢/٢٦٤ أي أن مقصود قوله تعالى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

منعها (أي : ما منع إنَّ من أنْ تُفتح) أَنْ تكونَ كقولك : ما يدريك أَنَّه لا يفعلُ ؟ فقال (الخليل) : لا يحسن ذا في ذا الموضع ، إِنَّمَا قال : وما يشعركم ، ثُمَّ ابتدأ فأوجب : إنها إذا جاءت لا يؤمنون . ولو قال : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، كان ذلك عذرا لهم » [1] .

إن الخليل هنا يُعَلِّمُ سيبويه ويعلمنا معه **أهميَّة سكتات المُتَكَلِّم ووقفاته في توليد الدِّلَالَة** من خلال الآية السابقة التي تحتوي جملتين «وَمَا يُشْعِرُكُم » و«إِنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُون » التي يمكن أَنْ تنطقا معا دفعة واحدة ؛ فتظهر الجملتان ـ كما قال الخليل ـ كَأَنَّهما عذر للمشركين ، وهذا ليس مراد الآية[2] . أَمَّا الطريقة الصَّوْتِيَّة التي تنسجم مع معنى الخليل الذي قال به فهي : أَنْ تقال الجملة الأولى «وَمَا يُشْعِرُكُم » ثُمَّ يتوقَّف عندها المُتَكَلِّم (القارئ) بنَغْمَة هابطة علامة على انتهاء الجملة وأنَّها جملة مفيدة ، ثُمَّ يُبْدَأُ بالجملة الثانية «إنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُون » كَأَنَّها جملة خبرِيَّة مُبتَدَأٌ بها مستأنفة ولا بد أَنْ يستصحب هذا بنَغْمَة صوتيَّة تعبر عن هذا الابتداء والاستئناف .

وللآية محل النقاش قراءة أخرى عن حفص تفتح فيها همزة إنَّ : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُم أَنَّها ... ﴾ ، يتأوَّلها الخليل على الرجاء ، كَأَنَّه قيل : « لعلها إذا جاءت لا يؤمنون » [3] .

ففي الآية السابقة تُفتح الهمزة إذا كان المعنى عذرا للمشركين (وهذا المعنى ليس المراد من الآية كما قال الخليل) ، وتكسر همزة إنَّ إذا كانت الجملة الثانية جملة مستأنفة . ويرتبط هذا كله بإمكانيَّة سكوت المُتَكَلِّم .

أي: وما يعلمكم ـ أَيها المؤمنون ـ أَن الآيات التي طلبها المشركون ـ إذا جاءَت ـ كما طلبوا ـ يؤْمنون بما دعاهم إِليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ وقد بين الله ـ بهذه الجملة ـ أَن أَيْمَانُهم فاجرةٌ . وأَنَّهُم لا يؤْمنون إذا حُقِّق لهم ما طلبوه. ثم قال ابن كثير عن قراءة الآية ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُم إنها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُون ﴾ بكسر إنها « **على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عن مجيء الآيات التي طلبوها** » . تفسير القرآن ، ٢٦٤/٢ وواضح من كلام سيبويه في هذا الموضع أن الخليل رفض رواية فتح همزة إنَّ ؛ حتى لا تبدو الآية كَأَنَّها عذر للمشركين . **ولكن أئمة التفسير ومنهم ابن كثير خرَّجوا الآية بعيدا عما قصده الخليل هنا** . والآية ـ بكسر همزة إنَّ ـ هي قراءة « ابن كثير ، أبو عمرو ، عاصم، العليمي ، الأعمش ، أبو بكر ، خلف ، يعقوب ابن محيصن ، اليزيدي ، الحسن ، مجاهد » . ينظر: عبد العال سالم مكرم ، د. أحمد مختار عمر : معجم القراءات القُرْآنِيَّة ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط٢، (١٩٨٨م) ، ٣٠٨/٢ ، أما قراءة حفص فهي : « أَنَّهَا ».ويبدو أن قراءة حفص هذه لم تكن مألوفة عند معاصره سيبويه .

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٢٣/٣

(٢) ينظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٨٨م)، ٢٦٤/٢

(٣)سيبويه : الكتاب ، ١٢٣/٣

ومما يستفاد هنا من نصي الخليل أَنَّ كسر همزة إنَّ وفتحها تتأثر بسياق الحال الذي تقع فيه الجملة ، وأنَّ الفتح أو الكسر نفسه قد يكون له تأثير على دلالة الجملة[(١)] .

ـ ومن الأمثلة الأخرى التي تدلُّ على أَنَّ إمكانيَّة سكوت المُتَكَلِّم تؤثر في التوجيه الإعرابِيّ مناقشتُه لقول القائل : « إنَّ يكن إتيان فحديثٌ » ، ففي هذه الجملة يتحكم في صحتها والتوجيه الإعرابِيّ لكلمة « حديث » سكوتُ المُتَكَلِّم ووقوفه . فَإِنَّ الجملة السابقة تكون مكتملة في معناها إذا سكت المُتَكَلِّم على « فحديثٌ » . على اعتبار أَنَّ المُتَكَلِّم جعل « فحديثٌ جوابا ولم يعطف « فحديثٌ » على الاسم الذي قبلها ، وترتفع الكلمة بالابتداء »[(٢)] . وفي مُكْنة المُتَكَلِّم ألا يقف عند « فحديثٌ » ويعطفها على ما قبلها ، وفي هذه الحال تكون الجملة في حاجة إلى ما يكمل معناها ؛ فتكون الجملة « إنْ يكن إتيان فحديثٌ أحدثْك »[(٣)] . ونزيد هذا الأمر وضوحا كما يلي :

» إن يكن إتيانٌ فحديثٌ (مع السكوت بنَغْمَة هابطة) ←—— الجملة صحيحة .

» إن يكن إتيانٌ فحديثٌ (مع السكوت بنَغْمَة غير هابطة من المُتَكَلِّم) ←—— الجملة غير صحيحة وغير مكتملة .

ويمكن أَنْ نضيف معنى ثالثا لهذه الجملة ، فهي يمكن أَنْ تكون ـ بتكييف صوتي ما ـ سؤالا :

» إن يكن إتيانٌ فحديثٌ ؟ (مع النسق النغمي لجملة الاستفهام) ←—— الجملة صحيحة .

وسيبويه وإن لم يُشِر إلى هذه السكتات هنا إلا أَنَّه لا يمكن فهم جملته إلا في ضوء هذا التحليل الصوتي .

ـ ونضرب مثالا ثالثا على أَنَّ سكوت المُتَكَلِّم يُثري التوجيه الإعرابِيّ والنَّحْوِيّ بما قاله سيبويه في قول من قال : « لا آمرًا بالمعروف لك » ، حيث يجوز في **آمر** :

- النصب وظهور التنوين (اسم لا النافية للجنس شبيه بالمضاف) .
- ويجوز البناء على الفتح لاسم لا أيضا .

يقول سيبويه نقلا عن الخليل : « كذلك لا آمِرًا بالمعروف لك ، إذا جعلت بالمعروف من تمام الاسم وجعلتَه متصلا به ، كَأَنَّك قلت : لا آمِرًا معروفا لك . وإن قلت : لا آمِرَ بمعروف ، فكَأَنَّك جئت

---

(١) ومما ذكره الرضي في شرحه على كافية ابن الحاجب ويؤكد تأثير إرادة المتكلم المرتبطة بالسياق قوله : « وتقول : أَمَّا في الدار فإنَّك قائم بالكسر ، **إذا قصدت أنَّ قيام المخاطب حاصلٌ في الدار ، وأمَّا إن أردت أنَّ : في الدار هذا الحديث وهذا الخبر فإنَّه يجب الفتح** » . القسم الثاني ، ج٢ ص ١٢٥٦

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٨٩/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٨٩/٣

بمعروف بعد ما بنيتَ على الأول كلاما »[1] . ونترك المجال هنا للسيرافي ليوضح دور سكوت المُتَكَلِّم في التوجيه الإعرابِيّ وخاصة مع التوجيه الثاني في الجملة السابقة ، يقول : «فَإِنَّ الباء (في قولنا : لا آمر بمعروف) ليست في صلة آمر ، كَأَنَّك قلت : لا آمر ، وسكت وأضمرت خبره ، ثُمَّ جئت بالباء للتبيين ، **كَأَنَّك قلت : أعني بمعروف ، كما تقول : سقيا ، ثُمَّ تجئ بـ « لك » على أعني»**[2] .

ففي قوله «لا آمرَ بالمعروف لك »يمكن أَنْ تُحلل على رأي الخليل وبتفسير السيرافي كما يلي :

« لا آمرَ + (سكتة المُتَكَلِّم بنَغْمَة هابطة تدلُّ على اكتمال المعنى وإضمار الخبر) + بالمعروف (الباء مع كلمة بالمعروف للتبيين ؛ عندما أحس المُتَكَلِّم من هيئة المخاطب أَنَّ المعنى لم يتمكن منه)+ لك » .

وقوله «لا آمرًا بالمعروف لك »

«لا آمرًا بالمعروف (بدون سكتة المُتَكَلِّم كَأَنَّ المُتَكَلِّم قال دفعة واحدة : لا آمرًا معروفا)+ لك »

في حالة النصب يكون التوجيه كما يقول السيرافي أَنْ يبدأ المُتَكَلِّم بالجملة « لا آمرًا » ويسكت مضمرا الخبر وما يكمل اسم لا الشبيه بالمضاف . ثُمَّ يتبين أَنَّ المخاطب لم يفهم المعنى فيأتي بشبه الجملة «بالمعروف» للتبيين .

ب ـ **إرادة المُتَكَلِّم**[3] :

يأتي هنا دور الحديث عن إرادة المُتَكَلِّم وأهميتها في التوجيه الإعرابِيّ والنَّحْوِيّ ، وهو دور جد خطير . أبرزه سيبويه في أقوال كثيرة ، وسنحاول بمَنٍّ من الله وتوفيقه أَنْ نُبرز هذا من خلال أربعة أمثلة :

- **المثال الأول** : ونمهد له بالحديث الآتي :

إذا قال قائل : مررت بفلان فإذا له صوتٌ صوتَ حمار فَإِنَّ كلمة «صوت» يجوز أَنْ تنصب ويجوز أَنْ ترفع ، تنصب على المصدر أو على الحال ، ويكون في « صوت حمار » معنى التشبيه ، فإذا نصبته على المصدر ؛ فتقديره : « فإذا هو يصوت تصويتا مثل الحمار . وإذا نصبته

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٧/٢

(2) الحاشية ذات الرَّقْم٣ ، الكتاب : ٢٧٨/٢

(3) من المفيد أن نُثبت هنا معنى مصطلح «الإرادة» لأهمِيَّة ذلك ، ونقول إِنَّ «الإرادة» هي : « تصميم واعٍ على أداء فعل معين ، ويستلزم هدفا ووسائل لتحقيق هذا الهدف . والعمل الإرادي وليد قرار ذهني سابق . يقول الجرجاني الإرادة صفة توجب للحي حالا يقع منه الفعل على وجه دون وجه ، فهي ميل يعقب اعتقاد النفع». ينظر : مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة : المعجم الفلسفي ، ص ٧

على الحال ؛ فتقديره : فإذا هو مشبها صوت حمار ، أو ممثلا صوت حمار . ويجوز أَنْ تنصب بإضمار فعل على تقدير : فإذا له صوت يصوت صوت حمار »[١] . والرفع على أساس أَنَّه نعت أو بدل .

واختلف النُّحَاة في الوجه الراجح منهما ؛ فقيل «إنَّ الرفع مرجوح ؛ لأَنَّ الثاني ليس هو الأول والنصب السالم من هذا المجاز ، وذهب ابن عصفور إلى أنَّهما متكافئان ؛ لأَنَّ في النصب التقدير ، والأصل عدمه »[٢] . ويعلق د . فاضل السامرائي على هذا بقوله : «وفي هذا الترجيح نظر ؛ لأَنَّ معنى الرفع غير معنى النصب ؛ **وأنت تعبِّر بحسب المعنى الذي تريد ؛ فلا تكافؤ ولا ترجيح**»[٣] .

وما نريد أَنْ نثبته هنا أَنَّ توجيه النصب والرفع يتوقَّف على إرادة المُتَكَلِّم وسياق حاله ، فهو الذي يُعَبِّر عن المعنى الذي يريده كما يقول الدكتور السامرائي ، وهذا ما يفهم من كلام سيبويه على جملة «له صوتٌ صوتَ حمار »في باب : «ما ينتصب فيه المصدر المشبه به »إذ يقول : «فَإِنَّما انتصب هذا لأَنَّكَ مررت به في حال تصويت ، **ولم ترِد أَنْ تجعل الآخر صفة للأول ولا بدلا منه**»[٤] .

إذا اتجهت الإرادة بعد «إعمال الذهن » و «بدافع السِّياق »إلى النعت أو البدلية بما لهما من معاني سِيَاقِيَّة[٥] فالرفع ، وإذا اتجهت الإرادة إلى الحال أو المصدر ، بما يتضمنان من معنى التشبيه فالنصب .

ومن الأمور التي يُوَجَّهُ النظرُ إليها أَنَّ سيبويه يقرِّر أَنَّ حالة الرفع في الجملة السابقة وما يشبهها مثل : «فلان له علمٌ علمُ الفقهاء ».و«له حسبٌ حسبُ الصالحين » تعبر عن أمور ثابتة مستكملة في المخاطب ، فإذا أراد المُتَكَلِّم أَنْ يُعَبِّر عن هذا الثبات والاستكمال لجأ إلى حالة الرفع هذه ، وإن أراد المُتَكَلِّم في نفس الجمل السابقة أَنْ يُعَبِّر عن أمور لم تصل إلى درجة الثبات والاستكمال وتتعرض للتجدد والطروء استخدم حالة النصب . هذا ما يُفْهَم من نصّ سيبويه التالي :

---

(١) ابن يعيش : شرح المُفَصّل للزمخشري ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمِيَّة بيروت لبنان ، ط١ ، (٢٠٠١م)، ٢٨٤/١

(٢) خالد الأزهري : شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو ، دار الكتب العلمِيَّة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠٠م)، ٥٠٧/١

(٣) معاني النحو : ١٧٤/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٦/١ ، ويقول الأستاذ هارون في الحاشية ذات الرَّقْم«١ »من نفس الصفحة : « في إحدى النسخ «وبدلا منه ». قال السيرافي : يعني أنك لم ترد أن تجعله نعتا ولا بدلا منه ؛ فترفع».

(٥) سنتكلم عنها بالتفصيل في «السِّياق والتوابع ».

« ... وذلك قولك : له عِلْمٌ عِلْمُ الفُقَهاءِ ، وله رَأْيٌ رأيُ الأُصَلاءِ . وإنَّما كان الرفعُ فى هذا الوجهَ لأَنَّ هذه خِصالٌ تَذكرها فى الرجل ، كالحِلم والعلم والفضل ، ولم ترد أَنْ تُخبِر بأنّك مررت برجل فى حال تعلُّمٍ ولا تفهُّمٍ ، ولكنّك أردت أَنْ تَذكر الرجل بفضلٍ فيه ، و أَنْ تَجعل ذلك خَصلةً قد استكملها ، كقولك : له حَسَبٌ حَسَبُ الصالحينَ ؛ لأَنَّ هذه الأشياءَ وما يُشْبِهها صارت تَحليةً عند الناس وعلاماتٍ . وعلى هذا الوجهِ رُفِع الصوتُ . وإن شئت نصبتَ فقلت : له عِلْمٌ علمَ الفقهاءِ ، كأَنَّك مررت به فى حال تعلُّمٍ وتفقُّهٍ ، وكأَنّه لم يَستكمل أَنْ يقال : له عالِمٌ . وإِنَّمَا فُرق بين هذا وبين الصَّوت لأَنَّ الصوت عِلاجٌ ، وأنّ العِلْم صار عندهم بمنزلة اليَدِ والرِّجلِ . ويدلُّك على ذلك قولهم : له شَرَفٌ ، وله دِينٌ ، وله فَهمٌ . ولو أرادوا أنّه يُدْخِلُ نفسَه فى الدِّينِ ولم يَستكمل أَنْ يقال : له دِينٌ ، لقالوا : يَتديَّنُ وليس بذلك ، ويَتشرَّفُ وليس له شَرَفٌ ، ويَتفهَّمُ وليس له فَهَمٌ . فلمّا كان هذا اللفظُ للّذين لم يَستكملوا ما كان غيَر علاجٍ ، بَعُدَ النصبُ فى قولهم : له عِلْمٌ علمُ الفقهاءِ . وإذا قال : له صوتٌ صوتَ حمارٍ ، فإنَّما أَخبر أنَّه مرّ به وهو يصوِّت صوتَ حمارٍ . وإذا قال : له علمٌ علمُ الفقهاءِ ، فهو يُخبِر عمَّا قد استقرّ فيه قبل رؤيته وقبل سَمْعِه منه ، أو رَآه يَتعلَّم ؛ فاستدَلّ بحُسْن تعلُّمهِ على ما عنده من العلم ، ولم يردْ أَنْ يُخبِر أَنَّه إنَّمَا بدأَ فى عِلاج العلم في حال لُقيِّه إيّاه ؛ لأَنَّ هذا ليس مما يُثْنَى به ، وإنَّما الثناءَ فى هذا الموضع أَنْ يُخبِر بما استَقَرّ فيه ، ولا يُخبِر أنّ أَمْثَلَ شيء كان منه التعلُّمُ فى حال لقائِه » [1] .

إن هذا النَّصّ يدل على عبقرية سيبويه في الملاحظة ، ومعايشته التامة لنصوص اللُّغَة كما أثبتنا قبلُ ، ويدل على أَنَّ **إرادة المُتَكَلِّم** المتحكِّمة في اختيار الوجه الإعرابِيّ المناسب **مقيَّدة بسياق الحال** وبالتحديد العلاقة بين المُتَكَلِّم والمُتَحَدَّثِ عنه ، فلكي يختار المُتَكَلِّم علامة النصب أو الرفع لابد أَنْ يكون مُلمًّا بحال من يتحدَّث عنه . فالاختيار هنا ليس عشوائيا بل مقيَّدا بسياق الحال .

ويؤخذ من هذا النَّصّ عدة فوائد أخرى :

١ـ الخلفيَّة الاجتِماعِيَّة والثقافيَّة لصاحب اللُّغَة تؤثِّر في التوجيه الإعرابِيّ ، وليس فقط ملابسات الحال الوقتيَّة اللحظِيّة ، وجملة سيبويه « لأَنَّ هذه الأشياءَ وما يُشْبِهها صارت تَحليةً عند الناس وعلاماتٍ » في النَّصّ السابق دليل على ذلك . وأَنَّ لتلك الخلفيَّة تأثيرا على إرادة المُتَكَلِّم في اختيار الوجه الإعرابِيّ المناسب .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٦١/١ ـ ٣٦٢

فعندما أقول عن فلان : له علمٌ علمُ الفقهاء ؛ فهذا يعني أَنَّه قد استقرَّ عندي وثبت لديَّ من خلال مرَّات سابقة ومواقف عديدة أَنَّ هذا المخاطب الذي أقول في حقِّه هذا الكلام له فعلا علم الفقهاء . أَمَّا قولنا : له علمٌ علمَ الفقهاء ؛ فهذا الضبط يعني نقيض ما سبق ، وقد يعني هذا الضبط في سياق آخر السخرية والاستهزاء .

٢ـ التوجيه الإعرابِيّ بدون ربط بالسِّياق يؤدي إلى « فوضى دلالية » ، كما أشار إلى ذلك صاحب النحو الوافي[١] .

٣ـ الرفع يرتبط دِلاليًّا بما هو ثابت ودائم ، والنصب يرتبط بما هو متجدِّدٌ وطارئ وغير مستكمَل وأنَّ «المصادر المرفوعة تدلُّ على الثبوت ، والمصادر المنصوبة تدل على الحدوث ؛ فبالرفع يكون المعنى أَنَّ حالته الثابتة كذلك (؛ أي : تصويته كذلك ...) ، وأما حالة النصب فلبيان حالة موقوتة »[٢] .

٤ـ العلامة الإعرابِيّة لها قيمة دلالية مؤثِّرة مرتبطة بها وتُسْتَحْضَرُ في ذهن أبناء اللُّغَة عند ذكر التركيب المشتمل عليها .

٥ـ ويوقفنا النَّصّ السابق أيضا على خطورة إهمال السِّياق في «عَمَلِيَّة تعليم القواعد النحوِيَّة » ؛ فتعليم القواعد النحوِيَّة كمجرد قواعد جامدة ، بدون ربطها بالسِّياقات الاجتِماعِيَّة المختلفة يُهدر كثير من الفوائد ويوقعنا في فوضى كبيرة ، وإهمال هذا الجانب الاجتماعِيّ في دراسة القواعد يجعلنا نتساءل : «ما هي الفائدة من اتقان تراكيب اللُّغَة والمقدرة التامة على تركيب الجمل الصحيحة إذا لم يعرف المتحدِّث بها كيف يستخدم الأشكال المناسبة في المواقف المختلفة ، و أَنْ يغير تلك الأشكال بتغير نوع الحدث ، أو موضوعه ، أو الغرض منه أو مناسبته أو المشاركين فيه ، إِلى آخر مكونات الحدث العشرة التي أشرنا إليها سابقا ؟ فكلنا يعرف بالسليقة مثلا أَنَّنا ـ حتى في المجتمع الواحد ـ نستخدم أساليب وطرائق خطاب تختلف باختلاف الإنسان الذي نخاطبه . فالأساليب والطرائق التي نستخدمها مع الغريب غير تلك التي نستخدمها مع القريب ... وكثيرا ما يعتبر استخدام الصيغة الخاطئة إهانة للمخاطب ، أو أَنَّها على الأَقَلّ يمكن أَنْ تولد انطباعا خاطئا عن المُتَكَلِّم ، أو تسبب نوعا من سوء التفاهم ، وهذا بالضبط بجميع تعقيداته ما يعنيه القول العربي المأثور : لكل مقام مقال »[٣] . واهتمام سيبويه بهذا الجانب الاجتماعِيّ هنا يستحثنا على مزيد اهتمام بهذا الجانب .

---

(١) يراجع تمهيد هذا البحث ، والنحو الوافي ، ٤/٤٧٧

(٢) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢/١٧٥

(٣) د. نايف خرما ، د. علي حجاج : اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، ص ٤٨

- **المثال الثاني :**

الجملة التالية : «ضُرِب به ضربتين » يجوز فيها أَنْ تقال كما هي هكذا ، ويجوز أَنْ يقال فيها «ضُرِب به ضربتان » ، ويتوقَّف الاختيار هنا على إرادة المُتَكَلِّم . نقول هذا التركيب بالرفع إذا أردنا ذكر عدد مرَّات الضرب ، وكَأَنَّ الجملة إجابة على سؤال «كم » . يقول سيبويه : «وتقول على قول السائل : كَمْ ضَربةً ضرب به ، وليس في هذا إضمار شيء سوى كَمْ والمفعولُ كَمْ ، فتقول : ضُرِبَ به ضربتانِ ، وسير عليه سَيْرتانِ ؛ لأَنَّهُ أراد أَنْ يبيَّن له العدّةَ ، فجرى على سعة الكلام والاختصار ، ... وإِنَّمَا المعنى : كَمْ ضُرِبَ الذى وقع به الضَّربَ من ضربةٍ ، فأَجابه على هذا المعنى ، ولَكِنَّه اتَّسع واختَصر » [١] .

أي أَنَّ المخاطب والمستمع أعطى إجابة تناسب السِّياق الذي قيلت فيه[٢] .

ونقول الجملة «ضُرِب به ضربتين » إذا أردنا ذكر المدة الزَّمَنِيَّة التي استغرقها الفعل ، كَأَنَّه قال هنا : ضرب به وقت ضربتين . يقول سيبويه : «وتقول : ضرب به ضربتين ؛ أي : قدر ضربتين من الساعات ، كما تقول : سير عليه ترويحتين ، فهذا على الأحيان » [٣] . ولا شكَّ أَنَّ اختيار التوجيه هنا يتوقَّف على إرادة المُتَكَلِّم المرتبطة بسياق الحال .

فإذا اتجهت إرادة المُتَكَلِّم المرتبطة حتما بالسِّياق إلى ذكر مرَّات حدوث الفعل كان الرفع ، وإذا اتجهت الإرادة لذكر الفترة الزَّمَنِيَّة لذكر الفعل كان النصب .

- **المثال الثالث :**

تناول سيبويه بالتحليل الإعرابِيّ كلمة «سلاما »في باب «من المصادر ينتصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره» . ناقش فيه حالة النصب والرفع لهذه الكلمة وأمثالها ، فذكر أَنَّ هذه الكلمة في حالة النصب تكون منصوبة بـ «فعل مخزول » . ونقل سيبويه عن أبي الخطَّاب أَنَّ حالة النصب تجعل الكلمة «سلاما »مرتبطة بمعنى «البراءة والتسلُّم » من جهة «المُتَكَلِّم » . يقول : «وزعم أبو الخطاب أَنَّ مثله قولك للرجل : سلامًا ، تريد تسلُّما منك ، كما قلت : براءة منك ، لا أَلتبس بشيء من أمرك ... وزعم أَنَّ هذه الآية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان : ٦٣] بمنزلة ذلك ؛ لأَنَّ الآية فيما زعم مكيَّة ، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أَنْ يسلموا على المشركين ؛ ولَكِنَّه على قولك : براءةً منكم

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٩/١ ـ ٢٣٠

(٢) وعلى هذا التخريج تخرج كل الجمل المشابهة : «سير عليه خرجتان ، صيد عليه مرتان ، بسط عليه مرتان ، سير عليه مرتان ...» .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٠/١

وتسلُّما ، لا خير بيننا وبينكم ولا شر »[1] . أي أَنَّ « سلاما » منصوبة لارتباطها بمعنى « البراءة والتسلُّم » من جهة « المُتَكَلِّم » فقط ، ومنها آية سورة الفرقان بدليل قرينة سياق الحال التي أثبتها أبو الخطاب .

وقد تابع أبا الخطاب في هذا سيبويهُ ؛ لأَنَّهُ لم يعلِّق على هذا الكلام .

وفي حالة الرفع قال سيبويه : « واعلم أَنَّ من العرب من يرفع « سلاما » إذا « أراد معنى المبارأة » ... سمعنا بعض العرب يقول لرجل : لا تكونَنَّ منِّي في شيء إلا سلامٌ بسلام ، أي أمري وأمرُك المبارأةُ والمتاركةُ »[2] .

أي أَنَّ : حالة الرفع في « سلاما » ترتبط بالمعنى الذي يريده المُتَكَلِّم ، وهو هنا معنى المبارأة والمتاركة . والفرق بين « البراءة » في حالة النصب ، و« المبارأة » في حالة الرفع هو أَنَّ البراءة من جانب المُتَكَلِّم فقط ، أَمَّا المبارأة فهي من الطرفين ؛ فالمبارأة مصدر الفعل « بَارَأَ » على وزن فاعل الذي من معانيه أَنَّهُ يدل على المشاركة ، وهو فعل يقع بين اثنين .

وما أخطر عبارة سيبويه التي نقلها عن أبي الخطاب التي قال فيها : « لأَنَّ **الآية فيما زعم مكيَّة ، ولم يؤمر أَنْ يُسلِّموا على المشركين** » ؛ ففي هذه الجملة توظيف لسياق الحال بشكل جيد ، فالنصب على تقدير : « نسلم منكم سلامًا ونبرأ منكم براءة » من جهة واحدة جهة المسلمين ؛ لأَنَّ العلاقة بين المسلمين والكُفَّار علاقة حرب واقتتال ، والمسلمون في الجانب الأضعف في هذا الوقت ، أَمَّا الرفع فعلى تقدير « أمري وأمرك سلامٌ » على المبارأة ؛ أي أَنَّ هناك مشاركة متبادلة بين الطرفين تقتضي وضعا متساويا حربيًّا وقتاليًّا بين الطرفين يسمح بهذه المشاركة .

ولعلني هنا أستنتج استنتاجا ، قد أكون مصيبا فيه وقد أكون مخطئا ، وهو : « إِنَّ من دلالات علامة الرفع العامة الدِّلَالَة على القوة ، ومن دلالات علامة النصب العامة الدِّلَالَة على الرقة واللين والضعف » .

- **المثال الرابع :**

قد تأتي الجملة الاسمِيَّة وخبرها طلبي : أمر ، استفهام ... ؛ وفي هذه الحالة ـ كما يقول النُّحَاة ـ يجوز في الاسم المتقدم الرفع أو النصب ، مثل : الحيوان ارحمه ، أطائرة ركبتها ؟ ويكون التوجيه :

- الرفع إذا اعتبرنا الاسم المتقدم مبتدأ وما بعده خبر .
- النصب إذا أعربنا الاسم المتقدم مفعولا به لفعل محذوف وجوبا .

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٢٤ ـ ٣٢٥

(2) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٢٦

واختيار التوجيه الإعرابِيّ يترتب على تحديد نوع الجملة ؛ إذ «يترتب على أحدهما أَنْ تكونَ الجملة اسمية وعلى الآخر أَنْ تكونَ الجملة فعلِيَّة مع صحتهما ؛ لهذا يقول البلاغيون : إِنَّ أحسن الأمرين هو **ما يتفق مدلوله مع غرض المُتَكَلِّم ، فإِنْ لم يعرف غرضه فهما سيان** »[1] . فإذا كان المراد تنبيه المخاطب للمبتدأ يختار الرفع ، يقول سيبويه : «قولك عبد الله اضربه ، ابتدأت عبد الله فرفعته بالابتداء ، ونبَّهت المخاطب له لتعرِّفَه باسمه ، ثُمَّ بنيت الفعل عليه »[2] . وإذا كان المراد الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل كان النصب .

أي أَنَّ إرادة المُتَكَلِّم وما يريده هي المتحكِّمة والغالبة[3] .

ونضيف معنى آخر لعلامة الرفع نستخلصه من هذا النَّصّ هو معنى التنبيه . وبذلك ومن خلال مجموع النصوص السابقة نكون قد رصدنا لعلامة الرفع ثلاث دلالات عامَّة : الثبات والاستمراريَّة والدِّلَالَة على القوة والتنبيه .

ج -حالة المُتَكَلِّم النفسيَّة ومكنونها :

ومما يُثري التوجيه الإعرابِيّ ويؤثِّر فيه ويتعلق بالمُتَكَلِّم ـ حالتُه النفسِيَّة وما تنطوي عليه نفسه من معاني . ومن الغريب أَنْ نقول هنا إِنَّ التوجيه الإعرابِيّ قادر على أَنْ يعكس ما يدور في نفس المُتَكَلِّم من معاني وأحاسيس ، وأَنَّ العلامة الإعرابيّة قادرة على إبراز ذلك .

ـ هذا ما فهمناه من نصّ سيبويه التالي :

«ومما يَنتصب على إضمار الفعل المستعمَل إظهارُه ، أَنْ ترى الرجلَ قد قَدِمَ من سفرٍ فتقولَ : **خَيْرَ مَقْدَمٍ** . أو يقولَ الرجلُ : رأيتُ فيما يرى النائمُ كذا وكذا ؛ فتقول : خيرًا وما سَرَّ ، وخيرًا لنا وشرًّا لعدوّنا . وإن شئت قلت : **خيرُ مَقدَمٍ ، وخيرٌ لنا وشرٌّ لعدوّنا .** أَمَّا النَّصبُ فكأَنَّه بناه على قوله قَدِمْتُ ، فقال : قَدِمْتَ **خيرَ مَقْدَمٍ** ، وإن لم يُسمَعْ منه هذا اللفظُ ، فإِنَّ قدومَه ورؤيتَه إيّاه بمنزلة قوله : قدمتُ . وكذلك إِنْ قيل : قَدِم فلانٌ ، وكذلك إذا قال : رأيتُ فيما يرى النائم كذا وكذا ، فتقول : خيرًا لنا وشرّا لعدوّنا . فإذا نصبَ فعلى الفعل . وأمّا الرفع فعلى أَنَّهُ مبتدأ أو مبنيٌّ على مبتدأ ، ولم يرد أَنْ يحمله على الفعل ، ولَكِنَّه قال : هذا خيرُ مَقْدَمٍ ، وهذا خيرٌ لنا وشرٌّ لعدوّنا ، وهذا خيرٌ وما سَرَّ . ومن ثَمّ قالُوا : مصاحَبٌ مُعانٌ ، ومبرورٌ مأجورٌ ، كَأَنَّه قال : أنت مصاحَبٌ ، وأنت

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ١٢٩/٢ الحاشية ذات الرَّقْم٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٣٨/١

(٣) ويمكن أن نعطي مثالا آخر على إرادة المُتَكَلِّم في ٦٩/١ عند مناقشته لجملة «ما زيدٌ كعمرو ولا شبيهًا به» .

مبرور . **فإذا رفعتَ هذه الأشياءَ فالذى فى نفسك ما أظهرتَ ، وإذا نصبت فالذى فى نفسك غيرُ ما أظهرتَ** » [١] .

أهمُّ ما في النَّصّ السابق جملته الأخيرة ، حيثُ تعبِّر العلامةُ الإعرابيّة عن مكنون نفس المُتَكَلِّم ، بمعنى أَنَّ المُتَكَلِّم إذا رأى رجلا قدم من السفر قال له : « خيرَ مقدم » بنصب كلمة « خير » . وعندما يسمع المُتَكَلِّم رجلا يقول : رأيتُ فيما يرى النائم كذا وكذا ؛ فيقول المُتَكَلِّم : « خيرًا وما سَرَّ » ، بنصب كلمة « خير » ، ويجوز الرفع في الجملتين السابقتين ؛ فيقول المُتَكَلِّم : « خيرُ مقدم » و« خيرٌ وما سَرَّ » .وتفسير هذا التوجيه كما يلي :

- تكون حالة النصب على إضمار فعل ، كَأَنَّه قيل : قدمتَ خيرَ مقدم ، **ويكون ما في نفس المُتَكَلِّم غير ما أظهر** .
- وتكون حالة الرفع على اعتبار أَنَّ الكلمة (خير) خبر لمبتدأ محذوف ، كَأَنَّنا قلنا : هذا خيرُ مقدم ، وهذا خيرٌ لنا وشرٌ لعدونا ، **ويكون ما في نفس المُتَكَلِّم هو ما أظهر** .

ولم يفسر سيبويه بشكل واضح علاقة النصب بعدم إظهار المُتَكَلِّم ما في نفسه ، وعلاقة الرفع بإظهار المُتَكَلِّم ما في نفسه . وإذا كان لا بدَّ من اجتهاد وتعليل لذلك فأقول سائلين الله السَّداد :

ـ تعليل الرفع : يمكن أَنْ نعلل علاقة الرفع بإظهار ما في نفس المُتَكَلِّم في جملتي « خيرُ مقدم » و« خيرٌ وما سر » (بتقدير مبتدأ تقديره هذا) بأن المُتَكَلِّم في حالة الرفع يقدر جملة اسمية يبدؤها بمبتدأ ، ولا بد أَنْ يكون هذا المبتدأ **معرفةً ومعروفا بين المُتَكَلِّم والمخاطب** ، (والذي يمثِّله في هذه الحالة كلمة « هذا » التي تعود على ما يُمليه سياقُ الحال « القدوم ، رؤية النائم ... ») ؛ ولا بدَّ أَنْ يكون المبتدأ معروفا ؛ إذ لا يجوز الابتداء بنكرة كما هو معروف ، ثُمَّ يأتي الخبر الذي يحمل فائدة لا يعلمها المخاطب ؛ إذ لو كان يعلم المخاطب هذه الفائدة لما كانت للجملة الاسمِيَّة كلها فائدة ، والفائدة التي يمكن أَنْ يحملها خبر الجملة الاسمِيَّة في ظل سياق حال كاشف ولا يعرفها المخاطب لابد أَنْ تكونَ نابعة من نفس المُتَكَلِّم وغير معروفة للمخاطب ، أي أَنَّ ما في نفس المُتَكَلِّم يظهر من خلال حالة الرفع .

ويمكن أَنْ نقدم تعليلا ثانيا لحالة الرفع مستغلين عبارة وردت في إحدى نسخ الكتاب الفرعِيَّة أوردها الأستاذ عبد السلام هارون في الهامش عند ذكر سيبويه تفسير حالة الرفع ، يقول : « **وأما الرفع فعلى أَنَّهُ جعل ذلك أمرا ثابتا** » [٢] ، أي أَنَّ « خيرُ مقدم » و « خيرٌ وما سرّ » و« وهذا خيرٌ لنا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٠/١ ـ ٢٧١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٠/١ الحاشية ذات الرَّقْم ٤

وشرٌّ لعدوّنا »أمر ثابت عند المُتَكَلِّم ، والأمر الثابت لكي يثبت يجب أَنْ يتمكن من النفس ويستقر فيها وهذا ما أثبتناه قريبا من دلالة علامة الرفع على الثبات .

هذا الثبات والاستقرار الذي تفيده الجملة الاسمِيَّة استغلَّه الإمام الزَّمَخْشَرِيّ ببراعة واقتدار ـ مستفيدا هذا من سيبويه ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ البقرة : ١٤ فقال : «فإنْ قلت : لِمَ كانت مخاطبتهم المؤمنين **بالجملة الفعلِيَّة ، وشياطينهم بالاسميَّة محقَّقة بأن** ؟ قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرًا بأقوى الكلامين وأوكدهما ... **وهكذا كل قول (بالجملة الفعلِيَّة) لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد** . وإمَّا لأنَّهُ لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة .... **وأما مخاطبة إخوانهم (بالجملة الاسمِيَّة) فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر ، والبعد من أَنْ يزلُّوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به ، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبَّل منهم ، فكان مظنّة للتحقيق ومئِنَّة للتوكيد**» [(١)] .

ـ تعليل النصب : أَمَّا تعليل النصب في «خيرَ مقدم » بتقدير فعل «قدمت خيرَ مقدم » فيكون على اعتبار «خير » مفعول مطلق ؛ أي أَنَّ خير هنا تؤكد الفعل «قدم » ، وهذا أمر بعيد عن المُتَكَلِّم وما يدور في نفسه .

وفي موضع ثان نجد سيبويه يكرر نفس العبارة التي ذكرها في نهاية النَّصّ السابق عند استشهاده بقول عمر بن أبي ربيعة :

هَل تَعرِفُ اليَومَ رَسمَ الدارِ وَالطَلَلا كَما عَرَفتَ بِجَفنِ الصَيقَلِ الخِلَلا

دارٌ لِمَــرَوَةَ إِذ أَهلي وَأَهــــلُهُمُ بِالكانِســـــيَّةِ نَرعى اللَهوَ وَالغَزَلا

[بحر البسيط]

يقول : «فإذا رفعت (دار) **فالذي في نفسك ما أظهرت ، وإذا نصبت فالذي في نفسك غيرُ ما أظهرت**» [(٢)] .

---

(١) الكشاف : ٦٥/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٢/١ وهذا النص من النصوص التي تدل على أَنَّ **علامة الرفع ـ بوجه عام ـ ترتبط بما هو ثابت ومستقر في نفس المُتَكَلِّم ، فهي دليل استقرار المعنى وثباته عنده** . وهذه نتيجة مُهِمَّة نخرج بها من نَصَّي سيبويه السابقين . ويوجد نصّ ثالث في هذه الجزئِيَّة وإن لم يكن الكلام فيه واضحا تماما نقله سيبويه عن يُونُس تعليقا على قول النابغة :

أَقارِعُ عَوفٍ لا أُحاوِلُ غَيرَها وُجوهَ قُرودٍ تَبتَغي مَن تُجادِعُ

[بحر الطويل]

يقول : « وزعم أنك شئت رفعت البيتين جميعا على الابتداء (يقصد كلمة وجوه في البيت السابق التي هي منصوبة على الذم) ، تُضمر في نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعا»، ٢/ ٧١

ونعلق هنا تعليقا بسيطا قائلين إنَّ هذه النتيجة التي أقرها سيبويه من ربط علامة الرفع بما هو مستقر وثابت عند المُتَكَلِّم ليست وليدة دراسة نصّ عابر أو نصين ، بل لا بدَّ أنَّها ناتجة عن تتَبُّع للتراكيب المشابهة المرفوعة في النصوص الحَيَّة المنطوقة في سياقاتها المختلفة ، وهو بعد هذا التتَبُّع والتقصي والإحصاء ربط هذه العلامة بهذه الدِّلَالَة السِّياقِيَّة . ونحنُ متأكِّدون من هذا التتَبُّع والتقصي لسبق معرفتنا بمنهج سيبويه الذي شرحناه قبل .

ـ ونضرب مثالا آخر على أَنَّ التوجيه الإعرابِيّ يعكس الحالة النفسِيَّة للمتكلم :

يناقش سيبويه في أحد مواضع الكتاب الإعراب في الجملتين الآتيتين :

- قد خيف منه خوفٌ ، وقد قيل في ذلك قولٌ .

ويجوز أَنْ تكونَ الجملتان : قد خيف منه خوفًا ، وقد قيل في ذلك قولًا .

والنص الذي وردت فيه هذه المناقشة هو : «مما يَسْبِقُ فيه الرَّفعُ لأنَّهُ يراد به أَنْ يكون فى موضع غير المصدر قوله : قد خِيفَ منه خوفٌ ، وقد قيل فى ذلك قولٌ . إنَّما يريد : قد خيف منه أمرٌ أو شيءٌ ، وقد قيل فى ذلك خيرٌ أو شرٌ .... وإِنْ حملتَه على ما حملت عليه السَّيرَ والضربَ في التوكيد ، حالًا وقع فيه الفعلُ ، أو بدلاً من اللفظ بالفعل ؛ **نصبتَ**»[١] .

ما يفهم من هذا الكلام هو أَنَّنا إذا نصبنا كلمة «خوف»في جملة «قد خيف منه خوفًا»يكون توجيهنا لها أَنَّنا يمكن أَنْ نعتبرها «حالا»تبين هيئة صاحبها الذي يظهر في مظهر من تبدو عليه علامات الخوف الظاهرة ، وقد نعرب «خوفًا»مفعولا مطلقا يؤكد الفعل «خاف»ويؤكد حدث الخوف في قلب من تشمله الجملة ، وإذا رفعنا ؛ نكون قد خرجنا عن معنى الحاليَّة ومعنى المفعول المطلق إلى معنى آخر بعيد عنهما ، وتكون معنى جملة «خيف منه خوفٌ ؛ يراد «أمرٌ مخوف».**ولم ترد الخوف الذي في القلب**»[٢] . أي أَنَّ **النصب ساهم في إظهار ما في القلب** ، أَمَّا الرفع فإِنَّنا **ننقل الخوف لأمر بعيد عن القلب والنفس .**

وليس في مُكنة العلامة الإعربية فقط أَنْ تعكس الحالة النفسِيَّة لدى المُتَكَلِّم كما دلَّلنا على ذلك فيما سبق بل **أيضا يمكنها أَنْ تعكس حالة الشك أو اليقين التي قد يتعرض لها أثناء الكلام ؛ أي أَنَّ العلامة الإعربية يمكنها الاستجابة اللحظِيّة والفوريَّة لما يحدث في نفس المُتَكَلِّم من شك ويقين** وتعكس ذلك بوضوح .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٣/١

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ١٣١/٢

دليل هذا ما ناقشه سيبويه في باب «هذا باب الأفعال التي تستعمل وتلغى»، حيث أورد في هذه الباب مجموعة الأفعال : «ظنّ ، حسب ، خال ، رأى ، زعم».وأشار إلى أَنَّ إعمال هذه الأفعال وتقديم معمولها عليها يتوقَّف على ما في نفس المُتَكَلِّم من شك أو يقين ، فيقول :

«... وتقول : زيدٌ أظنّه ذاهبا . ومن قال : عبدَ الله ضربتُه نصَبَ ؛ فقال : عبدَ الله أظنّه ذاهبا . وتقول : أظنّ عمرًا منطلقا وبكرا أظنّه خارجا ، كما قلت : ضربت زيدًا وعمرًا كلمته ، وإن شئتَ رفعتَ على الرفع فى هذا . فإن ألغيتَ قلت : عبدُ الله أظنُّ ذاهبٌ ، وهذا إخالُ أخوك ، وفيها أُرَى أبوك . **وكلَّما أردتَ الإلغاء فالتأخيرُ أقوى .** وكلٌّ عربىٌّ جَيِّد . وقال اللعين يهجو العجاج :

بِالأراجيزِ يا ابنَ اللُّؤْمِ توعدُني وفى الأراجيز خِلْتُ اللُّؤْمُ والخَوَرُ
[بحر البسيط]

أنشدَنَاه يُونُس مرفوعا عنهم . **وإِنَّمَا كان التأخير أقوى لأنَّهُ إِنَّمَا يجيء بالشكّ بعدما يَمْضِى كلامُه على اليقين ، أو بعدما ما يَبتدئُ وهو يريد اليقينَ ثُمَّ يُدْرِكُه الشكُّ ،** كما تقول : عبدُ الله صاحبُ ذاك بلغَنى ، وكما قال : من يقول ذاك تَدرِى ، فأَخَّرَ ما لم يَعمَلْ في أوله كلام . **وإنَّمَا جعل ذلك فيما بلغه بعدما مَضى كلامُه على اليقين ، وفيما يَدرى فإذا ابتدأ كلامَه على ما فى نيّته من الشكَ أَعْمَلَ الفعلَ قدّم أوْ أخَّر** ، كما قال : زيدًا رأيتُ ، ورأَيتُ زيدا» [1] .

إن جملة «عبد الله أظنّ ذاهبٌ»تدل على أَنَّ حالة اليقين كانت مسيطرة على المُتَكَلِّم في بداية الكلام ، ثُمَّ طرأت حالة الشك عليه ، أَمَّا جملة «أظنّ عبدَ الله ذاهبا»تعني أَنَّ حالة الشك مسيطرة على المُتَكَلِّم قبل بداية الجملة وفي أثنائها .

إن كلام سيبويه هنا يدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك أو المماراة على أَنَّ لسياق الحال دورا مهما على الجملة إعرابا ودِلالةً .

وفي هذا النَّصّ نلاحظ أنَّ العلامة الإعرابِيّة بالتعاون مع تقديم المعمولات وتأخيرها عبرت عن حالة الشك واليقين التي عليها المُتَكَلِّم .

ـ المخاطب ودوره في التوجيه الإعرابِيّ وإثرائه :

لا نريد بعد حديثنا عن دور المُتَكَلِّم في التوجيه الإعرابِيّ أَنْ نغفل دور المخاطب في هذه العَمَلِيَّة ، وهو دور أيضا مُهِمّ ، وله خطورته ، فقسم كبير من قواعد اللُّغَة يقع تحت سيطرته ، ويتَأَثَّر به .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٢٠/١

يتمثل دور المخاطَب أو المُحَدَّث أو المخبَر في التوجيه الإعرابِيّ في «إمكانيَّة فهمه للكلام أم لا» ؛ بمعنى : هل هذا الكلام يمكن أَنْ يفهمه المخاطب أم لا . ففي بعض الأحيان يُعرِضُ سيبويه عن توجيه إعربي ما ويقبل آخر ، والسبب أَنَّ الأول لا فائدة فيه للمخاطب ، وفي الثاني تكمن الفائدة له . ونضرب مثالا على ذلك .

في باب البدل أورد سيبويه مجموعة الجمل التالية :

- بعت متاعك أسفلَه قبل أعلاه .
- واشتريت متاعك أسفلَه أسرع من اشترائي أعلاه .
- واشتريت متاعك بعضَه أعجل من بعض .
- وسقيت إبلك صغارَها أحسن من سقيي كبارها .
- وضربت الناس بعضَهم قائما وبعضهم قاعدًا .

الكلمات «أسفله ، بعضه ، صغارها ، بعضهم» **لا يجوز فيها إلا النصب ، ولا يصِحُّ الرفع ؛** «لأَنَّ ما ذكرت بعده ليس مبنيا عليه ؛ فيكون مبتدأ» [(١)] . يعني أَنَّنا لا نقول في المثال «اشتريت متاعك بعضَه أعجل من بعض» : اشتريت متاعك بعضُه أعجلُ من بعض ؛ فنجعله ابتداء وخبرًا في موضع الحال من «متاعك» ، لأَنَّكَ ـ كما يقول السيرافي ـ «لم ترد اشتريت متاعك وبعضه أعجلُ من بعض ، لأَنَّهُ لا فائدة فيه» [(٢)] . أي لا فائدة فيه للمخاطب .

وفي بعض الأحيان يكون الإثراء التوجيهي عَمَلِيَّة مشتركة بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، فعندما يقول سيبويه : «ومنه [؛ أي : النعت] أيضا : مررتُ برجلين مسلمٍ وكافرٍ ، جمعت الاسم وفرقت النعت . وإن شئت كان المسلم والكافر بدلا ، كَأَنَّه **أجاب مَن قال : بأي ضرب مررت ؟** ، وإن شاء رفع كَأَنَّه **أجاب من قال : فما هما ؟ فالكلام على هذا ، وإن لم يلفظ به المخاطب ؛ لأَنَّهُ إِنَّمَا يجري كلامه على قدر مسألتك عنده لو سألته**» [(٣)] .

فالكلمتان «مسلم وكافر» يجوز في توجيههما النَّحْوِيّ أَنْ تعربا نعتا أو بدلا . ولكن إِنْ تَخَيَّلْنا حوارا بين متكلم ومخاطب ، فقال المُتَكَلِّم : مررت برجلين ؛ فقال المخاطب : «فما هما ؟» ؛ فرد المُتَكَلِّم : مسلمٌ وكافرٌ ؛ فرفع على اعتبار أنهما خبران لمبتدأ محذوف يفهم من المقام .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٥٢/١

(٢) شرح كتاب سيبويه : ١٣/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٣١/١

وكان من الممكن الاكتفاء بالتوجيه الأول : الجر على النعت أو البدل ، ولكن عند تخيل وجود سياق حواري متخيل من متكلم ومخاطب أثري التوجيه النَّحْوِيّ والدِّلَالِيّ وأثر فيه[(١)] .

***

٣ـ **المبحث الثالث** : تَحَرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة عدم اللَّبس :

مما يتعلق بكلامنا : «دور سياق الحال في التوجيه الإعرابِيّ» أَنْ نُقَرِّر أَنَّ سيبويه كان يجيز كل التوجيهات النحوِيَّة الممكنة **لمسألة نحوِيَّة ما بحُرِّيَّة ما دام لا توجد قرينة تمنع أحد هذه التوجيهات** مثل قرينة سياق الحال .

ومن أمثلة هذا التوجيه «الحر» غير المقيَّد بقرينة :

أ ـ يذكر سيبويه قول عمرو بن مَعْدِ يكرب :

الحربُ أوّلُ ما تكونُ فُتيَّةً تسعى بزينتها لكلِّ جَهولِ

[بحر الكامل]

ويقول عنه : «هذا البيت تنشده العرب على أوجه بعضهم يقول ... :

الحربُ أوّلَ ما تكون فُتَيَّةٌ

أي إذا كانت في ذلك الحين ، وبعضهم يقول :

الحربُ أوّلُ ما تكون فُتَيَّةً

كَأَنَّه قال : الحربُ أوّلُ أَحوالِها إذا كانتْ فتيَّةً ، كما تقول : عبدُ الله أحسنُ ما يكون قائما . ومن رَفَعَ الفُتَيَّة ونَصَب الأوّل على الحال قال : البُرُّ أَرْخَصَ ما يكون قَفيزانِ . ومن نَصَبَ الفُتَيَّة ورَفَعَ الأوّل قال : البُرُّ أَرْخَصُ ما يكون قَفيزَيْن » [(٢)] .

ويلخص الأستاذ هارون الأوجه الإعرابِيّة في البيت السابق بشكل أوضح قائلا : «والشاهد فيه رفع «أول» ونصب «فتية» والعكس ، ورفعهما جميعا ونصبهما على تقديرات مختلفة . فتقدير الأول : الحرب أول أحوالها إذا كانت فتية ، ففتية فيه حال ناب مناب الخبر للمبتدإ الثاني ، وتقدير الثاني :

---

(١) ومن الأمثلة المشابهة لما ورد في نصّ سيبويه هنا قوله : « وتقول: مررت بأخوَيْك الطويل والقصير ، ومررتُ بأخوَيك الراكع والساجد ، ففي هذا البدل ، وفي هذا الصفة ، وفيه الابتداء ، كما كان ذلك في مررت برجلين صالح وطالح ». ٨/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٠١/١ ـ ٤٠٢

الحرب في أول أحوالها فتية ، فأول نصب على الظرفية . وتقدير الثالث والرابع أوضحهما سيبويه » [١] .

هكذا يقدم سيبويه توجيهاته النحوِيَّة بدون تحفظ على توجيه ما لعدم وجود قرينة تمنع توجيها وتسمح بآخر ؛ وهذا يؤكِّد ما ذهب إليه علماؤنا أَنَّ « تعَدُّد المعنى يكشف عن عدم كفاية القرائن » [٢]

ب ـ يوجه سيبويه قول من قال : دخلوا الأولَ فالأولَ بالنصب والرفع ، النصب على الحال ، كَأَنَّه جرى مجرى قولنا «واحدًا فواحدًا ودخلوا رجُلا رجلا » ، ويجوز الرفع فنقول : «دخلوا الأولُ فالأولُ ، جعله بدلا ، وحمله على الفعل ، كَأَنَّه قال : دخل الأولُ فالأولُ » [٣] .

والواقع أَنَّنا يمكن أَنْ نعطي عشرات الأمثلة على هذا التوجيه الحر ، فالكتاب يفيض به في الكثير من المواضع [٤] . لكن ما يهمنا هنا المواضع التي تَدَخَّلَ فيها سياق الحال فمنع توجيها نحويا ما وسمح بآخر ؛ أي : المواضع التي اتخذ فيها سيبويه سياق الحال كـ «قرينة» لمنع توجيه ما أو إجازته . وفيما يلي مجموعة من الأمثلة فيها توجيهات نحوِيَّة استغل سيبويه فيها سياق الحال في عَمَلِيَّة التوجيه :

١ـ المثال الأول :

أحد الأمثلة المُهِمَّة التي استغل فيها سيبويه سياق الحال في التوجيه النَّحْوِيّ نجدها عند مناقشته لبيت امرئ القيس :

فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ كَفاني وَلَم أَطلُب قَليلٌ مِنَ المالِ

[بحر الطويل]

في هذا البيت لدينا فعلان «كفاني »و « أطلب » ، وكلاهما يطلبان كلمة « قليل »كمعمول ، الفعل «كفاني » يطلبها فاعلا له ، والفعل «أطلب » يطلبها مفعولا به . ونظريا وبعيدا عن السِّياق فَإِنَّ كلمة « قليل » يمكن أَنْ تُنْصب على أَنَّها مفعولا به ، ويكون المعنى : « فلو أَنَّ ما أسعى لأدنى معيشة لم أطلب قليلا من المال »أي أَنَّ امرأ القيس : «ما سعى لأدنى معيشة ، ومع ذلك فقد طلب قليلا من

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠١/١ ، الحاشية ذات الرَّقْم٣

(٢) د. تَمَّام حسان : البيان في روائع القرآن ، ١٦٤/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٩٨/١

(٤) ينظر على سبيل المثال هذا التوجيه الحر في : الموضع :١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥ مع قوله : « شأنك والحج » . والموضع : ٤٣٢/١ مع قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾آل عمران: ١٣، والموضع : ٢٨٦/١ مع قوله «ألا رجل إما زيدا وإما عمرا ..» . والموضع : ٣٤٥/١ مع قول الشاعر : «أعبدًا حل في شُعَبى غريبًا ...» . والموضع : ١٤٧/٢ مع قوله « إنَّ زيدًا منطلق العاقلُ اللبيب» . والموضع : ٤٠٦/٢ عند مناقشة قوله «أي من يأتينا يريد صلتنا فنحدثُه » .والموضع: ١١/٢ عند مناقشة قوله : «سير على اللص اليوم» .

المال ». أَمَّا إذا أتت «قليل» فاعلا للفعل «كفاني » فَإِنَّ المعنى يكون : « لو أَنَّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني قليل من المال ولم أطلب الملك» [١] .

نعود للتوجيه ثانية ونقول : بناء على هذين المعنيين اللذين وقفنا عليهما فأيُّ التوجيهين يقبل ، وأيُّهما يرفض ؟ بالطبع يرفض التوجيه الإعرابِيّ الأول «نصب قليلا » ؛ لأَنَّ مقتضاه المعنى الأول ، وهذا المعنى يناقض سياق الحال المعروف عن امرئ القيس وقصته في طلب ملك أبيه[٢] ؛ لذلك فَإِنَّ سيبويه قال ببراعة عند ذكر هذا البيت :

«**فَإِنَّما رفع ؛ لأَنَّهُ لم يجعل القليل مطلوبا ، وإِنَّمَا كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافيا ، ولم يرد ذلك ونصب ؛ فسد المعنى**» [٣] .

أي أَنَّ المعنى مع حالة النصب سيتناقض مع سياق الحال المعروف من قصة امرئ القيس ؛ لذلك مُنِع توجيه النصب وأجيز الرفع . قال ابن يعيش : «وتلخيص معنى البيت : إنني لو سعيت لمنزلة دنيَّة ، كفاني قليل من المال ، ولم أطلب الكثير ؛ ألا ترى أنَّه قال في البيت الثاني :

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ولو نصب « قليلا » بـ « أطلب » استحال المعنى ، وصار التقدير : كفاني قليل ولم أطلب قليلا» [٤] .

٢ـ المثال الثاني :

في باب الاختصاص يورد سيبويه بعض الشواهد على هذا الأسلوب ، منها قول رؤبة :

راحَتْ وَراحَ كَعَصَا السَيْسابْ   بِنَا تَمِيمًا يَكْشِفُ الضَبَابْ

[بحر الرجز]

ويستشهد بهذا البيت على نصب «تميمًا » على الاختصاص . ويورد في نفس الباب بيتًا آخر مشابه لبيت رؤبة ، هو بيت لبيد الذي يقول فيه :

---

(١) ينظر : فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، (١٤٢٠هـ)، ٦٦/١ إذ تعرض لتفسير هذا البيت ، وما نقل عاليه من كلامه .

(٢) يقول المؤرخون إنَّ امرأ القيس هو حندج بن حُجْر ، كان أبوه يمني الأصل ، ملكا على بني أسد وغطفان بنجد ، وانغمس هو في اللهو والخمر والصيد . قَوَّضَ بنو أسد ملك أبيه وقتلوه ؛ فتلمس معاونة القبائل في الثأر لأبيه ، واستعادة ملكه . ينظر التفاصيل التاريخِيَّة الكاملة لهذا : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ت : عمر عبد السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، ٤٦١/١ .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٧٩/١

(٤) شرح المفصل : ٢١٢/١

نَحنُ بَنو أُمِّ البَنينَ : الأَربَعَه   وَنَحنُ خَيرُ عامِرِ بنِ صَعصَعَه [1] .

[بحر الرجز]

منع فيه سيبويه نصب «بنو» على الاختصاص ولم يجز إلا الرفع على الخبريِّة ، يقول : «فلا ينشدونه إلا رفعًا ؛ **لأنَّهُ لم يرد أَنْ يجعلهم إذا افتخروا أَنْ يُعرفوا بأن عدتهم أربعة** ، ولَكِنَّه جعل الأربعة وصفا ثُمَّ قال : المطعمون الفاعلون ، بعدما حلّاهم ليعرفوا» [2] .

هذا التعليل من سيبويه لمنع توجيه النصب بهذا السبب السِّياقي يدل على أَنَّهُ يستحضر ملابسات السِّياق الذي قيلت فيه القصيدة ، وهو لا يستحضر هذه الملابسات فقط بل يعايشها ويمتزج بالقصيدة ومعانيها ، ويُعينه على هذا الاستحضار لسياق الحال أَنَّ القصيدة في حالة «**إنشاد**» ، أي أَنَّ القصيدة حية منطوقة أمامه ، وإن كانت الملابسات الدقيقة الفعلِيَّة التي ارتبطت بالقصيدة وقت قولها ليست متوفرة لديه إلا أَنَّهُ يمكنه تتَبُّعها تاريخيا كما فعل ذلك في بعض التراكيب النحوِيَّة كما أثبتنا هذا من قبل ، وهذا ديدنه ومنهجه مع النصوص التي يُقعِّد من خلالها قواعد اللُّغَة كما أثبتنا سلفا عن منهجه .

٣ـ المثال الثالث :

في باب الفاء ناقش سيبويه نصب الفعل المضارع بعد فاء السببية وذكر عددا من الأمثلة على ذلك ، ثُمَّ أتى إلى بيتين من أبيات النابغة يقول فيهما :

ولا زالَ قَبرٌ بَينَ تُبْنـــى وَجاسِمٍ   عليه مِنَ الوَســـمِيِّ جَوْدٌ وَوابِلُ

فيُنبِتُ حَـــوذانًا وَعَوفًا مُـــنَوِّرًا   سَأُتبِـــعُهُ مِن خَـــيرِ ما قالَ قائِلُ

[بحر الطويل]

ولم ينصب الفعل «فيُنبتُ» ـ مع تجويز الخليل لتوجيه النصب ـ وقال : «وذلك أَنَّهُ (أي الشاعر) لم يرد أَنْ يجعل النبات جوابا لقوله : ولا زال ، ولا أَنْ يكون متعلقًا به ، ولَكِنَّه **دعا** ثُمَّ أخبر بقصة السحاب ، كَأَنَّه قال : فذاك يُنْبتُ حَوذانًا ، ولو نصب هذا البيت قال ـ كما الخليل ـ لجاز ، ولكنا قبلناه رفعا» [3] .

فالسبب في «الرفع» أن الشاعر «دعا» ولم يُرد أن يجعل هذا الدعاء سببا في الإنبات ، ولكنه ابتدأ كلامًا جديدا (قصة السحاب) مبدوءًا بجملة اسمية «ذاك ينبت ... » تحمل «فائدةً» للمخاطب وتعطي «دلالة على الثبات والاستمرارية» يقصدها الشاعر .

---

(١) والبيت التالي لهذا البيت كما ورد في تاج العروس :

المُطْعِمُون الجَفْنَة المُدَعْدَعَهْ   والضارِبُونَ الهامَ تَحْتَ الخَيْضَعَهْ

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٥/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٧/٣

وما كان لسيبويه أَنْ يتَّجه إلى هذا التوجيه إلا بدلالة العلامة الإعرابِيّة «الضمة» على نهاية الفعل «تنبت» التي كانت القرينة على عدم وجود سببية في البيت فينصب الفعل «ينبت». وذهبت به إلى ما ذهب من تأويل .

ويعلق بتعليق مشابه على بيت يشبه البيت السابق ، يقول فيه الشاعر (جميل) :

أَلَم تَسأَلِ الرَّبعَ القَواء فَيَــــــنطِقُ   وَهَل تُخــبِرَنكِ اليَومَ بَيداءَ سَملَقُ

[بحر الطويل]

ويعلق قائلا : «لم يجعل الأول سببا للآخر ، ولَكِنَّه جعله ينطق على كل حال ، كَأَنَّه قال : فهو مما ينطق ، كما قال : ائتني فأحدِّثُك ، **فجعل نفسه ممن يحدثه على كل حال**» [(١)] .

الفعل «ينطقُ» مرفوع «وهو مبنيٌّ على مبتدأ محذوف ؛ أي : هو ينطق ، ولا يضر اقترانه بالفاء ، فإنَّها فيه للاستئناف لا للعطف ولا للسببية» [(٢)] ؛ أي أنَّ حالة الرفع تضعنا أمام جملة اسمية «هو ينطق» ، والجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرارية على كل حال . واختيار الشاعر لهذا التوجيه «الرفع» مع إمكانية النصب لا بد وأن يرتبط بالحالة النفسية للشاعر المتأثر بسياق حال ما .

ويثير هذا البيت وما قبله عدة ملحوظات :

ـ **الأولى** : عبارة سيبويه : «ولو نصب هذا البيت ـ كما قال الخليل ـ لجاز ، ولكنا قبلناه رفعا» وردت بين البيتين السابقين وليس من الواضح تماما أي البيتين تقصده هذه العبارة : بيت النابغة أم بيت جميل ، ولكن يبدو أنها قيلت قبل الثاني بيت جميل . وهذه العبارة ـ بغض النظر لأي البيتين توجهت ـ مثيرة للاهتمام ، فسيبويه فضل حالة الرفع على النصب ؛ لأَنَّهُ «تلقاه رفعا» أي «تلقى البيت مرفوعا كما تتلقى القابلة الولد» على حد تعبير الأستاذ هارون في الهامش ، وهذا يعني أَنَّ سيبويه كان يفضل الواقع اللغويّ على القياس ، وأنَّ هذا الواقع اللغويّ مقدم عنده على القياس ، وليس العكس كما أشار عدد من الباحثين ، وقد كان في مُكنته أَنْ يجيز حالة النصب ، وخاصة أَنَّ أستاذه الخليل قد أجازه ، أي أَنَّ هذا الموضع من الأدِلَّة التي تذكر على تفضيله الواقع اللغويّ الحي على القياس .

ـ **الثانية** : وتشير نفس الجملة إلى اعتماده على الواقع الحي لِلُّغَة ، أي اللُّغَة منطوقة ومنشدة .

ـ **الثالثة** : أَنَّ هذه العبارة تشير أيضا إلى استقلالية منهجِيَّة عند سيبويه بعيدة نوعا ما عن أستاذه الخليل .

ـ **الرابعة** : أَنَّهُ تلقاه رفعا ثُمَّ فسره بتخيل سياق حال يوجد فيه الشاعر .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٧/٣

(٢) خالد الأزهري : التصريح بمضمون التوضيح ، ٢٨١/٢

٤ـ المثال الرابع :

في قولنا : «إِنَّ زيدًا منطلق لا عمرو »و «إِنَّ زيدًا منطلقٌ وسعيدٌ » فَإِنَّ سيبويه يجيز في كلمتي «عمرو و سعيد »وجهين إعرابيين : الأول : الرفع على الابتداء ، والثاني : النصب عطفا على زيد . وإذا استبدلنا «لعل أو ليت أو كَأَنَّ » بـ «إِنَّ »في الأمثلة السابقة وقلنا مثلا : «ليت زيدًا منطلق وعمرًا »، فإِنَّهُ في هذه الحالة لا يجوز في « عمرو وسعيد » إلا النصب ، يقول سيبويه : «واعلم أَنَّ لَعلَّ وكَأَنَّ وليت ثلاثتهن يجوز فيهن جميع ما جاز في إنَّ ، إلا أَنَّهُ لا يرفع بعدهن شيء على الابتداء ، ومن ثَمَّ اختار الناسُ ليتَ زيدا منطلقٌ وعمرًا وقَبُح عندهم أن يحملوا عمرا على المضمر حتى يقولوا هُوَ ، ولم تكن ليتَ واجبةً ولا لَعَلَّ ولا كأَنَّ ، فقبُح عندهم أن يُدخلوا الواجبَ في موضع التَّمَنِّى فيصيروا قد ضموا إلى الأوَّل ما ليس على معناه بمنزلة إن »[١] .

قال ابن السَّرّاج معلقا وموضحا نص سيبويه السابق : « يعني أَنَّكَ لو قلت : ليت زيدًا منطلق وعمرو ، فرفعت عمرا كما ترفعه إذا قلت : إنَّ زيدا منطلق وعمرو ، فعطف عمرا على الموضع ، **لم يصلح من أجل أنَّ ليت وكأنَّ ولعلَّ لها معان غير معنى الابتداء** ، وإنَّ : إنَّما تؤكِّد الخبر والمعنى معنى الابتداء والخبر ، ولم تُزِل الحديث عن وجوبه وما كان عليه »[٢] .

إذن السبب في عدم جواز الرفع على الابتداء في الاسم الواقع بعد هذه الحروف ـ كما يقول ابن السراج وكما قال السيرافي ـ أَنَّ «حمل المعطوف على هذه الحروف على الابتداء يغير المعنى الذي أحدثته هذه الحروف من التمني والتشبيه والترجي ؛ فلذلك لم يحملوه على الابتداء »[٣] . إن الرفع يقتضي الخبرية ، والمبتدأ محذوف ، ومن يُخبر يخبر بشيء وقر لديه في الماضي ، واستخدام ليت / لعل ، يدل على المستقبل فالرفع مع لعل فيه نوع من التناقض في المعنى ؛ لذلك منع سيبويه الرفع .

والتمني والتشبيه والرجاء أمور ترتبط بالمُتَكَلِّم الموجود في سياق حال ما ؛ أي أَنَّ تمنِّي المُتَكَلِّم ورجاءه وتشبيهه كانت قرائن سِيَاقِيَّة منعت توجيه الرفع . فهو الذي أتى بهذه الأدوات بدافع السياق لكي يتمنَّى أو يشبّه أو يترجَّى .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٤٦/٢

(٢) الأصول : ٢٤١/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٤٦/٢ ، الحاشية ذات الرَّقْم٤ حيث نقل الأستاذ هارون كلام السيرافي .

٥ـ المثال الخامس :

في باب «هذا باب من الاختصاص يجري على ما جرى عليه النداء» يذكر فيه بيت الصَّلَتانِ العَبْدي[1] :

يا شـــــــاعرًا لا شاعرَ اليومَ مثلَه   جريرٌ ولكن في كلـــــيبٍ تواضعُ

[بحر الرجز]

ينقل سيبويه عن هذا البيت كلام الخليل ويُونُس في نصب كلمة «شاعرًا» وأنَّها لا تصح أَنْ تكونَ منادى «وإنَّمَا انتصب على إضمار ؛ كَأَنَّه قال : يا قائل الشعر شاعرًا ، وفيه معنى حسبك به شاعرًا»[2] . ويُزِيد الأستاذ هارون الأمر وضوحًا فيقول شارحا هذا الموضع :

«والشاهد فيه (أي البيت السابق) نصب «شاعرًا» على الاختصاص والتعجب ، والمنادى محذوف تقديره : يا هؤلاء ، أو يا قوم ، حسبكم به شاعرًا . وإنَّمَا امتنع أَنْ يكون منادى ؛ لأنَّهُ نكرة عنده يدخل فيه كل شاعر بالحضرة ، وهو إنَّمَا قصد شاعرًا بعينه ، وهو جرير ، فلو كان منادى لبني حينئذ على الضم»[3] . أي أَنَّ كلمة «شاعرًا» ليست منادى ، وليست منصوبة على النداء ؛ إذ لو كانت كذلك لبنيت على الضم ؛ لأَنَّ سياق الكلام متوجه لشخص مُحَدَّد معروف اسمه «جرير» ، **فكان لا بدَّ من منع توجيه النصب على النداء** ؛ لأَنَّ النصب يعني أَنَّ المنادى نكرة غير مقصودة ، ولن يكون موجّها لشخص محدّد ؛ وهذا مما يتنافى مع سياق الحال الذي يقال فيه البيت .

٦ـ المثال السادس :

في بعض الأحيان يلجأ سيبويه إلى قرينة سياق الحال في توجيهه ولَكِنَّه لا يذكر اعتماده عليها من قريب أو بعيد ، ولكن تأمُّل كلامه يوجب أَنّه لا بد وقطعًا لجأ إلى هذه القرينة . والتالي مثال على ذلك .

---

(١) هذا البيت قاله الصّلتان العبدي، يفضِّل جريرا على الفرزدق في الشعر، ويفضل الفرزدق على جرير في الشرف والشاهد : نصب «شاعرا» على الاختصاص والتعجب ، والمنادى محذوف تقديره : يا هؤلاء ، حسبكم به شاعرا ، وإنَّما امتنع أن يكون منادى ؛ لأنَّه نكرة يدخل فيه كل شاعر بالحضرة ، وهو إنَّما قصد شاعرا بعينه ، وهو جرير، فلو كان منادى، لبني حينئذ على الضم. ينظر : محمد محمد حسن شُراب : شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط ١، ٢٠٠٧م ، ٩٢/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٧/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٧/٢ ، الحاشية ذات الرَّقْم١

من التراكيب النحوِيَّة التي تناقش في باب الاشتغال التراكيب التي تمثلها الجمل التالية : «إنِّي زيدٌ لقيته ، وأنا عمرو ضربته ، وليتني عبدُ الله مررت به » ، وهي جمل يجوز في الأسماء «زيد ، عمرو ـ عبد الله» نصبها ، ورفعها ، والاختيار الرفع[(١)] .

ومع هذا نجد سيبويه عند توجيهه لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾القمر : ٤٩ يقول : «فأما قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فَإِنَّما هو على قوله : زيدًا ضربته ، وهو عربي كثير »[(٢)] .

أي أَنَّهُ يختار النصب في الاسم المشغول عنه «كل » .مع أَنَّ الآية تشبه في تركيبها الجمل التي ذكرناها آنفا ، أي أَنَّهُ من المفروض أَنْ يكون الأولى الرفع ، فلماذا منع الرفع وأجيز النصب مع أَنَّ الرفع أولى ؟ السبب هو وجود قرينة يمكن أَنْ نسميها قرينة «الخلفيَّة العَقِيدِيّة الشَّرْعِيَّة » . إِنَّنَا إذا قلنا بالرفع فمن الممكن أَنْ يكون معنى الآية : أَنَّ هناك ما خلقه الله وهناك ما لم يخلقه ، وأَنَّ ما خلقه خلقه بقدر ؛ أي أَنَّ توجيه الرفع يُفقدُ الآية عمومها ، يقول السيرافي : «يجوز أَنْ يكون «خلقناه» نعتًا لـ «شيء » ، و «بقدر »خبر لكل ، ولا يكون فيه دلالة على خلق الأشياء كلها ، بل يدل على أَنَّ ما خلقه منها خلقه بقدر »[(٣)] . وهذا تفسير فاسد . أَمَّا على النصب فالآية تفيد العموم ، أي أَنَّ كل شيء قد خلقه الله بقدر .

وسيبويه لم يشر إلى هذه القرينة ، ولكن سياق الكلام يشير إلى أَنَّهُ لجأ إليه .

تلك ستة أمثلة توضح دور قرينة سياق الحال في التوجيه النَّحْوِيّ ، وأنَّها قد تسمح بتوجيه وتمنع آخر[(٤)] .

---

(١) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٧/٢، ويقسم العلماء حالات إعراب الاسم المشغول عنه إلى أربعة حالات : تارة يترجح نصبه ، وتارة يجب ، وتارة يترجح رفعه وتارة يجب ، وتارة يستوي الطرفان ، ويترجح رفع الاسم المشغول عنه إذا لم يأت في حالة من الحالات الثلاث السابقة . ينظر : ابن هشام : قطر الندى وبل الصدى ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ط١١ ، (١٣٨٣هـ) ، ص١٩٣ وما بعدها .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٤٨/١

(٣) شرح كتاب سيبويه : ٨/٢

(٤) ومن المواضع التي رصدناها لدور قرينة السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ الموضع ٣٠٤/١ عند مناقشة سيبويه لجملة «أنت وشأنك» .والموضع ٣٩١/١ عند مناقشته لجملة «بايعته يدًا بيد » .والموضع ٩١/١ عند توجيهه لكلمة «طائفة» في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ آل عمران : ١٥٤، وما قاله السيرافي من توجيهات أخرى لنفس الكلمة [٣٨٨/١] ، والموضع ١/ ٣١٩ عند مناقشته للمصادر التي

بقي أَنْ نشير هنا إلى أَنَّهُ في بعض الأحيان قد تمتزج قرينة سياق الحال مع قرينة المعنى اللغويّ في التوجيه النَّحْوِيّ ، وهذا ما فهمتُه من مناقشة سيبويه للجمل التالية :

أ- ما علمت أحدًا يقول ذاك إلا زيدًا .

ب- ما ضربت أحدًا يقول ذاك إلا زيدًا .

ت- ما رأيت أحدًا يقول ذاك إلا زيدًا .

في الجملة الأولى « أ » المستثنى « زيد » يجوز فيه النصب ، وقال سيبويه « وإن شئت رفعت »[1] .

ووجه إجازة النصب أَنَّهُ «على الاستثناء ، أو على البدلية من كلمة «أحد» المنصوبة ، ويجوز فيها الرفع على البدلية من الفاعل المستتر في الفعل المضارع »[2] . والأولوية هنا للنصب فهو الأولى كما يقول سيبويه : «وإنَّمَا اختير النصب هنا ؛ **لأنَّهم أرادوا** أَنْ يجعلوا المستثنى بمنزلة المبدل منه ... وهذا وصف أو خبر »[3] . أي أَنَّ أسلوب الاستثناء هنا تام منفي فيجوز في المستثنى النصب على الاستثناء أو البدل من المستثنى منه المنصوب في الجملة السابقة . واختيار النصب تبع لـ «إرادة المُتَكَلِّم وسياق حاله» كما أشار سيبويه عاليه .

أما الجملة الثانية «ب» لا يجوز فيها إلا النصب ؛ «وذلك لأَنَّكَ **أردت** في هذا الموضع أَنْ تخبر بموقوع **فعلِك** ؛ **ولم ترد أَنْ تخبر** أَنَّهُ ليس يقول ذاك إلا زيدٌ ، ولكنك أخبرت أَنَّكَ ضربت ـ ممن يقول ذاك ـ زيدًا »[4] . في هذه الجملة يريد المُتَكَلِّم أَنْ يخبر بـ «على من وقع ضربه» ، ولم يرد أَنْ يخبر أَنَّ جملة « ما ضربت أحدًا » من أقوال زيد ؛ أي أَنَّهُ لم يرد أَنْ يقول : يقول زيدٌ : ما ضربت أحدًا . وأحد الأسباب التي منعت هذا التوجيه إرادة المُتَكَلِّم المرتبطة بسياق الحال . ولكن هناك سبب آخر ، ما هو ؟

إذا وضعنا الجملتين السابقتين تحت بعضهما ، هكذا :

- ما علمت أحدًا يقول ذاك إلا زيدًا .

تنصب بفعل محذوف مختزل ، ومنها «حمدًا وشكرًا لا كفرًا ...» ومناقشة قوله تعالى : ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾الأعراف: ١٦٤، وهو من المواضع المُهِمَّة التي لم نثبتها في المتن خوف الإطالة

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣١٣/٢

(٢) أ / عباس حسن : النحو الوافي ، ٣٣٧/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣١٣/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣١٣/٢

▪ ما ضربت أحدًا يقول ذاك إلا زيدًا .

وتساءلنا ما الفرق بين الجملتين الذي جعل الأولى لها توجيهان إعرابيان وجعل للثانية توجيها إعرابيا واحدًا ؟ الجملتان تركيبهما واحد : «أداة نفي (ما) + فعل متعدي + مفعول به + جملة فعلِيَّة وصفية + أداة استثناء (إلا) + مستثنى منصوب» ، والجملتان تتدخَّل فيهما إرادة المُتَكَلِّم . لم يبق هنا من فارق سوى «المعنى اللغويّ للفعل المتعدي» ، وهذا يعني أَنَّ سياق الحال يندمج مع المعنى اللغويّ أحيانا في التوجيه النَّحْوِيّ . ويؤكد كلامنا هذا الجملة الثالثة «ج» ؛ فيتوقَّف المنع والإجازة على المعنى المراد من «رأيت» ، فإذا كان السِّياق يشير إلى أَنَّ رأى قلبية بمعنى علمت ؛ فيجوز الوجهان ، وإذا كان السِّياق يشير إلى أنَّها بصرية بمعنى شاهدت ؛ فيجوز وجه واحد فقط[1] .

وقبل أَنْ أترك الكلام هنا أحبُّ أَنْ أشير إلى منهجِيَّة بسيطة تعلمها الباحث من سيبويه ، واستغلها في مناقشة المثال السابق . هذه المنهجِيَّة هي «أَنَّ سيبويه كان يأتي بالتراكيب اللُّغَوِيَّة المتقاربة والمتشابهة ويقارنها ببعضها البعض ويخرج من خلال هذه المقارنة بالفروق الدِّلالِيَّة بينها» . وقد كان هذا ديدنه على مدار صفحات الكتاب . وهذه الآلية المنهجِيَّة تذكرنا بآلية منهجِيَّة شبيهة عند علماء اللُّغَة المعاصرين وهي آلية «الثُّنائِيَّة الصغرى Minimal pair »[2] . وهي آلية خاصة بتحديد الأصوات الموجودة في لغة ما من خلال مقارنة لفظتين مختلفتي المعنى أو أكثر مثل : «تاب ، طاب ناب ... » . ومقصدي من هذا الكلام هو إبراز التشابه الواضح بين الفكرتين والطريقتين من خلال المقارنة وإن كان مجال سيبويه التراكيب اللُّغَوِيَّة ، ومجال الـMinimal pair الأصوات اللُّغَوِيَّة .

بقيت كلمة ختامية نقولها في ختام حديثنا عن الجزئيَّة التي عَنْوَنَّاها بـ «تَحَرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة أمن اللَّبس»أقول فيها :

---

(١) ومن المواضع الأخرى التي لاحظنا فيها تفاعلا بين قرينة السِّياق والفرينة اللُّغَوِيَّة الموضع ٣/١٠٠ ، عند مناقشة سيبويه لجملة «اتقى الله امرؤ وفعل خيرًا يثب عليه».

(٢) ينظر ترجمة المصطلح : د. محمد حسن باكلا وآخرون : معجم مصطلحات علم اللُّغَة الحديث ، مكتبة لبنان ، لبنان ، ط١ ، (١٩٨٣م)، ص٥٤ ، ويقول ديفيد كريستال عن هذه الآلية : «واحدة من الإجراءات المكتشفة والمستخدمة في علم الأصوات لتحديد ما إذا كانت الأصوات تنتمي إلى نفس الفئة أو الفونيم . وعندما يختلف معنى كلمتين بسبب تغيير حرف واحد فيهما نكون بصدد ثنائية صغرى ، على سبيل المثال : pin ، bin...»ونص ديفيد كريستال :

«Minimal pair : One of the discovery procedures used in phonology to determine which sounds belong to the same class, or phoneme. Two words which differ in meaning when only one sound is changed are referred to as a 'minimal pair', e.g. pin v. bin...» والترجمة للباحث.

David Crystal,A dictionary of linguistics and phonetics, P.307

إن سيبويه بهذه النصوص التي استغل فيها قرينة سياق الحال في التوجيه النَّحْوِيّ يضع نصب عينيه هذه القرينة في التوجيه ، وهو كما وصفه العلماء بـ «إمام النُّحَاة» ورأس من رءوس المدرسة البصرية يجب أَنْ يقتفى أثره في هذا .

ومن المبادئ التي يمكن استفادتها من نصوص سيبويه السابقة أَنَّنا في التوجيه الإعرابِيّ والنَّحْوِيّ تكون كل الخيارات التوجيهية النحوِيَّة متاحة ، إنْ كانت هناك خيارات إعرابية لهذا التركيب أو ذاك لها شرعية وجود ـ بالاستقراء أو بالقياس ـ في النصوص اللُّغَوِيَّة ، وتكون إتاحة هذه الأوجه الإعرابِيّة مرتبطة بعدم وجود قرينة تمنع هذا التوجيه أو ذاك .

كما نتعلم من سيبويه ومن غيره أيضا أَنَّنا يجب ربط التوجيه النَّحْوِيّ بالسِّياق الذي قيل فيه الكلام كلما أمكن ذلك وإلا وقعنا في فوضى إعرابية .

***

في ختام هذا المبحث الثاني نَوَدّ أَنْ نذكر الملحوظات والتأمُّلات المُهِمَّة التالية :

١ـ **العادة والعرف الاجتماعيّان في البيئة المُعَيَّنَة** مما يدخلان في قرينة سياق الحال ، ومن الممكن أَنْ تتدخَّل في التوجيه النَّحْوِيّ ، وعدم أخذه في الاعتبار قد يوقع من يقوم بالتوجيه النَّحْوِيّ في خطأ .

من ذلك مثلا أَنَّ سيبويه أجاز «النصب والرفع» لكلمة «اليوم» في قول من قال «اليوم الجمعة اليوم السبت». النصب على الظرفية ، والرفع على الابتداء والخبرِيِّة . **ولم يجز إلا الرفع** في قول من قال : «اليومُ الأحد أو الاثنين ... إلى الخميس» يقول : «فأما اليومُ الأحد ، واليوم الاثنان ، **فإِنَّهُ لا يكون إلا رفعا وكذلك إلى الخميس**» ، ويعلل ذلك بقوله : «**لأنَّهُ ليس بعمل فيه**» [1] . بمعنى أَنَّ «الجمعة بمعنى الاجتماع ، والسبت بمعنى الراحة ؛ فهما مصدران يقعان في اليوم» [2] . أي أَنَّ نصب كلمة اليوم في جملة : اليوم السبت ؛ على أَنَّهُ يوم تقع فيه الراحة ؛ أي أَنَّ يوم السبت ظرف تقع فيه الراحة . ومنع سيبويه النصب في كلمة اليوم إذا أتت مع أيام الأسبوع : الأحد ، الاثنين ... ؛ لأنَّهُ ليس فيها معنى الراحة أو الاجتماع ، وتبع سيبويه في هذا عدد من النُّحَاة .

وقد تبع سيبويه في هذا معظم النحاة . قال ابن مالك ما نصه : «إذا قلت : اليوم الجمعةُ ، واليوم السبت ، جاز نصب اليوم ، لأنَّ الجمعة بمعنى الاجتماع ، والسبت بمعنى الراحة . وكذا اليوم العيد واليوم الفطر ، واليوم النّوروز ، كل هذه يجوز معها نصب اليوم بلا خلاف ، لأنَّ ذكرها منبِّه على

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١٨/١ ، وفي بعض نسخ الكتاب «ليس فيه بعمل». وفي نسخة أخرى : «ليس يُعْمَل فيه». الحاشية ذات الرَّقْم٢ من نفس الصفحة .

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٣٠٧/٢

عمل يوقَع في اليوم ، بخلاف قولك : اليومُ الأحدُ ، واليوم الاثنان ، واليوم الثلاثاء ، واليوم الأربعاء ، واليوم الخميس ، فإنَّها بمنزلة اليوم الأول ، واليوم الثاني ، واليوم الثاث ، واليوم الرابع ، واليوم الخامس فلذلك لايجوز في اليوم معها إلا الرفع ، **هذا مذهب النحويين إلا الفراء وهشاما**» [(١)] .

وهنا نتجرأ قليلا ونقدم رأيا قد يخالف كلام سيبويه هنا وهو : أنَّ ارتباط يوم مُعَيَّن بمعنى مُعَيَّن **متروك للعرف والعادة** ، وهما من مكوِّنات سياق الحال كما أشرنا في التمهيد ، ففي عصرنا الحالي وفي بلدنا مصر أصبح يوم الأحد وليس الجمعة ولا السبت من أكثر الأيام المرتبطة بالراحة ؛ وفي بعض الأحيان ترتبط الراحة بـ «مهن مُعَيَّنَة» .فعند أصحاب مهن مُعَيَّنَة يكون الأثنين هو الراحة . وعليه فَإِنَّ النصب والرفع جائز في اليوم إذا جاءت مع الأحد أو غيره الأيام إذا دلت على الراحة .

٢ـ من الأمور الخطيرة التي يُوقِفُنا عليها هنا هذا المبحث أمر مُهِمّ هو «**تهافت نظَرِيَّة العامل**» ، تلك النظَرِيَّة التي لم يمل النُّحَاة من تكرارها ، وما فتِئُوا يرددونها في كل مناسبة .

فما سطرناه في هذا المبحث وما استنبطناه من كلام سيبويه نفسه لا يلتقي ولايمكن أَنْ يلتقي مع ما تقوله هذه النظَرِيَّة وما تتضمنه من العلل الأولى والثواني والثوالث .

لقد أثبتنا ـ من خلال نصوص سيبويه نفسها ـ أَنَّ المُتَكَلِّم هو الذي «يرفع وينصب ويجر » ، وهو الذي «يستأنف الكلام »أو «يعطفه» ، وذكرنا أَنَّ سيبويه كرَّر مئات المرَّات قوله «**إذا أردتَ**»و«**إذا شئتَ**» ، وأنَّ المُتَكَلِّم والمخاطب وحالتهما النفسِيَّة هما اللذان يؤثِّران على العلامة الإعرابِيّة .

إِنَّنَا هنا نتعجل الأمور قليلا قبل أَنْ نفرد الفصل الأخير في بحثنا هذا للحديث عن نظرية العامل ، ونقول بنقض هذه النظَرِيَّة التي قتلت الحياة في النحو العربي ، وأزالت كل مظهر من مظاهر التفاعل مع الواقع .

وفي نقضنا لنظَرِيَّة العامل نضم صوتنا المتواضع جدا للعالِمين اللذين نقضا هذه النظَرِيَّة ، وأقصد بهما : ابن جني ، وابن مضاء الأندلسي الظاهري . فقد صرَّح ابن جني ببطلان هذه النظَرِيَّة في قول صريح له يقول فيه : «وإِنَّمَا قال النَّحْوِيّون : عامل لفظي وعامل معنوي ليروك أَنَّ بعض العمل يأتي مسببًا عن لفظ يصحبه ؛ كمررت بزيد ، وليت عمرًا قائم . وبعضه يأتي عاريًا من مصاحبة لفظ يتعلق به ؛ كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم ؛ هذا ظاهر الأمر ، وعليه صفحة القول . فأما في الحقيقة ومحصول الحديث **فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم**

---

(١) ابن مالك : شرح تسهيل الفوائد ، ت : عبد الرحمن السيد ، محمد بدوي المختون ، دار هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٠م)، ٣٢٣/١

إِنَّمَا هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره . وإِنَّمَا قالوا : لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المُتَكَلِّم بمضامة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ . وهذا واضح» [1] .

في هذا القول الصريح يؤكد ابن جني أن العمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا شيء غيره .

ثُمَّ أتي ابن مضاء الأندلسي[2] في نهاية القرن السادس الهجري متأثرا بالمذهب الظاهري[3] ليقرِّرَ هذا الرفض متابعا لابن جني ، فيقول :

«قصدي في هذا الكتاب أَنْ أحذف من النحو ما يستغنى عنه ، وأنبِّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه . فمن ذلك ادعاؤهم أَنَّ النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، وأنَّ الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي . وعبَّروا عن ذلك بعبارات **تُوهِم** أَنَّ قولنا : « ضرب زيد عمرًا » أَنَّ الرفع الذي في « زيد » والنصب الذي في « عمرو » إِنَّمَا أحدثه « ضرب » ... وقد صرح بخلاف ذلك أبو الفتح ابن جني في خصائصه بعد كلام في العوامل اللفظِيَّة والعوامل المعنوِيَّة [ذكر النَّصّ السابق] ؛ فأكد «المُتَكَلِّم » بـ «نفسه» ليرفع الاحتمال ، ثُمَّ زاد تأكيدًا بقوله «لا لشيء غيره» . وهذا قول المعتزلة . وأما مذهب أهل الحق فَإِنَّ هذه الأصوات إِنَّمَا هي من فعل الله تعالى ، وإِنَّمَا تنسب إلى الإنسان كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختيارية . وأما القول بأن الألفاظ يحدث بعضها بعضا ؛ فباطل عقلا وشرعا ، لا يقول به أحد من العقلاء ... وأما العوامل النحوِيَّة فلم يقل بعملها عاقل ، لا ألفاظها ولا معانيها ؛ لأَنَّها لا تفعل بإرادة ولا بطبع» [4] .

---

(1) الخصائص ، ت : محمد علي النجار،الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م)، ١٠٩/١ ـ ١١٠ .

(2) ابن مَضَاء (٥١١ ـ ٥٩٢ هـ = ١١١٨ ـ ١١٩٦ م) هو : «أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ، ابن مضاء ، ابن عمير اللخمي القرطبي ، أبو العباس : عالم بالعَرَبِيَّة ، له معرفة بالطب والهندسة والحساب ، ومولده بقرطبة . وولي القضاء بفاس وبجاية ، ثم بمراكش سنة ٥٧٨ هـ وتوفي بإشبيلية مصروفا عن القضاء. من كتبه (تنزيه القرآن عما لا يليق من البيان) في النحو». ينظر : الزركلي : الأعلام ، ١٤٦/١

(3) طبق ابن مضاء مبادئ المذهب الظاهري في كتابه الرد على النُّحَاة ، على غرار كتب الفقه . والمذهب الظاهري يقوم على إنكار القياس والتعليل ، وعدم الأخذ بالفروع ، والاقتصار على القرآن والسنة . ينظر : ابن مضاء القرطبي في الميزان ، د. عائد كريم علوان ، مجلة اللُّغَة العَرَبِيَّة وآدابها ، العدد ٦ ، حزيران ، ٢٠٠٨م

(4) الرد على النُّحَاة ، ت : د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٧٩م)، ص ٦٩ ، ٧٠

والباحث يميل إلى رأي هذين العالمين الجليلين ويدعمه لما يلي :

- ما أثبتناه هنا في هذا المبحث يدل على تهافت هذه النظَرِيَّة ، وقد ذكرنا من نصوص سيبويه ما يدل على ذلك ، منها جملته المُهِمَّة التي ناقشناها في أحد نصوصه ، التي يقول فيها : « ... **فإذا رفعتَ هذه الأشياءَ فالذى فى نفسك ما أظهرتَ ، وإذا نصبت فالذى فى نفسك غيرُ ما أظهرتَ** »[١] . ففي هذا النَّصّ الصريح يربط سيبويه نفسه بين العلامة الإعرابِيّة وبين الحالة النفسِيَّة للمتكلم ، ويُقر أَنَّ المُتَكَلِّم هو الذي يرفع وهو الذي ينصب .
- تكرار اللفظ المعبِّر عن « إرادة المتكلم » في اختيار الإعراب المناسب في أكثر من أربعمائة موضع في الكتاب .

وقد ينشأ اعتراض على هذا الدليل مُؤَدّاه : أَنَّنا نجد نصوصا عند سيبويه نلمح فيها أثرا لنظَرِيَّة العامل ، فكيف يمكن القول أَنَّ سيبويه يقبل هذه النظَرِيَّة في نصوص ، ويرفضها في نصوص أخرى ؟

نقول مجتهدين ـ ولَعلَّنا نصيب أجرين في هذا ـ :

إن البيئة العلميَّة الفلسفِيَّة التي نشأ فيها سيبويه أثَّرت عليه وجعلته مرغما على مسايرتها رغما عنه فأثَّرت في ذهنه أثناء تقيعده ، ولَكِنَّه في كثير من الأحيان تذهب عنه هذه التأثيرات الفلسفِيَّة المنطقية الأرسطية ؛ فتأتي الأمور على طبيعتها وكما يسمعها من قائلي اللُّغَة .

- إذا كان أبناء اللُّغَة :
  - » **يتواضعون على ألفاظهم** .
  - » **ويتواضعون فيما بينهم على معاني هذه الألفاظ**[٢]
  - » **بل إِنَّهُم يتواضعون على البنى الصَّرْفِيَّة داخل هذه اللُّغَة**[٣]؛

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١/٢٧٠ ـ ٢٧١

(٢) مما يتفق عليه علماء اللُّغَة أن اللُّغَة عرفية ، فالعلاقة بين اللفظ وما يشير إليه علاقة عرفية لا ضرورية . ينظر : محمد حسن عبد العزيز : مدخل إلى علم اللُّغَة ، دار الثقافة العَرَبِيَّة ، ص ١٥

(٣) اللُّغَة تحتوى على بنى صرفِيَّة كثيرة ليست كلها مما يتفق عليه أهل اللُّغَة ؛ بمعنى أن هناك «بِنَى صرفِيَّة » مستخدمة من قبل أهل اللُّغَة ، وهناك بنى صرفِيَّة أخرى موجودة صالحة للاستخدام ولَكِنَّها غير مستعملة . ويؤكد ما ذهبنا إليه :

١ـ تلك المناظرة التي أوردها السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر بين ابن ولاد وبين ابن النحاس وفيها « قال ابن النحاس لأبي العباس : كيف تبني مثال اِفْعَلَوْت من رميت ، فقال له أبو العباس : اِرْمَيَيْت ، فخطأه أبو جعفر وقال :

أفلا يكون من المعقول أَنْ يتواضعوا على ما هو أبسط من هذا وهو تواضعهم على العلامة الإعرابِيّة ؟ بمعنى أَنَّ العرب عندما ينطقون باسم معرفة في بداية جملة اسمية يضمون آخر هذا الاسم ، وإذا دَلَّ الاسم على أَنَّهُ قام بالفعل أو اتصف به ضموا آخره أيضا ، وإذا أتى الاسم واقعا عليه فعل الفاعل نصبوه ، وإذا وقع بعد حرف من حروف الجر كسروا آخره وهكذا .

ومن أقوال أساتذتنا المحدثين التي عثرنا عليها ويتوافق قولُنا هنا معها قول أستاذنا تمام حسان إذ يقول : «بعد أَنْ بيَّنت طبيعةَ القرائن المقالِيَّة معنوِيَّة كانت أو لفظِيَّة في دلالتها على المعنى الوظيفي النَّحْوِيّ ، **أحب أَنْ أضيف إليها كلمة أخرى تتصل بإغناء فهم القرائن المقالِيَّة عن فكرة العامل النَّحْوِيّ الذي قال به النُّحَاة**» [(١)] .

٣ـ من طريف ما أشار إليه سيبويه أَنَّ **التوجيه الإعرابِيّ يراعي الفرق بين الإنسان والحيوان** :

» ففي أسلوب الاستثناء التام المنفي يجوز في المستثنى «النصب على الاستثناء أو البدل من المستثنى منه» ، ولكن في بعض الأحيان يختار الإعراب الأول ويكره الثاني ؛ «لأَنَّ المستثنى ليس من نوع المستثنى منه» ، يقول : «قولك ما فيها أحدٌ إلا حمارًا ، جاءوا به على معنى ولكنَّ حمارًا ؛ وكرهوا أَنْ يبدلوا الآخر من الأول ؛ فيصير كَأَنَّه من نوعه» [(٢)] . وجملة «وكرهوا» تدلُّ على أَنَّ العلامة الإعرابِيّة يتحكم فيها المُتَكَلِّم ؛ لتعبِّر عن مشاعره وعواطفه ؛ وأنَّهُم لجئوا إلى العلامة الإعربية لإزالة هذه الكراهية .

» وفي مثال ثان إذا قلنا الجمل المتشابهة التالية :

» مررت برجل أسدٍ أبوه .

» مررت برجلٍ أسدٌ أبوه .

» مررت بدابة أسدٌ أبوها .

فكلمة «أسد» في الجملة الأولى تُعربُ نعت سببي مجرور أفاد المبالغة ، ونفس الكلمة قد تعرب ـ كما في المثال الثاني ـ مبتدأ مرفوع إذا أردنا مجرد الإخبار . أَمَّا المثال الثالث فلا يجوز فيه إلا

ليس في كلام العرب اِفْعَلَوْت ولا اِفَعَلَيْت ؛ فقال أبو العباس : إِنَّمَا سألتني أن أمثل لك بناء ففعلت »، ١٦٢/٣ ، [دار الكتب العلمِيَّة ، بيروت]

٢ـ قال التبريزي ـ شارح ديوان أبي تَمَّام ـ : « وليس في كلام العرب مثل « دَمَقْس » في الرباعي ... [و] **تركهم أن يبنوا مثل دمقس إِنَّمَا هو اتفاق وقع في اللُّغَة ، لا أن اجتنابهم ذلك لعلة**» . ديوان أبي تَمَّام بشرح التبريزي : [١/٦١ . ٦٣] .

(١) اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٢٣١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣١٩/٢

الرفع ؛ وذلك لقرينة عقلية محضة تراعي طبيعة المحدث عنه ، وهي أَنَّ المنعوت دابة لا تعقل ؛ فلا يعقل أَنَّ المُتَكَلِّم يريد إثبات مبالغة لها ؛ فينعت ؛ فلذلك لم يبق هنا إلا الرفع لمجرد الإخبار .

يقول سيبويه : «تقول : مررت برجلٍ أسدٍ أبوه ؛ إذا كنت تريد أَنْ تجعله شديدًا ، ومررت برجل مثل الأسد أبوه ، إذا كنتَ تشبهه . فإنْ قلت : مررت بدابة أسدٌ أبوها فهو رفعٌ ؛ لأَنَّكَ إنَّمَا تخبر أَنَّ أباها هذا السبع . فإنْ قلت : مررتُ برجل أسدٌ أبوه على هذا المعنى رفعتَ ، إلا أَنَّكَ لا تجعل أباه خَلقُه كخِلقة الأسد ولا صورته »[١] .

ويفهم من النَّصّ أَنَّ سيبويه يفرق في التوجيه الإعرابِيّ بين ما طبيعته إنسان وبين ما طبيعته حيوان ، وهذا ما استنبطه عموما من تتَبُّعه للنصوص العربِيَّة . ويؤكد السيرافي هذا المعنى قائلا : «جعلت العرب لما يعقل في موضع اختصاصا في اللفظ ، وفصلت بينه وبين ما لايعقل فيه ، لما اختص به ما يعقل بأن يُخاطِب ويخاطَب ، ويأمُر ويؤمر ، وتُخبِر وتُخبَر عنه ، **وما لا يعقل ليس له من ذلك إلا الإخبار عنه ؛ فجعل لما يعقل تفضيل واختصاص**»[٢] .

٤- لا نستطيع أَنْ ننكر فضل الخليل على تلميذه سيبويه في توجيه نظره إلى أهمِيَّة سياق الحال ، وهذا ما لم يجحده سيبويه ، ففي أكثر من موضع يلعب فيه السِّياق دورا ما يشير سيبويه إلى الخليل ، وقد ذكرنا هذا في مواضع عديدة في هذا الفصل[٣] .

٥- ومما تعلمناه من مجموع النصوص في هذا الفصل أَنَّنا نستطيع أَنْ نوجّه الجملة أي توجيه إذا أمكننا «تصور سياق ما »تقع فيه هذه الجملة ، أي أَنَّنا إذا استطعنا أَنْ نقوم بما يمكن أَنْ نسميه بـ «التكييف السِّياقي» لتوجيه ما نستطيع أَنْ نقول به .

٦- في بعض الأحيان يكون المتحكم في التوجيه الإعرابِيّ ما يمكن تسميته بـ «القرينة العقلِيَّة».وليست قرينة سياق حال ولا قرينة لغوية .

مثال ذلك : تقبيح سيبويه قول من يقول : «لا تدنُ من الأسد يأكلْك» بجزم الفعل «يأكلْك» ؛ ويكون المعنى في هذه الحالة على الجزاء ، أي أَنَّ المعنى المفهوم من الجملة : إذا ابتعدت عن الأسد يأكلك ؛ وهذا لا يعقل . يقول : «فإنْ قلت لا تدن من الأسد يأكلك ؛ فهو قبيح إنْ جزمت ، وليس

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/ ٢٩

(٢) شرح كتاب سيبويه : ٢/ ٣٦٩

(٣) ينظر مثلا : المثال الذي أوردناه في : إمكانيِّة سكوت المُتَكَلِّم ودوره في التوجيه الإعرابِيّ ، والمثال الخامس في جزئية : تَحَرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النَّحْوِيَّة . ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن سيبويه يعترف بهذه الأستاذية على مدار الكتاب ، فقد ذكر النقل عنه في ٣٥٦ موضعا .

وجه كلام الناس ؛ لأَنَّكَ لا تريد أَنْ تجعل تباعده من الأسد سببا لأكله »[١] ؛ أي ليس من المعقول أَنَّ جزاء الابتعاد ـ وليس القرب ـ هو الأكل .

٧ـ يمكن أَنْ نقول ـ ونرجو أَنْ نكون على صواب في هذا ـ إِنَّ **سياق الحال قد يُؤَثِّر في ضبط بنية الكلمة** . أي أَنَّه قد يغير من ضبط بنية الكلمة الداخلية . مثال ذلك ـ ونأمل أَنْ نكون قد اخترنا الأمثلة المناسبة التي تعبر عن هذا ـ :

» إذا اعتبرنا حرف « اللام الجارة »[٢] كلمة لها ضبطها ؛ فإِنَّنَا يمكن أَنْ نقول إِنَّ هذا الضبط يتَأَثَّر بسياق الحال ، فهذه اللام إذا دَلَّت على « الاستغاثة والتعجب » ؛ « فُتِحت هذه اللام » .مثل قول الشاعر :

يا لَبَكرٍ أَنشِروا لي كُلَيبًا   يا لَبَكرٍ أَينَ أَينَ الفِرارُ

[بحر المديد]

وهذا الفتح في معنى التعجب والاستغاثة «وإلا لم يجز ، ألا ترى أَنَّكَ لو قلت : يا لَزيد **وأنت تحدثه لم يجز** »[٣] . ونقصد مما سبق أَنَّ اللام الجارة لها ضبطان : ضبط بالفتح إذا أتت في سياق دالٍّ على التعجب أو الاستغاثة ، وضبط بالكسر في غير سياق دال على تعجب أو استغاثة .

» والحرف « إِنَّ » يؤثِّر سياق الحال على فتح همزته وكسرها ، وسبق أَنْ أوردنا نصا أوضحنا فيه ذلك عندما ناقشنا « إمكانيَّة سكوت المُتَكَلِّم ودوره في التوجيه الإعرابِيّ »[٤] .

» تذكير العدد مع المعدود المؤنث ، وتأنيثه مع المعدود المذكر دليل على تأثير السِّياق على بنية الكلمة ، بل إِنَّنَا في العدد على وزن فاعل نقول « هذا حادي أحد عشر إذا كن عشر نسوةٍ معهن رجل ؛ **لأَنَّ المذكر يغلب المؤنث** »[٥] .

» ومن أقوال سيبويه المُهِمَّة التي تدل على وجود تأثير للسياق على البنية الصَّرْفِيَّة قوله : «وقد يُجرون الاسم مجرى الصفة والصفة مجرى الاسم »[٦] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٧/٣

(٢) ينظر معاني اللام الجارة د. على توفيق الحمد ويوسف جميل:المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٢٥٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢١٥/٢ ـ ٢١٨

(٤) وينظر أيضا الموضع : ١٣٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٥٦١/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٦٣٢/٣ ، وهذا مثال أيضا على تتبع البنية الصرفِيَّة في سياقاتها المختلفة .

هذه المقولة القصيرة تدل على اعتبار سيبويه للسياق حتى وإن لم يصرح بذلك ، فهو لن يصل إلى هذه النتيجة بدونه . فالاسم كلمة تدلُّ بذاتها على شيء محسوس أو شيء غير محسوس يعرف بالعقل ، وهو في الحالتين لا يقترن بزمن[1] .

أَمَّا الصفة : فهي ما دَلَّت على معنى وذات ، وهذا يشمل اسم الفاعل واسم المفعول ، وأفعل التفضيل والصفة المشبهة[2] . وللوقوف على انتقال الكلمة من هذه الطبيعة إلى تلك لا بد من سياق[3] .

٨ـ قد يكون التوجيه النَّحْوِيّ جائزًا في سياق مُعَيَّن ولا يجوز نفس هذا التوجيه في سياق آخر . مثال ذلك : إذا اجتمع متحدِّث مع أحد أقاربه أو إخوانه وأراد هذا القريب أو الأخ أَنْ يخبر المتحدِّث عن نفسه أو عن غيره ؛ فقال :

- أنا عبد الله منطلقًا .
- هو زيدٌ منطلقًا .

كان هذا الكلام محالا ؛ «لأَنَّهُ إِنَّمَا أراد أَنْ يخبرك بالانطلاق ، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية ؛ لأَنَّ هو وأنا علامتان للمضمر ؛ وإِنَّمَا يضمر إذا علم أَنَّكَ عرفت من يعني»[4] .

ولكننا إذا أخذنا هاتين الجملتين ووضعناهما في سياق آخر وقلنا إِنَّ «**رجلا كان خلف حائط** ، أو في موضع تجهله فيه ؛ فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله منطلقا في حاجتك ؛ كان حسنا»[5] .

---

(١) النحوالوافي : ٢٦/١

(٢) شرح ابن عقيل ، ص ١٨٨ ، ويمكن أن نعطي مثالا على ذلك من قول أبي تَمَّام :

بِحَوافِرٍ حُفرٍ وَصُلبٍ صُلَّبٍ   وَأَشاعِرٍ شُعرٍ وَخَلقٍ أَخلَقِ **[بحر الكامل]**.

قال التبريزي ـ شارح الديوان ـ : «والأشاعر جمع أشعر ، وهوما ينبت عليه الشعر مما يُقارب الحافر (...) وأصل الأشاعر في الصفات ثم نقل إلى الأسماء ؛ فجمع على أفاعل». ينظر : ديوان أبي تَمَّام بشرح التبريزي:٤١٠/٢

(٣) ويزعم الباحث أيضا أن تأثير السياق غير مقصور فقط على التركيب النحوي ، أو البنية الصرفية كما أشرنا ، أو الدلالةالمعجمية أو السياقية بل ينال أيضا الجانب الصوتي ، بمعنى أن سياق الحال من خلال أحد مكوناته (المتكلم) يؤثر في الجانب الصوتي . يقول د. رمضان عبد التواب : «وقد دلنا الفرّاء على أنَّ ذلك (تغيير الأصوات) مذهب العرب قديما ، في الكلمات والعبارات التي يستقبحونها ؛ **فيعمدون إلى تشويهها ، بتغيير أصواتها للتخفيف من حدة وقعها على السمع**» . ينظر : التطور اللغوي ، ص ١٢٣ ، ونص الفراء الذي أشار إليه د. رمضان :«ومن كلام العرب أن يقولوا : قاتله الله ، ثم **يستقبحونها** ؛ فيقولون : قاتعه وكاتعه . ويقولون : جوعا ، دعاء على الرجل ، ثم يستقبحونها ؛ فيقولون : جودا ، وبعضهم جوسا . ومن ذلك قولهم : ويحك وويسك ، إنما هي ويلك إلا أنها دونها بمنزلة ما مضى». ينظر : معاني القرآن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ٣٦٢/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٨١/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٨١/٢

أي أَنَّ نوعية السِّياق وخصوصيته تؤثر على التوجيه الإعرابِيّ .

٩ـ في بعض التوجيهات النحوِيَّة قد يلتزم التوجيه بحالة إعرابية واحدة أو بعلامة إعرابية واحدة ، ويكون سبب التوجيه مختلف لاختلاف سياق الحال الذي يمكن أَنْ تقال فيه الجملة . ينطبق هذا على هذه الأمثلة التي ناقشها سيبويه في أحد المواضع :

» سير عليه سيرًا .

» انطُلِقَ به انطلاقًا .

» ضرب به ضربًا .

فالكلمات « سيرًا ، انطلاقًا ، ضربًا » تنصب على وجهين : على أنَّها حال ، أو على أنَّها مفعولا مطلقا ، يقول سيبويه : « ومما يجئ توكيدًا وينصب قوله : سير عليه سيرا ، وانطلق به انطلاقا ، وضرب به ضربا ؛ فينصب على وجهين : أحدهما حال ... ، وإن شئت نصبته على إضمار فعل آخر »[1] . ولا شك أَنَّ مقام أو موقف الهيئة الذي تعبر عنه الحال غير سياق المفعول المطلق .

ونلاحظ في النَّصّ السابق أَنَّ سيبويه يجعل « الحال والمفعول المطلق » من الوسائل التي قد يأتى بها للتوكيد ، كما قال في بداية النَّصّ ، ولا شك أنهما يختلفان في المؤكد ، فالحال تؤكد هيئة صاحب الحال ، والمفعول المطلق يؤكد عامله . ونلاحظ أيضا أَنَّ التفسير السِّياقي المناسب مرتبط بمشيئة المُتَكَلِّم وإرادته . ويفهم ثالثا أَنَّ مجئ المصدر حال يصح في أي موضع . ولكن النُّحَاة يقيدون هذه العمومية بقولهم : « يمكن للمصدر أَنْ يكون حالا إذا تضمن معنى الوصف (؛ أي : معنى المشتق) بحيث تقوم قرينة تدل على هذا »[2] .

١٠ـ نؤكد هنا للمَرَّة الثانية أَنَّ سيبويه يتقيد في معظم توجيهاته الإعرابِيّة بما قالته العرب . أكد على هذا في مواضع منها : « فإنْ قلت : ضُرِبَ زَيدٌ اليَدُ والرِّجْلُ ، جاز على أَنْ يكون بدلا ، وأَن يكون توكيدا . وإنْ نصبته لم يحسن ؛ لأَنَّ الفعل إِنَّمَا أُنْفِذَ في هذه الأسماء خاصة إلى المنصوب إذا حذفتَ منهُ حرف الجرّ ، **إلاّ أَنْ تَسمعَ العربَ تقول في غيره** ، وقد سَمعناهم يقولون : مَطَرَتهُمْ ظهرًا وبطنا »[3] . ونشير هنا مع هذا التأكيد إلى أَنَّ كل التوجيهات النحوِيَّة ليست عند سيبويه على درجة واحد من القوة فبعضها قوي وبعضها ضعيف تبعا لتردد هذا التوجيه في نصوص

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣١/١

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣٧١/٢ ـ ٣٧٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٦٠/١

اللُّغَة[١] ، كما علمنا من دراستنا لمنهجه . كما نثبت هنا أيضا أَنَّ من المبادئ التي سار عليها في توجيهه أَنَّهُ من الأفضل «ألا يُلجَأُ إلى توجيه نحوي يحتاج إلى تأويل ما دام هناك توجيه لا يحتاج إليه »[٢] .

(١) ينظر : سيبويه : الكتاب ، ٩٢/٣ عند مناقشة قوله : «إِنْ تأتني آتك وأعطيك» .

(٢) ينظر : سيبويه : الكتاب ، ٣٠٧/١ ـ ٣٠٩ عند مناقشة قوله : «ما شأنك وزيدًا» .

الفصل الثالث

دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه

ويشمل المباحث التالية :

- **المبحث الأول : السِّياق والجملة الاسمِيَّة .**
- **المبحث الثاني : السِّياق والجملة الفعلِيَّة .**
- **المبحث الثالثالسِّياق والتوابع .**
- **المبحث الرابع : السِّياق والأساليب النحوِيَّة .**
- **المبحث الخامس : السِّياق والأدوات النحوِيَّة .**
- **المبحث السادس : سياق الحال والتنوين والتنكير والتعريف .**

الفصل الثالث : **دور السِّياق في التَّقْعيد النَّحْوِيّ عند سيبويه**

أشرنا في الفصل الأول إلى أَنَّ سيبويه كان يقوم بتوجيهاته الإعرابِيّة وتقعيداته النحوِيَّة من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة ، وأنَّ سيبويه كان يراعي السِّياق في التوجيه والتَّقْعِيد . وأوضحنا أَنَّ المُتَكَلِّم والمخاطب أبرز عناصر السِّياق التي اهتَمَّ بها . وبما قررناه في هذا الفصل نكون قد أثبتنا علاقة سياق الحال بالكتاب وصاحبه .

وكان لزاما علينا أَنْ نقف على منهج سيبويه في كتابه لكي نقف على كيفيَّة سريان هذه العلاقة ، وكيف فعَّلَ سيبويه السِّياق في تقعيده وتوجيهه . فكان هذان المبحثان بمثابة تمهيد نظري للفصول التي ستليه ، فأتي الفصل الثاني يمثِّل الجانب التطبيقيّ لسياق الحال وأثره في التوجيه الإعرابِيّ .

ثُمَّ ها نحن أولاء أمام الفصل الثالث الذي يمثل الجانب التطبيقي الثاني ، وفيه سنتناول ونوضح علاقة سياق الحال بالتقعيد النحوي عند سيبويه ، وسنرى ـ بإذن الله ـ كيف لعب السِّياق دورًا مهما في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ عنده .

وتجدر الإشارة هنا أَنَّ معظم كلامنا هنا سيكون مرتبطا بسياق الحال على وجه الخصوص .

وينبغي التوضيح والتأكيد أيضا على أَنَّنا سرنا على الخطة التالية في جمع مادة هذا الفصل ، وهي أَنَّهُ قد تمَّ جمعُ كلَّ المواضع التي لوحظ فيها تأثيرٌ لسياق الحال على القاعدة النحوِيَّة ، وبعد جمعها صُنِّفتْ إلى المجموعات التالية :

أ- مادة تخصُّ الجملة الاسمِيَّة .

ب- مادة تخصُّ الجملة الفعلِيَّة .

ت- مادة تخصُّ التوابع .

ث- مادة تخصُّ الأساليب .

ج- مادة تخصُّ الأدوات النحوِيَّة .

ح- مادة تخص التعريف والتنكير .

وبالطبع فَإِنَّ داخل كل مجموعة بعض التفريعات التي تخصُّها .

***

المبحث الأول : سياق الحال والجملة الاسمِيّة :

سنناقش هنا تأثير سياق الحال على الجملة الاسمِيَّة ، وسنحاول أنْ نجيب على السؤالين التاليين : ما مدى تأثير سياق الحال على تكوين الجملة الاسمِيَّة ؟ وكيف يتحكم في العلاقة بين ركنيها ؟

ويمكن أَنْ نناقش تحت هذا العنوان العناوين الفرعِيَّة الآتية :

- **السِّياق والابتداء بالمعرفة :**

قبل دراسة كتاب سيبويه توقَّع الباحث تأثيرًا محدودًا لسياق الحال على الجملة الاسمِيَّة ، تأثيرٌ قد يوجد مثلا في تقديم الخبر على المبتدأ ، أو في حذف أحد ركنيها . ولكن ما لم يتوقَّعه الباحث أَنْ يصل تأثير سياق الحال على الجملة الاسمِيَّة برمتها وجودًا وعدمًا ، وأنَّه يتحكَّم في وجودها وكينونتها وذاتها .

هذا ما تقوله نصوص سيبويه ، وما أدَّى إليه تحليل هذه النصوص . ففي أحد النصوص الخطيرة والمُهِمَّة لسيبويه يقول :

«واعلم أَنَّهُ إذا وقع في هذا البابِ نكرةٌ ومعرفةٌ فالذي تَشْغَلُ به كان المعرفةُ ؛ لأَنَّهُ حدُّ الكلام ؛ لأَنَّهما شيء واحد ، وليس بمنزلة قولك : ضرب رجل زيدًا لأَنَّهما شيئان مختلفانِ ، **وهما في كان بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت : عبد الله منطلق ، تبتدئ بالأعرف ثُمَّ تَذكر الخبرَ**» [(١)] .

وقد وقفتُ أمام جملة سيبويه المُهِمَّة «تبتدئ بالأعرف ثُمَّ تذكر الخبر».وأثارت عندي عدة أسئلة :

» من الذي يبتدئ بالأعرف ؟

» والأعرف لمَنْ ؟

» وألا تقتضي هذه الجملة أَنْ يكون هناك «شيء معروف »بين طرفين .

» ولماذا استخدم صيغة التفضيل «الأعرف».

والإجابة المنطقية العقليَّة البديهيَّة لهذه الأسئلة أَنَّ الذي يبتدئ **بالأعرف هو المُتَكَلِّم** ، وأَنْ يتَّجه بكلامه إلى مخاطَب ، وأنَّ المُتَكَلِّم إذا أراد أَنْ يبدأ حديثًا مع المخاطب لا بد أَنْ يبدأ بشيء

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٧/١ ، ويقدم السيرافي لنص سيبويه السابق فضل بيان فيقول : «الوجه أن تجعل الأعرف هو الاسم ، كقولك : كان زيدٌ منطلقا ، وكان منطلقًا زيد ، ولم يحسن أن تقول : كان منطلقٌ زيدًا ؛ لأنَّك إنَّمَا تخبر عمن يعرفه المخاطب بما لا يعرفه من شأنه حتى يعرفه فيساويك فيه وفي خبره» ٢١٩/٢ ويقول سيبويه في نصّ ثان مؤكدا لفكرة الابتداء بالمعرفة : «إنَّمَا تكون المعرفة مبنيا عليها أو مبنيةٌ على اسم أو غير اسم ». ١١٤/٢

«معروف » بينهما لكي يستطيع أَنْ «**يبني**» عليه الكلام ، وينبغي أَنْ يتحرى المُتَكَلِّم أَنْ يبتدئ بأعرف الأشياء بينه وبين المخاطب قدر استطاعته .

ومعنى هذا أَنَّ بداية الجملة الاسمِيَّة مرتبطة بالمُتَكَلِّم وإرادته ، و**هو الذي يكسبها مشروعيَّة وجودها بأن يبدأها** بـ «شيء معروف »بينه وبين المخاطب .

ويعني هذا أيضا أَنَّ صحَّة الجملة الاسمِيَّة مشروطة بأن يكون «مبتدؤها » معروفًا بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، أي أَنَّ الجملة الاسمِيَّة لكي تقع صحيحة يجب أَنْ يبدأ المُتَكَلِّم بما هو معروف بينه وبين المخاطب ، ولا بد أَنْ تكونَ هناك نقطة لقاء معرفية بين المُتَكَلِّم والمخاطب لكي يمتدَّ الكلامُ وتتكوَّن الجمل التالية [١] .

وهنا سؤال مُهِمّ هو : ألا يتدخَّل سياقُ الحال في هذه المعرفة بين المُتَكَلِّم والمخاطب ؟ ! وهل يُعقَلُ أَنْ يبدأ المُتَكَلِّم كلاما بـ «شيء معروف » يعرفه المُتَكَلِّم والمخاطب بدون أَنْ يكون هناك «**رابط سِياقِيّ ما**»يربط المُتَكَلِّم بالمخاطب سلفا ؟ ! وهل يُعقَل على سبيل المثال أَنْ يُوقف أحدُ الأشخاص شخصا في الطريق لا يعرفه ولا توجد بينهما سابق معرفة ، ولم ير الأول الثاني قط ، ثُمَّ يقول الأول للثاني : «عبد الله نجح» ، أو «الطعام لذيذ»؟ ! إنَّ هذا لا يُعقل ، وسيظنّ الشخص الثاني أَنَّ الأول صاحب السؤال مجنونا يهذي .

إن المُتَكَلِّم الذي يريد أَنْ يُنْشِئ «اتصالا » بينه وبين المخاطب لا بدَّ أَنْ تكونَ لديه «الإرادة والدافع»لإنشاء هذا الاتصال ، ولكي ينجح هذا الاتصال يجب أَنْ يبدأ المُتَكَلِّم بنقطة لقاء معرفية بينه وبين المخاطب ، و**نقطة اللقاء المعرفيَّة هذه يتدخل السِّياق في تحديدها** ؛ فمثلا عندما يضم «مسجدٌ » مجموعة من روّاده لا يعرف بعضهم بعضا لحضور « محاضرة علمِيَّة »لأحد العلماء ، وبعد انتهاء المحاضرة قال أحد الحاضرين لباقي المجموعة : «المحاضرة جَيِّدة » . فكون هذه المجموعة في «مسجد » يتلقَّون «محاضرة » يمثل هذا كله سياقا يُمَكِّنُ أحدَهم من أَنْ يختار «مبتدأ » يشترك الجميع في معرفته ، هو «المحاضرة »ويخبر عنه بخبر هو «جَيِّد » ، وتتقبَّل باقي المجموعة هذا الخبر ، ويجعله السِّياق مستساغا مقبولا . ولو قام نفس الشخص قائل العبارة بقول نفس العبارة خارج المسجد لأحد الأشخاص لاستنكرت عليه هذه الجملة .

ولَعلَّ هذا ما يجعل كاتب المقال الصحفي ، أو من يكتب كتابا يضع له عنوانا ، يكون بمثابة نقطة اللقاء المعرفيَّة المشتركة بين كاتب المقال أو الكتاب وقارئه ، ويكون المقال ذاته أو الكتاب عينه بمثابة الخبر لهذا المبتدأ .

---

(١) تنبغي الإشارة إلى أنه يجوز في الشعر وفي ضعف من الكلام الابتداء بالنكرة . سيبويه : الكتاب ٤٨/١

إننا نعتقد أَنَّ سياق الحال حاضر في بداية تكوين الجملة الاسمِيَّة متمثِّلا في المُتَكَلِّم وإرادته الواعية التي تختار ما يبدأ به كلاما مفهوما يتواصل به مع المخاطب ، ومتمثِّلا أيضا في تهيئته لقدر من المعرفة مشترك بين المُتَكَلِّم والمخاطب .

ولا يقتصر الأمر على مجرد تهيئة هذا القدر من المعرفة ، بل لا بدَّ أَنْ يكون هذا القدر من المعرفة هو «الأعرف» بين المُتَكَلِّم والمخاطب ؛ فكلمة «الأعرف» التي أتت في نصّ سيبويه السابق توحي بأنه يجب على المُتَكَلِّم أَنْ يجتهد في الابتداء بما هو «أعرف» بينه وبين المخاطب ، وأن يتحرَّى ذلك ، ولا يكون على صواب إذا بدأ بما هو «معروف» وترك «الأعرف» ؛ لأَنَّ هذا ينعكس سلبا على وضوح الجملة .

ومما يؤكد أيضا أَنَّ الكلام يجب أَنْ يبنى على ما هو معروف بين المُتَكَلِّم والمخاطب أَنَّنا لا يجوز أَنْ نستخدم الضمائر في المرحلة الأولى من الكلام ؛ لأَنَّ الإضمار يأتي بعد ذكر .

ومما يدعم هذه النتيجة وهي أَنَّ سياق الحال يتدخَّل في اختيار المبتدأ وبداية تكوين الجملة الاسمِيَّة هذا النَّصّ المهم الذي ذكره سيبويه في باب النداء :

«وإِنَّمَا فعلوا هذا بالنداء لكثرته في كلامهم ؛ **<u>ولأَنَّ أول الكلام أبدًا النداء ؛ إلا أَنْ تدعه استغناءً بإقبال المخاطب عليك ، فهو أول كل كلام لك به تعطف المُكَلَّم عليك ، فلمّا كثر وكان الأول في كل موضع ؛ حذفوا منه تخفيفا ؛ لأَنَّهم ممَّا يُغَيِّرون الأكثر في كلامهم</u>**»[(١)] .

إن أول الكلام أبدًا النداء ، والنداء يتطلب متكلِّما ومخاطَبا ، وحتما يجب أَنْ يكون هناك موقف يقال فيه النداء . وبالنداء يعطف المُتَكَلِّم المخاطب عليه ؛ أي يطلب منه الانتباه لما سيقوله وقد يستغنى عن النداء إذا كان المخاطب مقبلا على المُتَكَلِّم وتخفيفا في الكلام . ثُمَّ بعد ذلك يبدأ المُتَكَلِّم في إنشاء الكلام الذي يكون في الغالب جملة اسمية[(٢)] . إِنَّ هذا النَّصّ هو الآخر يثبت بما لا يدع مجالا للشك أَنَّ لسياق الحال تأثيرا واضحا على الجملة الاسمِيَّة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٨/٢

(٢) قمتُ ببحث بسيط على مائة خبر صحفي في صحيفة الأهرام المصريَّة ، على اعتبار أن هذه الأخبار مجرد حديث بين متكلم (صحفي) ومخاطب (قارئ) فوجدتُ أن ٩٩% من هذه الأخبار تبدأ بعنوان جملة اسمية (قد يكون مبتدؤها محذوف) ، وأن الجملة الأولى في بداية ٩٧% من هذه الأخبار كانت جملة فعلية فعلها ماض .

وعَلَّمَنا سيبويه في نصوص كثيرة أَنَّ حالة الرفع ترتبط بما هو ثابت ومستقر في نفس المُتَكَلِّم ؛ فقال في أحد هذه النصوص : « **فإذا رفعت (على الابتداء) فالذي في نفسك ما أظهرت** » [(١)] .

ويذكر في نصّ ثان عند مناقشته للجمل : «سلامٌ عليك ، وخيرٌ بين يديك ، وويلٌ لك ، وويسٌ لك ، وويلةٌ لك ، وعولةٌ لك ... »أَنَّ المصادر والأسماء في بداية هذه الجمل مبتدأ ، مبني عليها ما بعدها ، والسبب أَنَّ «المعنى فيهن أَنَّكَ ابتدأت شيئا قد ثبت عندك ، ولست في حالة حديثك تعمل في إثباتها وتزجيتها » [(٢)] ؛ أي أَنَّ ما سوغ مجيءَ المبتدأ نكرةً ورفعه في الجمل السابقة أَنَّ المُتَكَلِّم ابتدأ شيئا « **قد ثبت عنده** » ؛ أي شيء معروف عنده ، وتتجه إرادة المُتَكَلِّم إلى أَنْ يبني عليه خبرا يتَّجه به إلى المخاطب ، ولكي ينجح في هذا يجب أَنْ يكون ما يعرفه معروفا عند المخاطب أيضا .

إذن فحالة الرفع عامة ـ كما لاحظ سيبويه من خلال استقرائه وتتَبُّعه للتراكيب اللُّغَوِيَّة في السِّياقات المختلفة ـ مرتبطة بما يدور في نفس المُتَكَلِّم ، وما هو ثابت فيها . وكون المبتدأ مرفوع ؛ فهو يدخل ضمن هذه القاعدة ، وهذا دليل آخر على تأثير سياق الحال على الجملة الاسمِيَّة من أساسها .

ومن لطيف إشارات العلماء إشارتهم إلى الفرق بين النصب والرفع ، ففي « النصب إشعارًا بالفعل ، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطرو ، ولا كذلك الرفع ، فإِنَّهُ إِنَّمَا يستدعى اسما : ذلك الاسم صفة ثابتة » [(٣)] .

ويظهر هنا سؤال مُهِمّ آخر : ماذا يحدث لو بدأ المُتَكَلِّم بما هو «ليس معروفًا عند المخاطب » ؟ والسؤال بطريقة أخرى : ما الذي يترتب على بدء الجملة الاسمِيَّة بـ «نكرة »؟

الإجابة عن هذا السؤال تقول : إِنَّ البدء بما ليس معروفا أو البدء بنكرة سيؤدي إلى «اللَّبس» وعدم تَحَصُّل الفائدة من الكلام . وهذا ما يبينه سيبويه في نصّ واضح وصريح يقول فيه : «فإِنْ قلتَ كان حليم أو رجلٌ **فقد بدأْتَ بنكرةٍ ، ولا يستقيم أَنْ تُخبِرَ المخاطَبَ عن المنكور** ، وليس هذا بالذي يَنْزِلُ به المخاطَبُ منزلتَك في المعرفة ، **فكرهوا أَنْ يَقْرَبوا بابَ لبْسٍ**» [(٤)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٠/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٠/١

(٣) ابن المنير الإسكندري : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ، بهامش تفسير الكشاف للزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، (١٤٠٧ هـ)، ٩/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٨/١ ، ويقول سيبويه في نصّ ثان : « ولو قلت : رجلٌ ذاهبٌ ، لم يحسن حتى تعرفه بشيء ؛ فتقول : راكبٌ من فلان سائر » ٣٢٩/١ ، وينقل في نصّ ثالث عن الخليل قوله : « إِنَّ من أفضلهم كان =

ويعلق السيرافي بكلام مُهِمّ على هذا النَّصّ قائلا : « إنَّ **ابتداءك بالنكرة لتحدث عنها غير مستقيم ؛ لأَنَّ المخاطب ليس ينزل منزلتك في معرفتها** . وحكم الخطاب المفهوم أَنْ يساوِي المخاطب المُتَكَلِّم في معرفة ما خبره به ، فإذا قال : كان زيدٌ عالمًا ؛ فقد كان المخاطب عالمًا بزيد من قبل ، وقد عرف علمه الآن ؛ لإخبار المُتَكَلِّم إياه ، فقد ساواه في الأمرين جميعًا ، وإذا قال : كان عالمٌ زيد ؛ فعالم منكور لا يعرفه المخاطب ، ولم يجعله خبرا فيقيده ، وقد قدمنا أَنَّ الأسماء لا تستفاد ، فمعرفة المخاطب بعالم غير واقعة ، فلم يساو المخاطبُ المُتَكَلِّم إذن ؛ لأَنَّ المنكور في الإخبار ما لا يعرفه المخاطب ، وإن كان المُتَكَلِّم قد رآه وعرَّفه » [(١)] .

إن البدء بنكرة يعني عدم تحديد نقطة معرفية تصلح لبناء الكلام عليها ، وما يأتي بعد هذه النكرة لغو لا فائدة فيه للمخاطب . إنَّ الهدف من الجملة الاسمِيَّة وخبرها أَنَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ ينقل «فائدة» عن «شيء مُحَدَّد ومعروف» للمخاطب ، وأَنَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ يساوي بينه وبين المخاطب في الفائدة التي يعرفها عن هذا الشيء المُحَدَّد ، فإذا بدأ المُتَكَلِّم بنكرة ؛ ضاعت هذه الفائدة ، ولم يستطع المخاطب أَنْ يضعها في موضعها المناسب ولا أَنْ يستفيد بها . فما الفائدة التي تعود على المخاطب عندما نبدأ بكلمة «رجلٌ» النكرة في قولنا : «رجلٌ يأكل» ، فمن الطبيعي والمنطقي أَنَّ أي رجل يأكل ، فهذه الجملة وأشباهها لا تحمل أَيَّة فائدة للمخاطب ؛ لأَنَّ الاسم النكرة كلمة تطلق على جنس يشمل أفرادًا كثيرين ، فأي منهم ستُناطُ به الفائدة التي سيقولها المُتَكَلِّم .

يقول سيبويه : «ولا يبدأ بما يكون فيه اللَّبس ، وهو النكرة . أَلا ترى أَنَّك لو قلت : كان إنسانٌ حليمًا أو كان رجل منطلقًا ، **كنتَ تُلْبِسُ** ؛ لأَنَّهُ لا يُستنكَرُ أَنْ يكون في الدنيا إنسانٌ هكذا ، فكرهوا أَنْ يَبْدَءوا بما فيه اللَّبس ويَجعلوا المعرفة خبرًا لما يكون فيه هذا اللَّبس» [(٢)] .

إذن فالأساس الذي عليه تبنى الجملة الاسمِيَّة هو ألا تُبدأ بنكرة بحال من الأحوال ، إلا إذا تم «تضييق دائرة التنكير والعمومية» التي تكون في النكرة ، و«**تقع الفائدة للمخاطب**» [(٣)] . ومن الحالات التي تضيق فيها دائرة التنكير والعمومية ، أَنْ تقع النكرة في سياق نفي ، كما يشير إلى ذلك سيبويه

رجلا ؛ يقبح لأنك لو قلت إنَّ خيارهم رجلا ، ثم سكت ؛ كان قبيحا حتى تعرفه بشيء ، أو تقول : رجلا من أمره كذا وكذا» ١٥٣/٢

(١) شرح كتاب سيبويه : (طبعة هيئة الكتاب) ٣٧٣/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٨/١

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٣١٧/١، ويقول النُّحَاة في تعريف الإفادة : «الإفادة : مصدر أفاد ، والمراد بها إفهام معنى من اللفظ يحسن السكوت عليه : من المُتَكَلِّم ، أو من السامع ، أو كل منهما » . ينظر : محمد محيي الدين عبد الحميد : تنقيح الأزهرية ، ص ٥

في باب « تخبر فيه عن النّكرةِ بنكرة »قائلا : « وإنّما حَسُنَ الإخبارُ ههنا عن النكرة حيث أردت أَنْ تَنفِيَ أَنْ يكون في مثل حاله شيءٌ أو فوقه ، ولأَنَّ المخاطَبَ قد يحتاج إلى أَنْ تُعْلِمهَ مثلَ هذا »[(١)] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أَنَّ النُّحَاة بعد سيبويه أوصلوا مواضع النكرة المفيدة حين تقع مبتدأ إلى نحو أربعين موضعًا . تلك المواضع المتعددة جعلت بعض النحاة يضع ضابطا كليا لها . نقل الصبَّان في حاشيته القول في ذلك فذكر : « لم يعتنوا بتعديد الأماكن التي يسوغ الابتداء فيها بالنكرة ، وإنما ذكروا ضابطًا كليًا وهو أنَّه متى حصلت الفائدة **جاز الإخبار عن النكرة** »[(٢)] .

ويعلق الأستاذ عباس حسن على هذا العدد الكبير من المواضع بقوله : «ولا حاجة بنا إلى احتمال العناء في سردها ، واستقصاء مواضعها ، **ما دام الأساس الذي تقوم عليه هو « الإفادة »** ، **فعلى هذا الأساس وحده يرجع الحكم على صحة الابتداء بالنكرة أو عدم صحته ، من غير داعٍ لحصر المواضع أو عدها** »[(٣)] . ثُمَّ أضاف ـ رحمه الله ـ كلاما نفيسا في الحاشية ذات الرقْم ١ من ٤٨٦/١ حيث قال :

« **وكذلك فعل سيبويه والمتقدمون** ؛ ولهذا يرى بعض النُّحَاة ـ بحق ـ أَنَّهُ لا داعي لهذا الشرط (شرط الإفادة) ؛ **لأَنَّهُ مفهوم بداهة ؛ إذ لا يتكلم عاقل بغير ما يفيد وإلا عرض نفسه وكلامه للحكم عليه بما لا يرضاه** . أَمَّا المتأخرون فتوقعوا أَنْ يخطئ كثيرٌ مواضع الإفادة ؛ فحاولوا أَنْ يدلوهم عليها ؛ بحصر مواضعها ».

إن كلام الأستاذ عباس حسن هنا يؤكد وجهة النظر التي ذُكِرت سلفا وهي أَنَّ سياق الحال يسيطر على الجملة الاسمِيَّة من أساسها ، ويؤثِّر فيها بشِدَّة . فالمُتَكَلِّم العاقل يجب أَنْ يحدد مبتدأ معرفة يُنيط به الفائدة التي يريد أَنْ ينقلها إلى المخاطب .

ولا ننسى ونحن في غمرة حديثنا عن المبتدأ وعلاقة سياق الحال به أَنْ نتحدَّث عن الجزء المتمِّم له ونقصد به الخبر . فمن الأمور التي حرص سيبويه على إيضاحها وتأكيدها علاقة التلازم بينهما ، وإشارته إلى أَنَّهُ لا وجود لأحدهما بدون الآخر ، وأنَّه لا يستغني أحدهما عن الآخر . قال سيبويه في باب «المسند والمسند إليه»: «وهما ما لا يَغْنَى (أو يستغني) واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المُتَكَلِّم منه بدًّا ، فمن ذلك الاسم والمبني عليه »[(٤)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٥٤/١

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشموني ، ٢٩٩/١

(٣) النحو الوافي : ٤٨٥/١ ـ ٤٨٦

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٣/١

هذا التلازم بينهما ضروري لكليهما ؛ فالمبتدأ لا يكون مبتدأ إلا إذا وُجِد ما يبنى عليه ، والخبر لا يكون حتى يعتمد على المبتدأ ، يقول :

- «إنك إذا ابتدأت الاسم فَإِنَّما تبتدئه لما بعده ، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لا بد منه ؛ وإلا فسد الكلام ولم يسغ لك» [١] .
- « فالمبتدأ كل اسم ابتدئ ؛ ليبنى عليه كلامٌ ، والمبتدأ والمبني عليه رفع . فالابتداء لا يكون إلا بمبني عليه » [٢] .
- «الابتداء إِنَّمَا هو خبر» [٣] .
- «ألا ترى أَنَّ « مِنْ زيدٍ » لا يكون كلامًا حتى يكون معتمدًا على غيره » [٤] .
- «وإذا جعلت « هذا زيدٌ » اسم رجل فهو يحتاج في الابتداء وغيره إلى ما يحتاج إليه زيد ويستغني كما يستغني » [٥] .

ومن أقوال السيرافي التي ذكرها في بعض مواضع شرحه مبينا أهمِيَّة الخبر للمبتدأ قوله :

> « فائدة الإفادة من المُتَكَلِّم للمخاطب في الخبر . ولو جُعِلَ الاسم نكرة والخبر معرفة والاسم لا يستفيده المخاطب لم يصر المخاطب بمنزلة المُتَكَلِّم في معرفة ما أفاده» [٦] .

من خلال هذه النصوص يؤكد سيبويه على أَنَّ المبتدأ يستمد شرعية وجوده من وجود الخبر ، فلا بدَّ من وجوده لكي يوجد .

ويُغري المقام هنا ببعض الاستطراد المهم والمفيد الذي يُزيد الصورة إيضاحًا وعمقًا قبل الاستمرار في الحديث عن الخبر . في استطرادنا هنا نشير إلى أَنَّ فكرة الابتداء بالمعرفة و«وجوبيّة» ارتباطه بـ «الخبر» لكي تكتمل «الجملة» ليست فكرة مقصورة على اللُّغَة العربِيَّة وحدها بل نعتقد أنَّها موجودة في كثير من اللغات إنْ لم تكن جميعها .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٩/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٢٦/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٢٨/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٢٨/٣

(٦) شرح كتاب سيبويه : ٢١٩/٢

فمثلا تحدِّثنا كتب قواعد اللُّغَة الإنجليزية عن «الجملة **Sentence**» ومكوناتها ، فتذكر أنَّها ـ أي الجملة ـ هي التي تعبِّر عن «فكرة مكتملة **A complete thought**»[(١)] .

ومن البديهيّ أَنَّ الفكرة المكتملة لكي يفهمها المخاطب أو السامع يجب على المُتَكَلِّم أَنْ يبدأ بـ «شيء» معروف بينه وبين السامع أو المخاطب ضربة لازب .

وتضيف كتب قواعد الإنجليزية أَنَّه لكي يتمَّ التعبير عن «فكرة مكتملة» فلزاما أَنْ تكون الجملة مكونة من عنصرين : الأول : « **Subject**[(٢)] الموضوع أو المسند إليه » مدار الكلام أو الحديث وهو «الذي يخبرنا ما أو لمن يتحدَّث المُتَكَلِّم». والثاني : «**Predicate** المحمول أو المسند أو الخبر » ، وهو «جزء الجملة الذي يصنع تعبيرا أو بيانا عن المسند إليه **The predicate is the part of the sentence that makes a statement about the subject**»[(٣)] .

إن التلازم بين المبتدأ والخبر لكي تتكون الجملة موجود في اللغتين على الرغم من اختلاف العائلة اللغوية التي تنتمي إليها كلتا اللغتين ، فالعربية تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية واللغة الإنجليزية تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندية الأوربية INDO– EUROPEAN .

ووجود فكرة الابتداء والخبريَّة في كلتا اللغتين العربيَّة والإنجليزية ـ وهي ولا بدّ موجودة في كثير من اللغات إنْ لم تكن فيها كلِّها ـ قد تدعم بشكل ما فكرة «النحو العالمي Universal Grammar» التي نادى به العالم اللغويّ تشومسكي .

نعود إلى الخبر في العربيَّة ونكمل تجلية بقية الحقائق عنه من خلال نصوص عبقري اللُّغَة سيبويه .

نقول إنَّ سياق الحال يتدخل من خلال أحد عناصره : المخاطب في تحديد الخبر . فمن خلال إمكانيَّة سكوت المخاطب نعلم أَنَّ الخبر قد ظهر في الجملة وأنَّه ارتبط بالمبتدأ وحمل الفائدة التي وصلت إلى المخاطب وفهمها فسكت . فإذا لم يصح سكوت المخاطب كان هذا إيذانًا بعدم ظهور الخبر وهذا يعني عدم وصول الفائدة للمخاطب ، ويعني أيضًا أَنَّ المبتدأ لم يكتمل وجوده . يقول :

---

(١) ينظر : **The New Webster's Dictionary Of The English Language, Encyclopedic Supplements, New Websters Practical English Handbook, (Lexicon Publications, INC. , Danbury,CT 1996), P. EH-4**

(٢) نحب أن نسجل هنا ملحوظة بسيطة وهي أَنَّ ترجمة كلمة «Subject » بـ «الفاعل» هو خطأ محض من وجهة نظر الباحث ؛ لأَنَّ هذا سيؤدي إلى لبس بين معنى الفاعل كاصطلاح نحوي في العَرَبِيَّة وبين معناه الأصلي الذي هو المسند إليه في اللغة الإنجليزية .

(٣) **Ibid, P. EH-4**

« ألا ترى أنَّك تقول سبحان الله ، من هو وما هو! فهذا استفهام فيه معنى التعجب . **ولو كان خبرًا لم يجز ذلك ؛ لأنَّهُ لا يجوز في الخبر أَنْ تقول : من هو ، وتسكت** »[1] .

وقد يصح سكوت المُتَكَلِّم بدون وجود خبر في الجملة وذلك لأَنَّ سياق الحال يتكفل بتحديد هذا الخبر للمخاطب ، أي أَنَّ المُتَكَلِّم لم يذكر الخبر لعلمه أَنَّ سياق الحال سيُمَكِّنُ المخاطبَ من تحديده ، يقول سيبويه في : « هذا باب ما يَحسن عليه السكوتُ في هذه الأحرف الخمسة (إنَّ وأخواتها) » : « ... ويقول الرجل للرجل : هل لكم أحدٌ إِنَّ الناس أَلْبٌ عليكم ، فيقول : إِنَّ زيدا ، وإِنَّ عمرا ؛ أي : إِنَّ لنا »[2] .

إن سكوت المُتَكَلِّم دليل على وصول فائدة إليه ، فائدة لم تكن معلومة لديه من قبل . ولَعلَّ هذا يرتبط بإشارة سيبويه إلى الجملة الاسمِيَّة بأنَّها «جملة واجبة »[3] ، التي تعني عنده أنَّها «جملة خبرِيَّة تحتمل الصدق والكذب »[4] .

وفي بعض الأحيان تتضافر بقية مكونات سياق الحال مع المُتَكَلِّم والمخاطب في تحديد الخبر وتحديد دلالته الخبرِيَّة ، وفي أَنَّهُ يحمل فائدة للمخاطب . يقول سيبويه : «وتقول : « قد جربتك ؛ فوجدتُك أنت أنت » . فأنت الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها ، كَأَنَّك قلت : فوجدتك وجهُك طليقٌ . والمعنى أَنَّكَ أردت أَنْ تقول : فوجدتك أنت الذي أعرف . ومثل ذلك : أنت أنت ، وإن فعلت هذا فأنت أنت ، أي فأنت الذي أعرف ... كما تقول : الناس الناس ؛ أي : الناس بكل مكان وعلى كل حال كما تعرف »[5] .

إن الكلمتين «أنت أنت » قد تكونان في سياق آخر مجرد توكيد لفظي ، ولَكِنَّهما في سياق ما مع حسن سكوت المُتَكَلِّم قد تكونان جملة مفيدة تحمل فائدة للمخاطب .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٨١/٢ ، وينظر الموضع : ١٧٦/٢ ، ٤١٧/١ ، وقد استخدم سيبويه حسن السكوت في تصحيح كثير من التراكيب اللُّغَوِيَّة في عدد من الأبواب النَّحْوِيَّة مثل النداء ١٨٨/٢ ومع باب الفاء ووظائفها ٦٩/٣ ، وباب المنفي المضاف بلام الإضافة ٢٨١/٢ وسبق أن أشرنا في الفصل السابق أن المُتَكَلِّم وحسن سكوته لعبا دورا في التوجيه النحوي وفي إثرائه .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٤١/٢

(٣) ينظر : سيبويه : الكتاب ، ١٤٦/٢

(٤) د. محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ، ص ٢٩٥

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٩/٢

في ختام هذه الجزئيَّة نشير إلى أمر مثير للانتباه هنا ويستحق التسجيل وهو أَنَّهُ من الألفاظ أو المصطلحات التي ذكرها سيبويه في وصفه العلاقة بين المبتدأ والخبر مصطلح «البناء»، فكثيرا ما أشار إلى أَنَّ الخبر «**يُبْنَى**» أو «**مبنيٌّ**» على المبتدأ ، فقال مثلا في عنوان أحد أبوابه «هذا باب ما يرتفع فيه الخبر لأَنَّهُ مبنيٌّ على مبتدأ »[١] ، وهذا المصطلح الذي تكرر عدة مرَّات له دلالته عند صاحب الكتاب وله مغزاه ، ولم يكن اختياره له اعتباطيا ولا خبط عشواء ، تلك الدِّلالَة وهذا المغزى يتمثل في :

- أن البناء لا يكون دفعة واحدة ، بل يبدأ بلبنة وبعدها لبنة إلى أَنْ يكتمل البناء ، وكذلك الجملة .
- كما أَنَّ البناء لا بد أَنْ يكون ثابتا على أرض محدَّدة وذي شكل مُحَدَّد وكذلك الجملة تتطلَّب قدرا مُحَدَّدا من المعرفة تنطلق منه . فالبناء لا يكون في فراغ ، ولا على مساحة لا متناهية من الأرض ، بل يحتاج البناء إلى مساحة محدَّدة للبناء عليها ، والمبتدأ يحتاج إلى أَنْ يكون محددا وليس مطلقا مبهما حتى يتمكَّن المُتَكَلِّم من البناء عليه .
- ويتطلب البناء أيضا إرادة واعية حتى تضع تصاميمه وتخرجه بشكل منتظم جميل يسرُّ الناظرين ، وكذلك الجملة .
- كما أَنَّ الباني لا يبني شيئا بلا هدف ولا غاية وكذلك الجملة يهدف بها المُتَكَلِّم شيئا يبغي تحقيقه[٢] .
- والبناء قد يكون طابقا وقد يكون عدة طوابق ، ولا يمكن الوصول للطوابق العليا بدون الطوابق السفلى ، وكذلك الجملة في معانيها المختلفة ؛ فلكي نمر بتلك المعاني العليا السِّياقِيَّة للجملة لابد أَنْ نمرَّ أولا بالمعاني السفلى : معاني الألفاظ المفردة ، معاني الأوزان الصَّرْفِيَّة ، المعاني النحوِيَّة[٣] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٨٦/٢

(٢) وفكرة البناء هذه كانت من الأدوات التي استخدمها سيبويه في تحديد الوظائف النَّحْوِيَّة لبعض الألفاظ ، فمثلا ألفاظ التوكيد لا تكون « مبتدأ » أو « خبر » في الغالب يبنى عليها و « لأنها إِنَّمَا توصف بها الأسماء ، ولا تبنى على شيء » .٢ /١١٦ ، كما تتردد كلمة البناء مع بنية الكلمة ، فيقال الأبنية الصرفِيَّة .

(٣) ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا المصطلح قد استخدمه النُّحَاة من بعد سيبويه ، ونجد مثلا الزمخشري يستخدمه في تخريجاته النَّحْوِيَّة في تفسيره الكشاف ، فقال مثلا في قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ٤ : « وفي تقديم الآخرة وبناء يوقنون على هم تعريض بأهل الكتاب ». الكشاف : ٤٣/١

➢ **الحذف في الجملة الاسمِيَّة وسياق الحال** :

أشار سيبويه إلى حذف المبتدأ وإضماره[(١)] ، وفي عبارات واضحة جدا يربط بين إضمار المبتدأ وبين سياق الحال ، ويذكر بعض الأمثلة على سياقات حال مختلفة يمكن من خلالها إضمار المبتدأ ، وعقد بابا سمَّاه «هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا ، ويكون المبنيُّ عليه مظهرا».قال فيه :

«وذلك أَنَّكَ رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص ؛ فقلت : عبد الله وربِّي ، كَأَنَّك قلت : ذاك عبد الله ، أو هذا عبد الله . أو سمعتَ صوتا فعرفتَ صاحبَ الصوت فصار آية لك على معرفته ؛ فقلت : زيد وربِّي . أو مسِسْتَ جسدا أو شممت ريحا فقلت : زيد ، أو المِسك . أو ذقتَ طعاما فقلت : العسل . ولو حُدِّثتَ عن شمائل رجلٍ فصار آية لك على معرفته لقلت : عبد الله . كَأَنَّ رجلا قال : مررتُ برجل راحم للمساكين بارٍّ بوالديه ، فقلت : فلان واللهِ »[(٢)] .

وعبارات كهذه من أوضح العبارات التي ربط فيها سيبويه سياق الحال والجملة الاسمِيَّة .

- فعندما أرى صورة شخص يشبه صورة شخص آخر ، أقول : عبد الله وربِّي ؛ أي : هذا يشبه عبد الله ، أو هذا عبد الله .
- وعندما أسمع صوتا يكون صوته آية (أي : علامة) على صوت آخر نعرفه ؛ أقول : زيد وربِّي ؛ أي : هذا زيد .
- أو مسست جسدا أو شممت ريحا؛ فأقول : زيد أو المسك ؛ أي : هذا زيد أو هذا المسك .
- أو ذقت طعاما ؛ فأقول : العسل ؛ أي : إِنَّهُ العسل .
- وإذا حدثت عن شمائل رجل فصار هذا علامة على رجل ، فأقول : عبد الله ؛ أي : إِنَّهُ عبد الله .

قال ابن يعيش موضحا الحذف في الجملة الاسمية : «اعلم أن المبتدأ والخبر جملةٌ مفيدةٌ تحصل الفائدةُ بمجموعهما ، فالمبتدأ معتمَد الفائدة ، والخبرُ محلُّ الفائدة ، فلا بدَّ منهما ، **إِلَّا أنَّه قد تُوجَد قرينةٌ لفظيَّة ، أو حاليَّة تُغنِي عن النطق بأحدهما ؛ فيُحذَف لدلالتها عليه** ، لأنَّ الألفاظ إنَّما جيءَ

---

(١) يفرق العلماء بين الحذف والإضمار ، فالحذف : «إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل » . الرزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ١٠٢/٣ ، أو هو : «يراد به في النحو : إسقاط كلمة من بناء الجملة ، وقد تكون من أركانها ، كالمبتدأ أو الخبر أو الفعل أو الفاعل ، وقد تكون حرفا ، وقد تحذف الجملة ، كجملة جواب الشرط أو جملة جواب القسم عند اجتماع شرط وقسم» . د. عبادة : معجم مصطلحات النحو ، ص١٠١ . ١٠٢ ، أما الإضمار فهو : «التقدير ، فإضمار الفعل تقدير وجوده في التركيب من غير أن يُذكر ، وكذلك إضمار المبتدأ».السابق ، ص ١٨٨

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٣٠/٢

بها للدلالة على المعنى ، فإذا فُهم المعنى بدون اللفظ ، جاز أن لا تأتي به ، ويكون مرادا حكما وتقديرًا . وقد جاء ذلك مَجيئا صالحا ، فحذفوا المبتدأ مرة ، والخبر أخرى ، فممّا حُذف فيه المبتدأ قول المستهِلّ : « الهِلالُ واللهِ » أي : هذا الهلالُ والله ، ... ومثله إذا شممتَ ريحا طيِّبة قلت : «المِسكُ والله» أي : هو المسك والله ، أو هذا المسك ، وكذلك لو رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة ذلك الشخص ، فإذا رأيته بعد قلت : « عبدُ الله وربِّي » . كأنَّك قلت : «ذاك عبد الله» ، أو« هذا عبد الله » . وكذلك لو حدثت عن شمائل رجل ، ووصف بصفات مثل : مررت برجل راحم المساكين بار بوالديه ، فعرف بتلك الأوصاف ، فقلت : زيد والله ، أي : هو زيد ، أو المذكور زيد » [(١)] .

➢ قرينة السِّياق والحال النَّحْويّ :

تتعدد الاعتبارات التي يمكن أَنْ تُقَسَّمَ الحالُ إليها تعددًا ملحوظًا ، من هذه الاعتبارات التي يمكن أَنْ تُقسم إليها : «الاشتقاق والجمود ، المعنى ، اللزوم والانتقال ، التعيين ، تحقُّق معناها لصاحبها ، الزمن ، الإفراد ، التعدد» .

وممّا سوَّغ الحديث هنا عن الحال النَّحْوِيّ مع الجملة الاسمِيَّة أَنَّه في بعض التقسيمات السابقة تأتي فيها الحال خالصة للجملة الاسمِيَّة ، وفي بعضها قد تأتي في جملة اسمية أو فعلية ؛ لذلك آثرنا أَنْ نناقش المواضع التي رأينا فيها تأثيرا للسياق على الحال النَّحْوِيّ هنا .

وبداية نقول لقد اتَّفق العلماء على تعريف الحال ؛ فقالوا إِنَّهُ : « فضلةٌ دالَّة على هيئة صاحبه» [(٢)] . أو هي : « وصف أو ما قام مقامه ، فضلة مسوق لبيان الهيئة ، أو للتوكيد » [(٣)] . ومن العلماء من ربط بين الهيئة والحال بعلاقة تلازمية ، فقال : «كلُّ ما دَلَّ على هيئة صحَّ أَنْ يقع حالا» [(٤)] . ولا بدَّ أنَّ الهيئة «**صفة غير لازمة**» ، قال ابن السراج : «والحال إنَّما هي هيئة الفاعل أو المفعول أو صفته **<u>في وقت ذلك الفعل المخبر به عنه ، ولا يجوز أن تكون تلك الصفة إلا صفةً متصفة غير ملازمة . ولا يجوز أن تكون خلقة</u>** ، لا يجوز أن تقول : جاءني زيد أحمر ، ولاأخوك ولا جاءني عمرو طويلًا ، فإن قلت : متطاولًا أو متحاولًا ، جاز ؛ لأنَّ ذلك شيء يفعله وليس بخلقة» [(٥)] .

---

(١) شرح المفصل ، ٢٣٩/١

(٢) السيوطي : همع الهوامع ، ت : عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٧٠م ، ٤/ ٧

(٣) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢٧٧/٢

(٤) ابن الحاجب : الكافية في علم النحو ، ص ٢٤

(٥) الأصول في النحو، ٢١٤/١

والقيد الذي وضعه النحاة للحال أنَّه « مسوق لبيان الهيئة » مرتبط ـ فيما يظنّ الباحث ـ بالسِّياق ؛ فالهيئة غير اللازمة ولا تكون خِلقة والتي عليها صاحب الحال تجعل المُتَكَلِّم يختار اللفظة المناسبة ليُعَبِّر عن هذه الهيئة ؛ فإذا اختلفت الهيئة اختلف اللفظ . فعندما نقول : « جاء محمد مسرورا ، حزينا ، نشيطا ، شاحبا ، مغمض العينين ، مجروحا ... ».فنحن لا نحدد اللفظ المعبِّر عن الحال إلا إذا رأينا صاحب الحال أولا ، ثُمَّ نحدِّد اللفظ المناسب الذي يُعَبِّر عن هذه الحال ، فنحن لا نستطيع أَنْ نعبِّر عن حال أحد أو شيء قبل أَنْ نراه في موقف أو سياق ما ؛ أي أَنَّ الحال يتولَّد بعد وجود السِّياق والموقف وليس قبله . لذلك يجب افتراض وجود سياق حال قبل أي جملة تحتوي على «حال» .

في ضوء هذا يمكن أَنْ نفهم لماذا نصب سيبويه المصدرين «سِمَنًا و عِلمًا» على الحال في قوله : « أَمَّا سِمَنًا فسمين ، وأما عِلْمًا فعالم » [١] . والصفات « صديقا وطاهرا وعالما » في قوله : « أَمَّا صديقًا مصافيًا فليس بصديق مُصافٍ ، وأَمّا طاهرًا فليس بطاهرٍ ، وأَمّا عالما فعالمٌ . فهذا نصبٌ لأَنَّهُ جعله كائنا فى حال علمٍ وخارجا من حال طهورٍ ومصادقةٍ» [٢] .

قوله « أَمَّا سِمَنًا فسمين » تتطلب سياق حال لكي نفهم نصب « سمنا » وهو أَنَّ المتكلم رأى صاحب الحال في حالة أو هيئة الـ «سِمَن أو سَمانة» أكثر من مرة وفي أكثر من موقف ؛ فقال هذه الجملة ، وكأنّ هذا الحال ردٌّ من المتكلم على زاعم أو منكر يزعم أو ينكر غير ذلك . يؤكد هذا المعنى عدد من النحاة ، منهم :

- ابن مالك إذ يقول : « واطرد أيضا ورود المصدر حالا عند سيبويه في نحو «أما علما فعالم» يريد مهما يذكر إنسان في حال علم فالذي وصفت عالم ، **كأنَّه مُنكِر ما وصفه به من غير العلم** » [٣] .
- قال الأشموني : «أما علما فعالم : تقول ذلك لمن وصف عندك شخصًا بعلم وغيره منكرًا عليه وصفه بغير العلم » ، ويعمِّم الصبَّان كلام الأشموني هنا فيقول : « قوله : نحو أما علما فعالم ؛ **أي من كل تركيب وقع فيه الحال بعد أمَّا في مقام قُصِدَ فيه الردُّ على من وصف شخصا بوصفين وأنت تعتقد اتصافه بأحدهما دون الآخر** » [٤] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٨٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٨٧

(٣) شرح تسهيل الفوائد ، ٢/٣٢٩

(٤) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ، ٢/٢٥٨

- وها هو السيوطي يقول : «أمَّا عِلْمًا فعالم ، والأصل فيه : أن رجلا وُصِف عنده شخصٌ بعلم وغيره ، فقال الرجل للواصف : أما عِلْمًا فعالم ، يريد : مهما يُذْكَرُ إنسانٌ في حال علم فالذي وصفت عالمٌ ، **كأنَّه مُنكِرٌ ما وصفه به من غير العلم**» [(١)] .

لقد اجتمع النحاة الأربعة على المعنى الدلالي السياقي لنصب الحال في قول سيبويه : «أما علما فعالم » ، بل نجد الصبان يعمّم هذه الدلالة على هذه الجملة وما يشبهها . وهذا يجعلنا نقول إنَّ التركيب التالي :

«أمَّا الشرطية + فعل شرط محذوف + فاعل مرفوع محذوف (صاحب الحال)+ الحال (مصدرا أو وصفا) + جملة جواب الشرط » .

والذي تمثِّله الجمل : «أمّا سمنا فسمين ، وأما عِلْمًا فعالم ، أَمَّا صديقًا مصافيًا فليس بصديق مُصافٍ ... » . **يرتبط بدلالة نمطية سياقية هي : قَصدُ الردِّ على من وصف شخصا بوصفين والمتكلم يعتقد اتصافه بأحدهما دون الآخر .**

ومن خلال اعتبار الهيئة يمكن أَنْ نثري المعنى في قولنا : « هؤلاء ناسٌ وعبد الله منطلقين » كما يقول سيبويه في نصه : «وتقول : هؤلاء ناسٌ وعبد الله منطلقين ، إذا خلطتَهم . ومن قال : هذان رجلان وعبد الله منطلقان قال : هؤلاء ناس وعبد الله منطلقون ؛ لأنَّه لم يُشرك بين عبد الله وبين ناسٍ في الانطلاق » [(٢)] .

عندما نقول :

» هؤلاء ناسٌ وعبد الله منطلقين ؛ نقصد : أَنَّ عبد الله مختلط بغيره من الناس ؛ أي أَنَّ هيئة عبد الله والناس مختلطة .

» هؤلاء ناسٌ وعبد الله منطلقون ؛ نقصد : أَنَّ عبد الله ليس مختلطا بالناس ، ولم يشرك بين عبد الله وبين ناس في الانطلاق ؛ أي أَنَّ الهيئة لا تدل على الاختلاط ، ويتضح للرائي أَنَّ الناس منطلقون بمفردهم ، وعبد الله منطلق بمفرده .

على أَنْ أخص أقسام الحال ارتباطا بالجملة الاسميَّة : الحال المؤكدة والحال المنبهة ، فمن الوظائف التي يؤديها الحال «التوكيد» ، وتسمى هذه الحال «الحال المؤكِّدة» ، ويعرفها النُّحَاة بأنَّها « هي التي يستفاد معناها من الكلام السابق عليها في جملتها ، وفائدتها إذن تأكيد هذا المعنى

---

(١) همع الهوامع ، ٤/١٦ ، ط : دار البحوث العلمية

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٨٢

المستفاد »[1] . ومن خصائصها أنَّها «تجئ على إثر جملة عَقْدُها من اسمين لا عَمَلَ لهما لتوكيد خبرها ، وتقرير مُؤَدّاه ، ونفي الشَّكِّ عنه »[2] . قال ابن يعيش : «يعني أنَّ الحال مؤكِّدة تأتي بعد جملة ابتدائِيَّة ، الخبرُ فيها اسمٌ صريحٌ ، ولا يكون فعلا ، ولا راجعًا إلى معنى فعل ، لأنَّ الحال هاهنا تكون تأكيدًا للخبر بذكر وصف من أوصافه الثابتة له ، والفعلُ لا ثبات له ، ولا يوصف »[3] .

إنَّ موضع هذه الحال أَنْ تأتي عقب الجملة الاسمِيَّة والوظيفة التي تؤديها هذه الحال هي تأكيد الخبر ، وتقرير مُؤَدّاه ، ونفي الشك عنه . وهذا التأكيد والتقرير ونفي الشك هي أمور سِيَاقِيَّة بالدرجة الأولى ، فالمُتَكَلِّم لن يلجأ إلى التأكيد ولا إلى التقرير ولا إلى نفي الشك إلا إذا اقتضى السِّياق هذا ، فهو يؤكِّد أو يقرِّر أو ينفي بدافع السِّياق ، ودلالة هيئة المخاطب على هذا .

ويقدم سيبويه أمثلة على الحال المؤكدة ، هي : «هو زيدٌ معروفًا »، «هو الحق بينًا »، «أنا عبد الله كريمًاجوادًا »، «هو عبد الله شجاعًا بطلا » .

ويوضح في المثال الأول كون «معروفًا » حالا تفيد التوكيد بقوله : «وذلك قولك : هو زيد معروفا ، فصار المعروف حالا . **وذلك أَنَّكَ ذكرت للمخاطَب إنسانا كان يجهله أو ظننت أَنَّهُ يجهله فكَأَنَّك قلت : أثبتْه أو الزَمْه معروفا ، فصار المعروف حالا ، ... والمعنى أنَّك أردت أن توضِّح أنَّ المذكور زيدٌ حين قلت معروفا** ، ولا يجوز أَنْ تذكر في هذا الموضع إلا ما أشبه المعروف ؛ لأنَّهُ يعرِّفُ ويؤكِّدُ ، فلو ذَكر هنا الانطلاق كان غير جائز ؛ لأَنَّ الانطلاق لا يوضح أَنَّهُ زيدٌ ولا يؤكِّده . ومعنى قوله معروفا : لا شكَّ ؛ وليس ذا فى منطلق . وكذلك : هو الحقُّ بَيِّنًا ، ومعلوما ، لأَنَّ ذا مما يوضَّح ويؤكَّد به الحق »[4] .

في هذا النص يوضح سيبويه «الملابسات السياقية النمطية »التي دعت المتكلم إلى استخدام هذه الحال المؤكِّدة ، هذه الملابسات تتمثَّل في أنَّ المتكلم ذكر للمخاطب إنسانًا كان يجهله (أو ظن المتكلم أنَّ المخاطب يجهله) ؛ فأراد المتكلم من خلال هذه الحال أن يؤكِّد مضمون الجملة الاسمية التي يقولها المخاطب . وما دامت هذه الحال تأتي إِثْرَ جملة اسمية عَقْدُها من اسمين كما قال ابن يعيش ؛ فلا بد أن يكون المبتدأ والخبر معروفين (أو شبه معروفين) بين المتكلم والمخاطب ؛ لذلك أشار سيبويه في النص السابق : «ولا يجوز أَنْ تذكر في هذا الموضع إلا ما أشبه المعروف » .

---

(١) د. محمد عيد : النحو المصفى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص ٤٦١

(٢) ابن يعيش : شرح المُفَصّل، ٢١/٢

(٣) السابق ، ٢٣/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٨/٢ ـ٧٩

ولعل جملة سيبويه «أو شبه معروفين» تفسر لماذا يأتي الخبر أحيانا في الجملة الاسمية مع الحال المؤكدة نكرة ، يقول : «وممَّا ينتصب لأنَّه حالٌ وقع فيه أمرٌ قولُ العرب : هو رجلُ صِدْقٍ معلومًا ذاك ، وهو رجل صدق معروفا ذاك ، وهو رجل صدق بيِّنًا ذاك ، كأنه قال : هذا رجل صدق معروفا صلاحُه »[1] .

فالأحوال في هذه الجمل مؤكدة لمضمون الجملة مع أنَّ أحد الجزأين نكرة ، والنكرة هنا ـ كما يفهم الباحث من نص سيبويه ـ ليست نكرة خالصة ـ إن جاز التعبير ـ بل هي نكرة مشوبة بتعريف أو شبه تعريف كما قال سيبويه .

وقد يصحب التوكيد الذي تدلُّ عليه هذه الحال في بعض السياقات «الفخر ، أو التهَدُّد ، أو الوعيد» ، قال سيبويه : «وإذا ذكرتَ شيئًا من هذه الأسماء التي هي علامةٌ للمضمَر فإنَّه مُحال أنْ يَظهر بعدها الاسمُ إذا كنتَ تُخبِر عن عَمَلٍ ، أو صفةٍ غير عمل ، ولا تريد أن تعرفِّه بأنَّه زيدٌ أو عمرو . وكذلك إذا لم تُوعِدْ ولم تفخر أو تصغِّر نفسك ؛ لأنَّك في هذه الأحوال تُعَرِّفُ ما ترى أنَّهُ قد جُهِل ، أو تُنزل المخاطَب منزلة من يجهل فخرًا أو تهدُّدًا أو وعيدًا ؛ فصار هذا كتعريفك إياه باسمه »[2] .

ومن النحاة المعاصرين من تتبع الدلالات السياقية التي يمكن أن تأتي مع هذه الحال ، فذكر أنها قد تأتي[3] :

- لبيان اليقين ، نحو : «هو خالد معلوما».
- الفخر ، نحو : «أنا أبوك كريما».
- التعظيم ، نحو : «هو ربُّنا منعمًا » .
- التحقير ، نحو : «هو سالم ذليلا» .
- التصاغر ، نحو : «أنا عبد الله آكلا كما يأكل العبيد» .
- الوعيد ، نحو : «أنا سعيد قاتلا» .
- الترحم ، نحو : «هو المسكين مرحوما» .
- الذم ، نحو : «هو زيد سارقا» .
- الإطماع ، نحو : «هو ربُّنا غافرًا لمن يتوب» .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٩٢/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٨٠/٢

(٣) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣٠٨/٢

ومن وظائف الحال أيضا «التنبيه» ، والتنبيه كما يقول العلماء : «هو إعلام ما في ضمير المُتَكَلِّم للمخاطب ... من : نبَّهتُه على الشيء ؛ بمعنى : وقفته عليه»[(١)] .

وكما هو ظاهر من التعريف فَإِنَّ حالة التنبيه تتطلب : متكلم مُنبِّه ، ومخاطَب مُنبَّه ، ومُنَبَّه عليه ؛ أي أَنَّ حالة التنبيه لابدَّ أَنْ ترتبط بسياق الحال بوجه من الوجوه .

يقول سيبويه في باب «ما ينتصب لأنَّهُ خبر للمعروف المبني على ما قبله من الأسماء المبهمة» : «**والمعنى أَنَّكَ تريد أَنْ تنبِّهه له منطلقا** ، لا تريد أَنْ تعرفه عبد الله ؛ لأَنَّكَ ظننت أَنَّهُ يجهله ، فكَأَنَّكَ قلت : انظر إليه منطلقا ، فمنطلقٌ حالٌ قد صار فيها عبدُ الله وحالَ بين منطلق وهذا كما حال بين راكب والفعل حين قلت : جاء عبد الله راكبا ، صار جاء لعبد الله ، وصار الراكب حالا»[(٢)] .

لقد أشار سيبويه إلى أَنَّ الحال قد تأتي للتعبير عن «التنبيه» . ولكن يبدو أَنَّ الحال المنبِّهة ـ كما يبدو من كلام سيبويه ـ تأتي في جملة لها مواصفات مُعَيَّنَة ، وهي أَنْ تبدأ بـ «اسم إشارة» مبنيٌّ عليه كلام ، مثل الأمثلة التي أوردها : «هذا عبد الله منطلقًا ، وهؤلاء قومك منطلقين ، وذاك عبد الله ذاهبا ، وهذا عبد الله معروفا» .فالأحوال في هذه الجمل للتنبيه .

ويبدو أن التنبيه المصاحب للحال في الأمثلة السابقة مصدره اسم الإشارة الذي يتصدَّر هذه الجمل . قال ابن يعيش بعد أن أورد كلام الزمخشري عن الأدوات «ها ، ألا ، أما» :

«اعلم أنَّ هذه الحروف معناها تنبيهُ المخاطب على ما تُحدِّثه به ، فإذا قلت : «هذا عبد الله منطلقا» فالتقدير : انظر إليه منطلقًا ، أو انتبه عليه منطلقا . فأنت تُنبِّه المخاطب لعبد الله في حال انطلاقه ، فلا بد من ذكر «منطلقا» ؛ لأنَّ الفائدة به تنعقد ، ولم ترد أن تُعرِّفه إياه ، وهو يُقدَّر أنَّه يجهله ، كما تقول : «هذا عبد الله» ، وتقول : «ها إنَّ عبد الله منطلقٌ» ، و«ها افعل كذا» ، كأنَّه تنبيه المخاطب للمُخْبَر أو المأمور»[(٣)] .

وتقييد سيبويه الحال المنبِّهة بالجملة الاسمِيَّة المبدوءة باسم إشارة يشهد لمنهجه الذي أوضحناه سلفا من تتَبُّعه للتراكيب اللُّغَوِيَّة في السِّياقات المختلفة ، وربط التراكيب اللُّغَوِيَّة المُعَيَّنَة بدلالات مُعَيَّنَة.

---

(١) الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغَوِيَّة ، ت : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ٢٨٨

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٧٨/٢ ، وينظر أيضا الموضع التالي : ٨٧/٢ ، والموضع : ١٥٢/٢ ، ويفرق سيبويه بين الجمل التي تبدأ باسم الإشارة «هذا ، هؤلاء» .والجمل التي تبدأ بـ «ذاك ، أولئك ، تلك» ؛ فإذا جاء التركيب مع ذاك فالتنبيه لشيء متراخٍ . ٧٨/٢

(٣) شرح المفصل ، ٥/ ٤٢، ٤٣ طبعة دار الكتب العلمية .

وهذا التقييد يمكن أَنْ يفسر عقليًّا بأَنَّ اسم الإشارة لابدَّ أَنْ يُصحَب بالمشار إليه ، وذكر المشار إليه بعد اسم الإشارة لا يعطي للمخاطب كبير فائدة ؛ فإذا ذكر الخبر بعد اسم الإشارة وبعد هذا الخبر حال ؛ فلابد أَنْ يتَّجه إلى أَنَّ المقصود التنبيه ؛ أي يدعم هذا التنبيه مع اسم الإشارة ويؤكده .

***

وقبل أَنْ ننهي كلامنا هنا عن تأثير قرينة السِّياق على الجملة الاسمِيَّة نحبُّ أَنْ نشير إلى بعض النقاط المُهِمَّة :

- إن فكرة القدر المعرفي المشترك بين المُتَكَلِّم والمخاطب اللازم لإيجاد المبتدأ اللازم بدوره لإيجاد الجملة الاسمِيَّة ليست مقصورة فقط على الجملة الاسمِيَّة ، بل تمتد في بعض الأحيان إلى بعض النصوص الأدبيَّة والشعرِيَّة الحديثة ؛ وأقصد هنا أَنَّ السامع لكي يتفاعل مع الجملة فلا بد أَنْ يبتدأ المُتَكَلِّم بشيء معروف بينه وبين السامع ، وكذلك على نطاق القصيدة الشعرِيَّة لا بدَّ أَنْ تكونَ الفكرة الأساسيَّة لها واضحة بعض الشيء للقارئ لكي يستطيع الاستمتاع بها فكثير من هذه القصائد الشعرِيَّة الحديثة يستغلق فهمها على القارئ ولا يستطيع فض مغاليقها لأَنَّهُ ليس هناك قدر مشترك من المعرفة في هذه النصوص بين الأديب والقارئ يبدأ منه الأديب ثُمَّ يبني عليه نصه الأدبي ؛ فيتفاعل معه القارئ . والسبب أَنَّ الشاعر أوغل في ذاتيته ، ولا يوجد قدر مشترك من المعرفة في القصيدة بينها وبين القارئ يمكن أَنْ ينطلق منها ليستمتع بالقصيدة . ولَعلَّ هذا قريب مما قاله أحد نقاد الأدب إذ يقول : « إِنَّ **التعبير عن تجربة ذاتية بلغة تبلغ من الذاتية حد الابتعاد عن كافة المواضعات الاصطلاحية ، وحدا يجعل كل اتصال مع الآخرين أمرا مستحيلا ؛ ليكون أمرا مخالفا لوظيفة الفن** »[1] .
- ينسحب تأثير سياق الحال على الجملة الاسمِيَّة من حيث الابتداء بمعرفة أو من حيث عدم الاستغناء عن أحد ركنيها في إيصال المعنى ـ على أي شكل توجد فيه أو عليه الجملة الاسمِيَّة ؛ بمعنى أَنَّ الجملة الاسمِيَّة إذا جاء مبتدؤها وخبرها مفعولين لأحد أفعال ظنّ فـ « ليس لك أَنْ تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر »[2] ؛ لأَنَّ الاقتصار على أحد المفعولين سيُضيع الفائدة التي يريد المُتَكَلِّم إيصالها له . يقول سيبويه : « وإِنَّمَا مَنعك أَنْ تقَتصر على أحد المفعولين ههنا أَنَّك إنّمَا أردْتَ أَنْ تبيّن ما استَقّر عندك من حال المفعول

---

(١) أرنست فيشر : ضرورة الفن ، ترجمة : أسعد حليم ، الهيئة العامة المصريَّة للكتاب ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٨م)، ص ٢٢٧،

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٩/١

الأوّل ، يقينًا كان أو شكّا ، وذكرتَ الأوّلَ لتُعلِم الذي تُضيفُ إليه ما استقّر له عندكَ مَن هو فإنّما ذكرتَ ظننتُ ونحوَه لتجعلَ خبر المفعول الأوّل يقينا أو شكّا ، ولم ترد أَنْ تَجعل الأوّل فيه الشّك أو تقيم عليه في اليقين » [١] .

- قد يتقدَّم الخبر على المبتدإ في بعض الأحيان لأمر يريده المُتَكَلِّم ويهتم به .

****

المبحث الثاني : **سياق الحال والجملة الفعلِيَّة وما يتعلق بها** :

يؤثِّر سياق الحال في الجملة الفعلِيَّة بشكل واضح ، ويُثبت سيبويه هذا التأثير فى مواضع كثيرة من الكتاب . وقد جمع الباحث كل هذه المواضع التي لاحظ فيها تأثيرا لسياق الحال على كل ما يتعلق بالجملة الفعلِيَّة ، وصنَّف كل مجموعة من النصوص تتَعَلَّق بأمر مُعَيَّن مع بعضها . وستناقش كل مجموعة من هذه المجموعات تحت عنوان من العناوين الفرعِيَّة :

- **سياق الحال يُؤَثِّر في كينونة الجملة الفعلِيَّة أيضا** :

من النصوص المهمَّة لسيبويه نصه الذي يقول فيه :

« ... وإِنَّمَا فعلوا هذا بالنداء لكثرته في كلامهم ؛ **ولِأَنَّ أول الكلام أبدا النداء ، إلا أَنْ تدعه استغناء بإقبال المخاطَب عليك ، فهو أوَّل كل كلام لك به تعطف المُكلَّم عليك ، فلما كثر وكان الأوَّل في كل موضع ؛ حذفوا منه تخفيفا ؛ لأنَّهم ممَّا يغيرون الأكثر في كلامهم** » [٢] .

إن جملة سيبويه الخطيرة المؤكدة بحرف التوكيد في النَّصّ السابق : « إِنَّ أول الكلام أبدا النداء » تدل على أَنَّ كل ما يلفظه المُتَكَلِّم سيكون « **مشمولا بسياق ما** » ، فالمتكلم يبدأ كلامه بالنداء وهو لن ينادي على أحد إلا إذا دعا سياق لهذا ، ونص سيبويه السابق يجعلنا نستنبط منه قاعدة سِيَاقِيَّة يمكن أَنْ نصوغها بقولنا إِنَّهُ : « **لا نصّ بدون سياق** » ، ويكون كلام عبقري اللُّغَة سيبويه في النَّصّ السابق دليلا على هذه القاعدة . وإذا قلنا افتراضا إِنَّ كلامنا قسمة بين الجملة الاسمِيَّة والفعلِيَّة فهذا يعني أَنَّ كلَّ كلامنا لا بد أَنْ يكون ضمن سياق ما .

ويؤثِّر سياق الحال في الجملة الفعلِيَّة بشكل ما من خلال المُتَكَلِّم ، فإذا كانت الجملة الاسمِيَّة تعبِّر عما هو ثابت ومستقر عند المُتَكَلِّم ، فَإِنَّ الجملة الفعلِيَّة ـ كما يقرر الزَّمَخْشَرِيّ الذي تَلْمَذَ لكتاب

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٨/٢

سيبويه ـ تعبِّر عن « كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد » [١] ؛ أي أَنَّ الجملة الفعلِيَّة تعبر عن الأقوال التي لم ترسخ وتثبت في نفس المُتَكَلِّم ، وعدم الرسوخ هنا لا بد أَنَّهُ ناتج عن أمور مرتبطة بالسِّياق [٢] .

• **الترتيب بين العناصر المكوِّنة للجملة الفعلِيَّة** :

من أشكال التأثير التي يؤثِّر بها سياق الحال في الجملة الفعلِيَّة تأثيره على ترتيب أجزاء الجملة الفعلِيَّة من حيث التقديم والتأخير . نوَّه إلى هذا سيبويه في باب : الفاعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعول ، بعد حديث عن تقديم المفعول به على الفاعل ، فذكر هذه الجملة المُهِمَّة : « **كَأَنَّهم إِنَّمَا يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعًا يُهِمّانهم ويعنيانهم** » [٣] .

إن تقديم بعض أجزاء الجملة الفعلِيَّة على بعض يرتبط بأبرز العناصر المكوِّنة لسياق الحال ألا وهو المُتَكَلِّم الذي يرغب في تسليط الاهتمام على جزء دون جزء ، فالتقديم والتأخير يرتبط بشكل واضح بإرادته ورغبته النفسِيَّة وقت الكلام . وما أجمل تعليق السيرافي على إشارة سيبويه السابقة ، حيث قال :

> « قد تكون أغراض الناس في فعل ما أَنْ يقع بإنسان بعينه ، ولا يبالون مَن أوقعه به ، كمثل ما يريده الناس من قتل خارجي مفسد في الأرض ، ولا يبالون من قتله ، فإذا قتله زيد فأراد مخبر أَنْ يخبر بذلك ؛ قدَّم الخارجي في اللفظ ؛ لأَنَّ القلوب متوقعة لما به من أجله ، لا من قتله ؛ فتقول : قتل الخارجيَّ زيدٌ ... **وهذا كلام إِنَّمَا هو على قدر عناية المُتَكَلِّم ، وعلى ما يسنح له وقت كلامه** » [٤] .

إن تقديم جزء من الجملة على آخر يتوقَّف على إرادة المُتَكَلِّم المدفوعة بالسِّياق فيه ، وتأثير سياق الحال في ترتيب أجزاء الجملة ليس مقصورا على الجملة الفعلِيَّة ، بل يمتد أيضا إلى الجملة الاسمِيَّة ، والسبب هو العناية والاهتمام . قول : «والتقديم ههنا (باب تُخبرُ فيه عن النكرة بنكرة)

---

(١) الكشاف : ١/٦٤

(٢) يراجع ما قلناه تحت عنوان : حالة المُتَكَلِّم النفسيَّة ومكنونها ، في مبحث حال المُتَكَلِّم ودوره في التوجيه الدِّلَالِيّ .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٤

(٤) شرح كتاب سيبويه ، ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤

والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسمًا في العناية والاهتمام ، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول »[١] .

إن نصوص سيبويه في هذه الجزئيَّة تعطينا الحق أَنْ نقول إنَّ تقديم أي عنصر من الجملة الفعلِيَّة أو الاسمِيَّة قابل للتقديم على عنصر آخر ، مرتبط باهتمام المُتَكَلِّم وعنايته ، وهذا بدوره مرتبط بسياق الحال .

- **السِّياق وإعمال اسم الفاعل عمل الفعل :**

مما يتصل بالجملة الفعلِيَّة ويمكن أَنْ يناقش في إطارها إعمال اسم الفاعل عمل الفعل ، ودور سياق الحال في هذا الإعمال .

وفي البداية نوضح أَنَّ من الشروط التي وضعها النُّحَاة لإعمال اسم الفاعل عمل الفعل ونصب المفعول به أَنْ يكون اسم الفاعل «بمعنى الحال أو الاستقبال ، أو الاستمرار المتجدد ».وأنَّ اسم الفاعل لا يدل بنفسه على زمن مُعَيَّن ، وأنَّه يدل على «معنى مجرد حادث ؛ أي عارض ، يطرأ ويزول ؛ فليس له صفة الثبوت والدوام »[٢] .

وعندما يشترط النُّحَاة أَنْ يدل اسم الفاعل على الحال أو الاستقبال ؛ فلا بدَّ أَنْ تكونَ هذه الدِّلَالَة من «جملة »توجد في «سياق مُعَيَّن ». فالسِّياق إذن مُهِمّ لتحديد معنى الجملة ، وتحديد معنى الجملة مُهِمّ لإعمال اسم الفاعل أو إهماله .

وقد أشار سيبويه[٣] إلى عمل اسم الفاعل عمل الفعل ، وذكر الأمثلة التالية :

أ- هذا ضاربٌ زيدًا غدًا .

ب- هذا ضاربٌ عبدَ الله الساعة .

ت- كان زيدٌ ضاربا أباك .

ويفهم من الأمثلة أَنَّهُ يشترط الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة المستقبلِيَّة أو الحالِيَّة في الجملة بدليل ذكره في المثال الأول والثاني لكلمتي «غدًا ، الساعة».

ولم يشر سيبويه مع هذه الأمثلة صراحة إلى دور السِّياق في تحديد الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة لَكِنَّه أشار إليها ضمنا وبذكاء من خلال المثال الثالث ، لقد أعمل سيبويه اسم الفاعل « ضاربا » بدليل نصب

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٥٦/١ ، ومن المواضع التي نبه فيها على العناية والاهتمام وأثرهما على التقديم والتأخير الموضع : ١٤٣/٢ في باب ما يحسن عليه السكوت من هذه الأحرف الخمسة . والمواضع : ٤٢/١ ، ٤٥/١ ، ٤٧/١ ، ٥٦/١ ، ٨٠/١ ـ ٨١

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣/ ٢٣٨ و ٢٤٧

(٣) الكتاب ، ١٦٤/١

«أباك»مع أَنَّ الفعل الموجود «كان» بهذه الصيغة يدل على الماضي ؛ فكان من المفترض أَنْ يكون الكلام : «كان زيدٌ ضاربَ أبيك» ، لَكِنَّه لم يفعل ؛ إذن فلا بدَّ أَنْ تكونَ «كان» في هذا المثال لا تدل على المضي ، بل تدلُّ على الأَقَلّ على الحال . وفي ذلك إشارة ضمنيَّة إلى اعتباره السِّياق في إعمال اسم الفاعل . ولَعلَّ هذا ما كان يقصده في قوله بعد هذه الجملة «كان زيدٌ ضاربا أباك ؛ فَإِنَّما تُحدث أيضا عن اتصال فعل في حال وقوعه وكان موافقا زيدا ، فمعناه وعمله كقولك : كان يضرب أباك ، ويوافق زيدًا »[1] .

إن تحديد دلالة الفعل «كان» في هذا المثال تعتمد على السِّياق لا محالة ، وأَنَّ معناها لا بد أَنَّهُ يدل على الحالِيَّة أو المستقبليَّة ؛ ولَعلَّ هذا ما دفع بعض النُّحَاة إلى وضع قيد على معناها الزمني حين قال : « فإنْ كانت الصيغة فعلا ماضيا ؛ فالزمن ماض محض بشرط ألا يوجد ما يجعله لغير الماضي المحض »[2] .

يُفهَم مما سبق أَنَّ الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة لاسم الفاعل التي يتوقَّف عليها إعماله أو إهماله مرتبطة بسياق الحال ، وأَنَّ سيبويه يشير من طرف خفي إلى هذا .

ونحب أنْ نُنَبِّه إلى أَنَّ التنوين هنا مع اسم الفاعل له دلالة يرتبط بها وملازمة له ، وأَنَّه بذاته يدل على الحالِيَّة أو المستقبلِيَّة ، وأنَّه يلعب دورًا مهمًّا في تحديد دلالة الجملة منزوعة السِّياق[3] ، فدلالة قولنا : «محمدٌ قاتلٌ عمرًا» غير دلالة قولنا : «محمدٌ قاتلُ عمرو» . فوجود التنوين له دلالة (الحال أو الاستقبال) ، وغيابه أيضا له دلالة (المضي) [4] . يقول سيبويه بعد قول الشاعر :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١/١٦٤

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ١/٥٤٨ ، وبالوقوف على هذه النتيجة يمكن أن نفسر بعض الآيات القُرْآنيَّة مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١١]

(٣) نشير هنا أنَّه قد يحذف التنوين من اسم الفاعل العامل وهو يدل على الحال والاستقبال طلبا للخفة والاستخفاف ودفعا للاستثقال ، كما أشار إلى هذا صاحب الكتاب ١/ ١٦٦ ، وينظر تفسير الطبري ١/٦٢٦ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]

(٤) ومن المناظرات العلمِيَّة المتعلِّقة بما نقوله هنا تلك المناظرة التي نقلها ياقوت في معجم الأدباء (١٧٤١/٤) بين الكسائي وأبي يوسف الفقيه ، وفيها : «سمع الكسائي يقول : اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد فجعل أبو يوسف يذمُّ النحو ويقول : وما النحو ؟ فقلت : ـ وأردت أن أعلمه فضل النحو ـ ما تقول في رجل قال لرجل أنا قاتلٌ غلامَك ، وقال له آخر : أنا قاتلُ غلامِك ، أيُّهما كنت تأخذ به ؟ قال : آخذهما جميعا ؛ فقال له هارون :أخطأت ، وكان له علم بالعَرَبِيَّة ؛ فاستحيا ، وقال : كيف ذلك ؟ قال : الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي

هَل أَنتَ باعِثُ دينارٍ لِحاجَتِنا أَو عَبدَ رَبٍّ أَخا عَونِ بنِ مِخراقِ

[بحر البسيط]

« فإذا أخبر أَنَّ الفعل قد وقع وانقطع فهو بغير تنوين ألبتة » [١] .

• نواصب الفعل المضارع :

مما يتصل بالجملة الفعلِيَّة ويتَأَثَّر بسياق الحال نواصب الفعل المضارع ، وفيما يلي أهم الأدوات التي تتَأَثَّر به .

» فاء السببية :

من أدوات نصب الفعل المضارع فاءُ السببية ، ويشترط النُّحَاة لهذا النصب أَنْ تسبق بنفي محض أو طلب محض . والجانب الذي يرتبط بفاء السببية ويتصل بسياق الحال هو المعنى الدِّلَالِيّ للجملة الفعلِيَّة التي تقع بعد فاء السببية ، وسبب نصب الفعل المضارع في بدايتها .

ففي مثل قولنا : «ما تأتيني فتحدثَني» يذكر سيبويه وجهين من المعاني للفعل المضارع بعد الفاء هنا :

- الأول : «ما تأتيني فكيف تحدثُني ؛ أي : لو أتيتَني لحدَّثتني » [٢] .
- والثاني : « فما تأتيني أبدًا إلا لم تحدثني ؛ أي : منك إتيانٌ كثيرٌ ، ولا حديث منك» [٣] .

المعنيان في الجملة «ما تأتيني فتحدثَني »كما نفهم من كلام سيبويه :

- ✓ أنت أيها المخاطب لم تأتني أصلا فكيف تحدثني . (عدم الإتيان سبب الحديث) .
- ✓ منك أيها المخاطب إتيان كثير ولكن لا حديث معك في كل مَرَّة .

والمعنيان كما هو ظاهر بعيدان عن بعضهما ومختلفان ، والفيصل في تحديد دلالة هذه الجملة هو لسياق الحال ولا شك . والمعنيان لا محالة من المعاني التي وقف عليها سيبويه من خلال التتبع السياقي لهذا التركيب .

قال المبرِّد : « تقول : ما تأتيني فتحدِّثَني . فالنصب يشتمل على معنيين يجمعهما **أنَّ الثاني مخالف للأوَّل** . فأحد المعنيين : ما تأتيني إلا لم تحدِّثني ؛ أي قد يكون منك إتيان ولكن لست

قال : أنا قاتلُ غلامِك بالإضافة ؛ لأنه فعل ماض ، وأما الذي قال أنا قاتلٌ غلامَك بالنصب فلا يؤخذ لأنَّه مستقبل لم يكن بعد».

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٧١/١ ، وكلامنا هنا رد آخر على دعاة العامية ومن يطالبون بتسكين أواخر الكلمات

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠/٣

(٣) السابق : ٣٠/٣

تحدِّثني والمعنى الثاني : لا يكون منك إتيان ولا حديث فاعتباره ما تأتيني مُحَدِّثًا ، وكلما أتيتني لم تحدِّثني . والوجه الآخر : ما تأتيني فكيف تحدثَني ، أي لو أتيتني لحدثتني » [١] .

ويؤثِّر سياق الحال على الفاء في بعض الأحيان بشكل آخر ، شكل قد يخرجها من السببية إلى كونها حرف عطف ، يعطف ما بعده على ما قبله ؛ وذلك إذا أتت الجملة التي تحتوي عليها في سياق يدل على الإشراك . يقول : « وإن شئت أشركت بين الأول والآخر ؛ فدخل الآخر فيما دخل فيه الأول ؛ فتقول : ما تأتيني فتحدثُني ؛ كَأَنَّك قلت : ما تأتيني وما تحدثني » [٢] .

قال ابن مالك : «فإذا **قصد بالمضارع بعد الفاء اشتراكه بما قبلها في حكمه** ، تبعه في الإعراب ، كقولك : زيد يأتيني فيحدثُني ، وأريد أن يأتيني فيحدثني ، وإن تأتني فتحدثْني أكرمْك » [٣] .

ولا شك أَنَّ هذا الانتقال من «فاء السببية» إلى «فاء عاطفة» يجب أَنْ يتم تحت رعاية السِّياق وفي ظلاله .

وينقل سيبويه عن الخليل توجيها إعرابيا لجملة احتوت على فاء سببية ، خرجت عن سببيتها ورُفع الفعل بعدها بسبب إمكانيَّة تغيير السِّياق الذي قد ترد فيه الجملة ، يقول : «واعلم أَنَّكَ إنْ شئت قلت : ائتني فأحدثُك ، ترفع . وزعم الخليل : أَنَّكَ لم ترد أَنْ تجعل الإتيان سببا لحديث ؛ ولكنك كَأَنَّك قلت : ائتني ، فأنا ممن يحدثك البتة ، جئت أو لم تجئ» [٤] . ويؤكد ابن يعيش هذا المعنى بقوله : « كما تقول ائتني فأحدثُك ، أي فأنا ممن يحدثك على كل حال» [٥] .

فعندما تغير السِّياق من سياق السببية والجزاء إلى سياق الإخبار تغيَّر الإعراب والتوجيه النَّحْوِيّ . وإذا تأملنا جملة الخليل «إنَّك لم ترد أَنْ تجعل ... » نجد فيها دعوة إلى الإثراء الدِّلالِيّ من خلال السِّياق ، وإمكانيَّة ذلك وسهولته على من يقوم بتحليل الدِّلالَة للجملة . وفيها أيضا لفتة سريعة إلى أَنَّ من يقوم بهذا التحليل يجب أَنْ يقدم كل الدلالات المرتبطة بهذا التركيب ، هذه الدلالات المختزلة والموجودة سلفا في ذهن العالم باللُّغَة .

---

(١) المقتضب ، ١٥/٢

(٢) السابق : ٣٠/٣ ، وهذا يمكن أن يضرب دليلا على صحة ما ادعيناه من أن سيبويه كان يتتبع التراكيب اللُّغَوِيَّة في سياقاتها المختلفة .

(٣) شرح التسهيل : ٢٧/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٦/٣

(٥) شرح المفصل ، ٣٣٠/١

» <u>إذن</u> :

يشترط لكي تنصب إذن الفعل المضارع بعدها أَنْ تكونَ في صدر الكلام ، و أَنْ تتصل بالفعل المضارع ، و أَنْ يكون الفعل بعدها دالا على الاستقبال المحض [(١)] . ونهتم هنا بالشرط الأخير لتعلقه بسياق الحال . إنَّ الفعل المضارع بعد إذن ينصب إذا دَلَّ على الاستقبال ، وهذه دلالة ولاشك مرتبطة بسياق الحال ، فهو العامل الحاسم في هذا التحديد ، فإذا لم يدلّ الفعل وهو داخل سياقه على الاستقبال رُفِعَ . يقول : «وتقول إذا حدثت بالحديث : إذن أظنُّه فاعلاً ، وإذن إخالُك كاذبًا وذلك **<u>لأَنَّكَ تخبر أَنَّكَ تلك الساعة في حال ظنّ وخِيلةٍ</u>** ... ولو قلت : إذن أظنَّك ، <u>تريد أَنْ تخبره أَنَّ ظنَّك سيقع</u> لنصبت» [(٢)] .

فالفعل المضارع «إخالُك» بعد إذن في جملة سيبويه يدلُّ على الحالِيَّة لذلك رفع ، ولو نصب لدل على أَنَّ الفعل في المستقبل .

وهنا أيضا نشير أَنَّ العلامة الإعرابِيّة على نهاية الفعل لها دلالة زمَنِيَّة ، فالفتحة تدل على الاستقبال والرفع يدل على الحال .

» <u>حتى</u> :

ينصب الفعل المضارع بعد حتى بأنْ مضمَرة وجوبا ، ويشترط في هذا النصب «أَنْ يكون المضارع بعدها مستقبلا بالنسبة إلى زمن التكلم ... ويجب رفع المضارع إذا لم يكن مستقبلا ، أو كان مسببا عما قبل» [(٣)] .

وبالقطع يتدخل سياق الحال في تحديد دلالة الفعل هنا ويحدد ما إذا كان يدلُّ على المستقبل أم لا ، لذلك فالجملة «سرت حتى أدخل البلد»يتعذر إعطاء الوجه الأنسب للإعراب بدون سياق ، ففي الجملة السابقة يجوز في الفعل المضارع النصب ـ كما يقول سيبويه ـ بشرط «أَنْ تجعل الدخول غاية لمسيرك» [(٤)] . أي : بشرط أَنْ يكون الدخول غاية مسيرك في المستقبل . ويجوز فيه أيضا الرفع بعد حتى ، وذلك بأن « **<u>تعني أَنَّهُ كان دخول متصل بالسير</u>** ... فإذا قال : حتى أدخلُها ؛ فكَأَنَّه

---

(١) علي توفيق الحمد و يوسف جميل:معجم أدوات النحو العربي، ٣٨، وينظر أيضا : النحو الوافي : ٣١٠/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٦/٣

(٣) علي توفيق الحمد و يوسف جميل : معجم أدوات النحو العربي ، ص ١٤٢ ، وينظر أيضا : النحو الوافي : ٣٤٤/٤ ـ ٣٤٥

(٤)سيبويه : الكتاب ، ١٧/٣

يقول : **<u>سرت فإذا أنا في حال دخول ، فالدخول متصل بالسير كاتصاله بالفاء</u>** »[١] . أي أَنَّ الفعل دال على الحال .

ويرفع أيضا الفعل المضارع بعد حتى إذا دَلَّ على الحال المؤوَّلة أو المحكية وهي التي «يكون فيها معنى المضارع قد تحقَّق وانتهى فعلا قبل النطق بالجملة ، وكان المناسب أَنْ يُذكر الفعل بصيغة الماضي ، ولَكِنَّه يعاد ذكره بصيغة المضارع **بقصد حكاية الحال الماضية التي ترشد إليها القرينة** »[٢] . يقول ابن السراج : «وأما الوجه الثاني من الرفع : فأنْ يكون الفعلُ الذي بعد «حتَّى» حاضرًا ولا يراد به اتصاله بما قبله ، ويجوز أن يكون ما قبله منقطعًا ، ومن ذلك قولك : لقد سرت حتى أدخلها ، ما أمنع حتى أني أدخلُها الآن ، أدخلُها كيفَ شئت ، ومثل قول الرجل : لقد رأى مني عامًا أول شيئًا حتى لا أستطيع أن أكلمه العامَ بشيءٍ . ولقد مَرِض حتى لا يرجونه ، إنَّما يراد أنَّه الآن لا يرجونه ، وأنَّ هذه حاله وقت كلامه»[٣] .

وهذا ما سبق وقرره سيبويه إذ يقول : «أَمَّا الوجه الآخر : فإنَّهُ يكون السير قد كان وما أشبهه ويكون الدخول وما أشبهه الآن، فمن ذلك : لقد سرت حتى أدخلها ما أُمنَع ؛ أي حتى أني الآن أدخلها كيفما شئت »[٤] .

إذن فالمتحكم في العلامة الإعرابِيّة للفعل المضارع بعد «حتى» هو المُتَكَلِّم مدفوعا بالسِّياق الذي يوجد فيه ، وهذا ما يؤكده «الرَّضِيّ» في شرحه على «كافية ابن الحاجب» في عبارة واضحة يقول فيها : «ثُمَّ إذا أردنا أَنْ نُبين متى يرفع المضارع بعد حتى ومتى ينصب قلنا : **<u>ذاك إلى قصد المُتَكَلِّم</u>** ، فإنْ قصد الحكم بحصول مصدر الفعل الذي بعد حتى : إما في حال الإخبار ، أو في الزمن المتقدم عليه على سبيل حكاية الحال الماضية وجب رفع المضارع ، سواء كان بناء الكلام المتقدم على اليقين ... أو على الظن والتخمين»[٥] .

ويورد سيبويه جملة يقول فيها : «إِنَّمَا سرت حتى أدخلَها » ، وأشار بعدها أَنَّ هذه الجملة بنصب الفعل المضارع قد تعبِّر في سياق ما عن « **<u>احتقار المُتَكَلِّم للسير الذي أدَّى إلى</u>**

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٧/٣

(٢) عباس حسن :النحو الوافي، ٣٤٠/٤

(٣) الأصول في النحو ، ١٥٢/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٧/٣

(٥) شرح الرَّضِيّ على كافية ابن الحاجب ، ت : د. يحيي بشير مصري ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، السعودية ط ١ ، (١٩٩٦م)، القسم الثاني ـ المجلد الأول ، ص ٨٦٥

الدخول » [١] . والتحقير الذي أشار إليه سيبويه في هذه الجملة سببه استخدام الأداة «إنما» التي تجئ لتحقير الخبر ، يقول ابن السراج : « والفرق بين إنّ وإنَّما في المعنى أنَّ إنَّما تجيء لتحقير الخبر » [٢] . ويُزيد ابن يعيش معنى هذه الأداة إيضاحا بقوله : « وهي مكفوفة العمل على ما ذكرنا ، ومعناها التقليل ، فإذا قلت : «إنما زيد بزاز ؟ » فأنت تقلل أمره ، وذلك أنَّك تسلبه ما يدعى عليه غير البز » [٣] . ويشير سيبويه أَنَّهُ في الجملة السابقة التي تعبر عن الاحتقار «**يقبح الرفع**» [٤] ؛ لأَنَّ الرفع لا يتناسب مع سياق الاحتقار ، فالرفع يدل على الحاليَّة ؛ أي أَنَّ المُتَكَلِّم قد دخل المدينة بالفعل والإنسان لا يحتقر شيئا بلغه غايته وحققها له .

إن سياق الحال يلعب دورا واضحا مع أداة نصب الفعل المضارع حتى ، ويحدد الأوجه الإعرابِيّة للفعل بعدها ، فهو الضابط العام لكل هذا ، ومن خلاله يتم تحديد الدِّلاَلَة الزَّمَنِيَّة والدِّلاَلَة المعنوِيَّة .

- **المفعول المطلق** :

يتصل المفعول المطلق بالجملة الفعلِيَّة من حيث ارتباطه في معظم حالاته بأحد أركانها الأساسيَّة الفعل ، ويعرِّفه العلماء بأنَّه «المصدر الفضلة المؤكِّد لعامله أو المبين لنوعه أو لعدده» [٥] . والعامل « تارة يكون فعلا ، وتارة وصفا ، وتارة يكون مصدرا » [٦] . وتتمثل علاقة المفعول المطلق بسياق الحال من خلال وظيفته التي يؤدِّيها ، وظيفة التوكيد . تلك الوظيفة التي تدخل في تعريفه نفسه ، فالعلماء اتخذوا من وظيفته محددًا ليحدوه بها . حتى وإن أتي المفعول المطلق مبينا للنوع أو العدد ؛ فلا بد في كل الحالات أَنْ يكون التوكيد حاضرًا ، يقول العلماء :

«إِنَّ فائدة المصدر المعنوِيَّة قد تقتصر على التوكيد وحده ، ولَكِنَّها لا تقتصر على بيان النوع وحده ، ولا بيان العدد وحده ، ولا على هذين الأخيرين معا ؛ إذ لا بد من إفادة التوكيد في كل حالة من هذه الحالات » [٧] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢/٣

(٢) الأصول في النحو ، ٢٣٤/١

(٣) شرح المفصل ، ٥٢٢/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٢/٣ ـ ٢٣

(٥) ابن هشام : شرح شذور الذهب ، ص ٢٢٥

(٦) محمد محيي الدين عبد الحميد : تنقيح الأزهرية ، ص ١٤٦

(٧) عباس حسن : النحو الوافي ، ٢٠٩/٢

لذلك اكتفى بعض العلماء في تعريف المفعول المطلق بأنَّه : « المصدر الفضلة المؤكد لعامله »[(١)] . ولم يوضحوا علاقة هذا المعنى بالسِّياق[(٢)] .

---

(١) د . محمد إبراهيم عبادة : معجم مصطلحات النحو ، ص ٢٤٣

(٢) ونحب قبل إبراز حديث سيبويه عن التوكيد الذي يعطيه ويُقَدِّمه المفعول المطلق أن نسهب القول بعض الشيء عن التوكيد نفسه ، وذلك لاستيضاح علاقة سياق الحال بالتوكيد عامة ، وأيضا لاحتياجنا إليه في هذا الموضع ، وعند حديثنا ـ إنْ شاء الله ـ عن التوابع .

درس علماء اللُّغَة التوكيد ووظيفته وأشكاله في الكلام ، وبعد دراستهم له قالوا :

» قال ابن منظور في مادة « وكد » : « قال أبو العباس : التوكيد دخل في الكلام لإخراج الشك ، وفي الأعداد لإحاطة الأجزاء ، زمن ذلك أن تقول : كلمني أخوك ؛ فيجوز أن يكون كلمك هو ، أو أمر غلامه بأن يكلمك . فإذا قلت كلمني أخوك تكليما ؛ لم يجز أن يكون المكلم لك إلا هو » . [لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، (١٤١٤هـ)، ٣/ ٤٦٦]

» وقال أيضا : « التوكيد بالمصدر دخل لإخراج الشك ... ، قال أحمد بن يحيي في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[النساء: ١٦٤] : لو جاءت ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ مُجَرَّدة لاحتمل ما قلنا وما قالوا ؛ يعني المعتزلة ؛ فلما جاء ﴿تَكۡلِيمٗا ﴾خرج الشك الذي كان يدخل الكلام » . [لسان العرب ، ١٢/٥٢٤]

» قال الصاغاني : « التوكيد دخل في الكلام على وجهين : تكرير صريح وغير صريح ، فالصريح نحو قولك : رأيت زيدًا زيدًا . وغير الصريح نحو قولك : فعل زيد نفسه ... وجدوى التوكيد أنك إذا كررت ؛ فقد قررت المؤكد وما علق به في نفس السامع ، ومكنته في قلبه ، وأمطت شبهة ربما خالجته ، أو توهمت غفلة وذهابا عما أنت بصدده ؛ فأزلته ، فَإِنَّ لظان أن يظن حين قلت : فعل زيد ، إِنَّ إسناد الفعل إليه تجوز أو سهو » . [الزبيدي : تاج العروس ، مادة « وكد »، ٩/٣٢٠ ـ ٣٢١]

» قال الأزهري : « والعرب تقول : إذا وكد الكلام لم يجز أن يكون التوكيد لغوا ، والتوكيد بالمصدر دخل لإخراج الشك » . [تهذيب اللُّغَة : دار إحياء التراث العربي ، ت : محمد عوض ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠١م)، ١٠/١٤٨]

» وقال التهانوي : « التوكيد في اصطلاح أهل العَرَبِيَّة يطلق على التقرير ؛ أي جعل الشيء مقررا ثابتا في ذهن المخاطب » . [موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ت : د. علي دحروج ، نقل النص الفارسي إلى العَرَبِيَّة : د. عبد الله الخالدي ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، ١/٣٧٣]

من مجموع هذه النصوص نستخلص أن وظيفة التوكيد تتمحور حول الأغراض التالية : إزالة الشك من نفس المخاطب ، تقرير المؤكد في نفس السامع أو المخاطب ، دفع المُتَكَلِّم توهم غفلة في كلامه .

وتثير هذه الأغراض الثلاثة وخاصة الغرض الأول التساؤلات الآتية : هل الشك في الكلام يتولد في بداية الكلام ، أم أن الشك يظهر في مرحلة تالية من بدء الكلام ؟ ومتى يشعر المُتَكَلِّم أنه في حالة شك ؟ هل تظهر أمارات تدل على الشك على المخاطب ؟

إن ارتباط الشك بسياق الحال أمر جلي ؛ فليس كل ما يقال للإنسان يشك فيه ؛ إلا إذا أدت قرائن الحال في المخاطب إلى هذا الشك ، مثل : تعبيرات الوجه وتقطيبه ، حركة اليدين وحك الرأس،مط الشفتين . وهذا كله يدخل

إذن من الطرق التي يلجأ إليها المُتَكَلِّم لإفادة التوكيد استخدام المفعول المطلق . وقد نصَّ سيبويه على هذا قائلا : « إنَّمَا يجئ ذلك على أَنْ تبين أي فعل فعلت أو توكيدًا » (١) . وعندما يقول سيبويه إنَّ المفعول المطلق يفيد التوكيد فهذا يستدعي الأغراض التي يأتي لها التوكيد ، وهي : إزالة الشك أو تقرير المؤكَّد ، أو دفع المُتَكَلِّم توهم غفلة في كلامه .

ومما يتصل بالمفعول المطلق ويرتبط بشكل أو بآخر بسياق الحال حذف عامله . وقد أشار العلماء إلى أَنَّ عامل المصدر المبين للنوع أو للعدد يجوز حذف عامله بشرط وجود دليل مقالي (مرجعه إلى القول والكلام) أو حالي (مرجعه للمشاهدة أو نحوها مما يحيط بالشخص) (٢) يدل على المحذوف .

أما المصدر المؤكد لعامله فيُحذف عامله وجوبا في مواضع يوضحها ابن عقيل في شرحه قائلا : « يُحذَفُ عاملُ المصدرِ وُجُوبًا إذا ناب المصدر عن فعلٍ استند لاسمِ عينٍ ـ أي : أُخْبِرَ به عنه ـ وكان المصدرُ مكررًا أو محصورًا » (٣) . ويعلِّق الشيخ محيي الدين عبد الحميد على هذا بقوله : « يشترط لوجوب حذف العامل من هذا النوع أربعة شروط ، الأول : أن يكون العامل فيه خبرا لمبتدأ أو لما أصله المبتدأ ، والثاني : أنْ يكون المخبر عنه اسم عين ؛ والثالث : أنْ يكون الفعل متصلا إلى وقت التكلم ، لا منقطعا ، ولا مستقبلا ، والرابع أحد أمرين : أولهما أن يكون المصدر مكررا أو محصورا ، كما مثل الشارح ، أو معطوفا عليه ، نحو : أنت أكلا وشربا ... . » (٤) .

ويُهمُّنا هنا الشرط الثالث من كلام الشيخ محيي الدين ، فهو شرط سِياقِيّ في المقام الأول .

في إطار ما يسمى بـ «لغة الجسد Body Language » . [ينظر أحد المراجع المُهِمَّة في هذا الأمر: آلان وباربارا بييز : لغة الجسد ، مكتبة جرير ، ط ١ ، (٢٠٠٨م)]

ولا يقدم المُتَكَلِّم إلى تقرير المؤكد في نفس السامع إلا إذا أحس من خلال ايماءات وإشارات جسدِيَّة مثلا بهذا الشك . وكما أنَّ للشك إيماءات وإشارات جسدِيَّة ، فكذلك استيعاب المخاطب لكلام المُتَكَلِّم وفهمه له إشاراته .

بناء على هذا فَإِنَّ حالة الشك التي تتولد في السامع أو المخاطب ، التي لابد أنَّها تتولد بعد بداية الكلام هي الأساس التي تجعل المُتَكَلِّم يلجأ إلى أساليب التوكيد المختلفة لإزالة هذا الشك . ولابد أن يكون هذا في وجود سياق الحال . وما نريده هنا هو أن نقرِّر أن سياق الحال هو المسئول ابتداء عن كافة أشكال التوكيد في اللُّغَة ، فلولا وجود المُتَكَلِّم والمخاطب وحالة الشك التي ظهرت من خلال السِّياق ما لجأ المُتَكَلِّم إلى أي شكل من أشكال التوكيد .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٩/١

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ٢١٩/٢ ، وينظر الحاشية ذات الرَّقْم١

(٣) شرح ابن عقيل : ٢/ ١٨١

(٤) السابق ، ١٨١/٢ ، الحاشية ذات الرَّقْم ١

وما سبق هي الشروط التي ذكر بعضها سيبويه في نصه[١] التالي بعد مناقشته للأمثال التالية :

» ما أنت إلا سيرًا .

» ما أنت إلا سيرًا سيرًا .

» وما أنت إلا الضرب الضرب .

» وما أنت إلا قتلا قتلا .

» زيدٌ سيرا سيرا .

» أنت الدهر سيرا سيرا .

» كان عبد الله الدهرَ سيرا سيرا .

» أنت مُذُ اليومِ سيرا سيرا .

«واعلم أَنَّ السير إذا كنت تخبر عنه في هذا الباب فَإِنَّما تخبر بسير متصل بعضه ببعض في أي الأحوال كان »[٢] .

فالمُتَكَلِّم إذا أراد أَنْ يخبر بأنَّ السير (أو أي مصدر) متصل بعضه ببعض في أيِّ الأحوال كان ، وأنَّ هذا السير يحدث في وقت التكلم ؛ فله أَنْ يستخدم التركيب الذي تمثِّله الجمل السابقة «ما أنت إلا سيرا ، وما أنت إلا الضرب الضرب ... »، وبعبارة أخرى : إذا أراد المُتَكَلِّم أَنْ يبرز أَنَّ هناك مخاطَبا يكثر من ذلك الفعل ويواصله ؛ فله أَنْ يلجأ إلى التركيب السابق ، الذي فيه يحذف الخبر عامل المصدر ، ويقام المصدر مقامه . يقول السيرافي : « **إِنَّمَا يقال هذا (أي التركيب السابق) لمن يكثر منه ذلك الفعل ويواصله** »[٣] .

أما إذا لم يرد المُتَكَلِّم المعنى السابق ، معنى التعبير عن الكثرة والمواصلة ؛ فله أَنْ يكتفي بمجرد الإخبار . يقول سيبويه : «وأما قولك : إِنَّمَا أنت سيرٌ ؛ فَإِنَّما جعلته خبرًا لـ «أنت» ولم تضمر فعلا »[٤] .

---

(١) يرى د. فاضل السامرائي أنَّ شرط حذَف عامل المصدرِ وُجُوبًا أن ينوب المصدر عن فعلٍ استند لاسمِ عينٍ ـ شرط غير سديد ، بل يصح أن يكون غير عين مثل : تقريعًا تقريعا ، وما الدهر إلا تقلبا ، والامتحان اقترابا اقترابا ، والخوف انتشارا انتشارا ، وهذه ليست أسماء أعيان . كما يري أن الشرط القائل : أن يكون المصدر مكررا أو محصورا ، غير سديد أيضا ؛ لأن قولك : محمد سيرا ، أصله عند النحاة : محمد سيرا سيرا ، حذف فعله جوازا . معاني النحو ، ١٧١/٢ ، ونلاحظ أنَّ هذين الشرطين لم يردا في نص سيبويه .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٦/١

(٣) شرح كتاب سيبويه : ٢٢٥/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٣٦/١

وواضح أَنَّ المُتَكَلِّم وهو أحد عناصر سياق الحال ، يتحكم في هذه المسألة تحكما ، بدليل أَنَّهُ إذا أراد المواصلة والكثرة استخدم التركيب الأول «ما أنت إلا سيرًا » ، وإذا أراد مجرد الإخبار استخدم التركيب الثاني «إِنَّمَا أنت سيرٌ » .

ومن المواضع التي يحذف فيها عامل المصدر أَنْ يكون التركيب في أسلوب إنشائي طلبي . ويراد بالأساليب الإنشائِيَّة الطلبية هنا «ما يكون فيها المصدر المؤكِّد النائب دالا على أمر ، أو نهي ، أو دعاء ، أو توبيخ ، والكثير أَنْ يكون التوبيخ مقرونا بالاستفهام »[(١)] .

وذكر سيبويه مثالا في حال الاستفهام فقال : «وأما ما ينتصب في الاستفهام من هذا الباب فقولك : أقيامًا يا فلان والناس قعود ، وأجلوسا والناس يفرون . لا يريد (المُتَكَلِّم) أَنْ يخبر أَنَّهُ يجلس ولا أَنَّهُ قد جلس وانقضى جلوسه ؛ ولَكِنَّه يخبر أَنَّهُ في تلك الحال في جلوس وقيام »[(٢)] . وذلك على سبيل التوبيخ والإنكار ، قال المبرد : « قولك : أقياما وقد قعد الناس **لم تقل هذا سائلا ، ولكن قلته موبِّخا منكرا لما هو عليه ، ولولا دلالة الحال على ذلك لم يجز الإضمار** ؛ لأَنَّ الفعل إنَّما يضمر إذا دلَّ عليه دال ؛ كما أنَّ الاسم لا يضمر حتى يذكر ، **وإنَّما رأيته فى حال قيام فى وقت يجب فيه غيره فقلت له منكرا**»[(٣)] .

والجزء الأخير من كلام سيبويه في نصه السابق يربط فيه هذا التركيب بسياق حال مُعَيَّن هو ما سماه العلماء فيما بعد بـ «الاستفهام التوبيخي ».وسيبويه لم يصرح بوضوح ـ في كلامه هذا ـ الربط بهذا السِّياق المُعَيَّن ، ولكن السيرافي ـ أفضل من شرحوا الكتاب ـ ربط هذا التركيب بهذا السِّياق بوضوح قائلا : «وهذا الكلام يقوله الإنسان عند فعل يشاهده مما ينكر عليه من أجل شيء آخر »[(٤)] .

ومما يشبه المصدر في الاستفهام التوبيخي في هذا التركيب قول سيبويه في اسم الفاعل : «أقائما وقد قعد الناس ، وأقاعدًا وقد سار الركب »[(٥)] .

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ٢٢١/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٨/١

(٣) المقتضب ، ٢٢٨/٣

(٤) شرح كتاب سيبويه ، ٢٢٨/٢ ، وتنظر الأمثلة التي ذكرها سيبويه فيما بعد : ـ مثل قول العجاج :

أَطَرَبًا وأنتَ قِنَّسْرِيُّ
[بحر الرجز]

ـ وقول العرب «أَغُدّةً كغُدّة البعير ومَوْتًا فى بيتِ سَلُولِيَّةٍ ». وقول جرير :

أَعَبدًا حَلَّ في شُعَبى غَرِيبًا   أَلُؤمًا لا أَبالَكَ وَاِغترِابا
[بحر الوافر]

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٠/١

- **دور قرينة السِّياق في إعمال ظن وأخواتها أو إلغاء عملها :**

ومما يمكن ضمه إلى الجملة الفعلِيَّة هنا الحديث عن ظنَّ وأخواتها ودور السِّياق في إعمالها أو إلغائها ، ونقول : إنَّ مجموعة الأفعال التي وضعها النَّحْوِيّون تحت عنوان « ظن وأخواتها » نالت اهتماما كبيرا وعناية ملحوظة منهم .

لقد درسوا أهم الأحكام المتعلقة بها دراسة متأنيَّة . من تلك الأحكام حكم الإلغاء ، ويقصدون به «منع الناسخ من نصب المفعولين معًا ، لفظا ومحلا منعًا جائزًا ـ في الأغلب ـ لا واجبا » [(١)] . وهذا المصطلح يقابل مصطلح الإعمال الذي يعني أَنَّ المفعولين اللذين يأتيان مع هذه الأفعال نُصِبا بهذه الأفعال الناسخة .

ويعلل النُّحَاة لسبب الإلغاء بأنَّه ناتجٌ عن « إمَّا توسُّط الناسخ بين مفعوليه مباشرة بغير فاصل آخر بعده يوجب التعليق ، وإما تأخره عنهما » [(٢)] .

ويكتفي معظمهم بهذا سببا لإلغاء عمل ظن وأخواتها ، وهذا السبب يحتاج إلى فضل تأمُّل وإنعام نظر . إنَّ العلَّة في الإلغاء كما يقولون «توسط الناسخ بين مفعوليه » ، وهذه العلة تثير تساؤلا مُؤَدّاه : أنَّى للناسخ أَنْ يتوسط بين مفعوليه بدون تدخل خارجي من إرادة واعية ؟ أم أَنَّ التوسط يكون من تلقاء نفسه ؟ وما السبب الذي جعل هذه الإرادة تقوم بهذا التوسط ؟

إن تفسير الإلغاء بسبب التوسط فقط بدون الإشارة إلى السياق ودوره في هذا أمر يحتاج إلى فضل مراجعة وإيضاح . إنَّ لكل حادث سببا كما يقول المناطقة ، والتوسُّط لا بدَّ له من إرادة نابعة من متكلم ، والمُتَكَلِّم لا يتكلَّم إلا وهو في سياق ما ، وإغفال النُّحَاة للسياق جعلهم يعللون للإلغاء بهذا التعليل الذي قد تشوبه شائبة غموض .

ومما يثير العجب أَنَّ سيبويه إمام النُّحَاة وجَّه النظر إلى السِّياق في علاج هذه المسألة ، واستطاع من خلاله تفسير الإلغاء ، فقال في باب « الأفعال التي تستعمل وتُلغى » : « وكلَّما أردتَ الإلغاء فالتأخيرُ أقوى . وكلٌّ عربيٌّ جَيِّد ... ، **وإنَّمَا كان التأخير أقوى ؛ لأنَّهُ إنَّمَا يجيء بالشكّ بعدما يَمْضِي كلامُه على اليقين ، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقينَ ثُمَّ يُدْرِكُه الشكُّ** ، كما تقول : عبدُ الله صاحبُ ذاك بلغَنى ... ، **فأَخَّرَ ما لم يَعمَلْ في أول كلامه . وإنَّمَا جعل ذلك فيما بلغه بعدما مَضى**

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣٨/١

(٢) السابق : ٣٨/١

كلامُه على اليقين ، وفيما يَدرى . فإذا ابتدأ كلامَه على ما فى نيّته من الشكَ أَعْملَ الفعلَ قدّم أوْ أخَّر ، كما قال : زيدًا رأيتُ ، ورأَيتُ زيدا »[1] .

يُفْهَمُ من النَّصّ السابق أَنَّ جملة مثل «أظن زيدا قائمًا » يكون فيها الشك مسيطرًا على المُتَكَلِّم قبل أَنْ يتكلم ؛ لذلك أعمل الفعل . أَمَّا الجملتان : «زيدٌ أظن قائمٌ » و «زيدٌ قائمٌ أظن » فَإِنَّ اليقين مسيطر على المُتَكَلِّم في بداية الكلام ثُمَّ طرأ عليه الشك ؛ إذن فتردد المُتَكَلِّم بين الشك واليقين ظهر أثره الفوري على التركيب المشتمل على ظن وأخواتها .

وعليه فإِنَّه يتوجب علينا عند معالجة ظاهرة الإلغاء أَنْ نستصحب سياق الحال الذي يوجد فيه المُتَكَلِّم ، ولا يكتفى بذكر أَنَّ سبب الإلغاء هو التوسط .

ولعل هذا الاستنتاج الذي أخذناه من نصّ سيبويه يتوافق مع كلام أستاذنا فاضل السامرائي حول هذه المسألة إذ يقول : « إِنَّ قول النُّحَاة أَنَّه يجوز إلغاء الفعل إذا توسط أو تأخَّر قد يُفهم منه أَنَّه يسوغ ذلك متى شاء المُتَكَلِّم دون نظر إلى المعنى . والحق أَنَّ معنى الإلغاء غير معنى الإعمال **والمُتَكَلِّم مقيَّد بالمعنى ؛ فليس له أَنْ يُعمل أو يُلغي من دون نظر إلى القصد والمعنى**»[2] .

وأعتقد أَنَّ أستاذنا السامرائي يقصد بالمعنى والقصد هنا السِّياق .

ولا يفوتنا في ختام هذه النقطة أَنْ نشير إلى أَنَّ العلامة الإعرابِيّة تَأَثَّرت بالسِّياق ، وظهر أثره فيها بشكل فوري وظاهر .

ويمكن أَنْ نستغل حديثنا هنا عن تأثير السِّياق في جملة ظن في الحديث عن تأثير سياق الحال على معنى الفعل ظن نفسه ، فعندما نقول : «ظننت زيدًا »وتصبح جملة مفيدة يحسن السكوت عليها ؛ فلا بد أَنَّ معنى ظن لا يفيد الشك ولا الرجحان . يقول سيبويه : « قد يجوز أَنْ تقول : ظننتُ زيدًا ، إذا قال : من تظنُّ ، أى من تَتَّهِمُ ؟ فتقول : ظننتُ زيدًا ، كأَنَّه قال : اتَّهَمْتُ زيدا . وعَلَى هذا قيل : ظَنينٌ ؛ أى مُتَّهَمٌ »[3] .

أي أَنَّ الفعل ظن قد تتغير وظيفته النحوِيَّة ، ويصبح ذا مفعول واحد إذا تغيَّر معناه الدِّلَالِيّ وأصبح بمعنى « اتهم »[4] .

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ١/١٢٠

(2) معاني النحو ، دار الفكر ، عمان ، ط ١ ، (٢٠٠٠م)، ٢/ ٣٣

(3) سيبويه : الكتاب ، ١/١٢٦

(4) الواقع أن النصوص التي ذكرها سيبويه عن ظن وأخواتها غنية بالدلالات السِّياقيَّة التي قد تحتاج إلى دراسة مستقلة وتأمل وفحص دقيق . ففي بعضها نجد تأثيرا دقيقا لسياق الحال (متمثلا في المُتَكَلِّم) على التركيب . من هذه النصوص مثلا : « وقال عزَّ وجلَّ : ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ ؛ كَأَنَّك قلت : قد حسبت أنَّه لا يقول ذاك . وإِنَّمَا

والفعل «علم» قد يلغى عمله بلام التوكيد ، ويأتي في الجملة لإفادة التوكيد و«عدم التظنِّي» **وألا يحيل المُتَكَلِّم على علم غيره** . يقول سيبويه : «ومن ذلك : قد علمتُ لَعبدُ الله خيرٌ منك . فهذه اللامُ تمنَعُ العملَ ... ؛ لأَنَّها إنَّما هى لامُ الابتداء ، وإِنَّمَا أَدخلتَ عليه علمتُ لتُؤكِّدَ وتجعلَه يقينًا قد علمتَه ، ولا تُحيلَ على علم غيرك»[1] .

فـ «علم» تفيد اليقين ، ومع زيادة المبنى بدخول لام الابتداء زاد المعنى ، وهو : عدم الإحالة على علم الغير . وهذا المعنى لا يمكن أَنْ يوقف عليه إلا بتتَبُّع استقصائي لهذا التركيب في السِّياقات المختلفة .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون ؛ فإِنَّنَا يمكن أَنْ نذكر جملة من الأفعال التي يتوقَّف عملها النَّحْوِيّ على معناها الدِّلَالِيّ الذي يحدده السِّياق ، بعضها من أخوات ظن ، منها :

» **<u>الفعل جعل</u>** : من الأفعال التي يؤثِّر سياق الحال على معناها ، وينعكس على وظيفتها النحوِيَّة الفعل «جعل» ، فالجملة التي تقول : «جعلت متاعك <u>بعضَه</u> فوق بعض» بنصب «بعضه»يمكن توجيه النصب على ثلاثة أوجه :

١ـ أن تكون «جعل» بمعنى «صنع أو عمل» ؛ فينصب مفعولا واحدًا ؛ وتكون «فوق في موضع الحال»[2] .

٢ـ أن تكون «جعل» بمعنى «ألقى أو أسقط» ، وتكون «بعضه فوق بعض» في هذا «كالمفعول ، لا في موضع الحال ؛ لأَنَّهُ في جملة الفعل الذي هو ألقيت»[3] .

٣ـ أن تكون «جعل» بمعنى «صيَّر» ؛ «فينصب مفعولين ؛ فتصبح فوق في موضع المفعول الثاني»[4] .

ويُجمل بعض العلماء هذه المعاني للفعل جعل ويتتبعها تاريخيا فيقول : «وأصل الجعل حِسِّيّ ، تقول : جعل الشيء يجعله جعلا ؛ أي : وضعه ، وجعله : صنعه ، وجعله : صيره ... ، ثم نقل إلى معنى الظن والاعتقاد»[5] .

= <u>حسنت أنَّه ههنا لأنك قد أثبتَّ هذا في ظَنّك كما أثبتَّه في علمك ، وأنَّك أدخلته في ظنك على أنه ثابتٌ الآن كما كان في العلم ولولا ذلك لم يحسن «أنَّك» ههنا ولا «أنَّه» ، فجرى الظن ههنا مجرى اليقين لأنَّهُ نفيه»</u>. ١٦٧/٣

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٦/١ ، وينظر تعليق السيرافي على هذا الموضع ١٣٦/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٥٦/١

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٠/٢

(٤) السابق : ٢٠/٢

(٥) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢٩/٢

ولا شك أَنَّ تلك المعاني يتوقَّف تحديدها على سياق الحال ؛ فبه يتحدّد معنى جعل الذي يترتب عليه التوجيه الإعرابِيّ السليم .

» **الأفعال رأى ، وجد ، علم** :

يبين سيبويه تأثير السِّياق على معنى هذه الأفعال قائلا : «وإن قلت رأيتُ فأردْتَ رؤيةَ العين ، أو وجدتُ فأردْتَ وِجدانَ الضالة ؛ فهو بمنزلة ضربتُ ، ولكنّك إنَّمَا تريد بوجدت عَلِمْتُ ، وبرأيت ذلك أيضًا . ألا ترى أَنَّهُ يجوز للأعمى أنْ يقول : رأيتُ زيدًا الصالحَ . وقد يكون علمتُ بمنزلة عرفتُ لا تريد إلاعِلْمَ الأوّل »[(١)] .

ويقول العلماء عن الفعل «وجد» وتنقله الدلالي أنَّه « منقول من وجد الشيء ولقيه ، وأصله في الأمور الحسية ، ثم نقل معناه إلى الأمور القلبية ، فعندما تقول : «وجدت الظلم وخيم العاقبة » ، كان معناه أنَّك وجدت هذا الأمر وأصبته كما تُصاب الأمور المحسوسة ليس في ذلك شك ، فنقل من هذا المعنى المادي إلى الأمر المعنوي ، ولما كان وجدان الشيء ولقيه أمرًا يقينًا كان الأمر العقلي بمنزلته»[(٢)] . وكذلك الفعل «رأى» فإنّه «منقول من الرؤية البصرية ، فأنت إذا رأيت شيئا فقد تيقَّنت منه وعلمته ، ثم نقل من هذا المعنى إلى الأمور القلبية ، فإذا قلت مثلا : «رأيت الباطل زهوقا» كان المعنى كأنَّك رأيت هذا الأمر بعينك ، فكما أنَّه ليس في الرؤية العينية شك ، كان هذا بمنزلته »[(٣)] .

إذن بحسب معاني هذه الأفعال في سياقاتها يكون عملها النَّحْوِيّ .

» **الفعل دعا :**

يشير سيبويه إلى الفعل «دعا» في باب الأفعال التي تنصب مفعولين فيقول : «دعَوْتُه زيدًا إذا أردت دعوته التي تجري مجرى سميته ، وإن عنيت الدعاء إلى أمر لم يجاوز مفعولا واحدًا»[(٤)] .

إذا أتى الفعل دعا بمعنى «سمّى » نصب مفعولين ، وإن عنيت الدعاء نصب مفعولا واحدًا .

وجملة سيبويه الأخيرة تشير إلى إرادة المُتَكَلِّم التي لا بدَّ أنَّها مرتبطة بالسِّياق .

» **كان التامَّة (وكذلك : دام ، أصبح ، أمسى)** :

يأتي الفعل كان على حالين ، تاما وناقصا . وقيل إنَّ كان التامة تكون كذلك « لاكتفائها بالفاعل ، وقيل لدلالتها على الحدث والزمان ؛ فلا تحتاج إلى اسم أو خبر ؛ وتكون بمعنى : حصل ،

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠/١ ، وينظر أيضا الموضع : ٣٦٧/٢

(٢) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢/ ١٢

(٣) السابق ، ١٢/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٧/١

أو حدث ، أو وقع ، أو وجد ، أو جاء» [١] . يقول سيبويه : «وقد يكون لكانَ موضعٌ آخَرُ يُقتصَرُ على الفاعل فيه ، تقول : قد كان عبدُ الله ؛ أي قَد خُلِق عبدُ الله . وقد كان الأمرُ ؛ أي وقعَ الأمرُ وقد دام فلانٌ ؛ أي ثبت » [٢] .

من خلال نصه لا يمكن أَنْ نحكم على جملته « كان عبد الله » أَنَّ كان تامة بدون سياق ، وما كان لسيبويه ولا لغيره أَنْ يصل إلى هذه القاعدة بدون اعتباره .

- **الحذف في الجملة الفعليَّة :**

الحذف ظاهرة لغوية ثابتة وموجودة ، تحدَّث عنها العلماء ، وبيَّنوا معنى الحذف وشروطه وعلاقته بسياق الحال ؛ فقالوا : «الاختصار أصل بلاغيّ ، لا يختص بباب ، ولا يقتصر على مسألة ، ويراد به : حذف ما يمكن الاستغناء عنه من الألفاظ لداع يقتضيه . وهو جائز بشرطين :

أ- أن يوجد دليل يدل على المحذوف ، ومكانه (؛ لأَنَّ عدم معرفة المحذوف يفسد المعنى فسادًا كاملًا ، وعدم معرفة مكانه يؤثِّر في المعنى قليلًا أو كثيرًا) ؛ فلوضع الكلمة في الجملة أثر في المعنى . ولا فرق في الدليل (القرينة) بين أَنْ يكون مَقَاليًّا ؛ (أي : قولًا يدل على المحذوف) و أَنْ يكون حاليًا ؛ (أي : أمرًا آخر مفهومًا من الحال والمقام ، بغير نطق ولا كلام) .

ب- وألا يرتب على حذفه إساءة للمعنى ، أو إفسادٌ في الصياغة اللفظِيَّة » [٣] .

أي أَنَّ المُتَكَلِّم الموجود في سياق الحال لا يملك أَنْ يحذف أي جزء من الجملة إلا إذا تأكَّد من أَنَّ هذا لا يؤثِّر في فهم المخاطب للكلام من خلال قرينة قوية كقرينة سياق الحال أو الحال الحاضرة كما يسمِّيها السيرافي . وقد سبق سيبويه غيره في التأكيد على هذا فقال في باب «ما جرى من الأمر والنهى على إضمار الفِعل المستعمَلِ إظهارُه إذا عَلِمْت أنّ الرجل مُسْتَغْن عن لَفْظِكَ بالفِعل » : «وذلك قولك : زيدًا ، وعمرًا ، ورأسَه . **وذلك أنَّك رأيت رجلا يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقتل ، فاكتفيتَ بما هو فيه من عمله أَنْ تَلفظَ له بعمله** ؛ فقلت : زيدًا ؛ أى أَوْقِعْ عملَك بزيدٍ . أو رأيتَ رجلاً يقول : أَضْرِبُ شَّر الناسِ ؛ فقلتَ : زيدا . أو رأيتَ رجلا يحدِّثُ حديثا فقَطَعَهُ ؛ فقلتَ : حديثَك . أو قَدِمَ رجلٌ من سفرٍ فقلت : حديثَك ؛ استغنيتَ عن الفعل بعلمه أَنَّهُ مستخبرٌ » [٤] .

---

(١) د. علي توفيق الحمد و يوسف جميل الزغبي : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٢٤٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٦/١

(٣) عباس حسن : النحو الوافي ، ٥٦/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٣/١

وقد يكون من المفيد أَنْ نذكر أَنَّه تتردد عند سيبويه عدة مصطلحات ترادف مصطلح الحذف ، منها ما أسماه بـ « الاختزال » . يقول : « وإِنَّمَا اختُزِل الفعل هاهنا ؛ لأنهم جهلوه بدلا من اللفظ بالفعل »[١] ، و قال : « ... فلذلك اختَزَلَوا الفعلَ هنا ، كما اختزلوه فى قولهم : الحَذَرَ »[٢] .

وقد انفرد سيبويه بهذا المصطلح ، فكان أول من صكه ، قال الزَّبِيدِي : « الاختزال الحذف ، قال ابن سِيدة : ولا أعرفه عن غير سيبويه »[٣] . وأصبح فيما بعد من المصطلحات التي يرددها علماء اللُّغَة بمعنى الحذف ، يقول الزركشي : « الاختزال وهو الافتعال ... ، نقل في الاصطلاح إلى حذف كلمة أو أكثر »[٤] .

ومن المصطلحات التي ترددت عند سيبويه والقريبة أيضا من مصطلح الحذف مصطلح « الاستخفاف » ، ويعرِّفه سيبويه بأنَّه « إضمار ما يقع مظهرا »[٥] . ويقرُّ سيبويه أَنَّ الذي يسمح بهذا الاستخفاف « علم المخاطب » و« كثرة التكرار »[٦] ، يقول : « وإِنَّمَا أضمروا ما كان يقع مظهرا استخفافا ؛ ولِأَنَّ المخاطب يعلم ما يعني ؛ فجرى بمنزلة المثل ، كما تقول : لا عليك ، وقد عرف المخاطب ما تعني ، أَنَّهُ لا بأس عليك ، ولا ضر عليك ، ولَكِنَّه حذف لكثرة هذا في كلامهم »[٧] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣١٢/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣١٧/١ ، وينظر أيضا المواضع التالية على هذا اللفظ : الموضع ٣١٤/١ ، ٣٢٢/١

(٣) تاج العروس : ٤٠٦/٢٨

(٤) البرهان في علوم القرآن : ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتاب العربي ، ط١ ، القاهرة ، (١٩٥٧م)، ١٣٤/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/١

(٦) الحق أن من يريد تحديد مصطلح «الاستخفاف» يقابل صعوبة في هذا ، فنحن لا نجد لهذا المصطلح تعريفا مانعا جامعا . يقول د. أحمد عفيفي ، في كتابه « ظاهرة التخفيف في النحو العربي » ما نصه : « الحق أن عدوى عدم تعريفهما (يقصد مصطلحي الخفة والثقل) في المعاجم قد انتقلت إلى علم اللُّغَة بكل مستوياته ، فلم نجد هذا التعريف الجامع المانع ؛ وإِنَّمَا وجدنا توصيفا للظاهرة ».ص ٢٩ ، وينقل د. أحمد محاولة بعض الباحثين لتحديد التخفيف أو الخفة من خلال مقابلتها بمصطلح الثقل ، فيقول : « لا حد للثقل إذا اعتبرنا العنصر الخفيف على حدة ، ولكن الخفة نسبية تُقاس بالثقل ، والثقل نسبي يقاس بالخفة ، ومتى عرفنا ما بينهما من النسبة ... صارت لهما حدود محددة ومقادير مقدرة ».ص ٢٩ ، والذي يستقر عليه د. أحمد عفيفي في كتابه : «أن البعض يُرجع الخفة والثقل إلى **مجرد الانطباع ، وبعضهم يرجعهما إلى إحساس المُتَكَلِّم ؛ ولهذا قال النُّحَاة : إِنَّ الخفة والثقل شيء نسبي**».ص ٣٠ ، ينظر : ظاهرة التخفيف في النحو العربي : الدار المصريَّة اللبنانية ، ط١ ، (١٩٩٦م)

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/١

وما يفهم من النَّصّ السابق أَنَّ الاستخفاف مرتبط بالتراكيب كثيرة الاستعمال التي تشبه الأمثال التي تتردَّد على الألسنة . ومن الأمثلة التي ذكرها على الحذف استخفافا قولنا : «الله أكبر ومعناه : الله أكبر من كل شيء» [١] .

نأتي هنا إلى تفصيل الكلام عن علاقة الحذف في الجملة الفعلِيَّة بسياق الحال بشيء من التفصيل . ونقول ابتداء إِنَّ السِّياق مُهِمّ لكي يكون للحذف مشروعية ، بل هو مُهِمّ لإدراك الحذف أصلا ، ومُهِمٌّ في تقدير المحذوف وتحديد معناه كما سبق وأن قررنا .

فمن الأمثلة على أَنَّ تقدير المحذوف وتحديد معناه يتوقَّف لا محالة على سياق الحال ؛ قولنا : «زيدًا فقد تعني : اقتل زيدًا ، أكرم زيدًا ، اشتم زيدًا» [٢] . يقول سيبويه : «وذلك أَنَّك رأيت رجلا يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقتل ؛ فاكتفيتَ بما هو فيه من عمله أَنْ تَلفظَ له بعمله فقلت : زيدًا ؛ أي أَوْقِعْ عملَك بزيدٍ» [٣] .

ومن خلال السِّياق نحدد نوع العنصر المحذوف الذي قد يكون :

- المفعول به ، يقول : «ومما يقوَّى تركَ نحوِ هذا لعلم المخاطَب ، قولُه عزّ وجلّ : ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ، فلم يُعْمِل الآخِرَ فيما عمل فيه الأوّلُ استغناءً عنه ومثلُ ذلك : ونَخْلَعُ ونَتْرُكُ من يَفْجُرك» [٤] . قال السيرافي : « فقد ترك إما مفعول نخلع ، وإما مفعول نترك اكتفاء بعلم المخاطب» [٥] .
- الفعل الأمر ، يقول : «حدثنا أبو الخطاب أَنَّهُ سمع بعض العرب وقيل له : لِمَ أفسدتم مكانكم هذا ؟ فقال : الصبيان بأبي . كَأَنَّه حذِر أَنْ يلام ؛ فقال : لُمِ الصبيان» [٦] .

قال ابن يعيش : «ومن ذلك ما حكاه سيبويه عن أبي الخطاب الأخفش ـ وكان من مشايخ سيبويه ـ أنَّه سمع بعض العرب ، وقد قيل له : « لم أفسدتم مكانكم ؟ »فقال : «الصبيان بأبي » ، كأنَّه خاف أن يلام ، فقال : لم الصبيان ، فأضمر ما ينصب» [٧] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٣/٢

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ١٥٤/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٣/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٤/١

(٥) شرح كتاب سيبويه : ٣٦٤/١

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٥/١ ، وينظر الموضع : ٣٣٩/١

(٧) شرح المفصل ، ٣١٣/١

- الفعل الماضي : من المصادر والصفات التي تنصب بسبب إضمار فعل مجموعة المصادر التالية «سَقيًا وَرْعيًا ، وخَيْبةً ، ودَفرًا ، وجَدْعًا وعَقْرًا ، وبؤُسًا ، وأُفَّةً وتُفَّةً ، وبُعْدًا وسُحْقا ، وتَعْسًا وتَبًّا ، وجُوعًا وجُوسًا ، وبهرا ، هنيئا مريئا » . يقول سيبويه : «وإنَّمَا يَنتصب هذا وما أشبهه إذا ذُكر مذكورٌ فدعوتَ له أو عليه ، على إضمار الفعل ، كأنّك قلت : سَقاك الله سَقيًا ورَعاك الله رعيًا ، وخيبك الله خيبة» [١] . وقال في الصفات «هنيئا مريئا» : «وإنَّما نصبتَه لأنَّهُ ذَكر لك خيرًا أَصابه رجلٌ ؛ فقلتَ : هنيئًا مريئًا ، كأَنّك قلت : ثَبَتَ ذَلك له هنيئًا مريئًا أو هنأه ذلك هنيئًا ؛ فاختُزِلَ الفعلُ» [٢] .

إن سيبويه يعلل حذف الفعل الماضي مع هذه المصادر والصفات بسبب سِياقِيّ فيقول : «ذُكر مذكورٌ فدعوتَ له ... »، «ذُكِر لك خيرا أصابه رجل ... » ؛ فسمح هذا باختزال الفعل .

- أداة النداء والمنادى : قد تحذف أداة النداء والمنادى لدلالة السِّياق ، يقول : « فلَحاقُ الكاف كقولك : يا فلانُ ، للرَّجُل حتَّى يُقْبِلَ عليك . وتركُها كقولك للرجل : أنت تَفعلُ ، إذا كان مُقْبِلا عليك بوجهه مُنْصِتًا لك . فتركتَ يا فلانُ حين قلت : أنت تَفعَلُ ؛ استغناءً بإقبالِه عليك» [٣] .
- الجملة بكاملها : قد يكون المحذوف المفهوم من خلال السِّياق «جملة كاملة» ، قال سيبويه : «ومن ذلك أيضًا أَنْ ترى رجلاً قد أَوْقَعَ أمرًا أو تعرَّض لِه ، فتقول : متعرِّضًا لعنن لم تعنه ، أى : دنا من هذا الأمر متعرَّضًا لعَنَن لم يَعنِه . وتَرَكَ ذكرَ الفعل لما يَرى من الحال . ومثله : بَيْعَ المَلَطَى لا عهدَ ولا عقدَ ، وذلك إنْ كنتَ فى حال مساومةٍ وحالِ بيعٍ ، فتَدَعُ أُبايعُك استغناءً لما فيه من الحال» [٤] .
- ويمكن أَنْ يكون المحذوف جمل بكاملها تمثل قصة وقع فيها مَثَلٌ من الأمثلة . فعندما نضرب مثلا من الأمثال فنحن نستحضر تباعًا الموقف أو السِّياق الأول الذي وقع فيه المثل والذي هو بدوره موجود في أذهاننا سلفا من خلال معرفتنا بملابسات هذا المثل .

وقد يكون لاتجاه الكلام بين عدد من الأشخاص ، وحضورهم وغيابهم عن موقف الكلام تأثير على صحة الحذف وعدمه ، فقد يصح الحذف إذا توجه الكلام إلى الشخص «أ» ، ولا يصح إذا توجَّه إلى الشخص «ب» ، مع أَنَّ من يتوجه إليهما الكلام أ و ب يجمعهما سياق واحد .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣١٢/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣١٧/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٤/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٢/١

ونضرب لذلك مثلين من كلام سيبويه :

» النص الأول :

« واعلم أَنَّهُ لا يجوز أَنْ تقول : زيدٌ ، وأنت تريدُ أَنْ تقول : لِيُضْرَبْ زيدٌ ، أو لِيَضْرِبْ زيدٌ إذا كان فاعلا ، ولا زيدًا ، وأنت تريد لِيَضرب عمرو زيدًا . ولا يجوز : زيدٌ عمرا ؛ إذا كنتَ لا تُخاطِبُ زيدًا ؛ إذا أردتَ لِيَضْرِب زيدٌ عمرًا وأنت تخاطِبُني ، فإِنَّما تريد أَنْ أُبْلِغَه أنا عنك أَنَّكَ قد أمرته أَنْ يضرب عمرًا ، وزيدٌ وعمروٌ غائبانِ ، فلا يكون أَنْ تُضْمِرَ فِعْلَ الغائبِ . وكذلك لا يجوز زيدا ، وأنت تريد أَنْ أُبْلِغَه أنا عنك أَنْ يَضْرِبَ زيدًا ؛ لأَنَّكَ إذا أضمرتَ فعل الغائب ظنَّ السامعُ الشاهدُ إذا قلت : زيدًا أَنَّكَ تأْمُرُه هو بزيد ؛ فكرهوا الالتباس هنا ككراهيتهم فيما لم يؤخذْ من الفعل نحوُ قولك : عَليكَ ، أَنْ يقولوا عليه زيدًا ، لئلاَّ يشبَّهَ ما لم يؤخَذْ من أمثلة الفعل بالفعل . وكرهوا هذا فى الالتباس وضَعُفَ حيث لم يُخاطبِ المأمورَ » (١) .

ولنفهم ما يقصده سيبويه في هذا الاقتباس نتخيل أَنَّ لدينا موقفا أو سياقا يضم أربعة أشخاص : « المُتَكَلِّم ، المخاطب ، زيد ، عمرو » ، ونتأمل الجدول التالي :

م	الجمل التي لا تجوز في النَّصّ السابق	ما يريده المُتَكَلِّم	السبب في عدم الجواز	استنتاج
١	زيدٌ	لِيُضْرَب زيدٌ أو لِيَضْرِبَ زيدٌ	غياب زيد	تجوز هذه الجملة إذا كان زيد حاضرا ، وتوجه إليه المُتَكَلِّم بالكلام ، وعلم من خلال السِّياق أَنَّ المُتكَلِّم يريد منه أَنْ يضرب أو يُضرب .
٢	زيدًا	ليضربَ عمرو زيدًا	غياب عمرو وزيد عن موقف الكلام	تجوز الجملة السابقة إذا كان عمرو وزيد حاضرين أمام المُتَكَلِّم ، وعلم عمرو من السِّياق أَنَّ المُتكَلِّم يريد منه أن يضرب زيدًا .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٤/١ ـ ٢٥٥

٣	زيدٌ عمرا	يريد المُتَكَلِّم أَنْ ينقل المخاطبُ الأمرَ إلى زيد الغائبِ أَنْ يضرب عمرا	أن المُتَكَلِّم لا يخاطب زيدا مباشرة ؛ لأَنَّه غائب وأنَّ المُتَكَلِّم يتَّجه بالخطاب إلى المخاطب	تجوز العبارة السابقة إذا كان زيد حاضرا الكلام وتوجه المُتَكَلِّم إليه مباشرة بالكلام .
٤	زيدا	يريد المُتَكَلِّم أَنْ ينقل المخاطبُ الأمرَ إلى عمرو أَنْ يضرب زيدا	غياب عمرو وزيد ، والتباس الكلام على السامع والشاهد أَنَّ الأمر له .	

نخلص من هذا الجدول أَنَّ اتجاه الكلام وإلى من يتوجه يتحكم في حذف بعض عناصر الجملة ، وأنَّ حذف الفعل لا يجوز إذا اتجه الكلام إلى شخص غائب عن موقف الكلام ، ويصح الحذف إذا كان من يتوجه إليه بالكلام حاضرا شاهدا له .

» النص الثاني : يقول :

«وإِنَّمَا أضمرت الفعل ها هنا وأنت تخاطب ؛ لأَنَّ المخاطَب المُخبَرَ لستَ تجعلُ له فعلا آخَرَ يعمل فى المُخْبَرِ عنه . وأنت فى الأمر للغائب قد جعلتَ له فعلا آخَرَ يعمل ، كأَنّك قلت : قُلْ له لِيَضربْ زيدًا ، أو قل له : اضربْ زيدًا ، أو مُرْهُ أَنْ يَضْرِبَ زيدًا ، فضَعُفَ عندهم مع ما يَدخل من اللَّبس فى أمرٍ واحدٍ أَنْ يُضْمَرَ فيه فِعْلانِ لشيئينِ » [١] .

ومقصود سيبويه في هذا النَّصّ «أَنَّ إضمار الفعل مع إرادة الأمر إنَّمَا يكون مع المخاطب ، ولا يصح إضماره مع إرادة الأمر للغائب ، إذا قلت : زيدًا وأنت تريد ليضرب زيدًا ؛ لأَنَّهُ يصير بمنزلة قولك : قل له ليضرب زيدًا » [٢] .

ذلك مثلان يبيِّنان أَنَّ الحذف قد يصحُّ إذا اتجه الكلام لشخص ما ، وقد لا يصح إذا اتجه لشخص آخر في نفس الموقف ونفس السِّياق .

ومن أسباب الحذف التي أقرها سيبويه «كثرة الاستعمال » ، ففي كثير من النصوص ذكر أَنَّهُ قد حذف عنصر من عناصر الجملة والسبب هو كثرة الاستعمال . بل إِنَّهُ خصص بابا في الكتاب

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٨/١

(٢) هذا شرح الأستاذ عبد السلام هارون في الحاشية ذات الرَّقْم ١ ، من الكتاب: ٢٥٨/١

جعل عنوانه « هذا باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل »[(١)] . وذكر مجموعة من الجمل ينطبق عليها هذا الوصف :

أ- « هذا ولا زعماتك » ؛(أي : ولا أتوهم زعماتك) .

ب- «كليهما وتمرًا » ؛(أي كَأَنَّه قال : أعطني كليهما وتمرا) .

ت- «كلّ شيء ولا شتيمة حر » ؛ (أي : ائتِ كل شيء ولا ترتكب شتيمة حر) .

ث- «كلاهما وتمرًا » ؛ (أي كَأَنَّه قال : كلاهما لي ثابتان وزدني تمرا) .

ج- قول الشاعر :

دِيارَ مَيَّةَ إِذ مَيٌّ تُساعِفُنا وَلا يَرى مِثلَها عُجمٌ وَلا عَرَبُ

[بحر البسيط]

(أي كَأَنَّه قال : أذكر ديار مية) .

الفعل المحذوف من هذه الأمثلة حذف لكثرة الاستعمال ولعلم المخاطب بالمحذوف . وهذا يعني أَنَّ الحذف هنا يستند إلى الخبرة السابقة عند المخاطب[(٢)] الذي سمع هذه الجملة التي تشبه المثل أكثر من مَرَّة قبل ذلك ، ويعلم مسبقا من خلال سياقات سابقة مرت عليه أَنَّ هذا التركيب يقصد هذا المعنى أو ذاك ؛ أي أَنَّ كثرة الاستعمال ترتبط بوجه ما بسياق الحال ؛ هذا الربط يظهر في مناقشة سيبويه للجملة الأولى في المجموعة السابقة ، حيث يقول : «ولم يَذكر : ولا أتوهَّمُ زعماتِك لكثرة استعمالهم إيَّاه ، **ولاستدلاله مما يَرَى من حاله أَنَّهُ يَنْهاه عن زَعْمه**»[(٣)] .

وينقل سيبويه نفس التعليل السابق (كثرة الاستعمال) عن الخليل لمجموعة من الجمل حذف فيها الفعل وهي : «وراءك أوسع لك ، حسبك خيرًا لك ، قوله تعالى : ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾» فيقول : «حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ، ولعلم المخاطب أَنَّهُ محمول على أمر»[(٤)] .

وقبل أَنْ ننتقل إلى فكرة أخرى نثبت هنا فائدة مستخلصة من عنوان سيبويه السابق الذي قال فيه : « هذا باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل » ، وهذه الفائدة هي أَنَّ من خصائص المثل التي يمكن أَنْ تضاف إليه « كثرة الاستعمال وارتباطه بسياق حال ما » ، وتضاف

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٠/١

(٢) أو ما سماه سيبويه «علم الصدور » ، يقول : «وأمّا قول الناس : كان البُرُّ قَفيزَيْنِ ، وكان السَّمْنُ مَنَوَينِ ، فَإِنَّما استغنوا هاهنا عن ذكر الدِّرهم **لِما في صدورهم من عِلمه** » . ٣٩٣/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٠/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٨٣/١

هذه الخصيصة لخصائص المثل العامة ، وهي : الإيجاز البليغ ، إصابة المعنى ، حسن التشبيه ، جودة الكناية إذا كان المثل من باب الكنايات[١] .

وباستدعاء سيبويه للمثل في عنوانه السابق ، وربط كثرة الاستعمال به يعطي إشارة سريعة إلى أهميَّة السِّياق بالنسبة للمثل اللغويّ وما به من حذف ، فقد أفصح سيبويه عن هذه العلاقة بشكل صريح في أحد نصوصه ، حيث أبان أنَّنا لا نستطيع تفسير المحذوف الموجود في المثل اللغويّ بدون استحضار السِّياق الذي يقال فيه هذا المثل ، يقول : «من ذلك قولُ العرب فى مَثَلٍ من أمثالهم : «اللَّهُمَّ ضَبُعًا وذِئبًا »إذا كان يدعو بذلك على غنم رجُل . وإذا سألتَهم ما يَعْنُون قالوا : اللهُمَّ اجْمَعْ أو اجعلْ فيها ضَبُعًا وذئبا . وكلُّهم يفسِّرُ ما يَنْوِى . وإنَّما سَهُلَ تفسيرُه عندهم ؛ لأَنَّ المضمَر قد استُعمل فى هذا الموضعِ عندهم بإظهارٍ »[٢] .

▪ سعة الكلام وسياق الحال :

مما يتصل بالحذف في هذا المقام أيضا ما سماه سيبويه بسعة الكلام . والسعة يراد بها في كتاب سيبويه «الاختصار والإيجاز والحذف»[٣] . فهو يقر أَنَّ اللُّغَة تتجه إلى سعة الكلام والاتساع فيه ، يقول : «ومن ذلك أَنْ تقول : كم وُلِد له ؟ فيقول : ستون عاما . فالمعنى : ولد له الأولاد ستين عاما ولَكِنَّه اتسع وأوجز »[٤] . **وهو يعطي سلطة الاختصار والإيجاز والحذف للمتكلم بدليل قوله في النَّصّ السابق** «**اتسع وأوجز**» ؛ **أي : اتسع المُتَكَلِّم وأوجز .**

ويقول في موضع ثان : « ومما جاء على اتساع الكلام واختصار قوله تعالى جده : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ ؛ إنَّمَا يريد : أهل القرية ؛ فاختصر »[٥] .

وقد نتساءل ونقول : ما حدود هذا الحذف والاختصار ؟ وهل يجوز في كل وقت أم لا ؟

قيد سيبويه الحذف والاختصار والإيجاز في الجملة بعلم المخاطب بالمعنى ، فالاعتماد عليه في ذلك ، ولا يجوز الحذف ولا الاختصار إلا بمراعاته . يقول : «ومثله في الاتساع قوله عز

---

(١) د. محمد بكر إسماعيل : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩٩م)، ص ٢٠٥

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٥/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢١١/١ ، وينظر أيضا : معجم مصطلحات النحو ، ص ٢٩٧

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢١١/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢١٢/١ ، ونشير إلى أن مصطلح السعة قد تكرر عنده في واحد وعشرين مَرَّة .

وجل : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ ، فلم يُشبَّهوا بما يَنْعق ، وإِنَّمَا شُبهوا بالمنعوق به ... ولَكِنَّه على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى» [١] .

أي أَنَّ فهم المخاطب للمعنى ، وعدم وجود أي لبس في المعنى الذي يصله هو أساس الإيجاز والاختصار ، بمعنى أَنَّه :

- إذا فهم المخاطب المعنى جاز التوسع في الكلام ، توسع اختصار وإيجاز وحذف .
- إذا اضطرب المعنى والتبس على المخاطب فهمه ؛ لم يجز التوسع في الكلام .

ومن خلال فهم المخاطب للمعنى الذي لا بد أَنْ يوجد في سياق حال ما ـ يمكن أَنْ يُحَدَّد المحذوف والمختصر من الكلام **ذات الدلالة المُعيَّنة الذي حذفه المُتَكَلِّم** . يقول : «بنو فلان يطؤهم الطريق ، يريد يطؤهم أهل الطريق ، وقالوا : صدنا قنوين ، وإِنَّمَا يريد صدنا بقنوين ، أو صدنا وحش قنوين ، وإِنَّمَا قنوان اسم أرض » [٢] . ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها سيبويه على هذا الاتساع : «أكلت أرض كذا كذا ، وأكلت بلدة كذا وكذا ؛ إِنَّمَا أراد أصاب من خيرها » [٣] ، و« اجتمع القيظ ؛ أي : اجتمع الناس في القيظ» [٤] .

وأَكَّد سيبويه على أَنَّ السعة في الكلام أكثر من أَنْ يحصيها [٥] . ولا شك أَنَّ سعة الكلام التي يقوم بها **المتكلم** كما ألمح سيبويه تؤثر بمرور الأيام في المعنى الدِّلَالِيّ المعجمي للألفاظ ؛ أي أَنَّه يصح لنا أَنْ نقول إِنَّ السِّياق لا يساهم فقط في الإثراء الدلالي للتراكيب النحوية بل يساهم أيضا في الإثراء الدِّلَالِيّ المعجمي لِلُّغَة بمرور الوقت [٦] .

ويمكن أَنْ نقول أيضا إِنَّ الحذف يثبت أهمِيَّة سياق الحال في تحليل الكلام ، وذلك أَنَّ الكلمة المفردة التي لا تكون في تركيب لغوي أو في سياق ما لا تملك من المعاني إلا معناها المعجمي ، أَمَّا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢١٢/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢١٣/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢١٤/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢١٥/١

(٥) ويفهم من كلام سيبويه في ٤١٠/١ أن هناك علاقة عنده بين السعة والأصل والتتبع التاريخي للتركيب اللغويّ .

(٦) يشير أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه : التطور اللغوي ، تحت عنوان التطور الدلالي ص ١١١ وما بعدها إلى دور السياق في الإثراء الدلالي للألفاظ ، فيقول : وربما تتغير مدلولات كثيرة ؛ لأن الشيء الذي تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه ، **أو الشئون الاجتماعية المتصلة به** وما إلى ذلك . ويعطي بعض الأمثلة على ذلك ، مثل كلمة ريشة وقطار .

إذا وجدت مفردة في تركيب ما محذوفا بعض عناصره فقد تملك بجوار معناها المعجمي معان أخرى منها المعنى النَّحْوِيّ .

ويبقى أيضا إثبات إشارة سيبويه أَنَّهُ إذا طال الكلام كان الحذف أجمل ؛ كَأَنَّه شيء يصير بدلا من شيء[1] .

***

بقي من المادة التي جمعها الباحث وتتَعَلَّق بالجملة الفعلِيَّة وسياق الحال تلك الإشارات السريعة :

١ـ **<u>الظرف وسياق الحال</u>** : يتمثل تأثير سياق الحال على الظرف في أَنَّ النُّحَاة قرروا أَنَّ من أسماء المكان التي تصلح للنصب على الظرفية «الأسماء المبهمة »، وقرروا أَنَّ «الأماكن المختصة التي لا تقع ألفاظها على كل مكان لا تستعمل ظروفا »[2] . لذلك فقد حكم سيبويه بالشذوذ على قول من قال : «ذهبت الشامَ» بنصب الشام ؛ لأَنَّه اسم مختص لا يقع على كل مكان ، يقول موضحا ومعللا : « وقد قال بعضهم ذهب الشامَ ، يشبّهه بالمبهَم ، إذ كان مكانًا يَقع عليه المكانُ والمذهبُ. وهذا شاذٌ ؛ لأَنَّهُ ليس في ذهبَ دليلٌ على الشام ، وفيه دليلٌ على المذهبِ والمكانِ »[3] .

إن سيبويه يعتبر إعراب الشام هنا ظرفا شذوذا ؛ لأَنَّ كلمة « الشام » لفظ مختص غير مبهم عنده ؛ أي أَنَّ سيبويه يحتكم إلى عرف الناس واتفاقهم على أَنَّ الشام اسم مكان مُحَدَّد ؛ لذلك حكم بشذوذ الإعراب هنا . <u>وهذا يعنى أَنَّ الناس لو تعارفوا على أَنَّ الشام اسم مبهم لأجاز الإعراب هنا بلا شذوذ .</u> وهذا يعني أيضا بالنسبة للباحث أَنَّ هناك تأثيرا لسياق الحال (متمثل في عرف الناس ، وهو أمر خارج اللُّغَة) في إعراب الظرف هنا .

ومن النصوص التي نلاحظ أَنَّ سياق الحال (متمثلا في العرف والعادة أيضا) يتدخل فيها مع الظرف قول سيبويه : « فأما ضحوةٌ وعشيةٌ <u>فلا يكونان إلاَّ نكرةً على كلّ حال</u> ، وهما كقولك : آتيك غدًا وصباحًا ومساءً . وقد تقول : أتيتك ضحوةً وعشيةً ، <u>فيُعلَمَ أَنَّكَ تريد عشيّةَ يومك وضحوته ، كما تقول : عامًا أول ؛ فيُعَلَم أَنَّكَ تريد العام الذي يليه عامك</u>»[4] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٨/٢

(٢) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٧١/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١ /٣٥

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٩٤/٣

لماذا عندما يذكر المُتَكَلِّم «أتيتك ضحوةً وعشيةً» يعلم المخاطب «أَنَّكَ تريد عشيّة يومك وضحوته» ؟ ولماذا عندما يذكر المُتَكَلِّم «عامًا أول» يعلم المخاطب «أَنَّكَ تريد العام الذي يليه عامك»؟ لماذا لا تدل الكلمات «ضحوةً وعشيةً» على العموم وخاصة أَنَّها نكرة ؟

ما نعرفه من منهج سيبويه أَنَّهُ لا يفتات على اللُّغَة ولا يتقول عليها ولا ينسب إليها شيئا رآه هو ، بل هو كما علمنا يتَتَبَّع التركيب المُعَيَّن في السِّياقات المختلفة ويحدد الدِّلَالَة المشتركة لهذا التركيب بين كل السِّياقات ، وهذا ما فعله هنا . لقد تتبع سيبويه هذه الظروف في السِّياقات المختلفة فوجدها تدل هذه الدِّلَالَة ، ووجد أَنَّ بين المُتَكَلِّم والمخاطب «**عُرفًا**» يسيران عليه مع هذه الظروف ؛ فأقرَّ هذا العرف هنا وقعَّده قاعدة نحوِيَّة ، وقد أبطل هذا العرفُ «عمومية التنكير» هنا[(١)] .

إِنَّنَا إذا قلنا إِنَّ التنكير في «أتيتك ضحوةً وعشيةً ...» يفيد العموم وأنَّه يُقصَدُ به أَيَّة ضحوة أو عشية لوقع المخاطب في لبس ؛ فأَيَّة ضحوة أو عشية يقصدها المُتَكَلِّم ؟ ! وهنا يتدخل العرف والعادة ليحدد أَنَّ المقصود ضحوة المخاطب وعشيته .

٢- تحَدَّثنا عن فكرة البناء بين المبتدأ والخبر في الجملة الاسمِيَّة ، وهذه الفكرة موجودة أيضا في الجملة الفعلِيَّة ، حيث يُبنَى الفاعل على الفعل . يقول : «فأما ضربت وقتلت ونحوهما ، فَإِنَّ الأسماء بعدهما بمنزلة المبني على المبتدأ»[(٢)] .

٣- ضمير الفاعل العائد على ما يفهم من سياق الحال : قد يلعب سياق الحال دورا مهما مع الفاعل الضمير الذي ليس له عائد . وقد سبق أَنْ تكلمنا عن هذا الأمر فيما مضى عند حديثنا عن أهمِيَّة سياق الحال في التوجيهات الإعرابِيّة عند سيبويه .

***

(١) جاء في المعجم الوافي لأدوات النحو العربي عن الظرف «ضحوة» ص ١٩٣ ما نصه : «ظرف زمان منصوب ممنوع من الصرف إن دل على وقت (ضحوة) معين معروف ، ومنع من الصرف لأنَّه علم جنس وفيه تاء التأنيث ... فإن **لم يُقصد يوم معين صرف ونوِّن ، كقولك : لقيتُه ضحوةً**» ا.هـ ، ويبدو من ظاهر هذا الكلام أنَّه متناقض مع كلام سيبويه في النص السابق . ويحل هذا التناقض هنا ما نقله صاحب النحو الوافي ٢٦٠/٢ عن الصبان وهو قوله : « لزيادة الإيضاح نسوق ما قاله الصبَّان في هذا الموضع من الجزء الثاني آخر باب الظرف ، قال : **عن غدوة وبكرة ومثلهما : ضحوة** ما نصه : ... فلا يلزم من استعمالهما في يوم معين أن يكونا علمين؛ لجواز أن يشار بهما إلى معين مع بقائهما على كونهما من أسماء الأجناس النكرات بحسب الوضع، كما تقول : رأيت رجلا وأنت تريد شخصًا معينًا ، فيحمل على ما أردته من المعنى ، ولا يكون علمًا. ا. هـ .، ما نقله الصبان »

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٧/٢

المبحث الثالث : سياق الحال والتوابع :

ـ **أولا البدل** : يقوم البدل بعدة وظائف دلالية في الجملة ، هذه الوظائف ذكرها سيبويه في نصوص عدة ومتفرقة . وهذه الوظائف هي :

١. التوكيد :

من الوظائف التي يؤديها البدل . ونص عليها سيبويه ـ توكيد المعنى . وأبان هذا في قوله :

«فأما نفسه حين قلت : رأيته إياه نفسه ، فوصفٌ بمنزلة هو ، وإياه بدل ، وإِنَّمَا ذكرتهما توكيدًا »[(١)] .

وقوله : «قولك : رأيتُ قومَك أكثرَهم ، ورأيتُ بنى زيد ثُلُثَيْهم ، ورأيتُ بنى عمّك ناسًا منهم ، ورأيتُ عبدَ الله شخصهَ ، وصَرَفْتُ وجوهها أولها . فهذا يجيء على وجهينِ : على أَنَّهُ أراد : رأيتُ أكثرَ قومك ، ورأيت ثُلُثَى قومك ، وصرفتُ وجوهَ أوّلِها ، ولَكِنَّه ثَنَّى الاسمَ توكيدًا »[(٢)] .

٢. التبيين والتوضيح والتفسير :

قد يأتي البدل للتوضيح والتبيين والتفسير ، يقول : «ومثلُ ما أتاني إلا زيدٌ إلا أبو عبد الله ، إذا أردت أَنْ تبيّن وتُوضحَ قوله :

ما لك من شيخِك إلاّ عملُه　　إلاّ رسيمُه وإلاّ رَمَلُهْ

[بحر المنسرح] »[(٣)] .

ويقول الأستاذ هارون معلقا على البيت السابق : «والشاهد فيه أَنَّ : رسيمه ورمله بدل تفصيل من عمله وتبيين له»[(٤)] .

ويقول سيبويه نقلا عن الخليل عند قول الشاعر :

مَتى تَأتِنا تُلمِم بِنا في دِيارِنا　　تَجِد حَطَبًا جَزلًا وَنارًا تَأَجَّجا

[بحر الطويل]

«تلمم بدل من الفعل الأول ... ؛ فأراد أَنْ يفسر الإتيان بالإلمام »[(٥)] .

٣. الاستدراك والإضراب :

يقول في أحد النصوص : «قولك : مررتُ برجلٍ حِمارٍ . فهو على وجهٍ محالٌ ، وعلى وجهٍ حَسَنٌ . فأَمَّا المحُالُ فأَن تَعنَى أَنَّ الرجلَ حِمارٌ . وأَما الذى يَحسُن فهو أَنْ تقول : مررتُ برجلٍ ، ثُمَّ

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٧/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٥٠/١ ، وينظر أيضا الموضع : ٥٠٨/٣ ، ١٩٠/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٤١/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٢/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٨٦/٣

تُبْدِلَ الحِمارَ مَكَانَ الرجل فتقولَ : حِمارٍ ، إمَّا أَنْ تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ ، وإمّا أَنْ يَبْدُوَ لك أَن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنتَ أردتَ غيْرَ ذلك » [١] .

أي أَنَّ من الوظائف التي يؤديها البدل أيضا الاستدراك والإضراب . وهذا البدل الذي يفيد الاستدراك والإضراب لا يأتي في قرآن ولا شعر ولا كلام مستقيم ، قال المبرد : «فهذا البدل لا يكون مثله في قرآن ولا شعر ولكن إذا وقع مثله في الكلام غلطا أو نسيانا فهكذا إعرابه » [٢] . وقال السيوطي : «قال المبرد على سعة حفظه : بدل الغلط لا يكون مثله في كلام الله ، ولا في شعر ، ولا في كلام مستقيم . وقال خطاب : لا يوجد في كلام العرب ، لا نثرها ولا نظمها ، وقد عنيت بطلب ذلك في الكلام والشعر فلم أجده » [٣] .

٤. الترحم :

يقول في أحد المواضع : «وزعم الخليل أَنَّهُ يقول : مررت به المسكين ، على البدل ، وفيه معنى الترحم» [٤] .

تلك هي الوظائف الدِّلاليَّة التي يؤديها البدل ، وهي وظائف في أساسها مرتبطة بالسِّياق وبدافع منه ؛ فالمُتَكَلِّم الذي يأتي بالبدل يريد أَنْ يؤكِّد أو يبين أو يفسِّر أو يستدرك أو يترحم . والسؤال : يريد المُتَكَلِّم أَنْ يؤكد لمن ؟ ويبين لمن ؟ ويفسر لمن ؟ ويستدرك لمن ؟ ويترحم على مَن ؟ وما الداعي الذي يجعل المُتَكَلِّم يؤكِّد أو يبيِّن أو يفسِّر أو يستدرك أو يترحم ؟

إن المُتَكَلِّم يريد أَنْ يبين ويؤكد ويفسر ويستدرك للمخاطب ؛ لأَنَّهُ في سياق يستدعي ذلك ، يستدعي التأكيد والتوضيح والتفسير والاستدراك والترحم . وقد سبق أَنْ أوضحنا علاقة السِّياق بالتوكيد خاصة في موضع سابق .

وإذا أتينا لذكر بعض الجوانب التي يؤثِّر فيها سياق الحال على البدل نقول :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٣٩/١ ، وينظر أيضا الموضع ١٥٢/١

(٢) المقتضب ، ١٦٦/١

(٣) همع الهوامع : ١٤٩/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٥/٢ ، وأضاف ابن يعيش في شرح المفصل ٢٥٩/٢ غرضا دلاليا آخر للبدل هو الإعلام والتنبيه ، فقال : « وأما الثاني : وهو بدل الشيء من الشيء ، وهو بعضه ، كقولك : رأيت زيدا وجهه ، ورأيت قومك أكثرهم ، وثلثيهم ، وناسا منهم ، وصرفت وجوهها أولها . فالثاني من هذه الأشياء بعض الأول ، **وأبدلته منه ليعلم ما قصدت له ، وليتنبه السامع** ، فتثبت بقولك : رأيت زيدا وجهه ، موضع الرؤية منه ، فصار كقولك : رأيت وجه زيد. وكذلك قولك : رأيت قومك أكثرهم ، وثلثيهم ، وناسا منهم ، بينت من رأيت منهم. فأكثرهم، وثلثاهم بعضهم، وكذلك ناسا منهم ».

- إنه مما يُؤَثِّر في البدل الحال الذهنية للمتكلم ـ وهو من أبرز عناصر سياق الحال كما أوضحنا قبل . فهو أي البدل يتَأَثَّر بمدى انتباه المُتَكَلِّم ومدى تركيزه الذهني .

يوضح سيبويه ذلك بما أسماه «بدل الغلط والنسيان »، يقول في بعض النصوص : «لو قلت : ما أتاني إلا زيدٌ إلا أبو عبد الله كان جَيِّدا ، إذا كان أبو عبد الله زيدا ولم يكن غيره ؛ لأَنَّ هذا يكرَّر توكيدًا ، كقولك : رأيت زيدا زيدا . وقد يجوز أَنْ يكون غيرَ زيد علي الغلط والنسيان ، كما يجوز أَنْ تقول : رأيتُ زيدًا عمرًا ، لأَنَّهُ إِنَّمَا أراد عمرا فنسى فتدارك» [(١)] .

وفي نصّ آخر أوضح من سابقه يقول : « ولا يجوز أَنْ تقول : رأيتُ زيدا أباه ، والأبُ غيرُ زيد ، لأَنَّكَ لا تبينَّه بغيرِه ولا بشيء ليس منه ... . وإنّما يجوز رأيتُ زيدًا أباه ، ورأيت زيدًا عمرًا ، أَنْ يكون أراد أَنْ يقول : رأيتُ عمرا أو رأيتُ أبا زيد ، فَغَلِطَ أو نَسِيَ ، ثُمَّ استَدرك كلامَه بعدُ ؛ وإمّا أَنْ يكون أَضْرَبَ عن ذلك فنَحَّاه وجعل عمرًا مكانَه » [(٢)] .

ويخصص السيرافي «بدل الغلط» بنمط مُعَيَّن من الكلام له خصوصية سِيَاقِيَّة ، فيقول : «وبدل الغلط لا يجوز أَنْ يقع في شعر ولا قرآن ولا كلام معمول محكم ؛ إِنَّمَا يجئ في الكلام الذي يبتدؤه الإنسان على جهة سبق اللسان إلى الشيء الذي يريده فيلغيه ، حتى كَأَنَّه لم يذكره بلفظ مما يريده» [(٣)] . وهي الحقيقة التي أكدها غيره من النحاة كما ذكرنا قريبا .

أي أَنَّ النصوص «المعمولة المحكمة» مثل : القرآن والحديث والشعر لا يجوز فيها هذا النوع من البدل ، فلا يصح أَنْ يقع في القرآن ؛ لأَنَّهُ كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا الحديث لعصمة قائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا الشعر لوجود الوزن المنبِّه للشاعر على عدم الاستقامة . ونص السيرافي هنا يقود إلى أَنَّنا يمكن أَنْ نقسم كلامنا إلى قسمين : قسم معمول محكم ، وقسم غير معمول ولا محكم . وقطعا فَإِنَّ القسم المعمول المحكم هو الذي ينال رعاية قائله ، ولا مجال فيه للأخطاء ، ويوافق السِّياق الذي يقال فيه .

- ويؤثِّر سياق الحال في البدل بشكل آخر هو أَنَّ البدل يَرِدُ أحيانا ليكون إجابة أو ردًا من المُتَكَلِّم على سؤال متوقع من المخاطب :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٣٤١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١/١٥٢

(٣) شرح كتاب سيبويه : ٢/١١

يقول : «أَمَّا بدل المعرفة من النكرة فقولك : مررتُ برجلٍ عبدِ الله . كَأَنَّه قيل له : بمَن مررت ؟ أو ظنّ أَنَّهُ يقال له ذاك ، فأبدل مكانه ما هو أعرفُ منه» [١] .

إن حساسية المُتكَلِّم للموقف وتوقعه وظنه أن المخاطب قد يسأل عن المبدل منه ، ومدى استيعاب المخاطب لما يقوله المُتكَلِّم جعلت المُتكَلِّم يتَّجه إلى إيضاح ما يريده عن طريق البدل . ونلاحظ هنا في هذا البدل الذي ننتقل فيه من النكرة إلى المعرفة أنَّه لا بد أَنْ يكون معروفا مسبقا لدي المخاطب ومعهودا لديه قبل ؛ وإلا لما كان لهذا الانتقال فائدة ، ونكون قد شبهنا الماء بعد الجهد بالماء .

➢ والزمن ـ وهو عنصر من عناصر سياق الحال ـ قد يؤثِّر في بعض الأحيان على البدل :

هل يمكن أَنْ يرتبط البدل بالزمن ؟ أو بصيغة أدق : هل يرتبط معنى «البدلية» بالزمن ؟ بمعنى : هل يمكن أَنْ تكونَ الكلمة بدلا في جملة لها زمن مُعَيَّن ، فإذا تغير الزمن امتنع أَنْ تكونَ بدلا أو امتنعت البدلية ؟

في أحد نصوص سيبويه يفهم منه ذلك ، أي يُفهم منه أَنَّ «البدلية» تتَأَثَّر بالزمن . يقول في هذا النَّصّ : « قولك : دخلوا الأول فالأول ، وجرى على قولك واحدًا فواحدًا ، ودخلوا رجُلا رَجُلا . وإن شئت رفعتَ فقلت : دخَلوا الأوّلُ فالأوّلُ ، جعله بدلا وحمله على الفعل ، كَأَنَّه قال : دخل الأوّلُ فالأوّلُ ، وإن شئت قلت : دخلوا رجلٌ فرجلٌ ، تجعله بدلا كما قال عزّ وجلّ : ﴿ بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ **فإن قلتَ : ادْخُلوا ، فأمرتَ ؛ فالنَّصبُ الوجهُ ، ولا يكون بدلاً** ؛ لأنَّكَ لو قلت : ادْخُلِ الأوّلُ فالأوّلُ أو رجلٌ رجلٌ ، لم يجز ، ولا يكون صفةً ، لأنَّهُ ليس معنى الأوّلِ فالأوّلِ أَنّك تريد أَنْ تعرفه بشيء تحلِّيه به » [٢] .

ما يفهم من نصّ سيبويه أَنَّ :

- «دَخَلُوا الأولَ فالأولَ » يجوز الرفع على البدل ، ويجوز النصب على الحال .
- وأنْ «اُدْخُلُوا الأول فالأول» ، فالوجه النصب على الحال ، ولا يجوز البدل [٣] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٤/٢ ، ويجوز في هذا التركيب الرفع ، فنقول : مررت برجل عبدُ الله ؛ كَأَنَّه قيل لك : من هو ؟ ١٥/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٩٨/١

(٣) قال المبرد في المقتضب ٢٧٢/٣ : « فإذا قلت : ادخلوا الأوَّلَ فالأوَّلَ ، فلا سبيلَ عند أكثر النحويين إلى الرفع ؛ لأنَّ البدلَ لا يكون من المخاطب ؛ لأنَّك لو قدَّرته بحذف الضمير لم يجز . فأما عيسى بن عمر فكان يُجيزه ، =

والفرق بين الجملتين في الزمن ، الأولى في زمن الماضي والثانية في المستقبل ؛ إذن الزمن (الماضي) هو الذي أتاح البدلية في الجملة الأولى وزمن المستقبل هو الذي منعه من الجملة الثانية

نص سيبويه الذي أمامنا ينطق بذلك بلسان الحال لا بلسان المقال . وهذا بالطبع يُثير سؤالا : لماذا سمح زمن الماضي بالبدلية في الجملة الأولى ومنعه في الجملة الثانية عند سيبويه ؟ يمكن أَنْ نعلل لهذا بقولنا :

- الجملة الأولى ذات الزمن الماضي تمَّ فيه الدخول وانتهى ، ووقعت هيئة الترتيب ، وثبتت في ذهن المُتَكَلِّم ، وعرف من هو الشخص الأوَّل ومن الذي يليه ، أي أَنَّ صفة «الأولويَّة» نِيطت بشخص مُعَيَّن مُحَدَّد قد عُرف . فنحنُ في حال النصب على الحال نخبر عن هيئة قد وقعت وتمَّت ، وفي حال الرفع على البدلية نؤكِّد ونبيِّن ونوضح أَنَّ الجماعة التي دخلت قد دخلت بالفعل دخولا مرتبا .
- أما الجملة الثانية فلا تجوز فيها البدلية ؛ لأَنَّ صفة «الأولويَّة» غير منوطة بأحد ؛ فلا يُعرَف من هو الأوَّل الذي يمكن أَنْ يحلَّ محل واو الجماعة في قوله «ادخلوا» ، فإذا عرف الأول من الآخر جاز الرفع على البدل ، قال : «وقال الخليل : ادخلوا الأوَّل فالأول والوسط والآخِرُ . لا يكون فيه غيرُه وقال : يكونُ على جواز كلُّكم ، حملَه على البدل»[1] .

هذا ما استطعتُ رصده عن علاقة السِّياق بالبدل ، ونخلص من النصوص السابقة أَنَّ البدل يتَأَثَّر بالسِّياق من خلال :

- الحالة الذهنية للمتكلم .
- توقع المُتَكَلِّم لما يريده المخاطب أو السامع .
- الزمن الذي يقال فيه البدل .

وقبل الانتقال إلى التابع التالي يجب الإجابة عن هذا السؤال : ما الفرق بين التوكيد الذي يفيده البدل والتوكيد الذي يفيده التوكيد اللفظي والمعنوي ؟

يختلف توكيد البدل عن توكيد التوكيد اللفظي والمعنوي في أَنَّ توكيد البدل يتَّجه إلى التابع نفسه (البدل) ، أَمَّا توكيد التوكيد اللفظي والمعنوي فيتَّجه إلى المتبوع (المؤكد) .

ونختم أيضا بهذه الملحوظة القيِّمة لبعض العلماء يقول فيها : «إِنَّ الفائدة من ذكر المبدل منه في الكلام هو التمهيد والتهيئة **لذكر الثانية(البدل)** ، فكَأَنَّك ذكرت الجملة مرتين ، مَرَّة مجملة ومَرَّة

ويقول : معناه : ليدخل الأول فالأول ، **ولا أراه إلا جائزا على المعنى** ؛ لأَنَّ قولك : ادخل ، إنما هو : لتدخُلْ فى المعنى وقرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا» .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠٠/١

أخرى واضحة محددة ، فيكون المقصود النهائي من الجملة أرسخ في الذهن وهذا هو السرُّ في قولهم : البدل في حكم تكرير العامل » [١] .

وبناء على هذا الكلام فَإِنَّ البدل يأتي لتأكيد شيء معروف ومعهود عند المُتَكَلِّم والمخاطب . وهنا سؤال : هل يجوز استخدام البدل لشيء غير معروف عند المُتَكَلِّم أو المخاطب ؟

والإجابة أَنَّهُ لا يجوز هذا ؛ لأَنَّ هذا يتنافى مع طبيعة البدل ؛ فإذا قلت : « بى المسكينَ كان الأمر ، أو بك المسكينَ مررت ، فلا يحسن فيه البدل ؛ لأَنَّكَ إذا عنيت المخاطَب أو نفسَك فلا يجوز أَنْ يكون لا يدرى من تعنى ، لأَنَّكَ لست تحدث عن غائب » [٢] .

- **ثانيا التوكيد** :

باب التوكيد من الأبواب المرتبطة بسياق الحال أشدَّ الارتباط ، فهو سبب وجود هذا الباب في الكلام أصلا . فالمُتَكَلِّم - محكوما بالسِّياق ومدفوعا به - يلجأ إلى التوكيد لتأكيد « المعنى » الذي يرغب بشِدَّة في إيصاله إلى « المخاطب » ، فالتوكيد وجودًا وعدمًا سببه المُتَكَلِّم والمخاطب والسِّياق المحيط بهما . وهذا ما يقوله المنطق والعقل ، وما تقوله دراسات علمائنا السابقين القدامى عن التوكيد التي سبق وأشرنا إليها [٣] . ويشير سيبويه إلى وظيفة ألفاظ التوكيد قائلا عنها أَنَّها : « توصَف بها الأسماء ولا تُبنى على شيء . وذاك أَنَّ موضعها من الكلام أَنْ يُعمّ ببعضها ، ويؤكد ببعضها بعد ما يُذكر الاسم » [٤] .

وجملة سيبويه عن ألفاظ التوكيد « لا تبنى على شيء » تعني أَنَّها لا تأتي في المراحل الأولى للكلام ولا يُبدَأُ بها الجملة ، فهي تأتي بعد « البناء » : بناء الخبر على المبتدأ ، أو بناء الفاعل على الفعل . وهذا يعنى أيضا أَنَّ ما يأتي إليه التوكيد ليزيله أو يؤكد عليه لا يكون مع بداية الكلام بالتبعية فالشك والتوَهُّم والتثبت لا يظهر إلا في مراحل متأخرة من الكلام . وعلى هذا نقول أيضا : إِنَّ ممَّا يتصدر الكلام في الغالب الجملة الاسمِيَّة وبعدها الفعلِيَّة .

وممَّا أثبته سيبويه أيضا أَنَّ وظيفة ألفاظ التوكيد أنها « يُعَمُّ ببعضها » ؛ أي أَنَّ بعضها يفيد العموم ، ووظيفة بعضها « التوكيد » بعد الاسم ؛ أي أَنَّ بعضها : يأتي لإزالة الشك من نفس المخاطب

---

(١) د. محمد عيد : النحو المصفى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص ٦٢٦

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٧٦/٢ ، ومن إشارات سيبويه عن البدل إشارته إلى إمكانِيَّة إبدال النكرة من المعرفة ، وذلك بشرط أن تستقل هذه النكرة بفائدة ، مثل قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ . ٩/٢

(٣) ينظر ما ذكر عند الحديث عن المفعول المطلق ، في : سياق الحال والجملة الفعلِيَّة.

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١١٦/٢

أو تقرير المؤكد في نفس السامع أو المخاطب ، أو دفع المُتَكَلِّم توهم غفلة في كلامه . ولا شك أَنَّهُ يقصد هنا ألفاظ التوكيد المعنوي .

ولسيبويه نصوص يشير فيها إلى تأثير سياق الحال في التوكيد اللفظي ، ويوضح كيف يؤثِّر سياق الحال على هذا التوكيد . ففي سياق قد يُقبل تكرار اللفظ على أَنَّهُ توكيد لفظي ، وفي سياق آخر يكون هذا التكرار جملة .

يقول في نصّ له : «وتقول : أنت أنت ، تكررها ، كما تقول للرجل : أنتَ وتسكت ، على حد قولك : قال الناس زيد . وعلى هذا الحد تقول : قد جُرّبْتَ فكنتَ كنت ، إذا كررتها توكيدًا » [١] .

أي أَنَّ قول القائل : «كنت كنت» قد يكون كررها توكيدًا بحسب السِّياق .

ويقول في نصّ ثانٍ : «وتقول : قد جرّبتُك فوجدتُك أنت أنت ، فأنتَ الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها ، كَأَنَّك قلت فوجدتُك وجهُك طليق . والمعنى أَنَّكَ أردت أَنْ تقول : فوجدتك أنت الذي أعرف . ومثل ذلك : أنت أنت ، وإن فعلتَ هذا فأنت أنت ، أي فأنت الذي أعرف ، أو أنت الجواد والجَلْد ، كما تقول : الناس الناس ، أي الناس بكل مكان وعلى كل حال كما تعرف » [٢] .

فعندما نقول : « أنت أنت » فهذان الضميران قد يكونان جملة اسمية كما أشار النَّصّ السابق ، وقد يكونان في سياق آخر مجرد توكيد لفظي .

وفي بعض الأحيان لا يصح أَنْ يقع ضمير الغائب بعد الفعل إلا إذا كان هذا في إطار سياق التأكيد الذي يأتي به المُتَكَلِّم . يقول : « ... [و] لو قلت فعل هو **لم يجز إلا أَنْ يكون صفة** . ولا يجوز أَنْ يكون هُما في موضع الألف التي في ضربا ، والألف التي في يضربان ، لو قلت ضرب هُما أو يضربُ هُما لم يجز . ولا يقع هُم في موضع الواو التي في ضربوا ، ولا الواو التي مع النون في يضربون . لو قلت ضرب هُم أو يضربُ هُم لم يجز . وكذلك هي ، لا تقع موضع الإضمار الذي في فعلتْ ، لأَنَّ ذلك الإضمار بمنزلة الإضمار الذي له علامة . ولا يقع هُنّ في موضع النون التي في فعلْنَ ويفعلنَ ، لو قلت فعل هُنّ لم يجز **إلا أَنْ يكون صفة**» [٣] .

وكلمة « صفة » التي وردت في النَّصّ السابق فسَّرها الأستاذ هارون قائلا : « هو ما يسمى بالتوكيد» [٤] . إذن فضمير الغائب لا يصلح هنا إلا إذا كان الكلام على سبيل التوكيد ؛ وهذا يعني

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٦٠/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٥٩/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٥١/٢ ، وينظر موضع آخر يشبه هذا الموضع في مضمونه : ٣٧٩/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٥١/٢ ، الحاشية ذات الرَّقْم٢، وفي هذا إشارة إلى أهمِيَّة الوقوف على مصطلحات العلماء والإلمام بها ، وإلا وقعنا في خلط كبير ، وسوء فهم خطير .

أَنَّ التركيب النَّحْوِيّ : «فعل + فاعل ضمير مستتر هو + ضمير ظاهر هو» لا يصح نحويا إلا على سبيل التوكيد المرتبط بالسياق .

وكما تتجه إرادة المُتَكَلِّم عند قصدها إزالة الشك من نفس المخاطب ، أو تقرير المؤكَّد في نفس السامع أو المخاطب ، أو دفع توهم غفلة ـ إلى ألفاظ التوكيد المعنوي ، أو التوكيد اللفظي ، فَإِنَّ هذه الإرادة قد تتجه إلى استخدام بعض المصادر الفردية لنفس هذا القصد .

ففي باب «ما ينتصب من المصادر توكيدًا لما قبله» [(١)] ذكر سيبويه مجموعة من المصادر تأتي في الكلام على سبيل التوكيد ، وهي :

- «حقًا» ، في مثل : هذا عبد الله حقا .
- «الحق لا الباطل» ، في مثل : هذا زيد الحق لا الباطل .
- «غير ما تقول» ، في مثل : وهذا زيد غير ما تقول .
- «أجدك لا تفعل كذا وكذا ؟» ، كَأَنَّه قال : «أحقا لا تفعل كذا وكذا ؟»
- «ألبتة» ، في قولك : قد قعد ألبتة .

فهذه الألفاظ تتبَّعها سيبويه في السِّياقات المختلفة كما نعلم ذلك من منهجه ، ووجد أنَّها ترتبط بالتوكيد في الاستعمال اللغويّ ، فلا تذكر إلا للتوكيد ، أي لا تذكر إلا لإزالة شك من نفس المخاطب أو تقرير المؤكَّد في نفس السامع أو المخاطب ، أو دفع توهم غفلة .

وقال النحاةُ من بعد سيبويه عن هذه الألفاظ مبيِّنين وموضحين بصورة أشد علاقتها بالسياق :

- قال ابن يعيش : «اعلم أنَّ «حقًّا» و«الحَقَّ» ونحوهما مصادرُ ، والناصبُ لها فعلٌ مقدَّرٌ قبلها دلّ عليه معنى الجملة ، فتؤكِّد الجملةَ ، وذلك الفعل أحقُّ ، وما جرى مجراه ، وذلك أنَّك إذا قلت : «هذا عبد الله» **<u>جاز أن يكون إخبارُك عن يقين منك وتحقيق ، وجاز أن يكون على شكٍّ ، فأكدتَه</u>** بقولك : «حقًّا» ، كأنَّك قلت : «أَحُقُّ ذلك حقًّا»» [(٢)] .
- قال الشيخ خالد الأزهري : «المسألة «الرابعة : أن يكون المصدر مؤكدًا لنفسه» ، «أو» مؤكدا «لغيره ، فالأول» ، وهو المؤكِّد لنفسه ، هو «الواقع بعد جملة هي نص في معناه ...» «والثاني» ، وهو المؤكد لغيره ؛ هو «الواقع بعد جملة تحتمل معناه وغيره». ويقع منكرًا ومعرفًا ، فالأول نحو : «زيد ابني حقًّا» ، فجملة «زيدٌ ابني» **<u>تحتمل الحقيقة والمجاز ، ولكنَّها صارت نصًّا بالمصدر</u>** ؛ **<u>لأنَّ قولك : «حقًّا» يرفع المجاز ويثبت الحقيقة</u>** ، وسمّي مؤكِّدًا لغيره ؛ لأنَّه يجعل ما قبله نصًّا بعد أن كان محتملًا ، فهو مؤثِّر ، والمؤكد به متأثّر ، والمؤثر غير المتأثر . «و» الثاني

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٧٨/١ ، وما بعدها

(٢) شرح المفصل : ٢٨٥/١

قسمان : ما هو جائز التعريف ، وما هو واجبه ، فالأول نحو : « هذا زيد الحق لا الباطل » **فجملة « هذا زيدٌ » تحتمل الصدق والكذب ، فإذا قلت : « الحق »، فقد حققت أحد الاحتمالين ، فرفعت الاحتمال الآخر ، وكأنَّك قلت : أحقٌّ ذلك الحق أو حقًّا ، فإن كان المخاطب يعتقد خلاف ما ذكرت** ، وأردت قصر القلب قلت : « لا الباطل » بالنصب عطفًا على « الحق » . « و » الثاني : « لا أفعل كذا البتة » ، فجملة « لا أفعل كذا » **تحتمل استمرار النفي وانقطاعه ، فإذا قلت : « البتة » حققت استمرار النفي ، ورفعت انقطاعه »**[1] .

- ويقول السيرافي إذا قال القائل : « هذا عبد الله حقا ؛ [فَإِنَّ] قوله : « هذا عبد الله » من قبل أَنْ تذكر حقا يجوز أَنْ يظن أَنَّ ما قاله حق ، وأَنْ يظن أَنَّ ما قاله باطل ، فتأتي بـ « حقا » ؛ لتجعل الجملة مقصورة على أحد الوجهين المحتملين عند السامعين »[2] . وفي هذا الكلام دليل على أَنَّ إرادة المُتَكَلِّم هي المتحكمة في التوكيد واستعماله .

ـ **ثالثا النعت** :

يعرف النُّحَاة النعت بأنَّه : « التابع الذي يُكَمِّلُ متبوعه ، بدلالته على معنى فيه ، أو فيما يتعلق به »[3] .

ويعلق الشيخ العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد ـ رحمه الله ـ على جزء من التعريف السابق وهو « يُكَمِّلُ متبوعه » قائلا :

> « اعلم أَنَّ النُّحَاة يفسِّرون قولهم في تعريف النعت « المتمِّم لمتبوعه » بأحد تفسيرين : الأول : أَنَّ معناه « **المفيد لما يطلبه المتبوع بحسب المقام** » ، وممن اختار هذا التفسير الأشموني ، وهو تفسير شامل لكل المعاني التي يرد لها النعت من : **التوضيح والتخصيص والمدح والذم والترحم والإبهام والتوكيد والتفصيل** ، فلا يرد عليه الاعتراض بأنَّه غير جامع ... ، والتفسير الثاني حاصله أَنَّ معنى « المتمِّم لمتبوعه » الموضح له في المعارف والمخصص له في النكرات ، وهو تفسير قاصر »[4] .

---

(١) التصريح بمضمون التوضيح ، ١/٥٠٥ ، ٥٠٦

(٢) شرح كتاب سيبويه ، ٢/٢٦٧

(٣) ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفِيَّة ابن مالك ، المكتبة العصرية ، بيروت، (بدون تاريخ للطبعة)، ٣/٣٠٠

(٤) الشيخ محيي الدين عبد الحميد : عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك (بهامش أوضح المسالك إلى ألفِيَّة ابن مالك) ، المكتبة العصرية ، (بدون تاريخ للطبعة)٣/٣٠١

في هذا الكلام ينقل الشيخ محيي الدين ـ طيب الله ثراه ـ تفسيرين للنحاة ، يفسرون به الجملة «يُكَمِّلُ متبوعه» التي وردت في التعريف أحد التفسيرين أَنَّ الجملة تعني «**<u>المفيد لما يطلبه المتبوع بحسب المقام</u>**» ، وهذا التفسير شامل لكل المعاني التي يرد لها النعت من : **<u>التوضيح والتخصيص والمدح والذم والترحم والإبهام والتوكيد والتفصيل</u>** . وأَنَّ الأشموني اختار هذا التفسير ، وهو التفسير الأصح لعدم ورود ما يعترض به عليه كما قال الشيخ محيي الدين ، خلافا للتفسير الثاني .

وهذا التفسير يربط في وضوح بين النعت وسياق الحال الذي يوجد فيها المُتَكَلِّم ، فهو لا يلجأ إلى النعت إلا إذا أحسَّ من سياق الحال أَنَّهُ يريد أَنْ يؤكد أو يوضح أو يمدح أو يذم أو يترحم أو ... فإذا طلب المقامُ إيضاحا للمتبوع أُتي بالنعت للإيضاح ، وإذا طلب المقام مدحا أو ذما للمتبوع أُتي بالنعت للمدح أو الذم ؛ أي أَنَّ المقام أو سياق الحال <u>هو الذي يتحكَّم في النعت ووظيفته الدِّلاليَّة في نهاية المطاف</u> .

ويوضح سيبويه أَنَّ النعت يأتي في مرحلة تالية من الكلام ، وأنه لا يبدأ به . يقول : «إِنَّمَا تبتدئ بالاسم ثُمَّ تصفه» [(١)] . وهذا يعني أَنَّ المُتَكَلِّم لديه فرصة في تحديده وإيقاعه ملائما للموقف الذي يقال فيه .

ويوضح سيبويه في نصوص عدة وظيفة النعت والمعاني التي ترتبط بالسِّياق ، منها :

أ- <u>التخصيص</u> :

من وظائف النعت التي أشار إليها سيبويه التخصيص ، يتضح هذا من خلال قوله : «فأَمَّا النَّعت الذى جرى على المنعوت فقولك : مررتُ برجُلٍ ظَرِيفٍ قَبْلُ ، فصار النعتُ مَجرورًا مثلَ المنعوت لأنّهما كالاسم الواحدِ . وإِنَّمَا صارا كالاسم الواحد من قِبَلِ أنَّك لم تُرِدِ الواحدَ من الرجال الَّذين كل واحدٍ منهم رجُلٌ ، <u>ولكنَّك أردت الواحدَ من الرجال الَّذين كلُّ واحد منهم رجُلٌ ظريفٌ</u> ، فهو نكرةٌ ، وإنَّما كان نكرةً لأنَّهُ من أُمّةٍ كلُّها له مثلُ اسمه . وذلك أَنَّ الرجالَ كلُّ واحدٍ منهم رجلٌ ، والرَّجالُ الظرفاءُ كلُّ واحد منهم رجلٌ ظريفٌ ، فاسمُه يَخلِطه بأُمّته حتَّى لا يُعْرَفَ منها . فإنْ أَطلتَ النعتَ فقلتَ : مررتُ برجل عاقِلٍ كَريمٍ مُسْلِمٍ ، فأَجْرِه على أوّله» [(٢)] .

أي أَنَّ المُتَكَلِّم حينما أراد أَنْ يخصص ويحدد من يتحدَّث عنه استخدم النعت في هذا التحديد والتخصيص [(٣)] ، قال ابن يعيش : «وإنما قلنا : إنَّهما كالشيء الواحد من قبل أنَّ النعت يخرج

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٨/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٢/١

(٣) قال التهانوي في التفريق بين التخصيص والتوضيح ما نصه «<u>التخصيص هو في اللُّغَة تمييز بعض الجملة بحكم</u>... وفي عرف النُّحَاة : تقليل الاشتراك الحاصل في النكرات ، وتقليل الاشتراك الحاصل في المعارف عندهم لا

المنعوت من نوع إلى نوع أخص منه ، فالنعت والمنعوت بمنزلة نوع أخص من نوع المنعوت وحده ، ... وإذا قلت : مررت برجل ظريف ، فهو من الرجال الظرفاء الذين كل واحد منهم رجل ظريف ، فالرجال الظرفاء جملة لرجل ظريف ، كما أنَّ الرجال جملة لرجل ، فرجل ظريف جزء للرجال الظرفاء وهو أخص من رجل ، ألا ترى أن كل رجل ظريف رجل ، وليس كل رجل رجلا ظريفا » [١] .

ب- التوضيح :

يقول موضحًا هذه الوظيفة : «ومن النعت أيضًا : مررتُ برجلٍ لا قائمٍ ولا قاعدٍ ، جُرّ لأنَّهُ نعتٌ كأَنَّك قلت : مررتُ برجلٍ قائمٍ ، **وكأَنّك تحدِّثُ مَن فى قلبه أَنَّ ذاك الرجلَ قائمٌ أو قاعدٌ ، فقلتَ : لا** قائم ولا قاعد ، لتُخْرِجَ ذلك من قلبه» [٢] .

إن المُتَكَلِّم يتَأَثَّر بحالة المخاطب وما يدور في نفسه ، فعندما شعر أَنَّ المخاطب يعتقد أَنَّ المُتحدَّث عنه قائم أو قاعد ، وهو ليس بذلك ؛ أتى بالنعت لكي يُزيل ما في قلب المخاطب ؛ أي أَنَّ النعت في هذا النَّصّ أتى لسبب سياقي وهو التوضيح والتبيين وإزالة ما في قلب المخاطب .

ويقول في موضع ثان : «إنَّمَا تكون المعرفة مبنيا عليها أو مبنية على اسم أو غير اسم ، وتكون صفة لمعروف لتبينه وتؤكده أَنْ تقطعه من غيره » [٣] .

ت- رفع الالتباس إنْ خيف منه :

من المعاني التي يؤديها النعت أيضا رفع الالتباس [٤] ، والحذر من اللَّبس والغموض في الكلام من الأمور التي نبَّه عليها سيبويه مرارا وتكرارا .

يقول في عدة نصوص :

١- «وقد تقول : كان زيدٌ الطويلُ منطلقًا ، إذا خفت التباسَ الزيدَيْنِ » [٥] .

= يسمّى توضيحا، بل التوضيح : عندهم رفع الاحتمال الحاصل في المعرفة وهذا هو المراد بالتخصيص والتوضيح في قولهم: الوصف قد يكون للتخصيص وقد يكون للتوضيح ». كشاف اصطلاحات الفنون ، ٣٩٤/١

(١) شرح المفصل ، ٢٤٤/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٩/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١١٤/٢

(٤) جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة تحديدٌ لمعنى «الالتباس مصدر التبس بـ ، التبس على ، عدم التمييز بين شيئين مختلفين واعتبارهما شيئا واحدًا ، عدم الوضوح وإدراك المضمون ، اختلاط الأفكار بدون رابط منطقي بينها . الالتباس الدلالي : احتمال الكلام لأكثر من معنى ، وقد يكون ذلك نتيجة للتعقيد المعنوي . الالتباس النحوي : عبارة تتحمل أكثر من معنى بسبب تركيبها النحوي». ص ١٩٩٠

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٤٨/١

٢- « وإِنَّمَا يُحتاج الى الصفة إذا خاف الالتباس من الأسماء الغالبة »[١] .

٣- « وليس ذا بمنزلة قولك يا زيدُ الطويل ، من قبل أَنَّكَ قلت يا زيدُ وأنت تريد أَنْ تقف عليه ، ثُمَّ خِفْتَ أنْ لا يُعرف فنعته بالطويل »[٢] .

ث- المدح والمبالغة فيه ورفعة شأن المنعوت :

إذا أراد المُتَكَلِّم المبالغة في مدح شخص أو شيء وجد النعت طوع أمره في هذا ، يقول : « ومن الصفة : أنت الرجل كلُّ الرجل ، ومررت بالرجل كلِّ الرجل . فإنْ قلت : هذا عبد الله كلُّ الرجل ، أو هذا أخوك كلُّ الرجل ، فليس في الحُسن كالألف واللام ؛ لأَنَّكَ إِنَّمَا أردت بهذا الكلام هذا الرجل المبالغ في الكمال ، ولم ترد أَنْ تجعل كل الرجل شيئا تعرف به ما قبله وتبيِّنُه للمخاطب ، كقولك : هذا زيدٌ . فإذا خفت أَنْ يكون لم يُعرَف قلت : الطويل ، ولكنك بنيت هذا الكلام على شيء قد أثبت معرفته ، ثُمَّ أخبرت أَنَّهُ مستكمِلٌ للخِصال »[٣] .

وواضح من كلامه أَنَّ إثبات المبالغة من خلال النعت تأتي بعد أَنْ يكون المنعوت واضحا معروفا للمخاطب من خلال كلام سابق ومقام فائت ؛ أي أَنَّهُ لا مبالغة بالنعت إلا من خلال معرفة مسبقة ، يعرف فيها المُتَكَلِّم أَنَّ المنعوت مستكمل للخصال ، ولا بد أَنْ يكون هذا مخالطةً وإثباتًا بالمعاينة .

ويقول في نصّ آخر : «وتقول : مررتُ برجلٍ **الأسدِ شدة** ، كَأَنَّك قلت : مررتُ برجلٍ كامل ، لأَنَّكَ أردت أَنْ ترفع شأنَه »[٤] . ويقول : «مررت برجلٍ **أسد أبوه** ، إذا كنت تريد أَنْ تجعله شديدا »[٥] .

ونلاحظ في هذين المثالين أَنَّ سيبويه ينعت بما يمكن أَنْ نسميه بـ «اسم الجنس» ، وهذا النوع من الأسماء يجوز أَنْ ينعت به « إذا خرجا على دلالتهما الأصلية ، وأريد بهما معنى اشتهرا به ؛ كدلالة حاتم على : الكرم ، والرجل على : الكامل ، والنمر على : الغادر ... . **فعلى هذا القصد مع ما يؤَيِّده من قرينة يصح تأويلهما بالمشتق . ووقوعهما نعتين** »[٦] . فإذا دَلَّ اسم الجنس على معنى اشتهر به مع وجود القرينة التي يجب أَنْ يكون منها سياق الحال جاز النعت به .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٤١٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٨٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٧

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٩

(٦) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣/٤٦٦

ج- <u>التوكيد</u> :

ومن الوظائف الدِّلاليَّة التي يُقَدِّمها النعت أيضا التوكيد ، يقول : «ومثل ذلك الجماء الغفير ، فالغفير وصفٌ لازم ، **وهو توكيد** لأَنَّ الجماء الغفير مَثَل» [(١)] .

تلك هي الوظائف التي يؤديها النعت عند سيبويه من خلال النصوص التي استطعنا أَنْ نستخلص منها هذه الوظائف .

- **حذف النعت** :

مما أقره النحاة أنَّ الصفة قد تحذف «وتدلُّ عليها حال المتكلم ، وللنغْمَة الصوتيَّة أثر في إيضاحها» [(٢)] .

وفي أحد أبواب الكتاب «باب ما يكونُ في المصدر حِينًا لسعة الكلام والاختصار» يُورِد سيبويه النص التالي : «وكذلك : سير عليه ليلاً ونهارا ، إذا أردت ليلَ ليلتِك ونهارَ نهارِك ، لأنَّه إنَّما يُجْرَى على قولك : سير عليه بَصَرًا ، وسير عليه ظَلاما ، إلاّ أن تريدَ معنى سير عليه ليلٌ طويلٌ ونهارٌ طويلٌ ، فهو على ذلك الحدّ غيرُ متمكِّن ، وفى هذا الحال متمكِّنٌ» [(٣)] .

ما يُفهَم من النص أنَّ سيبويه يوضح معنى الجملة «سِير عليه ليلا ونهارا» .ويقدم التوجيهات الإعرابية المختلفة لكلمة «ليل» . ويُفهم من النص أن كلمة «ليل» في الجملة «سِير عليه ليلا ونهارا» يجوز فيها النصب كما يجوز فيها الرفع . وفي حالة الرفع تكون كلمة الليل «<u>منعوتا</u>» والنعت «<u>محذوف</u>» تقديره مثلا «طويل» .وكأنَّ الجملة : «سِير عليه ليلٌ طويلٌ» . والذي يُبَرِّر حذف النعت هنا «<u>إرادة المتكلم المدفوعة بسياق الحال</u>» .

هذا الفهم لنص سيبويه السابق وهذا التبرير لحذف النعت فيه أخذناه من شيخ العربية ابن جني ، إذ يذكر في أحد مواضع الخصائص نصًّا رائعا يورد فيه نص سيبويه السابق فيقول :

> «وقد حُذِفَت الصفة ودلَّت الحال عليها . <u>وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم :</u> «<u>سِير عليه ليل</u>» ، <u>وهم يريدون : ليل طويل</u> . وكأنَّ هذا إنَّما حذفت فيه الصفة لما دلَّ من الحال على موضعها . <u>وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل</u> أو نحو ذلك . وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمَّلته . وذلك أنْ تكون في مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلًا ؛ فتزيد في

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٠٧/٢

(٢) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢٠٢/٣

(٣) الكتاب ، ٢٢٦/١

قوّة اللفظ بـ «الله» هذه الكلمة ، وتتمكَّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها ؛ أي رجلًا فاضلًا أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك . وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانًا ، وتمكّن الصوت بإنسان وتفخَّمه ؛ فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : إنسانًا سمحًا أو جوادًا أو نحو ذلك . وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانًا ! وتَزْوي وجهك وتقطِّبه ؛ فيغني ذلك عن قولك : إنسانًا لئيمًا أو لَحِزًا أو مبخَّلًا أو نحو ذلك» [1] .

في هذا النص المبين استطاع باقتدار ابن جني أن يوضِّح كيف يعين سياق الحال على تفهُّم حذف النعت ، وما يستعاض به عنه من « التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم والتمطيط وإطالة الصوت».

والحقُّ إنَّه لولا تنبيه ابن جني لتأثير السياق على حذف النعت في هذا الموضع ما تنبَّه الباحث له ، وهذا يؤكد ما أثبتناه قبل من وجود مواضع وقواعد استخدم فيها سيبويه السياق ضمنا تحتاج إلى فضل تأمُّل للوقوف عليها .

- **النعت الجامد** :

الأصل في النعت أن يكون مشتقًا ، «وقد ينعت بالجامد كثيرا كالمنسوب ، نحو : «مررت برجل بصري» ، والموصول ، نحو : «مررت بالشخص الذي فاز » ، والمقادير والأعداد ، نحو : «أقبل رجالٌ مائةٌ» . و«أقبل رجالٌ سبعةٌ» ... » [2] .

ومن إشارات سيبويه لهذا النعت الجامد قوله : «ومن النعت أيضًا : مررتُ برجلٍ أَيِّما رجلٍ ، فأَيُّما نعتٌ للرجل فى كماله وبَذِّه غيرَه ، كأَنَّه قال : مررتُ برجلٍ كاملٍ» [3] .

و«أَيّ » من الألفاظ «الجامدة» التي يُؤْتَى بها أحيانا للنعت ، وهي «التي تسمَّى أيًّا الكماليَّة ، ويراد بها التعجب والمبالغة في المدح ، وتنعت بها النكرة » [4] .

وعبارة سيبويه في نصه السابق «أَيُّما نعتٌ للرجل فى كماله وبَذِّه غيرَه ، كأَنَّه قال : مررتُ برجلٍ كاملٍ» تؤكد ما ذكرناه من منهجه من تتبُّعه للتركيب المعين في السياقات المختلفة ، فقد تتبع التركيب

---

(١) الخصائص : ٢/٢٧٠ ـ ٢٧١

(٢) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣/١٨٤

(٣) الكتاب ، ١/٤٢٢

(٤) السابق ، ٤/١٨٤

«...منعوت نكرة + أيّ + المنعوت الأول مكررا» ،وربطه بدلالة سياقية معينة ، وهي هنا الدلالة على « الكمال والتعجب والمبالغة في المدح» .

وقد تتبع بعض النُّحَاة من بعد سيبويه «أَيَّ» تاريخيًّا ودلاليًّا ، وذكروا أَنَّها نقلت عن الاستفهام ، وأكدوا الجانب الدلالي السياقي الذي ذهب إليه سيبويه ، يقول الرَّضِيّ : «والذي يقوى عندي أن «أيَّ رجل» لا يدل بالوضع على معنى في متبوعه ، بل هو منقولٌ عن «أَيٍّ» الاستفهامية ، وذلك أنَّ الاستفهامية موضوعة للسؤال عن التعيين ، وذلك لا يكون إلا عند جهالة المسؤول عنه ، فاستعيرت لوصف الشيء بالكمال في معنى من المعاني ، والتعجب من حاله ، والجامع بينهما أنَّ الكامل البالغ غاية الكمال بحيث يتعجب منه يكون مجهول الحال ، بحيث يُحتاج إلى السؤال عنه »[(١)] .

بقي من أمور النعت المرتبطة بسياق الحال التي أشار إليها سيبويه ما يلي :

- يشير سيبويه إلى أَنَّ النعت إذا جاء للمدح لابد أَنْ يكون المنعوت الممدوح معروفا مسبقا عند المُتَكَلِّم ، فلا يجوز المدح بالنعت لمن لا يعلمه المُتَكَلِّم ، يقول : «[إنك] لا تُثني إلا على من أثبته وعلمتَه ، ولا يجوز أَنْ تَخلِط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلهما بمنزلة واحدة ، وإِنَّمَا الصفة علَمٌ فيمن قد علمتَه »[(٢)] . أي أَنَّ إجازة المدح بالنعت مرتبطة بمعرفة المُتَكَلِّم السابقة بهذا المنعوت الممدوح ، وما يعرفه عنه من الخصال الكريمة ما جعله يمدحه ويقبل مدحه ، وهذا ما أثبتناه قريبا .
- الأمر الثاني : أَنَّ النعت الذي لا يفيد معنى أو فائدة لا يجوز أَنْ يكون نعتا . وذلك مثلا بأن ينعت العام بالخاص ، يقول :

» «ومن قال : إِنَّ هذا أخاك منطلقٌ قال : إِنَّ الذي رأيتُ أخاك ذاهبٌ . ولا يكون الأخ صفة للذي ؛ لأَنَّ أخاك أخصُّ من الذي ، ولا يكون له صفة من قبل أَنَّ زيدا لا يكون صفة لشيء »[(٣)] .

» « وإِنَّمَا منع أخاك أَنْ يكون صفة للطويل أَنَّ الأخ إذا أضيف كان أخصَّ ، لأَنَّهُ مضاف إلى الخاص وإلى إضماره ، فَإِنَّما ينبغي لك أَنْ تبدأ به وإن لم تكتفِ بذلك زدتَ من المعرفة ما تزداد به معرفة . وإِنَّمَا منع هذا أَنْ يكون صفة للطويل والرجل أَنَّ المخبِر أراد أَنْ يقرب به شيئا ويشير إليه لتعرفه بقلبك وبعينك ، دون سائر الأشياء . وإذا قال الطويل

---

(١) شرح الرَّضِيّ لكافية ابن الحاجب ، القسم الأول ، ص ٩٧٥، وينظر أيضا الخصائص ، ٣/ ٢٧٠

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦٠/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٤٩/٢

فَإِنَّما يريد أَنْ يعرفك شيئا بقلبك ولا يريد أَنْ يعرفكه بعينك ، فلذلك صار هذا يُنعت بالطويل ولا يُنعت الطويل بهذا ؛ لأَنَّهُ صار أخصَّ من الطويل حين أراد أَنْ يعرفه شيئا بمعرفة العين ومعرفة القلب . وإذا قال الطويل فَإِنَّما عرَّفه شيئا بقلبه دون عينه ، فصار ما اجتمع فيه شيئان أخص » [1] .

ومن النَّصّ الأخير يستفاد أَنَّ المخاطب يلعب دورا غير مباشر في اختيار النعت ، فهو المقصود به فإذا لم يستفد المخاطب فائدة من النعت فلا يجوز استخدامه ، وليست هناك حاجة إليه .

- **رابعا العطف** :

وقف الباحث على نصوص قليلة في الكتاب تبرز علاقة السِّياق بحروف العطف ، منها :

١ـ نص يفيد أَنَّ اختيار حرف العطف المناسب في الكلام يتوقَّف على السِّياق وإرادة المُتَكَلِّم ، يقول : «ومما يدلك أيضًا على أَنَّ الفاء ليست كالواو قولك : مررت بزيد وعمرو ، ومررت بزيد فعمرو ، تريد أَنْ تُعلِم بالفاء أَنَّ الآخرَ مُرَّ به بعد الأول » [2] .

إنَّ اختيار الفاء أو الواو يتوقَّف على السِّياق وإرادة المُتَكَلِّم ؛ فإذا أراد المُتَكَلِّم أنْ يُعلِم المخاطب أَنَّ المعطوف عليه يقع أولا ثُمَّ المعطوف على سبيل الترتيب استخدم الفاء ؛ وإن أراد مطلق الجمع ولم يرد ترتيبا استخدم الواو .

٢ـ وفي نصّ ثان يوضح أَنَّ السِّياق قد يُثري المعنى الدِّلَالِيّ مع حرف العطف « أو » ، يقول : «ومثل ذلك أَنْ تقول : ادخل على زيد أو عمروٍ أو خالدٍ ، أي : لا تدخل على أكثر من واحدٍ من هؤلاء . وإن شئت جئت به على معنى ادخل على هذا الضرب » [3] .

إن جملة « ادخل على زيد أو عمروٍ أو خالدٍ » لها معنيان : الأول : أَنَّ المُتَكَلِّم يأمر المخاطب أَنْ يدخل على أحد هذه الأشخاص المُعَيَّنَة المحددة نفسها ، والثاني : أَنَّهُ يأمره أَنْ يدخل على ما يشبه في الطباع والخصائص والأخلاق مثلا هؤلاء الثلاثة . وهذا ما يفهم من كلمة « الضرب » في كلام سيبويه ، التي تعني : «الصنف والمثل والشكل والنوع » [4] .

ولا شك أَنَّ الفَيْصل بين المعنيين هو السياق . ونضيف أَنَّ المعنى الثاني لـ « أو » في النص السابق يجعلها تفيد ـ كما يقول العلماء ـ «الإباحة» ويستبعَد عنها معنى «التخيير » ؛ لأن «التخيير لا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٧/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٢/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٨٤/٣

(٤) ينظر مادة : «ض ر ب » في مختار الصحاح ص ١٨٣ ، والمعجم الوسيط ٥٣٧/١

يبيح الجمع بين الشيئين أو الأشياء ، والإباحة تبيحه ، فإذا قلت : «خذ قلمًا أو دفترًا » ،لم يجز له أخذهما جميعا ، وإذا قال : «جالس العلماء أو الزهاد » ، جاز له أن يجالسهم جميعا ؛ إذ المقصود : جالس هذا الضرب من الناس »[١] .

٣ـ وفي نصّ ثالث نلمح منه أَنَّ ما بعد حرف العطف «الواو » قد يتَأَثَّر بسياق الحال ؛ فيمنع عطفه على ما قبله . ففي قوله تعالى : ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ ﴾[٢] من الممكن ـ بعيدا عن سياق الآية ومعناها ـ نصب الفعل ﴿وَنُقِرُّ﴾ ؛ ولكن معنى الآية وسياقها يمنع النصب ويوجب الرفع على تقدير : « ونحن نقر في الأرحام ؛ **لأَنَّهُ ذكر الحديث للبيان ولم يذكره للإقرار** »[٣] .

قال ابن يعيش : « وقوله تعالى : ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، لم يأت «ونقر » ، إلا مرفوعا **على الابتداء والاستئناف** ، كأنَّه قال : و«نحن نقر في الأرحام » ، ولو نصب ، لاختل المعنى ، إذ كان بعد إذ ذلك لنبين لكم القدرة على البعث ؛ لأنَّه إذا كان قادرا على ابتداع هذه الأشياء بعد أن لم تكن كان أقدر على إعادتها إلى ما كانت عليه من الحياة ؛ لأنَّ الإعادة أسهل من الابتداع »[٤] .

٤ـ ويلعب السِّياق دورا ملحوظا مع حرف العطف « أم » ، ولكن قبل إبراز هذا الدور نقول : إِنَّ «أم » التي تأتي متصلة لإفادة التعيين تأتي في مرحلة لاحقة من بداية الكلام ؛ إذ إِنَّ «أم » التي تفيد التعيين ـ كما قال صاحب النحو الوافي ـ «تكون متوسطة بين شيئين ، ينسب لواحد منهما أمر يعلمه المُتَكَلِّم ، ولَكِنَّه لا يعلم ـ على وجه التعيين ـ صاحبه منهما ، وقبلهما معا همزة استفهام يراد منها ومن أم تعيين أحد هذين الشيئين ، وتحديد المختص منهما بالأمر الذي يعرفه المُتَكَلِّم ، ويسأل عن صاحبه الحقيقي ؛ ليعرفه على وجه اليقين لا التردد والشك»[٥] .

---

(١) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣/ ٢٥١

(٢) قال الإمام القرطبي في تفسير قوله : ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ الحج : ٥ في المسألة الحادية عشرة ما نصه : « الحادية عشرة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يريد : كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم . ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ قرئ بنصب نقر و نخرج ، رواه أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن عاصم قال : قال أبو حاتم : النصب على العطف. **وقال الزجاج :نقر بالرفع لا غير ؛ لأَنَّهُ ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء وإِنَّمَا خلقهم عز وجل ليدلهم على الرشد والصلاح**. وقيل : المعنى لنبين لهم أمر البعث، فهو اعتراض بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالرفع « ونقر » ، المعنى : ونحن نقر. وهي قراءة الجمهور ». الجامع لأحكام القرآن ، ١٢/ ١١

(٣)سيبويه : الكتاب ، ٥٣/٣ ، وينظر تفسير السيرافي للآية الذي أورده الأستاذ هارون في الحاشية ذات الرَّقْم٣

(٤) شرح المفصل ، ٢٥٥/٤، وينظر أيضا : الجنى الداني في حروف المعاني ، ص ١٦٣

(٥) أ/ عباس حسن : النحو الوافي ، ٥٨٩/٣ ـ ٥٥٩٠

وواضح من الكلام هنا أَنَّ «أم» التي تفيد التعيين يجب أَنْ تسبق بسياق على الجملة التي تحتويها فهناك أمر يعلمه المُتَكَلِّم ، وهناك شيئان يحار المُتَكَلِّم لأيِّهما ينسب هذا الأمر ، وهو يأتي بـ «أم التعيينية» لتحديد ذلك . وكلام صاحب النحو الوافي يدل على أَنَّهُ يجب أَنْ يكون هناك مخاطب يتولي هذا التحديد الذي يطلبه المُتَكَلِّم منه عن طريق الاستفهام الموجود في بداية الكلام .

يؤكد سيبويه هذا المعنى في أحد نصوصه قائلا : « وذلك قولك : أزيدٌ عندك أم عمروٌ ، وأزيدًا لقيت أم بشرًا ؟ فأنت الآن مدَّع أنَّ عنده أحدهما ؛ لأَنَّكَ إذا قلت : أيهما عندك ، وأيَّهما لقيت ؛ فأنت مدّعٍ أَنَّ المسئول قد لقي أحدهما ، أو أَنَّ عنده أحدهما ، إِلَّا أَنَّ علمك قد استوى فيهما لا تدري أيهما هو »[1] . أي أَنَّ المُتَكَلِّم في جملة «أزيدًا لقيت أم بشرًا ؟ » متأكد من حدوث «لقاء» قد تمَّ ووقع ، وما يريده فقط أَنْ يحدد لمن من المُعَيَّنَين كان اللقاء .

و«أم» بهذا تختلف عن حرف العطف «أو» عندما نقول : «ألقيت زيدا أو عمرا أو خالدا ، وأعندك زيد أو خالدٌ أو عمروٌ ، كَأَنَّك قلت : أعندك أحدٌ من هؤلاء ، وذلك أنّك لم تدَّع أَنَّ أحدًا منهم ثُمَّ »[2] . فهنا المُتَكَلِّم ليس على علم بـ «لقاء أو وجود» أحد هؤلاء الثلاثة من الأصل ولا يطلب تعيين اللقاء أو الوجود لأحد هؤلاء الثلاثة ، بل الجملة استفهام عن مجرد كينونة اللقاء أو الوجود .

وعلى هذا فَإِنَّ سياق الكلام يتدخل في اختيار المُتَكَلِّم لحرفي العطف «أم» أو «أو» ، يقول سيبويه : «وتقول : أتجلس أو تذهب أو تحدثنا ، **وذلك إذا أردت هل يكون شيءٌ من هذه الأفعال . فأمَّا إذا ادَّعيت أحدهما فليس إلاَّ أتجلس أم تذهب أم تأكل ، كأنَّك قلت : أيَّ هذه الأفعال يكون منك**»[3] .

ويقول في نصّ ثان : «ولو قلت : لأضربنَّه أذهب أو مكث لم يجز ، لأَنَّكَ لو أردت معنى أيهما قلت : أم مكث ، ولا يجوز لأضربنَّه مكث»[4] .

ومن الطريف أَنْ نذكر أَنَّ سيبويه يسمي السِّياق الذي يسبق «أم» بـ «**القصة**» ، يقول : « ... لأنَّهُ قَصَدَ قَصْد أحد الاسمين ، فبدأ بأحدهما ؛ لأَنَّ حاجته أحدهما ، **فبدأ به مع القصة التي لا يسأل عنها ؛ لأنَّهُ إِنَّمَا يسأل عن أحدهما من أجلها** ، فَإِنَّما يفرغ مما يقصد قصده بقصته ثُمَّ

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٦٩

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٧٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٨٠

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٨٦

يعدله بالثاني »[١] . ومن خلال هذا النَّصّ يمكن أَنْ نقول إِنَّ من المصطلحات التراثيَّة التي تطلق على سياق حال (سابق) القصة .

ولا ينحصر تأثير السِّياق على أم في كونها تفيد التعيين أم لا ، بل قد يُخرج السِّياق هذا التعيين المستفاد من «أم» إلى غرض بلاغي ، مثل «**تنبيه المُتَكَلِّم للمخاطب وتبصيره وإعلامه**» كما لاحظ سيبويه ، يقول : «ألا ترى أَنَّ الرجل يقول للرجل : آلسعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ **وقد علم أَنَّ السعادة أحب إليه من الشقاء ، وأَنَّ المسئول سيقول : السعادة ، ولَكِنَّه أراد أَنْ يبصر صاحبه وأَنْ يعلمه**»[٢] .

قال المبرد : «كقولك للرجل : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؛ **لتوقفه أنَّه على خطأ وعلى ما يصيِّره إلى الشقاء**»[٣] .

ويؤثِّر السِّياق أيضا في «أم» ، فقد تأتي لتعبِّر عن حالة من الشك أو الظن يقع فيها المُتَكَلِّم يقول : «ومن ذلك أيضًا : أعندك زيدٌ أم لا ، كَأَنَّه حيث قال : أعندك زيدٌ ، **كان يظن أَنَّهُ عنده ثُمَّ أدركه مثل ذلك الظن في أَنَّهُ ليس عنده فقال : أم لا**»[٤] .

وتأتي «أم»وتفيد «الانقطاع».وتسمى أم «المنقطعة» ، وهي : «التي تقع ـ في الغالب ـ بين جملتين مستقلتين في معناهما ، كل منهما معنى خاص يخالف معنى الآخر ، ولا يتوقَّف أداء أحدهما وتمامه على الآخر ؛ فليس بين المعنيين ما يجعل أحدهما جزءًا من الثاني »[٥] .

ويُعَبِّر سيبويه عن هذا الانقطاع من خلال تخيل سياق حال بسيط مكون من متكلم ومخاطبين ، يقول : «ويدلك على أَنَّ هذا الآخر منقطعٌ من الأول قول الرجل : إنِّها لإبلٌ ، ثُمَّ يقول : أم شاءٌ يا قوم»[٦] . ويمكن أَنْ نكمل نحن الجوانب الناقصة من هذا المشهد ؛ فنقول : إِنَّ المُتَكَلِّم وحوله مجموعة من الناس ، نظر فرأى على بعد مجموعة من الإبل فجزم على سبيل اليقين أَنَّها إبل ، ثُمَّ أخذ يدقِّق النظر ، وبعد حين يتبيَّن له أَنَّها شاء .

٥ـ ومما يرتبط بسياق الحال ويُؤَثِّر في أسلوب العطف ما يسميه العلماء بـ «الاستئناف» .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٧٠/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٧٣/٣

(٣) المقتضب ، ٢٩٢/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٧٤/٣

(٥) أ/ عباس حسن : النحو الوافي ، ٥٩٧/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ١٧٢/٣

والعلماء يقسمون الاستئناف إلى نوعين : استئناف بياني ، واستئناف نحوي[(١)] . ويهمنا هنا الاسئناف النَّحْوِيّ الذي يقصد به : «عدم تعلق الجملة نحويا بما قبلها ، تعلق إتباع أو إخبار أو وصف إو حال أو صلة ؛ أي أَنَّهُ يؤدي إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الجملة السابقة عليها إعرابيا»[(٢)] .

ومن أنواع الاستئناف النَّحْوِيّ نوع «يتضمن الجمل المقطوعة عما قبلها بواسطة حرف من أحرف العطف الآتية : أو ، الواو ، الفاء ، ثُمَّ ، حتى ، أم المنقطعة ، بل ، لكن»[(٣)] .

ويقول المرادي عن الواو وأنواعها : «الثاني من أقسام الواو : واو الاستئناف ، ويقال : واو الابتداء . وهي الواو التي يكون بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها ، في المعنى ، ولا مشاركة له في الإعراب . ويكون بعدها الجملتان : الاسمية والفعلية ... وذكر بعضهم أنَّ هذه الواو قسم آخر ، غير الواو العاطفة . والظاهر أنَّها الواو التي تعطف الجمل ، التي لا محل لها من الإعراب ، لمجرد الربط ، وإنَّما سميت واو الاستئناف ، لئلا يتوهم أنَّ ما بعدها من المفردات ، معطوف على ما قبلها»[(٤)] .

وإلى الاستئناف النَّحْوِيّ يشير سيبويه قائلا : «وتقول : ما عبدُ الله خارجًا ولا مَعْنٌ ذاهبٌ ، تَرفعه على أَنْ لا تُشركَ الاسمَ الآخِرَ في ما **ولكن تَبْتَدِئُهُ** ، كما تقول : ما كان عبدُ الله منطلقا ولا زيدٌ ذاهبٌ ، إذا لم تجعله على كانَ وجعلتَه غير ذاهب الآن . وكذلك ليس . وإن شئت جعلتها لا التي يكون فيها الاشتراك فتنصب ، كما تقوم في كان : ما كان زيدٌ ذاهبا ولا عمرو منطلقا . وذلك قولُك : ليس زيدٌ ذاهبا ولا أخوك منطلقا ، وكذلك : ما زيدٌ ذاهبا ولا معنٌ خارجا»[(٥)] .

جملة «ما كان عبد الله منطلقا ولا زيد ذاهبا» يمكن أَنْ تُجعل «لا» لتأكيد النفي الذي قبلها ، ويُعطَف آخر الكلام على أوله من خلال العطف بالواو على العامل الذي قبلُ ، كما قال السيرافي .

ويمكن أَنْ تقال الجملة السابقة كما يلي : «ما كان عبد الله منطلقا ولا زيدٌ ذاهبٌ» برفع «ذاهب» . ويوجه سيبويه هذا التوجيه على أَنَّ «لا» لا تشرك الاسم الآخر في ما ، ولكن تبتدئه (أي تستأنفه) إذا لم تجعله على كان وجعلته غير ذاهب الآن .

---

(١) «الاستئناف النحوي ودوره في التركيب» : د. مصطفى النحاس ، مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، المجلد ٨ ، ج ٦٥ ص ١١٤

(٢) السابق ، ص ١١٤ ، وينظر : د. عبادة ، معجم مصطلحات النحو ، ص ٥٨

(٣) السابق ، ص ١٢٩

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني ، ص ١٦٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦٠/١

وهناك فرق في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى : «ولا زيدٌ ذاهبًا » : «إِنَّمَا تنفي انطلاقه فيما مضى».وإذا قلت : «ولا زيدٌ ذاهبٌ» فَإِنَّما «تنفي انطلاقه الساعة»[(١)] .

إن الخيارات النحوِيَّة التي يكون الاستئناف سببا فيها مرتبطة ولا شك بالسِّياق كما يبدو من المعاني التي يُقَدِّمها السيرافي في هذه الجملة .

***

المبحث الرابع : سياق الحال والأساليب النحوِيّة :

سنرصد هنا علاقة سياق الحال بالأساليب النحوِيَّة المختلفة ، وسيكون منهجنا في ذلك تجميع المادة العلميَّة التي يظهر فيها تأثير سياق الحال على تلك الأساليب ، ثُمَّ تصنيف هذا المادة ، وتحديد ما يخص كل أسلوب على حدى . وذلك كله بالطبع من خلال نصوص سيبويه .

١- أسلوب الاستفهام :

أسلوب الاستفهام في صميمه يعتمد على سياق حال ، فالاستفهام هو : «استعلام ما في ضمير المخاطب»[(٢)] . وهو «عند أهل العربِيَّة من أنواع الطلب الذي هو من أقسام الإنشاء ، وهو كلام يدلّ على طلب فهم ما اتصل به أداة الطلب ... ، ولكون الاستفهام طلب ارتسام صورة ما في الخارج في الذهن لزم أنْ لا يكون حقيقة إلّا إذا صدر عن شاكّ يصدق بإمكان الإعلام فَإِنَّ غير الشاك إذا استفهم يلزم منه تحصيل الحاصل ، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام»[(٣)] .

إن الاستفهام في الأصل يكون عندما يوجد إنسان عاقل يجهل شيئا ، أو يطلب فهم شيء لا يفهمه . وهذا الأسلوب عقلا ومنطقا يتطلب ثلاثة أطراف : متكلم مستفهِم ، ومخاطَب مستفهَم ، ومستفهَم عنه . ونلاحظ على هذا الأسلوب أَنَّهُ من الأساليب التي لا يُبتَدأُ بها الكلام عادة ، فهو من الأساليب التي تأتي لاحقا فيه ؛ أي أنها تستلزما سياقا ما وقع قبلها .

وقد رصد سيبويه بطريقته الاختزالية النَّمَطِيَّة التي أوضحناها مسبقا تأثير سياق الحال على هذا الأسلوب ، فأوضح أَنَّ السِّياق قد ينقل الاستفهام عن وجهته الاستفهامية إلى أغراض أخرى ، مثل :

---

(١) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٣٣٢/١

(٢) الجرجاني : التعريفات ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص ٣٧

(٣) التهانوي : كشاق اصطلاحات الفنون ، ١٧١/١

▪ التوبيخ والتقرير والشتم :

يقول : «تقول للرجل : أطربًا ! وأنت تعلم أَنَّهُ قد طرب ، لتوبَّخه وتقرِّره» [1] . ويقول في نصّ آخر : «قولك : أَتمَيميًّا مَرَّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى . وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلاً في حال تلوُّنٍ وتنقُّلٍ ، فقلت : أتميمًا مَرَّة وقيسيًّا أُخْرَى ، كَأَنَّك قلت : أتحول تميميًا مَرَّة وقيسيًا أخرى . فأنت فى هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له ، وهو عندك فى تلك الحال في تلوُّنٍ وتنقُّلٍ ، وليس يَسأله مسترشِدًا عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهِّمَه إيّاه ويُخبرَه عنه ، ولَكِنَّه وبَّخه بذلك» [2] .

ويؤكد سيبويه هذا في قوله : «وذلك قولك : تمَيميًّا قد عَلِمَ اللهُ مَرَّة وقيسيًا أُخرى . فلم ترد أَنْ تخبر القوم بأمر قد جهلوه ، ولكنك أردت أَنْ تشتمه بذلك ، فصار بدلاً من اللفظ بقولك : أَتَتَمَّمُ مَرَّة وتَتَقَيَّسُ أخرى ، وأَتَمضون وقد استَقبلكم هذا ، وتَنَقَّلُون وتَلَوَّنُون» [3] .

فالأسئلة : «أطربا ؟» ، «أَتمَيميًّا مَرَّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى ؟» ، «تمَيميًّا قد عَلِمَ اللهُ مَرَّة وقيسيًا أُخرى ؟» ليست على حقيقتها ؛ لأنَّها لا تصدر عن «شاكٍّ».بل هي لأغراض سياقية أخرى ، فإذا رأينا رجلا في حال «تلوُّن وتنقُّل في مواقف سياقية متعددة ومن خلال خبرات سابقة» قلنا له : «أَتمَيميًّا مَرَّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى ؟» أي : «أتتخلق مرة بأخلاق تميم ، وتارة بأخلاق قيس ، ولا تعتمد على خلق واحد منهما . كأنَّه يثبت له هذه الحال ويوبخه عليها ، وليس يسترشده عما يجهله ، وإن كان بلفظ الاستفهام» [4] .

فالمتكلم حذف الفعل المقدر «أتتحول وتتلون ، وأغناه عن ذكر الفعل ما شاهد من الحال» [5] . وإذا أثار أحدهم حفيظة المتكلم في مقام ما قال له : «تمَيميًّا قد عَلِمَ اللهُ مَرَّة وقيسيًا أُخرى» شتما له .

▪ التنبيه :

قال سيبويه في باب «ما ينتصب من الأسماء التى أُخذت من الأفعالِ انتصابَ الفعل ، استفهمتَ أو لم تَستفهم» : «قولك : أَقائمًا وقد قَعَدَ الناسُ ، وأَقاعِدًا وقد سار الرَّكْبُ . وكذلك إنْ أردتَ هذا

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ٣/١٧٦

(2) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٤٣

(3) سيبويه : الكتاب ، ١/٣٤٥

(4) ابن يعيش : شرح المفصل ، ٢/٣٣

(5) المبرد : المقتضب ، ٣/٢٦٤

المعنى ولم تَستفهم ... ؛ وذلك أَنَّهُ (أي المُتَكَلِّم) رأى رجلاً فى حال قيامٍ أو حال قُعودٍ ، **فأراد أَنْ يُنَبِّهه** ، فكأَنّه لَفَظَ بقوله : أتقومُ قائما وأَتَقُعد قاعدا ، ولَكِنَّه حذف استغناءً بما يرى من الحال » [١] .

ويقول : « وحدّثنا بعضُ العرب ، أنّ رجلًا من بنى أَسَدٍ قال يومَ جَبَلَةَ واستَقبله بَعِيرٌ أَعْوَرُ فتَطَيَّرَ منه ، فقال : يا بنى أسد ، أَعْوَرَ وذا نابٍ ! فلْم يرد أَنْ يَسترشدهم ليُخبِروه عن عَوَرِه وصحّته ، **ولَكِنَّه نَبَّهَهم** ، كأَنه قال : أَتَستقبلون أَعْوَرَ وذا ناب ! فالاستقبالُ فى حال تنبيهه إيّاهم كان واقعا » [٢] .

وينبغي أَنْ تصاحِب الجملة «أَعْوَرَ وذا نابٍ» بعض التلوينات الصَّوْتِيَّة التي تحول الجملة من الخبريِّة إلى الاستفهامية . وقد حذف حرف الاستفهام والعامل من الجملة «أَعْوَرَ وذا نابٍ» لدلالة السِّياق على ذلك .

إن ربط سيبويه الاستفهام بالتنبيه في هذه النصوص تارة وبالتوبيخ والتقرير والشتم تارة أخرى لا يكون بدون استحضار السِّياق وملابساته حتى وإن لم ينص على ذلك . فدلالة قولنا «أقائما وقد قعد الناس ؟ » على التنبيه لا تُستَخْلَصُ إلا بالسِّياق ، ولا مانع أَنْ تدلَّ نفس الجملة في سياق آخر على التوبيخ أو التعجب أو الاستنكار .

وأعتقد أَنَّ سيبويه برصده لدلالات سِيَاقِيَّة لأسلوب الاستفهام قد فتح الباب لمن بعده من علماء علم المعاني لحصر بقية الدلالات التي يمكن أَنْ يحملها هذا الأسلوب . ويحق لنا أَنْ نردد مع د . عبد الحكيم راضي قوله : «ولم نجد عند علمائنا الأقدمين هذا الفصل الحاد بين علوم اللسان العربي فـ «كتاب » سيبويه مثلا **ساهم في الدراسات الأدبيَّة إسهاما ملحوظا** ، ويكفي دلالة على دوره في تنمية البحث الفني في لغة الأدب رجوع عبد القاهر الجرجاني إلى الأصول التي سنها سيبويه ، والأمثلة التي أوردها في كثير من قضايا اللُّغَة الأدبيَّة » [٣] .

وفي بعض مواضع من الكتاب يرصد سيبويه التفاعل الذي يدور بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، وكيف يعكس أسلوب الاستفهام هذا التفاعل .

يقول : « ... لأَنَّكَ إنَّمَا تسألهم على ما وضع عليه المُتَكَلِّم كلامه » [٤] . ويقول في باب «من إذا كنت مستفهما عن نكرة» : «اعلم أَنَّكَ تثنى مَن ... ، وذلك قولك : رأيت رجلين ، فتقول : مَنَيْن ... ، وأتاني رجلان فتقول : مَنان ، وأتاني رجال فتقول : مَنون . وإذا قال : رأيت رجالا قلت :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٤١/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٣/١

(٣) النقد اللغويّ في التراث العربي ، مقال بمجلة فصول ع تراثنا النقدي ج ٢ /١٩٨٦م ، ص ٨٠

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٠٧/٢

مَنين ، . . ، وإن قلت رأيت امرأة قلت : مَنَهْ ؟ ... ، وإن قال رأيت امرأتين قلت : مَنَتيْن كما قلت أيّتَين ، إلا أَنَّ النون مجزومة . فإنْ قال : رأيت نساءَ قلت : مَناتْ » [١] .

ونلاحظ هذا التفاعل بين المُتَكَلِّم المُخْبِر والمخاطب المستفهِم ، وكيف أَنَّ رد المخاطب الراغب في معرفة مَنْ الأشخاص الذين أتوا إلى المُتَكَلِّم يتوافق مع إخبار المُتكَلِّم معنًى من حيث النوع والتعريف والتنكير ، وإعرابا :

- رأيت رجلين ـــــــ مَنَيْنِ ؟
- أتاني رجلان ـــــــ مَنَان ؟
- أتاني رجال ـــــــ مَنون ؟
- رأيت رجالا ـــــــ مَنِين ؟
- رأيت نساء ـــــــ مناتِ ؟

ونلاحظ أَنَّ إجابة المخاطب المستفهم على المُتَكَلِّم المخبر هنا تدل على حالة التنبُّه والتركيز الشديدين اللذين يكونان من المخاطب ؛ حتى يتوافق ردُّه إعرابا ونوعا مع كلام المُتَكَلِّم . ونلاحظ أيضا أَنَّ إجابة المخاطب بـ «مَن أو منين ... » مرتبطة بكون المستفهم عنه نكرة ، أي غير مُحَدَّد وغير معروف لدى المخاطب ، وهذا ما دفعه إلى الاستفهام . أَمَّا إذا كان المستفهم عنه معرفة فلا تجوز أَنْ تكونَ إجابة المخاطب : من ... ، يقول في باب «ما لا تحسن فيه من كما تحسن فيما قبله » : «وذلك أَنَّهُ لا يجوز أَنْ يقول الرجل : رأيت عبدَ الله ، فتقول : مَنَا ؛ لأَنَّهُ إذا ذكر (أي المُتَكَلِّم) **عبد الله فَإِنَّما يذكر رجلا تعرفه بعينه أو رجلا أنت عنده ممن يعرفه بعينه فَإِنَّما تسأله (أي المخاطب) على أَنَّكَ ممن يعرفه بعينه** ، إلا أَنَّكَ لا تدرى الطويلُ هو أم القصير أم ابنُ زيد أم ابن عمرو ؟ فكرهوا أَنْ يُجرى هذا مجرى النكرة إذا كانا مفترقين » [٢] .

أي أَنَّ المُتَكَلِّم الذي يريد أَنْ يخبر المخاطب عن شخص لابد أَنْ يعرف مسبقا أَنَّ المخاطب يعلم شيئا عن المستفهم عنه ، أو الشيء محل الإخبار ، وإلا كان هذا لبسًا في الكلام . فإذا رد المخاطب بـ «من » فَإِنَّ هذا دليل على أَنَّهُ لم يستحضر صورة «عبد الله» أو لا يعرفه أصلا . وإذا تم استحضار صورة «عبد الله» في ذهن المخاطب اختفى الاستفهام من المخاطب ولم يعد له قيمة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٠٨/٢ ـ ٤٠٩

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤١٢/٢

ويزيد السيرافي هذه النقطة وضوحا فيقول : « وكَأَنَّ السائل سأل على ما كان ينبغي للمتكلم أَنْ يكلمه به إذا لم يعرف ... فلما غلط المُتَكَلِّم في توهمه على المخاطب أَنَّهُ يعرفه رده المخاطب إلى الحق في حال نفسه أَنَّهُ غير عارف بمن ذكره وسأل عن ذلك » [١] .

ويشير سيبويه أَنَّهُ إذا كان المسئول عنه من غير الإنس فالجواب « الهنُ والهنةُ ، والفلانُ والفلانة ؛ لأَنَّ ذلك كناية عن غير الآدميين » [٢] ؛ وفي هذا دليل على أَنَّ اللُّغَة في بعض قواعدها تفرق بين ما هو للإنسان العاقل ، وما هو للحيوان الأعجم .

ومن أشكال التفاعل التي يعكسها أسلوب الاستفهام التي تكون بين المُتَكَلِّم والمخاطب هذا التفاعل الذي يأخذ شكلا من أشكال « الإنكار » ، ففي باب من أبوابه بعنوان : « باب ما تلحقه الزيادة في الاستفهام إذا أنكرتَ أَنْ تُثبت رأيَه على ما ذكر أو تنكر أَنْ يكون رأيه على خلاف ما ذكر » خصَّه بالحديث عما أسماه « إثبات العلامة للإنكار » ، في مثل : «قول الرجل : ضربت زيدًا ؛ **فتقول منكرا لقوله : أزيدَنيه** ؟ ! » [٣] .

---

(١) شرح كتاب سيبويه : ٣/١٧٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٤١٥

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢/٤١٩ ، وجاء في كتاب « شذا العرف في فن الصرف » في باب « الوقف » ص ١٦٨ ما نصه : « الوقف هو قطع النطق عند آخر الكلمة . ويقابله الابتداء الذي هو عمل . فالوقوف استراحة عن ذلك العمل. ويتفرّع عن قصد الاستراحة فى الوقف ثلاثة مقاصد ، فيكون لتمام الغرض من الكلام ، ولتمام النظم فى الشعر، ولتمام السجع فى النثر. وهو إما اختيارىّ بالياء المثناة من تحت : أى قُصِدَ لذاته ، أو اضطرارىّ عند قطع النَّفَس. أو اختبارىّ بالموحدة ، أى قُصِد لاختبار شخص هل يحسن الوقف ... أو لا ؟ والأول إما استثباتي وهو ما وقع فى الاستثبات ، والسؤال المقصود به تعيين مبهم، نحو مَنُو، وأيُّون ؟ لمن قال : جاءنى رجل أو قوم . وإما إنكارىّ لزيادة مدة الإنكار فيه ، **وهو الواقع فى سؤال مقصود به إنكار خبر المخبر، أو كون الأمر على خلاف ما ذُكِر فيه** ، وحينئذ فإن كانت الكلمة منونة كسر التنوين ، وتعينت الياء مدة، نحو أزَيدُنِيه بضم الدال ، وأزيدَنيه بفتحها وأزيدِنيه بكسرها، وكسر النون فى الجميع ، لمن قال : جاء زيدٌ ، أو رأيتُ زيدًا ، أو مررت بزيد . وإن لم تكن منونة أتى بالمدّ من جنس حركة آخر الكلمة ، نحو أعُمَرُوه وأعمرَاه ، وأحَذَامِيه ، لمن قال جاء عَمَرُ ، ورأيتُ عُمَر ، ومررت بحَذَام. وإما تذكُّريّ ، وهو المقصود به تذكر باقى اللفظ ، فيؤتى فى آخر الكلمة بمَدّة مجانسة لحركة آخرها ، كقالا ، ويقولُوا، وفى الدَّاري » . ومما هو جدير بالملاحظة أن أبا البقاء العُكْبَرِيّ البغدادِيّ في كتابه «إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي » يوردُ حديثا ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وردت فيه العلامة «نيه».في سياق قصة الصحابي جُلَيْبِيْب وزواجه ، ويفسرها كما يلي ، قال : « فِي حَدِيث أبي بَرزَة ـ نَضْلَة بن عبيد أَنه قَالَ فِي حَدِيث جليبيب : « فَقَالَت أمُّهَا أجليبيب إنيه ؟ جمَاعَة من الْمُحدثين يخلطون فِي هَذَا اللَّفْظ ، وَالصَّوَاب فِيهِ وَجْهَان :أَحدهمَا : أجليبيب نيه؟ ! وَحَقِيقَته : **أَنه تَنْوِين كسر وأشبعت كَسرته فَنَشَأَتْ مِنْهَا الْيَاء، ثمَّ زيدت الْهَاء ليَقَع الْوَقْف عَلَيْهَا**.

ويوضح السيرافي طبيعة هذا الإنكار في هذا الباب بقوله : « الباب كله في إثبات العلامة للإنكار ، وجعل الإنكار على وجهين : أحدهما : أَنْ ينكر كون ما ذكر كونه ، ويكذب به أو يبطله ، كرجل قال لك : أتاك زيد ، وزيد ممتنع إتيانه عندك ؛ فينكره بطلانه عندك ، فهذا معنى قوله : أنكرت أَنْ تثبت رأيه على ما ذكره . والوجه الآخر : أَنْ يقول : أتاك زيد ، وزيد من عادته إتيانك ؛ فتنكر أَنْ يكون ذلك ؛ لا كما قال » [(١)] .

ونضيف هنا أَنَّهُ لا بدَّ للتعبير عن حالة الإنكار هذه من تلوينات صوتيَّة وتعبيرات تظهر على الوجه للدلالة على هذا الإنكار ، فيما سمي بـ « لغة الجسد Body Language » [(٢)] .

ونعود إلى سيبويه فنجده يشير أَنَّ العلامة التي تزاد « **نيه** » ، تصير « **علما لهذا المعنى كعلم الندبة** » [(٣)] . أي أَنَّ العلامة « نيه » تصير لكثرة الاستخدام والاستعمال علما على الإنكار .

ويؤكد سيبويه هذا الأسلوب الإنكاري المستخدم فيه الأداة « نيه » بإيراد أمثلة أخرى ، مثل : « وسمعنا رجلاً من أهل البادية قيل له : أتخرج إِنْ أخصبت البادية ؟ فقال : أنا إنِيهْ ؟ منكِرًا لرأيه أَنْ يكون على خلاف أَنْ يخرج . ويقول : قد قدم زيد ، فتقول : أزيدُنِيهْ ؟ غيرَ راد عليه متعجبا أو منكرا عليه أَنْ يكون رأيهُ على غير أَنْ يقدم ؛ أو أنكرتَ أَنْ يكون قدِم فقلت : أزيدُنيه ؟ » [(٤)] .

ويضيف أَنَّ من العرب من يجعل بين هذه الزيادة « نيه » وبين الاسم « إن » ثمة ترابط ، فيقول : « واعلم أَنَّ من العرب من يجعل بين هذه الزيادة وبين الاسم إنْ فيقول : أَعُمَرُ إنِيهْ ، وأزيدُ إنيهْ ،

وَالثَّانِي: أجليبيب إنيه ؛ « فإنيه » كلمة مُنْفَصِلَة مِمَّا قبلهَا ». المرجع تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م ، ص ١٨٠

(١) شرح كتاب سيبويه ، ١٨٨/٣

(٢) ومما هو جدير بالذكر أَنَّ التعابير الجسدِيَّة أصبح لها الآن مصطلح لُغوي خاص بها تُدرَس تحته يسمى « kinesics » الذي يمكن ترجمته بـ « علم دراسة الحركات الجسدِيَّة ، أو علم دراسة لغة الجسد بالتواصل » ، ويقول ديفيد كريستال عن مصطلح « kinesics » ما نصه « هو مصطلح في علم الدِّلاَلَة يطلق على الاستخدام المنظم الخاص بتعبير الوجه وإيماء الجسد لإيصال المعنى ، خاصة منها ما يتعلق باستعمال اللُّغَة .

kinesics (n.) **A term in semiotics for the systematic use of facial expression and body gesture to communicate meaning, especially as this relates to the use of language** »

, P **261A Dictionary of Linguistics and Phonetics**

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٠/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٠/٢

فكَأَنَّهم أرادوا أَنْ يزيدوا العلمَ بيانا وإيضاحا » [1] . أي زيادة التأكيد على الإنكار ، ولا بد أَنْ يكون هذا بدافع سِياقِيّ .

ويشير في موضع آخر أَنَّ العلامة «نيه» في حالة «الاستفهام الإنكاري» ليست واجبة الإلحاق فـ «إنْ شئت تركت العلامة في هذا المعنى كما تركت علامة الندبة» [2] . ويصرح أيضا أَنَّ السِّياق إذا لم يدل على «الاستفهام الإنكاري » ، ودل فقط على «الاستثبات والاسترشاد » ؛ امتنعت هذه العلامة . يقول : «وإن كنت متثبتا مسترشدا إذا قال ضربت زيدا ، فَإِنَّك لا تُلحق الزيادة . وإذا قال ضربتُه فقلت : أقلتَ ضربتُه ؟ لم تلحق الزيادة أيضا ؛ لأَنَّكَ إِنَّمَا أوقعت حرف الاستفهام على قلت ، ولم يكن من كلام المسئول ، **وإِنَّمَا جاء على الاسترشاد ، لا على الإنكار**» [3] .

***

٢ـ أسلوب النفي :

لن يدور الحديث هنا عن أسلوب النفي إلا فيما يخص علاقته بسياق الحال من خلال نصوص سيبويه . ولم نتمكن من الوقوف على هذه العلاقة إلا من خلال حديث سيبويه عن النكرة التي تأتي في أسلوب نفي . فهذا هو الموضع الوحيد التي يمكن من خلاله ـ فيما أعتقد ـ رصد علاقة لسياق الحال بهذا الأسلوب .

وبداية وقبل إيضاح هذا الموضع نذكر أَنَّهُ من القواعد التي يُقرُّها علم أصول الفقه : أَنَّ النكرة في سياق نفي تفيد العموم ، قال الرازي (٦٠٦هـ) : «الفصل الرابع في أن النكرة في سياق النفي تعمُّ وذلك لوجهين ... » [4] ، ويقول الآمديُّ (٦٣١هـ) : «الصنف السادس في المطلق والمقيد . أما المطلق فعبارة عن النكرة في سياق الإثبات . فقولنا : «نكرة» احتراز عن أسماء المعارف وما مدلوله واحد معين أو عام مستغرق . وقولنا : « في سياق الإثبات » احتراز عن النكرة في سياق النفي ، فإنَّها تعم جميع ما هو من جنسها» [5] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٢١/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٢/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٢/٢

(٤) المحصول في علم الأصول ، ت : د. طه جابر فياض العلواني ، مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ للطبعة ، ٣٤٣/٢

(٥) الإحكام في أصول الأحكام ، ت : عبد الرزاق عفيفي ، دار الصميعي ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ٣/٣

فعند قولنا : « لا رجلَ في الدار ، وما رأيت رجلا في الدار » ؛ فَإِنَّ « الصورتين [تثبتان] العموم للنكرة «رجل» ؛ وذلك ضرورة واقتضاء ، لا لمعنى في نفس الصيغة ؛ إذ إِنَّ النكرة في الإثبات والنفي أو النهي لا تتناول إلا واحدا »[(١)] . «إِنَّ النكرة المنفية بـ «لم ، لا ، ليس ، لن» تفيد العموم سواء دخل حرف النفي على فعل ، نحو : «ما رأيت رجلا» ، أو على اسم ، نحو : « لا رجل في الدار » ، ونحو : «ما أحد قائما ، أو ما قام أحد» ... »[(٢)] .

ولكن يبدو أَنَّ هذا الأمر ليس على إطلاقه ، وأَنَّ لسياق الحال دخلا في هذه القاعدة ، هذا ما نفهمه من نصٍ لسيبويه ، لا يُسَلِّمُ من يفهمه بالقاعدة الأصولية السابقة . يقول سيبويه : « ولا يجوز لـ «أحدٍ»أَنْ تَضعه في موضعِ واجبٍ ، لو قلتَ : كان أحد من آل فلان لم يجز ؛ لأَنَّهُ إِنَّمَا وقع في كلامهم نفْيًا عامًا . يقول الرجلُ : أتاني رجلٌ ، يريد واحدًا في العدد لا اثنين ؛ فيقال : ما أتاك رجلٌ ؛ أي أتاك أكثرُ من ذلك ، أو يقول أتاني رجلٌ لا امرأةٌ فيقال : ما أتاك رجل ؛ أي امرأة أتتْك . ويقول : أتاني اليومَ رجلٌ ؛ أي في قوّته ونفاذه ، فتقُول : ما أتاك رجلٌ ؛ أي أتاك الضُّعفاءُ . فإذا قال : ما أتاك أحدٌ صار نفيًا عامّا لهذا كلَّه ، فَإِنَّما مجراه في الكلام هذا »[(٣)] .

إن معنى كلمة « رجل» في مثال سيبويه « ما أتاك رجل» تحتمل المعاني الآتية :

- ما أتاك رجل ، أي : أكثر من رجل واحد .
- ما أتاك رجل ، أي : امرأة أتتك .
- ما أتاك رجل ، أي : رجل ضعيف ليس بالقوي .

هذه المعاني المستنبطة لا بدَّ أَنْ يكون لسياق الحال دخل في استنباطها ، حتى وإن لم ينص سيبويه على ذلك .

إن نصّ سيبويه السابق يُلزم القاعدة الأصولية السابقة التي تقول «النكرة في سياق النفي تفيد العموم» بوضع قيد إليها ، ويعاد صياغتها كما يلي : « النكرة في سياق النفي تفيد العموم إذا لم يتعارض هذا مع السِّياق » . ونص سيبويه هنا يشير أيضا إلى أهمِيَّة السِّياق في التحديد الدِّلَالِيّ الدقيق للاسم النكرة عموما . وقد تنبَّه بعض متأخري الأصوليين لهذا الأمر ، فنجد الإمام القَرافي

---

(١) د. نادية محمد شريف العمري : العام ودلالته بين القطعية والظنية ، دراسة أصولية مقارنة، دار هجر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٧م)، ص ٩٣

(٢)السابق ، ص ٩٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٥٤/١ ـ ٥٥

(٦٨٤هـ) مثلا يقول : «**وأما النكرة في سياق النفي فهي من العجائب في إطلاق العلماء من النحاة والأصوليين يقولون النكرة في سياق النفي تعم ، وأكثر هذا الإطلاق باطل** »[(١)] .

***

٣- أسلوب التفضيل :

ناقش سيبويه أسلوب التفضيل في الجملة « هذا بسرًا أطيب منه رُطَبًا » ، وقال في أثناء المناقشة لهذه الجملة : « فإنْ شئت جعلته حينًا قد مضى ، وإن شئت جعلته حينا مستقبلا »[(٢)] .

ويقصد أَنَّهُ يجوز : «أَنْ يكون الزمان الذي فضل فيه ماضيا وأنْ يكون مستقبلا »[(٣)] .

إن سيبويه يربط بين هذه الجملة التي تحتوي على أسلوب تفضيل وبين الزمن الماضي أو المستقبل . والجملة لا تعطي زمان التفضيل الذي أشار إليه سيبويه بنفسها ؛ فلا بد إذن من قرينة سياق الحال التي تمكننا من تحديد زمن التفضيل . هذه القرينة يوضحها السيرافي قائلا : « فإذا قلت : هذا بسرا أطيب منه تمرا ، وكانت الإشارة إليه في حال ما هو تمر أو رطب فالتفضيل لما مضى »[(٤)] أي أَنَّ المُتَكَلِّم إذا قال الجملة والتمر قد أصبح تمرا ناضجا ؛ فالتفضيل لا شك أَنَّهُ لما مضى ، وإذا كانت الإشارة للتمر في بداية نموه فَإِنَّ الزمن لا شك في المستقبل . ولا نجد مثالا كهذا وضوحا في أهمِيَّة السِّياق في التحليل الزمني للجملة .

ونلاحظ أَنَّ سيبويه يوجُّه إعراب «بسرا وتمرا » على الحال ، فهما حالان من المشار إليه في زمنين . ويعلل ابن القيم في بدائع الفوائد اختيار سيبويه للنصب على الحال بقوله : « ؛ لأَنَّ المعنى عليه فَإِنَّ المخبر إِنَّمَا يفضِّله على نفسه باعتبار حالين من أحواله [و] لولا ذلك لما صحَّ تفضيل الشيء على نفسه ؛ فالتفضيل إِنَّمَا صح باعتبار الحالين فيه»[(٥)] . فابن القيم يعتبر «هيئة التمر » في التفضيل وأنَّ الجملة برمتها تعتمد على الهيئة ؛ وهيئة التمر أمر لا يخص اللُّغَة لا من بعيد أو من قريب .

ويشير سيبويه إلى فرق دلالي دقيق بين قول من يقول «ما أبغضني له» وبين « ما أبغضه إلي » ، فيقول : «ما أبغضني له ، وما أمقتني له ، وما أشهاني لذلك . إِنَّمَا تريد أَنَّكَ ماقتٌ ، وأَنَّك

---

(١) شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول ، دار الفكر ، ٢٠٠٤م ، ص ١٤٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٠٠/١

(٣) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٨٩/٢

(٤) السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، ٢٨٩/٢

(٥) بدائع الفوائد : ١١٩/٢

مبغضٌ ، وأنك مشتهٍ . فإنْ عنيت قلت : ما أفعله ، إنَّمَا تعني به هذا المعنى . وتقول : ما أمقته وما أبغضه إلي ، إنَّمَا تريد أَنَّهُ مقيتٌ ، وأنَّه مبغضٌ إليك » [(١)] .

والفرق الدِّلَالِيّ الذي يريد سيبويه أَنْ يثبته في صيغة اسم التفضيل هذه ، هو أَنَّ « كلّ ما كان بـ (اللاّم) فهو للفاعل ، وما كان بـ (إلى) فهو للمفعول ؛ فإذا قلتَ : ما أبغضني له ، فأنت المُبْغِضُ الكارهُ ، وإذا قلتَ : ما أبغضني إليه ، فأنت المَبْغُوضُ المَكْرُوه » [(٢)] . ولا شكَّ أَنَّ اختيار التركيب المناسب يتوقف على ما يدور في نفس المتكلم وسياقه .

***

٤ـ أسلوب النداء :

أسلوب النداء من الأساليب التي تتصل بسياق الحال ، وهو من ألصق الأساليب به . وهو أسلوب لا بدَّ أَنْ يكون بين طرفين : «مُنَادَى» ، «مُنادِي» .

وأُوْلَى الملحوظات المُهِمَّة التي يسجلها سيبويه عن النداء ، أَنَّهُ الأسلوب الذي يُبْدَأُ به الكلام أبدا . فما من كلام يبدأ إلا بالنداء . يقول في نصّ مُهِمّ وخطير :

> «**ولأَنَّ أوَّل الكلام أبدا النداء ، إلا أَنْ تدعه استغناء بإقبال المخاطَب عليك** ، فهو أول كل كلام لك به تعطف المكلَّم عليك ، فلما كثر وكان الأول في كل موضع ، حذفوا منه تخفيفا ؛ لأنهم مما يغيرون الأكثر في كلامهم » [(٣)] .

هذا النَّصّ من النصوص التي يجب أَنْ تسترعي انتباه الباحثين دراسة وفهمًا . إنَّ مما يبوح به هذا النَّصّ أَنَّ الاستخدام الأساسي للنداء هو « عطفُ المُكَلَّم للمتكلم » ؛ وهذا يعني أَنَّ أي كلام لا بد أَنْ يكون له طرفان : «مُنَادَى مخاطب» ، «مُنادِي متكلم» . والحوار الذي يدور بين متكلم ومخاطب لا بد أَنْ يسبق بسياق يجمع بين الطرفين ؛ إذ لا يعقل أَنْ يتكلم شخص مع شخص آخر بدون سبب سِياقِيّ ، لذلك قال الرَّضِيّ : «النداء ليس مقصودا بالذات ، بل هو لتنبيه المخاطب ليصغي إلى ما يجئ بعده من الكلام المنادى له » [(٤)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤/ ٩٩ ـ١٠٠

(٢) ابن الصائغ : اللمحة في شرح الملحة ، ت : إبراهيم سالم الساعدي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، ط ١ ، (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م)، ٥١٥/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٨/٢

(٤) شرح الرَّضِيّ على كافية ابن الحاجب ، القسم الأول ص ٤٨٦

وقد قررنا عند الحديث عن الجملة الاسمِيَّة أنَّ المُتَكَلِّم لا بدَّ أَنْ يبدأ بـ «الأعرف» بينه وبين المخاطب لكي ينجح الاتصال بين المُتَكَلِّم والمخاطب ولكي ينمو الكلام ويتطور . أي لا بد أَنْ تكونَ هناك «نقطة لقاء معرفية» تجمع بين الطرفين لبدء الكلام ، ولا بدَّ أَنَّ للسياق دورا في تحديد نقطة اللقاء المعرفيَّة هذه .

ومما يؤكده هذا النَّصّ أيضا أَنَّهُ لا يوجد كلام يُلْقَى في الفراغ بدون سياق وإلا كان عبثا .

ويدأب سيبويه في نصوص متعددة ومواضع مختلفة على تأكيد طِدَة العلاقة بين النداء والسِّياق ، فهو يقرِّر أَنَّ أسلوب النداء «لا يجوز إلا لحاضر»[١] ؛ أي : «لا ينادى إلا الحاضر»[٢] .

ويرصد علاقة السِّياق بأحرف النداء نفسها . فهو يحدد ابتداء أحرف النداء بأنَّها : «يا ، أيا ، هيا ، أي ، الألف» ، ويقسمها إلى قسمين : قسم يضم «يا ، أيا ، هيا ، أي» ، وحدد استعمالها في أنَّها تستعمل إذا أراد المُتَكَلِّمون «أَنْ يمدوا أصواتهم للشيء المتراخى عنهم ، والإنسان المعرض عنهم ، الذي يَرَون أَنَّهُ لا يُقبل عليهم إلا بالاجتهاد ، أو النائم المستثقَل . وقد يستعملون هذه التي للمد في موضع الألف ولا يستعملون الألف في هذه المواضع التي يمدون فيها . وقد يجوز لك أَنْ تستعمل هذه الخمسة ... إذا كان صاحبك قريبا منك ، مقبِلاً عليك ، توكيدًا . وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء ... ،وذلك أَنَّهُ جعلهم بمنزلة مَن هو مقبِلٌ عليه بحضرته يخاطبه »[٣] .

يحدد سيبويه في هذا النَّصّ استخدام أدوات النداء «يا ، أيا ، هيا ، أي » في الحالات التالية :

- الشيء المتراخي البعيد عن المنادِي .
- الإنسان المعرض عن المنادِي الذي يرى أَنَّهُ لا يقبل عليه إلا باجتهاد .
- النائم المستثَقَل .

وهذه كلها أغراض مرتبطة بسياق الحال كما هو واضح ، وخاصة الغرض الثاني ، فالمُتَكَلِّم المنادِي سيستخدم هذه الأدوات إذا علم مسبقا ومن خلال سياق فائت أَنَّ المخاطب المنادَى معرضا عنه لسبب ما ، وأنه يحتاج إلى كثير من الاجتهاد لكي يُقبل على المُتَكَلِّم ويسمع منه ؛ أي أَنَّ استخدام هذه الأدوات قد يعكس جانبا نفسِيّا مما عليه المخاطب المنادَى .

وبالطبع فَإِنَّ أداة النداء «أ» تستخدم في عكس ما سبق ؛ أي : تستخدم في : القريب من المُتَكَلِّم ، المقبل عليه ، النشيط المستيقظ .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٦/٢

(٢) الحاشية ذات الرَّقْم٦ من تحقيق أ / هارون ، ٢٣٦/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٠/٢

ويجوز كما أشار سيبويه استخدام القسم الأول مكان أداة النداء «أ » وذلك لغرض بلاغي هو «التأكيد». وقد علمنا مسبقا مدى ارتباط التوكيد بالسِّياق[١] .

ونسجل هنا ملحوظة بسيطة تشير إلى أَنَّ بعض العلماء خرجوا على تقسيم سيبويه الثنائي لأدوات النداء (قريب وبعيد) ، وقالوا بتقسيم رباعي ، فقالوا :

- أيا ، هيا : للبعيد .
- الهمزة ، للقريب .
- أي ، للمتوسط .
- يا ، للجميع [٢] .

ونعتقد أَنَّ هذه التقسيمات سواء أكانت ثنائية أم ثلاثِيَّة أم رباعِيَّة تخضع في المقام الأول والأخير لسياق الحال الذي يقال فيه الأسلوب ، فهو الفيصل الأخير في هذه المسألة .

وترتبط أداة النداء «يا »بنمط مُعَيَّن من السِّياقات ، هي السِّياقات الاستغاثية والتعجبية ، فهي لازمة لهذا النمط لا تفارقه على حد تعبير سيبويه الذي يقول : «وأما المستغاث به فيا لازمة له ؛ لأنَّهُ يجتهد . فكذلك المتعجَّب منه ، وذلك : يا لَلناس ويا لَلماء . وإِنَّمَا اجتهد لأَنَّ المستغاث عندهم متراخ أو غافل والتعجب كذلك »[٣] .

وهذا الربط لأداة النداء « يا » من أدوات النداء بـ «أسلوب الاستغاثة أو التعجب» لا بد أَنْ يكون بعد تقصي سيبويه للنصوص في السِّياقات الحَيَّة المنطوقة .

ويظهر سؤال منطقي هنا هو : لماذا تختص « يا » من بين أدوات النداء بـ «أسلوب الاستغاثة أو التعجب» ؟

قد يكون السبب في هذا أَنَّ الأداة «يا » هي الأنسب «صوتيا» للاستغاثة أو التعجب ؛ حيث تنتهي هذه الأداة بألف المد التي تسمح بإطلاق الدفقة الصَّوْتِيَّة العفوية التلقائية غير الإرادية التي لا تحتاج إلى مراجعة ذهنية الناتجة عن التعجب أو الاستغاثة دفعة واحدة وبمقطع واحد طويل مفتوح (صامت + حركة طويلة) ، وهو ما لا تسمح به الأداة «أَيْ» التي لا تنتهي بحرف مد يسمح بـ «تنفيس» دفقة التعجب أو الاستغاثة ، ولا الأداة «أَ» التي لا تسمح باكتمال هذه الدفقة الاستغاثية

---

(١) وقال ابن مالك في شرح التسهيل ٣٨٦/٣ «وكون الهمزة للقريب ، وما سواها للبعيد هو الصحيح ؛ لأنَّ سيبويه أخبر بذلك رواية عن العرب».

(٢) نقل هذا التقسيم الشيخ خالد الأزهر في «التصريح بمضمون التوضيح »عن ابن بَرْهَان . ينظر الكتاب بتحقيق د. عبد الفتاح بحيري إبراهيم ، ط١ ، (١٩٩٧م)، ٨/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٣١/٢

التعجبية ، ولا الأداتان « أيا ، هيا » التي ستجعل المُتَكَلِّم ينطق بمقطعين : مقطع قصير مفتوح « أَ ، هَ » (صامت + حركة قصيرة) + مقطع طويل مفتوح « يا » (صامت + حركة طويلة) . وهذا الانتقال المقطعي يعوق الدفقة الصَّوْتِيَّة التلقائية العفوية اللاإرادية المعبِّرة عن التعجب أو الاستغاثة .

هذا بالإضافة إلى ما يقرره علماء اللغة المحدثون من أن « الأصوات الصامتة أقل وضوحا في السمع من أصوات المد واللين ، وأن أبرز خاصية من خواص أصوات المد (الحركات الخالصة) هي قوة الوضوح السمعي ... ولعله لذلك نجد أن المدود ـ بجميع أنواعها ـ لها مكانة خاصة في تجويد تلاوة القرآن ، وأنها هي التي تعطي الفرصة للقارئ الذي يريد أن يظهر تفوقه أو قوة صوته بسبب تمكنه من إطلاق النفس مع هذه الأصوات في حرية تامة . ثم إن ألف المد ـ بوجه خاص ـ هي أقوى هذه الأصوات وضوحًا ؛ لأن ظاهرة حرية مرور الهواء وانطلاقه أثناء النطق بها تكون أوضح ما تكون »[١] . والنفس « أثناء النطق بالفتحة الطويلة (طا ـ ها ـ حا ...) يبلغ أقصى درجات انطلاقه وحريته ؛ مما يعطي الصوت قوة ويسلمه إلى الحرف التالي قويا كذلك »[٢] .

وإذا استأنسنا باللُّغَة العامية في هذا نجد أَنَّ هذه الأداة «يا» هي الأداة الطبيعِيَّة التلقائية التي تعبِّر عن الاستغاثة أو التعجب .

ونكمل حديثنا عن النداء فنقول : يتطرق سيبويه في بعض المواضع إلى الأغراض السِّياقِيَّة التي يمكن أَنْ يقوم بها أسلوب النداء ، فيشير إلى أَنَّهُ قد يأتي :

١ـ لتنبيه المنادَى ولفت انتباهه لأمر أو نهي أو إخبار المنادِي :

يقول : «وأما «يا» فتنبيه . ألا تراها في النداء وفي الأمر كَأَنَّك تنبِّه المأمور »[٣] . ويقول : «ولا تدخل «يا» ها هنا (أي : أسلوب الاختصاص) ؛ لأَنَّكَ لست تنبه غيرك »[٤] .

ويشير إلي أَنَّ من وظيفة النداء إيصال أمر أو نهي أو إخبار المُتَكَلِّم المنادِي إلى المنادى . يقول : «...كما المنادَى مختص من بين أمته لأمرك ونهيك أو خبرك»[٥] .

---

(١) د. السيد عبد المقصود جعفر : الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن ، دار الطباعة والنشر الإسلامي ، ط١ (١٩٩٢م) ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩

(٢) السابق : ص ١٥٧

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤/٢٢٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٣٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٣١ ـ ٢٣٢

ومن الطريف واللافت للنظر أَنَّ سيبويه لم يسم أدوات النداء بأدوات النداء ، بل سماها بـ « هذا باب الحروف التي يُنَبَّه بها المدعوّ »[1] . وكونه يجعل التنبيه في العنوان المحدِّدَ لهذه الحروف ، فَإِنَّ هذا يشير إلى أهمِيَّة هذه الحروف في هذا الغرض ، وأنَّ جُلَّ استعمالها له .

٢ـ التوكيد : وقد يأتي أسلوب النداء للتوكيد . يقول : « كما تقول للذي هو مقبلٌ [عليك] بوجهه مستمعٌ منصِتٌ لك : كذا كان الأمر يا أبا فلان ، توكيدًا »[2] .

وعند مناقشته لعدم كون الكاف من الأسماء (الضمائر) مع لفظة « رويد » أشار في معرض الحديث عن غرض التوكيد للنداء . يقول : « وممّا يدلّك على أَنَّهُ ليس باسمٍ قولُ العرب : أَرَأَيْتَكَ فلانًا ما حالُه ، فالتاءُ علامة المضمر المخاطَب المرفوع ، ولو لم تُلحِق الكافَ كنتَ مستغنيًا كاستغنائك حين كان المخاطَبُ مقبِلاً عليك عن قولك : يا زيدُ ، ولحَاقُ الكاف كقولك : يا زيدُ ، لمَنْ لو لم تَقُلْ له يا زيدُ استغنيتَ . فإنَّما جاءت الكاف في أَرأيتَ والندَّاءُ في هذا الموضع توكيدًا »[3] .

نفهم من هذا الكلام أَنَّهُ إذا أتى أسلوب النداء وكان المخاطب مقبلا على المُتَكَلِّم ؛ فَإِنَّ الوظيفة التي يقوم بها النداء في هذه الحالة هي تأكيد الكلام . إذن من المعاني التي يؤديها أسلوب النداء التوكيد بشرط قرينة سياق الحال ، وأنَّ من علامة أسلوب النداء الذي يأتي للتوكيد صحة الاستغناء عنه من الكلام . كما نفهم من النَّصّ أَنَّهُ لا داعي لاستعمال أسلوب النداء إذا كان المخاطب مقبلا على المُتَكَلِّم .

٣ـ التعجب والاستغاثة :

أيضا من الوظائف والأغراض التي يمكن أَنْ يؤدِّيها أسلوب النداء التي يمكن أَنْ تُضَمَّ إليه «التعجب والاستغاثة» . يقول : « وقالوا : يا لَلعجب ، ويا لَلفليقة ؛ كَأَنَّهم رأوا أمرا عجبا ... ، وقالوا : يا لَلعجب ويا لَلماء ، لما رأوا عجبا أو رأوا ماء كثيرا ، كَأَنَّه يقول : تعالَ يا عجبُ »[4] .

ومن اللافت للنظر أَنَّ التركيب : «يا + اللام المفتوحة + اسم محلى بأل » يصح في سياق ولا يصح في سياق آخر ، فهو يصح في سياق التعجب ولا يصح في غير هذا . يقول : «كل هذا في معنى التعجب والاستغاثة ، وإلا لم يجز . ألا ترى أَنَّكَ لو قلت يا لَزيد وأنت تحدثه لم يجز »[5] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٩/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٢/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٥/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢١٧/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢١٨/٢ ويشير في موضع ثان إلى أن المنادَى الذي يأتي مع بدله مثل «تيمُ تيم عدي» لا يجوز استعمال مثل هذا الكلام إلا في أسلوب نداء ، يقول : « وإن شئت قلت : لا غلامين ولا جاريتين لك ، إذا جعلت لك خبرا لهما، ... ، وكذلك إذا قلت : لا غلامين لك وجعلت لك خبرا ، لأَنَّهُ لا يكون إضافة وهو خبرٌ لأنَّ

وإشارة سيبويه «وأنت تحدثه» مثيرة للاهتمام ، ويفهم منها أَنَّ التركيب « يا + اللام المفتوحة + اسم محلى بأل » لكي يكون للتعجب والاستغاثة لا يجوز إذا كان المتعجب منه أو المستغاث به شخصا موجودا أمام من يقوم بالتعجب والاستغاثة . فكَأَنَّ سيبويه يضع شرطا سياقيا إضافيا ضمنيا لهذا التركيب وهو : أَنَّ هذا الأسلوب أو التركيب لا يصح ، إذا كان المستغاث أو المتعجب منه موجودا أمام من يستغيث .

وفي هذا النَّصّ دليل على أهمِيَّة السِّياق في تحديد صحة التركيب النَّحْوِيّ وعدم صحته .

تلك كانت أهم الأغراض الدِّلالِيَّة السِّياقِيَّة التي يمكن أَنْ يؤديها أسلوب النداء .

ومن الأمور المتصلة بالنداء وسياق الحال ـ « النكرة » التي تأتي في أسلوب النداء كمنادَى . فهذه الكلمة النكرة تتحول من التنكير إلى التعريف فتصبح معرفة بمجرد دخولها في أسلوب النداء . فالسِّياق الذي يأتي فيه النداء وتكون فيه النكرة منادَى كفيل بـ « تحديد » دائرة هذه النكرة وتضييقها ، ونقلها من العمومية إلى هذا التحديد . يقول : « وزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أَنَّ الألف واللام إِنَّمَا منعهما أَنْ يدخلا في النداء من قبل أَنَّ كل اسم في النداء مرفوع معرفة . وذلك أَنَّهُ إذا قال : يا رجل ويا فاسقُ ، فمعناه كمعنى يا أيُّها الفاسقُ ، ويا أيها الرجل ، وصار معرفة لأَنَّكَ أشرت إليه وقصدت قصدَه ، واكتفيت بهذا عن الألف واللام ، وصار كالأسماء التي هي للإشارة نحو لهذا وما أشبه ذلك وصار معرفة بغير ألف ولام لأَنَّكَ إِنَّمَا قصدت قصدَ شيء بعينه »[(١)] .

من خلال هذا الكلام وما سبقه نستطيع أَنْ نقول إِنَّ تحديد كون الكلمة نكرة أو معرفة ـ بوجه عام ـ يتوقَّف على السِّياق ؛ فالسِّياق هو الذي « يُنكِّر » وهو الذي «يُعَرِّف» .

ويتصل سياق الحال بالنداء من جهة أخرى ، وهي جهة حذف الفعل العامل في المنادى ، هذا الفعل الذي حُذِف «لكثرة استعمالهم هذا في الكلام ، وصار « يا » بدلا من اللفظ بالفعل ؛ كَأَنَّه قال : يا ، أريد عبد الله ، فحذف أريد ، وصارت «يا» بدلا منها ؛ لأَنَّكَ إذا قلت : يا فلانُ ؛ علم أَنَّكَ تريده»[(٢)] ؛ أي أَنَّ الحذف دلَّ عليه دليل من السِّياق الحالي الذي يقال فيه الجملة . وقد أشرنا عند الحديث عن الحذف أَنَّهُ لكثرة الاستعمال مرتبط بالسِّياق بوجه من الوجوه .

ويلعب السِّياق أيضا دورا في تحديد طبيعة المنادى هل هو ـ كما قال النُّحَاة اللاحقون ـ «نكرة مقصودة» أم «نكرة غير مقصودة» . ففي قول الشاعر :

المضاف يحتاج إلى الخبر مضمَرًا أو مظهَرًا . ألا ترى أنه لو جاز تيمُ تَيمُ عدى في غير النداء لم يستقم لك إلا أن تقول ذاهبون » . ٢٨٢/٢

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٩٧/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٩١/١

أَدارًا بِحُزوى هِجتِ لِلعَينِ عَبرَةً   فَماءُ الهَوى يَرفَضُّ أَو يَتَرَقرَقُ
[بحر الطويل]

يبرِّرُ سيبويه النصب في المنادَى النكرة «دارا» ؛ لأَنَّها «طالت بما بعدها من الصفة ، وهي الجار والمجرور» [(١)] . ونصب المنادى النكرة هنا يدل على أَنَّهُ «نكرة غير مقصودة».

وفي بيت مشابه للبيت السابق هو :

يا دارُ أَقوَت بَعدَ أَصرامِها   عامًا وَما يُبكيكَ مِن عامِها
[بحر السريع]

نجد المنادَى «دار» مبني على ما يرفع به ؛ أي أَنَّهُ هنا «نكرة مقصودة» ، ولا فارق بين المنادي في البيتين ، فكلاهما نكرة ، وكلاهما متبوع بما يمكن اعتباره نعتا ؛ **ولكن يمكن لسياق الحال أَنْ يتدخل هنا ويترك التنوين في المنادي في البيت الثاني** ؛ لأَنَّ الشاعر «لم يجعل «أقوَتْ» من صفة الدار **ولَكِنَّه قال : يا دارُ ، ثُمَّ أقبل بعدُ يحدث عن شأنها ، فكَأَنَّه لما قال : يا دارُ ، أقبل على إنسان فقال : أقوتْ وتغيّرتْ ، وكَأَنَّه لما ناداها قال : إنها أقوتْ يا فلان»** [(٢)] .

لقد تخيل هنا سيبويه مسرحا لغويا : شاعرا ينادي الدار الماثلة أمامه ؛ فلما لم يُجِبْهُ إلا السكوت ، أقبل على صديق له يَبُثُّهُ شكواه ويَخُصُّهُ بنجواه .

وتوجيه سيبويه هنا يؤكِّدُ فكرةً سبق أَنْ أشرنا إليها وهي فكرة «التكييف السِّياقي» ، فإِنَّنَا نستطيع أَنْ نُخَرِّجَ إعرابا ما إذا نجحنا في تخيل سياق ما يستوعب هذا التوجيه .

ومما هو قريب من النداء ويتصل بسياق الحال ما يسميه العلماء بـ «الندبة» . ويعرِّفُها العلماء بـ «إعلان المتفجع باسم من فَقده لمَوْت أَو غيبَة» [(٣)] ، أو هي : «نداء المتفجع عليه لفقده حقيقة أو حكما ، أو المتوجع منه لكونه محل ألم ، أو سببا له ؛ مثل : واعمراه ، وارأساه» [(٤)] .

ويشير بعض العلماء إلى ارتباط الندبة أكثر بالنساء ، يقول ابن جني : «اعْلَم أَن الندبة إِنَّمَا وَقعت فِي الْكَلَام تفجعًا على الْمَنْدُوب وإعلامًا من النادب أَنَّهُ قد وَقع فِي أَمر عَظِيم وخطب جسيم وَأَكْثر من يتَكَلَّم بهَا النِّسَاء» [(٥)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٩٩/٢ ، الحاشية ذات الرَّقْم٢ من كلام المحقق .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٠١/٢

(٣) السيوطي : همع الهوامع ، ت:عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)، ٢/ ٦٥

(٤) د. محمد عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف ، ٢٧٧ ـ ٢٧٨

(٥) اللمع في العَرَبِيَّة ، ت : فائز فارس ، دار الكتب الثقافيَّة ، الكويت ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ص ١٢٠ ، وتابع ابن جني في هذا أبو البركات الأنباري في أسرار العَرَبِيَّة ، فقال : « إنَّ قال قائل : ما النُّدبة ؟ قيل : تفجُّع يلحق النَّادبَ عند فقد المندوب ، وأكثر ما يلحق ذلك النساء لضعفهن عن تحمل المصائب » . ص ١٨٣ ، وربط ابن جني

ويظهر من كلام العلماء السابق ، وكلام سيبويه اللاحق عن هذا الأسلوب أَنَّهُ واقع لا محالة تحت سيطرة سياق الحال ، ودليل هذه السيطرة أَنَّنا لا نندب باسم «مبهم» ، مثل : رجل أو هذا ؛ ففي الندبة يجب أَنْ «يُخَص»الاسم المندوب ؛ لأَنَّها بيان ؛ ولأَنَّ التبيين في الندبة عذر للتفجع ، فالندبة تقتضي موقفا فيه تفجُّع وألم من شيء مُحَدَّد وقع للنادب . يقول سيبويه «وذلك قولك : وارَجُلاه ويا رُجلاه . وزعم الخليل رحمه الله ويُونُس أَنَّهُ قبيح ، وأنَّه لا يقال . وقال الخليل رحمه الله : إِنَّمَا قبح لأَنَّكَ أبهمت . ألا ترى أَنَّكَ لو قلت واهذاه ، كان قبيحا ، لأَنَّكَ إذا ندبت فَإِنَّما ينبغي لك أَنْ تفجع بأعرف الأسماء ، وأنْ تخص ولا تُبهم ؛ لأَنَّ الندبة على البيان ... ، وإِنَّمَا كرهوا ذلك أَنَّهُ تفاحَش عندهم أَنْ يختلطوا وان يتفجعوا على غير معروف . فكذلك تفاحش عندهم في المبهَم لإبهامه ؛ لأَنَّكَ إذا ندبت تُخبر أَنَّكَ قد وقعت في عظيم ، وأصابك جسيمٌ من الأمر ، فلا ينبغي لك أَنْ تُبهم»[1] .

وقال أيضا : «وزعم أَنَّهُ لا يستقبح وامَن حفر بئر زَمزماه ؛ لأَنَّ هذا معروف بعينه ، وكَأَنَّ التبيين في الندبة عذر للتفجع . فعلى هذا جرت الندبة في كلام العرب ، ولو قلت هذا لقلت وامن لا يعنيني أمرُهوه . فإذا كان ذا تُرك لأَنَّهُ لا يُعذر على أَنْ يُتفجّع عليه ، فهو لا يُعذر بأن يتفجع ويُبهم ، كما لا يُعذر على أَنْ يتفجع على من لا يعنيه أمره »[2] .

إن تأكيد سيبويه على تحديد المندوب أمر في منتهي المنطقية ؛ إذ كيف يندب النادب مندوبا لم يكن بينه وبين هذا المندوب أَيَّة علاقة بل ليست أَيَّة علاقة ، إنَّها علاقة في غاية الحميمية والارتباط ، تجعل القلب ينتفض ، والعين تدمع لفراق من أحبَّهم .

وإن شرط عدم الإبهام أيضا فيه مراعاة لجانب المخاطب ؛ إذ إِنَّ إبهام المندوب سيوقع المخاطب في لبس ، وستتأخر مشاركته الوجدانية التي يحتاجها النادب .

والأنباري هذا الأسلوب في غالب استعمالاته بالنساء يدل على أن علماءنا القدامي ـ وليس سيبويه فقط ـ كانوا يتتبعون التراكيب النَّحْوِيَّة في سياقاتها المختلفة ، ويحددون الدلالات السِّياقيَّة العامة المرتبطة بهذا التركيب ، وليس هذا فقط بل أنهم يحددون أي الجنسين من النساء والرجال يختص بهذا الأسلوب أو التركيب . ويشير هذا الكلام أيضا أن طبيعة المُتَكَلِّم من حيث كونه ذكرا أو أنثى قد يؤثِّر على الكلام .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٢٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٢٨

ومن الحروف التي خصصتها اللُّغَة للندبة «وا» ، وهو حرف لا يندب به «إلا المعرفة ، أو المضاف إلى معرفة ، أو الموصول المشهور بصلته الخالي من «أل»» [(١)] . وهذا يتسق مع كون الندبة لا تكون إلا معرفة مخصصة بالنسبة للنادب .

ومما يقرره النُّحَاة عن هذا الحرف أَنَّهُ لا يصح حذفه[(٢)] ؛ لأَنَّهُ أصبح كالعلم على معنى الندبة أو الاستغاثة[(٣)] ؛ أي أَنَّ هذا الحرف «وا»مرتبط في ذهن متكلم اللُّغَة بهذا المعنى ، معنى الاستغاثة والندبة ، فبمجرد ذكره يستصحب ويُستحضَر هذا المعنى . ونلاحظ مدى المناسبة الصَّوْتِيَّة بين هذه الأداة التي تنتهي بألف المد وبين حالة الندب أو الاستغاثة .

وللمندوب استعمالات ثلاثة : «أَنْ يعامل معاملة المنادى ... ، أَنْ تزاد ألف على آخر المندوب تسمى ألف الندبة ... ، أَنْ تزاد هاء السكت بعد ألف الندبة عند الوقف ، نحو : واخالداه ، واصلاح الدنياه ، وامن فتح الأندلساه» [(٤)] . وقد تزاد أيضا بعد الاسم المندوب بالإضافة للألف الواوُ والياء ، مثل : «وواغلامَهُوه ، ووا ذهاب غلامهيه» [(٥)] .

ومن الواضح إنَّ الزيادات التي تزاد على آخر المندوب مرتبطة بإرادة المُتَكَلِّم الموجود حتما في سياق ما . وهذا ما يبرزه سيبويه في قوله : «وقد يلحقون في الوقف هذه الهاء الألف التي في النداء ؛ والألف والياء والواو في الندبة ؛ لأَنَّهُ موضع تصويت وتبيين ، فأرادوا أَنْ يمدوا فألزموها الهاء في الوقف لذلك ، وتركوها في الوصل ؛ لأَنَّهُ يستغنى عنها كما يستغنى عنها في المتَحَرُّك في الوصل لأَنَّهُ يجيء ما يقوم مقامها . وذلك قولك : يا غلامان ، ووازيداه ، وواغلامهوه ، ووإذهاب غلامهيه» [(٦)] .

إن زيادة الواو والياء مع الاسم المندوب مرتبطة برغبة المُتَكَلِّم في «التصويت والتبيين» ؛ فقام لذلك بـ «مد الصوت» . ولا شك أَنَّ النادب لا يريد أَنْ يصوت أو يبين إلا للتنفيس عن حالته النفسِيَّة الواقعة تحت ألم الموقف أو الحال .

* * *

---

(١) د. علي توفيق الحمد : معجم أدوات النحو العربي ، ص ٣٦١ ، ويشير المؤلف أن الحرف « وا » قد يفيد الاستغاثة والندبة في آن واحد ، يعرف ذلك من السِّياق والقرائن ، كما تقول المرأة العَرَبِيَّة : وامعتصماه .

(٢) السابق ، ص ٣٦١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٠/٢

(٤) د. علي توفيق الحمد : معجم أدوات النحو العربي ، ص ٣٦١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ١٦٦/٤

(٦) سيبويه : الكتاب ، ١٦٥/٤ ـ ١٦٦

٥- أسلوب التحذير والإغراء والاختصاص :

من الأساليب التي لا يمكن تحديديها إلا في ضوء سياق الحال أسلوب التحذير والإغراء . فالأسلوبان يعتمدان على السِّياق ويتصلان به ، فأسلوب التحذير عند النُّحَاة هو : «تنبيه المخاطب على أمر مكروه ؛ ليجتنبه»[(١)] . وهذا التعريف يقتضي عدة أطراف : «أولها : المحذِّر ، وهو المُتَكَلِّم الذي يوجه التنبيه لغيره . ثانيها : المحذَّر ، وهو الذي يتَّجه إليه التنبيه . ثالثها : المحذور ، أو المحذَّر منه ، وهو : الأمر المكروه الذي يصدر بسببه التنبيه»[(٢)] . ولا بد من مسرح لحدث لغوي يجمع هذه الأطراف الثلاثة . يقول سيبويه : «وأَمَّا النَّهْى فإِنَّهُ التحذيرُ ، كقولك : الأَسَدَ الأَسَدَ ، والجِدارَ الجِدارَ والصبىَّ الصبىَّ»[(٣)] .

وحصر سيبويه النهي في التحذير يتضمن إشارة للسياق ، فالنهي لا بدَّ له من ناهٍ (المحذِّر) ، ومنهي (المحذَّر) ، ومنهي عنه (المحذور) . ومسرح يشمل هذه الأطراف . وسيبويه وإن لم يشر إلى السِّياق إلا أَنَّهُ يفهم ضمنا من قوله «وأَمَّا النَّهْى فإِنَّهُ التحذير».

ومن الأمثلة اللافتة للنظر التي يذكرها سيبويه لهذا الأسلوب قوله : «إِيّاىَ والشَّر ... كأَنَّه قال : إِيّاىَ لأَتَّقِيَنَّ والشَّر . فإِيَّاكَ مُتَّقىً والأسدُ والشرُ مُتَّقَيانِ ، فكلاهما مفعول ومفعول منه»[(٤)] . إِنَّنَا نعلم من منهج سيبويه أَنَّ الأمثلة التي يُقَدِّمها إِنَّمَا تمثل تراكيب شائعة في الكلام ، وقام بتتَبُّعها في سياقات مختلفة ، أي أَنَّ الجملة التي يستشهد بها تمثل نمطا موجودا في الكلام . وقد يفهم المرء أَنَّ شخصا يحذر شخصا آخر في موقف وسياق ما ، ولكن تحذير المرء نفسه أمر غريب ، فلا يحذر الإنسان نفسه إلا :

- في حالة وجود صراع داخلي بين المخاطب و نفسه ، وهذا يتطلب لا محالة خلفية اجتماعِيَّة أو ثقافيَّة لهذا الصراع ؛
- أو أَنَّ القائل يبدأ بنفسه ليقتدي به الآخرون ويكون التحذير أقوى وأبلغ . وهذا ما يفسر استخدام الضمير «إياي»في التحذير . وقد يكون قريبا من هذا المعنى قول د . فاضل السامرائي إذ يقول في هذه المسألة : «... إمَّا أنْ يكون المقصود به المخاطب ، مع وروده بأسلوب تحذير النفس ، وهو نحو قول عمر ـ رضي الله عنه ـ : «وإِيّاي وأن يحذف أحدكم الأرنب» : وهو إنْ كان أخرجه

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ١٢٦/٤

(٢) السابق : ١٢٦/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٥٣/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٣/١ ـ ٢٧٤

مخرج التحذير للنفس ، فإنَّ المقصود به المخاطب ، وهو نظير قولك : « لا أرينَّك هنا بعد اليوم » فهو وإن كان بأسلوب النهي للمتكلم إلا أنَّ المقصود المخاطب » [١] .

ومما يتصل بأسلوب التحذير ويرتبط بالسياق بوجه ما ـ ما أشار إليه سيبويه من تقدير الفعل الذي يأتي مع الضمير «إيّاك» . يقول سيبويه :

- « هذا باب ما جرى منه على الأمر والتحذير وذلك قولك إذا كنتَ تحذِّر : إيَّاكَ . كإنَّك قلت : إيَّاكَ نَحِّ ، وإيّاك باعِدْ ، وإيّاك اتّقِ ، وما أشبه ذا » [٢] .
- «وكذلك أنْ تَفْعَلَ ، إذا أردتَ إيّاك والفعلَ . فإذا قلت : إيّاك أن تفعلَ ، تريد إيَّاكَ أَعِظُ مَخافة أنْ تفعل أو من أجل أن تفعل جاز » [٣] .

فسيبويه لم يقدِّر فعلا محددًا مع الضمير «إيّاك » في أسلوب التحذير ، بل قدَّر معه : «نَحِّ ، باعِد ، اتَّقِ ، أَعِظُ ... » ، فـ «كل ما يؤدي المعنى صحَّ تقديره» [٤] ؛ ولا شك أن تقدير الفعل المناسب يتوقف على الحال والمقام .

ويشير سيبويه إلى تأثير السِّياق على هذا الأسلوب عند حديثه عن سبب حذف الفعل العامل فيه ؛ فيقول : «مثل ذلك : أَهْلَكَ والليلَ ، كأنَّه قال : بادِرْ أهلَك قبل الليل ، وإنَّما المعنى أَنْ يحذَّره أَنْ يُدرِكه الليلُ . والليلُ محذَّرٌ منه ، كما كان الأسدُ محتفَظا منه . ومن ذلك قولهم : ماز رأسَك والسيفَ كما تقول : رأسَك والحائطَ وهو يحذّره ، كأنّه قال : اتقِ رأسَك والحائطَ . وإنّما حذفوا الفعلَ في هذه الأشياءِ حين ثَنَّوْا لكثرتها في كلامهم ، **واستغناءً بما يرون من الحال ، ولما جرى من الذكر** » [٥] .

أي أَنَّ الحال والمقام الذي يرد فيه الأسلوب هما ما يبرران حذف هذا الفعل العامل .

ويفسر بعض النحاة حذف الفعل العامل في أسلوب التحذير تفسيرًا سياقيا ذكيا ، فيذكر أنَّ السبب الذي يمنع المتكلم من ذكر العامل هو « **ضيق الوقت** » ؛ فالمتكلم قد يستغرق وقتا في النطق بالعامل ، وقد يترتب على هذا عدم إمكانية التحذير ، قال الرَّضِيّ : « وحكمةُ اختصاص وجوب الحذف بالمحذر منه المكرَّر كونُ تكريره دالا على مقاربة المحذَّر منه للمحذَّر ، بحيث يضيق الوقت إلا عن ذكر المحذَّر منه على أبلغ ما يمكن ، وذلك بتكريره ، ولا يتسعُ لذكر العامل مع هذا

---

(١) معاني النحو : ١٠٤/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٣/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٩/١

(٤) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ١٠٧/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٥/١

المكرر » [١] . وقال : «وإنَّما وجب الحذف في الأول والثاني لأنَّ القصد ـ كما قلنا في النداء ـ أن يفرُغَ المتكلمُ سريعًا من لفظ التحذير ؛ حتى يأخذ المخاطبُ حِذْرَه من ذلك المحذوف ؛ وذلك لأنَّه لا يَستَعمِل هذه الألفاظَ إلا إذا شارفَ المكروه أن يرهَقَ » [٢] . ويؤكد الإمام السيوطي نفس هذا المعنى فيقول : «ومنها التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء » [٣] .

وبقي أنْ نشير أن التركيب :

«فعل محذوف (يُقدَّر حسب المقام) + مفعول به + و (عاطفة أو للمعية)+ مفعول به لفعل محذوف» الذي تمثله في نص سيبويه السابق الجمل : « أهلَك والليلَ ، رأسك والحائط ، رأسك والسيف » ـ لا يكون دوما دالا على التحذير ، بل إنَّه قد يأتي في سياق آخر على عكس ذلك ، يقول سيبويه : «ومن ذلك : رأسَه والحائطَ ، كأنَّه قال : خَلِّ أو دَعْ رأسَه والحائط ، فالرأسُ مفعولٌ والحائط مفعول معه ، فانتصبا جميعًا . ومن ذلك قولهم : شأنَكَ والحجَّ ، كأنَّه قال : عليك شأنَك مع الحجّ . ومن ذلك : امْرَأً ونفسَه ، كأنَّه قال : دَعَ امرأً مع نفسه» [٤] .

فالجمل التي وردت في هذا النص : «رأسَه والحائطَ ، شأنَكَ والحجَّ ، امرأً ونفسَه » والمُوافِقة للتركيب السابق ليست من التحذير في شيء ، بل هي بعيدة كل البعد عن التحذير ، وهذا يشي بأهمية المقام في تحديد دلالة هذا التركيب ، كما يشي بما أثبتناه عن منهج سيبويه ، وكيف أنَّه يقوم بتتبع التركيب المعيَّن في السياقات المختلفة .

أما أسلوب الاختصاص ففيه يختص الاسم ؛ «ليُعْرف بما حمل على الكلام الأوَّل » [٥] . ويتجلى تأثير السِّياق على أسلوب الاختصاص في أَنَّه إذا وجد السِّياق الدال على الافتخار والتعظيم أو السِّياق الذي يرغب فيه المُتَكَلِّم في التأكيد ؛ فإن هذا يستدعي هذا الأسلوب ويكون سببا في وجوده

---

(١) شرح الرَّضِيّ لكافية ابن الحاجب : القسم الأول ص ٥٧٢

(٢) السابق ، ص ٥٧٣

(٣) الإتقان في علوم القرآن : ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٩٧٠م)، ١٩٠/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٧٤/١

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٤/٢

يقول سيبويه عن هذا الأسلوب : « وفيه معنى الافتخار » [١] ، ويقول : « وإذا صغّرتَ الأمر فهو بمنزلة تعظيم الأمر في هذا الباب ، وذلك قولك : إنَّا معشرَ الصعاليك لا قوةَ بنا على المُروّة » [٢] .

ولطبيعة السِّياق الذي يأتي فيه الاختصاص فإنَّهُ « لا يجوز لك أَنْ تُبهم في هذا الباب ؛ فتقول : إني هذا أفعلُ كذا وكذا ، ولكن تقول : إني زيدا أفعلُ . ولا يجوز أَنْ تذكر إلا اسما معروفا ؛ لأَنَّ الأسماء إنَّمَا تذكرها توكيدًا وتوضيحا هنا للمضمَر وتذكيرا ، وإذا أبهمتَ فقد جئت بما هو أشكلُ من المضمَر ... ، ولكن هذا موضعُ بيان كما كانت الندبةُ موضعَ بيان ، فقبُح إذ ذكروا الأمر توكيدًا لما يعظمون أمرَه أَنْ يذكروا مبهما » [٣] .

إن الإبهام مع الاسم المختص لا يجوز بأيِّ شكل من الأشكال ؛ إذ كيف سيخُصُّ من يقوم بالاختصاص اسما غير معروف ، وكيف يكون محل « افتخار أو تعظيم » ما هو في عداد النكرة غير المعروفة ، وبمن سيناط الفخر والتعظيم إذا كان المختص نكرة أو غير معروف . إنَّ هذا لايجوِّزُه عقل ولا منطق ولا سياق ؛ لذلك منع النحاة في أسلوب الاختصاص أن يكون الاسم المختص اسم إشارة أو اسم موصول ؛ لأنَّها « كنايات أيضا وليست تصريحًا ، وإذا جئت بها فقد جئت بما هو أشكل » [٤] .

وقد أشار سيبويه إلى معنى دلاليٍّ دقيق مع أسلوب الاختصاص هو « أنَّهم لا يريدون أن يَحملوا الكلامَ على أوَّله ، ولكنَّ ما بعده محمولٌ على أوله . وذلك نحو قوله ، وهو عمرو بن الأهتَم :

إنَّا بنى مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُو حَسَبٍ ... فينا سَرَاةُ بنى سَعْدٍ ونادِيَها **[بحر البسيط]** » [٥] .

فقد أوضح سيبويه أن العرب في الاختصاص لا يريدون أن يحملوا الكلام على أوله ، ولكن على أنَّ ما بعده محمول على أوله ، «وذلك نحو قول [الشاعر] : «إنَّا بنى مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُو حَسَبٍ » ؛ فإنَّه لم يرد أنْ يخبر بأنَّهم بنو مِنْقَر ، وإنما أراد أنْ يخبر بأنهم قوم ذوو حسب ، وأوضح المقصود بالضمير فقال : «إنَّا بنى مِنْقَرٍ » ؛ أي : أعني بني منقر ، ولو رفع فقال : « إنَّا بنو منقر » لكان المعنى أنَّه أراد أن يخبر عن نفسه وجماعته بأنَّهم بنو منقر » [٦] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٣٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٣٥

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٣٦

(٤) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢/١١٧

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢/ ٢٣٣

(٦) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢/ ١١٨

٦- أسلوب الاستثناء :

الاستثناء يراد به : «الإخراج بإلا أو إحدى أخواتها لما كان داخلًا أو منزلًا منزلة الداخل ... وما كان داخلًا يشمل الداخل حقيقة والداخل تقديرًا وهو المفرغ »[١] .

ونقل سيبويه عن الخليل حد الاستثناء المنفي ؛ فقال : «الاستثناء إنَّمَا حده أَنْ تَدارَكَه بعد ما تنفى فتُبدِله»[٢] . ويأتي أسلوب الاستثناء المنفي «لما ينكره المخاطب ، كأنْ تقول : « ما ضربه إلا قاسم » إذا كان المخاطب يُنكر أن يكون الضارب قاسما »[٣] .

ولأسلوب الاستثناء المنفي وظيفة دلالية أخرى غير دفع الإنكار الذي يبدو على المخاطب وهي «دلالة التعميم » ، يقول سيبويه عند مناقشته للجملة القائلة «ما مررت بأحد إلا زيدٌ خير منه» يقول : «ما مررتُ بأحد إلا زيدٌ خيرٌ منه ، كَأَنَّك قلت : مررت بقوم زيدٌ خيرٌ منهم ، إلا أَنَّكَ أدخلت إلَّا لتجعل زيدا خيرا من جميع من مررتَ به . ولو قال : مررتُ بناس زيدٌ خيرٌ منهم ، لجاز أَنْ يكون قد مرَّ بناس آخرين هم خيرٌ من زيد ، فَإِنَّما قال : ما مررتُ بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه ليخبر أَنَّهُ لم يمر بأحدٍ يفضل زيدا »[٤] .

في هذا النَّصّ لدينا جملتان :

أ- مررت بناس زيدٌ خيرٌ منهم .

ب- ما مررت بأحد إلا زيدٌ خيرٌ منه .

الجملة الأولى تعني : أنني مررت بناس يجوز أَنْ يكون زيد خيرهم ، ويجوز أَنْ أكون قد مررت بناس آخرين هم خير من زيد . والثانية : تعني أَنَّ زيدا خير من مررت به على الإطلاق ؛ أي أَنَّ الجملة الثانية أفادت دفع الإنكار والتعميم وذلك من خلال استخدام أداة الاستثناء إلا . قال ابن يعيش : «وتقول في الصفة : «ما مررت بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه»، فقولك : «زيدٌ خيرٌ منه» جملة من مبتدأ وخبر في موضع مخفوض ، نعت لـ «أحدٍ» ، كأنك قلت : «مررت بقوم زيدٌ خيرٌ منهم» ، وأفادت «إلا» انتفاء مرورك بغير من هذه صفتهم»[٥] .

---

(١) حاشية الصبان : ٢/ ٢٠٨

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٣٣٥

(٣) د . فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢/٢٥٠

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢/٣٤٢

(٥) شرح المفصل : ت : إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، (٢٠٠١م)، ٢/٧٩

ولا شك أنَّ استخدام الاستثناء للتعبير عن التعميم أو دفع الإنكار مرتبط بإرادة المُتَكَلِّم ومقصده ، وهما بدورهما مرتبطان بالسِّياق .

- **إعراب المستثنى في أسلوب الاستثناء التام المنفيّ :**

أشار سيبويه إلى إعراب المستثنى في الأسلوب التام المنفيّ فقال :

أ- «هذا باب ما يكون المستثنى فيه بدلا مما نفى عنه ما أُدخل فيه ، وذلك قولك : ما أتاني أحدٌ إلا زيدٌ ، وما مررتُ بأحدٍ إلا زيدٍ ، وما رأيتُ أحدًا إلا زيدًا ، جعلتَ المستثنى بدلا من الأوَّل فكأنَّكَ قلت : ما مررتُ إلا بزيدٍ ، وما أتاني إلا زيدٌ ، وما لقيتُ إلا زيدا . كما أنَّكَ إذا قلتَ : مررت برجلٍ زيدٍ ، فكأنَّك قلت : مررتُ بزيدٍ . فهذا وجهُ الكلام أن تجعل المستثنى بدلا من الذي قبله ، لأنك **تُدخِله** فيما أخرجتَ منه الأول » [(١)] .

ب- « هذا باب النصب فيما يكون مستثنًى مبدَلاً ، حدَّثنا بذلك يونس وعيسى جميعًا أنَّ بعض العرب الموثوقَ بعربيته يقول : ما مررتُ بأحدٍ إلا زيدًا ، وما أتاني أحدٌ إلا زيدًا . وعلى هذا : ما رأيتُ أحدًا إلا زيدًا ، فينصبُ زيدًا على غير رأيتُ ؛ وذلك أنَّك لم تجعل الآخِر بدلاً من الأوَّل ، ولكنَّك **جعلته** منقطعًا مما عَمل في الأوَّل» [(٢)] .

في هذين النصين يتحدث سيبويه عن إعراب المستثنى في الأسلوب التام المنفي ، ويعطي إعرابين :

» الاتباع على البدلية .

» النصب على الاستثناء .

والضميران الموجودان في الفعلين «تدخله ، جعلته» في نصي سيبويه السابقين **يعودان على المتكلم ويشيران إلى حرّيته في اختيار الإعراب المناسب له ولسياقه :**

- فإذا أراد المتكلم أن «يُدْخِل المستثنى فيما أخرج منه الأوَّل» كان الاتباع على البدلية .
- وإذا أراد المتكلم أنْ « يجعل المستثنى منقطعًا ممَّا عمل في الأول » كان النصب على الاستثناء .

وقد تتجه إرادة المتكلم إلى البدليَّة إذا أراد أيضا :

١. أن يؤكد أنَّ المستثنى بعض من المستثنى منه .
٢. إلصاق المستثنى بالمستثنى منه .

وتتجه إلى النصب إذا أراد أيضا :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٣١١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/ ٣١٩

١. احتمالية أن يكون المستثنى بعضا من المستثنى منه أو لا .
٢. إرادة البعد عن المستثنى منه جنسا أو نوعًا أو غيرهما ، أو التبعيد عنه ؛ أي : تنزيله منزلة البعيد .
٣. إرادة ردّ كلام سابق ، كأنْ يقول القائل : «قام القوم إلا محمدًا » ؛ فتجيب : «ما قام إلا محمدًا » [١] .

***

٧- **أسلوب القسم** :

أسلوب القسم يشتمل على ثلاثة أشياء : «جملة مؤكِّدة ، جملة مؤكَّدة ، وهي جواب القسم ، اسم مقسم به» [٢] .

والاسم المقسم به - أو كما يسمِّيه سيبويه «المحلوف به» - : «كل اسم من أسماء الله تعالى وصفاته ؛ ونحو ذلك مما يُعظَّم» [٣] . ويتحدَّث سيبويه عن القسم وأدواته ، ويقرِّر أَنَّ أكثرها : «الواو ثُمَّ الباء ، يدخلان على كل محلوف به ، ثُمَّ التاء . ولا تدخل إلا في واحد ، وذلك قولك : والله لأفعلن وبالله لأفعلن ، و ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾» [٤] .

وأسلوب القسم من الأساليب التي ترتبط كينونتها بالسِّياق ، فالقسم حَلِف ، «**والحلف توكيد**» [٥] . والاسم المقسم به ، أو المحلوف به «**مؤكَّد به الحديث**» [٦] . وقد أشرنا مرارا فيما مضى إلى مدى ارتباط التوكيد بالسِّياق .

ويقر سيبويه أَنَّ اسم ذات الجلالة «الله» الذي يستخدم في هذا الأسلوب يلازمه معنى التعجب سواء اتصلت به التاء أو اللام . يقول : «تقول : تالله ! وفيها معنى التعجب . وبعض العرب يقول في هذا المعنى : لله ، فيجيء باللام ، ولا تجيء إلا أَنْ يكون فيها ، معنى التعجب .
قال أميَّة بن أبي عائذٍ :

---

(١) ينظر جميع هذه المعاني د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٢٥٧/٢ وما بعدها .
(٢) د . محمد عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف ، ص ٨٩
(٣) السابق ، ٨٩
(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٦/٣
(٥) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٧/٣
(٦) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٨/٣

لِله يَبْقَى على الأيام ذو حيدٍ   بمشمخرٍّ به الظَّيان والآسُ » [1] . [بحر البسيط]

ويؤكد على أَنَّ التاء لا تحذف من لفظ الجلالة «الله »إذا أردنا معنى التعجب ، و«لله »مثلها ومن العرب من يحذف التاء ؛ فيقول : «الله لأفعلنَّ ، وذلك أَنَّهُ أراد حرف الجر ، وإياه نوى ، فجاز حيث كثر في كلامهم ، وحذفوه تخفيفا وهم ينوونه» [2] .

وسيبويه لن يقر ارتباط «تالله أو لله» بمعنى التعجب بدون تتَبُّع لهذا الأسلوب أو هذا التركيب اللغويّ في السِّياقات اللُّغَوِيَّة المختلفة ، فهو لا يفتات على اللُّغَة ولا يتزيَّد عليها كما علمنا من منهجه .

ولا يُظَنُّ أَنَّ «تالله » بملازمتها لمعنى التعجب تتخلى عن معنى التوكيد . فهذا اللفظ المرتبط بالتاء يحمل المعنيين : التوكيد والتعجب . ومن مفسري القرآن من يربط المعنيين بالتاء نفسها التي قد توجد مع لفظ الجلالة ، فيقول عند قوله تعالى ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ : «وتالله : وهو قسم والأصل في القسم الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو **وفيها مع كونها بدلاً زيادة على التأكيد التعجب**» [3] .

وقد تتدخل إرادة المُتَكَلِّم أو حالته النفسِيَّة من حيث الانتباه والتركيز في تكرار الاسم المُقسَم به . يقول : «ولو قال : وحقِّك وحقِّ زيد على وجه النِّسيان والغلط جاز . ولو قال : وحقِّك وحقِّك ، على التوكيد جاز ، وكانت الواو واو الجر» [4] .

إن المحلل للنص اللغويّ يجب أَنْ يتنبَّه إلى أَنَّ تكرار القسم فقد يكون السبب فيه إرادةَ المُتَكَلِّم المرتبطة بالسِّياق ، أو إنَّه جاء على سبيل الخطأ والنسيان .

***

٨- النصب على التعظيم أو الذم :

من المواضع التي ينصب فيها الاسم «النصب على التعظيم أو الشتم» ، نصّ على ذلك سيبويه في بعض المواضع ، منها الموضع التالي :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٧/٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٨/٣

(٣) شمس الدين الشربيني الشافعي : السرّاج المنير، مطبعة بولاق الأميرية ، القاهرة ، (بدون تحديد لرقم الطبعة) (١٢٨٥هـ)،٥٠٩/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٥٠٢/٣

«واعلم أَنَّهُ ليس كلُّ موضع يجوز فيه التعظيمُ ، ولا كلُّ صفة يحسن أَنْ يعظَّم بها . لو قلت : مررت بعبد الله أخيك صاحبَ الثياب أو البزّاز ، لم يكن هذا مما يعظَّم به الرجل عند الناس ولا يفخَّم به . **وأما الموضع الذي لا يجوز فيه التعظيم فأن تذكر رجلاً ليس بنبيهٍ عند الناس ، ولا معروفٍ بالتعظيم ثُمَّ تعظمه كما تعظم النبيه** . وذلك قولك : مررت بعبد الله الصالح . فإنْ قلت مررت بقومك الكرام الصالحين ثُمَّ قلت المُطعِمين في المَحْل(المَحْلُ : الجَدبُ ، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلاء) ، جاز لأَنَّهُ إذا وصفهم صاروا بمنزلة من قد عُرِف منهم ذلك ، وجاز له أَنْ يجعلهم كَأَنَّه قد عُلموا . فاستحسن من هذا ما استحسن العربُ ، وأجِزْه كما أجازته» [(١)] .

ومن خلال تأمل نصّ سيبويه هنا نضع أيدينا على الحقائق التالية :

أ- التعظيم يرتبط بمواقف سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة ومخصوصة .

ب- يحتاج النصب على التعظيم إلى صفات مُعَيَّنَة «تعارف» الناس فيما بينهم على أنَّها صفات «عظيمة» يُفَخِّمُ ويُبَجِّلُ ويُكَبِّرُ صاحبُها ، مثل ـ كما ذكر سيبويه في نصه ـ : «النباهة» ، «والإطعام وقت المَحْل» ، «والصلاح» . ويجب أَنْ يُعْرَف ما من الصفات يميل بها العُرْفُ إلى استخدامها مع البشر ، وما يميل بها العُرْفُ إلى ستخدامه التعظيم «الذات الإلهية» .

ت- وأَنْ يكون صاحب الصفة «معروفا» عند الناس .

ث- وأَنْ تكون الصفة محل التعظيم «متأصِّلة» في صاحبها .

أي أَنَّنا لكي «ننصب على التعظيم» يجب أَنْ نوفر الشروط الآتية : وجود سياق تعظيمي مُعَيَّن ، صفة من الصفات التي يتعارف الناس فيما بينهم على التعظيم بها ، وأَنْ يُعْرَفَ صاحبُها ، وأَنْ تكون هذه الصفة متأصِّلة فيه ، ويعرف كونها خاصة بالبشر أم خاصة بالذات الإلهية .

وينبغي أَنْ نشير هنا أَنَّ أحد أسرار النصب على التعظيم ـ كما يفهم من كلام سيبويه ـ «العُرْف» ، وما «يتعارف» عليه الناس من صفات التعظيم .

وقد يرد على الذهن سؤال هو : هل هناك فرق بين قولنا «نصب على التعظيم» و «نصب على المدح» ؟

أقول إنّ هناك فرقا دقيقا بين قولنا «نصب على التعظيم» وقولنا «نصب على المدح» ، وقد كان سيبويه ـ شيخ العربيَّة ـ على وعي بهذا الفرق ، ولم يضطرب في استخدام المصطلحين .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٦٩/٢

ولكي نظهر هذا الفرق الدقيق بين استخدام مصطلحي : المدح والتعظيم ، يجب أولا الوقوف على «الخصائص الدِّلالِيَّة التكوينية الاستعمالية لكلمة المدح ».

في هذا الشأن تحدثنا معاجم الفروق اللُّغَوِيَّة أَنَّ كلمة «المدح» لها الخصائص الدِّلالِيَّة التكوينية الاستعمالية الآتية :

١- المدح يكون **للحي وغير الحي كاللؤلؤ واليواقيت الثمينة** .

٢- **يكون قبل الإحسان وبعده** .

٣- وأنَّه قد يكون منهيًّا عنه شرعا .

٤- أنَّه قد يكون بأقوال تدلُّ على أَنَّ صاحبها مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره .

٥- أنَّه يكون بالفعل والصفة ؛ وذلك أَنْ يمدح الرجل بإحسانه إلى نفسه وإلى غيره و أَنْ **يمدحه بحسن وجهه ، وطول قامته ، ويمدحه بصفات التعظيم من نحو قادر ، وحكيم**[١] .

ونخرج من هذه الملامح بأمرين :

» أن التعظيم أخص من المدح ؛ فليس كل مدح تعظيما .

» وواضح من هذه الصفات والملامح الدِّلالِيَّة أَنَّ العرف يتدخل بطريق غير مباشر في تحديدها ، فليس من العرف أَنْ يمدح اللؤلؤ والياقوت ، وليس من العرف أَنْ يمدح المحسن قبل إحسانه ، وليس من العرف المبالغة والإكثار من المدح مما يستوجب نهي الشارع ، وليس من العرف المدح بجمال الوجه وطول القامة .

أي أَنَّ العرف يفرق بين ما قد يكون مدحا وبين ما قد يكون تعظيما .

فعندما أقول : « مررت بعبد الله جميلَ الوجه » ؛ و« وسلمت على محمدٍ طويلَ القامة » فَإِنَّ الكلمتين « جميل ، طويل » قد تنتصبان ويكون النصب على المدح ؛ أي بتقدير أمدح ، ولا يصح النصب على التعظيم ؛ لأَنَّ جمال الوجه وطول القامة ليسا من الصفات «المتعارف عليها بين الناس بالتعظيم والتفخيم والتبجيل والتكبير ».

وعندما نقول : «مررت بعبد الله الصالحَ» ، إذا أردنا النصب فَإِنَّ الأفضل والأحسن ـ إذا عُرف عن عبد الله صفة الصلاح وتهيَّأت ظروف سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة ـ أَنْ نقول إِنَّ كلمة «الصالحَ» منصوبة على التعظيم .

إِنَّ الفرق بين التعظيم والمدح كان واضحا في ذهن سيبويه ، لذلك كان في منتهى الدقة عند استعماله لمصطلح التعظيم .

---

(١) أبو هلال العسكري : معجم الفروق اللُّغَوِيَّة ، ط ١ ، (١٤١٢هـ)، ص ٢٠٢

ولا شك أَنَّ تلك الشروط التي استنبطناها من نصّ سيبويه للنصب على التعظيم هي شروط سِيَاقِيَّة بامتياز ، فالنصب على التعظيم يحتاج إلى موقف له خصوصية سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة ، وهي في الغالب مواقف المدح والثناء ، والعرف يتدخل في تحديد الصفة التي يعظم بها ، والصفات التي يُعَظَّم بها تختلف من جماعة إلى أخرى ، ومن وقت إلى آخر ، والشخص المعظم يجب أَنْ يكون معروفا بين جماعته اللُّغَوِيَّة بهذه الصفات ؛ لهذا قال السيرافي : « **يحتاج التعظيم إلى اجتماع معنيين في المعظم : أحدهما أَنْ يكون الذي عُظِّم به فيه مدح وثناء ورفعة . والآخر : أَنْ يكون المعظم قد عرفه المخاطب وشهر عنده بما عظم به ، أو يتقدَّم من كلام المُتَكَلِّم ما يتقرر به عند المخاطب حال مدح وثناء وتشريف في المذكور يصح أَنْ يورد بعدها التعظيم** » [١] .

وما يصحُّ للتعظيم لذات الله ـ عز وجل ـ قد لا يصح للبشر ، والعكس بالعكس ، فـ «ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيما لله عز وجل يكون تعظيما لغيره من المخلوقين : لو قلت : الحمدُ لزيد تريد العظمةَ لم يجز ، وكان عظيمًا (؛ أي كان أمرا عظيما غير مغتفر) » [٢] .

ومن خلال السِّياق نُفَرِّق بين النصب على التعظيم أو الشتم وبين النصب على أساس أي معني آخر ، فمثلا :

- قول الشاعر :

لا عَيبَ بِالقَومِ مِن طولٍ وَلا عِظَمٍ   جِسمُ البِغالِ وَأَحلامُ العَصافير **[بحر البسيط]**

« فلم يردْ أَنْ يجعله شتما ، ولَكِنَّه أراد أَنْ يعدد صفاتهم ويفسرها ، فكأَنَّه قال : أَمَّا أجسامهم فكذا وأَمَّا أحلامهم فكذا » [٣] .

- وقول الشاعر :

وما غرّني حوزُ الرِّزاميّ مِحصَنًا ... عَواشِيَها بالجَوّ وهو خصيبُ **[بحر الطويل]**

«ومِحصن : اسم الرزامى ، فنصبه على أعني ، وهو فعل يظهر ، لأَنَّهُ لم يرد أكثر من أَنْ يعرفه بعينه ، ولم يرد افتخارا ولا مدحا ولا ذما» [٤] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٦٩ ، الحاشية ذات الرَّقْم٦

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢/٩٦

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢/٧٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢/٧٤ ، ويؤكد الأستاذ عبد السلام هارون في الحاشية ذات الرَّقْم٣ على أَنَّ موطن الشاهد نصب «محصن بإضمار فعل يجوز إظهاره ، وهو أعني ، ولم يقصد مدحا ولا ذما فينصبه عليه» .أما المصدر «حَوْز»فمعموله في البيت كلمة «عواشيها» ، ولا يجوز أن يكون «محصنا» هو معمول هذا المصدر ؛ لأنَّ المعنى لا

ومن خلال السِّياق أيضا نُفَرِّق بين ما هو «للتعظيم» ، وما هو «للترحُّم» ، فـ «مذهب الترحم على غير منهاج التعظيم والشتم ... [فـ] الترحم إنَّمَا هو رقة وتحنن ، يلحق الذاكر على المذكور في حال ذكره إياه رقة عليه وتحننا »[(١)] . يقول سيبويه : «ومن هذا الترحم ، والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ، ولا يكون كل صفة ولا كل اسم ، ولكن ترحم بما ترحم به العرب»[(٢)] .

المبحث الخامس : سياق الحال والأدوات النحوِيَّة :

قبل أَنْ نشرع في إيضاح علاقة بعض الأدوات النحوِيَّة بالسِّياق من خلال نصوص سيبويه نُصَدِّرُ كلامنا بقولٍ مُهِمّ لأستاذنا تَمَّام حسان عن «الأدوات» يقول فيه : «إِنَّ المعاني التي تؤدِّيها **الأدواتُ جميعا هي من نوع التعبير عن علاقات في السِّياق** ، وواضح أَنَّ التعبير عن العلاقة معنى وظيفي لا معجمي ؛ **فلا بيئة للأدوات خارج السِّياق** ؛ لأَنَّ الأدوات كما ذكرنا ذات افتقار إلى الضمائم أو بعبارة أخرى : ذات افتقار متأصل إلى السِّياق»[(٣)] . أي أَنَّ الأدوات النحوِيَّة هي من أهم ما يبرز دور السِّياق ويوضح أهميته .

وفيما يلي مجموعة من الحروف والأدوات النحوِيَّة التي لاحظنا تدخُّلَ سياق الحال في تحديدها وفي خصائصها ، وهي كما يلي :

١ـ أَمَّا الشرطيِّة :

من الأدوات التي نظنُّ أَنَّ سياق الحال له دور في تحديد معناها النَّحْوِيّ عند سيبويه الأداة «أَمَّا » فقد ذكر لها معني نحويا لا يُتَأَتَّى إليه إلا من خلال نصوص لها سياقاتها . يقول : «أَمَّا وإذا يُقطَعُ بهما الكلامُ ، وهما من حروف الابتداء يَصرفانِ الكلامَ إلى الابتداء »[(٤)] . والقطع مصطلح نحوي يراد به في النحو : «عدم ربط الكلمة بما قبلها في الإعراب ، وتُعد جزءا من جملة جديدة»[(٥)] .

وجملة سيبويه التي وردت في الجملة السابقة «يُقطَعُ بهما الكلامُ» تقتضي أمرين :

» وجود ذات واعية (متكلم) تقوم بقطع الكلام .

يستقيم على ذلك ، فمعنى البيت : أن الشاعر لم يغره أن يحوز (يجمع)الرزامي (نسبة إلى رزام ، وهم حي من بني عمرو بن تميم) ـ ويقصد ويعني من بينهم محصنا ـ العواشي (المواشي التي ترعى بالعشي) ، ليمنع الشاعر القرى .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٧٥/٢ الحاشية ذات الرَّقْم١ ، والكلام هنا للسيرافي .

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٧٤/٢ ـ ٧٥

(٣) اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ١٢٧

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٩٥/١

(٥) د. محمد عبادة : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة ، ص ٢٥٠

» وجود كلام يُقطَع ، والكلام الجديد يجب أَنْ يرتبط بسياق سابق معلوم بين المُتَكَلِّم والمخاطب ؛ حتى يكون الكلام مفهوما ومقبولا .

بناء على ما سبق يمكن أَنْ نقول إنَّ «أَمَّا » من استخداماتها قطع الكلام ، وتحويله إلى سياق جديد . والسِّياق الجديد يتطلب « مبتدأ ، أو مسندا إليه» جديدا يدور حوله الكلام ؛ لأَنَّ سيبويه في آخر المقولة السابقة «يصرفان الكلام إلى الابتداء».

وقد علمنا من سابق كلامنا أَنَّ المُتَكَلِّم لا يبدأ الكلام في الغالب إلا بجملة اسمية ، وهي تقتضي مبتدأ معروفًا سلفا بين المُتَكَلِّم والمخاطب .

ويؤكد السيرافي هذا المعنى بألفاظ واضحة ؛ فيقول : «و «أَمَّا» يُبْتَدأ بها ، وإن وردت بعد كلام صرفت ما بعدها إلى الابتداء وقطعته عن الأول»[(١)] .

ومما يسترعي الانتباه أَنَّ السيوطي في الإتقان خصَّ «أَمَّا » بحديثٍ ذكر فيه أَنَّ من معاني «أَمَّا »أنَّها : «حرف شرط وتفصيل وتوكيد »[(٢)] ، ولم يشر إلى ما قد تتضمنه «أَمَّا »من ابتداء ، وتبعه في ذلك الأستاذ عباس حسن ، فذكر نفس الكلام عند حديثه عن معنى «أَمَّا » الشرطيِّة[(٣)] ، ولم يشر إلى أنَّها تأتي قاطعة للكلام ، ويُبدَأ بها سياقٌ جديد[(٤)] .

ويمكن أَنْ نستغل عدم إشارة النحاة ـ حسبما وقف الباحث ـ للمعنى الذي أشار إليه سيبويه هنا فنقول : إنَّ هذا قد يُستشْهَد به على أَنَّ عدم استقراء الكلام في سياقاته المختلفة ـ كما يفعل سيبويه ـ قد يؤدِّي إلى أَنَّ القاعدة النحوِيَّة قد تأتي ناقصة مضطربة ، أو غير جامعة مانعة[(٥)] .

٢ـ ألف التَّرَنُّم وياؤه وواوه :

تتبَّع الباحث مصطلح «التَّرَنُّم» عند العلماء ووقف على الحقائق الآتية :

- أنَّ التَّرَنُّم هو : « مدُّ الصوت بمدة تجانس حركة الروِي »[(٦)] .

---

(١) شرح كتاب سيبويه : ٤٠٠/١

(٢) الإتقان : ص ٢٢٥، وجاء في تاج العروس : التفصيل التبيين .

(٣) النحو الوافي ، ٥٠٤/٤

(٤) وكذلك الأداة «إذا » التي وردت في نصّ سيبويه ، لا تذكر المصادر التي وقفنا عليها معنى الابتداء فيها ، ويحصرون معناها في أنَّها : ظرف لما يستقبل من الزمان، ظرفية لا تتضمن معنى الشرط ، الفجائية . يراجع : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٣٥

(٥) يراجع التمهيد الذي قدمنا به البحث .

(٦) محمد بن عبد الله الطائي : شرح الكافية الشافية ، ت : عبد المنعم أحمد هريدي ، جامعة أم القرى ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة)، ١٤٢٧/٣

- وأنَّه : « التطريب والتغني وتحسين الصوت » [١] ، و« ترديد الصوت بضرب من التلحين » [٢] .
- وأنَّه : « يحصل بأحرف الإطلاق لقبولها لمد الصوت فيها » [٣] .
- وأنَّ « الشعر وضع للغناء والتَّرَنُّم » [٤] ، و أَنَّه « الشعر موضع التَّرَنُّم والغناء وترجيع الصوت ولا سيما في أواخر الأبيات ، وحروفُ الإطلاق : أي الألف والواو والياء هي المتعينة من بين الحروف للترديد والترجيع الصالحة لها ؛ فمن ثم تلحق في الشعر لقصد الإطلاق كلماتٍ لا تلحقها في غير الشعر » [٥] .
- و أَنَّه اختياري للمتكلم ، و أَنَّ « ناسا كثيرين من بني تميم يبدلون مكان المدة النون ؛ لما لم يريدوا التَّرَنُّم ؛ أبدلوا مكان المدة نونا ، ولفظوا بتمام البناء » [٦] .

ونص سيبويه الذي يشير فيه إلى هذا التَّرَنُّم هو : «أَمَّا إذا ترنموا فإنَّهُم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون ، **لأنهم أرادوا مد الصوت** ، وذلك قولهم ـ وهو لامرىء القيس :

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ... **[بحر الطويل]**

وقال في النصب ليزيد بن الطثرية :

فَبِتنا تحيد الوَحشُ عَنّا كَأَنَّنا   قَتيلانِ لَم يَعلَم لَنا الناسُ مَصرَعا **[بحر الطويل]**

وقال في الرفع ، للأعشى :

هُرَيرَةَ وَدَّعها وَإِن لامَ لائِمُ   غَداةَ غَدٍ أَم أَنتَ لِلبَينِ واجِمُ **[بحر الطويل]**

هذا ما ينون فيه ؛ وما لا ينون فيه قولهم ، لجرير :

أَقِلّي اللَومَ عاذِلَ وَالعِتابا   وَقولي إِن أَصَبتُ لَقَد أَصابا **[بحر الوافر]** » [٧] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ٢٥٤/١٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر ، ٢٧١/٢

(٢) الزوزني : شرح المعلقات السبع ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٢م)، ص ٢٥٠

(٣) ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ت : د. مازن المبارك ، محمد على حمد ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٦ ، (١٩٨٥م)، ص٤٤٧

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٦/٤

(٥) محمد بن الحسن الإستراباذي : شرح شافية ابن الحاجب ، ت : محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمِيَّة ، لبنان ، (١٩٧٥م)، ٣١٦/٢

(٦) محمد بن عبد الله الطائي : شرح الكافية الشافية ، ١٤٢٨/٣

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٢٠٤/٤

إن التَّرَنُّم يُأتَى به لـ «التطريب والتغني وتحسين الصوت وتلحينه »، وأنَّ موضعه الشعر ، وأَنَّه اختياري ، ويتم من خلال أحرف الإطلاق : الواو والألف والياء .

وهنا يُثار سؤال : لمن يقوم الشاعر بهذا التطريب والتغني وتحسين الصوت ؟ ولماذا يلجأ الشاعر إليه طالما أَنَّهُ اختياري ؟

إن الشاعر لن يترنَّم ويرغب في تحسين الصوت وتلحينه إلا لمن يسمعه ، أي لا بدَّ من وجود سياق حال يجمع بين المُتَكَلِّم الشاعر المنشد ، والمخاطب المستمع الذي يستمتع بإلقاء الشاعر لشعره ، إنَّ الشاعر في ترنُّمه مقصدُه المستمع ، فما أتي بهذا التَّرَنُّم إلا إليه ؛ ودليل هذه القصدية أَنَّ التَّرَنُّم اختياري من الشاعر ، يمكنه أَنْ يستغني عنه .

إذن فسياق الحال يتحكم في التَّرَنُّم وهو سبب وجوده ؛ **فرغبة المُتَكَلِّم** الذي هو أحد أهم عناصر سياق الحال هي المسئولة عن هذا التَّرَنُّم وجودا وعدما . ومصداق هذا قول سيبويه في نصه السابق : «**لأنَّهم أرادوا مد الصوت**» .

ويمكننا القول أيضا ـ استنتاجا واستنباطا ـ إنَّ القافية وحركة روِيِّها تتَأَثَّران بالحالة النفسِيَّة للمتكلم المنشد .

ومما يمكن أَنْ يلحق بألف التَّرَنُّم في كونها تأتي للترنم أيضا وإن كان هذا التَّرَنُّم فيه نوع حزن وتفجع ـ «ألف الندبة». يقول : «اعلم أَنَّ المندوب مدعوٌّ ولَكِنَّه متفجع عليه ، فإنْ شئت ألحقتَ في آخر الاسم الألف ، لأَنَّ الندبة كأَنَّهم يترنمون فيها ؛ وإن شئت لم تُلحق كما لم تلحق في النداء» [(1)].

وإلحاق ألف الندبة كما يقول سيبويه اختياري يتوقَّف على إرادة المُتَكَلِّم إذا أراد أَنْ يبرز مزيدا من الأسى والحزن على المُتَفَجَّع عليه من خلال ألف الندبة ، وكَأَنَّ اللُّغَة تساعد المُتَكَلِّم على التنفيس عن مشاعره بكل الأوجه الممكنة ، وتهيِّئ له ذلك بكل السبل .

***

٣ـ الأداة «أل»:

هذه الأداة نالت عناية النُّحَاة وانتباههم ؛ فبينوا أقسامها ومعانيها ، فذكروا أَنَّها :

- «أل» الموصولة : وذلك إذا اتصلت بها صفة صريحة .
- «أل» التعريفية ، وهي تنقسم إلى :
  - الجنسية ، وهي تنقسم إلى :

» مطلق ، يعرف بها الجنس مع إيهام كل فرد من أفراده ، فهي في قوة «أي» ، نحو الرجل أقوى من المرأة . ومعناها : أي رجل أقوى من أي امرأة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٢٢٠

» نسبيٌّ ، يعرف بها الجنس والمقصود إما عام للجنس كله أو خاص لأحد أفراده ، فهي في قوة الضمير عموما ، [مثل] : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠: نهى نفسه عن هواها .

- العهدية ، وهي تنقسم إلى :

» العهد الذكري ، تعرف مذكورا سابقا ، وتكون في قوة ضمير الغائب ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ .

» العهد الذهني ، تعرف مفهوما مشتركا بين المُتَكَلِّم والسامع إذا ذكر انصرف الذهن إليه ، فهي في قوة ضمير الإشارة ، مثل قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾= هذا النبي الذي تعرفونه .

» العهد الحضوري : يعرف بها حاضر يراه المُتَكَلِّم والسامع ، فهي أيضا في قوة ضمير الإشارة ، نحو : من الرجل ؟ = من هذا الرجل[(١)] .

يتضح من التقسيم السابق مدى ارتباط هذه الأداة بالسِّياق ، فلا يمكن الوقوف على كلِّ هذه المعاني السِّياقِيَّة لتلك الأداة إلا بمعونته . ويقرر د . تَمَّام حسان أَنَّ «أل» التي تأتي موصولة أو للجنس النسبي أو للعهد الذكرى يربط بها السِّياق ، و أَنَّها جميعها «في قوة الضمير الغائب»[(٢)] . ويُعلَم أَنَّ الضمائر تلعب دورا أساسيا في تماسك النَّصّ .

وإذا كانت «أل» مثل الضمير ، والضمير لا يُؤْتَى به ، ولا يحل محل اسم إلا إذا عرف المُتَكَلِّم مرجع هذا الضمير وما المقصود به ؛ فَإِنَّ هذا الكلام ينسحب أيضا على «أل» ؛ أي أَنَّ السِّياق في نهاية الأمر يتحكم في أل كما يتحكم في الضمير .

ويشير سيبويه إلى دور السِّياق في تحديد دلالة تلك الأداة بقوله : «وأما الألف واللام فنحو الرجل والفرس والبعير وما أشبه ذلك . وإِنَّمَا صار معرفة لأَنَّكَ **أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمته** ، لأَنَّكَ قلت : مررتُ برجلٍ ، فَإِنَّك إِنَّمَا زعمت أَنَّكَ إِنَّمَا مررت بواحدٍ ممن يقع عليه هذا الاسمُ ، **لا تريد رجلا بعينه يعرفه المخاطَب . وإذا أدخلتَ الألف واللام فَإِنَّما تُذكّره رجلا قد عرَفه ، فتقول : الرجل الذي من أمره كذا وكذا ؛ ليتوهم الذى كان عهدَه ما تذكر من أمره**»[(٣)] .

---

(١) هذا التقسيم نقلتُه عن أستاذنا الدكتور تَمَّام حسان : البيان في روائع القرآن ، مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، (٢٠٠٢م)، ١٤٧/١

(٢) السابق : ١٤٨/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٥/٢

يشير هنا إلى أل التي تأتي للعهد الذهني ، التي تكون لشيء معهود بين المُتَكَلِّم والسامع ، والوحيد الذي يستطيع تحديد دلالة الكلمة المحلاة بأل العهدية الذهنية هو المخاطب الذي يعرف من خلال سياق سابق مدلول هذه الكلمة ، وعلى من تنطبق . أي أَنَّنا في تحديدنا لدلالة الكلمة المحلاة بأل نحتاج إلى السِّياق أيّما احتياج للوقوف على هذه الدِّلَالَة . لذلك نجد سيبويه يشير إلى هذا السياق في قوله : « **وإذا أدخلتَ الألف واللام فَإِنَّما تُذكّره رجلا قد عرَفه ، فتقول : الرجل الذي من أمره كذا وكذا ؛ ليتوهم الذى كان عهدَه ما تذكر من أمره** » .

ويؤكد سيبويه على أهمِيَّة السِّياق في تحديد دلالة أل في نصّ ثان ، فيقول : « **وإِنَّمَا يُدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه قد رأيتَه أو سمعت به** ، فإذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره وعنوه ، ولم يجعلوه واحدا من أمة ، فقد استغنوا عن الألف واللام . فمن ثم لم يُدخلوهما في هذا ولا في النداء »[(١)] .

إنَّ « أل » العهدية لكي يصح استعمالها فَإِنَّها يجب أنْ « تُربَطَ » بأمر « رآه المُتَكَلِّم وسمع به من قبل » إما في بداية موقف الكلام نفسه (أل العهدية) ، وإما في موقف سابق على موقف الكلام (أل العهد الذهني) .

ويُستغنَى عن « أل » كلية إذا هيَّأ السِّياق والموقفُ الكلامَ ووجهه مباشرة إلى « فرد مُعَيَّن من أفراد أمة ما » - بحسب تعبير سيبويه - ؛ أي أَنَّنا استغنينا عن « أل » لتعبِّرَ عن المُتَحَدَّثِ عنه عندما انتقل من حالة « الغياب عن السِّياق » إلى حالة « الحضور في السِّياق » ، وبعد أنْ كان المُتَحَدَّثُ عنه غائبا أصبح حاضرا ، وأقدرنا هذا على الانتقال والاستغناء عن « أل » .

ومن نصّ سيبويه نقف أيضا على أهمِيَّة الأداة « أل » في « الربط » ، ربط ما هو غائب عن السِّياق بما هو حاضر فيه . وقد سمَّى علماء نحو النَّصّ هذا الربط بـ « الإحالة الخارِجِيَّة » ، وهي - أي الإحالة الخارِجِيَّة - مع « الإحالة الداخلية » من أهم وسائل « السبك Coheision » . وهي « من المعايير المُهِمَّة التي تسهم بشكل فعَّال في الكفاءة النصية ، تلك الوسيلة من أهم الوسائل المتعددة والمتنوعة لسبك العبارات »[(٢)] .

* * *

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/١٩٨

(٢) أحمد عفيفي:الإحالة في نحو النص، ضمن الكتاب التذكاري: العَرَبِيَّة من نحو الجملة إلى نحو النص ، ٢/٥٢٤

٤ـ كسر همزة إنَّ وفتحها :

قبل أَنْ نناقش علاقة سياق الحال بـ «أَنَّ» نثبت أولا أَنَّ النُّحَاة اقتصروا في هذه المسالة على أنْ قالوا : «يجب كسر همزة : إِنَّ فى كل موضع لا يصح أَنْ تُسبَكَ فيه مع معموليها بمصدر»[١] ، ويجب فتحها «فى موضع واحد ، هو : أَنْ تقع مع معموليها جزءا من جملة مفتقرة إلى اسم مرفوع ، أومنصوب ، أو مجرور ، ولا سبيل للحصول على ذلك الاسم إلا من طريق مصدر منسبك من أنّ مع معموليها . ففى مثل : شاع أَنَّ المعادنَ كثيرةٌ فى بلادنا . سرنى أَنَّكَ بارٌّ بأهلك ، لا نجد فاعلا للفعل : شاع ، ولا للفعل : سَرَّ ؛ مع حاجة كل فعل للفاعل ، ولا وسيلة للوصول إليه إلا بسبك مصدر مؤول من : أنّ مع معموليها»[٢] .

لقد اكتفى معظم أئمتنا النُّحَاة بتقرير هذه القواعد عن إنَّ وأنَّ بدون إشارة ملحوظة وواضحة لعلاقتها بالسِّياق ، على الرغم من الإشارات المبكرة لسيبويه لهذا الربط السِّياقي .

ومن العبارات اللافتة للنظر التي عثرنا عليها في الكتاب التي تدل على هذا الربط السِّياقي عبارة سيبويه التي يقول فيها عن الحرف «أنَّ» : «**وأنَّما وأنَّ إنَّمَا يصيِّران الكلام شأنًا وحديثًا ، فلا يكون الخبر ولا الحديث الرجل ولا زيدًا ، ولا أشباه ذلك من الأسماء**»[٣] .

ويقول في موضع ثان عن أَنَّ : «**أَنَّ تجعل الكلام شأنا**»[٤] . ويخصص بابا يعنونه بـ «باب تكون فيه أَنَّ بدلا من شيء هو الأول» يذكر فيه : «وذلك قولك : بلغتني قصَّتك أَنَّكَ فاعلٌ ، وقد بلغني الحديثُ أنَّهم منطلقون ، وكذلك القصة وما أشبهها»[٥] .

وقد حار الباحث فيما يقصده صاحب الكتاب بهذه الجملة «**أَنَّ تجعل الكلام شأنا**» ، إلى أنْ عثر على تفسير لها عند ابن السرّاج ؛ يقول فيه : «أَنَّ المفتوحة الألف مع ما بعدها بتأويل المصدر وهي تجعل الكلام : شأنًا وقصة وحديثًا ، **ألا ترى أَنَّكَ إذا قلت : علمت أَنَّكَ منطلق ، فَإِنَّما هو : علمت**

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ١/ ٦٤٩

(٢) السابق ، ٦٤٢/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٣١/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٤٢/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ١٣٢/٣

انطلاقك ، فكَأَنَّك قلت : علمت الحديث ، ويقول القائل : ما الخبر ؟ فيقول المجيب : الخبر أَنَّ الأمير قادم» [١] .

إن تفسير ابن السرّاج لفتح همزة «أَنَّ » يربطها بالسِّياق ربطا ، فجملة «علمت أَنَّكَ منطلق» يسبقها سياق ومقام ، فالمُتَكَلِّم علم أَنَّ المخاطب من خلال قصة أو حديث وقع أمامه أَنَّهُ منطلق ؛ فأتى بالجملة على هذا الوجه . فبفتح همزتها يُعْلَم أنَّها تعبر عن شأن وقصة وحديث سابق ، أي أنَّها تأتي بعد مرحلة تالية من الكلام ، ولا تأتي في بدايته .

ألا ما أجمل إشارة سيبويه عن « أَنَّ » من حيث إنَّها تجعل الكلام شأنا ؛ أي شأنا وقصة وحديثا سابقا على ذكرها . إنَّها إشارة عميقة تدلُّ على ربطه الأداة بالسِّياق ، وتدُلُّ على اعتباره للسياق عند التَّقْعِيد ، كما تدلُّ على دقة الملاحظة ، ولم نقف على هذه الفائدة السِّياقِيَّة القيمة لـ «أَنَّ » إلا في كتاب سيبويه .

ومن مواضع كسر همزة إِنَّ أَنْ تقع بعد « القول مباشرة ، وتكون مع معموليها محكية بالقول ، نحو قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فإنْ لم تُحكَ بالقول وأجري القول مُجرى الظن ؛ فتحت الهمزة ، نحو : أتقول أَنَّ العدل معدوم ، أي : أتظن » [٢] .

والذي يحدِّد هل القول للحكاية أم يفيد الظن السِّياقُ ، فإليه المرجع في هذا التحديد ؛ وهذا يعني أَنَّ السِّياق المعتبر يتحكم في كسر همزة إِنَّ أو فتحها . يقول سيبويه : «وسألت يُونُس عن قوله : متى تقول أَنَّهُ منطلقٌ ؟ فقال : **إذا لم ترد الحكاية وجعلت تقول مثل تظنُّ**» [٣] .

وهنا نؤكد على أَنَّ كسر همزة إِنَّ أو فتحها **له دلالة** ؛ فعندما نقول : «أتقول أَنَّ العدل معدوم» - بفتح همزة إِنَّ - **فالمُتَكَلِّم قد يكون في حالة ظن أو قد لا يكون** ، وإن قلت : «أتقول إِنَّ العدل معدوم» ؛ **فالمُتَكَلِّم يحكي وينقل ما سمعه عن غيره كما هو** ؛ فالفعل «قال» في هذه الحال - كما يقول سيبويه - «لا يغَيِّر الكلام عن حاله قبل أَنْ تكونَ فيه قال» [٤] .

---

(١) الأصول في النحو ، ت : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة)، ٢٦٥/١ وينظر أيضا : عبد القادر بن عمر البغدادِيّ : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، ت : عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، (١٩٩٧م) ، ٣٠٤/١٠

(٢) د. على توفيق الحمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٨٤ ـ٨٥٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١٤٢/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٤٣/٣

ويوجِّهُ قراءة الكسر في قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ على الحكاية ، يقول : « كان عيسى يقرأ هذا الحرف : ﴿فدعا ربَّه إِنِّي مغلوبٌ فانتصر ﴾ ؛ أراد أَنْ يحكي »[1] .

ومن نصوص سيبويه التي خصصها للحديث عن « إِنَّ » ـ بكسر الهمزة ـ قوله : « وإِنَّ توكيدٌ لقوله : زيدٌ منطلقٌ . وإذا خفَّفْتَ فهي كذلك **تؤكِّد ما يتكلم به وليَثبت الكلام ، غير أَنَّ لام التوكيد تلزمها عوضًا مما ذهب منها** »[2] .

ويستوقفنا عند تحليل هذا النَّصّ قوله : « وإِنَّ توكيدٌ **لقوله** : زيدٌ منطلقٌ » ؛ فماذا يقصد بهذه العبارة ؟

إن الهاء في كلمة « لقوله » في هذه العبارة ضمير يعود على المُتَكَلِّم المفترض ، والجملة الاسمِيَّة : « زيدٌ منطلقٌ » تعني أَنَّ « زيدًا » معروف بين المُتَكَلِّم والمخاطب ، وأَنَّ « الانطلاق » معروف لدى المُتَكَلِّم فقط مجهول لدى المخاطب ، وأَنَّ المُتَكَلِّم يريد أَنْ ينقل معرفته بهذا الانطلاق للمخاطب . ولا معنى لجملة سيبويه : « وإِنَّ توكيدٌ لقوله : زيدٌ منطلقٌ » هنا إلا أَنَّ **المخاطب شك** في نسبة الانطلاق إلى زيد ؛ فأتى المُتَكَلِّم بـ « إِنَّ » لتأكيد هذه النسبة .

وإحساس المُتَكَلِّم بهذا الشك من قبل المخاطب لا بدَّ أَنْ يتولد من خلال ملابسات سياق مُعَيَّن فليست كل جملة اسمية يقولها المُتَكَلِّم محل شك من المخاطب .

ومجئ « إِنَّ » لتأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ حقيقة أقرها النُّحَاة من بعد سيبويه ؛ فقالوا عن التوكيد الذي تفيده « إِنَّ ، أَنَّ » : « المراد : توكيد النسبة ؛ أي : توكيد نسبة الخبر للمبتدأ ، وإزالة الشك عنها أو الإنكار ، فكلا الحرفين في تحقيق هذا الغرض بمنزلة تكرار الجملة ، ويفيد ما يفيده التكرار ؛ ففي مثل : إِنَّ المال عماد العمران ؛ تغني كلمة « إِنَّ » عن تكرار جملة : المال عماد العمران »[3] .

ومن الملحوظات القيمة للأستاذ عباس حسن على « إِنَّ ، أَنَّ » قوله : « ومن الخطأ البلاغي استخدامهما إلا حيث يكون الخبر موضع الشك أو الإنكار . والتأكيد بهما يدلُّ على أَنَّ خبرهما محقق عند المُتَكَلِّم ، وليس موضع شك . ولا يستعملان إلا في تأكيد الإثبات »[4] .

---

(1) سيبويه : الكتاب ، ١٤٣/٣

(2) سيبويه : الكتاب ، ٤/ ٢٣٣

(3) عباس حسن : النحو الوافي ، ٦٣١/١ الحاشية ذات الرَّقْم٣

(4) النحو الوافي ، ٦٣١/١ الحاشية ذات الرَّقْم٣

إنَّنَا بعد مناقشتنا لـ « أَنَّ ، إنَّ » هنا يمكن أَنْ نعبر عن كسرها أو فتحها من خلال اعتبار السِّياق وبفهم سيبويه نقول : تكسر إنَّ إذا أتت بداية الكلام وفي مراحله الأولى ، وتفتح إذا أتت بعد قصة أو حديث أو شأن سابق .

٥- الضمائر :

أورد الجرجاني عدة تعريفات للضمير منها : « ما وضع لمتكلم ، أو مخاطب ، أو غائب تقدم ذكره ، لفظا ، نحو : زيد ضربتُ غلامه ، أو معنى ، بأن ذكر مشتقه ، كقوله تعالى : ﴿ اَعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ المائدة : ٨ (؛ أي : العدل أقرب لدلالة « اعدلوا » عليه) ، أو حكمًا ؛ أي ثابتًا في الذهن ، كما في ضمير الشأن ، نحو : هو زيد قائم »[١] . ومنها أيضا : « عبارة عن اسم يتضمن الإشارة إلى المتكلم أو المخاطب أو غيرهما ، بعدما سبق ذكره ، إما تحقيقا أو تقديرا »[٢] .

ومن الواضح ـ كما في التعريفين السابقين ـ أَنَّهُ لا يجوز أَنْ يحل الضمير محل الاسم إلا إذا عرف المخاطب من المقصود بالضمير ، وإلا ضاع منه الكلام وتعذَّر فهمه له . فإذا دخل شخص في حوار يدور بين اثنين يتكلمان عن شخص غير موجود بضمير الغائب ؛ فَإِنَّ الشخص الداخل في الحوار لن يفهم الكلام ، ولن يتفاعل مع الحوار حتى يعرف مرجع الضمير الذي يدور حوله الحديث يؤكد هذا سيبويه قائلا :

- « وإِنَّمَا صار الإضمار معرفة لأَنَّكَ **إِنَّمَا تضمِر اسما بعد ما تعلم أَنَّ مَنْ يحدَّث قد عرف مَن تعنى وما تعنى ، و أَنَّك تريد شيئا يعلمه** »[٣] .
- ويقول : « **وإِنَّمَا يضمِر إذا علم أَنَّكَ عرفت من يعنى** »[٤] .
- وهذا ما يفهم أيضا من قوله تعليقا على قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرًا ﴾ : « كَأَنَّه قال : ولا يحسبنَّ الذين يبخلون البُخل هو خيرا لهم . ولم يذكر البخل اجتزاء بعلم المخاطَب بأنَّه البخل ، لذكره يبخلون »[٥] .

---

(١) التعريفات ، ص ٢٧٩

(٢) السابق ، ص ٢٧٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٦/٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٨١/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٣٩١/٢

ولأَنَّ الضمير لا يجوز أَنْ يحل محل الاسم حتى يعرف المخاطب من المقصود بالضمير فقد قرَّر سيبويه أَنَّ الضمير لا يوصف . يقول : «من قبل أَنَّ هو اسم مضمَر **والمضمر لا يوصَف بالمظهر أبدا**»[(١)] . وهذا أمر منطقي ؛ فقد سبق أَنْ قلنا إِنَّ النعت يأتي متمِّما «**لما يطلبه المتبوع بحسب المقام**» ، وهذا يعنى أَنَّ النعت قد يأتي : للتوضيح والتخصيص والمدح والذم والترحم والإبهام والتوكيد والتفصيل ، وكل هذا لا يحتاجه الضمير ، لأَنَّنا لا نستخدم الضمير إلا إذا علمنا تماما وبصورة واضحة الاسم الذي يمثل مرجع هذا الضمير .

وقد يلعب السِّياق أحيانا دورا مهما مع الضمير ، يتمثل في إسهامه في تحديده لـ«مرجعيته» وعدم تحديد مَرْجِعِيَّة للضمير بسبب عدم وضوح السِّياق قد يتسبب في تعَدُّد المعاني للجملة . فمثلا في أحد الشواهد النحوِيَّة ، يقول الشاعر[(٢)] :

وَمَا أُصاحِبُ مِن قومٍ فأذكُرَهُم   إلا يزيدهم حبًّا إليَّ هُمُ

[بحر البسيط]

يقول الشيخ محيي الدين عبد الحميد في معناه : «يحتمل هذا البيتُ معنيين ، بناء على اختلاف مرجع ضميري الغائبين في الشطر الثاني منه ... »[(٣)] .

وكثيرا ما نجد مثلا الإمام الزَّمَخْشَرِيّ في تفسيره يحدد ـ في غياب القرينة ـ أكثر من مَرْجِعِيَّة للضمير في بعض الآيات ، وكم من مرة استغل ذلك في الإثراء الدِّلَالِيّ للآيات القُرْآنِيَّة[(٤)] .

ويلعب السِّياق دورا في تحديد دلالة بعض الضمائر ، مثل الضمير نحن الذي قد يدلُّ على اثنين أو أكثر . يقول سيبويه : «وإن حدث عن نفسه **وعن آخر** قال : نحنُ ، وإن حدث عن نفسه وعن **آخرين** قال : نحنُ»[(٥)] . وكذلك الضمير أنتما ؛ فدلالة الضمير العَدَدِيَّة تتوقف على السِّياق .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢/٨٨

(٢) هو : زياد بن منقذ العدوي التميمي ، وقد أورد ابن هشام هذا البيت في كتابه « أوضح المسالك » ١/ ٩٢ ، مستشهدا به في قوله « إلا يزيدهم حبا هم » على « فصل الضمير المرفوع وهو : هم ، في آخر البيت ، وكان قياس الكلام أن يجيء به ضميرا متصلا بالعامل الذي هو يزيد ».

(٣) عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك : ١/٩١

(٤) ينظر مثلا تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ البقرة: ٢٥، ١/١٠٢ ـ ١٠٣ ، وقوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ البقرة: ٢٨، ١/١١٧ ، وتفسيره لقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ البقرة: ٧٣ ، ١/ ١٤٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢/٣٥٠

وضمير واو الجماعة «ضمير متصل لجماعة الذكور العقلاء »[(١)] . **لَكِنَّه قد يُنزَّل في بعض الأحيان منزلة غير العقلاء** ، فعندما سأل سيبويه الخليل عن قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ زعم « أَنَّهُ بمنزلة ما يعقل ويسمع ، لما ذكرهم بالسجود ، وصار النمل بتلك المنزلة حين حدّثتَ عنه كما تحدث عن الأناسى . وكذلك ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ ؛ لأَنَّها جُعلت ـ في طاعتها وفى أَنَّهُ لا ينبغى لأحد أَنْ يقول : مُطرنا بنَوْء كذا ، ولا ينبغي لأحد أَنْ يعبد شيئا منها ـ بمنزلة من يَعقل من المخلوقين ويُبصر الأمور »[(٢)] .

ويؤثِّر السِّياق أيضا على الضمير في بعض الأحيان استعمالا ، فالضمير «هم » لا يستعمل مع ما يُعَبِّر عن جماعة غير عاقلة ، ويستخدم فقط فيما يدل على العاقل ، كما أشار سيبويه قائلا : «ولا تقول : جمالُك ذاهبون ، ولا تقول : هم في الدار وأنت تعنى الجِمال ، ولكنك تقول : هي وهن ذاهبة وذاهبات »[(٣)] .

ويردد النُّحَاة مصطلحا يرتبط بما نحن فيه هنا ، ألا وهو مصطلح «ضمير الفصل » . وهو : «ضمير يتوسط بين المبتدأ والخبر ، أو ما أصله مبتدأ وخبر ؛ ليؤذَنَ من أوَّل الأمر بأنَّ ما بعدَه خبرٌ لا نعتٌ . وهو يُفيدُ الكلام ضربًا من التوكيد»[(٤)] .

إن ضمير الفصل « يفصل في الأمر حين الشك ؛ فيرفع الإبهام ، ويزيل اللَّبس ؛ بسبب دلالته على أَنَّ الاسم بعده خبر لما قبله ؛ من مبتدأ ، أو ما أصله المبتدأ ، وليس صفة ، ولا بدلا ، ولا غيرهما من التوابع والمكملات التي ليست أصيلة في المعنى الأساسي ، كما يدلُّ على أَنَّ الاسم السابق مستغن عنها ، لا عن الخبر . وفوق ذلك كله يفيد في الكلام معنى الحصر والتخصيص أي : القصر المعروف في البلاغة . تلك هي مُهِمَّة ضمير الفصل ؛ لَكِنَّه قد يقع أحيانًا بين مالا يحتمل شكًّا ولا لَبسًا ؛ فيكون الغرض منه مجرد تقوية الاسم السابق ، وتأكيد معناه بالحصر . والغالب أَنْ يكون ذلك الاسم السابق ضميرًا ؛ كقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾»[(٥)] .

ويتطرق سيبويه إلى الحديث عن هذا الضمير ، ويؤكد أَنَّ وجوده «إعلاما بأنَّه (؛ أي المُتَكَلِّم) قد فصل الاسم ، وأنَّه فيما ينتظر المحدَّث ويتوقعه منه ، مما لابدَّ له من أَنْ يذكره

---

(١) د . على توفيق حمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص٣٦٠

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٧/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٩/٢

(٤) مصطفى محمد الغلاييني:جامع الدروس العَرَبِيَّة، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٢٨ ، (١٩٩٣م)، ص ١٢٦

(٥) عباس حسن : النحو الوافي ، ٢٤٤/١

للمحدَّث ؛ لأَنَّكَ إذا ابتدأت الاسم فَإِنَّما تبتدئه لما بعده ، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لابدّ منه ، وإلا فسد الكلام ولم يسغ لك ، فكأَنَّه ذكر «هو» ليستدل المحدَّث أَنَّ ما بعد الاسم ما يُخرجه مما وجب عليه ، و أَنَّ ما بعد الاسم ليس منه »[1] .

ويقول في نصّ آخر : «وإِنَّما فصل لأَنَّكَ إذا قلت كان زيدٌ الظريفُ ، فقد يجوز أَنْ تريد بالظريف نعتا لزيد ، فإذا جئت بهو أعلمت أنها متضمنة للخبر »[2] .

إن سيبويه يريد أَنْ يؤكد هنا في هذا النَّصّ على ما رصده هو من وظيفة لضمير الفصل ، وهي وظيفة «تأكيد الخبريِّة»لما يأتي بعده ، و أَنْ ينبِّه المُتَحَدَّث ليزدادَ انتباها وتركيزا لما بعد هذا الضمير ، ولا شك أَنَّ هذه وظيفة تتأَثَّر بالسِّياق ، فالمُتكَلِّم لن يلجأ إليه إلا إذا استدعى السِّياق هذا .

ويحتاج الضمير إلى مرجع ، أيًّا كان شكل هذا المرجع ، فقد «يكون له مرجع صريح ، وقد يكون له مرجع متصيَّد من الفعل ، **وقد تدلُّ عليه قرينة السِّياق العام للكلام** »[3] . وقد يكون المرجع متقدم على الضمير كما هو المعتاد والمألوف ، وقد يكون متأخرا عنه ، كما يشير سيبويه : «**ومما يضمر لأنَّهُ يفسره ما بعده** ولا يكون في موضعه مظهرٌ قول العرب : إِنَّه كِرامٌ قومُك ، وإِنَّه ذاهبةٌ أمتُك . **فالهاء إضمارُ الحديث الذي ذكرتَ بعد الهاء** ، كَأَنَّه في التقدير ـ وإِنْ كان لا يُتكلم به ـ قال : إِنَّ الأمر ذاهبةٌ أمتُك وفاعلةٌ فلانة ، فصار هذا الكلام كلُّه خبرا للأمر ، فكذلك ما بعد هذا في موضع خبره »[4] .

إن تأكيد سيبويه وغيره من النُّحَاة على مَرْجِعِيَّة الضمير هو تأكيد نابع من أهمِيَّة هذه المَرْجِعِيَّة في «تلاحم النَّصّ وتماسكه» ، فالضمير يلعب دورا مهمّا في النَّصّ اللغويّ ؛ إذ يسهم في «الخفة » ودفع «الإلباس »[5] من ناحية ، ومن ناحية ثانية « يعمل على تلاحم الناتج الدِّلَالِيّ عندما يتردد الدال مشيرا إلى شيء سابق في السِّياق ، سواء أكانت الإشارة إلى سابق ملفوظ أومفهوم ، أوقائم على التضمين أوالالتزام »[6] . فبالضمائر «تتحول الصياغة إلى سبيكة متلاحمة العناصر

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٩/٢

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٨/٢

(٣) د. تَمَّام حسان : البيان في روائع القرآن ، ١٥٠/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ١٧٦/٢

(٥) الخصائص : ١٩٣/٢

(٦) د. محمد عبد المطلب: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٥م)، ص ١٤٣

نتيجة لعوامل الربط الظاهرة والمستترة ، المنفصلة والمتصلة ، التي تعمل على تعليق ذهن المتلقي وشغله بما يواجهه من ضمائر »[(١)] .

وعندما تحدث علماء نحو النَّصّ عن عناصر السبك التي هي من المعايير المُهِمَّة التي تسهم بشكل فعَّال في الكفاءة النصية ـ قسَّموا هذه العناصر إلى قسمين :

» الأول : عناصر السبك النحوِيَّة Grammatical Cohesion ، وتشمل : الإحالة ، الاستبدال ، الحذف ، الربط .

» الثاني : عناصر السبك المعجمي Lexical Cohesion ، وتشمل : التكرار ، والمصاحبة اللُّغَوِيَّة «التضام» .

وفي الإحالة تحدثوا عن الإحالة بالضمير ، وقالوا إنَّهُ وغيره من وسائل الإحالة « تقوم بدور الرابط بينها وبين ما تحيل إليه متقدما كان أو متأخرا »[(٢)] .

٦ـ الأداة « بل »:

يحدِّثنا النُّحَاةُ عن الأداة « بل » فيقررون أنَّها قد تأتي «حرف عطف تشرك الثاني مع الأول في إعرابه لا في حكمه إذا تلاها مفرد »[(٣)] ، وقد تأتي « حرف ابتداء يفيد الإضراب ؛ إذا تلتها جملة ، وتسمى حرف استئناف »[(٤)] .

و«بل » الابتدائية التي تليها جملةٌ تفيد «الإضراب». ويقسم العلماء هذا الإضراب إلى نوعين :

- الأول : « الإضراب الإبطالي » ، و« هو الذي يقتضي نفي الحكم السابق ، في الكلام قبل «بل » ، والقطع بأنَّه غير واقع ، ومدعيه كاذب ، والانصراف عنه واجب إلى حكم آخر يجيء بعدها »[(٥)] .
- الثاني : «الإضراب الانتقالي»، وهو «الذي يقتضي الانتقال من غرض قبل الحرف «بل » إلى غرض جديد بعده ، مع إبقاء الحكم السابق على حاله ، وعدم إلغاء مايقتضيه »[(٦)] .

---

(١) د. محمد عبد المطلب : قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، ص ١٤٤

(٢) د. نادية رمضان محمد : عناصر السبك بين القدماء والمحدثين ، بحث ضمن الكتاب التذكاري : العَرَبِيَّة من نحو الجملة إلى نحو النص ، ٢/ ٥٧١ و ٥٧٨

(٣) د. علي توفيق الحمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ١١٥

(٤) السابق : ١١٥

(٥) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣/٦٢٣

(٦) السابق ، ٣/٦٢٣

ومن نصوص سيبويه عن «بل »نصه : « وأما بل فلترك شيءٍ من الكلام وأخذٍ في غيره . قال الشاعر حيث ترك أول الحديث ، وهو أبو ذؤيبٍ :

[بحر البسيط]

بَلْ هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الحيّ غاديةً   كالنّخْلِ زَيَّنَها ينعٌ وإِفْضَاحُ » [١] .

ونلحظ في هذا النَّصّ إبانة سيبويه عن معنى « بل »الابتدائية التي تفيد الإضراب الانتقالي بقوله «وأما بل فلترك شيءٍ من الكلام وأخذٍ في غيره » ، ونلحظ أَنَّه استشهد على هذا المعنى ببيت من الشعر ، وصدر هذا البيت بقوله « <u>قال الشاعر حيث ترك أول الحديث</u> » . ومقولته هذه تدلُّ على أَنَّه وقف على القصيدة كاملة ، وتتَبُّع معانيها وسياقها وعايش ملابساتها ، ثُمَّ تبيَّن له أَنَّ الشاعر عند البيت المذكور قد ترك السِّياق الأوَّل أو المعنى الأول الذي بدأ به قصيدته وانتقل إلى معنى آخر . وأنَّه وجد هذه الظاهرة متكررة الحدوث ؛ فقال بهذا المعنى مع «بل » .

إن مقولة سيبويه «وأما بل فلترك شيءٍ من الكلام وأخذٍ في غيره» تتضمن إشارة للجانب السِّياقي لهذه الأداة ، وهي وإن كانت إشارة بسيطة إلا أنَّها أوضح من التعريف الاصطلاحي الذي ذكرناه قبل للنحاة الذين أتوا من بعده .

ومن نصوص سيبويه أيضا عن هذه الأداة قوله : « والمبدل يشرك المبدل منه فى الجر وذلك قولك : مررتُ برجلٍ حِمارٍ . **<u>فهو على وجهٍ محالٌ ، وعلى وجهٍ حَسَنٌ</u>** . فأَمَّا المحُالُ فأَنْ تَعنَى أنَّ الرجلَ حِمارٌ . وأَما الذى يَحسُن فهو أَنْ تقول : مررتُ برجلٍ ، ثُمَّ تُبْدِلَ الحِمارَ مَكَانَ الرجل فتقولَ : حِمارٍ ، **<u>إمَّا أَنْ تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ ، وإمّا أَنْ يَبْدُوَ لك أَن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنتَ أردتَ غيْرَ ذلك</u>** .... ومن ذلك قولك : **<u>مررتُ برجلٍ بَلْ حمار ، وهو على تفسير : مررتُ برجلٍ حِمارٍ</u>**» [٢] .

في هذا النَّصّ نلاحظ أَنَّ تفسير الجملة «مررتُ برجلٍ حِمارٍ » لا يمكن بدون تدخل السِّياق ، فلا يمكن أَنْ نعني بها « أَنَّ الرجل حمار » ، <u>بل لا بد من وجود « غلط أو نسيان » من المُتَكَلِّم يستتبعه استدراك لهذا النسيان أو الغلط</u> . أو أنَّ المتكلم قال : « مررت برجل» ثم أضرب وعدل عن هذا الكلام وقال : « مررت بحمار » . وأنَّ <u>هذا التفسير هو نفسه الذي يمكن أَنْ يطلق على قولنا : « مررتُ برجلٍ بَلْ حمار »</u> .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٣/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٤٩/١

على هذا نقول إنَّ بل قد يأتي بها المُتَكَلِّم لتفادي الخطأ والنسيان الذي قد يقع فيه . ونلاحظ هنا في هذا النَّصّ ارتباط الأداة «بل » ـ في بعض استعمالاتها ـ بما أسماه النُّحَاة بدل الغلط ، وبدل النسيان[(١)] .

وقد تأتي «بل » في بعض استعمالاتها الأخرى مرتبطة بالنعت ، ففي نصّ لسيبويه يربط فيه بين الأداة «بل » وبين شكل من أشكال النعت ، ونمط من أنماطه فيقول : « ومنه أيضًا (؛ أي من أشكال النعت) : مررتُ برجل صالحٍ بل طالحٍ ، وما مررتُ برجلٍ كَريمٍ بل لئيمٍ ، **أَبدلتَ الصفةَ الآخِرَةَ من الصفةِ الأولى ، وأُشرِكَتْ بينهما بَلْ في الإجراءِ على المنعوت** . وكذلك : مررتُ برجل صالحٍ بل طالحٍ ، **ولَكِنَّه يجيءُ على النَّسيان أو الغَلَطِ ، فيَتَدارِكُ كلامَه ؛ لأَنَّه ابتدأ بواجب**» [(٢)] .

من خلال النصين الأخيرين نخرج بالآتي :

- ✓ أن الأداة «بل » في حال كونها ابتدائية تفيد الإضراب قد تأتي لتحل «مشكلة نُطْقِية ذهنية » في الجملة ناتجة عن «**نسيان أو غلط المُتَكَلِّم**» : أي أَنَّ الذي تسبب في وجود هذه الأداة في الأساس في الجملة هو المُتَكَلِّم نسيانا أو خطأ .
- ✓ ونلاحظ أَنَّ هذه الأداة مرتبطة بالمُتَكَلِّم «فقط» ، فهو ـ فيما أظن وأعتقد ـ الذي استخدم هذه الأداة منعزلا عن السِّياق المحيط به ، فهي أداة أتت لإصلاح «خطأ مفاجئ » ـ إنْ جاز هذا التعبير ـ وقع فيه المُتَكَلِّم . وقد يؤَيِّد هذا قول أحد النُّحَاة عن بل حينما تأتي مع بدل النسيان أو الغلط يقول : «والبَدَلُ المُباينُ بأقسامهِ لا يقعُ في كلامِ البُلغَاءِ . والبليغُ إنْ وقع في شيءٍ منها أتى بين البدل والمبدَل منه بكلمةِ «بل » دلالةً على غلطهِ أو نسيانهِ أو إضرابه » [(٣)] .

***

---

(١) يحدثنا النُّحَاة عن نوع من البدل يسمى بدل المباينة ، ويقسم النُّحَاة هذا النوع من البدل إلى ثلاثة أنواع : بدل الغلط ، بدل النسيان ، بدل الإضراب . فقالوا في تعريف بدل الغلط : « وهو الذي يذكر فيه المبدل منه غلطا لسانيا ، ويجيء البدل بعده لتصحيح الغلط . وذلك بأن يجري اللسان بالمتبوع من غير قصد ، ثم ينكشف هذا الغلط والخطأ للمتكلم سريعا ؛ فيذكر البدل ، ليتدارك به الخطأ اللساني ويصححه . فالغلط إِنَّمَا هو في ذكر المبدل منه ، لا في البدل »وبدل النسيان : « هو الذي يذكر فيه المبدل منه قصدا ، ويتبين للمتكلم فساد قصده ؛ فيعدل عنه ويذكر البدل الذي هو الصواب ؛ نحو : «صليت أمس العصر ، الظهر ، في الحقل». فقد قصد المُتَكَلِّم النص على صلاة العصر ، ثم تبين له أنه نسي حقيقة الوقت الذي صلاه ، وأنه ليس العصر ؛ فبادر إلى ذكر الحقيقة التي تذكرها ؛ وهي: « الظهر »، فكلمة: « الظهر »بدل مقصود من كلمة : « العصر »بدل نسيان . والفرق بين هذا البدل وسابقه أن الغلط يكون من اللسان . إما النسيان فمن العقل » . ينظر : النحو الوافي ، ٣/ ٦٧٠ ـ ٦٧١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١/ ٤٣٤

(٣) مصطفى بن محمد سليم الغلاييني : جامع الدروس العَرَبِيَّة ، ٣/ ٢٣٨

٧ـ الأداة «قَدْ» :

قال سيبويه عن هذه الأداة ما يلي :

> «فمن تلك الحروف قد ، لا يُفصَل بينها وبين الفعل بغيره ، وهو جوابٌ لقوله أفعل ؛ كما كانت «ما فعل» جوابًا لـ «هل فعل ؟ » ؛ إذا أخبرت أَنَّه لم يقع . **ولما يَفْعَلْ وقد فَعَلَ ، إنَّما هما لقومٍ ينتظرون شيئًا .** فمن ثم أشبهت قد لما ، في أنَّها لا يُفصَل بينها وبين الفعل» (١) .

تستوقفنا هنا عبارة سيبويه « ولما يَفْعَلْ وقد فَعَلَ ، إنَّما هما لقومٍ ينتظرون شيئًا » ، وهي عبارة مثيرة للانتباه ، يفسرها السيرافي بقوله : « منزلة قد من الفعل كمنزلة الألف واللام من الاسم ؛ لأَنَّ دخولها على فعل متوقع أو مسئول عنه ؛ لأَنَّه إذا قال : قد قام زيد ؛ فَإِنَّما يقوله **لمن يتوقع قيامه أو لمن سأل عنه ؛ فقال : هل قام زيد ؟ وإذا قال : قام زيد ؛ فَإِنَّما يبتدئ إخبارا بقيامه لمن لا ينتظره ولا يتوقعه ؛ فأشبهت قد العهدَ في قولك : « جاءني الرجل » ؛ لمن عهده المخاطب أو جرى ذكره عنده** ... » (٢) .

وقال ابن منظور في لسان العرب عن الحرف «قد» : «وقد تخفف داله . وقد ، مخفف : كلمة معناها التوقع . قال الجوهري : قد حرف لا يدخل إلا على الأفعال ، قال الخليل : هي جواب لقوم ينتظرون الخبر أو لقوم ينتظرون شيئا ، تقول : قد مات فلان ، ولو أخبره وهو لا ينتظره لم يقل : قد مات ولكن يقول : مات فلان » (٣) .

من خلال نصّ سيبويه وشرح السيرافي وابن منظور نفهم أَنَّ : التركيب : «قَدْ + فعل ماض متصرف خبري مثبت + فاعل» يدل على « **قوم ينتظرون شيئا ؛ أي يتوقعون فعلا أو يسألون عنه**» ، أي أَنَّ :

- قولنا « قد قام زيد » نقوله : « لمن يتوقع القيام من زيد أو لمن سأل عنه فقال : هل قام زيد ؟ » .
- وقولنا «قام زيد» نقوله : « عندما نبتدئ ونخبر عن قيام زيد لمن لا ينتظر هذا القيام ولا يتوقعه» .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣/١١٤ ـ ١١٥

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣/١١٥ ، الحاشية ذات الرَّقْم١

(٣) ٣/٣٤٦

وهنا نقول إنَّ توقع القيام بالفعل هو أمر سِياقِيّ ، ولا بد أنْ يُسبَقَ هذا التوقع بمجموعة من الأحداث السِّياقِيَّة الاجتِماعِيَّة النفسِيَّة التي تهيئ لهذا التوقع ، وتجعل المخاطب أو السامع في حالة التوقع هذه ؛ أي أَنَّ السِّياق هنا هو الذي يحدد استخدام أحد هذين التركيبين : « قَدْ + فعل ماض متصرف خبري مثبت + فاعل » أو « فعل ماض متصرف خبري مثبت + فاعل » إذا أردنا اختيار أحدهما . ويلعب المُتَكَلِّم دورا في اختيار التركيب المناسب إذ ينبغي أَنْ يأخذ بعين الاعتبار السِّياق وحالة المخاطب والسامع .

وهذا النَّصّ هنا لسيبويه يمكن أَنْ يُضاف إلى الأدِلَّة التي تثبت أَنَّه كان يُنَمِّطُ اللُّغَة إلى تراكيب لغوية مُجَرَّدة ثُمَّ يتَتَبَّعها دِلالِيًّا في السِّياقات التي تأتي فيها .

***

٨- الأداة «أَلَا» :

قال النُّحَاة عن ألا : «وترد «ألا » **للتنبيه** فتدخل على الجملتين نحو : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يونس : ٦٢ ، ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ هود : ٨ **وعرضية وتحضيضية** ؛ فتختصان بالفعلِيَّة ، نحو : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ النور : ٢٢ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ التوبة : ١٣ »[1] . أي أَنَّه من خلال التتَبُّع السِّياقي لهذه الأداة تمخَّض هذا التتَبُّع عن ثلاث دلالات : التنبيه والعرض والتحضيض .

- والتنبيه هو « بيان الشيء قصدا بعد سبقه ضمنا ، على وجه لو توجّه إليه السامع الفطن بكليته لعرفه ، لكن لكونه ضمنيا ربما يغفل عنه »[2] .
- والعرض : « هو الطلب برفق ولين . ويظهران ـ غالبا ـ في صوت المُتَكَلِّم ، وفي اختيار كلماته رقيقة دالة على الرفق»[3] .
- والتحضيض : «هو الطلب بشِدَّة وعنف . ويظهران ـ غالبا ـ في صوت المُتَكَلِّم ، وفي اختيار كلماته جزلة قوية »[4] .

وواضح من التعريفات الثلاث أنها تتطلب سياقا للتفرقة بينها ، وأنَّ « سياق الكلام ونبرة صوت المُتَكَلِّم واختياره لكلماته » أهم ما يميِّز بين العرض والتحضيض .

---

(١) ابن هشام : أوضح المسالك إلى ألفِيَّة ابن مالك ، ٢٥/٢

(٢) التهانوي : موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون ، ٥١٦/١

(٣) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣٦٩/٤

(٤) السابق : ٣٦٩/٤

وقد عبَّر سيبويه عن وظيفة التنبيه لـ «أَلَا» قائلا : «وأمَّا ألا فتنبيه ، تقول : ألا إنَّه ذاهبٌ . ألا : بلى» [١] .

ولابد لكي تخلص ألا للتنبيه أَنْ تقوم قرينة السِّياق ونبرات صوت المُتَكَلِّم وكلماته لتدل على ذلك . والتنبيه يقتضي عقلا : مُنَبِّه ومُنَبَّه ، ومنبه عليه ؛ لذلك قال عبد القاهر : «التنبيه لا يكون إلا على معلوم» [٢] .

٩ـ الأداة «إمَّا» :

الأداة «إمَّا» ـ بكسر الهمزة وتشديد الميم ـ هي «حرف تفصيل غير عامل واجب التكرار» [٣] . وتفيد عدة معاني : التخيير ، الإباحة ، الإبهام ، الشك [٤] .

وقد تحدَّث سيبويه عن هذه الأداة قائلا : « ومن النعت أيضا : مررت برجلٍ إمّا قائمٍ وإمّا قاعدٍ ، فقد أَعلمهم أَنَّهُ ليس بمُضْطَجِعٍ ولَكِنَّه شكٌ فى القيام والقعودِ ، وأَعلمهم أَنَّهُ على أحدهما» [٥] .

ونلاحظ في نصّ سيبويه هذا أَنَّ «إمَّا» تدلُّ على ثلاثة معان : «معنيين محصورين» ، ومعنى «مستبعد» ، ففي مثَّل سيبويه في نصه السابق : «مررت برجلٍ إمّا قائمٍ وإمّا قاعدٍ ، فقد أَعلمهم أَنَّهُ ليس بمُضْطَجِعٍ» معنيان محصوران : «القيام والقعود» ، ومعنى مستبعد «الاضطجاع» وأعتقد أَنَّ هذا المعنى الثالث المعنى المستبعَد لابد من اعتباره مع هذه الأداة ؛ أي أَنَّ هذه الأداة إذا دَلَّت على الشك ارتبط بها معنيان محصوران ومعنى مستبعد ، ودليلي على اعتبار هذا المعنى الثالث لهذه الأداة إضافة سيبويه التي أضافها بعد المثل : « فقد أَعلمهم أَنَّهُ ليس بمُضْطَجِعٍ» . فقد كان في مُكنته أَنْ يقول : «مررت برجلٍ إمّا قائمٍ وإمّا قاعدٍ ، لكن القائل شكٌ فى القيام والقعود» ؛ فلو لم تكن لعبارة سيبويه «فقد أَعلمهم أَنَّهُ ليس بمُضْطَجِعٍ» فائدة في الكلام لما ذكرها ، ولكانت عبارة لا قيمة لها ، ونعلم أَنَّ لكلِّ لفظة في الكتاب لها قيمتها وخطرها . أي أَنَّنا يمكن أَنْ نقعد للإداة «إمَّا» ـ من خلال كلام سيبويه ـ بقولنا : إنَّ هذه الأداة تدلُّ إذا أتت لمعنى الشك على ثلاثة معان : معنيين محصورين ومعنى مستبعد .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٥/٤

(٢) دلائل الإعجاز ، ١٤٥

(٣) د. على توفيق الحمد : معجم أدوات النحو العربي ، ص ٧١

(٤) السابق : ص ٧١ ـ٧٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٩/١

واستخدام المُتَكَلِّم هذه الأداة بمعنى الشك يستلزم سياقا يضم طرفين : متكلم ، ومخاطب أو مخاطبين ، يجمعهم حديثٌ حول موضوع ما وقعوا في شكٍّ حول نسبة ثلاثة معان له ، وحاروا في أيٍّ منها ينسب أو يوصف أو يناط بهذا الموضوع ؛ فدفع هذا المُتَكَلِّم أَنْ يحصر الشك في معنيين فقط ؛ وهذا يعني أَنَّ الأداة «إِمَّا» تأتي في الكلام وحالة الشك قائمة ؛ وأنَّها قد أُتِيَ بها لتضييق دائرة الشك .

ومن الأدوات التي تفيد الشك الأداة «أو»، والفرق بينها وبين «إِمَّا» أَنَّ «أو» يُؤْتَى بها بعد أَنْ يكون الكلام قد بُدِئ به على سبيل اليقين ثُمَّ اعتراه الشك ، أَمَّا «إِمَّا» فيُؤْتَى بها وحالة الشك قائمة أصلا ، قال المبرد : «وَزعم الْخَلِيل أَن الْفَصْل بَين «إِمَّا» و «أو» أَنَّك إِذا قلت : ضربت زيدا أَو عمرا فقد مضى صدر كلامك وَأَنت مُتَيَقن عِنْد السَّامع ، ثُمَّ حدث الشَّك بِ «أو» فَإِذا قلت : ضربت إِمَّا زيدا [وإما عمرو] ؛ فقد بنيت كلامك على الشَّك»[(١)] ، وقال ابن جني : «ومعنى «إِمَّا» كمعنى «أو» في الخبر والإباحة والتخيير ، تقول : قام إِمَّا زيد وإِمَّا عمرو ، وكُلْ إِمَّا تمرا وإِمَّا سمكا ؛ إلا أَنَّها أقعد في لفظ الشك من أو ؛ **ألا تراك تبتدئها شاكًّا** وتقول : قام إما زيد وإما عمرو . و«أو» **يمضي صدر كلامك على لفظ اليقين ثُمَّ تأتي** بـ «أو» فيما بعد ؛ فيعود الشك ساريا من آخر الكلام إلى أوله»[(٢)] .

****

١٠ـالأداة «ذاكَ» : من الأدوات التي تعرض لها سيبويه بالشرح والإيضاح الأداة «ذاكَ» ، فقال عنها : «ذاك اسمٌ مبهَم ، وإِنَّمَا يذكر حين يُظن أَنَّهُ قد عَرفت ما يَعنى»[(٣)] . ونقف عند هذا النَّصّ محلِّلين ونخرج منه بالآتي :

- أنَّ اسم الإشارة «ذاكَ» اسم «مبهم».
- أن هذا الاسم ـ كما نفهم من عبارة سيبويه ـ يذكره «متكلمٌ» للإشارة إلى «مسمّى محسوس» معروف لدى «المخاطب أو المستمع» ؛ لأَنَّه عُرِف من قبل . ولا نستطيع من كلام سيبويه هنا أَنْ نحدد ما إذا كان هذا «المسمّى المحسوس» لابد أَنْ يذكر في نفس الكلام أم من الممكن أَنْ تكون الإشارة في موقف سِياقِيّ سابق .

---

(١) المقتضب : ت : محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، ٣/ ٢٨

(٢)اللمع في العَرَبِيَّة : ص٩٥

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢ /٣٨٣ ـ ٣٨٤ وقد أورد الأستاذ هارون في الحاشية ذات الرَّقْم١ في ص٣٨٤ رواية أخرى للعبارة الأخيرة في النص هي «قد عُرِف ما يعني».

وصفة الإبهام التي وصف بها سيبويه اسم الإشارة «ذاكَ »ليست مقصورة قطعا على هذا الاسم بعينه ، بل هي تنسحب على بقية الأسماء التي تذكر تحت مصطلح اسم الإشارة(١) ، وهي : «تا ، وتي ، وذي ، وته ، وذه ، وتهي ، وذهي ، وذان ، وذين ، وتان ، وتين ، وأولاء مدّا وقصرا ».

وعند البحث عن معنى «الإبهام» الذي يقصده سيبويه في نصه مع اسم الإشارة «ذاكَ » وجدنا ابن يعيش يقول : «ويقال لهذه الأسماء(أسماء الإشارة) : مبهماتٌ ؛ لأنها تشير بها إلى كل ما بحضرتك ، وقد يكون بحضرتك أشياء ، فتُلْبس على المخاطب ، فلم يدر إلى أيِّها تشير ، فكانت مبهمة لذلك ؛ ولذلك لزمها البيانُ بالصفة عند الإلباس . ومعنى الإشارة الإيماء إلى حاضر بجارحةٍ أو ما يقوم مقامَ الجارحة ؛ فيتعرفُ بذلك ؛ فتعريفُ الإشارة أَنْ تخصِّص للمخاطب شخصًا يعرفه بحاسَّةِ البَصَرِ ، وسائرِ المعارف هو أَنْ تختصّ شخصًا يعرفه المخاطبُ بقلبه ؛ فلذلك قال النَّحْويّون : إن أسماء الإشارة تتعرّف بشيئَيْن : بالعين وبالقلب »(٢) .

إن هذا التحديد لكلمة «المبهم» في نصّ سيبويه والذي أوضحه ابن يعيش يدلُّ على أَنَّ أسماء الإشارة تتطلب سياق حال لكي يستطيع «المُتَكَلِّم» تحديد الدِّلالَة السِّياقِيَّة لهذا الاسم .

ومن الدلالات السياقية التي استنبطها النحاة لأسماء الإشارة الدلالات الآتية(٣) :

١ـ تمييز الشيء المقصود أكمل تمييز بالإشارة المحسوسة إليه .

٢ـ تنزيل الأشياء المعقولة ، أو غير المشاهدة منزلة الأشياء المحسوسة المشاهدة .

٣ـ بيان حال المشار إليه في القرب والبعد .

٤ـ التعظيم .

٥ـ التحقير .

٦ـ التعريض بغباوة المخاطب .

وإشارة أسماء الإشارة ـ كما يفهم من نص سيبويه ـ إلى « مسمّى معروف بين المُتَكَلِّم والمخاطب»يسهم في « ترابط النَّصّ وتماسكه» ؛ لذلك اهتَمَّ بها علماء « نحو النَّصّ » ودرسوها تحت ما أسموه «وسائل الاتساق الإحاليَّة » ، وقالوا في تعريفها : « هي تلك الألفاظ التي نعتمد عليها لتحديد المُحال إليه داخل النَّصّ أو خارجه ، [أو هي ـ كما قال هاليدي ـ] الأدوات التي نعتمد في فهمنا لها

(١) قال ابن يعيش : « فالمعرفة ما دَلَّ على شيء بعينه ؛ وهو على خمسة أضرب: العلم الخاص، والمضمر، **والمبهم وهو شيئان : أسماء الإشارة ، والموصولات** ، والداخل عليه حرف التعريف والمضاف إلى أحد هؤلاء إضافة حقيقة». ينظر : شرح المُفَصّل : ٣٤٧/٣

(٢) ابن يعيش : شرح المُفَصّل ، ٣٥٢/٢

(٣) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٨٨/١

لا على معناه الخاص ، بل على إسنادها إلى شيء آخر » [١] . وأشاروا إلى أنَّها « من عناصر الإحالة Reference التي تعمل على تماسك النَّصّ وترابطه ؛ وذلك لكونه يحدد دور المشاركين في الزمان والمكان داخل المقام الإشاري ، وهو من العناصر المبهمة التي تحتاج إلى ما يفسرها متقدما كان أو متأخرا . وينقسم عند القدماء إلى إشارات تدلُّ على القرب ، وأخرى تدلُّ على البعد حسب موقع المُتَكَلِّم أو الزمان ، هذا بالإضافة إلى أنَّه ضمير قوي وعنصر فاعل ، إذ يمكن استخدامه مكثفا ؛ أي مشيرا إلى عدد كبير من الأحداث السابقة له ؛ رغبة في الاختصار أو اجتنابا للتكرار » [٢]

****

١١ـ الأدوات « الزائدة » :

آثرنا هنا أَنْ نجمع كل الأدوات التي يمكن أَنْ تأتي زائدة في الكلام ، و أَنْ يكون كلامنا عنها جملة واحدة منعا للتكرار . وسنقوم فيما يلي بذكر هذه الأدوات « الزائدة » التي وقفنا عليها في الكتاب وبجوار كل منها كلام سيبويه .

وهذه الأدوات هي :

أ- الأداة « **أنْ الزائدة** » : ويقول سيبويه فيها : « وأما أنْ فتكون بمنزلة لام القسم في قوله : أَمَّا واللهِ أَنْ لو فعلتَ لفعلتُ . وقد بينا ذلك في موضعه . وتكون توكيدًا أيضًا في قولك : لمَّا أَنْ فَعَلَ ، كما كانت توكيدًا في القسم وكما كانت إنْ مع مَا » [٣] .

ب- الأداة « **باء الجر الزائدة** » : ويقول سيبويه فيها : « وقد تكون باء الإضافة بمنزلتها (مِن الجارة) في التوكيد ، وذلك قولك : ما زيد بمنطلقٍ ، ولستُ بذاهبٍ ، **أراد أَنْ يكون مؤكِّدًا** حيث نفي الانطلاق والذهاب » [٤] .

ت- الأداة « **ما الزائدة** » : ويقول سيبويه فيها : « وأما قوله عزّ وجلّ : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم** ﴾ ؛ فإنَّما جاء لأنَّهُ ليس لـ « مَا » معنىً سِوى ما كان قبل أَنْ تجيء إلا التوكيد » [٥] ، وقال : « وتكون توكيدًا لغوًا ، وذلك قولك : متى ما تأتِني آتِك ، وقولك : غضِبْتَ من غير ما

---

(١) بحث للأستاذ الدكتور أحمد عفيفي ، بعنوان : « الإحالة في النص دراسة في الدِّلَالَة والوظيفة » ضمن الكتاب التذكاري للمؤتمر الثالث للعربية والدراسات النَّحْوِيَّة الذي عنوانه « العَرَبِيَّة بين نحو الجملة ونحو النص » .٥٣٢/٢

(٢) السابق ، بحث الأستاذة الدكتورة : نادية رمضان ، بعنوان : « عناصر السبك بين القدماء والمحدثين » ٥٧٦/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٢/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٥/٤

(٥) سيبويه : الكتاب ، ١٨٠/١

جُرْمٍ . وقال الله عز وجل : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾وهي لغوٌ في أَنَّها لم تُحْدِث إذ جاءت شيئًا لم يكن قبل أَنْ تجيء من العمل ، وهي توكيدٌ للكلام » [(١)] .

ث- الأداة « **مِنْ** » : ويقول سيبويه فيها : « وقد تدخل [مِن] في موضعٍ لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيما **ولَكِنَّها توكيد بمنزلة ما** ، إلا أنها تَجُر لأَنَّها حرف إضافة ، وذلك قولك : ما أتاني من رجلٍ وما رأيت من أحدٍ . ولو أُخرجت من كان الكلام حسنًا ، **ولَكِنَّه أَكَّدَ بمن** لأَنَّ هذا موضع تبعيضٍ ، فأراد أَنَّهُ لم يأته بعضُ الرجال والناس . وكذلك : ويحه من رجلٍ ، **إِنَّمَا أراد أَنْ يجعل التعجب من بعض الرجال** . وكذلك : لي مِلْؤُه من عسلٍ ، وكذلك : هو أفضل من زيدٍ ، إِنَّمَا أراد أَنْ يفضله على بعضٍ ولا يعم » [(٢)] .

ج- الأداة « **لا الزائدة** » : ويقول سيبويه فيها : « وأَمَّا لا فتكون كما في التوكيد واللغو . قال الله عز وجل : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الحديد : ٢٩ ؛ أي لأَنَّ يعلم » [(٣)] .

ومن خلال تأمُّلنا لهذه النصوص وتحليلها مجتمعة نخرج بالملحوظات الآتية :

✓ **الملحوظة الأولى** : في النَّصّ الذي أورده سيبويه مع « مِنْ » الزائدة نقف على قوله : « وقد تدخل [مِن] في موضعٍ لو لم تدخل فيه كان **الكلام مستقيما** ... **ولو أُخرجت مِنْ كان الكلام حسنًا** » ونفهم منه : أَنَّه يصح الاستغناء عن « مِنْ » في قولنا : « ما أتاني من رجلٍ » ونقول : « ما أتاني رجلٌ » . والذي يُبَرِّرُ هذا الاستغناء ـ كما في عبارة سيبويه ـ أَنَّ **الكلام بعد الحذف ظل مستقيما حسنا** .

والجملة « المستقيمة » عند سيبويه هي « الكلام المستقيم استقامة نحويَّة ودلالية » [(٤)] ، والكلام المستقيم نحويا عنده تتوزع استقامته على ثلاثة أنواع ، هي : « المستقيم الحسن ، والمستقيم الكذب ، والمستقيم القبيح ، فكل جملة صحيحة نحويا تُعَدُّ مستقيمة ، ولكن الحكم على هذه الاستقامة بالحسن

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢١/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٥/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٢/٤

(٤) د. محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدِّلَالَة ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٠م) ، ص ٦٦ ، ويقول أستاذنا د. حماسة في الحاشية ذات الرَّقْم ا من نفس الصفحة : « **لمصطلح الكلام في كتاب سيبويه معاني كثيرة ، من بينها وأكثرها دورانا الجملة** » . وينظر أيضا لسيادته : بناء الجملة العَرَبِيَّة ، دار غريب ، القاهرة، ٢٠٠٣م ، ص ٢١ وما بعدها .

أو بالكذب يتعلق بالمعنى الذي تفيده عناصر الجملة عندما تترابط نحويا » [١] . فمثلا الجملة : «أتيتك أمس» هي من المستقيم الحسن عند سيبويه وذلك لـ «توافق الاختيار بين عناصر بناء الجملة ـ وهي الصورة الصَّوْتِيَّة المنطوقة ـ في أمور كثيرة ؛ فالفعل الماضي «أتى» يصحُّ وقوعه من الفاعل وهو في الجملة «المُتَكَلِّم» وتعبِّر عنه تاء الفاعل . ويمكن تحقق المفعوليّة مع المفعول به ـ وتعبِّر عنه في الجملة كاف المخاطب ـ والدِّلَالَة الأوَّلية لظرف الزمان «أمس» هي المضي ، فلا تناقض بين وقوع الفعل وفاعله مع مفعوله وبين المفعول فيه » [٢] .

أي أَنَّ الذي برَّر الاستغناء عن «مِنْ» في جملة «ما أتاني من رجلٍ » أَنَّ **<u>الجملة بقيت صحيحة نحويا ودِلاليًّا ، ولم يصبها خلل في التركيب النَّحْوِيّ أو فسادٌ في الدِّلَالَة</u>** .

وبمفهوم المخالفة يمكن أَنْ نقول إنَّ **<u>كلَّ ما يسبِّب خللا في التركيب النَّحْوِيّ للجملة أو فسادا دِلاليًّا لا يصحُّ الاستغناء عنه</u>** .

إذا كان استنتاجنا هنا صحيحا فهل يصحُّ لنا أَنْ نضع تعريفا لـ «للكلمة الزائدة»ونقول إنَّ : «<u>الكلمة الزائدة هي التي يصح حذفها من الجملة وتبقى بعد الحذف صحيحة نحويا ودِلاليًّا</u>»؟

إذا أخذنا بهذا كتعريف للكلمة الزائدة فلن يسلم من الاعتراض عليه ، ويمكن نقضه بسهولة ، ويُؤْخَذ علينا السبيل به ، وذلك بأن نقول مثلا : هل الحرف «إنَّ » في قولنا «إنَّ زيدًا منطلق» حرف زائد ؟ فبناء على التعريف السابق يمكن الاستغناء عن الحرف «إنَّ »ويبقى تركيب الجملة صحيحا نحويا ودِلاليًّا . والواقع يقول إنَّه لا أحدَ من النُّحَاة ـ حسبما أعلم ـ قال إنَّ «إنَّ مكسورة الهمزة ومشددة النون»تأتي زائدة . وعقلا لا يمكن أَنْ نقول إنَّ «إنَّ » تأتي زائدة ؛ لأنَّها تأتي لحاجة سِيَاقِيَّة مُهِمَّة من قِبَل المُتَكَلِّم ، وهذه الحاجة السِّياقِيَّة هي تأكيد نسبة الخبر لاسم إنَّ كما ذكرنا ذلك عند الحديث عن إن .

إذن فإِنَّنَا لا يمكن أَنْ نعتمد على الاستنتاج السابق في تحديد «الكلمة الزائدة» ، ولا يمكن أَنْ نأخذ بالقول الذي يقول إنَّ معنى زيادة «الحرف» هو «تركه مهملا لا يؤثِّر في غيره ولا يتَأَثَّر بغيره ، سواء كان في أصله مهملا مثل : «لا النافية الزائدة» ، أم كان في أصله عاملا ، مثل : «كان» الزائدة» [٣] ؛ لأَنَّ هذا يصطدم بما قرَّره سيبويه مثلا مع الأداة «<u>مِنْ</u>»حيث قرر «أنَّها تَجُر لأنَّها حرف إضافة» .

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدِّلَالَة ، ص ٦٦

(٢) السابق : ٦٨

(٣) عباس حسن : النحو الوافي ، ٦٦/١ الحاشية ذات الرَّقْم١

إذن ما هو تعريف الكلمة الزائدة ؟

سنحاول أَنْ نجتهد ونضع تعريفا للكلمة الزائدة في الجملة ، ولكن قبل هذه المحاولة نوجَّه النظر إلى :

- أنَّ القاسم المشترك بين كل الحروف الزائدة هو أنَّها تأتي للتوكيد .
- أنَّ التوكيد درجات ، فليس كل التوكيد على درجة واحدة من القوة ، فمثلا التوكيد بالنون «الثقيلة أشد من الخفيفة»[1] ، قال السيوطي : «نون التوكيد نوعان خفيفة وثقيلة ، والتأكيد بها ـ أي الثقيلة ـ أشد من التأكيد بالخفيفة نصّ عليه الخليل »[2] . وطالما أَنَّ التوكيد على درجات فيمكن أَنْ نقول إِنَّ من التوكيد ما هو ضروري لمصلحة الجملة والسِّياق ومنها ما هو ثانوي . والذي يتحكم في درجة هذه الأهمِيَّة هو بلا شك سياق الحال الذي أبرز مكوناته المُتَكَلِّم وإرادته والمخاطب . فقد نصّ العلماء على أَنَّ هناك « ضروبا من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب ، وإِنَّمَا ينظر فيها المُتَكَلِّم إلى حال نفسه ، **ومدى انفعاله بهذه الحقائق** ، وحرصه على إذاعتها ، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه ، وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة »[3] ؛ وفي قوله تعالى ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ يوسف : ٣٢ يقول النُّحَاة معللين لاستخدام الآية لنوني التوكيد الثقيلة والخفيفة : «**فَإِنَّ امرأة العزيز كانت أشد حرصًا على سجنه من كونه صاغرًا ؛ لأنها كانت تتوقع حبسه في بيتها ؛ فتقرب منه وتراه كلما أرادت**»[4] .

ونشير إلى أَنَّ التوكيد بـ «إِنَّ » **ضروري** لمصلحة السِّياق ، والتوكيد بـ «من الزائدة ، باء الجر الزائدة ، ما الزائدة ، لا الزائدة» **ثانوي** . بناء على هاتين النقطتين وما سبقهما يمكن أَنْ نعرف الكلمة الزائدة بأَنَّها « **الكلمة التي لو حذفت لم يحدث خللٌ في التركيب النَّحْوِيّ أو الدِّلَالِيّ والتي تأتي لتضيف توكيدًا ثانويا للجملة** » ، ولا شك أَنَّ هذا التعريف يلعب فيه سياق الحال دورا مهما ، **فهو الذي يُعَوَّلُ عليه تحديد ضرورية السِّياق للتوكيد أو ثانويته** .

---

(١) الحسن بن قاسم المرادي : الجنى الداني في حروف المعاني ، ص١٤١

(٢) همع الهوامع ، ٦١١/٢

(٣) د. محمد محمد أبو موسى : خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ط ٧ (بدون تاريخ للطبعة) ، ص٩١

(٤) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفِيَّة ابن مالك ، ٣١٤/٣

✓ **المَلحوظة الثانية** : قال بعض النُّحَاة إنَّ التوكيد (الثانوي) الذي تأتي به أحرف الزيادة يأتي «لتوكيد معنى موجود ... [و] لإفادة توكيد المعنى القائم »[1] . وهذا الكلام يجده الباحث غامضا قليلا بناء على ما يفهمه من كلام سيبويه ، فهو يقول مثلا مع الأداة «مِن » : «ويحه من رجل ؛ إنَّمَا أراد أَنْ يجعل التعجب من بعض الرجال » ، أي أَنَّ «مِن الزائدة»أفادت في هذه الجملة« التبعيض » ، ولا يفهم هذا التبعض من الجملة بدون « مِن » ، بل يفهم من الجملة «ويحه رجلا » أَنَّ المُتَكَلِّم يتعجب من سلوك شخص ما بناء على ملابسات سِيَاقِيَّة ما دفعته لهذا التعجب ، وهذا ما قاله سيبويه نفسه عن الأداة « ويح » إذ يقول : « إذا قلت ويحه **فقد تعجبت وأبهمتَ** »[2] . ولا يفهم من جملة : « ما أتاني أحد » إلا معنى العموم ؛ لأَنَّ «أحد » كلمة نكرة في سياق نفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم حسبما تقرر القاعدة الأصولية ، ولم يُحصَّل من الجملة معنى التبعيض .

ما أرمي إليه هنا أَنَّ معنى التبعيض لم يكن قائما في الجملة ثُمَّ أتت «مِن » لتأكيده ، بل إِنَّ المعنى القائم أصلا هو التعجب في الجملة الأولى والعموم في الثانية .

✓ **المَلحوظة الثالثة** : استخدم سيبويه كلمة «**لغو** »في وصف بعض الحروف الزائدة ، فقال عن « لا الزائدة » : « وأما لا فتكون كما في التوكيد واللغو ، قال الله عز وجل ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ » ، والجمع بين كلمتي «التوكيد واللغو »بحرف العطف «الواو »في وصف الأداة «لا الزائدة » يدل على أنهما متغايران ، وأنَّ «التوكيد + اللغو » يحددان كون الكلمة زائدة ، وحسب التعريف الذي اقترحناه فَإِنَّ «التوكيد » المقصود هو التوكيد الثانوي ، ولا بد أَنْ تكون كلمة «اللغو » تعني «الاستقامة الحسنة للجملة بعد حذف الكلمة التي جيء بها لإضافة هذا التوكيد الثانوي » . أي أَنَّ كلمة «اللغو » لا تعني عند سيبويه «الكلام العبثي » الخالي من الصحة النحوِيَّة والدِّلالِيَّة ، بل تعني الكلام الصحيح نحويا ودِلالِيًّا حتى بعد الاستغناء عن عنصر منه . ويؤكد هذا اشتشهاده بالآية القُرْآنِيَّة ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

وعندما وصف سيبويه « ما الزائدة » قال : « وتكون توكيدًا لغوا » ؛ أي تكون ما الزائدة توكيدًا وتكون لغوا ؛ أي : يصح الاستغناء عنها وتبقى الجملة مستقيمة حسنة ؛ أي صحيحة نحويا ودِلالِيًّا ؛ أي أَنَّ اللغو مرادف لما قاله سيبويه في موضع آخر من كتابه عن الكلام «المستقيم الحسن» .

***

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، الحاشية ذات الرَّقْم١ ، ٦٦/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ١٧٤/٢

١٢ـأدوات «العرض والحض هَلَّا ، ألا ، لولا» :

عرض سيبويه للوظيفة السِّياقِيَّة للأدوات «هَلَّا ، ألا ، لولا »، وأشار إلى أَنَّ هذه الأدوات قد تفيد العَرْضَ ، فقال : «وزعم يُونُس أَنَّكَ تقول : هَلاَّ تقولَنَّ ، وألاَّ تقولنَّ . **وهذا أقرب لأَنَّكَ تعرِض** ، فكأنَّك قلت : افعلْ ؛ لأنَّهُ استفهام فيه معنى **العرض** . ومثل ذلك : لولا تقولنَّ ، **لأَنَّكَ تَعرِض**»[١] .

ولم يبين لنا سيبويه المقصود بـ « العرض » ، وقد تكفَّل النُّحَاة من بعده بتوضيح هذا « المصطلح » ، وإبراز أهم خصائصه النحوِيَّة والدِّلالِيَّة والصَّوْتِيَّة ، كما اهتموا بتوضيح الفرق بين العرض وبين «التحضيض»، والأدوات التي تأتي لأحدهما أو لكليهما ، فقالوا :

- العرض هو «طلب الشيء بلين وتأدب ، وهذا ما يميِّزه عن التحضيض الذي يعني طلب الشيء بحثٍّ وإزعاج »[٢] .
- وأوضح أبو حيان الفرق بين العرض والتحضيض ، فقال : «العرض والتحضيض متقاربان والجامع بينهما التنبيه على الفعل ، إلا أَنَّ التحضيض فيه زيادة تأكيد وحث على الفعل ، فكل تحضيض عرض ؛ لأنَّك إذا حضضته على فعل فقد عرضته عليه»[٣] .
- ومن النُّحَاة من اهتَمَّ بإبراز الجانب الصوتي بين العرض والتحضيض كـ «سمة» للتفريق بينهما ، فقال : «التحضيض هو : الحث وطلب الشيء بقوة وشدة ، تظهر في نبرات الصوت وكلماته ، والعرض : طلب الشيء برفق وملاينة ، تعرف من نبرات الصوت ، وصياغة كلماته أيضًا»[٤] .
- واهتم النُّحَاة بالأدوات التي تأتي للعرض والتحضيض ، وحددوها بالأدوات «ألَا ، هلَّا ، لولا» وتلك هي الأدوات التي ذكرها سيبويه ، وربطها في نصه هنا بالعرض فقط ، وزادوا عليها «أَلَّا ـ بالتشديد ـ ولوما »وقالوا : «إذا كانت الأداة للتحضيض أو للعرض وجب أَنْ يليها المضارع إما ظاهرا ، وإما مقدرا ، يفسره ما بعده ؛ بشرط استقبال زمنه في حالتي ظهوره وتقديره ؛ لأَنَّ أداة الحض والعرض تخلص زمن المضارع للمستقبل ؛ إذ معناها لا

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٥١٤/٣

(٢) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١٥٢

(٣) السيوطي : همع الهوامع ٣٩٠/٢ وكرر ابن هشام ٧٦١هـ نفس الكلام في «شرح شذور الذهب» ، ص٣٩٩

(٤) عباس حسن : النحو الوافي ، ١٣١/٢ الحاشية ذات الرَّقْم١ ، وكرر الأستاذ عباس حسن نفس هذا الكلام في المواضع ١٧٣/٤ ، ٣٦٩/٤

يتحقق إلا فيه »[١] ، وإذا « دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل ، بشرط أَنْ تكون للمعنى الذي ذكرناه ؛ كقوله تعالى﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ التوبة : ١٢٢؛ أي : فلولا ينفر »[٢] .

- وعللوا اختصاص هذه الحروف بـ « الفعلِيَّة » ؛ فقالوا : « مضمون الجملة الفعلِيَّة حادث متجدِّد فيتعلق به الطلب بقوة وحث ، أو برفق وهو ما يفيده التحضيض والعرض ... ، وإن دخلا على الماضي لفظًا أو تأويلا ، كانا للزجر وللتوبيخ على ترك الفعل في الماضي نحو قوله ـ تعالى ـ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾النور : ١٣ »[٣] .
- وقرنوا بعض الأدوات بالعرض بناء على التتَبُّع الاستعمالي لها ، فقالوا عن الأداة « أَلَا » أنَّها «للعرض ، وتكاد تنفرد به «أَلَا »، وهو الأكثر في استعمالها »[٤] .

بعد كل هذه الأقوال نقول :

- ✓ إنَّ «البعد السِّياقي»واضح في كلِّ ما قيل عن هذه الأدوات ، فهو لا بدَّ أَنْ يتدخل في تجلية الفرق بين العرض والتحضيض ، فالسِّياق هو الذي يحدد قصد المُتكَلِّم ـ مع نبرات صوته ـ إذا كان كلامه عرضا أم حضا .
- ✓ والبعد السِّياقي هو الذي يفسر ملازمة هذة الأدوات للفعلية .
- ✓ والبعد السِّياقي هو الذي مكَّن النُّحَاة ـ بما فيهم إمامهم سيبويه ـ من الوقوف على هذه الأدوات في حد ذاتها وتحديد وظيفتها الاستعمالية بالعرض أوالتحضيض ، وإلا كيف يمكننا التفرقة مثلا بين «ألا »التي تفيد التنبيه و «ألا »التي تفيد العرض .
- ✓ والبعد السِّياقي هو الذي يفسر انتقال هذه الأدوات من « العرض والحض » إلى «التوبيخ والزجر والتنديم »[٥] .

---

(١) السابق : ٥١٣/٤

(٢) السابق : ٥١٤/٤

(٣) محمد عبد العزيز النجار : ضياء السالك لأوضح المسالك ، ٧٧/٤

(٤) عباس حسن : النحو الوافي ، ٥١٣/٤

(٥) جاء في «جامع الدروس العَرَبِيَّة»لمصطفى بن محمد سليم الغلاييني : « والفرقُ بينَ التحضيضِ والتّنديمِ أنَّ هذه الأحرفَ إنْ دخلت على المضارع فهيَ للحضِّ على العملِ وتركِ التهاوُنِ به ، نحو : « هَلاّ يرتدعُ فلانٌ عن غيِّه » ، « ألاّ تتُوبُ من ذنبِك » ، « لولا تستغفرونَ اللهَ» ، ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾الحجر: ٧، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾النور: ٢٢ وإن دخلت على الماضي كانت لجعلِ الفاعلِ يندَمُ على فواتِ الأمر وعلى التّهاون به، نحو : « هلاّ

١٣ـالأداة «كَلَّا»:

قال سيبويه : «وأما كلا فردعٌ وزجرٌ »[١] . والمعاني المعجمية للردع والزجر تقود إلى أَنَّ هذه الكلمة تحتاج متكلما «رادعا» ومخاطبا «مردوعا» ، وأمرا «مردوعا عنه» ، قال ابن منظور : «الرَّدع : الكفُّ عن الشيء . **ردعه يردعه ردعا فارتدع : كفه فكف** ؛ ... وترادع القوم : **ردع بعضهم بعضا**»[٢] ؛ أي أَنَّ هذه الأداة تتطلب سياقا وقع فيه أمر لا يقبله العُرْفُ أو الشرع ، وقع فيه المخاطَب المردوع ، ودفع المُتَكَلِّم الرادع لنهيه عن هذا الأمر . أي أَنَّ هذه الكلمة من الكلمات التي تتطلب سياقا مُعَيَّنًا ليصحَّ استعمالها .

قال ابن هشام نقلا عن سيبويه وغيره عن هذه الأداة : «وهي عند سيبويه والخليل والمبرد والزجاج وأكثر البصريين حرف معناه الردع والزجر لا معنى لها عندهم إلا ذلك ، حتى إنَّهُم يجيزون أبدا الوقف عليها والابتداء بما بعدها»[٣] .

وعبارة ابن هشام التي نقل فيها إجازة سيبويه الوقف على «كَلَّا» و «الابتداء بما بعدها» عبارة مُهِمَّة . فهي تتضمن إشارة مُهِمَّة إلى أهمِيَّة السِّياق في التحليل الدِّلَالِيّ والنَّحْوِيّ لهذه الكلمة والجملة التي تليها . فسيبويه لن يجيز الوقف عليها إلا بعد دراسة سِيَاقِيَّة لها في النصوص المختلفة كما نعلم من منهجه .

ومما يؤكد أهمِيَّة السِّياق سياق الحال في التحليل الدِّلَالِيّ والنَّحْوِيّ لهذه الأداة ما أثارته هذه الأداة بين قُرّاء القرآن والنُّحَاة من خلاف من حيث الوقف عليها وعدم الوقف ، فقد «اختلف النَّحْوِيّون في الوقف على «كَلَّا» والابتداء ، فذهبت طائفة إلى أنَّها افتتاح كلام ، فلا يوقف عليها البتة ، ويوقف على ما قبلها . وذهبت طائفة إلى أنَّها لا يوقف عليها ولا يُبتدَأ بها ... ، وذهب قوم إلى أنَّها يوقف عليها إذا كانت رأس آية خاصة ... ، وذهبت طائفة إلى أنَّها يوقف عليها في كل موضع ... وذهبت طائفة إلى تفصيلها ؛ فيوقف عليها إذا كان ما قبلها يُرد ويُنكر . ويبتدأ بها إذا كان ما قبلها لا يُرد ولا ينكر ، وتوصل بما قبلها ، وما كان بعدها إذا لم يكن قبلها كلام تام »[٤] .

= اجتهدتَ » ، تُقرِّعهُ على إهمالهِ، وتُوبِّخهُ على عدَم الاجتهاد ؛ فتجعلُهُ يندَمُ على ما فَرَّطَ وضيَّع. ومنهُ قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾«الأحقاف: ٢٨». ٣/٢٦٠

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٣٥/٤

(٢) لسان العرب : ١٢١/٨

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ص ٢٤٩

(٤) أبو محمد مَكِّيُّ بن أبي طالب القيسي : الوقف على كلَّا وبلى في القرآن ، ت : د. حسين نصار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، ص ٥٠

وقد اختار الإمام مَكِّيُّ بنُ أبي طالب المقرئ[1] الاختيار الأخير ، قائلا « وهذا المذهب أليق بمذاهب القرّاء وحُذاق أهل النظر ، وهو الاختيار ، وبه آخُذُ ، وسنفسر كلَّ حرف في موضعه على هذا المذهب الذي أختاره ، خاصة بما يوجبه النظر ، وما عليه حذاق **النَّحْوِيّين وأهل المعاني**»[2] .

والإمام مكِّيُّ بهذا يخالف سيبويه الذي يرى صحة الوقوف على كل حال ، ولكن أيًّا كان اختلافهما فقد وجدنا الإمام مَكِّيًّا **يستند في بعض الآيات إلى السِّياق سياق الحال (سبب النزول) لتحديد الوقف مع الأداة** «كَلَّا »، فيقول مثلاعند قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ﴾المدثر : ١٥ - ١٦ : «الوقف على «كَلَّا »حسن مختار ، على معنى لا أزيد في ماله وولده . **وكان نزول الآية في الوليد ابن المغيرة . قال سعيد بن جبير : كان له ثلاثة عشر ولدا ، كلهم ذو بيت ؛ فلما نزلت ﴿كَلَّا﴾ في قصته لم يزل في إدبار من الدنيا من نفسه وماله وولده حتى هلك ؛ فهذا يؤَيِّد حسن الوقف عليها**»[3] .

فهذا النَّصّ يشير إلى الاستناد إلى السِّياق عند الإمام مَكِّيُّ ومن قبله سيبويه في تحليل هذه الأداة .

١٤ـالأداة «لَا »:

أشار النُّحَاة إلى «لا » العاطفة فقالوا إنها «تنفي ما وجب للأول »[4]، وقالوا : « وهي تقع لإخراج الثاني مما دخل فيه الأول ، وذلك قولك : ضربتُ زيدًا لا عمرًا ، ومررت برجلٍ لا امرأةٍ »[5] .

وعندما تعرض سيبويه لهذه الأداة قال : «مررتُ برجلٍ راكعٍ لا ساجِدٍ ، **لإخراجِ الشكَّ أو لتأكيد العِلم فيهما**»[6] ، وقال : « ومن ذلك : مررت برجل لا امرأة ، أشركت بينهما « لا » في الباء وأحقَّتِ المرورَ للأوَّل **وفصلَتْ بينهما عند من التبسا عليه فلم يدرِ بأيهما مررتَ**»[7] .

---

(١) هوالعلامة المقرىء ، أبو محمد ، مكِّيُّ بن أبي طالب ، القيسي القيرواني ، ثم القرطبي ، صاحب التصانيف . ولد بالقيروان سنة خمس وخمسين وثلاث مائة . وكان من أوعية العلم مع الدين والسكينة والفهم ، وأقرأ بجامع قرطبة وعظم اسمه ، وبعد صيته .وله ثمانون مصنفا ، كان خَيِّرًا متدينا ، توفي في المحرم سنة سبع وثلاثين وأربع مائة. ينظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٢٣٢/١٣

(٢) الوقف على كلَّا وبلى في القرآن ، ص ٥٠

(٣) السابق ، ٥٧

(٤) الزمخشري : المُفَصّل في صنعة الإعراب ، ص ٤٠٣

(٥) ابن السراج : الأصول في النحو ، ٥٥/٢

(٦) سيبويه : الكتاب ، ١/ ٤٣٠

(٧) سيبويه : الكتاب ، ١/ ٤٣٩

لقد أبان سيبويه عن هذه الأداة الجانب السياقي الذي تأتي إليه ، فهي تأتي لـ :

- لإخراج الشك من ذهن المخاطب الذي قد يلتبس عليه أين وقع الفعل : أعلى المعطوف أم على المعطوف عليه ؟
- لتأكيد العلم فيهما .

والفرق بين تحديد سيبويه للأداة « لا » وتحديد بعض النُّحَاة الذين أتوا من بعده ـ أَنَّ سيبويه اهتَمَّ بإضافة البعد السِّياقي لتحديده ، وهو ما لا نجده في تحديد ابن السراج ولا الزَّمَخْشَرِيّ السابقين . فـ « لا » ـ في تحديد سيبويه ـ تأتي لـ « إخراجِ الشكِّ ورفع اللَّبس أو لتأكيد العلم » ، والشك والتأكيد يتطلبان ـ كما سبق أنْ أشرنا ـ « مسرحا لغويا » يشعر فيه « المُتَكَلِّم » من خلال « ملابسات سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة » أَنَّ « المخاطَب » غير مقتنع بما يُقال أو يسمع ، فـ « **يَدْفَعُ** » هذا المُتَكَلِّم إلى اللجوء إلى « لا » العاطفة لإزالة الشك ورفع الالتباس أو تأكيد المعنى .

وكلام سيبويه هنا عن « لا » دليل دامغ على اعتبار سيبويه لسياق الحال عند التَّقْعِيد النَّحْوِيّ .

وقد ضم بعض النُّحَاة هذا البعد السِّياقي عند تحديده لـ « لا » فقال : « **هي حرف لرد السامع عن الخطأ في الحكم إلى الصواب** ؛ أي لنفي الحكم عن المعطوف وإثباته للمعطوف عليه »[(١)] .

١٥ـ الأداة « لَمَّا » :

من الأدوات التي اعتنى سيبويه بدلالتها الأداة « لَمَّا » ، فقال عنها : « ولمايَفْعَلْ وقد فَعَلَ ، **إنَّما هما لقومٍ ينتظرون شيئًا** . فمن ثم أشبهتْ قَدْ لَمَّا ، في أنَّها لا يُفصَل بينها وبين الفعل »[(٢)] .

الأداة « لَمَّا » كما يقول سيبويه إنَّمَا هي « لقوم ينتظرون شيئا » ، وهذا العبارة على وجازتها ترسم مسرحا لغويا كاملا ، يضم « أفرادا » جمعهم « سياق ما » جعلهم « ينتظرون » وقوع « حدث ما » ، والتعبير بالفعل المضارع « ينتظرون » يدل على استمرارية هذا الانتظار ؛ أي أَنَّ انتظار الحدث قد بدأ قبل زمن الكلام واستمرَّ إلى الحال ومازال ممتدا بعده . وأكَّد هذا المعنى باستخدامه لأداة التوكيد « إنَّما » .

وقد أشار النُّحَاة لهذه الاستمرارية بتأكيدهم على « وجوب امتداد الزمن المنفي بها إلى الزمن الحالي امتدادا ... ، وذلك بأن كون المعنى منفيا في الزمن الماضي وفي الزمن الحالي أيضا من

---

(١) د. على توفيق الحمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٢٧٠

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣/١١٤ ـ ١١٥

غير اقتصار على أحدهما ، نحو : بهرني ورد الحديقة ، وأغراني بقطفه ، ولما أقطفه ، أي : ولما أقطفه ؛ لا في الزمن الماضي «قبل الكلام »، ولا في الحال «وقت الكلام» »[١] .

إن توضيح سيبويه للمعنى الدِّلَالِيّ لـ «لَمَّا »بعبارته «إِنَّما هي لقوم ينتظرون شيئا » يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معايشة سيبويه للتركيب النَّحْوِيّ الذي يدرسه في النصوص الحَيَّة المنطوقة ، تلك المعايشة التي لا تغفل أبدا ملابسات السِّياق التي تقال فيه . كما تدل هذه الجملة أيضا على تتَبُّع سيبويه للتركيب الدِّلَالِيّ في السِّياقات الدِّلالِيَّة المختلفة التي يرد فيها .

١٦ـأدوات النصب «إذن ، حتى ، فاء السببية»:

يُنْظَر ما كتب عنها في السِّياق والجملة الفعلِيَّة .

١٧ـالأداة «نِعْمَ» :

إن دراستنا للأداة «نِعم » وغيرها من الأدوات «السِّياقِيَّة » تؤكد على أَنَّ السِّياق سياق الحال هو المتحكم الأوَّل في استعمال الأداة بوجه عام ؛ بمعنى أَنَّ السِّياق إذا اقتضى «شكا » أتينا بالأداة المناسبة التي تزيل هذا الشك ، وإذا اقتضى «تأكيدا » أتينا بالأداة المناسبة التي تفيد التوكيد ، وإذا اقتضى «ثناء وتعجبا » أتينا بالأداوت التي تفيد الثناء والتعجب .

يقول سيبويه : «وحسبُك به رجلا مثل نِعم رجلا في العمل وفي المعنى ؛ وذلك لأَنَّهما ثناء في استيجابهما المنزلة الرفيعة »[٢] .

إن « نِعم » تأتي لـ «الثناء »للإشارة إلى «المنزلة الرفيعة »، ولا بدَّ لهذه المنزلة الرفيعة من صاحب ولا بد من وجود «خلفية اجتماعِيَّة » عند المُتَكَلِّم تجعله يقف على هذه المنزلة الرفيعة لدى الممدوح ويُثني عليه بسببها .

ويؤكد ما ذهبنا إليه من وجود خلفية اجتماعِيَّة موجودة سلفا لتبرير استخدام « نِعم للثناء » أَنَّ الثناء «مدح مكرر »[٣] ، وأنَّه «ذكر ما يشعر بالتعظيم»[٤] ؛ وله المدح المكرر ، والإشعار بالتعظيم لا بدَّ من خلفية اجتماعِيَّة . وتحديد «نِعم »بـ «الثناء »وليس بالتعجب يدل على اعتباره للسياق والخلفيَّة الاجتماعِيَّة عند التَّقْعِيد والتوجيه .

١٨ـالأداة «نِيْه» :

يُنظَر ما كتب عنها في آخر أسلوب الاستفهام من مبحث السِّياق والأساليب النحوِيَّة .

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي ، ٤١٩/٤

(٢)سيبويه : الكتاب ، ٢/ ١٧٦

(٣)أبو هلال العسكري : معجم الفروق اللُّغوِيَّة ، ص ١٥٠

(٤)التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ، ٥٤١/١

١٩ـ<u>الأداة «وَيْ»</u> :

قال سيبويه عن هذه الأداة : « وسألت الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ عن قوله : ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ، وعن قوله تعالى جدّه : ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القصص : ٨٢ ؛ فزعم أنَّها « وَيْ » مفصولةٌ من كأنَّ والمعنى وقع على أَنَّ القوم انتبهوا ؛ فتكلموا على قدر علمهم ، أو نُبِّهوا فقيل لهم : أما يشبه أَنْ يكون هذا عندكم هكذا »[(١)] .

ونقل الأستاذ هارون في الحاشية ذات الرقْم ٦ من ١٥٤/٢ قول السيرافي تعليقا على نصّ سيبويه السابق فقال : «في ويكأن ثلاثة أقوال : أحدهما قول الخليل الذي ذكرناه ، <u>تكون كلمة تَنَدُّم ، يقولها المُتَنَدِّمُ لغيره ، ومعنى كَأَنَّ التحقيق</u> ... » .

وتعبير كلمة «وَيْ » عن « التندم » لم تأت في عبارة سيبويه عن الخليل ، لكن عبارة السيرافي تدل على أَنَّ إشارة الخليل عن «وَيْ »تضمنت إشارته لمعنى « التندم » ، ويؤكد تضمنَ عبارةِ الخليلِ لمعنى التندم ما أورده الفخر الرازي عند تفسير الأَيَّة ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القصص : ٨٢ ، حيث قال : « أَمَّا قوله : ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ، فاعلم أَنَّ «وَيْ » كلمة مفصولة عن كَأَنَّ **<u>وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم</u>** ، فلما قالوا : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ، ثُمَّ شاهدوا الخسف ؛ تنبهوا لخطئهم ؛ فقالوا : وي ، ثُمَّ قالوا : كَأَنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء ، لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة . قال سيبويه : سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إِنَّ «وَيْ »مفصولة من كَأَنَّ **<u>وإن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم وي</u>**»[(٢)] .

على كلٍّ فإِنَّهُ من مجموع أقوال الخليل وسيبويه والسيرافي والرازي وغيرهم يمكن نقرر أَنَّ كلمة «وَيْ »تفيد : «التنبيه على الخطأ وإظهار التندم» ، وقد يكون التنبيه ـ بحسب عبارة الخليل ـ ذاتيا ، أو تنبيه متكلم لمخاطب .

وعلى هذا يمكن أَنْ نقول :

- إن كلمة « وَيْ » تستخدم لغويا بعد « <u>قصة وقعت وانتهت</u> » ؛ وهذا ما يفيده معنى كلمة «تندُّم » ، فالندم والندامة «غم يصحب الإنسان ، <u>يتمنى أَنَّ ما وقع منه لم يقع</u>»[(٣)] ، وأَنَّ هذه القصة نبهت صاحبها على خطأه ، ودفعته إلى الندم .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٥٤/٢

(٢) مفاتيح الغيب ، ١٨/٢٥

(٣) تاج العروس ، مادة : ن د م ، ٣٣/ ٤٨٦

- ومقولة الخليل عن اللفظة «وَيْ » بكونها تدل على التندم تدل دلالة قاطعة على اعتبار الخليل لسياق الحال عند التحليل الدِّلَالِيّ للألفاظ أو الأساليب .
- إن كلمة «وَيْ » من الكلمات التي لا يُبتدَأُ بها الكلام ، فهي كلمة كما أشرنا تتطلب قصة وحدثا ومسرحا لغويا قبلها لكي يصح استخدامها . ولَعلَّ هذا ما يوحي بفكرة إمكانيَّة تقسيم ألفاظ اللُّغَة وأساليبها إلى مجموعتين كبريين : ألفاظ وأساليب يمكن أَنْ يبدأ بها الكلام ، وألفاظ وأساليب تستعمل في مرحلة تالية منه لتطلُّبِها سياقا ومسرحا لغويا قبلها .
- ارتباط معني التنبيه والتندم استعمالا بـ «وَيْ »، وهذا ما يمكن أَنْ نسميه المصاحبة الدِّلالِيَّة ، أو الرصف الدِّلَالِيّ - إنْ جاز التعبير - على غرار المصاحبة اللفظِيَّة Collocation أو الرصف اللفظي . وليس هذا للأداة «ويْ» وحدها بل لكل للأدوات التي تعتمد على السِّياق .

***

٢٠ـ<u>الأداة «وَيْح»</u> :

ربط سيبويه بين هذه الأداة وبين معنى نفسِيّ هو التعجب ؛ فقال : «إذا قلت ويحه **<u>فقد تعجبت وأبهمتَ</u>** ، من أي أمور الرجل تعجبت ، وأي الأنواع تعجبت منه . فإذا قلت فارسا وحافظا فقد اختصصت ولم تُبهم ، وبينت في أي نوع هو » [(١)] .

يشير سيبويه في هذا النَّصّ أَنَّ «وَيْح » لها دلالتان : التعجب والإبهام في حالة عدم وجود تمييز بعدها ، والتعجب فقط في حالة وجود تمييز ؛ أي أَنَّ التعجب معنى ملازم لهذه الأداة .

والتعجب ذكره التهانوي في كشافه فقال عنه : «وقال ابن الصائغ : استعظام صفة خرج بها المتعجّب منه عن نظائره . وقال الزَّمَخْشَرِيّ : معنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأنّ التعجّب لا يكون إلّا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله . وقال الرماني : المطلوب في التعجب الإبهام ؛ لأنّ من شأن الناس أَنْ يتعجّبوا مما لا يعرف سببه ، فكلّما استبهم السبب كان التعجب أحسن . قال واصل : التعجب إِنَّمَا هو للمعنى الخفي سببه » [(٢)] .

فالتعجب أمر نفسِيّ ينتج عن استعظام المُتَكَلِّم لصفة خرج بها المتعجب منه عن نظائره . فالتعجب إذن يتطلب طرفين أساسيين : متكلم متعجب ، ومتعجب منه . ولابد للطرفين من ملابسات سِيَاقِيَّة مُعَيَّنَة تضم الطرفين . لذلك يمكن أَنْ نقول إِنَّ الأداة «وَيْح »أداة سِيَاقِيَّة في المقام الأول .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢ / ١٧٤

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ٤٧٤/١

ومما يسترعي النظر أَنَّ معنى التعجب الذي ربطه سيبويه بـ «وَيْح »لم نجده بوضوح كاف ـ حسبما وقفنا ـ عند النُّحَاة من بعده ، بل ذكروا أَنَّ « الْوَيْح : كلمة ترحُّم ، تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها »[(١)] . وقالوا أيضا إنها «كلمة ترحُّم وتوجُّع »[(٢)] . وزادت بعض المصادر على الترحم والتوجع إظهارَ الشفقة ؛ فقالت : «ويح : كلمة استعملتها العرب في معنى الترحم والتوجع وإظهار الشفقة»[(٣)] . وثمة فرق واضح بين معنى التعجب ومعنى الترحم والتوجع وإظهار الشفقة .

وتعليل هذا الاختلاف يمكن أَنْ يكون بسبب حدوث تطور دلالي في استعمال الكلمة ، فانتقلت دِلالِيًّا من التعجب إلى الترحم والتوجع وإظهار الشفقة .

***

٢١ـ الأداة «ياء النسب والألف والنون» :

من النصوص التي نقرؤها عند سيبويه نصه التالي : « فمن ذلك قولهم في الطَّويل الجَّمة : جُمَّانيٌّ ، وفي الطَّويل اللِّحْية : اللحيانيِّ ، وفي الغليظ الرقبة : الرقبانيِّ . فإنْ سميت برقبة أو جُمة أو لحية قلت : رَقَبِيٌّ ولِحْييٌّ وجُمِّيٌّ ولِحَوِيٌّ ، وذلك لأَنَّ المعنى قد تحول ، إِنَّمَا أردت حيث قلت : جُمَّانيٌّ الطويلَ الجُمَّة ، وحيث قلت : اللِّحياني الطَّويل اللِّحية ، فلما لم تعن ذلك أجري مجرى نظائره التي ليس فيهاذلك المعنى»[(٤)] .

وقد فهمنا من كلامه أَنَّ الاسم المنسوب بدون الألف والنون يدل على مجرد دلالة النسب ، فكلمة «لِحْييّ »[(٥)] مختومة بياء مشددة تدلُّ على نسبة الاسم المتصل بها إلى «اللحية» ؛ أَمَّا كلمة «لحياني» فتدل على المعنى السابق مع زيادة الاختصاص والمبالغة و«كمال الصفة في هذا الاسم»[(٦)] . وكذلك كلمة « شَعْرَانِيّ » تدلُّ على أَنَّ الاسم « خُصَّ بكثرة الشَّعر » و« رقباني » تدل على « غلظ الرقبة»[(٧)] .

---

(١) الرَّضِيّ الأستراباذي : شرح شافية ابن الحاجب ، ١٠٣/٤

(٢) السابق : ٤٤٦/٤

(٣) د. علي توفيق الحمد : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، ص ٣٦٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٣٨٠/٣

(٥) على قياس عند الخليل ، ولِحَوِيّ على قياس عند يُونُس كما قال السيرافي ، ١٣١/٤

(٦) الرازي : مفاتيح الغيب ، ٢٧١/٨ ، عند تفسير الآيات ٧٩ إلى ٨٠

(٧) النيسابوري : التفسير البسيط ، ٣٨١/٥

وقبل ذكر ما يخص السِّياق بهذه المسألة نتساءل : هل زيادة «ان» قبل ياء النسب أمر قياسي أم سماعي ؟ إنَّ الإجابة عن هذا السؤال مُهِمَّة لإبراز دور سياق الحال هنا ، فإذا كانت سماعية فلا مجال للاسترسال في الكلام ، وإذا كانت قياسية فسيكون لسياق الحال دور فيها .

الذي عليه العلماء المحققون أَنَّ الزيادة هنا «قياسية» ، وقد ناقش أستاذنا الدكتور أحمد مختار عمر هذه المسألة في كتابه «أخطاء اللُّغَة العربِيَّة المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين» ، فقال : «يتردد كثيرا في لغة المعاصرين كلمات منسوبة بزيادة الألف والنون ، مثل «طبيب نفساني» و«اتجاه علماني» و«تفكير عقلاني» . كما يتردد في لغة النقد الأدبي كلمات مثل «الشكلانية» ، «الفردانية» وممن خطَّأَ مثل هذه النسبة محمد العدناني في «معجم الأغلاط اللُّغَوِيَّة المعاصرة» بحجة أَنَّ الوارد في اللُّغَة النسبة إلى مثل هذه الكلمات بدون الألف والنون . ولكن بالرجوع إلى المراجع القديمة نجد عشرات الألفاظ التي نسب إليها بزيادة الألف والنون ، ومنها : ديراني ... رباني ... **<u>وبهذا يتبين أَنَّه لا حرج إذا أريد المبالغة في الصفة أَنْ يزاد قبل النسب ألف ونون ؛ ولا يصح اعتبار هذا من شواذ النسب أو من أخطاء المحدثين</u>**» [1] .

بهذه النتيجة التي قدَّمها لنا د . عمر وغيره يمكن أَنْ نقول إِنَّ الزيادة «ان» قبل «ياء النسب» تخضع لإرادة المُتَكَلِّم الذي يمكنه ـ إذا أراد المبالغة كما يقول د . عمر ـ أَنْ يُزيدَ «ان» قبل «ياء النسب» ، ولا شك أَنَّ ذلك يرتبط في نهاية المطاف بالسِّياق .

تلك كانت أهم الأدوات النحوِيَّة التي لاحظنا وجود علاقة بينها وبين سياق الحال من خلال نصوص سيبويه في الكتاب .

***

(١) أخطاء اللُّغَة العَرَبِيَّة المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين :عالم الكتب ، القاهرة، ط ٢ ، (١٩٩٣م)، ص ٧٣ـ ٧٤

• **المبحث السادس** : سياق الحال والتنوين والتنكير والتعريف :

أشار سيبويه إلى علاقة سياق الحال بالتنوين والتنكير والتعريف في بعض النصوص .

وقبل إيضاح هذه العلاقة نبدأ ببيان مصطلح التنوين أولا .

التنوين ـ اصطلاحا ـ : «نون ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظا وتسقط خطًا لغير التوكيد» [١] .

والاسم المنون قد يحذف منه تنوينه لسببين أحدهما أَنْ يكون علما وصف « بلفظ ابن لا الإخبار به ، وذلك نحو : محمد بن عبد الله خاتم المرسلين » [٢] .

وهو «سبيل منع اللَّبس في تعبيرات متعددة» [٣] .

يقول سيبويه : «وتقول : مررت بزيدٍ ابنِ عمروٍ ، إذا لم تجعل الابن وصفًا ، ولكنَّك تجعله بدلاً أو تكريرا كأجمعين» [٤] .

يفهم من نصّ سيبويه أَنَّ الجملة « مررت بزيد بن عمرو » تقال بطريقتين :

- الأولى : «مررت بزيدِ بنِ عمرو »، بحذف التنوين ، وتكون كلمة «ابن» وصفا .
- الثانية : «مررت بزيدٍ ابن عمرو »، بذكر التنوين ، وتكون كلمة «ابن » بدلا أو توكيدًا .

وهذا يعني أَنَّ التنوين ـ وجودا أو عدما ـ مرتبط بالسِّياق الذي تقال فيه الجملة ، فهل المُتَكَلِّم يريد وصفا ثابتا للمنعوت ، أم يريد توكيدًا ؟

ويورد سيبويه هذا البيت للأخطل :

فَإن تبخل سَدوسُ دِرهَمَيها   فَإنَّ الريحَ طَيِّبَةٌ قَبولُ

[بحر الوافر]

يورد كلمة « سدوس »ـ علم قبيلة ـ بالرفع بدون تنوين ، ويقول المحقق الأستاذ عبد السلام هارون إنَّ رواية الديوان «بالصرف» [٥] ؛ أي : بالتنوين ؛ أي أَنَّ التنوين وجوده وعدمه لا يؤثِّر في وزن البيت .

وكما يفهم من كلام سيبويه فَإنَّ الرواية بالمنع من الصرف يجعل معنى «سدوس»اسم القبيلة ، وبالصرف يجعل معناها «الحي» .

---

(١) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٨٥م)، ٢٣٣

(٢) السابق ، ص ٢٣٥

(٣) د. فاضل السامرائي : الجملة العَرَبِيَّة والمعنى ، ص ٧٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٥٠٨/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٨/٣ الحاشية ذات الرَّقْم٥

والشاعر الذي ينشد بيتا في موقف لابدّ أَنَّهُ يقوله على وجه واحد ؛ وهذا يعنى أَنَّ المفسِّر أو الشارح كان في مكنته أَنْ يعرف الضبط الصحيح للكلمة إذا وقف على السِّياق الذي قيل فيه النَّصّ .

وعندما نقرأ العَلَم «ثمود» بدون صرف في قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ﴾ [الإسراء : ٥٩] ؛ فَإِنَّ الذهن ينصرف إلى معنى القبيلة . وعندما نقرأ قوله : ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود : ٦٨] ، وقوله : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت : ٣٨] بالتنوين فَإِنَّ الذهن يتَّجه إلى معنى الحي[١] .

ولكي نفهم الفرق الدلالي بين كلمة «القبيلة» و «الحي» يجب أَنْ نقف على المعنى اللغوي لكلٍ . يقول الكَفَوِيُّ : «الشَّعْب : كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون إلى أب مشهور ، بأمر زائد فهو شَعْب كعدنان ، ودونه القبيلة ، وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب ، كربيعة ومضر ، ثم العمارة : وهي ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش وكنانة ، ثم البطن : وهي ما انقسمت فيها أنساب العمارة كبني عبد مناف ، وبني مخزوم ، ثم الفخذ : وهي ما انقسمت فيها أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية ، ثم العشيرة : وهي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ كبني العباس وبني أبي طالب ، والحَيُّ يصدق على الكل ، لأنَّه للجماعة المتنازلين بمَرْبَع منهم ، وكلما تباعدت الأنساب ارتفعت المراتب»[٢] .

إذن كلمة «الحي» عامة ، وكلمة «القبيلة» أخص منها ؛ فإذا صُرِفَت كلمة «سدوس» أو كلمة «ثمود» انصرفت دلالة الكلمتين إلى المعنى العام ، وإذا مُنِعَتا من الصرف انصرفت دلالة الكلمتين إلى المعنى الخاص . وهذا يعني أن للتنوين وظيفة دلالية ، وأنَّنا يمكن أنْ نميِّز به بين النكرة والمعرفة . يقول د . فاضل السامرائي عن الفوائد التي يمكن أن يقدمها التنوين :

«أنَّه يميز بين المعرفة والنكرة ، فإنَّه إذا لحق علما حقه ألا ينون أفاد أنَّه نكرة ، نحو : «رأيت إسماعيلا» ؛ والمعنى : رأيت شخصًا ما اسمه إسماعيل ، بخلاف قولك : «رأيت إسماعيل» ، فإنَّه يعني شخصا معلومًا»[٣] .

مما سبق يفهم أَنَّ التنوين قد يرتبط بالدِّلَالَة مع بعض الأعلام ، وهذه الدِّلَالَة يحددها سياق الحال .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣/٢٥٢ ـ ٢٥٣

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، ت : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٩٨م)، ص٥٢٤

(٣) معاني النحو : ٣/٣٠٤ ، ومن الفوائد التي عدَّها أيضا الدكتور السامرائي للتنوين أنّه : «يبين لنا أصل الكلمة ، يبين لنا المقصود بالاسم : أهو معناه الوضعي أم يراد به العلمية ، يميز بين الوصف وغيره ، يدلنا على هوية الكلمة يبين لنا الكلمة أمؤنثة هي أم مذكرة ، النص على معنى معين ، يميز بين المعاني المختلفة في المادة اللغوية» .

ويؤكد ارتباط التنوين بدلالة ما حديث سيبويه عن الظرف «غُدْوة ، وبكرة» . يقول : « وزعم يُونُس عن أبي عمرو ، وهو قوله أيضًا وهو القياس ، أنَّكَ إذا قلت : لقيته العام الأول ، أو يومًا من الأيام ، ثم قلت : **غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تنون**» [١] .

ولكي نفهم مقصود سيبويه في النَّصّ السابق نُنَبِّه إلى أَنَّ صفة «العلميَّة» أو «الأعلام» أكثر وقوعها في كلام العرب على «الأعيان دون المعاني ، الأعيان هي الأشخاص ، نحو : زيد وجعفر ... وكما جاءت الأعلام في الأعيان ، فكذلك أيضًا قد جاءت في المعاني» [٢] . وإِنَّمَا كثر تعلق الأعلام بالأعيان دون المعاني ؛ لأَنَّ « الغرض منها التعريفُ ، والأعيانُ أقعدُ في التعريف من المعاني ؛ وذلك لأَنَّ العِيان يتناولها لظهورها له ، وليس كذلك المعاني ؛ لأَنَّها تثبت بالنظر والاستدلال ، وفرقٌ ما بين علم الضرورة بالمشاهدة وبين علم الاستدلال بيّنٌ » [٣] .

ومن المعاني التي تتَعَلَّق بها العلميَّة « غُدْوة ، وبكرة ، وسحر » ؛ فهي « عَلَمٌ للوقت » [٤] . وعندما تذكر هذه الظرف كأعلام تمنع من الصرف ، ويقصد بها وقت مُحَدَّد من يوم بعينه ، يقول ابن يعيش : «من الأسماء المعلَّقة على المعاني : غُدْوَةُ ، وبُكْرَةُ ، وسَحَرُ ، **إذا أردت ذلك من يوم بعينه ، فهي معارفُ** ، فغدوةُ وبكرةُ لا ينصرفان للتعريف والتأنيث ، كأنّهما جُعلا عَلَمًا على هذا المعنى . وهو من قبيل التعريف اللفظيّ ، ... وأمّا سَحَرُ فمعرفةٌ إذا أردت سحرَ يوم بعينه ، لا ينصرف للتعريف والعدلِ عن الألف واللام ؛ فإنْ أردت التنكير ، صرفته» [٥] .

وهذا ما يقصده سيبويه من قوله : « **غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تنون** » . وإذا لم يرد المُتَكَلِّم تحديد وقت بعينه نون هذه الظروف . وهذا يعني أَنَّ التنوين يرتبط بإرادة المُتَكَلِّم المرتبطة بدورها بسياق .

وقد يستخدم التنوين كـ «منبّه» لتنبيه المخاطب على أَنَّ العلم لا يجري على طبيعته ، وأَنَّ هناك شيئا ليس طبيعِيًّا في هذا العلم ينبغي الالتفات إليه . يقول سيبويه : «وسألت الخليل فقلت :

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٩٣/٣

(٢) ابن جني : الخصائص ، ٢٠٠/٢

(٣) ابن يعيش : شرح المُفَصّل ، ١١٩/١

(٤) ابن جني : الخصائص ، ٢٠٠/٢

(٥) شرح المُفَصّل ، ١٢٣/١ ، ويذكر سيبويه أيضا : «فأما ضحوةٌ وعشيةٌ فلا يكونان إلاَّ نكرةً على كلّ حال، وهما كقولك : آتيك غدًا وصباحًا ومساءً. وقد تقول : أتيتك ضحوةً وعشيةً ، **فيعلم أنكَّ تريد عشيّة يومك وضحوته** ، كما تقول : عامًا أول **فيعلم أنك تريد العام الذي يليه عامك** ». ٢٩٤/٣

أرأيت من قال : هذه قباءُ يا هذا ، كيف ينبغي له أَنْ يقول إذا سمَّى به رجلاً ؟ قال : يصرفه ، وغير الصرف خطأٌ ، لأنَّهُ ليس بمؤنَّث معروف في الكلام ، ولَكِنَّه مشتق » [(١)] .

إن كلمة « قباء » إذا سمي بها رجل نونت ـ كما قال الخليل ـ ، وتعليله « لأنَّهُ ليس بمؤنث معروف في الكلام » ؛ أي أَنَّ الاسم المؤنث الممنوع من الصرف إذا انتقل إلى أَنْ يكون علما لمذكر وليس هذا العلم المؤنث مشهورا في الكلام يجب صرفه . لكي يكون صرفه منبِّهًا للمخاطب على هذا التحول من علم المؤنث إلى علم المذكر . أَمَّا إذا كان العلم المؤنث مشهورا فقد يمنع من الصرف .

ويفهم من كلام الخليل أَنَّهُ يعتمد على السِّياق في هذه المسألة ، فشهرة الاسم العلم أو عدم شهرته مرتبط بالسِّياق .

وقد يكون التنوين أيضا منبِّهًا إلى حذف المضاف مع أسماء القبائل . فـ « أسماءُ القبائل مؤنثة ولك فيها وجهانِ منعُها من الصرف ، باعتبار أنَّها أعلام لمؤنثات نحو : رأيتُ تميمَ ، تعني القبيلةَ ، ولك صرفها ، باعتبار أَنَّ هناك مضافًا محذوفًا ، نحو : رأيت تَميمًا ، تعني بني تميم . فحذفتَ المضافَ وأقمتَ المضافَ إليه مُقامَهُ فإنْ قلتَ : جاءَ بنو تميمٍ ؛ صرفتَ تميمًا قولًا واحدًا ؛ لأَنَّكَ تعني بتميم أبا القبيلةِ لا القبيلةَ نفسها » [(٢)] .

يقول سيبويه : « ... فلمَّا حذفت المضاف وقع على المضاف إليه ما يقع على المضاف ؛ لأنَّهُ صار في مكانه فجرى مجراه . وصرفت تميمًا وأسدًا ؛ لأَنَّكَ لم تجعل واحدًا منهما اسمًا للقبيلة ؛ فصارا في الانصراف على حالهما قبل أَنْ تحذف المضاف » [(٣)] .

أي أَنَّ التنوين له دلالة ، فعدم وجوده يعني أَنَّ المُتَكَلِّم يريد اسم القبيلة العلم المؤنث ، ووجوده يعني إرادة المُتَكَلِّم تتجه لأبناء القبيلة أو أبيها . ولا شك أَنَّ الذي يحدِّد المقصود من إرادة المُتَكَلِّم هو سياق الحال .

وإذا أتينا إلى التنكير قلنا إِنَّهُ « هو جعل المعرفة نكرة ؛ أي جلب الشيوع للاسم بعد تعيينه » [(٤)] . ويذكر العلماء بعض حالات يتحقق فيها التنكير للاسم وذلك مثلا « بإبطال ندائه إذا كان منادى ، نحو : يا رجل ، أو بقطعه عن الإضافة كقطع كلمة كتاب عن قولنا : كتاب محمد .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٥/٣

(٢) مصطفى محمد الغلاييني : جامع الدروس العَرَبِيَّة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ٢٨ ، (١٩٩٣م)، ص ٢١٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٤٧/٣

(٤) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ٢٣١

ويتحقق التنكير كذلك بالجمع أو التثنية ، فكلمة محمد علم معرفة ؛ فإذا ثني أو جمع شاع وتنكر وجاز دخول أل عليه ؛ فيقال : المحمدان والمحمدون »[١] .

ونضيف هنا موضعا آخر من المواضع التي يُجْلَبُ فيها التنكير إلى المعرفة وذلك بأن تأتي المعرفة (العلم) في سياق نفي لـ «لا» النافية للجنس اعتمادا على «علم المخاطب » .

يقول سيبويه : « واعلم أَنَّ المعارف لا تجرى مجرى النكرة في هذا الباب ؛ لأَنَّ «**لا**» لا تعمل في معرفة أبدا . فأما قول الشاعر :

* لا هيثَمَ الليلةَ للمَطيّ *

فإِنَّهُ جعله نكرة كَأَنَّه قال : لا هيثمَ من الهيثمَين . ومثل ذلك : لا بصرةَ لكم ... وتقول : قضية ولا أبا حسن ، تجعله نكرة . قلت : فكيف يكون هذا وإِنَّمَا أراد عليا رضى الله عنه فقال[٢] : **لأَنَّهُ لا يجوز لك أَنْ تُعمِل لا في معرفة ، وإِنَّمَا تعملها في النكرة فإذا جعلت أبا حسنٍ نكرة حسن لك أَنْ تعمِل لا ، وعلم المخاطَب أَنَّهُ قد دخل في هؤلاء المنكورين عليٌّ ، وأنه قد غُيِّب عنها**»[٣] .

من هذا النَّصّ نفهم :

- أنَّ من خصائص لا النافية للجنس أَنْ يكون اسمها نكرة .
- وأنَّه في بعض الأحيان قد يأتي المُتَكَلِّم باسمها معرفة علما ، وأنَّ العلم في هذه الحالة يفيد التنكير ؛ أي أَنَّ العلم في هذه الحالة «علم في اللفظ والشكل» ، «نكرة في الدِّلاَلَة» .

وهنا نلاحظ أَنَّ الأعلام المستخدمة في هذه الحالة التي أتى بها المُتَكَلِّم التي تعبر عن نكرة هي أعلام لابدَّ أَنْ تكون لها خصائص سِيَاقِيَّة اجتماعِيَّة مُعَيَّنَة ، فهي أعلام معروفة للناس ومشهورة بأمور مُعَيَّنَة تخصُّها :

» أبو الحسن على بن أبي طالب ←——— الفطنة والذكاء والعبقرية والفصل في القضايا .

» البصرة ←——— الناحية الثقافيَّة والعلميَّة والاقتصادية .

» هيثم ←——— حُدَاء المطي .

وعندما نستدعي هذه الأعلام مع « لا » النافية للجنس فإِنَّنَا نستدعي معها هذه الخلفيَّة الاجتِماعِيَّة ؛ لأَنَّنا نقصد هذه الخلفيَّة الاجتِماعِيَّة ، ونريد توظيفها سياقيًّا لأمر ما . ولكي يتفاعل المخاطب مع هذه الجمل ويتقبل معناها يجب أَنْ يعلم مسبقا هذه الخصوصية الاجتِماعِيَّة لهذه

---

(١) السابق : ٢٣١

(٢) قال المحقق الأستاذ هارون ، ٢٩٦/٢ الحاشية ذات الرَّقْم٣ «الظاهر أن القائل الخليل» .

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٢٩٦/٢

الأعلام ؛ أي أَنَّ الخلفيَّة الاجتِماعِيَّة هنا ومدى إلمام المخاطب بها تتحكمان في صحة هذا التركيب وتؤثِّران عليه ، والدليل على صحة هذا التأثير أَنَّنا لو ترجمنا هذه الجمل ترجمة حرفية إلى لغة أخرى غير العربيَّة كالإنجليزية أو الفرنسية لما فهم صاحب هذه اللُّغَة شيئا من هذه العبارة ؛ لعدم إلمامه بالخلفيَّةالاجتِماعِيَّة السِّياقِيَّة لها .

أي أَنَّ ما يبرر تنكير المعرفة في هذا الأسلوب علم المخاطب والخلفيَّة الاجتِماعِيَّة لهذه الأعلام[١] .

ويدعو الأستاذ عباس حسن إلى عدم التوسُّع في هذا الأسلوب ؛ أي : عدم التوسع في مجيء اسم لا النافية للجنس معرفة ، وعدم القياس عليه . يقول : « علينا أَنْ نتقبَّل تلك النصوص بحالها الظاهر دون محاكاتها ، ونقتصر فى استعمالنا على اللُّغَة الشائعة المشهورة التى تشترط الشروط التى عرفناها ؛ توحيدًا لأداة التفاهم ، ومنعًا للتشعيب بين المتخاطبين بلغة واحدة »[٢] .

ونقدم هنا رأيا قد يخالف معلمنا الأستاذ عباس حسن ، هذا الرأي يقول إنَّه لا مشكلة في التوسُّع في مثل هذا الأسلوب ، و أَنْ نأتي باسم لا النافية للجنس معرفة بشرطين :

- أَنْ يكون عَلَمًا .
- و أَنْ يكون هذا العلم مشهورا ومعروفا عند عامة الناس .

والشرط الثاني هنا يساوي ما قالة الخليل في النَّصّ السابق «وعلم المخاطَب أَنَّهُ قد دخل ... » . فنحن يمكن مثلا أَنْ نقول :

» معركة حربية ولا خالد بن الوليد لها .

---

(١) نقل د. فاضل السامرائي أقوال النحاة الذين يؤولون العَلَم ـ الذي يأتي اسم لا النافية بالجنس ـ بالنكرة ، في مثل قولهم : « قضية ولا أبا حسن لها » . فقال سيادته (معاني النحو ٣٦٣/١) : « وهم في ذلك على ثلاثة أقوال : فمنهم من ذهب إلى أن التقدير : ولا مسمى بأبي الحسن ... والقول الثاني : على تقدير « مثل » . أي : ولا مثل أبي حسن ... ، والقول الثالث : أنْ يستخلص من العلم معنى الوصف الذي اشتهر به ذلك العَلَم ؛ فيكون هو المنفي ، فقولك : «لا حاتم اليوم » معناه : لا كريم ، وقوله : «لا هيثم الليلة للمطي » معناه : لا سائق ، وقولهم : « قضية ولا أبا حسن لها »معناه : لا فيصل لها وهكذا » . وينقل بعد الرأي الثالث قول الرضي على الكافية الذي يقول فيه (شرح الكافية القسم الأول ص ٨٣٠) : « وإمَّا أنْ يجعلَ العلمُ لاشتهاره بتلك الخَلَّةِ ، كأنَّه اسم جنس موضوع لإفادة ذلك المعنى ؛ لأن معنى قضية ولا أبا حسن لها : لا فيصل لها... فصار اسمه ـ عليه السلام ـ كالجنس المفيد لمعنى الفصل والقطع ، كلفظ الفيصل ، وعلى هذا يمكن وصفه بالمنكر ، وهذا كما قالوا : لكل فرعونٍ موسىً ؛ أي : لكل جبار قهارٌ ، فيصرفون فرعون وموسى لتنكيرهما بالمعنى المذكور » . ويعلق د. السامرائي على الرأي الثالث وبعد نقل كلام الرضي بقوله : « **وهذا القول أقربها إلى الصواب**» . وهو قريب مما أشرنا إليه .

(٢) النحو الوافي : ١/ ٦٩٥

» مشكلة سياسية ولا عمر لها .

» لغز علمي ولا زويل له .

» معادلة رياضية ولا أينشتاين لها ... وهكذا .

وما أشار إليه الأستاذ عباس من خطورة هذا على « توحيد أداة التفاهم » ، وأنَّ هذا يؤدي إلى «التشعيب بين المتخاطبين بلغة واحدة» هو ـ كما نظن ـ ليس في محله ، وأمر مبالغ فيه ، وأنَّ سياق الحال يضمن عدم الوقوع في هذا .

ويحدثنا النُّحَاة عن التعريف ، ويقولون عنه أَنَّهُ هو : « تحويل النكرة إلى معرفة » (١) . ويحدثوننا عن أنواعه ، فيذكرون أَنَّهُ نوعان : أحدهما ذاتي ، والآخر عارض مجلوب . ويقصدون بالتعريف الذاتي الذي «يتحقق للضمائر والأعلام وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة . وأما التعريف المجلوب فيتحقق لفظا أو معنى للمجرد من أل بإدخال أل عليه ، وللمضاف بإضافته إلى المعرفة ، وللمنادى بالإقبال عليه بالنداء» (٢) .

لكن هل يوجد «تنكير مجلوب» للمعرفة كما وجد «تعرف مجلوب» للنكرة ؟ أشار سيبويه إلى هذا في موضعين من كتابه :

● الموضع الأول :

ذكره عند حديثه عن الاسم العلم الممنوع من الصرف الذي يصرف . وقبل ذكر هذا الموضع نقدم بين يديه بقولنا إنَّ النُّحَاة قالوا في الممنوع من الصرف الذي يصرف أَنَّهُ ينوَّن عند الحاجة ، وقالوا إِنَّ هذه الحاجة تتحقق في النثر والشعر .

« في النثر : لإرادة التناسب ، وذلك أَنْ تكونَ بعض الكلمات منونة والأخرى غير منونة فتنون الأخيرة لتناسب ما جاءت معه من الكلمات المنونة ومن ذلك : جاء في القرآن :﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ ، فكلمة سلاسل ممنوعة من الصرف ، وكلمة أغلالا مصروفة ، وقد قرئت الآية بتنوين الكلمة الأولى لتناسب الثانية ، وجاءت القراءة : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلًا وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ لقصد التناسب . [و] في الشعر : للضرورة ، والمقصود بذلك ضرورة موسيقى الشعر ونغمه التي تتمثل في أوزانه وقوافيه ، فإذا لم تستقم هذه الموسيقى إلا بتنوين الاسم الممنوع من الصرف ، كانت تلك ضرورة تبيح للشعراء هذا التنوين» (٣) .

---

(١) د. محمد سمير نجيب اللبدي : معجم المصطلحات النَّحْوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، ص ١٥٣

(٢) السابق : ص ١٥٣

(٣) د. محمد عيد : النحو المصفى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ص ٥١

لكن يبدو من الموضع الذي معنا من نصّ سيبويه أَنَّه يضيف موضعا آخر من المواضع التي يمكن فيها صرف الممنوع من الصرف في النثر لغير التناسب مرتبطا بسياف الحال . يقول في هذا الموضع : «فإنْ قلت : عمرٌ آخر صرفته ؛ لأنَّهُ نكرة ؛ فتحول عن موضع عامر معرفة»[١] .

لم يشر سيبويه في النَّصّ إلى أي «تناسب» يبرِّر صرف كلمة عمر ، ولا يمكن فهم صرف عمر في الجملة السابقة إلا في ضوء سياق الحال . فيمكن أَنْ نتخيل سياقا يضم متكلما يتحدَّث إلى مخاطب « ضرب من قبل شخص يسمى عمر » ، فيقول المُتَكَلِّم للمخاطب ـ مشيرا إلى صورة مثلا ـ : أهذا عمرُ الذي ضربك ؟ ، فيقول : لا ، بل عمرٌ آخر .

إنه السِّياق الذي نقل العلم من التعريف إلى التنكير بلا شك ؛ وسمح بتنكير كلمة عمر ، كما أشار سيبويه في نصه السابق ، وهو وإن لم يشر إلى ذلك إلا أَنَّهُ ينبغى أَنْ يكون كذلك[٢] .

- الموضع الثاني :

وهو موضع بعيد عن سياق الحال نسبيا ، ولكنا نقوله زيادة للفائدة وهو إضافة المعرفة إلى النكرة . يقول : «ألا ترى أَنَّك لو قلت : هذا زيدُ رجلٍ صار نكرةً ، فليس بالعلم الغالب ؛ لأَنَّ ما بعده غيَّره ، وصار يكون معرفةً ونكرةً به»[٣] . أي أَنَّ المعرف «إذا أضيف إلى النكرة فهو نكرةٌ»[٤] .

***

(١) سيبويه : الكتاب ، ٢٢٤/٣

(٢) ولعله مما يتصل بكلامنا هنا قوله : « قال في قول الشاعر:

*يا هندُ هندٌ بين خِلبٍ وكَبدْ أنه *

أراد: أنتِ بين خِلب وكبِد، **فجعلها نكرةً** . وقد يجوز أن تقول بعد النداء مقبِلاً على مَن تحدثه : هندٌ هذه بين خِلبٍ وكبدٍ، فيكون معرفة ». ٢٣٨/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٥٠٧/٣ ـ ٥٠٨

(٤) ابن يعيش : شرح المُفَصّل ، ١٣٧/١

الفصل الرابع

سياق الحال والقواعد الصَّرْفِيَّة

ويشمل المبحثين التاليين :

- **المبحث الأول** : **سياق الحال ودلالة الفعل والمصادر والمشتقات** .
- **المبحث الثاني** : **سياق الحال ومعاني الأوزان الصَّرْفِيَّة** .

الفصل الرابع : سياق الحال والقواعد الصَّرْفِيَّة

سنحاول أَنْ نرصد هنا علاقة سياق الحال ببعض الأمور الصَّرْفِيَّة . وكما سرنا في الفصول السابقة سنسير هنا ؛ أي أَنَّنا سنجمع كل القواعد والمسائل الصَّرْفِيَّة التي لها علاقة بسياق الحال ، ونصنّف كل مجموعة نصوص تتناول مسألة واحدة مع بعضها .

• المبحث الأول: سياق الحال ودلالة الفعل الزَّمَنِيَّة والمصادر والمشتقات

أ- سياق الحال والدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة للفعل :

عند حديث سيبويه عن الفعل في بداية الكتاب ذكر النَّصّ التالي : «وأَمَّا الفعل فأمثلة أُخذتْ من لفظ أحداث الأسماء ، وبُنيتْ لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينَقطع . فأَمَّا بناء ما مضى فذَهَبَ وسَمِعِ ومَكُث وحُمِدَ . وأَمَّا بناء ما لم يقع فإِنَّهُ قولك آمِرًا : اذهَب واقتُلْ واضرِبْ ، ومخبرًا : يَقْتُلُ ويَذهَبُ ويَضرِبُ ويُقْتَلُ ويُضرَبُ . وكذلك بناء ما لم يَنقطع وهو كائن إذا أخبرتَ»[١] .

إذا حللنا هذا النَّصّ نجد أَنَّ سيبويه يقسِّم الزمن إلى ثلاثة أقسام :

١ـ الزمن الماضي .

٢ـ الزمن الكائن الذي لم ينقطع (الحال ـ المضارع) .

٣ـ ما يكون ولم يقع (المستقبل) .

ويخصِّص للقسم الثالث الأمثلة التالية :

» أفعال الأمر : «اذهب ، اقتل ، اضرب».

» والأفعال : « يقتل ، يذهب ، يضرب».

أما القسم الثاني (الكائن الذي لم ينقطع) ، فيفهم من الكلام أَنَّهُ يخصص له نفس الأمثلة «يقتل ، يذهب ، يضرب» ؛ أي أَنَّ هذه الأفعال عينها تعبِّر عن قسمين من أقسام الفعل : المضارع أو الحال و المستقبل ، فالفعل المضارع في الجملة الآتية : « يضرب محمدٌ عليًّا » له دلالتان زمنيّتان : الحال والاستقبال . ونحن بالطبع لا نستطيع أَنْ نحدِّد الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة المقصودة للفعل بدون سياق الحال .

إن نصّ سيبويه يتضمن إشارة ضمنية إلى السِّياق وأهميته في تحديد الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة للفعل . وتلك الإشارة المبكرة في بدايات الكتاب أشارت إلى أمر منهجي عند سيبويه ، وهو أَنَّهُ لن يقر قاعدة ما إلا من خلال استقرائها في النصوص المختلفة ، واستحضار السِّياق في هذا الاستقراء ، وإثبات ما يدل عليه من دلالات .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ١٢/١

وإذا استغللنا هذه الإشارة المنهجية وطبَّقناها وفعَّلناها في دراستنا للدلالة الزمنية لفعل «الأمر» مثلا يمكن أن نخرج ببعض النتائج ، التي منها أنَّ فعل الأمر :

أ- قد يكون «دالا على الحال ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾الدخان : ٤٨ - ٤٩ ، فزمن الذوق مصاحب لصبِّ الحميم »[١] .

ب- دلالة الأمر على الماضي ، «وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ يوسف : ٩٩ ، فقوله : «ادخلوا مصر »كان بعد دخولهم إياها ؛ فهو أمر يفيد المضي »[٢] . ومثل قول النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرجل الذي أتاه في الحجِّ فقال : «يا رسول الله ، ذبحْتُ قبل أنْ أرمِيَ ـ أي : ذبحت أولا ثم رمَيْتُ ثانيا ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ارمِ ولا حرَج »[٣] . قال ابن هشام : «ارمِ ولا حرج : فإنَّهُ بمعنى رَمَيْت والحالة هذه ، وإلَّا لكان أمرًا له بتجديد الرمي ، وليس كذلك»[٤] .

ت- الأمر المستمر : «وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾البقرة : ٨٣ »[٥] .

ث- وربما كان فعل الأمر مطلقا غير مقيد بزمن لكونه دالا على الحقيقة ، أو لكونه دالا على التوجيه والحكم أو لغير ذلك[٦] ، وذلك كقول الشاعر :

[بحر المنسرح]

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ وِاكتَسِب أَدَبًا   يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَسَبِ

وقبل الانتقال إلى جزئية جديدة من بحثنا ننقل هنا تعليق عالمين جليلين على مقولة سيبويه السابقة عن « تعريف الفعل ».

---

(١) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣٢/٤

(٢) السابق ، ص ٣٢

(٣) الهيثمي : موارد الظمآن لزوائد ابن حِبَّان ، ت : محمد عبد الرازق حمزة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة)، ص ٢٥٠

(٤) السيوطي : همع الهوامع ، ت : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ٣٠/١

(٥) د. فاضل السامرائي : معاني النحو ، ٣٤/٤

(٦) السابق ، ٣٧/٤

التعليق الأول لعبد القاهر الجرجاني ، يقول فيه : « لا نعلم أحدا أتى في معنى هذا الكلام بما يوازنه أو يدانيه ، ولا يقع في الوهم أيضا أَنَّ ذلك يُستطاع . ألا ترى أَنَّه إِنَّمَا جاء في معناه قولهم : والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضر ، ومستقبل ، **وليس يخفى ضَعْفُ هذا في جنبه ، وقصوره عنه** »[١] .

والتعليق الثاني لشيخنا محمود شاكر يشرح عبارة سيبويه ويشفعه بالثناء والمدح قائلا : « فأنت تراه عيانا الآن أَنَّ سيبويه قد استطاع في جملة واحدة قصيرة لا تتجاوز سطرا واحدا ، استطاع أَنْ يُلم بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلة الفعل ، **دون أَنْ يُخل بشيء منها فهي جملة محكمة شديدة الإحكام عجز النُّحَاة من بعده أَنْ يلموا بها في حدودهم التي كتبوها عن الفعل** ، فأي رجل مُبينٍ كان سيبويه ؟ ! »[٢] .

إن ختام التعليقين السابقين من هذين العَلَمَين الجليلين يؤدي إلى نتيجة مُهِمَّة ، هي أَنَّ النُّحَاة من بعد سيبويه لم يحيطوا علما بكل ما في كتابه من فوائد علمِيَّة قيمة ، وأنَّ الكتاب ـ على الرَّغْم من كثرة شروحاته التي تنقلها كتب التراجم ـ لم يلق العناية الكافية من الدراسة والبحث ، وأنَّه ما زالت توجد الكثير من عبارات سيبويه التي تحتاج إلى فضل تأمل ونظر[٣] .

ج– **سياق الحال ودلالة أوزان المصدر** :

اهتمَّ سيبويه في كتابه بدراسة أبنية الأسماء والأفعال ، وتُنْسَبُ إليه الرِّيادة في هذا الاهتمام بتلك الأبنية . قال السيوطي نقلا عن ابن القَطَّاع : « قد صنَّف العلماء في أبنية الأسماء والأفعال ، وأكثروا منها ، وما منهم مَن استَوْعَبَهَا . **وأوَّلُ من ذكرها سيبويه في كتابه** ، فأورد للأسماء ثلثمائة مثال وثمانية أمثلة ، وعنده أنَّه أتى به »[٤] .

ومن الأبنية التي اهتَمَّ بها سيبويه أبنية المصادر ودلالتها ، وقد اعتمد على السِّياق في تحديد دلالة أوزان بعض المصادر ، فنجد أَنَّهُ :

- في أحد أبواب الكتاب عنوانه « هذا باب أيضا في الخصال التي تكون في الأشياء » ، يقول : « أَمَّا **ما كان حسنًا أو قبحًا فإِنَّهُ مما يبنى فعله على فَعُلَ يَفْعُلُ ؛ ويكون المصدر فَعَالا وفَعَالة**

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز ـ ملحق : دلائل الإعجاز ، ص٦٠٤

(٢) المتنبي ، ص ١٤

(٣) أشار أستاذنا د. حماسة عبد اللطيف ـ في بعض محاضراته ـ أنه أقام كتابه المهم «النحو والدِّلاَلَة » على عدة جمل قصيرة من كتاب سيبويه .

(٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ٤/٢

وفُعلا ، وذلك قولك : قَبُحَ يَقْبُحُ قَبَاحَة ، وبعضهم يقول قُبُوحة ؛ فبناه على فُعولةٍ كما بناه على فَعالةٍ . ووسم يوسم وسامة ، وقال بعضهم : وسامًا فلم يؤنث ، كما قالوا : السَّقام والسَّقامة » [١] .

- وقال : « **وما كان من الشدة والجرأة والضعف والجبن فإنَّهُ نحوٌ من هذا** ، قالوا : ضَعُفَ ضَعْفًا وهو ضعيفٌ ، وقالوا : شجع شجاعة وهو شجاعٌ وقالوا : شجيعٌ » [٢] .
- «وقالوا : سَرُعَ يَسْرُعُ سِرَعًا وهو سريعٌ ، وَبطُؤَ بِطَأً وهو بطيءٌ ، كما قالوا : غَلُظَ غِلَظًا وهو غليظٌ **وإنَّمَا جعلناهما في هذا الباب لأَنَّ أحدهما أقوى على أمره وما يريد** » [٣] .
- ويقول عن المصادر التي على وزن «فِعَال » أنَّها تدلُّ على « انتهاء الزمان » ، يقول : «وجاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعالٍ ، وذلك : الصِّرام والجِزاز ، والجِداد ، والقِطاع ، والحِصاد » [٤] .
- «**وأما الوسم**[٥] **فإنَّهُ يجيء على فِعالٍ** ، نحو : الخِباط والعِلاط والعراض والجِناب والكِشاح . **فالأثر يكون على فِعالٍ والعمل يكون فَعْلاً** ، كقولهم : وسمت وسمًا ، وخَبَطت البعير خَبْطًا ، وكشحته كشحًا . وأما المُشْط والدلو والخُطَّاف فَإِنَّما أرادوا صورة هذه الأشياء أنها وُسمت به ، كَأَنَّه قال : عليها صورة الدلو » [٦] .
- وقال في باب «فَعْلان ومصدره وفعله» : «أَمَّا ما كان من الجوع والعطش فإِنَّهُ أكثر ما يبنى في الأسماء على فَعْلان ويكون المصدر الفَعَل ، ويكون الفعل على فعل يفعَل . وذلك نحو : ظمىء

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤/٢٨

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤/٣١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤/٣٢

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤/١٢

(٥) قال الزَّبيدي في تاج العروس «وَقَالَ ابنُ الرُّمَّانِيّ فِي تَفْسيرِ الخِبَاطِ : فِي كتاب سِيبَوَيْه : إِنَّهُ الوَسْمُ فِي الوَجْهِ ، والعِلاطُ والعِراضُ فِي العُنُق . قالَ : والعِراضُ يَكُونُ عَرْضًا ، والعِلاطُ يَكُونُ طُولاً» ١٩/ ٢٣٣

وقال في موضع آخر : «**الوَسْمُ : أثر الكيِّ ، يكون فِي الأعضاء**. قَالَ شَيخنَا : هَذَا هُوَ الِاسْم المُطْلَقُ العامُّ ، والمحققون يسمُّون كل سِمَةٍ باسمٍ خاصٍّ ، واستوعب ذَلِك السُّهيْلي ، فِي الرَّوض ، ... قلت : الَّذِي ذكر السُّهيلي فِي الرَّوض : منسمات الْإِبِل : السِّطاعُ ، والرَّقْمةُ ، والخِباطُ ، والكِشاحُ ، والعِلاطُ ... والخُطَّافُ ، الدَّلو ، وَالمِشْطُ ، وَالفِرْتَاجُ ، وَالثؤثور ، وَالدِّمَاعُ ، وَالصُّدَاعُ ، واللِّجَامُ ، وَالهِلالُ ، والخِرَاشُ ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ ، وَفَاتَهُ : العِرَاضُ وَاللِّحَاظُ ، وَالتَّلْحِيظ ، وَالتَّحْجِينُ ، والصِّقَاعُ ، وَالدُّمعُ ، ... وَقَالَ اللَّيْثُ : الوَسْمُ أَثَرُ كَيَّةٍ ، يُقَالُ : هُوَ مَوْسُومٌ ، أَيْ : قَدْ وُسِمَ بِسِمَةٍ يَعْرَفُ بهَا ، إمَّا كَيَّةٌ ، وَإِمَّا قَطْعٌ فِي أُذُنٍ ، أَوْ قَرْمَةٌ ، تَكُونُ عَلَامَةً لَهُ ». ٣٤/٤٤

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٤/١٣

يظمأ ظمأً وهو ظمآن ، وعطش يعطش عطشًا وهو عطشان ، وصدى يصدى صدًى وهو صديان . وقالوا : الظماءة كما قالوا : السقامة ؛ لأَنَّ المعنيين قريبٌ ، كلاهما ضررٌ على النفس وأذى لها » [(١)] .

- « وأما جَرْبان وجربى فإنَّهُ لما كان بلاء أصيبوا به بنوه على هذا كما بنوه على أفعل وفعلاء ، نحو أجرب وجرباء » [(٢)] .
- « أمَّا **الألوان فإنَّها تبنى على أفعل** ، ويكون الفعل على فَعِل يفْعَل ، والمصدر على فُعْلةٍ أكثر . وربما جاء الفعل على فعل يفعل ، وذلك قولك : أَدِمَ يَأْدَمُ أُدْمَة ، ومن العرب من يقول : أَدُمَ يأدُم أُدْمَة ، وشَهِب يشْهَبُ شُهْبَة ، وقَهِبَ يقْهَبُ قُهْبَة ، وكهِب يكهِب كُهبة . وقالوا : كهُب يكهُب كهبةً وشهُب يشهُب شُهبةً » [(٣)] .

إن سيبويه في النصوص السابقة يتَتَبَّع دلالة المصادر في سياقاتها المختلفة ، ويحدِّد دلالة كل مصدر ثُمَّ يجمع المصادر ذات الدلالات المتشابهة تحت دلالة عامة ، ويكون وزن هذه المصادر مرتبطا بهذه الدِّلَالَة العامة .

- فالألفاظ «قَباحَة ، وَسامَة ... » ، هذه الألفاظ ـ بمعونة السِّياق ـ تدل على القبح أو الحسن ؛ إذن الوزن « فَعَالة » قد يدل على « الحسن أو القبح » .
- والألفاظ «ظَمِيء ـ ظَمَأً ـ ظمآن ، عَطِش ـ عَطَشًا ـ عطشان ، صَدِي ـ صَدًى ـ صديان ... » ، هذه الألفاظ ومصادرها ـ بمعونة السِّياق ـ تدلُّ على الجوع والعطش ؛ إذن الوزن «فَعِل ـ فَعْلان ـ فَعَل » قد يدلُّ أكثره على «الجوع والعطش » .
- والألفاظ « الخِباط والعِلاط والعِراض والجِناب والكِشاح ... » ، هذه الألفاظ ـ بمعونة السِّياق ـ تدلُّ على الأثر والعلامة والوسم ؛ إذن الوزن « فِعَال » قد يدلُّ على «الأثر والعلامة والوسم » .
- والألفاظ «الصِّرام والجِزاز ، والجِداد ، والقِطاع ، والحِصاد ... » ، هذه الألفاظ ـ بمعونة السِّياق ـ تدل على انتهاء الزمان ؛ إذن الوزن « فِعَال » قد يدل على « انتهاء الزمان » .
- والألفاظ «أَدِمَ ـ يَأْدَمُ ـ أُدْمَة ، وشَهِب ـ يشْهَبُ شُهْبَة ، وقَهِبَ ـ يقْهَبُ ـ قُهْبَة ، وكهِب ـ يكهِب ـ كُهبة ... » ، هذه الألفاظ ـ بمعونة السِّياق ـ تدل على اللون ؛ إذن الوزن «أفعل » قد يكون من بعض دلالته أَنْ يدل على «اللون » .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤/٢١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤/٢٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤/٢٥

وهذا التجميع للألفاظ المتشابهة ومحاولة وضعها ضمن إطار دلالي مشترك أشبه بما يسميه علماء اللُّغَة بـ «الحقول الدِّلالِيَّة Semantic Fields » ، وهي تعني : «مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها ، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها . مثال ذلك كلمات الألوان في اللُّغَة العربِيَّة »[(١)] . ومن فوائد وضع الكلمة في حقول دلالية أَنَّ هذا يساعد على الفهم الدقيق للكلمة بالمقارنة بالكلمات التي معها في نفس الحقل[(٢)] .

ومن النصوص المهمة التي اعتمد فيها سيبويه على طريقة الحقول الدلالية وسار فيها سيرته في النصوص السابقة النص التالي ، يقول : «ومن المصادر التي جاءت على مثال واحدٍ حين تقاربت المعاني قولك : النَّزَوان ، والنَّقَزان ؛ وإِنَّما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع . ومثلُه العَسَلان والرَّتَكان . وقد جاء على فُعَالٍ نحو النُّزاء والقُماص ، كما جاء عليه الصَّوت نحو الصُّراخ والنُّبَاح ، لأن الصوت قد تكلَّفَ فيه من نفسه ما تَكَلَّفَ من نفسه في النَّزَوان ونحوه . وقالوا : النَّزْو والنَّقْز ، كما قالوا : السَّكْت والقَفْز والعَجْز ، لأَنَّ بناء الفعل واحدٌ لا يتعدَّى كما أَنَّ هذا لا يتعدَّى .

ومثل هذا الغَلَيان ، لأَنَّه زعزعة وتَحرُّك . ومثله الغَثَيان ، لأنَّه تَجيُّشُ نفسِه وتثوُّرٌ . ومثله الخَطَران واللَّمَعان ، لأنَّ هذا اضطراب وتحرُّك . ومثل ذلك اللَّهَبان والصَّخَدَان ، والوَهَجان ، لأنَّه تحرُّكُ الحَرّوثُؤوره ، فإنَّما هو بمنزلة الغليان »[(٣)] .

في هذا النص نجد سيبويه جمع مجموعة من المصادر يضمها وزن مشترك ووضعها تحت دلالة عامة كما في الجدول التالي :

م	المصدر	المعنى اللغوي	الوزن	المعنى الدلالي العام
١.	النَّزَوان	التَّقَلُّبُ ، والسَّوْرَة	الفَعَلان	الزعزعة والتحرك واهتزاز في ارتفاع
٢.	النَّقَزان	الوثب صُعُدًا		
٣.	الغَثَيان	خُبْث النفس		
٤.	العَسَلان	السُّرْعَة وَالِاضْطِرَاب فِي العَدْوِ		

---

(١) د. أحمد مختار عمر : علم الدِّلاَلَة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٥ ، (١٩٩٨م)، ص ٧٩

(٢) يقول ديفيد كريستال نقلا عن علماء نظرية الحقول الدِّلالِيَّة : إنَّ المعنى الدقيق للكلمة الدالة على اللون لا يمكن أن يفهم إلا من خلال وضع هذه الكلمة في علاقة مع الكلمات الأخرى . **The precise meaning of a colour word can be understood only by placing it in relation to the other terms**
David Crystal, A dictionary of linguistics and phonetics, P.429

(٣) الكتاب : ١٤/٤

٥.	الرَّتَكَان	ضرب من سير الإِبِل		
٦.	الغَلَيان	حركة الماء عند تسخينها		
٧.	الخَطَران	يقال : خطر الرجل ؛ إذا اهتزَّ في مشيه وتبختر .		
٨.	اللَّمَعان	لمع البرق : أضاء		
٩.	اللَّهَبَان	اتِّقاد النار		
١٠.	الصَّخَدَان	شدة الحر		
١١.	الوَهَجَان	شدة الحر أيضا		

إن سيبويه تتبَّع هذه المصادر في سياقاته في اللغة الحية المنطوقة المُنْشَدَة ، وبعد التتبُّع والتقصِّي ربط الوزن «الفَعَلان» الذي أتت فيه هذه المصادر بدلالة عامة ، هي «الزعزعة والتحرُّك واهتزاز في ارتفاع» .

ومن قديم نال نص سيبويه السابق اهتمام ابن جني ، وناقشه في كتابه الخصائص تحت باب أسماه «باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني» ، وصدَّر الباب بقوله : «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف . وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته»[١] . ثم أورد نص سيبويه السابق . وقال بعد إيراده «فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال» .

وما كان يرمي إليه ابن جني من إيراد نص سيبويه في هذا الباب أن يُثبت أن هناك ثمَّة علاقة «طبيعية» بين «اللغة الإنسانية» و«محاكاة الأصوات الطبيعية» ، وقد أورد نص سيبويه السابق دليلا على ذلك ، فهو يتخذ من نص سيبويه حجَّة ليدلَّ بها على أنّ هناك «**مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله**»[٢] ، ويحاول أنْ يؤكّد بهذا النص نظريته «**في مناسبة الصوت للمعنى الدال عليه**»[٣] . فمدار باب «إمساس الألفاظ أشباه المعاني» الذي ذكره ابن جني في الخصائص بيانُ العلاقة الوطيدة بين دلالة الأصوات وبنية الكلمة ، وبين المعاني المدلول عليها ، وكيف تهدى العرب بلطيف الطبع ودقيق الفطنة إلى توخي هذه المناسبة بين الألفاظ والمعاني[٤] .

(١) الخصائص : ٢/ ١٥٢

(٢) د. صبحي صالح : دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ، (٢٠٠٩م)، ص ١٥٠

(٣) د. رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات في اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٢م) ، ص ١٩

(٤) ويجب أن نُثْبت هنا قول الإمام السيوطي حيث يقول عن هذه المسألة : «وأنكر الجمهور هذه المقالة ، وقال : لو ثبت ما قاله لاهتدى كلُّ إنسان إلى كل لغة ، ولما صحَّ وضعُ اللفظِ للضدين ، كالقَرْء للحيض والطُّهر ، والجَون

وباعتبار أن الطبيعة جزء من مكونات سياق الحال وإحدى مكوناته فإنَّه يحِقُّ لنا أنْ نقرِّر ـ بناء على كلام ابن جني هنا الذي يخالف الجمهور ـ أنَّ سياق الحال لا يؤثِّر فقط على الجملة ومكوناتها ، بل إنه أيضا يؤثر ـ أحيانا ـ على بنية الألفاظ ، وكيفية صياغة هذه البنية .

ونجد ابن جني يحاول في أحد مواضع كتابه الخصائص تفسير دلالات الألفاظ غير الطبيعية أي : تفسير دلالة الألفاظ التي لا يبدو فيها وجود علاقة طبيعية بين اللفظ ومدلوله ، ويحاول أنْ يُرجِع تلك الأسباب ـ على حد فهم الباحث ـ إلى أسباب « سياقية اجتماعية » . وأطرف ما في الأمر أنّه استند على نص لسيبويه ليؤيد به ما ذهب إليه ، يقول :

«وقد يمكن أن تكون **أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنا** ؛ ألا ترى إلى قول سيبويه[1] : « **أو لعلَّ الأوَّل وصل إليه علم لم يصل إلى الآخِر** » ؛ يعني أن يكون **الأوَّل الحاضر شاهد الحال** فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية ؛ **والآخر ــ لبعده عن الحال** ـ لم يعرف السبب للتسمية ؛ ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته : قد رفع عقيرته ، فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت وبين معنى « ع ق ر » لبعد عنك وتعسفت ، وأصله أن رجلًا قُطِعَت إحدى رجليه فرفعها ووضعها الأخرى ثم صرخ بأرفع صوته فقال الناس : رفع عقيرته» [2] .

أي أنَّه في بعض الأحيان يكون ارتباط لفظ معين بدلالة معينة راجعا إلى « أسباب » لا تخلو أن يكون بعضها أسبابا سياقية اجتماعية كما هو واضح في نهاية النص السابق .

نكمل بقية حديثنا عن المصادر ونقول إنه يُلجَأ إلى السِّياق لتحديد معنى المصدرية مع بعض المصادر التي قد تشير بنيتها إلى معنيين : معنى الاسمِيَّة ومعنى المصدرية . مثال ذلك كلمة «الحَلَب» ـ بفتح الحاء واللام ـ لها معنيان : الأول : معنى المصدر ، والثاني : اللبن المحلوب[3] .

وننقل هنا نصوصا لسيبويه توضح بعض المعاني المختلفة لبعض المصادر التي لا بد وأنَّها تحتاج إلى السِّياق لتحديد المقصود منها :

للأبيض والأسود» . ينظر : المُزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ت : محمد أبو الفضل وآخرون ، دار التراث ، القاهرة ط٣ ، (بدون تاريخ للطبعة) ، ٤٧/١

(١) ينظر : الكتاب : ١٠٢/٢ ـ ١٠٣ ، ونص سيبويه هناك « وكلُّ شيء جاء قد لَزِمَه الألفُ واللام فهو بهذه المنزلة فإنْ كان عربيًّا نعرفه ولا نعرف الذي اشتُقَّ منه فإنَّمَا ذاك لأنَّا جَهِلْنا ما علم غيرُنا ، أو يكون الآخِرُ لم يصل إليه علمٌ وصل إلى الأوَّلِ المُسَمِّى » .

(٢) الخصائص : ٦٦/١

(٣) ينظر مادة «ح ل ب» في : مختار الصحاح ٧٨ ، مقاييس اللُّغَة ٩٥/٢ ، الصحاح ١١٤/١

- «قالوا : الحَلَب في الحَلِيب والمصدر . وقد يقولون الحَلَب وهم يعنون اللبن . ويقولون : حَلَبت حَلَبًا يريدون الفِعل الذي هو مصدر . فهذه أشياء تجيء مختلفة ولا تطرد» [١] .
- «وقالوا : الخَلْق ، فسووا بين المصدر والمخلوق . فاعرف هذا النحو وأجره على سبيله» [٢] .

وفي بعض الأحيان تتداخل دلالة المصدر مع دلالة بعض المشتقات ؛ بمعنى أَنَّ المصدر يدل الدِّلَالَة التي يدل عليها هذا المشتق . ولابد من اللجوء للسياق لتحديد هذه الدِّلَالَة الاشتقاقية .

- مثال على دلالة المصدر على دلالة اسم المفعول . يقول سيبويه (الكتاب ٤٣/٤) : «وقد يجيء المصدر على المفعول ، وذلك قولك : لبنٌ حَلَبٌ ، إِنَّمَا تريد محلوبٌ ، وكقولهم : الخَلْق إِنَّمَا يريدون المخلوق . ويقولون للدرهم : ضرب الأمير ، إِنَّمَا يريدون مضروب الأمير».
- ومثال دلالة المصدر على اسم الفاعل ، يقول سيبويه (الكتاب ٤٣/٤) : « ويقع على الفاعل ، وذلك قولك : يومٌ غمٌّ ، ورجلٌ نومٌ ، إِنَّمَا تريد النائم والغام ».

وقد يتخلي المصدر الدال على الهيئة «فِعْلَة» [٣] عن تلك الدِّلَالَة ويدل على مجرد اسم .

- يقول سيبويه : «وقالوا : مريتها مريًا ، إذا أرادوا عمله . ويقول : حلبتها مِرْيَة لا يريد فِعْلَة ولَكِنَّه يريد (وفي بعض النسخ : لكن تريد) نحوًا من الدِّرَّة والحَلَب » [٤] .
- ويقول في باب «ما تجيء فيه الفعلة تريد بها ضربا من الفعل» : «وذلك قولك : حسن الطعمة . وقتلته قتلة سوءٍ ، وبئست الميتة ، وإِنَّمَا تريد الضرب الذي أصابه من القتل ، والضرب الذي هو عليه من الطعم ... ، **وقد تجيء الفعلة لا يراد بها هذا المعنى** ، وذلك نحو الشدة ، والشعرة ، والدرية . وقد قالوا : الدرية » [٥] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤٢/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٤٣/٤

(٣) الوزن «فِعْلَة» وزن مصدر الهيئة ، نحو : جلس جِلْسة . وهو أيضا وزن من أوزان جمع التكسير الذي للقلة نحو صبية . ومصدر الهيئة « فِعْلَة » : هو مصدر يدل على هيئة حدوث الفعل ، وهو لا يصاغ إلا من الفعل الثلاثي ... نحو : جلس جِلْسَة المسترخي ، وأكل إِكْلَة النهم . ينظر : د. إميل بديع يعقوب : معجم الأوزان الصرفِيَّة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، ص ١٩٤ وص ٢٤٦

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٣/٤ ، وينظر الحاشية ذات الرَّقْم٢ ، وجاء في معنى « مرية »: « مريت الناقة وأمريتها : حلبتها فأمرت وناقة مريٌّ : درور ، وأخذت مرية الناقة وهي ما حلب منها . ومرى في الأمر وامترى وتمارى ، وما فيه مريةٌ : شك ». أساس البلاغة ٢٠٨/٢

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٤٤/٤

ولا بد عند استبعاد دلالة الهيئة من هذا الوزن استحضار السِّياق واللجوء إليه ، فعليه المعول في هذا ، وسيبويه وإن لم يشر إلى دور السِّياق في تحديد هذه الدِّلَالَة فهو مفهوم ضمنا .

ومن النتائج التي خرج بها سيبويه من خلال المنهج الذي اتبعه في كتابه أَنَّ المصدر قد يأتي في بعض الأحيان **دالا على الكثرة** . يقول في باب « ما جاء من المصادر وفيه ألف التأنيث » :

« وأما الفِعِّيلَي فتجيء على وجهٍ آخر تقول : كان بينهم رِمِّيًا ، فليس يريد قوله : رميا ، **ولَكِنَّه يريد ما كان بينهم من الترامي وكثرة الرمي** ، ولا يكون الرِّمِّيَّا واحدًا . وكذلك الحِجِّيزَي . وأما الحِثِّيثَي **فكثرة الحث كما أَنَّ الرِّمِّيَّا كثرة الرمي** ، ولا يكون من واحد . وأما الدِلِّيلَي فَإِنَّما **يراد به كثرة علمه بالدِّلَالَة ورسوخه فيها** . وكذلك القِتِّيتَي ، والهِجِّيرَي : **كثرة الكلام والقول بالشيء** . والخِلِّيفَي : **كثرة تشاغله بالخلافة وامتداد أيامه فيها** »[(١)] .

فالمصدر « الفِعِّيلَي » من خلال تتَبُّعه في النصوص المختلفة دلَّ عنده على الكثرة .

ومن خلال منهجه التتَبُّعي للألفاظ في سياقاتها يرصد دلالة لازمة لبعض المصادر . فيقول : « ومما جرى مجرى الدعاء مما هو تطلُّقٌ عند طلب الحاجة وبشاشة ، نحو كرامة ومسرة ونُعمةَ عين »[(٢)]

***

ح- **سياق الحال ودلالة المشتقات** :

١- اسم الفاعل :

من الجوانب التي يتصل فيها سياق الحال باسم الفاعل العامل تحديده لدلالته الزَّمَنِيَّة : الحاليَّة أو المستقبلِيَّة . فتحديد هذه الدِّلَالَة يتوقَّف عليه . يقول : « من ذلك : مررتُ برجلٍ ضاربك ، فهو نعت على أَنَّهُ سيَضربه ... ، وذلك قولُك : مررتُ برجلٍ ضاربه رجل ؛ فإنْ شئت حملتَه على أَنَّهُ سيفَعل ، وإن شئتَ على أنَّك مررت به وهو فى حالِ عملٍ ، وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ »[(٣)] . ويقول السيرافي شارحا العبارة السابقة : « والنكرات ينعت بها ، نحو : مررت برجل ضاربه رجل ؛ **فهو بمعنى يضربه في الحال أو تعني سيضرب** »[(٤)] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤١/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٠٢/٢

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٥/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٢٥/١ الحاشية ذات الرَّقْم١

ويؤكد على هذه الدِّلَالَة الزَّمَنِيَّة مع اسم الفاعل بشكل آخر عند حديثه عن «تصغير اسم الفاعل». فيقول : «واعلم أنَّك لا تحقِّر الاسم إذا كان بمنزلة الفعل ، ألا ترى أَنَّهُ قبيح : هو ضويربٌ زيدًا ، وهو ضويربٌ زيدٍ ، إذا أردت بضارب زيدٍ التنوين . **وإن كان ضارب زيدٍ لما مضى فتصغيره جَيِّد**» [١] .

فإذا أراد المُتَكَلِّم بـ «ضارب زيد» التنوين ـ أي المستقبل ـ قبح التصغير ، وإن أراد المضي ، فالتصغير جَيِّد . أي أَنَّ صيغة التصغير هنا تتوقف على السِّياق الذي ترد فيه الجملة . ويكون قبح تصغير اسم الفاعل أو جودته مرتبطا بالزمن ؟

وقد يثور سؤال : لماذا يقبح تصغير اسم الفاعل إذا دَلَّ على المستقبل ويجود إذا دَلَّ على الماضي ؟

يمكن أَنْ نقول إِنَّ القبح أو الجودة مرتبطان هنا بدلالة اسم الفاعل على الزمن ، والأغراض التي يأتي لها التصغير متعددة ، مثل : التحقير ، وتقليل جسم الشيء وذاته ، وتقليل الكمية والعدد ، وتقريب الزمان والمكان ، والتحبب ، وإظهار الود ، والترحم ، والتعظيم [٢] . وكل هذه الأغراض تتطلب سياقا يسبقها ، سياقا تكوَّنت فيه للمتكلم خبرة مُعَيَّنَة جعلته يستخدم التصغير ؛ فأنا لا أحقر أو أتحبَّبُ أو أظهر الودَّ أو أترحم أو أعظم لـ «مَنْ» أو «ما» لا أعلمه سلفا ، فنحن لا نترحم عقلا على شيء سيقع في المستقبل لم نعلمه بعد ، ولا نعظم من لا نعرفه سلفا . ونحن لن نقلل كمية أو عددا لم نرها أو نره ، ولن أقرب زمانا أو مكانا لم أعش فيه ، فكل هذا يتطلب خبرة اجتماعِيَّة تجعلني أحكم بهذا .

وأشار العلماء إلى أَنَّ المشتقات عموما ومن بينها اسم الفاعل قد تحل محل المصدر ، كما جاء في شرح التسهيل : «**وقد يقوم مقام المصادر صفات مقصود بها الحالِيَّة على سبيل التوكيد** ، نحو عائذا بالله من شرها ، وهنيئا لك ، وأقاعدا وقد سار الركبُ» [٣] .

إن قولنا : «عائذا بالله من شرها» يجري مجرى «عِياذا بالله» . والسبب الذي جعل العلماء يقولون إِنَّ المشتقات عموما ومن بينها اسم الفاعل يحل محل المصدر هو بلا شك قرينة سياق الحال ؛ فالمُتَكَلِّم في المثال السابق «عائذا بالله من شرها» لا يتعوذ بالله من شيء في وقت ، ويتعوذ به منه في وقت آخر على حسب ما تدل عليه صيغة اسم الفاعل التي تعرف بأَنَّها : «الاسم المشتق

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤/٤٨٠

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ٤/٦٨٣ ـ ٦٨٤

(٣) محمد بن عبد الله الطائي : شرح تسهيل الفوائد ، ت : د.عبد الرحمن السيد ، د. محمد بدوي المختون ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٠م)، ٣/١٢٢

الدال على حدث وذات موصوفة بالقيام بهذا الحدث ، **بمعنى التجدد والحدوث** » [(١)] . على عكس المصدر الذي يدل على الحدث مجردًا من الزمن ؛ أي أَنَّ السِّياق يحكم على أَنَّ دلالة «عائذا » في الجملة السابقة هي دلالة مصدرية وليست دلالة اسم الفاعل ، فالمؤمن يتعوذ بالله دائما ، في كل وقت وفي كل مكان طاهر .

يقرر سيبويه ما أشارنا إليه سابقا فيقول : « ومثل ذلك : عائذًا بالله من شرّها ، كأَنَّه رأى شيئًا يُتَّقَى ؛ فصار عند نفسه فى حال استعاذةٍ ، حتَّى صار بمنزلة الذى رآه فى حال قيامٍ وقُعودٍ ، لأَنَّهُ يَرَى نفسَه فى تلك الحال ... ، وإذا ذكرتَ شيئًا من هذا الباب فالفعل متّصِلٌ فى حال ذكرِك وأنت تَعمل فى تثبيته لك أو لغيرك فى حال ذكرِك إيّاه» [(٢)] .

إن المُتَكَلِّم عندما يستخدم اسم الفاعل يدلُّ على الظاهر من قوله ، فهو لا يستطيع أَنْ يستمر بنطق « التعوذ » دوما في كل حال وفي كل وقت ، ولا يستطيع لسانه ذلك ، ولكن «قلبه » أو « حال نفسه » ـ كما قال سيبويه ـ دائم التعوذ بالله ، لذلك ناسبت صيغة اسم الفاعل حال المُتَكَلِّم الظاهرة ، وتكفل سياق الحال بالتعبير عن الحال الباطنة ، بصيرورة دلالة اسم الفاعل إلى الدِّلَالَة المصدرية .

٢ـ صيغ المبالغة :

هناك علاقة بين اسم الفاعل وصيغ المبالغة ؛ إذ يجوز تحويل صيغة فاعل إلى صيغة أخرى تفيد الكثرة والمبالغة . فاسم الفاعل في جملة : «فلان زارِعٌ فاكهةً » ، يمكن أَنْ تصبح « فلان زَرَّاعٌ فاكهةً» . والفرق بين « زَارِع » و «زَرَّاع» إفادة الثانية الكثرة والمبالغة عن الأولى .

والسؤال : متي يتم الانتقال من صيغة فاعل إلى صيغة مبالغة ؟ والإجابة : يتم ذلك عند إرادة المبالغة ، وهذا يتطلب سياقا يستدعي ذلك . قال سيبويه : « وأجروا اسمَ الفاعل ، **إذا أرادوا أَنْ يبالِغوا فى الأمر** ، مُجراه إذا كان على بناء فاعلٍ ؛ لأَنَّهُ يريد به ما أراد بفاعل من إيقاع الفعل ، إلاّ أَنَّهُ يريد أَنْ يُحدِّثَ عن المبالغة . فمَا هو الأصلُ الذى عليه أكثُر هذا المعنى : فَعولٌ ، وفعّال ، ومِفْعَال ، وفَعِلٌ ، وقد جاء : فَعيلٌ كَرحيمٍ وعَليم وقَدير وسَميع وبَصير » [(٣)] .

٣ـ اسما الزمان والمكان : اسما الزمان والمكان يصاغان من الفعل الثلاثي على «مَفْعَل » أو «مَفْعِل » . وهاتان الصيغتان مشتركتان بين اسمي الزمان والمكان والمصدر الميمي .

---

(١) د. محمد عبادة : معجم مصطلحات النحو والصرف ، ص ١٦٣

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣٤١/١

(٣) سيبويه : الكتاب ، ١١٠/١

المصدر الميمي هو : «مصدر يدلُّ على المصدر العادي ، غير أَنَّهُ يبدأ بميم زائدة مفتوحة . ويصاغ من الفعل الثلاثي على وزن « مَفْعَل » ، نحو : شرب مشرَبا ، وأكل مأكَلا ... ، وإذا كان الفعل مثالا ، صحيح اللام ، وفاؤه تحذف في المضارع ؛ فَإِنَّ مصدره الميمي يكون على وزن « مَفْعِل »، نحو : وعد موعِد ، وقع موقِعا ... ويصاغ من الفعل الثلاثي على وزن الفعل المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة ، وفتح ما قبل الآخر ، نحو : أكرمه يكرمه مُكْرَمًا ، هاجر يُهَاجِر مُهَاجَرًا »[(١)] . ومعنى هذا أَنَّ :

- الوزن « مَفْعَل » ـ بفتح العين ـ قد يُعطي دلالة : اسم الزمان ، اسم المكان ، المصدر الميمي[(٢)] .
- والوزن « مَفْعِل » ـ بكسر العين ـ قد يُعطي دلالة : اسم الزمان ، اسم المكان ، المصدر الميمي .
- والأوزان التي تمثلها الألفاظ «مُكْرَم ، مُهَاجَر ، مُسْتخدَم ... » ـ بفتح ما قبل الآخر ـ قد يُعطي دلالة : اسم الزمان ، اسم المكان ، المصدر الميمي[(٣)] .

إلى هذه الدلالات المختلفة يشير سيبويه قائلا : « وأمَّا ما كان يفعل منه مفتوحًا فَإِنَّ اسم المكان يكون مفتوحا ، كما كان الفعل مفتوحا . وذلك قولك : شرب يشرب . وتقول للمكان مشربٌ . ولبِس يلبَس ، والمكان الملبَس . وإذا أردت المصدر فتحته أيضًا ... ويقولون المذهب للمكان . وتقول : **أردت مذهبًا أي ذهابًا فتفتح**»[(٤)] .

بعد ما سبق يظهر سؤالان : الأول : لماذا يلجأ المُتَكَلِّم إلى المصدر الميمي بدلا من المصدر الأصلي ؟ والثاني : كيف يمكن التفريق بين الدلات الثلاث لكل صيغة ؟

يتكفل السِّياق بالإجابة عن السؤالين السابقين ، فصيغة المصدر الميمي يُؤْتى بها في الكلام لأَنَّها تفوق صيغة المصدر الأصلي في «قوة الدِّلَالَة وتأكيدها »[(٥)] . إنَّ إرادة المُتَكَلِّم هي التي تتجه به إلى استخدام المصدر الأصلي أو الميمي ، فإذا استدعى السِّياق مزيدا من التأكيد لجأ المُتَكَلِّم إلي المصدر الميمي لتحقيق هذه الغاية .

---

(١) د. إميل بديع يعقوب : معجم الأوزان الصرفِيَّة ، ص٢٤٦

(٢) ويدل هذا الوزن أيضا على الاسم المعدول (الممنوع من الصرف)، نحو : مَوْحَد ، وعليه تُعدل الأعداد من واحد إلى عشرة .ينظر المرجع السابق ، ص ٢٥٢

(٣) من إشارات سيبويه الطريفة أنَّ « المكان والمصدر يبنى من جميع هذا بناء المفعول ، وكان بناء المفعول أولى به لأنَّ المصدر مفعول ، والمكان مفعول فيه ». ٩٥/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٨٩/٤

(٥) عباس حسن : النحو الوافي ، ٣/ ٢٣١ ، وأضاف الأستاذ عباس حسن في الحاشية ذات الرَّقْم٤ أن هذا المصدر قد يفيد بيان السبب .

كما أَنَّ السِّياق هو المرجع الفصل لتحديد دلالة الوزن «مَفْعِل » ، أو «مَفْعَل » . فبدونه يتعذر الوقوف على هذه الدِّلَالَة .

وينبه سيبويه على أَنَّ «التاء» قد تلحق اسمي الزمان والمكان للدلالة على «**التكثير**» . يقول في باب «ما يكون مفعلةٌ لازمة لها الهاء والفتحة» : « **وذلك إذا أردت أَنْ تكثر الشيء بالمكان** ، وذلك قولك : أرضٌ مَسْبَعَةٌ ، ومَأْسَدَةٌ ، ومَذْأَبَةٌ . وليس في كل شيءٍ يقال إلا أَنْ تقيس شيئًا وتعلم أَنَّ العرب لم تَكَلَّم به»[(١)] .

وهذه القاعدة لا يمكن الوقوف عليها إلا من خلال تتَبُّع هذه الصيغة في السِّياقات المختلفة ، وربط هذه الصيغة بدلالة التكثير .

***

(١) سيبويه : الكتاب ، ٤/٩٤

• المبحث الثاني : سياق الحال ومعاني الأوزان الصَّرْفِيَّة :

من خلال المنهج الذي سار عليه سيبويه في الكتاب والذي كان من بينه تتبُّع التركيب اللغويّ أو البنية الصَّرْفِيَّة في السِّياقات المخالفة وقف على بعض المعاني الدِّلالِيَّة لبعض الأوزان الصَّرْفِيَّة . وقد قمتُ بجمع النصوص التي ذكر فيها سيبويه دلالة لوزن ما .

وفي الجدول التالي هذه المواضع :

م	الوزن	الدِّلَالَة	نص سيبويه وموضعه
١ـ	« تَفَعَّلَ »	أ ـ يدل على من لم تكتمل عنده الصفة التي يتظاهر بها . ب ـ المطاوعة . ج ـ إرادة الاتصاف بصفة حتى يكون صاحبها من أهلها . د ـ الأخذ من الشيء الأول فالأول . هـ ـ القيام بالفعل على مهل .	أ ـ« ولو أرادوا أَنَّهُ يُدْخِلُ نفسَه فى الدَّينِ ولم يَستكمل أَنْ يقال : له دِينٌ ، لقالوا : يَتديَّنُ وليس بذلك ويَتشرَّفُ وليس له شَرَفٌ ، ويَتفهَّمُ وليس له فَهَمٌ » [(١)] . ب ـ « فعلته فتَفَعَّل ، نحو كسرته فتكسر ، وعشيته فتعشى ، وغديته فتغدى » [(٢)] . ج ـ « وإذا أراد الرجل أَنْ يدخل نفسه في أمرٍ حتى يضاف إليه ويكون من أهله فَإِنَّك تقول : تفعل ، وذلك تشجع وتبصر وتحلم وتجلد ، وتمرأ ، ... أي صار ذا مروءة » [(٣)] . د ـ « وأما قوله : تنقصته وتنقصني فكأَنَّه الأخذ من الشيء الأول فالأول » [(٤)] . هـ . « وأما يتسمع ويتحفظ فهو يتبصر . وهذه الأشياء نحو يتجرع ويتفوق ، لأَنَّها في مهلة . ومثل

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٦٢/١

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦٦/٤ ، وينظر أيضا قوله في نفس الصفحة : « وأما تقيس وتنزر وتتمم ، فَإِنَّما يجري على نحو كسرته فتكسر ، كأَنَّه قال تمم فتتمم ، وقيس فتقيس ».

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٧١/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٢/٤

			ذلك تخيره . وأما التعمج والتعمق فنحوٌ من هذا . والتدخل مثله ، لأنَّهُ عملٌ بعد عملٍ في مهلة» [(١)] .
٢ـ	«فَعَّال»	يدل على من له مهنة يمتهنها ويعالجها	«أَمَّا **<u>ما يكون صاحب شيء يعالجه فإِنَّهُ مما يكون فعَّالاً</u>** ، وذلك قولك لصاحب الثياب : ثوَّاب ، ولصاحب العاج : عواجٌ ؛ ولصاحب الجمال التي ينقل عليها : جمَّال ، ولصاحب الحُمُر التي يعمل عليها : حمارٌ ، وللذي يعالج الصرف : صرافٌ» [(٢)] .
٣ـ	«فاعِل»	يدل على ما يكون صاحب شيء وليس بصنعة يعالجها	«**<u>وأمَّا ما يكون ذا شيء وليس بصنعة يعالجها فإِنَّهُ مما يكون فاعلا</u>** وذلك قولك لذي الدرع : دارِع ولذي النَّبل : نابلٌ ، ولذي النُّشاب : ناشبٌ ، ولذي التَّمر: تامرٌ ، ولذي اللبن : لابنٌ» [(٣)] .
٤ـ	«فَعَّل»	كثرة العمل	«تقول : كسرتها وقطعتها ، فإذا أردت كثرة العمل قلت : كسَّرْته وقطَّعْتُه ومَزَّقْتُه » [(٤)] . «كما تقول : قطَّعه وكسَّره حين تكثِّر عمله . ولو قلت : قطعه جاز واكتفيت به» [(٥)] .
٥ـ	«انفَعَل»	المطاوعة	«وذلك قولك : كسرته فانكسر ، وحطمته فانحطم ، وحسرته فانحسرن ، وشويته فانشوى ، وبعضهم يقول: فاشتوى . وغممته فاغتم ، وانغم عربية . وصرفته فانصرف ، وقطعته فانقطع» [(٦)] .

(١) سيبويه : الكتاب ، ٧٣/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣/ ٣٨١، وينظر أيضا ٣٨٢/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣٨١/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٦٤/٤

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦٢٣/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٦٥/٤

٦ـ	«افتعل»	أ ـ المطاوعة . ب ـ المشاركة . ج ـ اتخاذ الاسم الذي يقع عليه الفعل د ـ التصرف والطلب .	أ ـ «فعلته فانفعل وافتعل : أفعلته ففعل ، نحو أدخلته فدخل ، وأخرجته فخرج» [(١)] . ب ـ «وقد يشركه افتعلنا فتريد بهما معنى واحدا ، وذلك قولهم : تضاربوا واضطربوا ، وتقاتلوا واقتتلوا ، وتجاوروا واجتوروا ، وتلاقوا والتقوا» [(٢)] . ج ـ «تقول : اشتوى القوم ، أي اتخذوا شواءً .... ، وأَمَّا اذَّبَحَ فبمنزلة اتَّخَذَ ذبيحة» [(٣)] . د ـ «وأَمَّا اكتسب فهو التصرف والطلب» [(٤)] .
٧ـ	«تَفاعَل»	أ ـ المطاوعة . ب ـ المشاركة . ج ـ إظهار حال ليس عليها الشخص .	أ ـ « وفي فاعلته فتفاعل ، وذلك نحو ناولته فتناول» [(٥)] . ب ـ «وأَمَّا تفاعلت فلا يكون إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعدا ، ولا يجوز أَنْ يكون معملاً في مفعولٍ ، ولا يتعدى الفعل إلى منصوب . ففي تفاعلنا يلفظ بالمعنى الذي كان في فاعلته . وذلك قولك : تضاربنا ، وترامينا ، وتقاتلنا» [(٦)] . ج ـ «وقد يجيىء تفاعلت ليريك أَنَّهُ في حالٍ ليس فيها . من ذلك : تغافلت ، وتعاميت ، وتعاييت ، وتعاشيت وتعارجت ، وتجاهلت» [(٧)] .
٨ـ	«تَفَعْلَل»	المطاوعة	«ونظير ذلك في بنات الأربعة على مثال تفعلل نحو

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٦٥/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦٩/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٧٤/٤ وينظر أيضا قوله في نفس الصفحة : «وأما احتبسته فقولك: اتخذته حبيسا، كأَنَّه مثل شوى واشتوى» .

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٤/٤

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦٦/٤

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٦٩/٤

(٧) سيبويه : الكتاب ، ٦٩/٤

			دحرجته فتدحرج ، وقلقلته فتقلقل ، ومعددته فتمعدد ، وصعررته فتصعرر »[١] .
٩ـ	«فاعل»	المشاركة	«اعلم أَنَّكَ إذا قلت : **فاعلته ، فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته** . ومثل ذلك : ضاربته ، وفارقته ، وكارمته ، وعازني وعاززته ، وخاصمني وخاصمته »[٢] .
١٠ـ	«استفعل»	أ ـ وجود الشيء على حال مُعَيَّنَة . ب ـ الطلب . ج ـ التحول من حال إلى حال	أ ـ«استجدته أي أصبته جَيِّدا ، واستكرمته أي أصبته كريمًا . واستعظمته أي أصبته عظيمًا ، واستسمنته أي أصبته سمينًا »[٣] . ب ـ «وتقول : استعطيت أي طلبت العطية »[٤] . ج ـ «وقالوا في التحول من حالٍ إلى حال هكذا ، وذلك قولك: استنوق الجمل ، واستتيست الشاة»[٥] .
١١ـ	«افعوعل»	المبالغة والتوكيد	«قالوا : خشن ، وقالوا : اخشوشن . وسألت الخليل فقال : كأَنَّهم أرادوا المبالغة والتوكيد ، كما أَنَّهُ إذا قال : اعشوشبت الأرض فَإِنَّما يريد أَنْ يجعل ذلك كثيرا عاما ، قد بالغ . وكذلك احلولى »[٦] .

ولا بد في ختام هذه الجزئيَّة التأكيد على الملحوظات التالية :

✓ **الأولى :**

إنّ سيبويه سار على منهجه الذي عهدناه سلفا مع التراكيب النحوِيَّة ، فهو من خلال مجموعة من الألفاظ مشتركة الوزن يستخلص هذا الوزن ويتَتَبَّعه في السِّياقات المختلفة لتحديد الدلالات المختلفة

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٦٦/٤

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦٨/٤

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٧٠/٤

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٧٠/٤

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٧١/٤

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٧٥/٤

لهذا الوزن . فالوزن «استفعل» له من المعاني الصَّرْفِيَّة الدِّلالِيَّة : «وجود الشيء على حال مُعَيَّنَة ، الطلب ، التحول من حال إلى حال»، وهي معاني قررها بعد التتَبُّع والاستقصاء .

وسيبويه ـ كما سبق و أَنْ أوضحنا ـ يلتزم بالطريقة الإِحْصَائِيَّة في دراسته لِلُّغَة وقواعدها ، ويشمل هذا أيضا البنية الصَّرْفِيَّة بدليل قوله : «وليس في الكلام افْعَنلَلته ، وافْعَنْلَيْتُه ، ولا افعَالَلْتُه ، ولا افْعلَلتُه»[1] . فهذه مقولة دالة لا محالة على منهجه الإِحْصَائِيّ ، وسيبويه من الأمانة العلميَّة بحيث لا ينسب لِلُّغَة ما ليس فيها . وإذا كان سيبويه يتَتَبَّع البنى اللفظِيَّة غير المستعملة وغير الموجودة فمن باب أولى أَنْ يكون أشد تتَبُّعا لما هو مستعمل منها .

✓ <u>**الثانية**</u> :

دلالات الأوزان الصَّرْفِيَّة التي ذكرها سيبويه ليست «<u>**ثابتة**</u>» بل هي «<u>**متطورة**</u>»، ونحتاج دوما إلى تحليل السِّياقات التي ترد فيها هذه الأوزان للوقوف على هذه الدلالات الجديدة .

ونحن نعلم من علم الدِّلَالَة :

١ـ أنَّ المفردات لا تستقر على حال ، وذلك لأَنَّ « الحياة تشجِّع على تغير المفردات ؛ لأَنَّها تضاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات ، فالعلاقات الاجتِماعِيَّة والصناعات ، والعُدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات ، وتقصي الكلمات القديمة ، <u>أوتحور معناها</u> ، وتتطلب خلق كلمات جديدة »[2] .

٢ـ أنَّ كل جماعة لغوية تترابط لغويا ، وتتحول إلى جماعة ثقافيَّة متميزة تصوغ بين الحين والآخر <u>مدلولات جديدة للكلمات بحكم استخدامها</u> للأشياء ومرورها بتجارب مختلفة ، ولهذا كانت المدلولات سابقة لدوالها[3] .

٣ـ اللُّغَة ليست هامدة أوساكنة بحال من الأحوال ، بالرغم من أَنْ تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحايين ، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوِيَّة وصيغ الكلمات <u>ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور</u>[4] . وتزداد سرعة التطور اللغويّ بازدياد انتشار اللُّغَة بين غير أهليها ، وبازدياد عدد الذين يتكلمونها وتنوعهم[5] .

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٧٧/٤

(٢) د. رمضان عبد التواب : التطور اللغويّ ، ص ١١، ١٢ .

(٣) د. كريم زكي حسام الدين : التحليل الدِّلَالِيّ ، إجراءاته ومناهجه ، ١١/١

(٤) د.كمال بشر : دور الكلمة في اللُّغَة ، ص ١٥٣

(٥) د. رمضان عبد التواب : التطور اللغويّ ، ص ١٢.

٤ـ الدِّلَالَة «ناتجة عن تواضع اجتماعي ، وهذا التواضع عرضة للتغيير والتطوير ؛ ولذا جاز تغير الدِّلَالَة لتغير المواضعة وفق ما تمليه الظروف المستجدة في حياة الجماعة اللُّغَوِيَّة»(١) .

٥ـ «الكلمات التي تتألف منها [اللُّغَة] تتبدل ببطء في غُضُون الأجيال ، غير أَنَّ ما تثيره من الصور أو ما يرتبط فيها من المعنى يتغير بلا انقطاع» ، وأنْ «ليس للألفاظ سوى معان متحولة موقتة بين جيل وبين أمة وأمة »(٢) .

٦ـ و«أَنَّهُ مهما اتسع مخزون اللُّغَة اللفظي فهي قاصرة عن الوفاء بمطالب التعبير اللغويّ في مجال الأفكار المُجَرَّدة والصور والظلال »(٣) .

ويمكن أَنْ ندلل على ما ذهبنا إليه من أَنَّ الأوزان الصَّرْفِيَّة تتطور دلالتها بمرور الزمن بأنْ نذكر ما قام به أحد الباحثين المعاصرين الأستاذ محمد خليفة التونسي من تَتَبُّع دلالة بنية «تَفَاعَل » ووقوفه على بعض الدلالات التي لم تذكرها كتب الصرف ، ومنها(٤) :

- **أولا التفاعل من واحد :**

- تكلف الفعل عن اعتقاد به ، مثل : تتباهى الفتاة بجمالها ، وتتفاخر بنسبها ، وتتواجه بثرائها وتتعاظم بثقافتها ، وتتفاصح في كلامها ، وتتعالى في معاملتها ، وتتمايل في سيرها .
- المشابهة ، مثل : تكالب على الشهوات ؛ أي أشبه الكلب في الحرص عليها ، وتذاءبت الريح أي أشبهت الذئب في إقباله من جهة مَرَّة ، ومن غيرها أخرى .
- حدوث الفعل متتابعا ، مثل : تماوج صوت أم كلثوم ، وتقاطر المطر ، وتناقص الماء بالتبخر ، وترادف الرزق ، ويتهالك على الدروس ، ويتحامل على خصمه ، وتقادم العهد ، وتنامى الطفل ، وتهاوى البناء ، وتراجع في سعيه ، وتراخت الحملة ، وتسارعت الحركة ، وتواتر الحديث ، وترامى إلينا الخبر ، وتمادى الضلال .

---

(١) مقال بعنوان « مقدمة لدراسة التطور الدِّلَالِيّ في العَرَبِيَّة الفصحى في العصر الحديث » ، بقلم : د.أحمد محمد قدور ، مجلة عالم الفكر، ص٤١ ، عدد مارس ١٩٨٦م

(٢) غوستاف لوبون : روح الجماعات ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٥٥م) ، ص ٩٧ ، ٩٩

(٣) السابق : ٤١

(٤) مقال « وزن تفاعل ودلالته » ، بقلم : محمد خليفة التونسي ، ص ١٤٧ ، مجلة العربي ع ٢٤٧ ، الكويت .

- الدخول في شيء ، أو الميل إليه ، مثل : تيامن الطريق ، وتياسر في سعيه ، وتباشر بالصباح ، وتفاءل بالوجوه الحسان ، وتشاءم بنعيق البوم ، وتكاسل في عمله ، وتساهل في حقه .
- طلب الفعل ، مثل : تقاضاه الدين ؛ أي طلب منه قضاءه ، تحاكم الشاعر إلى الناقد ؛ أي طلب حكمه ، ذهب إلى الطبيب ليتداوى ؛ أي يطلب الدواء .
- مطاوعة فعل سابق من أي وزن ؛ أي التَأَثُّر به ، مثل : نثرت الحب فتناثر ؛ أي انتثر .
- القيام بالفعل ابتداء ؛ أي دون تَأَثُّر بفعل سابق ، فهو كالفعل الثلاثي ، مثل: تنازل عن حقه ؛ أي نزل ، وتساءل عن أخيه ؛ أي سأل ، وتجارأ عليه ؛ أي جرأ ، وتجاسر عليه ؛ أي جسر ، وتجاوز الحد ؛ أي جاز ، وتوانى في العمل ؛ أي وني .
- اعتقاد صفة الشيء ، مثل : أعطيته في الكتاب دينارا فتقاله ؛ أي عده قليلا ، وتعاظمت الذنب ؛ أي عددته عظيما .

- **ثانيا : تفاعل من اثنين أوجمع** :
  - مجرد التشارك أو الاشتراك في الفعل ، مثل : تنادم الرجلان ، وتصاحبا ، وتجالسا .
  - التبادل ، مثل : تآمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ؛ أي : تبادلوا ذلك ، فأمر بعضهم بعضا بالمعروف ونهاه عن المنكر ، وتتجاذب الكواكب والنجوم ، وتعامد الخطان ، يتقارضان الثناء ، تعارفا بعد أنْ كانا متناكرين ، تقابض المتبايعان ثُمَّ تفارقا .
  - المغالبة في الفعل وهي تشمل التشارك والتبادل بين طرف وآخر مع رغبة كل طرف أَنْ يغلب الآخر ، مثل : تفاخر الشاعران ، ثُمَّ تهاجيا ، تبارى الفريقان في الكرة ، تتسابق الخيل ، يتساقى المتحاربون الموت[١] .

✓ **الثالثة** :

ما زال مجال « دلالة الأوزان الصَّرْفِيَّة والفروق الدِّلالِيَّة فيما بينها » مجالا خصبا للدراسة وأنَّ ما كُتب فيه « يمثل قطرة في بحر ، وأنَّ أبواب الولوج إلى هذا الميدان الخصب ما تزال مشرعة »[٢] وما

---

(١) ولمزيد من التفاصيل ينظر : إيهاب عبد الحميد ، شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تَمَّام دراسة نحوية صرفِيَّة ، رسالة ماجستير ، دار العلوم ، ٢٠١٢م ، ص ١٢٤ وص ٣٤٣

(٢) د. أحمد مختار عمر : أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدِّلَالَة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، ص ٤

زال الطريق في هذه الدراسات مظلما ، ولم يسلط عليه إلا النور القليل ، «والباب بعد مفتوح للبحث الجاد الطويل في هذا الأمر العظيم الجليل »[١] .

ومما يمكن مناقشته في جزئية الأوزان الصَّرْفِيَّة وعلاقتها بسياق الحال ما يتعلق بالأوزان الصَّرْفِيَّة التي تعبر عن جموع القِلَّة والكثرة . فقد أثبت العلماء لجموع القِلَّة أوزانا أربعة ، هي : «أَفْعُل ، أفعالٌ أَفعِلَة ، فِعْلَة» ، وأثبتوا لجموع الكثرة أكثر من ثلاثة وعشرين وزنا ، هي : «فُعْلٌ ، فُعُلٌ ، فُعَلٌ ، فِعَلٌ ، فُعَلَة ، فَعَلَة ، فَعْلى ، فِعَلَة ، فُعَّلٌ ، فُعّالٌ ، فِعالٌ ، فُعُولٌ ، فِعْلان ، فُعْلان ، فُعَلاءُ ، أفعِلاءُ ، فَواعِل ، فَعائِل ، فَعالِي ، فَعَالَى ، فَعَالِيُّ ، فَعَالِل ، وشبه فَعَالِل » .

وقد أشار سيبويه إلى هذه الأوزان في بعض المواضع ، فقال :

١- «وكل شيء مما ذكرنا كانت فيه هاء التأنيث يكسر على ما ذكرنا إلا أَنَّكَ تجمع بالتاء إذا **أردت بناء ما يكون لأدنى العدد**»[٢] .

٢- «فإذا أردت أدنى العدد جمعت الواحد بالتاء . **وإذا أردت الكثير** صرت إلى الاسم الذي يقع على الجميع ولم تكسر الواحد على بناء آخر»[٣] .

٣- «وأما ما كان فَعلًا فإِنَّهُ يكسَّر على أفعالٍ **إذا أردت بناء أدنى العدد** ، وذلك نحو : قاعٍ وأقواعٍ وتاجٍ وأتواجٍ ، وجارٍ وأجوارٍ . **وإذا أردت بناء أكثر العدد** كسرته على فِعلانٍ ، وذلك نحو : جيرانٍ وقيعانٍ وتيجانٍ ، وساجٍ وسيجانٍ »[٤] .

٤- «وما كان مؤنثًا من فَعلٍ من هذا الباب فإِنَّهُ يكسر على أفعُلٍ **إذا أردت بناء أدنى العدد** ، ... **فإذا أردت بناء أكثر العدد** قلت في الدار : دُورٌ ، وفي الساق : سُوقٌ ، وبنوهما على فُعلٍ فِرارًا من فُعُولٍ»[٥] .

٥- «**فإذا أردت بناء الأكثر** قلت : سِدرٌ وقِربٌ وكِسرٌ، ... **وقد يريدون الأَقَلّ** فيقولون : كِسرٌ وفِقرٌ »[٦] .

ونلاحظ على النصوص السابقة ما يلي :

---

(١) د. فاضل السامرائي : معاني الأبنية في العَرَبِيَّة ، دار عمار ، الأردن ، ط ٢ ، (٢٠٠٧م)، ص ٧

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٦١٣/٣

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٥٨٢/٣

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٥٩٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٥٩١/٣

(٦) سيبويه : الكتاب ، ٥٨١/٣

» الملحوظة الأولى :

يربط سيبويه بين التعبير بجمع القِلَّة أو الكثرة وبين «إرادة المُتَكَلِّم» ؛ فالمُتَكَلِّم إذا أراد التعبير عن القِلَّة استخدم جموع القِلَّة ، وإذا أراد التعبير عن الكثرة استخدم أوزان الكثرة . ولا بد أَنَّ هذا سيكون مرتبطا بالسِّياق الذي يكون في المُتَكَلِّم .

ونلاحظ في المثال الخامس أَنَّ الجمع «كِسَر» قد يُعَبِّر عن القِلَّة وقد يُعَبِّر عن الكثرة ، وأنَّ هذا الأمر مرهون بإرادة المُتَكَلِّم المرتبطة بدورها بالسِّياق التي توجد فيه .

وهنا سؤال : إنَّ المُتَكَلِّم البليغ العالم بلغته أمامه مجموعتان من الجموع : مجموعة تعبر عن «القِلَّة» ، ومجموعة تعبر «الكثرة» ، فإذا أراد أَنْ يُعَبِّر عن القِلَّة استخدم أحد أوزانها ، وإذا أراد أَنْ يُعَبِّر عن الكثرة استخدم أحد أوزان الكثرة ، فلماذا إذن يخلط المُتَكَلِّم بين الاختيارين ؟ لماذا يُعَبِّر عن القِلَّة بجمع من جموع الكثرة أو العكس ؟

وإجابة هذا السؤال لا تعدو أمرين :

- الأول : أَنَّ ربط النُّحَاة دلالة القِلَّة أو الكثرة بأوزان مُعَيَّنَة أمر غير دقيق ، متروك للسياق[١] ، كما أشرنا لقول د . إبراهيم أنيس في بداية بحثنا .
- الثاني : وجود نكتة بلاغية في هذا ، وأنَّ الكاتب أو الأديب أراد أَنْ يتخذ هذا الانتقال لـ «تنبيه» قارئه لأمر ما . فالأمر المألوف تعتاد العين عليه ولا تقف عنده ، أَمَّا ما خرج عن المألوف فإنَّهُ يستوقفها[٢] .

---

(١) من الأقوال المُهِمَّة التي تتَعَلَّق بجموع القِلَّة ما نقله البغدادِيّ في كتابه : «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» عن شيوخه قولهم : «**إذا قرن جمع القِلَّة بأل التي للاستغراق أو أضيف إلى ما يدل على الكثرة انصرف بذلك إلى الكثرة**» ، ت : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، (١٩٩٧م)٨ /١٠٩ ، وعُلِم من مناقشة للأداة «أل» أنَّ دلالتها تتحدد من خلال السِّياق .

(٢) هناك من الباحثين بالفعل من درس هذا الأمر بلاغيا وأشار إليه منهم الأستاذ الدكتور : عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي ، في كتابه « البلاغة العَرَبِيَّة » .حيث اعتبر هذا الانتقال بين جموع القِلَّة والكثرة نوعا من «المجاز» بمعنى أنَّه اعتبر أنَّ من أنواع المجاز : «**إطلاق اللّفظ للدلالة به على غير ما وُضِع له في ما اصطلح به التخاطب، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصلي**» . واعتبر هذا المجاز من «المجاز المرسل» .وجعل من هذا النوع : «وضع جموع القِلَّة بدل جموع الكثرة لغرض بلاغي، كتعظيم العدد القليل ، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد القليل من صفات جليلة وعظيمة يجعله معادلاً للعدد الكثير. ومنها وضع جموع الكثرة بدل جموع القِلَّة ، لغرض بلاغيّ، كتحقير العدد الكثير، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد الكثير من تناقض في صفات كماله يجعله معادلاً للعدد القليل» . ينظر : البلاغة العَرَبِيَّة ، دار القلم، دمشق، بيروت ط١ ، (١٩٩٦م)، ٣٠٨/٢

ولعل ما يؤيِّد ما نقول هنا قول سيبويه نفسه : «وليس شيء يضطَرّون إليه إلا وهمْ يحاوِلون به وجها »[(١)] .

» **الملحوظة الثانية :**

يشير الأستاذ عباس حسن عند حديثه عن الجموع وأوزانها أَنَّ سيبويه يقرر أَنَّ جمع المذكر والمؤنث يدلان « ـ في الغالب ـ على عدد قليل لا ينقص عن ثلاثة ، ولا يزيد عن عشرة ، فهما كجموع القِلَّة التي للتكسير ، ينحصر مدلولها في ثلاثة وعشرة وما بينهما »[(٢)] .

ويشير إلى أَنَّ بعض علماء آخرين ـ ليس منهم سيبويه ـ يقولون : «إِنَّهُما صالحان للأمرين ، ما لم توجد قرينة تعين أحد الأمرين ، كالتي تعين القِلَّة في قوله تعالى : ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ فَإِنَّ المراد بهاأيام التشريق ، وهي قِلَّة وكالتي تعين الزيادة في قوله تعالى عن الصالحين : ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ »[(٣)] . ويقول في ختام هذه الإشارة إِنَّ هذا هو الرأي الصحيح

ونتفق مع الأستاذ عباس حسن في أَنَّ دلالة صيغ الجموع وأوزانها تتوقف على «القرينة» التي يجب أَنْ يكون من بينها سياق الحال ، ولكننا لا نتفق معه ـ رحمه الله ـ في أَنَّ سيبويه قيد جمع المذكر والمؤنث وأوزان جموع القِلَّة بدلالة محددة هي دلالة القِلَّة ؛ لأَنَّهُ قد أشار إلى عكس ذلك في بعض المواضع ، منها قوله :

- «واعلم أَنَّ لأدنى العدد أبنيةً هي مختصَّة به ، وهي له في الأصل ، **وربَّما شركه فيه الأكثر كما أَنَّ الأدنى ربَّما شرك الأكثر** . فأبنية أدنى العدد أفعلٌ نحو : أكلبٍ ، وأفعالٌ نحو : أجمالٍ ، وأفعلةٍ نحو : أجربةٍ ، وفعلةٌ نحو : غلمةٍ ، **فتلك أربعة أبنية ، فما خلا هذا فهو في الأصل للأكثر و أَنْ شركه الأَقَلّ** .... وكذلك سمعناها من العرب . فكل شيء خالف هذه الأبنية في الجمع فهو لأكثر العدد ، **وإن عني به على الأقلُّ فهو داخلٌ على بناء الأكثر وفيما ليس له ، كما يدخل الأكثر على بنائه وفي حيِّزه**»[(٤)] .
- «**وربَّما عنوا ببناء أكثر العدد أدنى العدد** كما فعلوا ذلك بما ذكرنا من بنات الثلاثة ، وذلك قولهم : ثلاثةُ جدرٍ وثلاثة كتبٍ»[(٥)] . وليتأمل قوله «**وربَّما عنوا**» ، التي تعني ربما قصدوا ،

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣٢/١

(٢) عباس حسن : النحو الوافي ، ١٣٧/١ الحاشية ذات الرَّقْم٢

(٣) السابق ، ١٣٨/١

(٤) سيبويه : الكتاب ، ٤٩٠/٣

(٥) سيبويه : الكتاب ، ٦٠١/٣

أي أَنَّ الرجل وقف أمام النصوص التي وردت فيها جموع للقِلَّة أو الكثرة محللا ومدققا من خلال السِّياق الذي وردت فيه . وهذا جزء من منهجه كما علمنا .

ويقول في نصّ ثالث بشكل أكثر صراحة «وقد يجمعون بالتاء وهم يريدون الكثير » [(١)] .

» الملحوظة الثالثة :

إذا أردنا تصغير الجموع فإِنَّهُ لا تصغر سوى جموع القِلَّة ، وذلك لسبب منطقي وسياقي في نفس الوقت ، وهو أَنَّنا نريد «تقليل الجمع ، ولا يكون ذلك البناء إلاَّ لأدنى العدد » [(٢)] . وينقل سيبويه عن الخليل قائلا : «وسألت الخليل عن تحقير الدُّور ، فقال : أردُّه إلى بناء أقل العدد ؛ لأني إِنَّمَا أريد تقليل العدد ، فإذا أردت أَنْ أقلله وأحقره صرت إلى بناء الأقلِّ ، وذلك قولك : أُدَيْئِرٌ ، فإنْ لم تفعل فحقرها على الواحد وألحق تاء الجمع ؛ وذلك لأَنَّكَ ترده إلى الاسم الذي هو لأقل العدد » [(٣)] .

إِنَّ التصغير ـ أو بعبارة سيبويه التحقير ـ لا يتناسب مع إرادة المُتَكَلِّم للكثرة ، إذ كيف يجتمع التحقير مع التكثير ، لذلك لم تصغر إلا جموع القِلَّة .

* * *

---

(١) سيبويه : الكتاب ، ٣/٥٧٨

(٢) سيبويه : الكتاب ، ٣/٤٨٩

(٣) سيبويه : الكتاب ، ٣/٤٩٠ ـ ٤٩١

الفصل الخامس : السِّياق وسيبويه والنظَرِيَّة النحوِيَّة

- **المبحث الأول : تعريف مصطلح النظَرِيَّة ، وأهم خصائص النظَرِيَّةالعلميَّة :**
  - تعريف مصطلح النظَرِيَّة .
  - أهم خصائص النظَرِيَّة العلميَّة .
- **المبحث الثاني : النظَرِيَّةالنحوِيَّةالسِّياقِيَّة :**
  - النظَرِيَّةالنحوِيَّة السِّياقِيَّة .
  - نقد نظَرِيَّة العامل .

الفصل الخامس

السِّياق وسيبويه والنظَرِيَّةالنحوِيَّة

بعد دراستنا السابقة ، ورحلتنا التي وقفنا فيها على السِّياق وكيف استغله سيبويه تقعيدا وتوجيهًا يصبح في مُكْنتِنا أَنْ نتحدث عن نظَرِيَّة نحوِيَّة يكون السِّياق ومكوناتُه عمادَها ولُحْمَتَها وسُدَاهَا .

وسيكون كلامنا هنا في المبحثين التاليين :

- **المبحث الأول** : **تعريف مصطلح النظَرِيَّة** ، **وأهم خصائص النظَرِيَّةالعلميَّة** :
  - **تعريف مصطلح النظَرِيَّة :**

من الأهمِيَّة بمكان أَنْ نقف على معنى كلمة «نظَرِيَّة» لغة أولا ، واصطلاحا ثانيا . وسيكون هذا الوقوف مدخلا مهمًا لحديثنا عن «نظَرِيَّة نحوِيَّة سِيَاقِيَّة» .

بداية نُقَرِّر أَنَّ مصطلح «نظَرِيَّة Theory » هو مصطلح «**إنجليزي الأصل** نشأ في جامعة أوكسفورد البريطانية في القرن الثامن عشر » [١] ؛ **وبحكم هذه النشأة فَإِنَّ المعاجم الإنجليزية هي أقدر من غيرها على تحديد مدلول هذا المصطلح** . وهذه نقطة مُهِمَّة يجب أَنْ نجعلها منا على ذُكْرٍ دوما .

فإذا لجأنا إلى معجم «Webster» ـ وهو من أهم المعاجم الإنجليزية ـ نجده يوضح معنى كلمة «نظَرِيَّة Theory»كما يلي :

«أ ـ ترتيب مُنَظَّمٌ لـ «حقائق» فيما يتعلق ببعض قوانين واقعيَّة أو افتراضية .

ب ـ تفسير افتراضي لظاهرة ما .

ج ـ فرض لم يُتَأَكَّدْ منه بالتجربة العَمَلِيَّة ليصبح قانونا ، ولَكِنَّه يُقبَل كأساس للتجريب .

د ـ شرح لمبادئ عامة ومُجَرَّدة لأيِّ علم (طبيعي أو إنساني) ، تلك المبادئ التي اسْتُخْلِصَتْ واستُنْبِطَت من الممارسة والتطبيق .

هـ ـ خطة أو نظام مقترح كمنهج لحدث أو فعل مُعَيَّنين .

و ـ اعتقاد أو مخطط لأشياء باقية تحت تفكر أو تأمل أو افتراض أو حدْس ... [٢] .

---

(١) سامي خشبة : مصطلحات الفكر الحديث ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م)، ٢/ ٣٤٠

(٢) **The LEXICON WEBSTER DICTIONARY , VOL II , P1019** ونص المعجم :
« **A systematic arrangement of facts with respect to some real or hypothetical laws ; a hypothetical explanation of phenomena ; a hypothesis not yet empirically verified as**

ويقول نفس هذا المعجم في طبعة أخرى عن نفس المادة :

«أ ـ كيان منظم من أفكار **تتَعَلَّق بحقيقة شيء ما** ، وعادة ما يكون هذا الكيان ناتج عن **دراسة عدد من الحقائق متعلقة به** ، وهو ـ أي هذا الكيان ـ أحيانا ما يكون بكامله نتيجة إعمال خيال متأمل .

ب ـ معرفة خاصة بعلم أو فن منبثقة من دراسة وتأمل[١] .

تلك أهم المعاني اللُّغَوِيَّة لكلمة «نظَرِيَّة theory». ويمكن أَنْ نختصرها لمعنيين رئيسيين :

١ـ تصوُّر عقلي لأمر ما ما زال في طور التأَمُّل والبحث ولم يثبت بعد .

٢ـ تصور عقلي لأمر ما تمَّ الانتهاءُ من تأمُّله وبحثه وتجربته وتطبيقه واستخلاصه من حقائقه الذاتية . وسنتشبَّث هنا بهذا المعنى الثاني ، وسنتمسك بشِدَّة بقول المعجم أَنَّ النظَرِيَّة «عادةً تنتج من دراسة عدد من الحقائق المتعلقة بها **usually derived from the study of a number of facts relating to it**» ، أي أَنَّ النظَرِيَّة **يجب أَنْ تقوم على أسس من داخلها** .

تلك هي المعاني التي تقولها المعاجم اللُّغَوِيَّة العامة ، فماذا تقول المعاجم المتخصِّصَة عن مصطلح «النظَرِيَّة »؟

بما أَنَّ الحديث عن مصطلح الـ «نظَرِيَّة»ما هو إلا حديث عن «ثمَرة تأمُّل عقلي» ؛ فَإِنَّ أحقَّ المعاجم المتخصِّصَة التي يمكن أَنْ نلجأ إليها لتوضيح هذا المصطلح هي المعاجم «الفلسفِيَّة». فماذا يقول المعجم الفلسفي عن هذا المصطلح ؟

يقول معجم « A DICTIONARY OF PHILOSOPHY » عن مصطلح « نظَرِيَّة Theory » : «نظام لمعرفة وتفسير مُعَمَّمَين لجوانب مختلفة من الواقع ... والنظَرِيَّة تختلف عن الممارسة والتطبيق ؛ **لأنَّها ـ عقليا ـ تعكس وتُعِيدُ إنتاج الواقع** . والنظَرِيَّة في نفس الوقت تتصل

---

law but accepted as the basis of experimentation ; an exposition of the general or abstract principles of any science or humanity which have been derived from practice ; a plan or system suggested as a method of action ; … a doctrine or scheme of things resting merely on speculation, contemplation, supposition , or conjecture » والترجمة للباحث

(١) **THE NEW LEXICON WEBSTER'S DICTIONARY OF THE ENGLISH LANGUAGE, P .1025** ، ونص المعجم : « **An organized body of ideas as to the truth of something , usually derived from the study of a number of facts relating to it , but sometimes entirely a result of exercising the speculative imagination ; knowledge of a science or art derived from such study and speculation** » والترجمة للباحث.

بشكل لا انفصام له بالممارسة والتطبيق ، وهي تضع نصب عينها المشاكل الملحّة وتعمل على حلِّها ؛ لذلك السبب يُعدُّ التطبيق جزء وقسم أصيل من كل نظَرِيَّة [(١)] .

ويسترعي انتباهنا هنا عبارة المعجم أَنَّ النظَرِيَّة Theory : « **تعكس وتُعِيدُ إنتاج الواقع It spiritually or mentally reflects and reproduces reality .** » . وهذه عبارة جد خطيرة سنعتمد عليها لاحقا .

ومن المثير أَنَّ المعجم السابق يختم حديثه عن مصطلح « النظَرِيَّة » بربطها بمصطلح آخر أسماه « معيار الحقيقة **Criterion of Truth** » . فيقول في آخر حديثه عن مصطلح « النظَرِيَّة » : « قيمة معيار الحقيقة للنظَرِيَّة (يكمن في) الممارسة The criterion of truth value of theory is practice » ؛ يقصد أَنَّ نجاح النظَرِيَّة في التطبيق والممارسة وتفسيرها لأهم القضايا التي تواجهها هو جزء من معيار حقيقتها .

وعندما أردنا الاستيضاح أكثر عن مصطلح « معيار الحقيقة **Criterion of Truth** » هذا وعلاقته بمصطلح النظَرِيَّة وجدنا هذا المعجم يقول عن هذا المصطلح : « معيار الحقيقة هو أَيَّة وسائل تتيح لنا الحكم على فرضية أو توكيد أو مقترح نظري ... بكونها حقيقة أو زيفًا . إِنَّ **معيار الحقيقة هو خبرة اجتماعِيَّة** . والإثبات الحاسم للنظريات العلميَّة يؤسس على التطبيق ، والاستخدام الناجح لنظَرِيَّة مُعَيَّنَة ما في التطبيق والممارسة دليلٌ على صحتها ... [و] **الإثبات بالتطبيق للنظريات العلميَّة لا يحولها بذلك إلى حقائق مطلقة ، فالنظريات تستمر في التطور والاختصاب ، وتكسب ـ بمرور الوقت ـ مدًى أوسع ودقة أشد . وكثير من الفروض والمقترحات في تلك النظريات تسقط لصالح مقترحات وافتراضات جديدة ، وهذا يرجع إلى حقيقة أَنَّ الممارسة والتطبيق الاجتماعيّين للنظَرِيَّة يجتازان ويمران بصفة مستمَرَّة بعَمَلِيَّة من التطور المستمر ؛ لذلك فَإِنَّ هذه النظريات تأخذ طريقها ـ من خلال مقارنتها بالواقع ـ إلى الاكتمال والتمام** .

إن التطور اليومي للتطبيق والتجربة الذي يقوم به المجتمع للنظَرِيَّة هو القادر على « التأكيد » أو « الدحض الكامل » للأفكار التي يولدها الإنسان » [(٢)] .

---

(١) **M.Rosenthal and P.Yudin , A DICTIONARY OF PHILOSOPHY , first printing 1967 , p 449**

ونص المعجم : « **A system of generalized knowledge and explanation of different aspects of reality. ... Theory differs from practice, since it spiritually or mentally reflects and reproduces reality. At the same time it is inseparably linked with practice, which places pressing problem before knowledge and requires it to solve them. For this reason practice is part and parcel of every theory** » . والترجمة للباحث .

(٢) **M.Rosenthal and P.Yudin , A DICTIONARY OF PHILOSOPHY, p, 102**، ونص المعجم :

وقد اعتمد العلماء في مختلف تخصصاتهم هذا الإطار النظري لـ «مصطلح النظَرِيَّة العلميَّة» وأكدوا «أَنَّ النظَرِيَّة هي وحسب نموذج للكون أو لجزء مُحَدَّد منه ، ومجموعة من القواعد التي تربط الكميات التي في النموذج بالمشاهدات التي نجرِّبُها ، وهي لا تتواجد إلا في عقولنا ، وليس أي واقع آخر . والنظَرِيَّة تكون نظَرِيَّة جَيِّدة إذا كانت تفي بمطلبين : فهي يجب أَنْ تصف توصيفا مضبوطا طائفة كثيرة من المشاهدات على أساس من نموذج يحوي عناصر تعسفية معدودة ، ويجب أَنْ تصنع تنبؤات محددة عن نتائج المشاهدات في المستقبل» [١] .

وأشد النظريات علمِيَّةً وماديةً هي دائما نظَرِيَّة مؤقتة **Provisional** ، يقول ستيفن هوكنج : «إِنَّ أَيَّة نظَرِيَّة فيزيائية هي دائمة نظَرِيَّة مؤقتة ، بمعنى أَنَّها مجرد فرض **Any physical theory is always provisional , in the sense that it is only a hypothesis**» [٢] .

فإذا كانت أشد النظريات علمِيَّةً وماديةً هي نظريات مؤقتة ؛ أي قابلة للتعديل والتغيير فمن باب أولى أَنْ تكون غيرها من النظريات الفلسفِيَّة والاجتِماعِيَّة واللُّغَوِيَّة أكثر قابلية للتعديل والتغيير والتبديل .

○ أهم خصائص النظَرِيَّة العلميَّة :

من خلال ما تجمَّع لدينا من حقائق في الجزئيَّة السابقة يمكن أَنْ نُقَرِّر أَنَّ أهم خصائص النظَرِيَّة العلميَّة ـ كما قال أصحاب من اخترع هذا الاسم ـ ما يلي :

١ـ أن النظَرِيَّة تعتمد على «معطيات ذاتية» من داخلها ، فالنظَرِيَّة ماهي إلا «**ترتيب مُنَظَّمٌ لحقائق واقعيَّة**»لها ، وما هي إلا «**كيان منظم من أفكار تتَعَلَّق بحقيقة شيء ما**».

Criterion of Truth, any means of judging any assertion, hypothesis theoreticl proposition, etc., as to its truth or falsity. The Criterion of Truth is social experience … Definitive verification of scientific theories is furnished by practice. … Successful application of a given theory in practice is proof of correctness. … Verification in practice of scientific theories does not transform them into absolute truths: they continue developing and enriched, gaining in scope and exactitude, some of their propositions are dropped in favour of new ones. This is due to the fact that social practice is undergoing a process of continuous development, and therefore the methods of comparing scientific theories with reality through practice are being constantly perfected. Only the developing daily practice, or experience of society is capable of fully confirming or completely refuting the ideas engendered by man.»

والترجمة للباحث .

(١) **Stephen Hawking, A Brief History of Time, Bantam Books, 1988, P. 10 - 11**

(٢) **Ibid, P.11 والترجمة للباحث**

٢- النظَرِيَّة **<u>تعكس وتعيد إنتاج الواقع</u>** « **<u>It reflects and reproduces reality</u>** » .

٣- النظَرِيَّة ترتبط بالممارسة والتطبيق Practice والتجريب ، ونجاح النظَرِيَّة مرتبط بتلك الممارسة وذلك التطبيق وهذا التجريب .

٤- لا توجد نظَرِيَّة تُولد كاملة من أوَّل أمرها ، فالنظريات العلميَّة في حالة تطور وإصلاح داخلي مستمرين ، وقد تتبنَّى نظَرِيَّة ما في بداية أمرها فروضا مُعَيَّنَة ، ثُمَّ بمرور الوقت تسقط تلك الفروض ويحل محلها فروض أخرى جديدة . وبمرور الوقت تصبح أكثر دقة وانضباطا .

٥- إن الممارسة أو « خبرة المجتمع **<u>Experience of society</u>** » هي ما تقرِّر صلاحية نظَرِيَّة ما أو دحضها ؛ أي أَنَّ البعد الاجتماعيّ الإنساني لا بدَّ أَنْ يكون حاضرا في الحكم على النظَرِيَّة ؛ لأَنَّ هذا معيار من « معيار الحقيقة **Criterion of Truth** » .

***

• <u>**المبحث الثاني : النظَرِيَّة النحوِيَّة السِّياقِيَّة :**</u>

○ <u>**النظَرِيَّة النحوِيَّة السِّياقِيَّة :**</u>

إذا كانت النظَرِيَّة العلميَّة <u>تقوم على معطيات ذاتية</u> ، **<u>وأَنَّها تعكس الواقع وتعيد إنتاجه في رقابة الخبرة الاجتِماعِيَّة ، وأَنَّ هذا أحد معايير الحقيقة</u>** ؛ فمن حَقِّنا أَنْ نقول علميًّا إنَّ وضع نظَرِيَّة شاملة للنحو العربي لا بدَّ أَنْ يتضمن إبراز الجانب السِّياقي فيها ولا بدَّ أَنْ تشير هذه النظَرِيَّة بشكل واضح للبعد الاجتماعيّ الواقعي الذي يؤثر في التراكيب النحوِيَّة الموجودة في اللُّغَة .

فالواقع يثبت وجود تأثير لسياق الحال ، وهو تأثير واضح وصريح ليس فقط على تركيب الجملة ولا على العلامة الإعرابيّة بل على البنية الصَّرْفِيَّة نفسها . وقد أثبتنا من خلال نصوص كثيرة لسيبويه وجود تأثير للسياق وخاصة سياق الحال على تركيب الجملة ودلالتها وعلى التوجيه الإعرابِيّ والدِّلَالَة الصَّرْفِيَّة بما لا يدع مجالا للشك لوجود هذا التأثير ، وقد ناقشنا فيما سبق من خلال نصوص سيبويه أحد أهم رواد المدرسة البصرية الحقائق التالية :

- أنَّه توجد تراكيب نحوِيَّة لا يصحُّ تركيبها ولاتصحُّ كينونتها إلا إذا قامت قرينة من سياق الحال تصححها .
- وجود تراكيب نحوِيَّة توجه في إطار معرفة سياق الحال .
- أنَّ السِّياق يمثل مَرْجِعِيَّة للضمير .
- أنَّ المُتَكَلِّم وإمكانيّة سكوته وإرادته وحالته النفسِيَّة يمثل متغير من متغيرات عديدة تؤثر في تركيب الجملة ودلالتها .

- الخلفيَّة الاجتِماعِيَّة والثقافيَّة لصاحب اللُّغَة تؤثر على التوجيه الإعرابِيّ وليس فقط ملابسات الحال الوقتِيَّة .
- التوجيه الإعرابِيّ بدون ربط بالسِّياق يؤدي إلى فوضى دلالية .
- أنَّ للمخاطب دورا في التوجيه الإعرابِيّ وإثرائه .
- العادة والعرف الاجتماعِيّان في البيئة المُعَيَّنَة يتدخلان في التوجيه النَّحْوِيّ .
- التوجيه النَّحْوِيّ يراعي الفرق بين الإنسان والحيوان .
- تأثير سياق الحال على كينونة الجملة الاسمِيَّة ، والعلاقة بين أجزائها ، وحذف أحد أركانها .
- تأثير سياق الحال على عمل المشتقات .
- تأثير سياق الحال على نواصب الفعل المضارع ، وظن وأخواتها ، والمفعول المطلق ، والتوابع : النعت والتوكيد والعطف والبدل ، والأساليب النحوِيَّة : أسلوب الاستفهام ، أسلوب النفي ، أسلوب التفضيل ، أسلوب النداء ، أسلوب التحذير والإغراء والاختصاص ، أسلوب الاستثناء ، أسلوب القسم ، النصب على الذم ، الأدوات النحوِيَّة .
- تأثير سياق الحال على الفعل والمصادر والمشتقات ومعاني الأوزان الصَّرْفِيَّة .

بعد كل تلك العناوين الواضحة التي تشير لوجود تأثير واضح على تركيب الجملة فإنَّهُ من غير المعقول إغفال جانب سياق الحال في تكوين النظَرِيَّة النحوِيَّة ، ومن المغالطة العلميَّة التي لا تخطئها العين ألا يكون سياق الحال أحد أعمدة وأركان هذه النظَرِيَّة ، إنْ لم يكن هو الركن الوحيد .

***

○ نقد نظَرِيَّة العامل :

إن مطلبنا بوضع نظَرِيَّة نحوِيَّة قائمة على السِّياق ـ وقد سبقنا في هذا المطلب بعض الأساتذة منهم أستاذنا د . كمال بشر ـ يعني ضمنا طرح نظَرِيَّة العامل ، فهما لا يلتقيان . يقول د . تَمَّام :

« بعد أَنْ بيَّنت طبيعة القرائن المقاليَّة معنوِيَّة كانت أو لفظِيَّة في دلالتها على المعنى الوظيفي النَّحْوِيّ ، **أحب أَنْ أضيف إليها كلمة أخرى تتصل بإغناء فهم القرائن المقاليَّة عن فكرة العامل النَّحْوِيّ الذي قال به النُّحَاة** » [(١)] .

إن منادتنا بنظَرِيَّة نحوِيَّة قائمة على سياق الحال يقابلها مناداة بالتخلِّي عن نظَرِيَّة العامل تلك النظَرِيَّة التي اعتمدت على منطق أرسطو ، هذا المنطق الذي أصاب النحو العربي « بشيء من العقم والصورية التي بلي بها المنطق الأرسطي نفسه ؛ فعُني بالصور والأشكال أكثر مما عني بالدلالات

(١) اللُّغَة العَرَبِيَّة معناها ومبناها ، ص ٢٣١

والمعاني . وأكثر من القوانين والضوابط ؛ فأثقل على العلماء والمتعلّمين ، وغلا في القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء ، وأسرف في التمارين غير العَمَلِيَّة التي جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافي على كتاب سيبويه أو شرح أبي حيان على التسهيل يلمس أَنَّ النُّحَاة كثيرا ما أفسدوا النحو بما وضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عَمَلِيَّة .

وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النُّحَاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحيانا ، فهناك علل أُوَل وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر من علّة يتأوَّلها كلُّ نحوي كما يتراءى له . وفي باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفي باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفِيَّة غير المقبولة . وكثيرا ما ورد في المسألة قولان أو أقوال ، واستخدمت العلّة الواحدة في إثبات الشيء وضده ... ولعلَّ هذا هو الذي دفع ابن مضاء الأندلسي إلى القول بإلغاء نظَرِيَّة العامل ، ورفض القياس والعلل النحويَّة ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظَرِيَّة» [(١)] .

وسوف أضرب هنا مثالا واحدا على نظَرِيَّة العامل هذه يبين مدى تعقيدها ومدى تهافتها .

في كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» لأبي البركات الأنباري ، نقرأ مناقشة له على مدار خمس صفحات عن العامل في «المبتدأ» ، فنجده يقول في مسألة «القول في رافع المبتدأ ورافع الخبر» : «ذهب الكوفيون إلى أَنَّ المبتدأ يرفع الخبر ، والخبر يرفع المبتدأ ؛ فهما يترافعان ، ... وذهب البصريون إلى أَنَّ المبتدأ يرتفع بالابتداء ، وأما الخبر فاختلفوا فيه : فذهب قوم إلى أَنَّه يرتفع بالابتداء وحده ، وذهب آخرون إلى أَنَّه يرتفع بالابتداء والمبتدأ معًا ، وذهب آخرون إلى أَنَّه يرتفع بالمبتدأ والمبتدأ يرتفع بالابتداء . أَمَّا الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إِنَّمَا قلنا إِنَّ المبتدأ يرتفع بالخبر والخبر يرتفع بالمبتدأ لأَنَّا وجدنا المبتدأ لا بدّ له من خبر ، والخبر لا بدّ له من مبتدأ ، ولا ينفك أحدهما من صاحبه ، ولا يتم الكلام إلا بهما ... ولا يمتنع أَنْ يكون كل واحد منهما عاملًا ومعمولًا ، ... ولا يجوز أَنْ يقال أَنَّ المبتدأ يرتفع بالابتداء ، لأنا نقول : الابتداء لا يخلو : إما أَنْ يكون شيئًا من كلام العرب عند إظهاره ، أو غير شيء ؛ فإنْ كان شيئًا فلا يخلو من أَنْ يكون اسمًا أو فعلًا أو أداة من حروف المعاني ؛ فإنْ كان اسمًا فينبغي أَنْ يكون قبله اسم يرفعه ، وكذلك ما قبله إلى ما لا غاية له ، وذلك محال ، وإن كان فعلًا فينبغي أَنْ يقال زيد قائمًا ... وإن كان أداة فالأدوات لا ترفع الأسماء على هذا الحد . وإن كان غير شيء فالاسم لا يرفعه إلا رافع موجود غير معدوم ، ومتى كان غير هذه الأقسام الثلاثة التي قدمناها فهو غير معروف . قالوا : ولا يجوز أَنْ يقال إِنَّا نعني

---

(١) يُنْظَر : د. إبراهيم بيومي مدكور : منطق أرسطو والنحو العربي ، مجلة مجمع اللُّغَةالعَرَبِيَّة بالقاهرة ، ج ٧ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، وألقي هذا البحث في مؤتمر المجمع ، الجلسة السابعة ، ٢٧ من ديسمبر ١٩٤٨م

بالابتداء التَّعَرِّي من العوامل اللفظِيَّة ، لأنا نقول : إذا كان معنى الابتداء هو التعري من العوامل اللفظِيَّة فهو إذًا عبارة عن عدم العوامل ، وعدم العوامل لا يكون عاملًا . والذي يدل على أَنَّ الابتداء لا يوجب الرفع أنَّا نجدهم يبتدئون بالمنصوبات والمسكنات والحروف ، ولو كان ذلك مُوجبًا للرفع لوجب أَنْ تكون مرفوعة ، فلما لم يجب ذلك دَلَّ على أَنَّ الابتداء لا يكون موجبًا للرفع .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إِنَّمَا قلنا إِنَّ العامل هو الابتداء وإن كان الابتداء هو التعري من العوامل اللفظِيَّة لأَنَّ العوامل في هذه الصناعة ليست مؤثرة حسية كالإحراق للنار والإغراق للماء والقطع للسيف ، وإِنَّمَا هي أمارات ودلالات ، وإذا كانت العوامل في محلّ الإجماع إِنَّمَا هي أمارات ودلالات فالأمارة والدِّلَالَة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء ، ألا ترى أَنَّه لو كان معك ثوبان وأردت أَنْ تميز أحدهما من الآخر فصبغْتَ أحدهما وتركت صبغ الآخر لكان تَرْكُ صبغ أحدهما في التمييز بمنزله صبغ الآخر ؟ فكذلك ههنا . وإذا ثبت أَنَّه عامل في المبتدأ وجب أَنْ يعمل في خبره ، قياسًا على غيره من العوامل ، نحو «كان» وأخواتها و«إِنَّ وأخواتها» و«ظننت» وأخواتها فَإِنَّها لما عملت في المبتدأ عملت في خبره فكذلك ههنا ... وأما من ذهب إلى أَنَّ الابتداء والمبتدأ جميعا يعملان في الخبر فقالوا : لأنا وجدنا الخبر لا يقع إلا بعد الابتداء والمبتدأ ؛ فوجب أَنْ يكونا هما العاملين فيه ، غير أَنَّ هذا القول وإن كان عليه كثير من البصريين إلا أَنَّه لا يخلو من ضعف ، وذلك لأَنَّ المبتدأ اسم ، والأصل في الأسماء أَنَّ لا تعمل ، وإذا لم يكن له تأثير في العمل ، والابتداء له تأثير ، فإضافة ما لا تأثير له إلى ما له تأثير لا تأثير له ... »[1] .

إن تتَبُّع هذا النَّصّ وما فيه من استدلالات مغرقة في الفلسفية على مدار خمس صفحات أمر مرهق ذهنيا ، يولد الملل والضجر ، ويصد عن متابعة القراءة واستمرارها ، ويعطي انطباعا سيئا يبقى في نفس القارئ دوما ، ولقد كان من السهل علينا أَنْ نقول بدلا من كل هذا أَنَّ الذي رفع المبتدأ والخبر هو المُتَكَلِّم ، وأَنَّ المُتَكَلِّمين اتفقوا على رفع الاسم في بداية الجملة الاسمِيَّة ، كما تعارفوا على الألفاظ ودلالتها ، وتعارفوا على البنى اللفظِيَّة ، واتفقوا على استعمال بعضها وإهمال البعض الآخر .

وقولنا إِنَّ المُتَكَلِّم هو الذي رفع أو نصب أو جر هو قولٌ سبقنا به عالمان من علماء العربِيَّة : ابن جني وابن مضاء ، والباحث ليس بدعا في هذا .

ويحضرنا هنا نص مُهِمّ للرضي (ت : ٦٨٨هـ) يتحدث فيه عن أحد أفعال اليقين الفعل «علم» ، محاولا إظهار الفرق بينه وبين الفعل «عرف» ، فيقول :

« ... وإمّا لليقين فقط وهو « علم » بمعنى « عَرَف » . ولا يُتوهم أنَّ بين « علمت » و« عرفت » فرقًا معنويًا ، كما قال بعضهم ، فإنَّ معنى : « علمت أنَّ زيدًا قائم » و :

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف ، ٥٦/١

«عرفت أنَّ زيدًا قائم» واحدٌ ، إلا أَنَّ : «عرف» لا ينصب جزأي الجملة الاسمية ، كما ينصبها «علم» ، لا لفرق معنويٍّ بينهما ، **بل هو موكولٌ إلى اختيار العرب ، فإنهم قد يَخُصُّون أَحَدَ المتساويين في المعنى بحكم لفظي دون الآخَر»** [١] .

فالرَّضِيّ ينص على أنَّ معنى «علم» يساوي معنى «عرف» ، وعلى الرغم من هذا التساوي في المعنى ـ عند الرَّضِيّ ـ فإن «علم» ينصب جزأي الجملة الاسمية ، أما «عرف» فلا ينصب جزأي الجملة الاسمية ، والسبب في هذا هو «**اختيار العرب**» فإنَّهم قد «**يَخُصُّون أَحَدَ المتساويين في المعنى بحكم لفظي دون الآخَر**» ؛ أي أنَّ العرب «اختارت» أنْ تُعمل الفعل «علم» ، ولم تختر أن تُعمل الفعل «عرف» .

إذن اختيار الإعراب يتوقف في نهاية المطاف على اختيار المتكلم .

وفي نص لابن السراج يقول فيه : «واعلم : أنَّ أسماء الأزمنة تكون على ضربين : فمنها ما يكون اسمًا ويكون ظرفًا ، ومنها ما لا يكون إلا ظرفًا ، فكلُّ اسم من أسماء الزمان فلك أنْ تجعله اسمًا وظرفًا إلا ما خصته العرب بأنْ جعلته ظرفًا ، وذلك ما لم تستعمله العرب مجرورًا ولا مرفوعًا . وهذا إنما يؤخذ سماعًا عنهم فمن ذلك : «سحر» إذا كان معرفة غير مصروف تعني به : سحر يومك لا يكون إلا ظرفًا وإنَّما يتكلمون به في الرفع والنصب والجر» [٢] .

في هذا النص نجد ابن السراج يعطي الحق «للعرب / المتكلم» في أن تجعل من أسماء الزمان الظروف التي تريدها وتمنع غيرها من هذه الظرفية ، فـ «العربي / المتكلم» حر في هذا الاختيار .

إن قولنا : أن السياق هو المسيطر الأول والأخير على الجملة بكل ما فيها ينهي هذا الجدال في هذا العلم علم النحو ، الشديد الأهمِيَّة لبقية العلوم اللُّغَوِيَّة الأخرى كما قال الإمام الشافعي .

إن نظَرِيَّة العامل قد تعتبر مثال على نظَرِيَّة «غير علمِيَّة» ؛ بمعنى أَنَّنا إذا أردنا التدليل على وجود نظَرِيَّة غير علمِيَّة قلنا إنَّها نظَرِيَّة العامل . إنَّ النظَرِيَّة العلميَّة **تنبع من الواقع ، ومن الحقائق الموجودة سلفا في هذا الواقع** ، ونظَرِيَّة العامل هي أبعد ما تكون عن الواقع والممارسة والتطبيق . **والنظَرِيَّة العلميَّة تنمو وتستمر لتكون أكثر دقة وانضباطا ، ويحدث لها إصلاح داخلي تقوم به الخبرة الاجتماعِيَّة** ، أَمَّا نظَرِيَّة العامل فمع مرور الوقت ازدادت الأمور معها تعقيدا كما رأينا في نصّ أبي البركات الأنباري ، وأصبحت العناية ـ كما قال د . إبراهيم مدكور ـ مجرد اهتمام «بالصور

---

(١) شرح الرَّضِيّ على كافية ابن الحاجب : ت : د. يحيي بشير مصري ، ط ١ ، ١٩٩٦م القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٩٨٣، ٩٨٤

(٢) الأصول في النحو ، ١٩٢/١

والأشكال أكثر مما عني بالدلالات والمعاني » ، وفتح مبدأ « العلية على النُّحَاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحيانا ، فهناك علل أُوَل وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوي كما يتراءى له » . إنَّ الأمور مع نظَرِيَّة العامل سارت اتجاها عكسيا نحو التعقيد والفوضى ، وقتلت الحياة في النحو العربي .

وإذا كان من خصائص النظَرِيَّة العلميَّة أنَّها تعكس الواقع وتعيد إنتاجه ؛ فَإِنَّ نظَرِيَّة نحوِيَّة علمِيَّة تعتمد على السِّياق ستكون أقرب للصحة العلميَّة من نظَرِيَّة تتَأَثَّر بنظام فلسفي بعيد عن الواقع ولا يمت له بصلة . ونذكِّر هنا بما نقلناه عن أبي حيان التوحيدي عن النحو أنَّه : « دليل النحو طباعي ، ودليل المنطق عقلي . والنحو مقصور ، والمنطق مبسوط . والنحو يتبع ما في طباع العرب ، وقد يعتريه الاختلاف »[١] . وتستوقفنا هذه الجملة « والنحو يتبع ما في طباع العرب » ونقول : أليست هذه الطباع أمر عرفي واقعي أم ماذا ؟ ألم يُقر علماؤنا أَنَّ « العرف وعادة أصحاب اللُّغَة [أمر جوهري] ، فما تعودوه من أساليب التعبير ، وما جرت به ألسنتهم ، وما ألفوه في كلامهم من طرق مُعَيَّنَة في التعبير بالألفاظ ؛ كل هذا هو المصدر الوحيد لنحو كل لغة »[٢] . ألم تقل الأبحاث التي أجريت على كتاب سيبويه أهم كتب النحو العربي « إِنَّ هناك ميزة أخرى لسيبويه لا تقل أهمِيَّة عما ذكرناه وهو شيء تجاهله ولم يهتم به المتأخرون من العلماء وكذلك المحدثون : ألا وهو اهتمامه الكبير هو والنُّحَاة الأولون بالاستعمال الحقيقي لِلُّغَة ، والرصد المتواصل لتصرفات الناطقين في التخاطب العفوي ومن ثَمَّ لأوضاع اللُّغَة»[٣] .

ولا ننكر أَنَّ هناك إشارات في كتاب سيبويه ـ ونعتقد أنَّها إشارات قليلة وليست كثيرة ـ تدلُّ على تَأَثُّر سيبويه بنظَرِيَّة العامل ، بسبب البيئة العلميَّة التي نشأ فيها التي أثرت عليه فكريا .
يقول د . إبراهيم مدكور : « وفي وسعنا أَنْ نُقَرِّر بعد كل هذا أَنَّ المترجمين في تعلمهم للعربية ، وفيما نقلوا من كتب أجنبية قد بدأوا في القرن الثاني للهجرة فأثاروا جوا حول المشاكل النحوِيَّة ، ولأرسطو في هذا الجو نصيب ملحوظ . ولا يصح أَنْ نغفل ما لهذا الجو من أثر على نحاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادي والمعنوي . ووجه الشبه بين المنطق والنحو قديمٌ ؛ فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ ... وقد مهد له [أي : عيسى بن عمر في مؤلفاته النحوِيَّة] أخيرا تلك البحوث النحوِيَّة التي نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق

---

(١) المقابسات : ص ١٧١

(٢) د. إبراهيم أنيس : من أسرار اللُّغَة ، ص ١٣٧

(٣) د. عبد الرحمن الحاج صالح : الجملة في كتاب سيبويه ، مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة ، القاهرة ، ع ٧٨ ، (١٩٩٦م)، ص ١١٠

أرسطو ، ويبدو على سيبويه نفسه أَنَّه لم يكن مغمض العينين عن أمثال تلك المؤثرات ، ويكفي أَنْ نشير إلى ذلك الفصل الذي عقده في الجزء الثاني من الكتاب وعنوانه : باب اطراد الإبدال في الفارسية» [(١)] .

أقول لولا هذه البيئة التي أثرت فكريا على سيبويه ، ولو تركت الأمور على طبيعتها لما وجدت نظَرِيَّة العامل هذه من أساسها ، ولكان ولا شك للسياق ومكوناته دور في تكوينها .

إننا في ختام هذا المبحث نقول بنظرية للنحو العربي تقوم على السياق ، وترتكز عليه ، وتستند إليه . فإن أبى علماؤنا ذلك ، ورأوا أنَّ التخلِّي عن نظرية العامل خطر جسيم ، وشرٌّ مستطير فلا أقل من أن تُطَعَّم نظرية العامل ببعض العناصر من سياق الحال ، فما لا يدرك جله لا يترك كله.

***

(١) منطق أرسطو والنحو العربي ، مجلة مجمع اللُّغَة العَرَبِيَّة بالقاهرة ، ج ٧ ص ٣٤١

الخاتمة وأهم النتائج

الخاتمة

بعد رحلتنا في بحثنا هذا وبعد معايشة الباحث له يمكن أَنْ نخرج بالنتائج التالية :

١ـ لا كلام ولا نصّ بدون سياق .

٢ـ يمكن تقسيم سياق الحال من حيث اللحظِيّة والديمومة إلى قسمين :

أ- سياق حال لحظِيّ وقتِيّ عابر .

ب- سياق حال شبه ثابت ، يتمثل مثلا في العرف الاجتماعِيّ والعادات والتقاليد والخلفيَّة العَقِيدِيّة .

٣ـ يتحكم السِّياق في إرادة المُتَكَلِّم التي تختار الأسلوب أو الأداة المناسبتين لهذا السِّياق ، والكلام باعتباره نشاطا أو استجابة يتَأَثَّر بهذا السِّياق . فالسِّياق يمثل الدافع Motive أو الحافز Incentive لاختيار هذا الأسلوب أو تلك الأداة .

٤ـ يفضل عند دراسة اللُّغَة الأخذ بالمنهج الاجتماعِيّ السِّياقي ؛ لأَنَّ ذلك يكفل لنا الوصول إلى نتائج صحيحة خالية من الاضطراب والخلط ، كما أَنَّ الأخذ به يجعل المعنى سهل الانقياد للملاحظة والتحليل الموضوعي .

٥ـ اعتبار السِّياق عند تحليل اللُّغَة ودراستها أمر من الأهمِيَّة بمكان ، وإهماله يؤدي إلى :

أ- اضطراب القاعدة النحوِيَّة ، مثل ما قيل عن جموع القِلَّة والكثرة ، ونفي النفي .

ب- عدم استيعاب التوجيه النَّحْوِيّ والبلاغي عقليا ، وصيرورة اللُّغَة إلى فوضى ، وقتل الحياة في اللُّغَة .

ت- تفَكُّك أوصال النَّصّ .

ث- الوقوع في مأزق عَقِيدِيّ ، خاصة عند التعامل مع الآيات القُرْآنِيَّة والأحاديث النبَوِيَّة الصحيحة .

٦ـ من القواعد العلميَّة المراعاة عند تقعيد القاعدة :

- ✓ ملاحظة مسرح الحدث اللغويّ والعنصر الاجتماعِيّ .
- ✓ الاعتماد على الأكثر .
- ✓ الاعتماد على الاستقراء والقياس .

٧ـ فطن علماؤنا من قديم إلى أهمِيَّة السِّياق وعلى رأسهم الإمام ابن قيم الجوزية صاحب نظَرِيَّة السِّياق ، فقال عنه : «السِّياق يرشد إلى تبيين المُجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ... وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المُتَكَلِّم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته».

٨ـ كان سيبويه يقوم بالتَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة ، وكان ينتبه لبعض التفصيلات الصَّوْتِيَّة الدقيقة جدًا مثل الإشمام والإدغام ، وهذا يعني انتباهه لما هو أهم من ذلك من ملابسات السِّياق المختلفة .

٩ـ استغل سيبويه السِّياق في إثراء التوجيهات الإعرابِيّة والدِّلالِيَّة ، فاستغل المُتَكَلِّم وإمكانيَّة سكوته وإرادته وحالته النفسِيَّة في هذا الإثراء ، وكذلك استغل المخاطب في هذا الإثراء .

١٠ـ كان سيبويه يتَحَرَّك بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة عدم اللَّبس .

١١ـ العادة والعرف الاجتماعِيّان في البيئة المُعَيَّنَة يؤثِّران على التوجيه النَّحْوِيّ .

١٢ـ ردد كثيرٌ من النُّحَاة بعد سيبويه الأمثلة عينها التي نلمح فيها استغلال سيبويه لسياق الحال ؛ مما يدل على أَنَّ هذا البعد السِّياقي كان معلوما لديهم .

١٣ـ المخاطب والمُتَكَلِّم أبرز عناصر السِّياق التي اهتَمَّ بها سيبويه .

١٤ـ الخوف من اللَّبس ووقوع المخاطب فيه كان نصب عيني سيبويه طوال تقعيده النَّحْوِيّ وتوجيهاته النحوِيَّة .

١٥ـ لعب السِّياق دورا مهما في التوجيهات الإعرابيّة عند سيبويه ، تمثل في :

أ- وجود تراكيب نحوِيَّة لا يصح تركيبها ولا تصح كينونتها إلا إذا قامت قرينة من سياق الحال تُصححها .

ب- وجود تراكيب نحوِيَّة توجه في إطار معرفة قرينة السِّياق .

ت- يستعين به أحيانا في شرح توجيهه .

ث- يمثل السِّياق أحيانا مَرْجِعِيَّة الضمير .

ج- خطورة عدم الاعتداد بقرينة السِّياق وأثره في التوجيه .

١٦ـ أشار العلماء السابقون بعد سيبويه إلى بعض جوانب المنهج الذي كان سيبويه يسير عليه في كتابه ، ومنه :

أ- توثيق الرواية ، والتَّثَبُّتُ فيما ينقله من كلام العرب وكلام العلماء ، متأثرا في هذا بمنهج المُحَدِّثين ؛ إذ إِنَّهُ كان يطلب في بداية حياته علم الحديث والآثار والفقه .

ب- الاعتماد على المشهور .

ت- الاعتماد على السِّياق .

ث- الأخذ بالقياس أحيانا .

ج- الميل للشعر عند التَّقْعِيد .

١٧ـ ومن خلال دراستنا للكتاب وقفنا على عناصر أخرى لهذا المنهج ، هي :

أ- كان سيبويه يصنف اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة مُجَرَّدة .

ب- الإحصاء العددي للتركيب النَّمَطِيّ المستخلص .

ت- تتَبُّع التركيب اللغويّ المُعَيَّن قيد البحث في السِّياقات المختلفة وربطه بدلالة السِّياق إنْ وجدت .

ث- معايشة التراكيب اللُّغَوِيَّة في نصوصها المنطوقة .

١٨- أخذ سيبويه منهجه الإِحْصَائِيّ من أستاذه الخليل ، ومن خلال هذا الإحصاء فسر بعض المسائل النحوِيَّة . والأمور الصَّرْفِيَّة .

١٩- سيبويه في إحصائه الوصفي المسحي يحدد البيئة اللُّغَوِيَّة(المجتمع) الذي يستقي منها ، ويعتمد الأسئلة المباشرة ، ولا يخلط ما تَتَمَيَّز به بيئة لغَوِيَّة عن بيئة أخرى ، فهو يحفظ لكل بيئة لغَوِيَّة خصوصيتها اللُّغَوِيَّة : النحوِيَّة والصَّرْفِيَّة .

٢٠- كان سيبويه يتَتَبَّع التركيب تتَبُّعا رأسيا وأفقيا .

٢١- كان سيبويه يهتم بالواقع اللغويّ كما هو ، ويحترمه في تقعيده النَّحْوِيّ ولا يمكن أَنْ يفتري على اللُّغَة من القواعد ما ليس فيها ، وبعد أَنْ يقف عليه يفسره . ويقيم قواعده على الأكثر .

٢٢- من الفوائد العملِيَّة لمنهج سيبويه :

أ- ما يقوله سيبويه من نتائج سيكون مرتبطا باللُّغَة وليس بالأحداث الكلامِيَّة الوقتيَّة العارضة .

ب- من خلال هذا المنهج فالأمثلة التي يضربها سيبويه لتوضيح قواعده ما هي إلا أمثلة تمثل « تراكيب وبنية لغَوِيَّة » موجودة في اللُّغَة .

ت- إن وقوفنا على هذه العناصر - وخاصة عنصر الإحصاء - يرفع مصداقية سيبويه في أقواله وتقريراته ؛ إذ أَنَّها ليست وليدة معالجة نصّ واحد أو اثنين ، بل لأَنَّ معظم هذه الأقوال والتقريرات ناتجة عن دراسة لمعظم نصوص اللُّغَة .

ث- ووقوفنا على منهج سيبويه وخاصة تنميطه للتراكيب اللُّغَوِيَّة يدلنا على أَنَّه اتبع الطريق الصحيح في تقعيد القواعد ، فهذا التتَبُّع يشبه ما أسماه العلماء بـ «القياس الاستقرائي »الذي سبق أَنْ أشرنا إليه في التمهيد .

ج- الوقوف على المنهج بشكل عام مكننا من ملاحظة وجود تأثير لسياق الحال على اللُّغَة ، ومكننا من إثبات وجود ترابط بين تراكيب مُعَيَّنَة ودلالات سِيَاقِيَّة مُعَيَّنة .

ح- بعد الوقوف على هذا المنهج أصبحنا نفهم بشكل واضح وصريح المصطلحات التي كان يصف بها سيبويه بعض الجمل ، مثل : « ضعيف ، قوي ، جَيِّد ، كثير قبيح ، خبيث » ؛ فهذه مصطلحات قائمة على الجانب الإِحْصَائِيّ الذي قام به سيبويه للتركيب النَّمَطِيّ الذي يدرسه .

خ- من خلال الوقوف على هذه العناصر سنفهم أسباب تقوية سيبويه لتوجيه نحوي ما أو تضعيف آخر ؛ فالتقوية ستكون نتيجة أَنَّ هذا التركيب هو الأكثر إِحْصَائِيًّا من التركيب الآخر .

٢٣- الاهتمام بالإثراء الدِّلَالِيّ في النصوص الشَّرْعِيَّة والأدبيَّة أمر مطلوب بل هو واجب في حد ذاته .

٢٤- سياق الحال باعتباره ملمحا اجتماعيًّا كان معتبرا عند اللغويّين والنَّحْوِيّين ومنهم سيبويه ويمكن أَنْ يعد أصلا يضاف إلى أصول نظَرِيَّة النُّحَاة العرب ، فإِنَّهُ أصل مستأنس لديهم باطراد ، مستشعر في تحليلاتهم على نحو يمثل استخراجه إحياء لأصل من أصولهم صدروا عنه ، وإن لم يصرحوا به .

٢٥- البيئة العلميَّة بما فيها من خلفيَّات ثقافيَّة وفكرية تؤثر على علمائها ، وهذا مصداق لقول الفلاسفة « إِنَّهُ لا سبيل لنا إلى فهم تاريخ الأعمال إِنْ لم نرجع أولا وقبل كل شيء إلى تاريخ الأفكار » .

٢٦- هناك مجموعة من الأساليب يمكن أَنْ يضمها مصطلح واحد هو « الأساليب السِّياقِيَّة » ، أو « الأساليب المقامية » ؛ وذلك لاحتياج كينونتها إلى السِّياق ، وهي : الاستفهام القسم ، النداء ، التحذير والإغراء والاختصاص ، الاستثناء ، التفضيل ، النفي .

٢٧- من خلال دراسة كتاب سيبويه يتبين أَنَّ اللُّغَة لها نوع منطق ونظام داخليين ، وأَنَّ اللُّغَة تهتم بما هو حاضر على ما هو غائب .

٢٨- من خصائص المثل اللغويّ كثرة الاستعمال ، وارتباطه بسياق حال ما .

٢٩- من أسباب تعَدُّد الرواية للمرويات يرجع أساسا إلى أَنَّ مصدر التَّقْعِيد كان أدبيا ، ومن شأن اللُّغَة الأدبيَّة أَنْ تختلف في الجانب التركيبي اختلافا بينا من فرد إلى فرد ، ومن شاعر إلى شاعر ، بل من شاعر في موقف مُعَيَّن إلى نفس الشاعر في موقف آخر ؛ نتيجة اختلاف المشاعر ، وتباين الأحاسيس ، وتغير الظروف البيئية والنفسِيَّة ، هذه حقيقة علمِيَّة مسلمة .

٣٠- من الأهمِيَّة بمكان الوقوف على مصطلحات العلماء ومعانيها حتى لا نقع في خلط وخطأ في فهم مرامي كلامهم .

٣١- ما قرره سيبويه من نتائج في كتابه لا ينسب إليه وحده ، بل هي قسمة بينه وبين أستاذه الخليل .

٣٢- كتب سيبويه كتابه في أواخر حياته ، أي في أكثر المراحل العمرية نضجا علميا وفكريا .

٣٣- القاعدة الأصولية التي تقول : «النكرة في سياق النفي تفيد العموم» يجب أَنْ تقيد بقيد السِّياق ، ويقال : «النكرة في سياق النفي تفيد العموم إذا لم يتعارض هذا مع السِّياق».

٣٤- ما زالت الأبنية الصرفية ودلالتها في حاجة إلى مزيد من الدراسات الكثيرة كما أشار د. أحمد نختار عمر في مقدمة كتابه : أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة ، وكما أشار د. فاضل السامرائي في كتابه : معاني الأبنية في العربية .

٣٥- أول الكلام أبدا النداء .

٣٦- يسيطر سياق الحال على كينونة الجملة الاسمِيَّة ابتداء ، وإذا كان أول الكلام أبدا النداء فهذا يعني أَنَّ السِّياق يسيطر على كل كلامنا ابتداء .

٣٧- لم يكن استخدام كلمة «بناء» لوصف العلاقة بين المبتدأ والخبر كلمة اعتباطية بل هي مقصودة ولها دلالتها .

٣٨- الحال تُحَدُّ في اصطلاح النُّحَاة بحدود منها أنها تبين هيئة صاحبها ، والهيئة أمر من الأمور الخارِجِيَّة عن اللُّغَة ؛ لذلك ترتبط الحال بالسِّياق الذي تُقال فيه .

٣٩- الترتيب بين عناصر الجملة الاسمِيَّة والفعلِيَّة يخضع للسياق .

٤٠- إعمال اسم الفاعل عمل الفعل مرتبط بالسِّياق .

٤١- نواصب الفعل المضارع : «فاء السببية ، إذن ، حتى» تعتمد على السِّياق في عملها .

٤٢- الأغراض التي يأتي لها التوكيد هي : إزالة الشك ، أو تقرير المؤكد ، أو دفع المُتَكَلِّم توهم غفلة في كلامه ، وهذه الأغراض كلها أغراض سِيَاقِيَّة في المقام الأول ؛ لذلك كل ما يرتبط بالتوكيد يرتبط بالسِّياق مباشرة ، مثل : الحال المؤكدة والمنبهة ، المفعول المطلق ...

٤٣- العلامة الإعرابِيّة تستجيب للتحول المفاجئ الذي في السِّياق ، مثل ما يحدث مع ظن وأخواتها إذا بدأ الكلام بالشك ، أو بدأ باليقين ثُمَّ أتاه الشك .

٤٤- البدل يرتبط بالسِّياق ، بدليل أَنَّه يأتي لـ «التوكيد ، التبيين والتوضيح والتفسير ، الاستدراك والإضراب ، والترحم».

٤٥- بدل الغلط لا يجوز أَنْ يقع في شعر ولا قرآن ولا كلام معمول محكم .

٤٦- التوكيد من أكثر التوابع ارتباطا بالسِّياق .

٤٧- النعت تابع يكمل متبوعه ، بدلالته على معنى فيه أو فيما يتعلق به ، والنُّحَاة يفسرون قولهم في تعريف النعت « المتمم لمتبوعه » بأحد تفسيرين : الأول : أَنَّ معناه « **المفيد لما يطلبه المتبوع بحسب المقام** » ، وممن اختار هذا التفسير الأشموني ، وهو تفسير شامل لكل المعاني التي يرد لها النعت من : **التوضيح والتخصيص والمدح والذم والترحم والإبهام والتوكيد والتفصيل** ، والتفسير الثاني حاصله أَنَّ معنى « المتمم لمتبوعه » الموضح له في المعارف والمخصص له في النكرات ، وهو تفسير قاصر ، ونصوص سيبويه تؤيد التفسير الأول .

٤٨- من الأساليب التي ترتبط بالسِّياق : أسلوب الاستفهام ، أسلوب النفي ، أسلوب التفضيل ، أسلوب النداء ، أسلوب التحذير والإغراء والاختصاص ، أسلوب الاستثناء ، أسلوب القسم ، النصب على التعظيم .

٤٩- المعاني التي تؤديها الأدوات النحوِيَّة جميعا هي من نوع التعبير عن علاقات في السِّياق وواضح أَنَّ التعبير عن العلاقة معنى وظيفي لا معجمي ؛ فلا بيئة للأدوات خارج السِّياق ؛ لأَنَّ الأدوات ذات افتقار متأصل إلى السِّياق .

٥٠- لكل جملة إنشائِيِّة سياقها النغمي الخاص بها .

٥١- التوجيه النَّحْوِيّ يراعي الفرق بين الإنسان والحيوان .

٥٢- السِّياق بعناصره يُغني عن فكرة العامل النَّحْوِيّ الذي قال به النُّحَاة .

٥٣- نتقبل توجيها إعرابيا ما إذا نجحنا في تكييف سياق له .

٥٤- سياق الحال قد يؤثِّر أحيانا على ضبط بنية الكلمة الداخليَّة .

٥٥- قد يكون التوجيه النَّحْوِيّ جائز في سياق ولا يجوز في سياق آخر .

٥٦- قد يكون التوجيه النَّحْوِيّ واحد والتوجيهات مختلفة لاختلاف السِّياق .

٥٧- العلامة الإعرابِيّة لها دلالة معتبرة ومُهِمَّة للغاية ، ولا يلتفت إلى من يُنادي بتسكين أواخر الكلمات تسهيلا لتعليم العربِيَّة .

٥٨- السِّياق يؤثِّرفي تحديد دلالة الفعل الزَّمَنِيَّة ، كما يُؤَثِّر في دلالة أوزان المصدر ، وعلى دلالة المشتقات ، وعلى الأوزان الصَّرْفِيَّة .

٥٩- دلالة الأوزان الصَّرْفِيَّة متطورة تحتاج إلى من يقف عليها باستمرار .

٦٠- وضع جموع القِلَّة بدل جموع الكثرة يكون لغرض بلاغي ، كتعظيم العدد القليل ، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد القليل من صفات جليلة وعظيمة يجعله معادلاً للعدد الكثير . ومنها وضع جموع الكثرة بدل جموع القِلَّة ، لغرض بلاغيّ ، كتحقير العدد الكثير ، والإشعار بأنّ ما يشتمل عليه هذا العدد الكثير من تناقض في صفات كماله يجعله معادلاً للعدد القليل .

٦١- التنوين أحيانا يلعب دورا مهما في تحديد دلالة الكلمة .

٦٢- مصطلح «نظَرِيَّة Theory» هو مصطلح «إنجليزي الأصل نشأ في جامعة أوكسفورد البريطانية في القرن الثامن عشر» ؛ وبحكم هذه النشأة فَإِنَّ المعاجم الإنجليزية هي أقدر من غيرها على تحديد مدلول هذا المصطلح .

٦٣- من خصائص النظَرِيَّة العلميَّة التي ذكرتها المعاجم اللُّغَوِيَّة والفلسفِيَّة الإنجليزية :

أ- أن النظَرِيَّة تعتمد على «معطيات ذاتية» من داخلها ، فالنظَرِيَّة ماهي إلا «ترتيب مُنَظَّمٌ لحقائق واقعيَّة» لها ، وما هي إلا « كيان منظم من أفكار تتَعَلَّق بحقيقة شيء ما».

ب- النظَرِيَّة **تعكس وتعيد إنتاج الواقع «It reflects and reproduces reality»**

ت- النظَرِيَّة ترتبط بالممارسة والتطبيق Practice والتجريب ، ونجاح النظَرِيَّة مرتبط بتلك الممارسة وذلك التطبيق وهذا التجريب .

ث- لا توجد نظَرِيَّة تُولد كاملة من أول أمرها ، فالنظريات العلميَّة في حالة تطور وإصلاح داخلي مستمرين ، وقد تتبنى نظَرِيَّة ما في بداية أمرها فروضا مُعَيَّنة ، ثُمَّ بمرور الوقت تسقط تلك الفروض ويحل محلها فروض أخرى جديدة . وبمرور الوقت تصبح أكثر دقة وانضباطا .

ج- إن الممارسة أو «خبرة المجتمع **Experience of society**» هي من تقرر صلاحية نظَرِيَّة ما أو دحضها ؛ أي أَنَّ البعد الاجتماعِيّ الإنساني لا بد أَنَّ يكون حاضرا في الحكم على النظَرِيَّة ؛ لأَنَّ هذا معيار من «معيار الحقيقة **Criterion of Truth**».

٦٤- نظَرِيَّة العامل مثال على النظَرِيَّة غير العلميَّة ؛ إذ هي بعيدة عن الواقع تماما ولا تعكسه ولا تعيد إنتاجه ، والنظَرِيَّة النحوِيَّة المنضبطة العلميَّة يجب أَنْ تشير إلى السِّياق ومكوناته .

الفهارس العلميَّة

١. فهرس الآيات القُرْآنِيَّة

م	الآية	السورة : رقمها	الصفحة
٢٢-	﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾	المائدة : ٨	٢٨٧
٢٣-	﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾	المائدة : ٧١	٢١٦
٢٤-	﴿ وَمَا يُشْعِرُكُم إِنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُون ﴾	الأنعام : ١٠٩	١٤٨
٢٥-	﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	الأنعام : ١٠٩	١٤٨
٢٦-	و ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾	الأنعام : ٢٧	٨٤
٢٧-	﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾	الأنعام : ٦٦	٦٣
٢٨-	﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾	الأعراف: ١٦٤	١٧٠
٢٩-	﴿ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾	التوبة : ١٢٢	٣٠٥
٣٠-	﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾	التوبة : ١٣	٢٩٦
٣١-	﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾	التوبة : ٤٠	٤٣
٣٢-	((فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا))	التوبة ٨٢	٦٥
٣٣-	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾	التوبة: ٣٠	٦٦
٣٤-	﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	يُونُس : ١٠	١٢٥
٣٥-	((فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا))	يونس : ٥٨	٢٣٤
٣٦-	﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾	يُونُس : ٦٢	٢٩٥
٣٧-	﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾	هود : ٤٦	٦٣
٣٨-	﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾	هود : ٦٨	٣٤١
٣٩-	﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾	هود : ٨	٢٩٥
٤٠-	﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾	يوسف : ٣٢	٣٠٢
٤١-	﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ ﴾	يوسف : ٤٣	٥٩
٤٢-	﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾	يوسف : ٩٩	٣١٧
٤٣-	﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾	يوسف :٨٢	٢٢٦
٤٤-	﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا ﴾	إبراهيم : ٣١	١١٦
٤٥-	﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾	الحجر: ٧	٣٠٦

٢. فهرس الأحاديث النبوِيَّة

٣. فهرس الأشعار

م	البيت	قائله	بحره	رقم الصفحة
١-	راحَتْ وَراحَ كَعَصَا السَيْساب بِنَا تَمِيمًا يَكْشِفُ الضَبابْ	رؤبة	الرجز	١٦٥
٢-	أَعَبدًا حَلَّ فِي شُعَبى غَرِيبًا أَلُوْمًا لا أَبالَكَ وَاغتِرابا	جرير	الوافر	٢١٤
٣-	أَقِلّي اللَومَ عاذِلَ وَالعِتابا وَقولي إِن أَصَبتُ لَقَد أَصابا	جرير	الوافر	٢٨١
٤-	دِيارَ مَيَّةَ إِذ مَيٌّ تُساعِفُنا وَلا يَرى مِثلَها عُجمٌ وَلا عَرَبُ	-	البسيط	٢٢٥
٥-	وما غرّني حوزُ الرِّزاميّ مِحصَنًا عَواشِيَها بالجَوّ وهو خصيبُ	-	الطويل	٢٧٨
٦-	كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِب أَدَبًا يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَسَبِ	-	المنسرح	٣١٧
٧-	مَتى تَأتِنا تُلمِم بِنا فِي دِيارِنا تَجِد حَطبًا جَزلًا وَنارًا تَأَجَّجا	-	الطويل	٢٣٠
٨-	بَلْ هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الحيّ غاديةً كالنّخْلِ زَيَّنَها ينعٌ وإِفْضَاحُ	أبو ذؤيبٍ	البسيط	٢٩٢
٩-	لاَ. لاَ أَبُوحُ بحُبّ بَثْنَةَ إِنَّهَا أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقًا وَعُهُودًا	جميل بثينة	الكامل	٦٣
١٠-	بِالأراجيزِ يا ابنَ اللُّوْمِ توعدُني وفي الأراجيز خِلْتُ اللُّوْمُ الخَوَر	العجاج	البسيط	١٦١
١١-	لا عَيبَ بِالقَومِ مِن طولٍ وَلا عِظَمٍ جُسمُ البِغالِ وَأَحلامُ العَصافير	-	البسيط	٢٧٨
١٢-	سَقَوني الخمر ثُمَّ تَكَنَّفوني عُداةَ اللَهِ مِن كَذِبٍ وَزورِ	عروة الصعاليك	الوافر	١٤٧
١٣-	لِله يَبْقَى على الأيام ذو حيدٍ بمشمخرٍّ به الظَّيان والآسُ	أميَّة بن أبي عائذٍ	البسيط	٢٧٤
١٤-	متى أَنَامُ لا يُؤَرِّقْـــني الكَرى ليلًا ولا أســمعُ أجراسَ المَطِي	-	الرجز	٧٩
١٥-	فَبِتنا تحيد الوَحشُ عَنّا كَ أَنَّنا قَتيلانِ لَم يَعلَم لَنا الناسُ مَصرَعا	يزيد بن الطثرية	الطويل	٢٨١
١٦-	يا شـــاعرًا لا شاعرَ اليومَ مثلَه جريرٌ ولكن فِي كلــيبٍ تواضعُ	الصَّلَتانِ العَبْدي	الرجز	١٦٨
١٧-	أَقارِعُ عَوفٍ لا أُحاوِلُ غَيرَها وُجوهَ قُرودٍ تَبتَغي مَن تُجادِعُ	النابغة	الطويل	١٥٩
١٨-	أَدارًا بِحُزوى هِجتِ لِلعَينِ عَبرَةً فَماءُ الهَوى يَرفَضُّ أَو يَتَرَقرَقُ	ذو الرمة	الطويل	١٤٦ ٢٦٤
١٩-	أَلَم تَسأَلِ الرَّبعَ القَواء فَيَــنطِقُ وَهَل تُخـبِرَنكِ اليَومَ بَيداءَ سَملَقُ	جميل	الطويل	١٦٧
٢٠-	هَل أَنتَ باعِثُ دينارٍ لِحاجَتِنا أَو عَبدَ رَبٍّ أَخا عَونِ بنِ مِخراقِ	-	البسيط	٢٠٦
٢١-	بِحَوافِرٍ حُفرٍ وَصُلبٍ صُلَّبٍ وَأَشاعِرٍ شُعرٍ وَخَلقٍ أَخلَقِ	أبو تمام	الكامل	١٨٠

-٢٢	هَل تَعرِفُ اليَومَ رَسمَ الدارِ وَالطَلَلا كَما عَرَفتَ بِجَفنِ الصَيقَلِ الخِلَلا دارٌ لِمَـروَةَ إِذ أَهلي وَأَهــلُهُمُ بِالكانِســيَّةِ نَرعى اللَهوَ وَالغَزَلا	عمر بن أبي ربيعة	البسيط	١٥٩
-٢٣	ولا زالَ قَبرٌ بَينَ تُبْنــــى وَجاسِمٍ عليه مِنَ الوَســمِيّ جَوْدٌ وَوابِلُ فيُنبِتُ حَــوذانًا وَعوفًا مُــنَوِّرًا سَأُتبِــعُهُ مِن خَـيرِ ما قالَ قائِلُ	النابغة	الطويل	١٦٦
-٢٤	فَإِن تبخل سَدوسُ دِرهَمَيها فَإِنَّ الريحَ طَيِّبَةٌ قَبولُ	الأخطل	الوافر	٣٤٠
-٢٥	فاليــومَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَــحِقبٍ إثــمًا مــن الله ولا واغـــل	امرؤ القيس	السريع	٧٩
-٢٦	فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ كَفاني وَلَم أَطلُب قَليلٌ مِنَ المالِ	امرؤ القيس	الطويل	١٦٤
-٢٧	قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ...	امرؤ القيس	الطويل	٢٨١
-٢٨	الحربُ أوّلُ ما تكونُ فُتيَّةً تسعى بزينتها لكلِّ جَهولِ	عمرو بن مَعْدِ يكرب	الكامل	١٦٣
-٢٩	لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما	حسان بن ثابت	الطويل	٦٠
-٣٠	وَمَا أُصاحِبُ مِن قومٍ فأذكُرَهُم إلا يزيدهم حبًّا إليَّ هُم	زياد بن منقذ العدوي التميمي	البسيط	٢٨٨
-٣١	هُرَيرَةَ وَدَّعها وَإِن لامَ لائِمُ غَداةَ غَدٍ أَم أَنتَ لِلبَينِ واجِمُ	الأعشي	الطويل	٢٨١
-٣٢	من أنت لا لن أسمّى من أهيم به يكفى الذي قد مضى من فضح أشجاني	زكي مبارك	البسيط	٦٣
-٣٣	لا لن أبوح بحبي لن أبوح به إني لأنبت من أركان ثهلان	زكي مبارك	البسيط	٦٣
-٣٤	كَأَنَّكَ مِن جِمالِ بَني أُقَيشٍ يُقَعقَعُ خَلفَ رِجلَيهِ بِشَنِّ	النابغة	الوافر	٨٤
-٣٥	إنَّا بنى مِنْقَرٍ قَوْمٌ ذَوُو حَسَبٍ ... فينا سَراةُ بنى سَعْدٍ ونادِيَها	-	البسيط	٢٧١
-٣٦	نَحنُ بَنو أُمِّ البَنينَ : الأَربَعَه وَنَحنُ خَيرُ عامِرِ بنِ صَعصَعَه المُطْعِمُون الجَفْنَة المُدَعْدَعَهْ والضارِبُونَ الهامَ تَحْتَ الخَيْضَعَهْ	لبيد	الرجز	١٦٥
-٣٧	يا دارُ أَقوَت بَعدَ أَصرامِها عامًا وَما يَعْنيك مِن عامِها	الطرماح	السريع	١٤٦ ٢٦٤
-٣٨	ما لك من شيخِك إلاّ عملُه إلاّ رسيمُه وإلاّ رَمَلُهْ	-	المنسرح	٢٣٠
-٣٩	أنا أبو النجم وشِعْري شِعْري	أبو النجم	الرجز	١٤٠
-٤٠	خَليلَيَّ لا وَاللَهِ لا أَملِكُ الَّذي قَضى اللَهُ في لَيلى وَلا ما قَضى لِيا	مجنون ليلى	الطويل	٦٣

٤. فهرس الأمثال

٥. فهرس المصطلحات العلميَّة

قائمة المصادر والمراجع

أولا . المصادر والمراجع العربِيَّة

١. **الآمدي** : الإحكام في أصول الأحكام ، ت : عبد الرازق عفيفي ، دار الصميعي ، ط١ ، ٢٠٠٣م

٢. **إبراهيم أنيس** : من أسرار اللُّغَة ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط ٧ ، (١٩٩٤م) .

٣. **إبراهيم فتحي** : معجم المصطلحات الأدبيَّة ، المؤسسة العربِيَّة للناشرين المتحدين ، تونس ، بدون تاريخ للطبعة .

٤. **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ، ت : عمر عبد السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٧م) .

٥. **أحمد أمين** : ضحى الإسلام نشأة العلوم في العصر العباسي الأول ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٥م) .

٦. **أحمد زكي بدوي** : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعِيَّة ، مكتبة لبنان ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) .

٧. **أحمد سعد محمد** : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، مكتبة الآداب ، ط٢ (٢٠٠٠م)

٨. **أحمد عفيفي** : ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، الدار المصريَّة اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٦م)

٩. **أحمد مختار عمر** : ـ أخطاء اللُّغَة العربِيَّة المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ،(١٩٩٣م) .

ـ أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدِّلَالَة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ـ مكتبة الأسرة القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٠م)

ـ علم الدِّلَالَة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٥ ، (١٩٩٨م) .

١٠. **أحمد مطلوب** : معجم المصطلاحات البَلاغِيَّة وتطورها ، المجمع العلمي العراقي ، العراق ، (١٩٨٧م) .

ـ معجم المصطلحات البَلاغِيَّة وتطورها ، مكتبة لبنان . ناشرون ، بيروت ، ط٢ ، (٢٠٠٧م)

١١. **أرنست فيشر** : ضرورة الفن ، ترجمة : أسعد حليم ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٨م) .

١٢. **آلان وباربارا بييز** : لغة الجسد ، مكتبة جرير ، ط ١ ، (٢٠٠٨م) .

١٣. **إميل بديع يعقوب** : معجم الأوزان الصَّرْفِيَّة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٣م) .

١٤. **إيهاب عبد الحميد** : شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تَمَّام دراسة نحوِيَّة صرفِيَّة ، رسالة ماجستير ، دار العلوم ، جامعة القاهرة ، (٢٠١٢م) .

١٥. **أبو البركات الأنباري** : الإنصاف في مسائل الخلاف ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة (بدون تاريخ للطبعة) .

١٦. **البغدادِيّ** : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، . عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٤ ،(١٩٩٧م)

١٧. **أبو البقاء العُكْبَرِيّ** : إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي ، ت : د . عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٩م) .

١٨. **البقاعي** : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط١ ، (بدون تاريخ للطبعة)

١٩. **تَمَّام حسان** : ـ اللُّغَة العربِيَّة معناها ومبناها ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٦ ، (٢٠٠٩م) .

ـ البيان في روائع القرآن ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢م)

٢٠. **التهانوي** : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، ت : د . علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٦م) .

٢١. **الجاحظ** : البيان والتبيين ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٧ ، (١٩٩٨م) .

٢٢. **الجرجاني** : التعريفات ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)

٢٣. **ابن الحاجب** : أمالي ابن الحاجب:ت : د . فخر صالح سليمان ، دار عمار الأردن ، ط ١ ، ١٩٨٩ م

ـ الكافية في علم النحو ، ت : صالح عبد العظيم الشاعر ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٠م) .

٢٤. **ابن جني** : ـ الخصائص ، ت : محمد علي النجار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، القاهرة ، ع ١٤٦ ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

ـ اللمع في العربِيَّة ، ت : فائز فارس ، دار الكتب الثقافيَّة ، الكويت ، (بدون تاريخ للطبعة) .

٢٥. **حامد طاهر** : الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، (بدون أَيَّة بيانات أخرى) .

٢٦. **الحسن بن قاسم المرادي** : الجنى الداني في حروف المعاني ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٢م)

٢٧. **حلمي خليل** : الكلمة دراسة لغَوِيَّة معجمية ، دار المعرفة الجامعية ، (١٩٩٣م) .

٢٨. **أبو حيان التوحيدي** : المقابسات ، ت : حسن السندوبي ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) .

٢٩. **خالد الأزهري** : التصريح بمضمون التوضيح ، ت : د . عبد الفتاح بحيري إبراهيم ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٧م) .

٣٠. **ابن خلكان** : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ت : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، (١٩٨٧م)

٣١. **دار العلوم** : العربِيَّة بين نحو الجملة ونحوالنص ، الجزء الثاني ، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوِيَّة جامعة القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) .

٣٢. **الذهبي** : سير أعلام النبلاء ، ت : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٥م)

٣٣. **الرَّضِيّ** : شرح الرَّضِيّ على كافية ابن الحاجب ، ت : د . يحيي بشير مصري ، جامعة الإمام محمد بن سعود السعودية ط ١ ، (١٩٩٦م)

٣٤. **رمضان عبد التواب** : ـ بحوث ومقالات في اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٢م)

ـ المدخل إلى علم اللُّغَة ومناهج البحث اللغويّ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٩٦م) .

ـ التطور اللغويّ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١، (بدون تاريخ للطبعة) .

٣٥. **الزبيدي** : ـ تاج العروس ، دار الهداية ، (بدون أَيَّة بيانات أخرى) .

ـ طبقات النَّحْوِيّين واللغويّين ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

٣٦. **الزركشي** : البرهان في علوم القرآن ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتاب العربي ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٥٧م) .

٣٧. **زكريا إبراهيم** : مشكلة الفلسفة ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٣٨. **الزَّمَخْشَرِيّ** : ـ أساس البلاغة ، ت : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، (١٩٩٨م) .

ـ الكشاف ، ت : يوسف حمادي ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .

٣٩. **الزوزني** : شرح المعلقات السبع ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) .
٤٠. **سامي خشبة** : ـ مصطلحات الفكر الحديث ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٦م) .

ـ مفكرون من عصرنا ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٨م) .

٤١. **ابن السراج** : الأصول في النحو ، ت : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٤٢. **ستيفن أولمان** : دور الكلمة في اللُّغَة ، ترجمة : د . كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٤٣. **سعيد الأفغاني** : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، دار الفكر العربي ، بيروت ـ القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٤م
٤٤. **سعيد علوش** : معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٨٥م) .
٤٥. **سلوى محمد العوا** : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٨م)
٤٦. **سيبويه** : الكتاب ، ت : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠١٣م
٤٧. **السيد عبد المقصود جعفر** : الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحيثة ، دار الطباعة والنشر الإسلامي ، ط١ (١٩٩٢م) ،
٤٨. **السيرافي** : ـ أخبار النَّحْوِيّين البصريين ، ت : محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٥م)

ـ شرح كتاب سيبويه ، ت : د . رمضان عبد التواب وآخرون ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، (١٩٨٦م) .

ـ شرح كتاب سيبويه ، ت : أحمد حسن مهدلي ، علي سيد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ٢٠٠٨م

٤٩. **السيوطي** ـ الإتقان في علوم القرآن ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، (بدون تاريخ للطبعة) .

ـ أسباب النزول ، ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٣م) .

ـ الأشباه والنظائر في النحو ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) .

ـ الاقتراح ، ت : محمود فجال ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، (١٩٨٩م)

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنُّحَاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٧٩م)

ـ همع الهوامع ، ت : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ط١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

ـ المزهر في علوم اللُّغَة وأنواعها ، ت : محمد أبو الفضل وآخرون ، دار التراث ، القاهرة ، ط٣ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

٥٠. **الشاطبي** : الموافقات ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٦م)

٥١. **الشافعي** : الرسالة ، ت : محمد نبيل غنايم ، سلسلة تقريب التراث ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٨م) .
٥٢. **شاكر عبد الحميد** : عصر الصورة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، يناير ٢٠٠٥م ، ع ٣١١
٥٣. **شمس الدين الشربيني الشافعي** : السراج المنير ، مطبعة بولاق الأميرية ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٥٤. **شوقي ضيف** : المدارس النحويَّة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٩
٥٥. **ابن الصائغ** : اللمحة في شرح الملحة ، ت : إبراهيم سالم الساعدي ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) .
٥٦. **صبحي صالح** : دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ، (٢٠٠٩ م)
٥٧. **صلاح مهدي محمد** : الإحصاء ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٨م) .
٥٨. **الطبري** : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ت : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠١م) .
٥٩. **عباس حسن** : النحو الوافي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٦٠. **عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة** : البلاغة العربِيَّة ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، (١٩٩٦م) .
٦١. **عبد الصبور شاهين** : العربِيَّة لغة العلوم والتقنية ، دار الاعصام ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٩م) .
٦٢. **عبد العال سالم** ، **أحمد مختار عمر** : معجم القراءات القُرْآنِيَّة ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط ٢ ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٦٣. **عبد العزيز موافي** : الرؤية والعبارة مدخل إلى فهم الشعر ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٠م) .
٦٤. **عبد القاهر الجرجاني** : دلائل الإعجاز ، ت : محمود محمد شاكر ، مطبعة مدني ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٩٢م) .
٦٥. **عبد اللطيف عبد الفتاح** ، **أحمد محمد عمر** : مقدمة الطرق الإِحْصَائِيّة ، القاهرة ، (بدون أَيَّة بيانات أخرى)
٦٦. **أبو العرفان محمد بن علي الصَّبَّان الشافعي** : حاشية الصَّبَّان على شرح الأشموني لألفِيَّة ابن مالك دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٧م) .
٦٧. **ابن عقيل** : شرح ابن عقيل على ألفِيَّة ابن مالك ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التراث القاهرة ، ط ٢٠ ، (١٩٨٠م) .
٦٨. **على أبو المكارم** : أصول التفكير النَّحْوِيّ ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) .
٦٩. **على توفيق الحمد** ، **يوسف جميل** : المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، دار الأمل ، الأردن ، ط ٢ ،(١٩٩٣م) .
٧٠. **أبو علي الفارسي** : التعليقة على كتاب سيبويه ، ت : عوض بن حمد القوزي ، ط ١ ، (١٩٩٠م)
٧١. **علي الجندي** : الشعراء وإنشاد الشعر ، دار المعارف ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٧٢. **علي النجدي** : سيبويه إمام النُّحَاة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٧٩م) .
٧٣. **ابن العماد الحنبلي** : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ت : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، ط١ ، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م)

٧٤. **الغزالي** : المستصفى في أصول الفقه والقواعد الفقهية ، ت : محمد عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلميَّة بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٧م) .
٧٥. **غوستاف لوبون** : روح الجماعات ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٥٥ م)
٧٦. **فاضل صالح السامرائي :** ـ الجملة العربِيَّة والمعنى ، دار ابن حزم ، لبنان ، ط ١ ، (٢٠٠٠م)
ـ معاني النحو ، دار الفكر ، عمان ، ط١ ، (٢٠٠٠م) .
. معاني الأبنية في العربِيَّة ، دار عمار ، الأردن ، ط ٢ ، (٢٠٠٧م)
٧٧. **فخر الدين الرازي** : ـ مفاتيح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، (١٤٢٠هـ) .
. المحصول في علم الأصول ، ت : طه جابر علوان ، مؤسسة الرسالة .
٧٨. **القرافي** : شرح تنقيح الأصول في اختصار علم الأصول ، دار الفكر ، ٢٠٠٤م .
٧٩. **أبو القاسم الزجاجي :** مجالس العلماء ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٨٣م) .
٨٠. **ابن قتيبة :** عوارف المعارف ، دار المعارف ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٨١. **القرطبي** : الجامع لأحكام القرآن ، ت : أحمد البردوني ، دار الكتب المصريَّة ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٦٤م) .
٨٢. **القفطي** : إنباه الرواة على أنباه النُّحَاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ط ١ ، (١٩٨٦م) .
٨٣. **القلقشندي** : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ت : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط٢ ، (١٩٨٠م)
٨٤. **ابن قيم الجوزية :** بدائع الفوائد ، دار التقوى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) .
٨٥. **كارل بروكلمان** : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : د . عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٨٦. **ابن كثير :** تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٨٨م) .
٨٧. **كريم زكي حسام الدين** : التحليل الدِّلَالِيّ إجراءاته ومناهجه ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) .
٨٨. **الكفوي** : الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللُّغَوِيَّة ، ت : عدنان درويش ، محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) .
٨٩. **كمال بشر** : ـ التفكير اللغويّ بين القديم والجديد ، دار غريب ، القاهرة ، ، (٢٠٠٥م) .
ـ دراسات في علم اللُّغَة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، (١٩٨٦م)
ـ علم اللُّغَة الاجتماعِيّ مدخل ، دار الثقافة العربِيَّة ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٤م) .
٩٠. **ابن مالك :** شرح تسهيل الفوائد ، ت : عبد الرحمن السيد ، محمد بدوي المختون ، دار هجر ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٠م) .
٩١. **المبرد** : المقتضب ، ت : محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة)
٩٢. **مجدي وهبة** ، **كامل المهندس** : معجم المصطلحات العربِيَّة في الأدب واللُّغَة ، مكتبة لبنان ،بيروت ، ط ٢ ، (١٩٨٤م) .
٩٣. **مجمع اللُّغَة العربِيَّة** : ـ معجم مصطلحات أصول الفقه ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) .
ـ معجم المصطلحات الفلسفِيَّة ، القاهرة ، ط١ ، (١٩٨٢م)
ـ المعجم الوسيط ، ط٣

- معجم مصطلحات علم النفس والتربية ، القاهرة ، ط ١ ، ، (٢٠٠٨م) .

٩٤. **محمد إبراهيم عبادة** : معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١١م) .

٩٥. **محمد التونجي** : المعجم المُفَصَّل في الأدب ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) .

٩٦. **محمد بكر إسماعيل** : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) .

٩٧. **محمد بن الحسن الإستراباذي** : شرح شافية ابن الحاجب ، ت : محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلميَّة ، لبنان ، ط ١ ، (١٩٧٥م) .

٩٨. **محمد رواس قلعه جي و د . محد صادق قنيبي** : **معجم لغة الفقهاء** ، دار النفائس،ط ١، **(١٩٨٥ م)**

٩٩. **محمد بن عبد الله الطائي** : شرح الكافية الشافية ، ت : عبد المنعم أحمد هريدي ، جامعة أم القرى ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١٠٠. **محمد حسن باكلا** : معجم مصطلحات علم اللُّغَة الحديث ، مكتبة لبنان ، لبنان ، ط ١ ، (١٩٨٣م)

١٠١. **محمد حسن حسن جبل :** الاحتجاج بالشعر في اللغة الواقع ودلالته ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١٠٢. **محمد حسن عبد العزيز** : مدخل إلى علم اللُّغَة ، دار الثقافة العربِيَّة ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة)

١٠٣. **محمد حماسة عبد اللطيف** : - العلامة الإعرابِيّة في الجملة بين القديم والحديث ، دار غريب ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠١ م)

- النحو والدِّلَالَة ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٠م) .

١٠٤. **محمد رجب الفيومي** : النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ، ط ١ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١٠٥. **محمد رواس قلعه جي ، محمد صادق قنيبي** : معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، ط ١ ، (١٩٨٥م)

١٠٦. **محمد سمير اللبدي** : معجم المصطلحات النحوِيَّة والصَّرْفِيَّة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٨٥م) .

١٠٧. **محمد عبد العزيز النجار** : ضياء السالك إلى أوضح المسالك ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة ، ط ١ ، (٢٠٠١م) .

١٠٨. **محمد عبد المطلب :** قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩٥م) .

١٠٩. **محمد عمارة** : تيارات الفكر الإسلامي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٩١م) .

١١٠. **محمد عيد** : النحو المصفى ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١١١. **محمد محمد أبو موسي** : خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٧ ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١١٢. **محمد محيي الدين عبد الحميد** : - تنقيح الأزهرية ، المكتبة التجارية الكبر ، القاهرة ، ط ١١ ،

. عدة السالك على أوضح المسالك ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) .

١١٣.	**أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي :** الوقف على كلّا وبلى في القرآن ، ت : حسين نصار ، مكتبة الثقافة الدينِيَّة ، القاهرة ، ط١ ، (٢٠٠٣م) .
١١٤.	**محمود محمد شاكر** : المتنبي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٧م) .
١١٥.	**المرزوقي** : كتاب الأزمنة والأمكنة ، ت : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط١ ، (١٩٩٦م)
١١٦.	**محيي الدين أحمد حسين** : دراسات في الدافعية والدوافع ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٨م) .
١١٧.	**مصطفى عبد العزيز السنجرجي** : المذاهب النحوِيَّة في ضوء الدراسات اللُّغَوِيَّة الحديثة ، المكتبة الفيصليَّة ، مَكَّة المكرمة ، ط ١ ، (١٩٨٦م) .
١١٨.	**مصطفى محمد الغلاييني** : جامع الدروس العربِيَّة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ٢٨ ، (١٩٩٣م)
١١٩.	**مصطفى ناصف** : اللُّغَة والتفسيروالتواصل ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع ١٩٣ ، ط ١ ، (١٩٩٥م)
١٢٠.	**ابن مضاء :** الرد على النُّحَاة ، ت : محمد إبراهيم ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط ١ ، (١٩٧٩م) .
١٢١.	**ابن منظور :** لسان العرب ، ت : عبد الله على ، ترتيب دار المعارف ، القاهرة(بدون تاريخ للطبعة) .
١٢٢.	**ابن منير الإسكندري :** الانتصاف فيما تتضمنه الكشاف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، (١٤٠٧هـ)
١٢٣.	**منير البعلبكي :** المورد الحديث ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، (٢٠٠٩م) .
١٢٤.	**نادية رمضان النجار** : اللُّغَة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين،دار الوفاء ، الإسكندرية،(بدون تاريخ للطبعة)
١٢٥.	**نادية محمد شريف العمري** : العام ودلالته بين القطعية والظنية ، دراسة أصولية مقارنة ، دار هجر القاهرة ، ط ١ ، (١٩٨٧م) .
١٢٦.	**نايف خرما ، علي حجاج** : اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، عالم المعرفة ، الكويت ، ط١ ، (١٩٨٨م)
١٢٧.	**نفوسة زكريا** : تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٨٠م) .
١٢٨.	**هـ . ا . رجب ، ج . هـ . كالمرز** : الموسوعة الإسلامية الميسرة ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب القاهرة ، ط ١ ، (٢٠١٣م) .
١٢٩.	**هدسون** : علم اللُّغَةالاجتماعِيّ ، ترجمة : محمود عياد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٣ ، (٢٠٠٢م)
١٣٠.	**ابن هشام :** ـ أوضح المسالك إلى ألفِيَّة ابن مالك ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ للطبعة) .
ـ شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (بدون تاريخ للطبعة)
ـ قطر الندي وبل الصدى ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ط١١ ،(١٣٨٣هـ)
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ت : مازن المبارك ومحمد على حمد الله ، دار الفكر ، بيروت ، ط٦ ، (١٩٨٥م)
١٣١.	**أبو هلال العسكري :** معجم الفروق اللُّغَوِيَّة ، ت : الشيخ بيت الله بيات ، مؤسسة النشر الإسلامي ، إيران ، ط 1 ، (١٤١٢هـ) .
١٣٢.	**والتر ج . أونج :** الشفاهية والكتابية ، ترجمة : د . حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ع ١٨٢ ، ط١ ، فبراير ١٩٩٤م
١٣٣.	**ياقوت الحموي** : معجم الأدباء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، (١٩٩٣م) .

١٣٤- **ابن يعيش** : شرح المُفَصَّل للزمخشري ، ت : إميل يعقوب ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط١ ، (٢٠٠١م)

١٣٥- **يوسف خليف** : حياة الشعر في الكوفة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٦م

١٣٦- **يوسف القرضاوي** : كيف نتعامل مع السنة ؟ ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٣ ، (٢٠٠٥م) .

١٣٧- **يوسف مراد** : مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٥٧م) .

ثانيا المراجع الأجنبية

.135 A Dictionary of Linguistics and Phonetics, David Crystal, Australia, Blackwell Publishing, (2008)

.136 A DICTIONARY OF PHILOSOPHY , M . Rosenthal and P . Yudin , first printing (1967)

.137 Joho E . Warriner, English Compoistion and Grammar , HBJ, Chicago, Publishers,١٩٨٨

.138 Lexicon Universal Encyclopedia, Lexicon Publications, Inc . ,New York, N . Y . ،fourth edition,

.139 Oxford Word Power Dictionary, Oxford University Press, 3rd edition, (2006)

.140 TheLexicon Webster Dictionary, United States of America, the eighth edition, (1983 printing)

.141The New Lexicon Webster's Dictionary of the English Language, United States of America , (1996 printing)

ثالثا : المجلات والدوريات

١٤٢- مجلة البحوث والدراسات القُرْآنِيَّة ، المملكة العربِيَّة السعودية ، ع ٩

١٤٣- مجلة عالم الفكر ، ع١ ، ج ٤٢ ، سبتمبر٢٠١٣م

١٤٤- مجلة العربي الكويتية ، الأعداد : ١١٥ ،

١٤٥- مجلة فصول ، ج٤ ، ع١ ، ١٩٨٣م

١٤٦- مجلة مجمع اللُّغَةالعربِيَّة ، القاهرة ، ج ٧ ، ج٥٠ ، ج٧٨ ، ج٦٥

ملخص الرسالة

هذه رسالة بعنوان « قرينة السِّياق ودورها في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ في كتاب سيبويه » . وكما هو واضح من العنوان فَإِنَّ الرسالة توضح دور قرينة السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ في كتاب سيبويه .

وتبدأ هذه الرسالة بتمهيد تناولت فيه النقاط التالية :

- التعريف بسيبويه : نشأته ، وأسفاره العلميَّة ، ووفاته .
- التعريف بكتاب سيبويه ووقت تأليفه ، والقيمة العلميَّة له ، ومنهج سيبويه في هذا الكتاب كما لاحظه العلماء السابقون الذين درسوا هذا الكتاب .
- تحديد أهم المصطلحات المستخدمة في البحث .

وكانت أهم المصطلحات التي تناولتها بالإيضاح عند حديثي عن أهم المصطلحات مصطلح « السِّياق » .فقد تناولته بشيء من التفصيل والإسهاب ؛ فأوضحت تعريفه العام المرتبط باللُّغَة وغيرها والمعنى الخاص المرتبط باللُّغَة وحدها ، ثُمَّ ذكرت المصطلحات التراثيَّة والحديثة التي أطلقت على السِّياق ولها نفس المضمون والمعنى .

وتناولت أيضا عند حديثي عن مصطلح السِّياق : وجود مصطلح السِّياق عند النُّحَاة القدماء ، واستخدامه كقرينة في بعض المسائل النحوِيَّة ، ثم أشرت إلى علاقة السِّياق باللُّغَة والكلام ، وتطرق الحديث عن السِّياق كمصطلح إلى الإبانة عن اهتمام علمائنا الأقدمين بالسِّياق ، وكان آخر كلامنا في هذا المصطلح الحديث عن نقطة مُهِمَّة وهي الحديث عن مكونات السِّياق .

ثُمَّ تناولت بإشارة سريعة المصطلحات الآخرى المستخدمة في بحثي وهي : مصطلح « التَّقْعِيد النَّحْوِيّ » .ومصطلح« التوجيه النَّحْوِيّ » .ومصطلح « الأصل » ، ومصطلحات « الغالب ، الكثير ، القليل ، الضعيف ، الشاذ ، الردئ» .

وتناول التمهيد أيضا بالمعالجة والبيان نقطة غاية في الأهمِيَّة وهي : أهمِيَّة اعتبار السِّياق عند التَّقْعِيد لِلُّغَة والتوجيه الإعرابِيّ ، وأشرنا إلى أَنَّ غياب السِّياق عن التحليل النَّحْوِيّ قد يؤدي إلى :

أ- اضطراب القاعدة النحوِيَّة .

ب- عدم استيعاب التوجيه النَّحْوِيّ والبلاغي عقليا ، وصيرورة اللُّغَة إلى فوضى ، وقتل الحياة في اللُّغَة وإفساد التفاعل معها .

ت- تفَكُّك أوصال النَّصّ .

ث- الوقوع في مأزق عَقِيدِيّ خاصة عند التعامل مع الآيات القُرْآنِيَّة والأحاديث النبَوِيَّة الصحيحة .

ثُمَّ أتت آخرُ نقطتين في هذا التمهيد وكانتا عن : النصوص المعتمد عليها في التَّقْعِيد عند سيبويه التي كانت في أغلبها الشعر ، الآيات القُرْآنيَّة ، والحديث ، والأمثال ، والقواعد العلميَّة التي يجب مراعاتها عند القيام بالتَّقْعِيد عامة .

بعد هذا التمهيد أتت خمسة فصول تغطي جوانب الرسالة .

كان من اللازم ابتداء عند إبراز دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه أَنْ نجيب أولا عن السؤال التالي : «هل كان سيبويه يقوم بتقعيده النَّحْوِيّ وتوجيهه الإعرابِيّ من خلال نصوص مكتوبة أم مسموعة ؟ هل كان يقوم بهاتين العمليتين من خلال المطالعة لدواوين الشعراء وقراءة المصحف ؟ أم كان يقوم بهاتين العمليتن من خلال السماع ومعايشة الحدث الكلامي نطقا وإنشادا ؟ »،بعبارة أخرى : «ما الظروف والملابسات التي أحاطت بسيبويه عند تقعيده وتوجيهه ؟ »

وإذا كان هذا التَّقْعِيد يتم من خلال اللُّغَة الحَيَّة المنطوقة ، فهل كان سيبويه يعتبر السِّياق الذي نُطقت فيه هذه النصوص أم لا ؟ هل كان يعتمد على نظَرِيَّة العامل بشكل أساسي في كل قواعده ؟ أم كانت هناك فسحة لتدخل السِّياق في هذا التَّقْعِيد ؟ وإذا كان هناك تدخل للسياق في تقيعد سيبويه للقاعدة ، فما الإجراءات التي كان يتبعها عند هذا التَّقْعِيد المرتبط بالسِّياق ؟ وبعبارة آخرى : ما المنهج الذي اتبعه سيبويه عند تقعيده وتوجيهه ؟

من خلال هذه الأسئلة وهذا التصور جاء عنوان الفصل الأول من موضوع البحث : «السياق والمنهج عند سيبويه»، وتكون من مبحثين :

- المبحث الأول بعنوان «سيبويه والسِّياق» ، أبنت فيه أَنَّ سيبويه كان يقوم بالتَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ من خلال النصوص الحَيَّة المنطوقة ، وأنه لم يغفل الجوانب السِّياقِيَّة للكلام ، وأنه أخذ بالاعتبار السِّياق عند تقعيده وتوجيهه ، وأثبتُّ ملاحظتي أَنَّ المُتَكَلِّم والمخاطب كانا أبرز عناصر السِّياق التي اهتَمَّ بها سيبويه .
- المبحث الثاني « خطوات إجرائِيَّة ومنهجِيَّة قبل التَّقْعِيد النَّحْوِيّ والتوجيه الإعرابِيّ عند سيبويه»:أوضحت فيه الخطوات المنهجِيَّة التي كان يقوم بها سيبويه قبل التَّقْعِيد والتوجيه ، وتلخص هذا المنهج في أربع نقاط أساسية :

أ- تصنيف اللُّغَة إلى تراكيب نمطِيَّة مُجَرَّدة .

ب- الإحصاء العددي للتراكيب النَّمَطِيَّة .

ت- تتَبُّع التركيب اللغويّ المُعَيَّن في السِّياقات المختلفة ، وربطه بدلالة السِّياق إنْ وجدت .

ث- معايشة التراكيب اللُّغَوِيَّة في نصوصها المنطوقة .

وبإثبات أَنَّ سيبويه تَأَثَّر بالسِّياق عند تقعيده وتوجيهه ؛ كان لا بد من تقديم أدلة علمِيَّة من كتاب سيبويه تثبت هذا التأثر على مستوى التوجيه وعلى مستوى التَّقْعِيد ، فجاءت الفصول الثلاث التالية «الثاني والثالث والرابع» لتقديم هذه الإثباتات .

الفصل الثاني بعنوان «دور السِّياق في التوجيه الإعرابِيّ».ليغطي جانب التوجيه وضم ثلاثة مباحث :

» المبحث الأول«أهمِيَّة السِّياق في التوجيهات النحوِيَّة عند سيبويه» : وأبرزت فيه وجود تراكيب نحوِيَّة لا يصح تركيبها ولا تصح كينونتها وتوجيهها نحويا إلا إذا قامت قرينة من السِّياق تصححها ، وأنَّ سيبويه استغل السِّياق في التوجيه ، وأنَّ السِّياق قد يمثل أحيانا مَرْجِعِيَّة للضمير يوجه إليه مرجعيته في حالة غياب المَرْجِعِيَّة ، وبينت خطورة عدم الاعتداد بقرينة السِّياق في التوجيهات النحوِيَّة .

» المبحث الثاني «إثراء السِّياق للتوجيهات النحوِيَّة والدِّلالِيَّة» : وفيه تناولنا بشكل أعمق وأوضح دور السِّياق في إثراء التوجيه النَّحْوِيّ ، وأظهرتُ فيه حال المُتَكَلِّم وإمكانيَّة سكوته وإرادته وحالته النفسِيَّة ومكنونها في التوجيه الإعرابِيّ ، ثُمَّ دور المخاطب في هذا الإثراء .

» المبحث الثالث «تَحَرُّك سيبويه بحُرِّيَّة في توجيهاته النحوِيَّة في حالة عدم اللَّبس» : وأوضحت فيه أَنَّ سيبويه كان يجيز كل التوجيهات النحوِيَّة الممكنة لمسألة نحوِيَّة ما بحُرِّيَّة ؛ ما دام لا توجد قرينة تمنع إحدى هذه التوجيهات ، وأسمينا هذا التوجيه بالتوجيه الحر .

وجاء الفصل الثالث بعنوان : «دور السِّياق في التَّقْعِيد النَّحْوِيّ عند سيبويه» وشمل خمسة مباحث :

» المبحث الأول «السِّياق والجملة الاسمِيَّة» : وتناولنا بالحديث المسهب علاقة السِّياق بالمبتدأ والخبر ، وعلاقته بكينونة الجملة الاسمِيَّة نفسها ، وقدمنا تفسيرا يوضح اختيار مصطلح «بناء» لوصف العلاقة بين المبتدأ والخبر . وفي نفس هذا المبحث تناولنا علاقة السِّياق بالحذف في الجملة الاسمِيَّة والحال (النَّحْوِيّ) .

» المبحث الثاني «السِّياق والجملة الفعلِيَّة» : وذكرنا فيه تأثير السِّياق على كينونة الجملة الفعلِيَّة ، والترتيب بين العناصر المكونة لها ، والسِّياق وإعمال اسم الفاعل ، وعلاقة السِّياق بنواصب الفعل المضارع : فاء السببية ، إذن ، حتى . والمفعول المطلق ، وظن وأخواتها ، وكان التامة ، والحذف في الجملة الفعلِيَّة .

» المبحث الثالث «السِّياق والتوابع» : وذكرنا فيه الوظائف الدِّلالِيَّة السِّياقِيَّة التي يقوم بها البدل ، التي استخلصها سيبويه من تتَبُّعه للتراكيب المنطوقة التي يأتي فيها البدل ، وهي : التبيين

والتوضيح والتفسير ، التوكيد ، الاستدراك والإضراب ، الترحم . ثُمَّ انتقل الحديث إلى علاقة السِّياق بالنعت ، وعند الحديث عنه ذكرنا الدلالات السِّياقِيَّة التي استخلصها سيبويه لهذا التابع(النعت) : «التخصيص ، التوضيح ، رفع الالتباس إنْ خيف منه ، المدح والمبالغة ، التوكيد » .وفي ختام كلامنا عن النعت ذكرنا أَنَّ إجازة المدح بالنعت مرتبطة بمعرفة المُتَكَلِّم السابقة بالمنعوت ، وذكرنا أَنَّ النعت الذي لا يفيد معنى أو فائدة ما لا يجوز أَنْ يكون نعتا . ثُمَّ كان حديث سريع عن التوكيد ، واخْتُتِمَ الكلام عن العطف ، وما يلعبه السِّياق مع بعض أدواته : «الفاء ، أو ، الواو ، أم » .وناقشنا علاقة السِّياق بالاستئناف النَّحْوِيّ المرتبط بدوره بحروف العطف .

- المبحث الرابع «السِّياق والأساليب النحوِيَّة» :ناقشنا علاقة السِّياق بأسلوب الاستفهام والدلالات السِّياقِيَّة التي استنبطها سيبويه له : «التوبيخ والتقرير والشتم ، التنبيه » . وأوضحنا أشكال التفاعل التي يعكسها الاستفهام بين المُتَكَلِّم والمخاطب .

ثُمَّ ناقشنا علاقة السِّياق بالنفي ، وخرجنا من تلك المناقشة بوجوب ربط القاعدة الأصولية التي تقول : «النكرة في سياق النفي تفيد العموم» بالسِّياق لتصبح : «النكرة في سياق النفي تفيد العموم إذا لم يتعارض هذا مع السِّياق».

ثُمَّ تلا ذلك الحديث عن النداء ، وأوضحنا نصا مهما لسيبويه يوضح فيه أَنَّ أول الكلام أبدا النداء ، إلا أَنْ يدعه المُتَكَلِّم استغناء بإقبال المخاطب عليه . وأوضحنا من خلال هذا النَّصّ أَنَّه لا يوجد كلام يلقى في الفراغ بدون سياق وإلا كان عبثا . وذكرنا بعض الدلالات السِّياقِيَّة التي ذكرها سيبويه للنداء : تنبيه المنادى ، التوكيد ، التعجب والاستغاثة .

ومن الأساليب التي ناقشناها أيضا في هذا المبحث : أسلوب الإغراء والتحذير ، والاختصاص ، وأسلوب التفضيل ، والاستثناء ، والقسم .

وناقشنا أيضا في نفس هذا المبحث ما أسماه سيبويه بـ « النصب على التعظيم أو الذم » .وأوضحنا أَنَّ النصب على التعظيم يرتبط بمواقف سِيَاقِيَّة مُعَيَّنة ومخصوصة . ويحتاج النصب على التعظيم إلى صفات مُعَيَّنة تعارف الناس عليها فيما بينهم أنها للتعظيم بها ، و أَنْ يعرف صاحبها بتلك الصفة ، و أَنْ تكون هذه الصفة متأصلة فيه ، ويعرف كونها خاصة بالبشر أم خاصة بالذات الإلهية . وأوضحنا أيضا الفرق بين النصب على التعظيم والنصب على المدح .

- المبحث الخامس «السِّياق والأدوات النحوِيَّة» : وفيه تكلمنا عن علاقة السِّياق ببعض الأدوات النحوِيَّة : أَمَّا الشرطيِّة ، ألف التَّرَنُّم وياؤه وواوه ، أل ، كسر همزة إنَّ وفتحها ، الضمائر ، بل

قد ، أَلَا ، إمَّا ، ذاك ، الأدوات الزائدة (أَنَّ الزائدة ، باء الجر الزائدة ، ما الزائدة ، مِنْ الزائدة لا الزائدة) ، أدوات العرض والحض(هلا ، ألا ، لولا) ، كلا ، لا ، نِعْمَ ، وي ، ويح ، ياء النسب والألف والنون .

وتجمعت بين يدي الباحث مادة معقولة توضح تأثيرًا للسياق على الجانب الصَّرْفِيّ ؛ فظهر الفصل الأخير من هذا البحث بعنوان : «السِّياق والقواعد الصَّرْفِيَّة».وضم ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول «السِّياق ودلالة الفعل والمصادر والمشتقات» : تكلمنا فيه عن علاقة السِّياق بزمن الفعل ، وأوضحنا من خلال نصوص صاحب الكتاب أَنَّ الفعل المضارع عنده قد يدل على «الزمن الكائن الذي لم ينقطع(الحال / المضارع)» وقد يدل أيضا على «ما يكون ولم يقع(المستقبل)»وأشرنا أَنَّه لتحديد المراد بدلالة الفعل لا بد من اعتبار السِّياق في هذا . ونقلنا هناك تقريظ العلماء لتعريف سيبويه للفعل .

ومن خلال نصوص سيبويه التي تحدثت عن أوزان المصادر والمشتقات(اسم الفاعل صيغة المبالغة ، اسما الزمان والمكان) ، وجدنا دورا بارزا للسياق يقوم به في تحديد دلالتها .

- المبحث الثاني«السِّياق ومعاني الأوزان الصَّرْفِيَّة » : تحَدَّثنا فيه عن دور السِّياق في تحديد دلالة الأوزان الصَّرْفِيَّة التي استنبطها سيبويه من خلال تحليله للنصوص المنطوقة . وأثبتنا أَنَّ دلالة الأوزان الصَّرْفِيَّة ليست ثابتة بل متطورة تحتاج إلى بحث مستمر للوقوف على الدلالات الجديدة . وتمادى النقاش إلى علاقة السِّياق بالأوزان الصَّرْفِيَّة التي تعبر عن جموع القِلَّة والكثرة .
- المبحث الثالث «السِّياق والتنوين والتنكير والتعريف» وفيه أظهرنا أثر السِّياق على التنوين والتنكير والتعريف ، وأوضحنا أَنَّ ذكر التنوين أو عدمه قد يرتبط أحيانا بالسِّياق ، مثل التنوين الموجود بكلمة «زيد» في جملة «مررت بزيدٍ ابنِ عمرو» .فوجود التنوين يجعل كلمة «ابن» «توكيدًا أو بدلا» .وحذفه يجعل «ابن» «وصفا» .ووجود التنوين أو عدمه مرتبط بإرادة المُتَكَلِّم المرتبط بالسِّياق .

وأوضحنا أيضا علاقة السِّياق بالتعريف والتنكير في مثل قولنا : «قضية ولا أبا حسن لها» . وقلنا إِنَّ العَلَمَ «أبا الحسن» في الجملة السابقة نكرة ، والجملة السابقة صحيحة ، وسبب الصحة الخلفيَّةالاجتِماعِيَّة لهذا العلم التي يعرفها المخاطب عن هذا العلم . كما ناقشنا كثيرا من المسائل الأخرى .

كان من أهم الفوائد العَمَلِيَّة التي خرجنا بها من إبراز علاقة سيبويه بالسِّياق تقعيدا وتوجيها ، وذكر العديد من الأمثلة والنماذج من الكتاب التي تثبت هذه العلاقةأهمِيَّة الدعوة إلى تضافر جهود

العلماء لوضع نظَرِيَّة نحوِيَّة للعربية يكون لحمتها وسداها السِّياق ؛ لذلك أتى الفصل الخامس متضمنا هذه الدعوة ، وكان عنوانه «السِّياق وسيبويه والنظَرِيَّة النحوِيَّة»،وضم مبحثين :

» المبحث الأول «تعريف مصطلح النظَرِيَّة ، وأهم خصائص النظَرِيَّة العلميَّة»،وذكرنا أَنَّ اللُّغَة التي ورد لنا منها مصطلح «نظَرِيَّة» هي اللُّغَة الإنجليزية ، وبحكم هذه النشأة فَإِنَّ المعاجم الإنجليزية هي أقدر من غيرها على تحديد مدلول هذا المصطلح . وذكرنا أهم المعاني اللُّغَوِيَّة لهذه الكلمة في اللُّغَة الإنجليزية التي ذكرها معجم من أهم المعاجم في اللُّغَة الإنجليزية ، ثُمَّ انتقلنا للحديث عن هذا المصطلح من جهة المعاجم الفلسفِيَّة ، وذكرنا أَنَّ المعجم الفلسفي يربط بين مصطلح النظَرِيَّة وبين الواقع ، وذكر أَنَّ النظَرِيَّة«تعكس وتعيد إنتاج الواقع» .وأوضحنا كيف ربط المعجم الفلسفي مصطلح «النظَرِيَّة»بمصطلح «معيار الحقيقة **Criterion of Truth**» ،وبينا أَنَّ قيمة معيار الحقيقة للنظَرِيَّة يكمن «في الممارسة» ،وأوضحنا أيضا أَنَّ معيار الحقيقة هذا يقوم على «الخبرة الاجتِماعِيَّة» ،وأنَّ مما يتضمنه معيار الحقيقة لأَيَّة نظَرِيَّة هو تأكيده على أَنَّ «التطور اليومي للتطبيق والتجربة الذي يقوم به المجتمع للنظَرِيَّة هو القادر على التأكيد أو الدحض الكامل للأفكار التي يولدها الإنسان».

ومن خلال هذه الدراسة خلصنا إلى أَنَّ أهم خصائص النظَرِيَّة العلميَّة :

١ـ النظَرِيَّة تعتمد على «معطيات ذاتية».

٢ـ النظَرِيَّة تعكس وتعيد إنتاج الواقع .

٣ـ النظَرِيَّة ترتبط بالممارسة والتطبيق والتجريب .

٤ـ لا توجد نظَرِيَّة تولد كاملة من أول أمرها .

٥ـ إن الممارسة أو خبرة المجتمع هي التي تقرر صلاحية نظَرِيَّة ما أو دحضها .

» المبحث الثاني «النظَرِيَّة النحوِيَّة السِّياقِيَّة» ،وقررنا فيه أَنَّه إذا كانت النظَرِيَّة العلميَّة تقوم على معطيات ذاتية ، وأنها تعكس الواقع وتعيد إنتاجه في رقابة الخبرة الاجتِماعِيَّة فمن حقنا أَنَّ ندعو إلى نظَرِيَّةنحوِيَّةسِيَاقِيَّة ، وأنْ نقول إنَّ نظَرِيَّة العامل مثال على نظَرِيَّة غير علمِيَّة ، وذكرنا آراء بعض العلماء في نقد هذه النظَرِيَّة التي قتلت الروح في النحو العربي ، وأنه لابد من إعادة صياغة النظَرِيَّةالنحوِيَّة للعربية ولابد أنْ تتضمن هذه النظَرِيَّة إشارة للسياق والجانب الاجتماعِيّ لِلُّغَة .

وفي الختام فَإِنَّ هذا الملخص السريع لا يُغني عن قراءة البحث نفسه إذ احتوى على تفاصيل مُهِمَّة كثيرة تُجُنِّبَ ذكرها للاختصار .

*****

Thesis's abstract

The title of this thesis is "The Context's Evidence And Its Role In Laying Down The Syntactical Rules And The DeclensionalGuidingIn Sibawayh's Kitab" . The thesis clears up the role of theContext's evidence and its role in laying down the syntactical rules and the declensional guiding in Sibawayh's Kitab .

The thesis beginswith a preface contains the following important points :

A. The acquaintance with Sibawayh , his scientific travels and his death .
B. The acquaintance Sibawayh's Kitab , the time of its composition , the scientific value of Al- Kitab and the Sibawayh's method in Al- Kitab as the scholars , who studied Al- Kitab , observed it .
C. Determing the most important terms used in this thesis .

The most important term I explaind is "the context" . I offered the general meaning which is related to the language and others . Then I offered the special meaning associated with the language only . During the explanation , I mentioned the old and modern terms which were named the context's term .

While I was talking about context's term, I pointed to that old grammarians were using this term in their works , and they used it as an evidence in explanation of some syntactical issues . I also indicated to context's relationship between the language and the speaking .

Taking an interest of our previous scholars of context was also stated in this part .

My last important point in explanationof context's term was the elements of the context .

In a short time , I cited some anthor terms : The Laying Down The Syntactical Rules, The Declensional Guiding, Anomalous Aberrant, The Origin .

The thesis' preface tackled the importance of context's consideration in the laying down the syntactical rules for language and the declensional guiding .

I made referece to that the nonattendance of context about the syntactical analyzation may lead to :

a. Confusion of the syntactical rules .
b. Deprivation of comprehension of syntactical , rhetorical guiding mentally, and the language will reach a stage of chaos .
c. Disconnection of context's joints .
d. Falling down in doctrinal deadlock at the time when dealing with verses of the Holy Koran and Prophetic Tradition .

The last tow points in the preface were about the texts which Sibawayh depended on : poetry; verses of the Holy Koran; Prophetic Traditions , and scientific rules which we must follow at the laying down the syntactical rules .

After the preface, I specified five chapters for the rest of the thesis . The first chapter is the relationship between Sibawayh and both of his method and context .

It was necessary at the beginning of the thesis during the first chapter to respond on the following questions :

I. What were the circumstances which surrounded with Sibawayh at his the laying down the syntactical rules and his the declensional guiding ?
II. Was he laying dwon his syntactical rules through the pronounced language or through written language ?
III. Was he considering the effects of context' elements ? or, Was he basically depending on the Regent's theory?
IV. What were the procedures which he had confidence in his laying down the syntactical rules .

Through these questions , the title of this chapter became "The Relationship Between Sibawayh And context And His Method In Al-Ktab" . This chapter embraced tow researches :

- The first is "Sibawayh and context" . It demonstrated that Sibawayh set up his laying down the syntactical rules and his declensional guiding through the pronounced language , and he did not avoid the contextual aspects of speaking . It also confirmed that he considered contextual components inlaying down the syntactical rules . I wrote dwon my notice that the conversationalist and addressee were the most

prominent context's elements which Sibawayh paid attention to it .

- The title of the second chapter's research is "A methodical and procedural steps befor laying dwon the syntactical rules , and the declensional guiding . In this research , I made mention of the systematic steps of Sibawayh which he followed . It is summarized in four elements :
    a. Classifying the language into a abstracted and stereotyped structures .
    b. Numerical computation for the abstracted and stereotyped structures .
    c. Tracing the definitive , lingual structure different contexts and binding the lingual structures with the meaning of these contexts .
    d. Living with the lingualstructures in its pronounced texts .

The three following chapters in the thesis brought forward the scientific dentations from Sibawayh's Kitab . These dentations verify the effects of context on Sibawayh's laying dwon the syntactical rules . So , the title of the second chapter was "the context's role in declensional guiding" . It contained the succeeding researches :

1) "context's importance in declensional guiding" . I indicated in this research that there are declensional structures do not be correct, it has not an entity, and we can not guide it declensionally but through context's evidence . I named that Sibawayh exploited the context in his declensional guiding . In this research, I stated that thecontext may be a reference to the pronoun in case of nonexistence of linguistic reference . I also cited that we will fail to take advantage of context, if we do not exploit it in our lingual analyzation .
2) The second research in this chapter : "Enrichment of context for semantic , and declensional guiding . Deeply,I discussed in this chapter the role of context in enrichment of declensional guiding . I repoted here that the speaker's condition , his silence's potentialitydeclensional guiding , his will, and his psychological

position are very important for the declensional guiding . I cited also the adressee's role in this process .

3) The third research was "The free movement of Sibawayh in his declensional guiding in case of nonexistence of the meaning's obscurity . laying dwon the syntactical rules . Sibawayh , in this research , gave all the possible declensional guidings for a particulare declensional issue as long as there is not an evidence prevents these declensional guiding . We called these declensional guidings the free declensional guiding .

The third chapter is "The context role in laying dwon the syntactical rules " . It encompassed five researches :

a) The context and Nominal Sentence . I brought to light the relationship between the context and the Subject of the Nominal Sentence and the Predicate .
b) The context and the Verbal Sentence . In this research, I shed light upon the context's impact on the entity of the Verbal Sentence .

   I also elucidated :

   » The context's effect and the arrangement of the Verbal Sentence's elements .
   » The context and actuating Active Participle .
   » The context and the Particles of accusative present simple .
   » The context and the Unrestricted Object and Ellipse (or Elision) in the Verbal Sentence .

c) "The context and Appositive " . In it , we manifested the semantic and contextual posts which the Apposition, syndetic serial , the Adjective (Epithet) , and confirming . In addition to the previous issues , I point out to the declensional Inception which is associated the syndetic particles .
d) " The context and declensional styles " . We discussed the pertinence admist the Interrogative, the Negative , the Vocative , the Instigation, Specification , the Superlative adjective , Exception, the Oath, Coutioning , Accusation of pity and Accusation of Glorification .

e) "The context and declensional particels " .

The title of the fourth chapter in this thesis was " the context and morphological rules" . It contains :

i. " The context and the verb's meaning , the infinitive , and derivatives" .
ii. " The context and the meaning's of morphological patterns " In this research , we proved that the meaning of morphological patterns is inconstant , and it needs to a continuous research in order to get the new meanings .
iii. " The context and the nunation , and the indefinite " .

The last chapter in thesis is " the context , Sibawayh , and the declensional Theory " . It contains two researches :

A. "The definition of theory's term, and the most important traits of the scientific theary" . We mentioned here that the source of theory's term is the English language . We stated the important meanings of this term in English . We also refered to the meaning of theory's term in the philosophical dictionary . Its definition was "A system of generalized knowledge and explanation of different aspects of reality . … Theory differs from practice, since it spiritually or **mentally reflects and reproduces reality** . At the same time it is inseparably linked with practice, which places pressing problem before knowledge and requires it to solve them . For this reason practice is part and parcel of every theory" . We noticed through this definition that the philosophical dictionary associated with reality , and it **reflects and reproduces reality** .

   We also mentiond the relationship between the theory's term and Criterion of Truth's term . This term indicated to importance of " experience of society is capable of fully confirming or completely refuting the ideas engendered by man" .

B. "The declensional, and contextual theory " . In this research , we criticized the Regent's theory , and demonded that the Arabic declensional theory must depend on the context and its elements .



AIN SHAMS UNIVERSITY
Faculty Women

"The Context's Evidence And Its Role In Laying Down The Syntactical Rules And The Declensional Guiding In Sibawayh's Kitab"

A Thesis for obtainment the degree of doctorate,
by

Ehab Abd Alhameed Abd Alsadek Salama

Under the auspices of

Dr . Hosna Alzahhar
The assistant professor of Linguistics

Dr . Ameera Ahmad Yosif
The professor of Syntax and Morphology